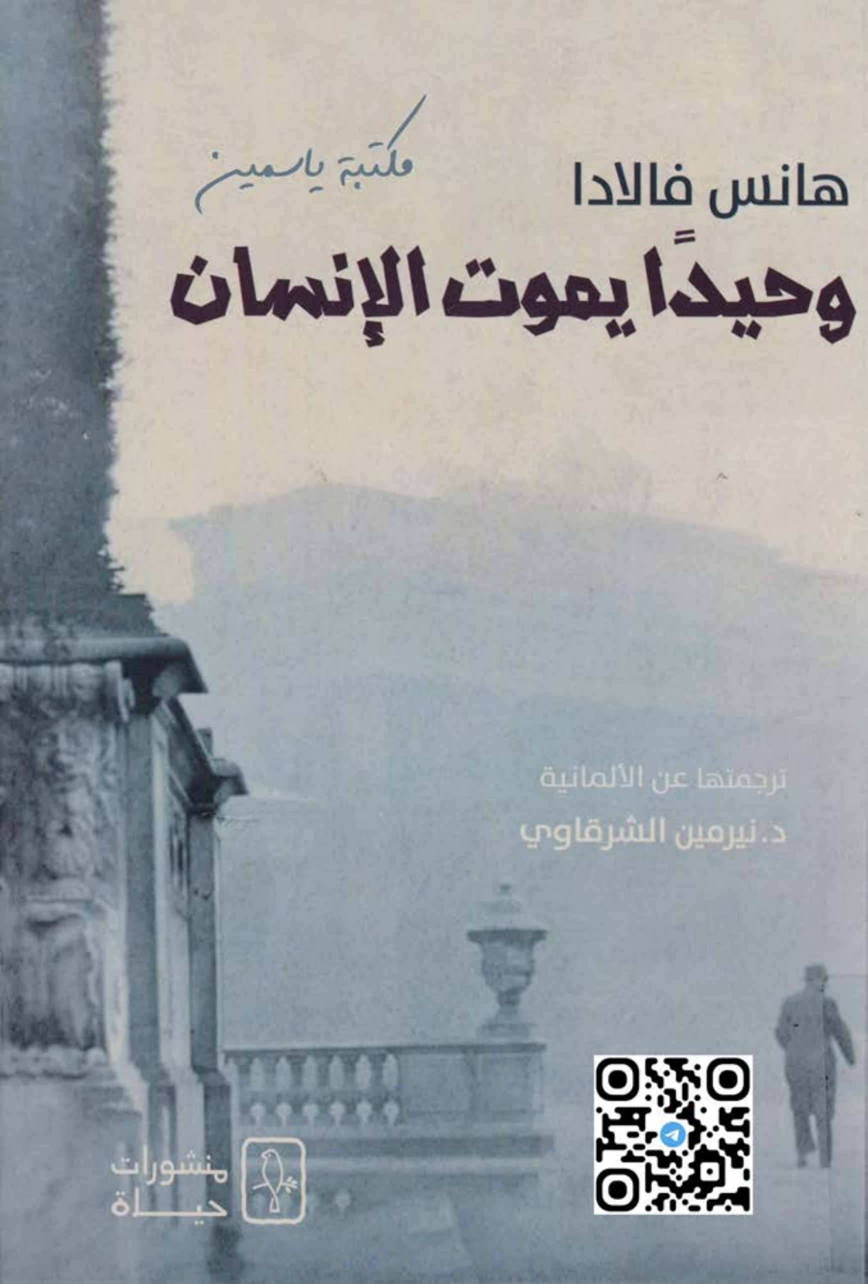

مكتبة ياسمين

هانس فالادا

وحيدًا يموت الإنسان

ترجمتها عن الألمانية

د. نيرمين الشرقاوي

منشورات حياة

يسعدنا انضمامكم إلى قناة

مكتبة ياسمين

معكم نكبر ونستمر بشكل جديد

وحيدًا يموت الإنسان

الكتاب: وحيدًا يموت الإنسان

العنوان الأصلي: Jeder stirbt für sich allein

المؤلف: هانس فالادا

الترجمة: د. نيرمين الشرقاوي

التدقيق اللغوي: حازم أبو المجد

التنسيق الداخلي: ضياء فريد

تصميم الغلاف: عبد الفتاح بوشندوقة

telegram @
yasmeenbook

عدد الصفحات: 864

الترقيم الدولي: 978-1-998800-31-5

الطبعة الأولى: 2025

جميع الحقوق محفوظة

منشورات حياة

يمكن شراء إصداراتنا من المتجر الإلكتروني:

hayat-publishing.com

وحيدًا يموت الإنسان

رواية

هانس فالادا

telegram @
yasmeenbook

ترجمة

د. نيرمين الشرقاوي

مكتبة ياسمين
telegram @
yasmeenbook

عن هذا الكتاب

كُتبت هذه الرواية بناءً على التحريات التي احتوتها ملفات الجيستابو، وصدرت عام 1949 بعد وفاة المؤلف الذي يُعدُّ روائيًّا ألمانيًّا ذائع الصيت. ترسم الرواية مصير الزوجين جْفَانْجِل، المنتميَيْنِ إلى طبقة العمال، اللذَين خاطرا بأنفسهما في سبيل معارضة النظام النَّازي، بعد أن زلزل كِيانهما موتُ ابنهما على الجبهة. إذ صار أرباب الأعمال الخاصة يُفاجَؤُون في صناديق بريدهم ببطاقات تحوي صيحات «مناهِضة للدولة». ولعامين كاملين قاد كلا العجوزين هذا النضال الفردي، المأساوي، المُحال، ثم كشفتهما آلة النظام الشمولي وسحقتهما بوحشية.

وُلِد هانس فالادا، الذي يعدُّ مؤرخًا للعقود المضطربة التي أعقبت الحرب العالمية الأولى، في 21 يوليو 1893 في جرايفسفالد، وهو الابن البِكر لقاضي المقاطعة الذي صار لاحقًا مستشارًا في محكمة العدل الإمبراطورية، وتُوُفي في 5 فبراير 1947 في برلين ـ بانكوف.

بعد دراسة أولية في العلوم الإنسانيَّة، عمل فالادا لسنوات في مهن متعدِّدة، إذ عمل مسؤولًا زراعيًّا، ومحاسبًا، وزارعًا للبطاطس، وحارسًا ليليًّا، ومعاونًا تجاريًّا، ومسؤولَ دعاية وإعلان. ظهرت

روايته الأولى عام 1931 بعنوان «فلاحون، وفاسدون، وقنابل»*، ولاقت نجاحًا عظيمًا وقد حفَّزه على كتابتها عمله مراسلًا إخباريًا إبان محاكمات الفلاحين في نويمونستر عام 1929. ثم صدرت رواية «أيها الرجل الضئيل.. ماذا الآن؟» عام 1932، وهي رواية موضوعها البطالة، وقد حقَّقت له شهرة عالمية إذ تُرجمت إلى عشرين لغة وحُوِّلَت إلى فيلم مرتين. تلتها في الصدور رواية تنتمي إلى أدب السجون نشرت عام 1934 بعنوان «من يأكل مرة في وعاء الصفيح».

تعرَّض الكاتب في السنوات التالية لهجوم لاذع بسبب رواياته التي تنتقد بحدَّة الأوضاع السياسية والاجتماعية، ما اضطره إلى أن يتجنَّب مؤقتًا إشكاليات الواقع الاجتماعي. وفي أعقاب ذلك هرب فالادا من برلين إلى بيت ريفي في ميكلينبورج، وتواكب مع ذلك هربُه من حاضره المعذب إلى ماضيه الخاص. وإلى هذا التذكُّر يُعزَى الفضل في نشر كتاب «آنذاك في بيتنا»، الذي يسطر فيه الكاتب ذكريات بواكير شبابه، ثم الإطلالة على عالمه الشخصي من خلال كتاب «اليوم في بيتنا».

كتب هانس فالادا أيضا رواية «السِّكير»، ورواية «ذئب بين الذئاب»، ورواية «الرجل الضئيل، الرجل العظيم - كل شيء مستبدَل»، ثم رواية «رجل يريد أن يصعد»، ورواية «انتصار ليزشِن»، أيضًا «يومًا ما كان لنا طفلٌ»، ثم «زوسمِلش يتكلم».

---

* جميع الأعمال المذكورة بالترتيب طبعة دار "روروورو" مجلدات 651، 1، 54، 136، 232، 333، 1057، 1316، 1584، 4571، 78.

وفي سلسلة «دراسات روفولت» ظهر المجلد رقم (78) من تأليف يورجين مانتي. يستعرض المجلد حياة هانس فالادا وآثاره، مقترنة بشهادات شخصيَّة وصور توثيقيَّة، كما يضمُّ ثَبَتًا تفصيليًّا بكل مصنَّفاته.

تصدير

تسير أحداث هذا الكتاب وَفق ما ورد في ملفات الجيستابو حول النشاط غير الشرعي لزوجين من عمال برلين في الفترة ما بين عامي 1940 - 1942. لكنها تتبع خطواتهما في محطاتها الكبرى ليس إلَّا، إذ للرواية قوانينها الخاصَّة، التي لا تتطابق مع الواقع في كل تفاصيله. ولهذا تجنَّب المؤلف أن يجمع معلومات حقيقيَّة عن الحياة الخاصَّة لهذين الزوجين. بالتالي تعيَّن عليه أن يصوِّرهما كما تَبَدَّيَا لعينيه. إذًا فهما شخصان من صنيعة الخيال، مُختَرَعَيْنِ مثلهما مثل سائر شخصيَّات هذه الرواية. ورغم ذلك فإن المؤلف يؤمن بالحقيقة الداخلية لِما رواه، حتى لو لم يتطابق مع تفاصيل الظروف الفعلية.

وسيجد بعض القراء في هذا الكتاب كثيرًا من العذاب والموت. والمؤلف يسمح لنفسه أن يلفت النظر إلى أن الحديث فيه يدور حصريًّا حول البشر الذين حاربوا نظام هتلر، وعن مضطهِديهم. وفي هذه الدوائر لقي كثيرون حتفهم بين عامي 1940 - 1942 وما قبلها وما بعدها. إن ثلث هذا الكتاب تقريبًا يدور في السجون، وفي المصحَّات العقلية، التي ارتفعت فيها أيضًا معدلات الموت. لم يرُق المؤلفَ ـ في معظم الأحيان ـ أن يرسم مثل تلك اللوحة القاتمة، لكنَّ أيَّ شعاع ضوء يتخلَّل تلك العَتَمَة ما كان ليعني سوى الكذب.

هانس فالادا   *برلين. أكتوبر 1946*

الجزء الأول

آل جِفَانْجِل

1

نبأ سيئ يصل في البريد

تصعد ساعية البريد إيفا كْلُوْجِه ببطء درجات سلم المنزل رقم 55 الكائن في شارع يابْلونْسْكِي. لا تثقل خطواتها لأن دورة العمل أتعبتها فحسب، بل لكونها تكره تسليم واحد من الخطابات التي تحملها في حقيبتها، وسيتعيَّن عليها الآن ـبعد صعود درجتين فقطـ تسليمه إلى آل جْفَانْجِل.

قبل ذلك يتعيَّن عليها تسليم خطاب تدريب لآل بِيرْزِيكِه في الطابق الأسفل. يعمل السيد بِيرْزِيكِه موظفًا إداريًا أو مسؤولًا سياسيًا في الحزب أو شيئًا من هذا القبيل، فكل تلك الوظائف لا تزال تختلط على إيفا كْلُوْجِه. على أيِّ حال لا بد من إلقاء التحية النازية «هايْل هتلر!» على آل بِيرْزِيكِه، وأن تتخيَّر الكلمات التي تتلفَّظ بها. هذا ما يتوجَّب عليها فعله في العموم. فنادرًا ما تجد إيفا كْلُوْجِه إنسانًا يمكنها أن تخبره بأفكارها الحقيقيَّة. ليس لإيفا كْلُوْجِه أيُّ توجُّه سياسي على الإطلاق، هي امرأة ببساطة، وكونها امرأة؛ فهي لا تعتقد أن المرء يجلب أطفالًا إلى هذا العالم ليُقتَلوا رميًا بالرصاص. وترى أيضًا أن بيتًا بلا رجل هو بيت بلا قيمة. وهي ـإلى أجل غير مسمًىـ لم يعد لديها أي منهم، لا الولدَانِ ولا الرجل ولا البيت. وبدلًا من ذلك عليها إبقاء فمها مغلقًا وأن تكون شديدة الحذر، وأن

تُوزِّع الرسائل الفظيعة التي تأتي من ميدان القتال، تلك الرسائل غير المكتوبة بخط اليد، بل على الآلة الكاتبة وتحمل في خانة اسم المرسِل اسم قائد الكتيبة.

تضغط على جرس باب آل بِيرْزِيكِه، وتؤدي تحية «هايل هتلر!»، وتسلم العجوز السكير خطاب التدريب. تحقَّقَ من وضع شارة الحزب والقيادة العليا على طية سترته ثم سألها بلكنته البرلينيَّة:

- ها، وما الجديد؟

- ألم تسمع بالنبأ العاجل؟ لقد استسلمت فرنسا.

لم يكن بِيرْزِيكِه راضيا عنها البتَّة:

- يا مخلوقة! يا آنسة، أعرف هذا بالطبع. لكنك تقولينه كأنك تبيعين خبزًا بائتًا! انطقيه بقلب! إنها وظيفتك أن تخبري كلَّ من لا يمتلك مذياعًا حتى يقتنع آخر المتبرِّمين! الحرب الخاطفة الأخرى قيد الإعداد الآن، وسيكون الدور على إنجلترا. وفي غضون ثلاثة أشهر سنقضي على أبناء العم توم، ثم ننظر بعدها كيف سيجعلنا قائدنا المفدَّى نعيش! فلينزفِ الآخرون، لأننا أسياد العالم! ادخلي يا فتاة، واشربي معنا بعض الخمر. يا آماليا، يا إيرنا، يا أوغوست، يا آدولف، يا بالْدُور، تعالوا جميعًا إلى هنا! اليوم نتغيب عن أشغالنا! اليوم لن نعمل على الإطلاق! اليوم نقرع الكؤوس نخب الأخبار، وبعد الظهر نصعد إلى اليهودية الشمطاء في الطابق الرابع ونجعلها تقدِّم لنا القهوة والكيك! أقول لكم، يجب أن تعلم تلك الشمطاء أني لن أرحمها بعد اليوم!

وفيما تتحلَّق الأسرة حول السيد بِيزْزِيكِه وهو ينخرط في كلام مستفيض ويصب الخمر في الكؤوس، كانت ساعية البريد قد صعدت إلى الطابق الذي يعلوهم ورنت جرس باب آل جْفَانْجِل. تُمسك في يدها الخطاب، وتَعِدُ نفسها لتسارع بالفرار بمجرد أن تُسلِّمهم إياه. ومن حسن حظها أن المرأة التي عادةً ما تتبادل معها بعض الكلمات الودودة لم تكن هي التي فتحت لها، بل الرجل الذي يشبه وجهُهُ وجه طائر بفمه ذي الشفتين الدَّقيقتين وعينيه الباردتين. لقد سحب الخطابَ من يدها دون كلمة واحدة، ثم أغلق الباب في وجهها، كأنها لصة عليه أن يتوخَّى منها الحذر.

ترفع إيفا كْلُوْجِه كتفيها وتخفضهما ثم تنزل درجات السلم. بعض الناس على هذه الشاكلة؛ لقد ظلَّ على تلك الحال منذ بدأَتْ في توزيع رسائل البريد في شارع يابْلونْسْكِي، ولم يتبادل معها كلمة واحدة. فتركته لحاله؛ لن تستطيع أن تغيرّه. هل استطاعت أن تغيّر زوجها الذي لا يغادر الحانات وينفق كل أمواله على الرهانات ولا يظهر إلا بعد أن يكون قد أفلس تمامًا؟

ترك آل بِيزْزِيكِه باب الرَّدهة مفتوحًا، تنساب منه أصوات قرع الكؤوس وضوضاء احتفالات النَّصر. تُحكِم ساعية البريد إغلاق الباب بخِفَّة وتُواصل هبوط الدرج. تفكِر أن هذا خبر جيد، فالانتصار على فرنسا يعني اقتراب تحقيق السلام، وبهذا يمكن لولديها أن يرجعا.

لم يزعجها في تلك الأمنيات سوى الشعور غير المريح بأن أمثال آل بِيرْزِيكِه سيكونون عِلْيَة القوم. حين يكونون كذلك، وهم أسياد البلاد سيتعيَّن على المرء أن يغلق فمه دائمًا وألَّا يفصح عما يعتمِل في قلبه. لم يَبْدُ لها هذا أيضًا وضعًا سليمًا. ومرَّ سريعًا بخاطرها الرجل ذو الوجه الذي يشبه وجه الطائر، الذي سلَّمته للتو الخطاب الآتي من ميدان القتال. تفكِّر أيضًا في اليهودية العجوز روزِنْتال في الأعلى بالطابق الرابع، التي ألقى الجيستابو القبض على زوجها قبل أسبوعين. كم ترثَى لحال تلك المرأة! كان لآل روزنتال مغسلة في شارع برينسلاور، صودِرت المغسلة واقتيد الرجل إلى الحبس، رغم أن سِنَّه لا يمكن أن تقل عن السبعين وقد تزيد. لم يُؤذِ العجوزان أيَّ أحد قط، وكانا يقبَلان (البيع بالآجل) من الجميع، ومنها هي أيضًا حين لا يكون معها مالٌ يكفي لغسل ملابس الأولاد. كما أن البضاعة في محل رُوْزِنْتال لم تكن أسوأ ولا أغلى من المحالِّ الأخرى. كلا. لا تقتنع السيدة إيفا كْلُوْجِه بأن السيد رُوْزِنْتال يمكن أن يكون أسوأ من السيد بِيرْزِيكِه، لا لشيء سوى أن الأول يهودي. والآن تعيش السيدة رُوْزِنْتال العجوز في بيتها وحيدة تمامًا ولم تعُد تجرؤ على النزول إلى الشارع. فقط حين يخيِّم الظلام تخرج لشراء مستلزماتها مبرزةً الشَّارة الصفراء التي فرضِ النازيُّون على اليهود ارتداءَها. ربما تتضوَّر جوعًا. «كلا...» تُفكِّر إيفا كْلُوْجِه.. «حتى لو أننا انتصرنا على فرنسا عشرات المرات فهذا لا يعني أن أوضاعنا هنا عادلة».

وبهذه الأفكار دخلت إلى المنزل التالي من أجل أن تبدأ دورة جديدة من تسليم الخطابات.

في هذه الأثناء دخل السيد جْفَانْجِل إلى حجرة المعيشة وفي يده الخطاب القادم من ميدان الحرب ووضعه على مَكِنَة الخياطة: «هاكِ!». لقد كان دائمًا ما يترك لزوجته حقَّ السَّبْق في فتح مثل تلك الخطابات، لعلمه بمدى تعلُّقها بابنها الوحيد أُوتُّو. والآن يقف هو قبالتها وقد سحب شفته السفلى الدقيقة بين أسنانه، مترقبًا اللحظة التي سيشرق فيها وجهها ببريق الفرح. فهو ـ رغم كلماته المقتضبة، وصمته الطويل، وأسلوبه الفظ ـ يحب هذه السيدة على طريقته، يحبها كثيرًا.

مزَّقَتِ الخطاب وهي تفضُّه، ولوهلة أشرق وجهها فعلًا، ثم انطفأ حين رأت المكتوب بالآلة الكاتبة. تَلَبَّس الخوف قسمات وجهها، وتباطأ إيقاعها في القراءة، كأنها تخشى كل كلمة قادمة. أحنى الرجل ظهره وأخرج يديه من جيوب سرواله، وأسنانه مغروزة بقوة في شفته السفلى مستشرفًا نذر السوء. يخيِّم على الحجرة صمت مطبق. ثم تتهدج أنفاس المرأة.

وفجأة تندُّ عنها صرخة خافتة، بصوت لم يسمعه زوجها من قبل قط. يسقط رأسها أمامها، فيصطدم أولًا بِبَكَرِ الخيط على المَكِنَة ثم يسقط فوق ثنيات القماش الذي كانت تخيطه، فيغطي الخطابَ المشؤوم.

مكتبة ياسمين
telegram @
yasmeenbook

يقف جْفَانْجِل وراءها بخطوتين، وبسرعة غير معهودة فيه يضع يده المنهَكة على ظهرها، فيشعر أن بدن زوجته يرتجف بالكامل. «آنَّا!» ناداها. «آنَّا، من فضلك!». انتظرَ لحظة ثم استجمع شجاعته ليسأل:

- هل أصيب أُوتُّو بمكروه؟ هل جُرِح؟ ما حاله؟ هل إصابته خطيرة؟

ظلت الرجفة تسري في بدن المرأة، لكن لا صوت يندُّ عن شفتيها. لم تحاول حتى أن ترفع رأسها وتنظر إليه.

نظر إلى مفرق رأسها، لقد أصبح ناحلًا على مرِّ سنوات زواجهما. والآن صارا عجوزين طاعنين في السنِّ. لو أنه بالفعل مكروهٌ قد وقع لأُوتُّو، فلن يكون لها أحد ولن تحصل على أحد يمكن لها أن تحبَّه. لن يكون أمامها إلَّاه، وهو يشعر دائمًا أنه أقلُّ من أن يُحَب. ولا يستطيع أبدًا، ولا بأي كلمة، أن يخبرها كم هو متعلِّق بها. حتى في هذه اللحظة لا يستطيع أن يمسح على ظهرها، أو أن يرِقَّ لها قليلًا، من أجل مواساتها. إنه فقط يضع يده الثقيلة على مفرق رأسها ليجبر رأسها بلطف على الالتفات نحوه، ثم يقول بصوت مرتفع قليلًا: ستخبرينَني يا آنَّا بما كتبوه إلينا. أليس كذلك؟

لكن، رغم أن عينيها الآن قريبة جدًّا منه، لم تنظر إليه، وظلَّت تُحكم إغلاقهما. امتقع وجهها بصُفرة الشحوب، وهربت منه كل ألوان النضارة. حتى لحمها الذي يكسو عظامها بدا كأنه قد هلك، وبدا جْفَانْجِل كأنه يطالع رأسًا ميْتًا. فقط الوجنتان والفم يرتعشان، مثلما يرتعش جسدها كله، كأن زلزالًا غامضًا قد ضربه.

كم يريد السيد جْفَانْجِل أن ينظر في هذا الوجه المألوف الذي أضحى غريبًا، كم يشعر بخفقان قلبه يزيد، كم يشعر بعجزه الكامل عن إعطائها بعض العزاء، كم يسمح لكل هذا الخوف بأن يستولي عليه! في الواقع إنه خوف مثير للضحك إذا ما قُورن بالألم الشنيع الذي نال من زوجته، إنه الخوف من أن تبدأ في الصراخ، بصوت أعلى وأقوى من الصرخة التي ندت عنها منذ قليل. لقد كان دائمًا يؤْثِر الهدوء، لا ينبغي لأحد في البناية أن يعرف شيئًا عن آل جْفَانْجِل. خصوصًا ما يتعلق بالمشاعر. كلا. لا ينبغي أبدًا إظهارها بصوت عال. مطلقًا! لكن حتى في خوفه هذا لا يستطيع الرجل أن ينبس بأكثر مما قاله سابقا: «ماذا كتبوا؟ هيا يا آنا، أخبريني!».

ورغم أن الخطاب موضوع أمامه ومفتوح، لا يجرؤ على لمسه. وسيتعيَّن عليه لفعل ذلك أن يفلت رأس امرأته. وكان يعرف أنه في اللحظة التي سيترك فيها هذا الجبين، الذي بالفعل قد ظهرت على صفحته آثار بقعتين من الدم، فإنه سيسقط مجددًا على مَكِنَة الخياطة.

يستجمع نفسه ويسأل مجددا: «ماذا حدث لِأُوتُّوشِن؟».

بدا الأمر كأنَّ التدليل بـ«أوتُّوشِن» أي «أُوتُّو الصغير» ـ الذي لم يستعمله الرجل مطلقًا من قبل ـ قد ردَّ المرأة من عالم آلامها إلى هذه الحياة. نشجت عدة مرات، بل إنها فتحت عينيها اللتين عادةً ما تكونان شديدتي الزرقة، وتبدوان الآن شديدتي الشحوب.

- «أُوتُّوشِن؟!»، ؟! (قالت بما يشبه الهمس)

ماذا يمكن أن يحدث له؟ لن يحدث له شيء. إنه لم يعد موجودًا. لم يعد ثمة أُوتُّوشِن، هذا كل ما في الأمر!

- أوه!

لم ينبس الرجل بغيرها. «أوه» عميقة خارجة من سويداء فؤاده. ودون أن يدري إذ به يترك رأسٍ زوجته ويمسك بالخطاب. حدقت عيناه في الأسطر، دون أن يتمكن من قراءتها.

وعندها شدت المرأة الخطاب من يده. كانت منهارة وغاضبة، فمزقت الخطاب إلى مزق مفتتة ثم صاحت فيه:

- إلامَ تطيل النظر؟ ماذا تريد أن تقرأ بعدُ مِن هذه الورقة القذرة؟ تلك الأكاذيب الوضيعة التي يكتبونها للجميع؟ أنه مات ميتة الشجعان في سبيل الزعيم القائد والشعب! أنه ضرب مثالًا يحتذى لأقرانه من الجنود! هل هذا ما تريد أن يخبروك به؟ فيما كلانا يعرف أن أُوتُّو كان يفضِل لو تُرِك إلى جوار الراديو مستغرقًا في صنع المجسَّمات، وأنه حين اضطر إلى التجنيد ذهب دامع العينين! كم قال لي في وقت الخدمة إنه يفضِّل لو يخسر ذراعه فقط مقابل أن يتخلص من هؤلاء. الآن صار نموذجًا للبطولة وبسالة الجنود! أكاذيب! كلها أكاذيب! لكن هذا ما جنت أيديكم من هذه الحرب البائسة، أنت وزعيمك القائد!

تقف الآن أمامه. بقامتها الأقصر منه فيما يتطاير من عينيها شرر الغضب.

- «أنا وزعيمي القائد؟!»، ؟! (تمتمَ وقد اجتاحه تمامًا هذا الهجوم)

كيف أصبح هكذا فجأة زعيمي أنا؟ لم أكن قطُّ عضوًا في الحزب. أنا مجرد عامل على جبهة العمل التي يتعيَّن على الجميع أن ينضمُّوا إليها. ثم إننا لم ننتخبه إلا مرة واحدة، أنا وأنتِ.

يقول ذلك بطريقته المتكلفة البطيئة، ليس من أجل الدفاع عن نفسه، وإنما بغرض توضيح الحقائق. فهو لا يفهم ما الذي دفع المرأة إلى أن تشنَّ عليه فجأة هذا الهجوم. لطالما كانا متفقَيْنِ في الرأي.

لكنها تقول بانفعال محموم:

- ألست أنت رجل البيت، وفي يدك تقرير كل شيء؟ وكل شيء عليه أن يسير وَفق ما يدور في رأسك؟ وعندما يكون لي تحفُّظ على وجود البطاطس الشتوية في القبو ينبغي أن يسير كل شيء وفق إرادتك أنت، وليس كما أريد أنا؟ وفي مسألة مهمة كهذه اتخذتَ القرار الخاطئ. لست إلا رجلًا ماكرًا؛ لا تبحثُ إلا عن راحتك ولا تريد أن تلفت الأنظار إلى وجودك. لقد فعلت ما فعلوه جميعًا. وحينما هتفوا جميعًا «الزعيم يأمر وعلينا السمع والطاعة!» جريتَ وراء القطيع مثل الخروف. فكان لزامًا علينا نحن أن نتبعك! والآن صغيري أُوتُّو مات. وليس هناك زعيمٌ في العالم -ولا حتى أنت- يستطيع أن يعيده إليَّ!

سمع كل ذلك دون أن يعترض بكلمة. لم يكن قطُّ الرجل الذي يتشاجر. وقد كان يشعر أن ما يتحدَّث عبرها هو الألم. كان سعيدًا لغضبها، وأنها لم تترك للحزن مجالًا للتعبير عن نفسه. قال فقط

ردًا على كل تلك الاتهامات: «سيتعيَّن على أحد ما أن يُبلغ ترْودِل بالنبأ».

لقد كانت ترْودِل فتاة أُوتُّو الصغير، تكاد تكون خطيبته، حتى إنها تنادي والدَيْ أُوتُّو بأمي وأبي. وكثيرًا ما كانت تأتي إليهم في المساء، حتى بعد أن رحل أُوتُّو مُجنَّدًا، وتثرثر معهم. وفي الصباح تعمل في مصنع للبِزَّات العسكرية.

لقد دفع ذِكر ترْودِل آنا جْفَانْجِل إلى التفكير في أمور أخرى. ألقت نظرة على بندول الساعة الذي يبرق على الحائط:

- هل ستقدر على إنجاز ذلك قبل موعد ورديَّتك؟

- ورديَّتي اليوم من الواحدة إلى الحادية عشرة؛ سأنجز المسألة.

- جيد. اذهب الآن إذًا واسألها أن تحضر إلينا. لا تخبرها بأي شيء عن أُوتُّو الصغير؛ أريد أن أخبرها بنفسي. سيكون طعامك جاهزًا في الثانية عشرة.

- سأطلب منها المرور مساء اليوم.

قالها، بَيْدَ أنه لم يتحرَّك. وإنما نظر إليها في وجهها الشاحب المريض. نظرت إليه مجدَّدًا ولبعض الوقت ظَلَّا ينظر بعضهما إلى بعض صامتين. هذان اللذان أمضيا معًا ثلاثين سنة، وكانا دائمًا متآلفين. هو الصامت الهادئ دائمًا، وهي التي كانت تبعث بعض الحياة في البيت. ورغم أنهما أطالا النظر بعضهما إلى بعض.. لم يجدا ما يقولانه. لذا أومأ لها وانصرف.

سمِعَتْ صرير باب الرَّدهة. وبمجرد أن عرفت أنه مضى فعلًا عادت إلى مَكِنَة الخياطة. وبدأت تجمع قصاصات الورق الصغيرة التي حَوَتْ خطاب الميدان؛ حاولت وضعها في ترتيب مناسب، لكنها رأت أن هذا سيستغرق منها وقتًا أطول من اللازم. وهي يتعيَّن عليها أولًا وقبل أي شيء أن تُنهي إعداد طعامه. وضعَتْ بحرص فُتَات الورق الممزق في الظرف، ثم وضعت الأخير في كتاب الأناشيد الخاص بها. بعد الظهر، عندما يرحل أُوتُّو إلى عمله فعلًا، سيكون لديها متسع من الوقت كي تعيد ترتيب القصاصات ثم تلصقها. حتى لو أن الخطاب لا يحوي سوى أكاذيب حمقاء، أكاذيب وضيعة كلها، سيظل هذا آخر ما يمتُّ بصلة إلى أُوتُّو الصغيرِ! ستحتفظ به رغم كل شيء، وسَتُريه لتْرُودِل. ربما ساعتها قد تتمكَّن من البكاء. لكنها الآن تشعر بِشُعَلٍ من النيران تستعر في فؤادها. كم سيكون حسنًا لو أنها استطاعتً أن تبكي!

هزت رأسها غاضبة، ثم توجهت إلى الموقد.

2

الكلام الذي يحمله

تالذور بيزِبكه في جعبته

في اللحظة التي مرَّ فيها أُوتُّو جْفَانْجِل بجوار شقة آل بِيرْزِيكِه كانت الضوضاء تنطلق منها مختلطةً بصيحة النَّصر النازية «زِيج هايْل!». فسارع جْفَانْجِل خطواته كي لا يضطر إلى لقاء أحدَهم. لقد سكنوا معًا لعشرة أعوام في نفس المنزل، لكن جْفَانْجِل حرص من وقتها على تجنُّب أي لقاء يمكن أن يجمعه بهم، منذ أن كان بيرْزِيكِه مالكَ حانة وضيعًا خائبًا. أما الآن فقد صار آل بِيرْزِيكِه من عِلْية القوم. فكبيرهم صار يعمل في كل الوظائف الممكنة داخل الحزب، كما أن الابنين الأكبَرَيْنِ يعملان في الشرطة العسكرية؛ وصاروا ـ في ما يبدو ـ لا يحملون همًّا للمال.

لكن السبب الأكبر الذي يجعل تَوخِّيَ الحذر منهم أوجَبَ، هو أن كل من كانوا مثلهم، عليهم أن يحرصوا على رضا الحزب عنهم. وهم لن يستطيعوا فعل ذلك دون أن يقدموا شيئًا للحزب. وأن يقدموا شيئًا للحزب يعني أن يبلغوا عن الآخرين، مثلًا أن يتَّصلوا ليقولوا: «فلان وفلان استمعا إلى إذاعة أجنبية». وبسبب ذلك فقد جمع جْفَانْجِل أجهزة الراديو من غرفة أُوتُّو ووضعها في القبو، فالإنسان لا يمكن أن يكون حذرًا بما يكفي في هذه الأيام حيث كل واحد

هو جاسوس على غيره، والجيستابو يحكم قبضته على الجميع، ومعسكر الاعتقال في زاكسنهاوزن يكبر حجمه يومًا بعد الآخر. لكن جْفَانْجِل لم يكن في حاجة إلى الراديو. غير أن آنَّا هي التي اعترضت على استكمال الأمر، وكان رأيها أن المثل القديم ما يزال ساريًا.. «من كان ضميره نظيفًا نَعِمَ بالراحة».

وبهذه الأفكار أسرع جْفَانْجِل في هبوط الدرج وعَبَرَ الساحة إلى الشارع.

أما آل بِيرْزِيكِه فقد عَلَا صياحهم لأن نور العائلة وشمعتها هو برونو ـالذي يسمُّونه الآن شيراخ بَالْدُوْرـ حتى لو أن والده هو الذي نجح ـبسبب علاقاتهـ في إدراج اسمه للالتحاق بمدرسة التربية النازية «نابولا». إذ وَجَدَ بَالْدُوْر صورة في جريدة «مراقب الشعب» يرى فيها الزعيم القائد مع المارشال جوريج، فيما التعليق أسفل الصورة يفيد: «وقت تلقي خبر استسلام فرنسا». أما الصورة فيظهر فيها جوريج ضاحكًا بكل ملامح وجهه والزعيم يضرب على فخذيه ابتهاجًا.

وقد سعد آل بِيرْزِيكِه وضحكوا مثل مَن كانوا في الصورة، لكن بَالْدُوْر سأل: «ألم يلفت نظركم في الصورة شيء خاص؟»

حدقوا إليه منتظرين، فَهُم مقتنعون تمامًا بالتفوُّق العقلي لذلك الصبي ذي الستة عشر عامًا، لدرجة أن أحدًا منهم لا يجرؤ على النطق بتخمين.

- «ها! » (يقول بَالْدُوْر)

فكروا قليلًا، لقد التُقطت الصورة بواسطة مصور صحفي. هل كان يقف إلى جوارهم وقت إعلان الاستسلام؟ لا بد أن الخبر بلغهم عبر الهاتف أو البريد أو ربما حتى عبر جنرال فرنسي، ومن كل ذلك لا يظهر شيء في الصورة. يقف الاثنان وحدهما في الحديقة ويتضاحكان.

يجلس والدا بَالْدُوْر وإخوته صامتين محدقين إليه. تكاد أمارات البلاهة تظهر على وجوههم من فرط الترقُّب. يتمنَّى بِيرْزِيكِه العجوز لو أنه يسمح لنفسه بكأس خمر أُخرى لكنه لا يجرؤ على ذلك ما دامَ بَالْدُوْر يتحدَّث. فهو يعرف من خبرته أنه يصبح أحيانًا مزعجًا بشدة، حينما لا يُوْلُون مرافعاته السياسية اهتمامًا كافيًا.

وفي هذه الأثناء يواصل الابن كلامه:

- الصورة إذًا مصنوعة. إنها ليست مُلتَقَطَة في لحظة تلقِّي خبر الاستسلام، وإنما في وقت أسبق. والآن تأملوا كيف يبدو الزعيم وهو سعيد! لا بد أنه يفكر الآن في إنجلترا، وكيف سننال من الأوغاد أبناء العم توم. كلًّا. ما الصورة إلا مجرد تمثيلية. من أول اللقطة إلى التصفيق باليدين. إنها مجرد ذَرٍّ للرماد في عيون الحمقى!

والآن يحدق أهل بَالْدُوْر إليه كأنهم هم الحمقى المقصودُ ذَرُّ الرماد في أعينهم. لو أن شخصًا آخر غير بَالْدُوْر.. لو كان أي شخص غريب هو الذي قال هذا الكلام لكانوا أبلغوا عنه الجيستابو بسبب تلك الملاحظة!

غير أن بَالْدُوْر يواصل الكلام:

- أترون؟ هذا هو مكمن العظمة في زعيمنا القائد؛ إنه لا يُطلع أحدًا على مخطَّطاته. سيظنون جميعًا أنه مُلْهَى بالابتهاج باستسلام فرنسا، فيما هو غالبًا يجمع السفن من أجل غزو الجزيرة. أترون؟ هذا ما ينبغي أن نتعلمه من قائدنا: لا ينبغي أن نعلن للقاصي والداني من نحن وماذا ننوي!

يهز الآخرون رؤوسهم بحماسة، فقد فهموا أخيرًا مقصد بَالْدُوْر من الكلام.

- «أجل، أنتم تومئون برؤوسكم» (قال بَالْدُوْر غاضبًا)

لكنكم تتصرَّفون على نحو مغاير تمامًا. قبل نصف ساعة وجدتُ أبي يقول لساعية البريد إنه سيسأل اليهودية الشمطاء أن تعطِيَنا قهوة وكعكًا...

- «أَخْ! الخنزيرة اليهودية الشمطاء! (قال بِيرْزِيكِه الأب، لكن بنبرة اعتذارية في صوته)

- «أجل. صحيح».. (أَقَرَّ الابن)

صحيحٌ لن تثور ثائرةٌ إن أصاب تلك أي مكروه. لكن لماذا تحكي للبشر من الأساس؟ انظر مثلًا إلى الناس الذين فوقنا، آل جْفَانْجِل. لا تحصل على أي كلمة من ذلك الرجل. ورغم ذلك أنا متيقِّن تمامًا أنه يرى كل شيء ويسمع كل شيء وسيكون له مكانه دائمًا أينما سجَّل نفسه. ماذا لو أنه أبلغ بأن آل بِيرْزِيكِه لا يمسكون لسانهم، وأنهم ليسوا أهلًا للثقة، فلا تعتمدوا عليهم؟! هذا من شأنه أن يُسْلِمَنا إلى العقاب، يسلمك أنتَ على الأقل يا أبي. ولو حدث فلن أحرِّك إصبعًا من أجل الإفراج عنك، سواء كنتَ في معسكر

التعذيب أو في حَيِّ مُوَابيت أو في أي جحر أو في الكرسي الذي تجلس عليه الآن.

خيَّم الصمت على الجميع. وحتى بالنسبة إلى شخص موهوم مثل بَالْدُوْر لم يصعب عليه إدراك أن هذا الصمت لا يعني موافقتهم جميعًا على كلامه. لذلك عاجل بالقول، على الأقل من أجل أن يكسب أشِقَّاءه إلى صفه:

- نريد كلنا أن نصبح شيئًا أكثر قليلًا من أبينا، وكيف يمكن أن نصل إلى ذلك؟ لا سبيل إلا من خلال الحزب! وعلينا أن نفعل مثلما يفعل الزعيم؛ نذرُّ الرمادَ في أعين الناس. نتصرَّف كأننا ودودون، ثم بعدها -حين لا يتوقع أحد- ننهي المسألة ونختفي. ولا بد أن يقال في الحزب «إن مَن مَعه آل بِيرْزِيكِه يستطيع أن ينجز أيَّ شيء، ببساطةٍ أيَّ شيء!».

ومرةً أخرى يتأمل صورة هتلر الضاحك وجورينج، يومئ سريعًا، ثم يصبُّ الخمر كأنها علامة على انتهاء محاضرته السياسية.

لا تقلب وجهك يا أبتِ لمجرد أني أخبرتُك برأيي.

- أنت ابني، ابني الذي بالكاد أتمَّ عامه السادس عشر..

- شرع الأب يقول وهو لا يزال مستاءً.

- وأنت العجوز الذي طالما رأيتُه مخمورًا وهو يحاول أن يقوم على تربيتي.

ردَّ بَالْدُوْر بِيرْزِيكِه بسرعه فأثار الضحكات، وكسب الجميع إلى صفه، خصوصًا الأم الخائفة دائمًا.

- دعِ الأمر يا أبي؛ يومًا ما سنقود سيارتنا الخاصَّة. وستحصل كل يومٍ على الشامبانيا كما تشاء فَتَعُبُّ منها حتى تمتلئ وتفيضَ!

يريد الأب مرة أخرى أن يقول شيئًا، لكنه هذه المرة بخصوص الجعة التي يفضِّلها أكثر من الشامبانيا. غير أن بَالْدُوْر يواصل الكلام أسرع وبصوت أخفض:

- أفكارَكَ ليست سيِّئة على الإطلاق يا أبي. عليكَ فقط ألَّا تتحدَّث بها إلى أحد سوانا. أمَّا رُوْزِنْتال فنستطيع أن نفعل شيئًا حيالها أهمَّ بكثير من الحصول على القهوة والكعك. دعني أفكر مليًّا في ذلك؛ هذه مسألة لا بد من التعامل معها بحذر، فلربما يشمُّ غيرنا رائحة الصيد ولربما كانوا أفضل منا استعدادًا لِشَيِّ الفريسة!

هبط صوته درجاتٍ حتى أضحى بالكاد مسموعًا. لقد فعلها بَالْدُوْر بِيزْزِيكِه مرة جديدة؛ لقد نجح في كسب الجميع إلى صفه، حتى أبيه المخمور. ولهذا يقول أخيرًا: «فلنشرب نخب استسلام فرنسا!»، ولأنه يضرب فخذيه ضاحكًا، يلاحظ الجميع أنه يعني شيئًا مختلفًا تمامًا. إنه يقصد العجوز رُوْزِنْتال.

تتصاعد ضوضاؤهم وتُقرع أنخابهم ويشربون الخمر كأسًا تلو الأخرى. لرؤوسهم قابلية لِتَحَمُّل الكثير، ذلك الرجلِ العجوز صاحبِ الحانة وأبنائه.

3

رجل يدعى بوزكهاوزن

خرج رئيس العمال جْفَانْجِل إلى شارع يابْلونْسْكِي والتقى أمام باب المنزل إِيمِيلْ بُوزْكهاوْزِن الذي كان واقفًا في الجوار. يبدو الأمر كأن وظيفة إيمِيلْ بُوزْكْهاوْزِن الوحيدة هي أن يقف في مكان ما ثم يبدأ في الثرثرة حول أيِّ أمر سمعه هنا أو هناك. لم تغيِّر الحرب من ذلك شيئًا رغم المناشدات التي تعلو في كل مكان حول الخدمة الإلزامية والعمل القسري. رغم كل ذلك ظلَّ عمل بُوزْكْهاوْزِن هو التسكع في الجوار.

كان يقف هناك كهيكل طويل يابس يرتدي بدلة مستهلَكَة، وبدا نكِدًا بوجهه الذي فارقه اللون، متسكعًا في شارع يابْلونْسْكِي الذي يخلو في هذه الساعة من أيِّ بشر. وحين دخل جْفَانْجِل في مجال بصره تحرَّك شيء داخله. توجَّه ناحيته ومدَّ يده بالسلام:

- أين تذهب الآن يا جْفَانْجِل؟ هذا ليس ميعاد ذهابك إلى المصنع!

تجاهل جْفَانْجِل اليد الممدودة وغمغم بردٍ لا يكاد يُفهم:

- مشوار سريع!

وهو يواصل طريقه إلى شارع برينسلاور. أكان ينقصه أيضًا أن يقابل هذا الثرثار ثقيل الظل؟!

غير أن ثقيل الظل هذا لم يكن ليرتدع بتلك السهولة؛ أطلق ضحكة كأنَّه يثغو ثم قال:

- طريقنا واحد يا جْفَانْجِل! (وفيما الآخر يخطو بعناد في طريقه المستقيم، أضاف)

لقد أوصاني الطبيب بكثرة الحركة للتخلص من الإمساك، لكن المشي بمفردي يضجرني!

يبدأ الآن ـبدقَّةٍـ سردَ كل الإجراءات التي اتَّخَذَها ليتخلَّص من الإمساك. أما جْفَانْجِل فلم يُعِره أذنًا مصغية، فقد كان منشغلًا بفكرتين لا ثالث لهما، لا يكاد ينشغل بواحدة حتى تدفعها الأخرى: أنه لم يعد لديه ابن، وأن آنًا قالت «أنت وزعيمك». اعترفَ جْفَانْجِل بينه وبين نفسه بأنه لم يحب ذلك الفتى قَطٌّ مثلما ينبغي أن يحب الأب ابنه. ومنذ مولده لم يعتبره إلا دخيلًا أتى ليزعج هدوءه، ويوتِّر علاقته بآنًا. إن كان يشعر الآن بالألم فذلك يعود إلى قلقه بشأن حال آنًا؛ كيف تستقبل هذا الموت؟ وكيف ستتغيَّر الأحوال نتيجةَ ذلك؟ لقد قالت له آنا فعلًا: «أنت وزعيمك»!

هذا غير صحيح؛ هتلر لم يكن زعيمه، أو بالأحرى لم يعد زعيمه بأكثر مما هو زعيم لآنًا نفسها. لقد كانا دائمًا متفقين في الرأي، أن الزعيم هو الذي استطاع أن ينتشل العربة من المستنقع حينما أفلست ورشة النجارة. إذ بعد أربعة أعوام من البطالة أصبح جْفَانْجِل ـبدءًا من 1934- رئيس قسم في مصنع الأثاث الكبير. وصار في كل الأسابيع يعود بأجرته الأربعين ماركًا إلى البيت، وبها استقرت أحوالهم على نحو طيب.

لكن ذلك لم يحملهم على الانضمام إلى الحزب، لقد ندِمَتْ مرة على دفع المساهمة إلى الحزب، إذ شعروا بالاستنزاف من كل الزوايا والأطراف، مساهمة لمعونة الشتاء، مساهمة لكل التجمعات الممكنة، ومساهمة مدفوعة إلى جبهة العمل. أجل، وفي جبهة العمل حمَّلُوه عبئًا إضافيًّا في المصنع، وكان هذا هو السبب الآخر في عدم دخولهما إلى الحزب. لأنه كان يرى كيف يحدث التمييز دائمًا ما بين رفاق الشعب ورفاق الحزب، وقد كان دائمًا أسوأُ رفاق الحزب أفضلَ في عيونهم من أفضلِ رفيق من الشعب. وحين ينضم الواحد إلى الحزب فإنه يسمح لنفسه بكل شيء، لأنه لا يحيق به أذى بسهولة. لقد أطلقوا على ذلك «مقابلة الولاء بالولاء».

أما هو ـ رئيس القسم أُوتُّو جْفَانْجِل ـ فلقد كان دائمًا مؤيِّدًا للعدالة، فكل إنسان في عينيه مجرد إنسان فحسب، بغض الطرف عن انضمامه إلى الحزب من عدمه. لطالما ضاقت نفسه في الورشة حين يشهد أن أحدهم جُوْزِيَ بسبب خطأ صغير، فيما آخرُ متروك رغم أنه يُسلِّم غثاء بعد غثاء. كان يضع أسنانه على شفته السفلى ويعضُّها بكل غيظ، ولو كان يستطيع لترك ذلك المنصب الصغير الذي عيَّنَتْهُ فيه جبهة العمل الألمانية منذ زمن بعيد!

لقد كانت آنَّا تعلم ذلك جيِّدًا؛ ما كان ينبغي لها أن تقول ما قالت: «أنت وزعيمك»! آنا لم تكن مضطرة إلى ما اضطرَّ هو إليه. يا إلهي! إنه يتفهَّم بساطتها وخضوعها وتحوُّلها المفاجئ الآن. لقد قضت حياتها تعمل خادمةً، في الريف أولًا، ثم هنا في المدينة. وطوال حياتها وهي تَخُبُّ بين المهمات التي تؤمر بها فَتَأْتِمر. وفي

زواجهما لم تكن لها الكلمة، ليس مثلًا لأنه يوجِّه الأوامر الكثيرة، ولكن ببساطة، لأنه ـ بوصفه رب الأسرة الذي يجني المال ـ فلا بد للأشياء أن تدور حوله هو.

والآن جاء موت أُوتُّو الصغير. وجْفانْجِل يتابع بكثير من الاضطراب كيف أن هذا الأمر يثيرها من أعماقها.

يرى وجهها المريض، الشاحب المائل إلى البياض أمامه، ويسمع أنينها مرة أخرى، وهو الآن يسير في الشارع في توقيت غير معتاد بالنسبة إليه. وهذا البُورْكْهاوْزِن إلى جانبه، ومساء اليوم تأتيهم تْرُودِل، وستسيل دموع كثيرة، ويبدأ حديث لا ينتهي. وهو يحب رتابة الحياة، يوم العمل المتكرر الذي ليس فيه أي حدث خاص، لدرجة أن عطلة الأحد تكاد تمثل له شكلًا من أشكال التكدير. والآن ستستمر الفوضى لبعض الوقت، ولربما لن ترجع آنًّا أبدًا المرأة التي كانَتْها ذات يوم.

عليه أن يفكر في كل ذلك مليًّا، لكن بُورْكْهاوْزِن يعيقه عن فعل ذلك. والآن يقول هذا الرجل:

- سمعت أنكم تلقيتم خطابًا من الميدان، وأن ابنكم أُوتُّو ليس من أرسله!

يوجِّه جْفَانْجِل نظرته الحادة القاتمة إلى ذلك الآخر ويغمغم: «ثرثار!». لكن لأنه لا يريد أن يتشاجر مع أيِّ أحد، خصوصًا مع نكرة مثل هذا المتسكِّع بُورْكْهاوْزِن، أتمَّ كلامه ممتعضًا:

- الناس يثرثرون أكثر من اللازم!

لم يشعر إيمِيلْ بُوزْكْهاوْزِن بالإهانة، لأن بُوزْكْهاوْزِن لا يمكن أن يشعر بالإهانة بسهولة. بل إنه أيَّد الرأي بحماسة:

- أنت تصف الوضع كما هو بالضبط يا سيد جْفَانْجِل! لماذا لا تستطيع كْلُوْجِه، ساعية البريد المُزَلِفة تلك أن تغلق فمها؟ لكن لا، في التَّوِّ تخبر الجميع «لقد تلقَّى آل جْفَانْجِل خطابًا من الميدان مكتوبًا بالآلة الكاتبة!

توقف قليلًا ثم سأل بصوت متعاطف لم يُسمع منه قطُّ:

- أُصيبَ أم فُقِد أم...؟

يصمت. غير أن جْفَانْجِل ـ بعد صمت طال نوعًا ـ يقول بشكل غير مباشر:

- إذًا لقد استسلمت فرنسا؟ ليتَهم فعلوها مبكرًا بيوم، لربما ظل أُوتُّو على قيد الحياة...

رد بُوزْكْهاوْزِن بحيوية لافتة للنظر:

- لكن لأن آلافًا مؤلَّفة يموتون ميتة الشجعان، هذا ما جعل فرنسا تستسلم بهذه السرعة. ولهذا ملايين ما يزالون على قيد الحياة. بمثل هذه التضحية على الإنسان أن يكون فخورًا كأبٍ!

- أبناؤك كلهم أصغر من أن يذهبوا إلى الميدان أيها الجار؟

رد بُوزْكْهاوْزِن وقد شعر بالاستياء:

- يا جْفَانْجِل أنت تعرف إجابة هذا السؤال! لكن لو أنهم كلهم ماتوا دفعة واحدة بقنبلة أو ما شابه لكنتُ فخورًا بذلك. ألا تصدقني في ما أقول يا جْفَانْجِل؟

غير أن رئيس العمال لا يجيب عن هذا السؤال وإنما يفكر.. «ربما لم أكن أبًا صالحًا، ولم أحب أُوتُّو كما ينبغي أن أفعل، لكن أطفالك هم ـ بالنسبة إليك ـ مجرد عبء! ما أظنه هو أنك ستكون سعيدًا لو أن قنبلة سقطت عليهم وخلَّصتك منهم مرة واحدة. هذا ما أعتقده فيك وأقسم عليه!».

لكنه لا يقول شيئًا من هذا القبيل، وبُورْكْهاوْزِن الذي نفد صبره من انتظاره إجابة السؤال يقول:

- تدبر الأمر معي يا جْفَانْجِل. أولًا أرض السوديت، ثم تشيكوسلوفاكيا والنمسا، والآن بولندا وفرنسا؛ سنصبح أغنى شعب في العالم! ماذا يعني أن نفقد عدة مئات آلاف من الأرواح؟ كلنا سنغتني!

أجاب جْفَانْجِل بسرعة غير معتادة:

- وماذا سنفعل بالثروة؟ هل أستطيع أن آكلها؟ هل أنام أفضل عندما أكون غنيًّا؟ ألن أذهب إلى المصنع ثانية لأني رجل غني؟ وماذا أفعل ساعتها طوال اليوم؟ لا يا بُورْكْهاوْزِن. لا أريد أبدًا أن أصبح غنيًّا، وبالتأكيد ليس بهذه الطريقة. هذه الثروة لا تساوي موت شخص واحد.

وهنا أمسكه بُورْكْهاوْزِن من ذراعه، أغمض عينيه وفتحهما بسرعة، وهزَّ جْفَانْجِل فيما همس له في عجاله:

- كيف يمكن لك أن تتكلم هكذا يا جْفَانْجِل؟ ألا تعلم أنني يمكن أن أدخلك إلى معسكر التعذيب بسبب سخرية كهذه؟ لقد

تحدَّثت حديثًا مباشرًا ضد الزعيم. ماذا الآن لو كنتُ واحدًا من أولئك وأبلغتُ عنك؟!

ارتعب جْفَانْجِل من كلماته التي تلفَّظ بها لسانه. لا بد أن هذه المسالة التي تخص أُوتُّو وآنَّا قد أخلَّت بتوازنه، لدرجة أنه تخلَّى عن حذره الفطري. غير أن الآخر لم يصله شيء من رعبه. حرَّر جْفَانْجِل ذراعه بيديه القويتين من قبضة الآخر الثقيلة قائلًا أثناء ذلك ببطء و بلا اكتراث:

- ما الذي يغضبك إلى هذا الحد يا بُورْكْهاوْزِن؟ ما الذي قلتُه؟ ما الذي يمكن أن تبلغ عنه؟ أنا حزين لأن ابني أُوتُّو سقط في الحرب. ولأن زوجتي تعاني غَمًّا مقيمًا. يمكنك أن تبلغ عن هذا إن أردت. وإن أردت ذلك فعلًا فَأَقْدِم عليه؛ سآتي معك فورًا وسأوقِّع أني قلت ذلك!

وفيما جْفَانْجِل ينطلق في الكلامِ على غير العادة، فكَّر مع نفسه قائلًا سأقطع ذراعي لو لم يكن بُورْكْهاوْزِن هذا جاسوسًا! إنه واحد آخر من الذين يتوجَّب على المرء أن يلتزم الحذر تجاهَهُم! ومن تبقَّى يمكن للمرء ألا يحذر أمامه؟ كيف سيصبح الأمر مع آنَّا؟ لا أعرف هذا أيضًا.

وفي هذه الأثناء وصلا إلى بوابة المصنع. ومرة أخرى لا يمد جْفَانْجِل يده بالسلام على بُورْكْهاوْزِن.

«إذًا...» يقول و يريد أن يدخل، إلا أن بُورْكْهاوْزِن يمسكه من سُترتِه ويهمس:

- أيها الجار، دعنا لا نتكلم ثانية عما حدث. أنا لست جاسوسًا ولا أريد أن أجرَّ التعاسة على أحد. لكن الآن أَسْدِ إليَّ صنيعًا، عليَّ أن أعطي امرأتي بعض المال لشراء مواد غذائية، وليس في جيبي قرش واحد. لم يأكل الأطفال ولا لقمة اليوم؛ أقرِضني عشرة ماركات، وسأردها إليك يوم الجمعة القادم بكل تأكيد. أقسم لك!

يحرِّر جْفَانْجِل نفسه من القبضة كما فعل سابقًا. يفكر.. «هذا أنت إذًا! هكذا تكسب عيشك! ولن أعطيه حتى ماركًا واحدًا، وإلا سيظن أني خائف منه ولن يفلتني أبدًا من كماشته. وبصوت عال يقول:

- لا أكسب سوى ثلاثين ماركًا في الأسبوع وأحتاج بمفردي إلى كل مارك فيها؛ لا أستطيع أن أعطيك المال.

وهكذا.. بدون أن ينبس بكلمة أخرى أو يلقي نظرة.. يدخل إلى ساحة المصنع. الحارس هناك يعرفه ويتركه يمرُّ بدون طرح أسئلة زائدة. أما بُورْكْهاوْزِن فيقف في الشارع يحدق إليه ويفكر في ما عليه الآن فعلُه، فهو يفضِّل لو أنه يذهب إلى الجيستابو ويبلغ عن جْفَانْجِل، لكن ينقصه لذلك بضع سجائر. لكن الأفضل ألا يفعلها. لقد تسرع اليوم؛ كان عليه أن يترك جْفَانْجِل يفضفض في الحديث كما يشاء فبعد موت ابنه كان مهيَّأً الوجدان لفِعل ذلك.

لكنه أخطأ في تقدير جْفَانْجِل، فهذا رجل لا يسمح لأحد أن يخدعه. معظم الناس اليوم خائف، بل كلهم في الحقيقة، لأنهم كلهم يقترفون ـ في مكان ما ـ ممنوعًا ما ويخشون دائمًا أن يعرف أحد شيئًا عنه. على الواحد أن يباغتهم في اللحظة المناسبة، وبهذا

يمسكهم في قبضته ويدفعون. لكن جْفَانْجِل ليس هكذا، إنه إنسان بملامح طائرٍ ضَارٍ، لعله لا يخشى شيئًا، ولا يسمح لأحد أن يخدعه على الإطلاق. كلا، فَلْيَيأس من ذلك الرجل، لعل الأيام القادمة تتيح له شيئًا مع زوجته. فالمرأة لا بد لها أن تلعن موت ابنها الوحيد بطريقة مختلفة كليًا. وهكذا تبدأ النسوة في في الثرثرة.

إذًا فلتكن السيدة هدفه في الأيام القادمة. وماذا يفعل الآن؟ عليه أن يعطي أُوْتّي بعض المال فلقد أكل مبكرًا اليوم في السِرِّ آخر رغيف خبز في دولاب المطبخ! لكنه ليس معه مال، ومن أين يأتي بشيء سريع الآن؟ إن زوجته امرأة نكدة وهي قادرة تمامًا أن تحيل حياته إلى جحيم. فيما مضى كانت تتبختر في زقاق شونهاوزر وكان في وسعها أحيانًا أن تكون جَدَّ لطيفة وودودة. والآن صار له منها خمس أفواه، إنه يقصد أن معظمهم ليسوا منه، وهي تستطيع أن تسبَّ وتلعن مثل بائعة سمك في السوق. كما أن المجرمة تضرب أيضًا، وفي وجود الأولاد، وحين تصيبه إحدى الضربات، تنقلب الحكاية إلى مَقْتَلة، يلقمها فيها ضربات كثيرة، لكنها لا ترتدع.

لا، لن يستطيع أن يعود إلى أُوْتّي بدون المال. فجأة خطرت بباله العجوز رُوْزِنْتال، التي تجلس وحيدة تمامًا بلا أي حماية في الطابق الرابع من بناية 55 في شارع يابْلونْسْكِي. كيف لم تخطر بباله اليهودية الشمطاء من قبل كما خطر له العُقاب المعتق جْفَانْجِل؟! إنها سيدة هادئة الطباع، هو يعرفها من قبل، حين كانت ما تزال تمتلك المغسلة. في البداية سيجرب الأمر باللِّين، فإن لم تستجب باغَتَها بضربة على رأسها! لا بد أنه سيعثر على شيء ما؛ يأخذ قطعة مجوهرات، أو مالًا، أو طعامًا يؤكل، أي شيء يمكن له أن يهدِئ أُوْتّي.

وفيما بُورْكْهاوْزِن يفكر على تلك الشاكلة، ويتخيل مرارًا ما الذي يمكن أن يجده ـ لأن اليهود لديهم كل شيء سرقوه من الألمان، وهم فقط يجيدون إخفاءه عنهم ـ أثناء تمعُّنه في تلك الأفكار يعود بُورْكْهاوْزِن إلى شارع يابْلونْشكِي. حينما وصل وقف في المَنْوَر يتسمَّع الأصوات مليًّا، لا يريد لأحد أن يراه هنا في المدخل الأمامي، فهو نفسه يسكن قرب المدخل الخلفي. في البيت الذي يسمى ـ مجازًا ـ «بيت الحديقة»، وما هو إلا جحر في قبو. لا يزعجه هذا لكن الأمر محرج أحيانًا أمام الناس.

لا يتحرَّك شيء في المنور، يبدأ بُورْكْهاوْزِن في صعود الدرج بسرعة لكن بصوت خفيض، تصدر عن شقة بِيرْزِيكِه ضوضاء صاخبة وصيحات ابتهاج وضحكات، إنهم يحتفلون مجدَّدًا. لا بد أن يتَّصل بآل بِيرْزِيكِه يومًا ما، فهؤلاء يملكون العلاقات الصحيحة، وبهذا يمكن له هو أيضًا أن يتقدَّم. لكن هؤلاء لا يمكن أن يحترموا جاسوسًا نهَّازا للفرص مثله، خصوصًا صِبية قوات الأمن الخاصَّة وبَالْدُوْر؛ إنهم في غاية الاعتداد بأنفسهم. أما العجوز فأفضل منهم، وأحيانًا ما ينفحه خمسة ماركات حينما يكون مخمورًا.

كل شيء هادئ في شقة آل جْفَانْجِل، وحين يصعد درجة أخرى أعلى لا يسمع أيَّ صوت لدى رُوْزِنْتال طوال الوقت الذي وضع فيه أذنه على الباب؛ فيَرنُّ الجرسَ سريعًا وبمهنية كما تفعل ساعية البريد التي تكون دائمًا متعجلة كي تذهب إلى الشقة التالية.

لكن لا شيء يتحرَّك. وبعد دقيقة ودقيقتين من الانتظار يقرر بُورْكْهاوْزِن أن يدق الجرس لمرة ثالثة. وبين كل هذا ينصت جيِّدًا،

يتنصَّت. ثم يهمس عبر ثقب المفتاح: «سيدة رُوْزِنْتال. هلَّا فتحتِ الباب! معي رسالة من زوجك؛ افتحي بسرعة قبل أن يراني أحدهم! سيدة رُوْزِنْتال، إنني أسمعك، فلتفتحي الباب!».

ويواصل الرنين لكن بلا أي نتيجة، وأخيرًا يتملَّكه الغيظ، لا يستطيع أن ينسحب من هنا خائبًا ويعرِّضَ نفسه لشجار قذر مع أُوْتّي. على اليهودية الشمطاء أن تدفع شيئًا من الذي سرقَتْهُ منه! يقرع الباب عاليًا ويواصل الصياح عبر ثقب المفتاح: «افتحي أيتها الشمطاء! افتحي أيتها اليهودية الخنزيرة! سأدهن وجهك ولن تتمكَّن عيونك من الرؤية ثانيةً! سأضعك اليوم في معسكر التعذيب لو لم تفتحي الباب أيتها اليهودية الملعونة!».

لو أن معه بنزينًا الآن لكان أضرم النيران من فوره في الباب!

لكن فجأة يصبح بُورْكْهاوْزِن هادئًا تمامًا؛ لقد سمع صوت باب ينفتح في طابق أسفل، يلتصق بدنه بالحائط. لا ينبغي أن يراه أحد هنا، أكيد يريدون الخروج إلى الشارع، ما عليه إلا أن يبقى هادئًا.

غير أن صوت الخطوات يأتي صاعدًا، لا تتوقَّف حتى وهي بطيئة ومتعثِّرة. إنه واحد من آل بِيرْزِيكِه، واحد مخمور من آل بِيرْزِيكِه. هذا تحديدًا ما كان ينقص بُورْكْهاوْزِن. بالطبع، يريد أن يخرج إلى الطابق الأرضي لكنه مغلق بباب حديد، ليس ثمة مخبأ؛ لقد صار الأمل الوحيد أن يمرَّ المخمور من جواره بدون أن يلحظه. لو أن هذا هو بِيرْزِيكِه العجوز فمِن الممكن أن يحدث ذلك.

لكن ليس هذا بِيرْزِيكِه العجوز، إنه الولد المقزز.. برونو أو (بَالْدُوْر)، أسوأ مَن في هذه العصابة! إنه لا يرتدي إلا زِيَّ شباب

هتلر. وينتظر أن يحيِّيَه الواحد أولًا رغم أنه لا شيءَ من الأساس. ببطء يصل بَالْدُوْر إلى الدرجات الأخيرة من السلم، يمسك بقوة بدرابزين السلم، يبدو أنه مخمور لدرجة كبيرة. لكنه رغمًا عن عينيه الزجاجيَّتين قد رأى من مدة بُورْكْهاوْزِن ملتصقًا بالجدار، لا يخاطبه إلا بعد أن يقف مباشرة أمامه:

- ماذا تَتَشمَّم هنا أمام المنزل؟ لن أسمح بذلك. تحرَّكْ وعُدْ إلى عاهرتك في القبو! تحرك، اغرب عن هنا!

رفع القدم التي ترتدي الحذاء ذا المسامير، ثم خفضها مرة أخرى؛ إنه فاقد الاتزان إلى درجة لا تسمح بأن يسدد إليه ركلة.

لكن هذه نبرة لا يستطيع بُورْكْهاوْزِن أن يتحملها، حينما يُزَمْجَرُ فيه على هذا النحو لا يملك إلا أن ينكمش على ذاته، لأن الخوف يتمكَّن منه ببساطة؛ يهمس خانعًا:

- أرجو المعذرة يا سيد بِيرْزِيكِه! كنت فقط أريد أن أمزح مزحة صغيرة مع الشمطاء اليهودية!

يتغضَّن جبين بَالْدُوْر من التفكير المرهق، وبعد برهة يقول:

- لقد كنت تريد أن تسرق أيها الوضيع، هذه هي مزحتك مع الشمطاء. والآن اغرب عن هنا!

ورغم أن الكلمات كانت فظَّة، كانت النبرة هذه المرة ألطف دون شك، إلى هذا الحد كانت أُذُن بُورْكْهاوْزِن قادرة على التقاط تلك الفروق الطفيفة! ولهذا قال بابتسامة تريد أن تعتذر عن المزحة:

- أنا لا أسرق يا سيد بِيرْزِيكِه. أنا فقط أرتب الأوضاع أحيانًا!

لم يردَّ بَالْدُوْر بِيزْزِيكِه على الابتسامة، فهو لا يتدنَّى بمستواه إلى مستوى هؤلاء الناس، حتى لو أنهم كانوا مفيدين في بعض الأحيان. يهبط السلم بحذر وراء بُوزْكْهاوْزِن.

كلا الرجلين غارق في أفكاره، لدرجة أنهما لا يلاحظان أن باب آل جْفَانْجِل موارَبٌ الآن، وأنه ينفتح بسرعة بمجرد أن يمر الرجلان؛ تتنصَّت آنَّا جْفَانْجِل على الدرج.

أمام باب آل بِيزْزِيكِه يرفع بُوزْكْهاوْزِن ذراعًا ممدودةً ويصيح بالتحية الألمانية «هايلْ هتلر، سيد بِيزْزِيكِه! وأنا أشكرك شكرًا جزيلًا!».

عَلامَ يشكره؟ هو نفسه لا يعرف بالضبط. ربما لأن قائد شباب هتلر لم يركله في مؤخرته ويُسقطه عن السلالم، وكان سيتعيَّن عليه أن يرتضي لنفسه ذلك، فهو ليس إلا جروًا صغيرًا.

لا يردُّ بَالْدُوْر بِيزْزِيكِه التحية، يحدق إلى الآخر بعينيه الزجاجيتين، إلى أن يبدأ الآخر في الطَّرْف بعينيه ويخفضهما إلى الأرض. يسأله بَالْدُوْر:

- كنت تريد أن تمزح مع العجوز رُوْزِنْتال؟
- نعم. (يجيب بُوزْكْهاوْزِن بنظرِه الكسيف)
- ما نوع المزحة؟ (يواصل طرح الأسئلة)
- مجرد «عسكر وحرامية»؟

يغامر بُوزْكْهاوْزِن بنظرة خاطفة نحو وجه مُحدِّثه، ويقول:

- أَخْ! ليتني أتمكَّن أيضًا من دهن وجهها!

- هكذا!

لا يقول بَالْدُوْر سوى «هكذا!».

يقفان صامتَيْنِ برهة، يفكر بُوزْكهاوْزِن إنْ كان يمكنه الانصراف الآن، لكنه لم يتلقَّ الأمر بذلك بعد. ولهذا يواصل الانتظار صامتًا وقد خفض عينيه من جديد.

- أُدخل!

يقول بِيرْزِيكِه فجأة بلسانٍ ثقيل. ثم يشير بسبابته إلى باب بيتهم المفتوح. ويردف:

- ربما سأقول لك شيئًا إضافيًا. سوف نرى!

يمشي بُوزْكهاوْزِن حسب أوامر السبَّابة ويدخل صامتًا شقة بِيرْزِيكِه. يتبعه بَالْدُوْر بِيرْزِيكِه، بخطوات ثابتة رغم بعض الترنح. ينغلق الباب خلف الاثنين.

في الطابق الأعلى تترك آنَّا جْفَانْجِل درابزين السلم وتتسلَّل إلى شقتها بخِفَّة ثم توصد الباب برفق.

وهي ذاتُها لا تعرف لماذا تتنصَّت على حوارهما أمام باب شقة رُوْزِنْتال ثم شقة بِيرْزِيكِه، فهي في العادة ما تتبع طباع زوجها في ترك الجيران يفعلون ما يشاؤون. أما وجهها فما يزال مُبْيَضًّا ومريضًا، وثمة طَرفة مزعجة في جفونها. وكانت تتمنى لو أنها تجلس وتبكي، لكنها لا تستطيع. إذ في رأسها تدور أقوال من عيِّنة «يعتصر قلبي» أو «يحطم رأسي» أو «يؤلم معدتي»، فهي تشعر بشيء من كل ذلك وفوقه أيضًا.. «لا ينبغي أن يُفلتوا من قتل ابني ببساطة، أستطيع أيضًا أن أكون مختلفة».

لكنها لا تعلم بعدُ ماذا تقصد بأن تكون مختلفة، ولعل هذا التنصُّت كان بداية. لن يتمكَّن أُوتُّو من تقرير كل شيء بمفرده بعد الآن؛ تفكِّر في هذا أيضًا.. «أريد أن أتمكّن من تنفيذ ما أريد حتى لو أن ذلك لا يناسبه».

تتعجَّل في إنهاء إعداد الطعام. إن معظم المواد الغذائية التي يحصلان عليها بالبطاقة تكون من نصيبه هو. لم يعد شابًّا وعليه بشكل مستمر أن يعمل فوق طاقته، أمَّا هي فتجلس طويلًا وتعمل في الخياطة، لذا فتلك القسمة مفهومة.

وفيما هي ما تزال منشغلة بِحِلَلِها يغادر بُورْكْهاوْزِن شقة آل بيرْزِيكِه، وبمجرد أن ينزل السلم يَفقِدُ الهيئة الزاحفَة التي كان يُظْهِرُهَا أمامهم. يتوجَّه مباشرة نحو الباحة ومعدته تشعر بالدفء من كأسَيْ الخمر اللتين تناولهما، وفي جيبه ورقتان من فئة عشرة ماركات، واحدة منهما كفيلة بتهدئة مزاج أُوْتّي المتعكِّر.

ولكن بمجرَّد أن يدخل إلى الغرفة في القبو لا يجد مزاج أُوْتّي متعكرًا، ثمة مفرش أبيض على الطاولة. وأُوْتّي تجلس على الأريكة مع رجل لا يعرفه بُورْكْهاوْزِن. أما الغريب الذي يرتدي ملابس معقولة للغاية فقد سحب ذراعه بسرعة عن كتف أُوْتّي، لم يكن عليه أن يفعلِ ذلك، فبُورْكْهاوْزِن لم يكن قَطُّ حساسًا في مثل هذه المسائل. يفكِر.. «انظر، حتى هذا المخضرم العجوز تمكَّنَتْ من اصطياده! يبدو أنه موظف في بنك أو مرس على الأقل».

في المطبخ يتصايح الأطفال ويتضاحكون، يقطع بُورْكْهاوْزِن لكل واحد منهم شريحة سميكة من الخبز الموضوع على الطاولة،

ثم يبدأ في تناول الفطور. ثمة خبز، ولحم خنزير، وخمر. ينظر إلى الرجل الجالس على الأريكة بنظرات يملؤها الرضا، لا يبدو أن الرجل يشعر بنفس مشاعره، ولهذا ينصرف بُوزْكهاوْزِن بسرعة بمجرد أن يتناول بعض الطعام، فهو لا يريد أن يُنَفِّر ذاك الخاطب! الجيد في المسألة أنه سيتمكَّن من الاحتفاظ بالعشرين ماركًا كلها لنفسه. يوجه بُوزْكهاوْزِن خطواته نحو شارع روللر. إذ إنه سمع عن حانة هناك يتحدَّث روادها ببعض التهوُّر؛ ربما تمكن من فعل شيء هناك، فالواحد يمكن له هذه الأيام أن يصطاد السمك في أي مكان في برلين، إن لم يكن بالنهار، ففي الليل.

وحين يفكِّر بُوزْكهاوْزِن في الليل يبدو بَدَنُه مرتعشًا خلفَ شاربه الأرعن المتدلي، كمن مَسَّتْه تشنُّجاتٌ تشبه الضحك. هذا البَالْدُوْر بِيرْزِيكِه، كل آل بِيرْزِيكِه. يا لهم من عصابة! لكنهم لن يتمكَّنوا من خداعه، ليس هو! لا ينبغي أن يظنوا أن المسألة معه قد حُسمت بعشرين ماركًا وكأسَيْ خمر. ربما يأتي الوقت الذي سيضع فيه كل هؤلاء البِيرْزِيكِه في جيبه؛ عليه فقط الآن أن يتصرَّف بدهاء.

وعندما وصل إلى تلك النقطة خطر بباله أنَّ عليه أن يجد شخصًا ما يُدعى إِيْنُوْ، قبل أن يخيِّم الليل. فلعلَّ إِيْنُوْ هو الرجل المناسب لشيء كهذا. ليس عليه أن يخاف؛ سيجد إِيْنُوْ بلا شك. فهو يقوم بجولته بين ثلاثة أو أربعة محالَّ تُجرَى فيها الرهانات. أما الاسم الحقيقي لإِيْنُوْ فهذا ما لا يعرفه بُوزْكهاوْزِن، فهو لا يعرفه إلا من بضعة محال يناديه فيها الجميع «إِيْنُوْ». سيجده بالتأكيد، وربما سيكون الرجل المناسب.

4

تْرودِل بَاوْمَان تُفشي سرًّا

بقدر ما كان سهلًا على أُوتُّو جْفَانْجِل أن يدخل إلى المصنع كانت الصعوبة التي واجهَتْهُ حين طلب خروج تْرُودِل بَاوْمَان لملاقاته. إذ كان نظام العمل هنا ـ تمامًا مثل الحال في مصنع جْفَانْجِل ـ ليس مجرد العمل بالقطعة، بل يتعيَّن على كل قسم أن ينجز قدرًا محدَّدًا، ولهذا تصبح لكل دقيقة قيمتُها.

ولكن أخيرًا يتمكَّن جْفَانْجِل من تحقيق هدفه، ففي النهاية.. ليس الآخَر سوى رئيس عمال مثل جْفَانْجِل نفسه. «لا يستطيع المرء أن يمنع عن زميل عمل أمرًا كهذا خاصَّة حين يكون قد فقد ابنه في الحرب».. اضطر جْفَانْجِل إلى قول ذلك ببساطة لكي يتمكَّن من رؤية تْرُودِل. وسيتبع ذلك أنه سيضطر إلى إخبارها النبأ بنفسه على عكس رغبة زوجته، وإلا فإن رئيس العمال كان هو من سيخبرها. يأمل ألا ينجم عن ذلك أي صراخ أو إغماء. في الواقع فإن الطريقة التي تماسكت بها آنًا كانت معجزة حقًّا. والآن تقف تْرُودِل على قدمين ثابتتين.

ها هي تأتي أخيرًا، وجْفَانْجِل الذي لم تكن في حياته أي علاقة إلا مع زوجته.. رأى أن عليه الاعتراف بأنها تبدو ساحرة بشعرها الغزير الثائر حول وجهها المدوَّر، الذي لم ينجح العمل في المصنع

في سلبِهِ ألوانه المنعشة، وعينيها الضاحكتين ونهديها العامرين. حتى الآن، وهي ترتدي بسبب العمل سروالا أزرق داكنًا وجاكيت مجعدًا تلتصق به بقايا الخيوط، حتى في هذه اللحظة تبدو ساحرة. لكن لعلَّ أجمل ما فيها هو طريقتها في الحركة، كل خطوة تنضحُ بالحياة، وكل خطوة تخطوها تبدو سعيدةً بأخذها؛ إنها نبعٌ يتدفّق ببهجة الحياة.

«إنها حقًّا معجزة!» يفكِّر أُوتُّو جْفَانْجِل عَرَضًا، أن سلحفاة مثل أُوتُّو الابن بوجهه الممتلئ بالبثور تمكّن من التعامل مع فتاة فخمة مثل هذه. لكنه يصوب نفسه في التوِّ. «ما عساي أنا أن أعرف عن أُوتُّو! فأنا لم أرَهُ حقَّ الرؤية قطُّ. لا بدَّ أنه كان شخصًا مختلفًا تمامًا عما عرفتُ، ويبدو أنه كان يفعل شيئًا بأجهزة الراديو، لدرجة أن الحِرفيِّيْن كانوا يتنافسون لكسبه».

- نهاركِ سعيد، تْرُودِل.

قال ومدَّ يده مصافحًا، فمدَّت يدها البَضَّةَ الدافئة إليه سريعًا وبقوة.

- نهارك سعيد يا والدي. ماذا يحدث عندكم في البيت؟ هل اشتاقت إليَّ أمي أم أرسل أُوتُّو خطابًا؟ سأبذل قصارى جهدي كي أمر عليكم في أقرب فرصة.

- لا بدَّ أن تأتي اليوم مساء يا تْرُودِل. (قال أُوتُّو جْفَانْجِل) المسألة هي أن...

لكنه لم يكمل الجملة. إذ إن تْرُودِل بطريقتها المتعجلة أدخلت يدها في جيب سروالها وأخرجت تقويم الجيب وأخذت تقلِّب فيه. كانت تُنصت إليه فقط بنصف أذن؛ لم تكن اللحظة المناسبة لإخبارها، فانتظر جْفَانْجِل بصبر إلى أن وجدت ما كانت تبحث عنه.

لقد وقع لقاء هذين الاثنين في ممرٍّ طويل ذي جدران مطليَّة بالأبيض ومبطَّنة عن آخرها بالملصقات. وبعفوية وقعت عينا جْفَانْجِل على أحدِها، كان معلقًا بشكل مائل وراء تْرُودِل. قرأ بضع كلمات، والعنوان المطبوع بخط سميك: «باسم الشعب الألماني»، ثم ثلاثة أسماء وبعدها «حُكِمَ عليهم بسبب الخيانة العظمى بالإعدام شنقًا. ولقد نُفِّذ حكم الإعدام اليوم صباحًا في السجن الكائن في بلوتسينزيه».

وبغير تعمُّد أمسك يَدَيْ تْرُودِل بقوة، وسحبها إلى الجانب بحيث لا تظل واقفة أمام الملصق.

- لماذا؟!

سألت متفاجئة. ثم تبعت عيناها عينيه، وقرأت هي أيضًا الملصق. أصدرت صوتًا يمكن أن يعني كل شيء: الاعتراض على ما قرأت، الرفض لما فعل جْفَانْجِل، اللا اكتراث. لكنها على أي حال لم تعد إلى مكانها السابق، تقول وقد دسَّت التقويم مرة أخرى في الجيب:

- اليوم مساءً غير ممكن يا أبتِ، لكن ممكنٌ أن أمر عليكم غدًا قرابة الساعة الثامنة.

- يجب أن تأتي مساء اليوم يا تْرُودِل! (قال معترضًا) لقد وصل إلينا نبأ عن أُوتُّو.

صارت نظرته أكثر حدَّة ورأى كيف أن الضحكة اختفت من عينيها.

- لقد سقط أُوتُّو صريعًا في الميدان يا تْرُودِل!

من الغريب أن الصوت الذي خرج من صدر أُوتُّو حين سمع الخبر هو ذاتُه الذي يصدر عن صدر تْرُودِل؛ «أُوه» عميقة. ولوهلة تنظر إلى الرجل بعينين مُغرورقتين، وشفتين مرتعشتين. ثم تُحوِّل رأسها نحو الحائط، وتسند جبينها إليه، تبكي لكنها تبكي بلا صوت. يرى جْفَانْجِل كتفيها ترتعشان، لكنه لا يسمع أيَّ صوت.

«فتاة شجاعة!» يفكِّر. كيف كانت متعلقة بأُوتُّو! وبطريقته كان هو أيضًا شجاعًا؛ لم يشترك في أي شيء مع هؤلاء الشبان القذرين، ولم يسمح لأولئك المنتمين إلى شَبيبة هتلر بأن يستثيروا ضغينته على أبويه، وكان دائمًا ضد لعبة الجُندية وضد الحرب. هذه الحرب اللعينة!

توقف وارتعب من الأفكار التي وافته للتو. هل بدأ هو أيضًا يتغيَّر بالفعل؟ لقد كانت هذه الأفكار قريبة من مقولة آنَّا «أنت وهتلر زعيمك!». والآن يرى أن تْرُودِل تستند بجبينها إلى الملصق ذاته الذي حاول منذ قليل أن يسحبها بعيدًا عنه، وفوق رأسها تقف الكتابة بالخط السميك «باسم الشعب الألماني»، أما رأسها فيغطي على أسماء الثلاثة الذين شُنِقوا.

وكما الرؤيا التي تتبدَّى أمامه رأى أن ملصقًا كهذا يمكن أن يعلَّق يومًا ما على الجدران حاملًا اسمه واسم آنَّا واسم تْرُودِل؛ هزَّ رأسه خائفًا. ما هو إلا عامل يدوي بسيط لا يريد سوى العيش في هدوء

ولا يريد أن يسمع شيئًا عن السياسة. آنًا لا تهتم إلا بالبيت، وهذه الفتاة الفاتنة ترُودِل سرعان ما ستجد صديقًا جديدًا.

إلا أن الرؤيا عنيدة، وتبقى. «أسماؤنا على الجدار!» يفكّر، بتشتُّت تام.. «ولم لا؟ فالتدلِّي من المشنقة ليس أسوأ من التفتُّت بفعل قنبلة أو الموت إثر تلقي رصاصة في البطن. كل هذا لا يهم؛ الشيء الوحيد المهم هو الآتي.. لا بد أن أكتشف ما الذي يجري مع هتلر. فجأة لا أرى إلا القهر والكراهية، والجبر، والشقاء، شقاء كثير. «عدة آلاف» قال ذاك الجاسوس الجبان بُورْكْهاوْزِن. كأن المسألة مسألة عدد! إن كان إنسان واحد يعاني ظلمًا، وفي استطاعتي أن أغيِّر ذلك، وأنا لا أفعل، فقط لأني جبان وأحب الراحة أيما حب، ففي هذه الحالة...».

حين وصل إلى هذه النقطة لم يتجاسر على متابعة التفكير؛ لقد شعر بالخوف، خوف حقيقي من المكان الذي يمكن أن تقود إليه هذه الأفكار لو أنه فكّر فيها إلى أن تبلغ نهايتها. سيتعيَّن عليه إذًا أن يغير حياته!

وبدلًا من ذلك حدَّق ثانية إلى الفتاة التي يقرأ فوق رأسها الكلمات المكتوبة «باسم الشعب الألماني». لا ينبغي لها البكاء وهي مستندة تحديدًا إلى هذا الملصق. لا يستطيع أن يقاوم الإغواء فيدير كتفيها بعيدًا عن الجدار قائلًا بأرق نبرة يستطيعها: «تعالي يا ترُودِل.. ليس أمام هذا الملصق».

لوهلة حدَّقت إلى الكلمات المطبوعة غير فاهمة، كانت الدموع قد جفت في عينيها وتوقف كتفاها عن الاهتزاز. ثم جاءت الحياة إلى نظرتها، ليست إضاءة الفرح التي دخلت بها إلى هذا الممر، وإنما شيء آخر مظلم متوهج. تضع يدها بحزم لكن برقة على الموضع المطبوع عليه كلمة «شنقًا».

- لن أنسى أبدًا، يا أبتِ... (قالت)

أنني تحديدًا أمامَ ملصق كهذا انتحبتُ على أُوتُّو. ربما، لا أريد ذلك، لكن ربما سيُكتب اسمي على ورقة مثل هذه ذات يوم.

تحدِق إليه. لديه شعور أنها لا تعرف تمامًا ماذا تقول.

- يا فتاة! تعقَّلي! ما شأنكِ أنت وملصق مثل هذا؟ أنت شابة فتية. ما زالت الحياة كلها أمامك. ستضحكين من جديد.. وسيكون لك أطفال...

تهز رأسها بعناد:

- لن أحصل على أطفال ما دُمتُ غير متيقِّنة إن كانوا سيموتون بالرصاص. ما دام جنرال يقول ازحفوا إلى المعركة وموتوا! يا أبت.

تقول وتمسك يده بقوة:

- يا أبت هل تستطيع حقًّا أن تواصل العيش كما كنت من قبل؟ الآن بعد أن أطلقوا الرصاص على ابنك أُوتُّو؟

تنظر إليه نظرات مقتحِمة ومرة أخرى يدافع عن نفسه ضد الغرابة التي تقتحمه.

- الفرنسيون. (يغمغم)

- الفرنسيون؟! (تصيح غاضبة)

هل أنت مقتنع بهذا؟ ومن الذي هاجم الفرنسيين؟ إيهِ! مَن يا أبت؟ هيا أخبرني هيا!

- لكن ماذا يمكننا أن نفعل؟ (يقول أُوتُّو جْفَانْجِل مدافعًا ويائسًا ضد هذا الاقتحام)

نحن مجرد اثنين، لكن كل الملايين تؤيده. والآن بعد هذا الانتصار على الفرنسيين سيزيد التأييد له. لا نستطيع أن نفعل أي شيء!

- بل نستطيع أن نفعل كثيرًا! (تهمس)

نستطيع أن نخرب الآلات، نستطيع أن نعمل ببطء ونقدم إنتاجًا سيِّئًا. نستطيع أن نمزق ملصقاتهم ونلصق أخرى نخبر فيها الناس أنهم يكذبون عليهم ويخادعونهم.

ثم تواصل الهمس بصوت أكثر خفوتًا:

- الشيء الأهمِ هنا هو أننا مختلفون عنهم وأننا لن نسمح لأنفسنا أبدًا بأن نفكِر مثلما يفكرون؛ لن نصبح نازيين، حتى لو انتصر النازيون على العالم كله!

- وماذا سنحقِّق من وراء ذلك يا تْرُودِل؟ (يسأل أُوتُّو جْفَانْجِل بصوت خفيض)

لا أرى ما يمكن أن نحقِّقه بذلك!

- يا أبت، أنا أيضًا لم أفهم الأمر في البداية. ولا أقول إني أفهمه الآن تمامًا. لكن أتعرف؟ نحن لدينا هنا خلية مقاومة سرية تكوَّنت في المصنع، بدأت صغيرة جدًّا بدايةً، ثلاثة رجال وأنا. واحد عندنا حاول أن يشرح لي الأمر. نحن -كما قال- مثل البذرة الطيبة في حقل مليء بالنبت الشيطاني؛ حين لا توجد البذرة الطيبة يمتلئ الحقل بالكامل بالأعشاب الضارة، أما البذرة الطيبة فيمكن أن تنتشر...

توقفت، كأن رعبًا ضرب أعماقها.

- ما الأمر يا ترْودِل؟

مسألة البذور الطيبة ليست بالفكرة السيِّئة. سأفكر فيها مليًّا. عندي كثير مما سأفكر فيه مليًّا في الفترة المقبلة.

لكنها تقول ويملؤها العار والندم:

- والآن ثرثرتُ وأفشيت أمر الخلية، رغم أني كنت قد أقسمت قسمًا مغلَّظًا، ألا أفشي سرها لأي إنسان!

- لا تشغلي بالك بهذا الشأن يا ترْودِل.

يقول أُوتُّو جْفَانْجِل، فيمتد هدوؤه بشكل عفوي إلى الكائن المعذب.

- الأحاديث تدخل من أذن أُوتُّو جْفَانْجِل لتخرج من الأُذُن الثانية. لقد نسيتُ كل ما تفوهتِ به.

وبحزم قاتم يحدق الآن إلى الملصق:

- فليأتِ الجيستابو كله، لقد نسيتُ كل ما تفوهتِ به أساسًا. وإن كنتِ تريدين، وإن كان هذا أمرًا قد يزيد من راحتك؛ تستطيعين إذًا من هذه الساعة أن تتخلَّي عن معرفتنا، ولستِ في حاجة إلى زيارة آنًا هذا المساء. وسأستطيع أن أفسِّر لها الأمر بطريقة مقنعة دون أن أخبرها بأي شيء.

- لا (أجابته، وقد اطمأنت)

لا، بل سأذهب اليوم مساء إلى أمي. ولكن سيتعيَّن عليَّ أن أخبر الآخرين بأنني ثرثرت، ولربما تبعك أحدهم ليتيقَّن أنك أهل للثقة.

- عليهم فقط أن يحضروا إليَّ. (قال أُوتُّو جْفَانْجِل مهدِّدًا)

أنا لا أعرف شيئًا. إلى اللقاء يا تْرُودِل. ربما لا أراكِ ثانية اليوم، فأنا لا أعود من العمل أبدًا قبل الثانية عشرة.

مدَّت يدها بالسلام إليه ثم عادت عبر الممر الذي أتت منه إلى داخل المصنع. ليست متدفقة بالحياة كما قبل، لكنها ما زالت ممتلئة بالقوة. «فتاة طيبة!» يفكِّر جْفَانْجِل.. «فتى شجاع!».

ثم يقف جْفَانْجِل وحده في الممر مع ملصقاته التي تخشخش بصوت خفيض مع تيار الهواء الذي لا ينتهي. يتأهب للذهاب، لكن قبل ذلك يفعل شيئًا يفاجئه هو ذاته؛ يمزِّق الملصق الذي بكت عليه تْرُودِل بكل حسم قاتم.

في اللحظة التالية يشعر بالخزي من فَعلته، يا للعبث الأحمق! ثم يبدأ في العودة إلى البيت، فقد حان الوقت، بل لعله لزام عليه أن يركب التِّرام، وهو الأمر الذي يكرهه طبعُهُ الحريص الذي أحيانًا ما يشبه البُخل.

5

عودة إينو كلوجه

في تمام الثانية بعد الظهر أنهت ساعية البريد إيفا كْلُوْجِه من توزيع حمولتها، وحتى الساعة الرابعة اشتغلت بحسابات توزيع الصحف وغرامات البريد. كانت متعبة جدًّا والأرقام تشوشها وكانت دائمًا ما تخطئ في الحسابات. توجَّهت نحو بيتها بقدمين تُحَرِّقهما نار الألم، ورأسٍ يئِنُّ مثل ريح تصفر في أرضٍ يَبَاب. لم تكن تريد أن تفكر في ما يتعيَّن فعله قبل أن تتمكن أخيرًا من الاستلقاء على السرير. وفي طريق العودة إلى المنزل كانت قد جلبت ما يلزم جلبُه بالبطاقات، لكنها وقفت في صف طويل عند الجزار، إلى أن اقتربت الساعة من السادسة، وهي تصعد ببطء الدرجات المفضية إلى شقتها في شارع فريدريشسهاين.

على درجة أمام بابها وقف رجل قصير يرتدي معطفًا زاهي اللون وقَلَنسوة رياضية. كان وجهه بلا لون، وخاليًا من أي تعبير، وكان جفناه ملتهبين قليلًا، وعيناه شاحبتين. كان من ذلك النوع من الوجوه التي ينساها المرء بمجرد أن يراها.

- أنت، إيْنُوْ؟! (صاحت وشدَّدت يدها تلقائيًّا على مفتاح الشقة)

ماذا تريد مني؟ ليس لديَّ مال ولا حتى طعام، كما أني لن أسمح لك بالدخول إلى الشقة!

صنع الرجل القصير حركة مهدئة:

- لماذا أنت متوتِرة هكذا يا إيفا؟ لماذا هذه المعاملة السيِّئة؟ أريد فقط أن أتمنى لكِ يومًا طيبًا حتى، يا إيفا. يومًا طيبًا يا إيفا!

- يومًا طيبًا يا إيْنُوْ!

قالت وهي ممتعضة، لأنها تعرف زوجها منذ سنوات مديدة. انتظرت لوهلةٍ ثم ضحكت ضحكة قصيرة وشريرة:

- الآن تمنى بعضنا لبعض يومًا طيبًا، كما أردتَ يا إيْنُوْ، لذا يمكنك أن تنصرف. لكن كما أرى أنت لا تذهب، إذًا ماذا تريد حقًّا؟

- أترينَ يا إيفاتي الصغيرة.. أنت سيدة عاقلة ويمكن للواحد أن يتحدَّث معك قليلًا...

وبدأ يرهقها بالكلام حول التأمين الصحي الذي لم يعد يُدفع منذ مدة طويلة لأنه أنهى فترة المرض البالغة 26 أسبوعًا. وعليه سيضطر إلى أن يعود للعمل وإلا سيرسله مصنعه إلى الفيرماخت (جيش الدفاع النازي) لأنه كان ميكانيكيًّا رفيع المستوى، وهؤلاء قلة نادرة.

- المسألة الآن هي.. الظرف. (اختتم شروحاته قائلًا)

أنني في الأيام المقبلة لا بد أن يكون لي عنوان سكن ثابتٌ. ولذا فكرت أن...

هزت رأسها بقوة؛ كانت متعبة لدرجة أنها يمكن أن تقع، وكانت تتوق إلى الدخول إلى شقتها حيث ينتظرها كثير من العمل. لكنها لن تسمح له بالدخول، إلا هو! حتى لو اضطرت إلى الوقوف هنا إلى منتصف الليل.

قال متعجلًا لكن كانت نبرته كذلك بلا لون:

- لا تقولي «لا» يا إيفاتي الصغيرة. لم أُنْهِ كلامي بعد. أقسم لك إني لا أريد شيئًا منك، لا مالًا، ولا طعامًا. دعيني فقط أنام على الأريكة. لن أحتاج إلى ملاءات فراش حتى. لا ينبغي أن يكلفك وجودي مزيدًا من العمل.

هزت رأسها مرة أخرى. عندما يتوقف عن الكلام سيعرف أنها لم تصدق حتى كلمة واحدة مما قال. لم يُوفِ قطُّ بأي وعد قطعه من قبل.

سألت: لماذا لا تذهب بهذا الاتفاق إلى واحدة من صديقاتك؟ فهن عادة لائقات لهذا الأمر!

هز رأسه قائلًا: لقد فرغتُ من هؤلاء النسوة يا إيفاتي الصغيرة، لن أنشغل بهن ثانية؛ لقد اكتفيت. حين أفكر في الأمر أجد أنكِ كنتِ دائمًا أفضلهن يا صغيرتي إيفا. لقد عشنا معًا سنوات طيِّبة في الماضي حين كان الأولاد ما يزالون صغارًا.

وبعفوية أضاءت ذكرى سنوات زواجهما الأولى وجهَهَا. كانت فعلًا سنوات جيدة، آنذاك، حين كان يعمل ميكانيكيًّا متخصصًا، يجلب كل أسبوع ستين ماركًا إلى المنزل وكان لا يعرف شيئًا اسمُه التهرب من العمل.

رأى إيْنُوْكْلَوْجِه مباشرة الميزة التي اكتسبها:

- ألا ترين يا إيفاتي الصغيرة؟! ما زلت تحبينني، ولو قليلًا. ولهذا ستدعينني أنام على الأريكة؛ أعدكِ أني سأنهي سريعًا مسألة العمل. أنا أيضًا غير مهتم بالمال. فقط إلى أن أحصل على مبلغ

الإعانة الصحية من جديد ولا أضطر إلى الذهاب إلى البروسيين. في غضون عشرة أيام سأتحقَّق من أنهم كتبوني مريضًا من جديد!

توقف قليلًا ونظر إليها مترقبًا. هي الآن لا تهز رأسها إلا أنَّ وجهها تصعُب قراءته. ولهذا أكمَلَ:

- لن أقدِّم هذه المرة على مسألة نزيف المعدة، فهم لن يصرفوا لي شيئًا آكله في المستشفيات؛ سأجرب هذه المرة أمغاص المرارة، فهذا أيضًا شيء يصعب إثباته. مجرد التصوير بالأشعة السينية ولا يتعيَّن أن توجد حصوات تسبب المغص. لقد شرح لي أحدهم المسألة شرحًا وافيًا. سينجح هذا، لكن عليَّ فقط أن أعمل هذه الأيام العشرة.

ومرة أخرى أجابت بالصمت ولم تنطق بكلمة واحدة، فظلَّ يواصل حديثه لأنه مقتنع بأن الواحد يستطيع الحديث إلى أن يُسبب للناس قرحة في مَعِدِهِم، إنهم يستسلمون عندما يظلُّ لحوحًا كفاية.

- لقد حصلت أيضًا على عنوان طبيب في زقاق فرانكفورت. يكتب لكل واحد شهادة مرضية فقط إن لم تكن له مشكلات مع الناس. معه سأحقق الأمر، وفي غضون عشرة أيام سأعود ثانية إلى المستشفى، وسوف تتخلصين مني يا إيفاتي الصغيرة!

قالت وهي تشعر بالتعب من كل هذه الثرثرات الفارغة:

- حتى لو ظللتَ واقفًا هنا إلى منتصف الليل تتحدَّث، فلن أستقبلك ثانية يا إينُوْ. لن أفعلها ثانية أبدًا. فلتقُل ما تشاء، وتستطيع أن تفعل ما تشاء! لن أسمح لك ثانية أن تفسد كل شيء بسبب هربك من العمل ورهاناتك ونِسوتك الوضيعات. لقد عشت الموضوع

ثلاث مرات، ثم المرة الرابعة ثم مرة فوقها ومرة أخرى، والآن اكتفيت. لن يتكرر ذلك ثانية! سأجلس هنا على السلم لأنني متعبة، فمنذ السادسة وأنا أَدُور على قدمي. إن أردتَ فلتجلس إلى جواري، إن أردتَ أن تتحدَّث فلتفعل، إن أردت أن تكف عن الكلام فلتفعل. كل شيء سواء بالنسبة إليَّ. لكنك لن تدخل إلى شقتي!

ثم جلسَتْ بالفعل على درجات السلم، على ذات الدرجة التي كان يقف عليها منتظرًا. وكانت نبرتها حاسمة لدرجة أنه شعر أن كل الكلام لن يفلح معها هذه المرة. ولذلك أمال قليلًا قلنسوته وقال:

- إذًا يا إيفا الصغيرة إن كنتِ لا تريدين.. إن كنت لا تريدين أن تسدي إليَّ حتى هذا الصنيع الصغير، رغم علمك بأن زوجك في أزمة، الزوج الذي أنجبتِ منه خمسة أبناء، يرقد ثلاثة منهم في باحة الكنيسة، واثنان يجاهدان من أجل الزعيم والشعب...

انقطع كلامه، فقد كان يتكلم بطريقة آلية لأنه اعتاد الكلام المتواصل المتكرر في الحانات، رغم أنه أدرك أن كل الكلام هنا بلا جدوى.

- إذن سأذهب الآن يا عزيزتي إيفا. ولتعلمي أني لست مستاءً منك، فلتعلمي هذا، فرغم كل شيء.. لا أستاء من أحد لأي سبب.

- لأنكَ لا تكترث لأي شيء سوى رهانات السباق، لأنه لا شيء في العالم يهمك، لأنك لا تستطيع أن تحب أي شيء أو أي أحد ولا حتى نفسك يا إيْنُوْ!

لكنها قطعت كلامها فورًا، إذ لم يكن من المُجدي الحديث مع هذا الرجل. انتظرَتْ هنيهة ثم قالت:

- لكن أظن أنكَ قلت إنك تريد الذهاب. أليس كذلك يا إِيْنُوْ؟

- الآن أمضي يا إيفاتي الصغيرة. (قال بشكل مفاجئ تمامًا)

كوني بخير. لا أؤاخذك على شيء. هايْلْ هتلر، إيفا الصغيرة!

كانت ما تزال مقتنعة تمامًا بأن هذا الوداع هو مجرد حيلة منه، وأنها مجرد المقدمة لحديث جديد لا ينتهي. لكن لمفاجئتها اللا محدودة لم يقل شيئًا بالفعل وبدأ في هبوط السلم.

لدقيقة أو دقيقتين ظلَّت جالسة على الدرج مثل المخدَّرة، غير قادرة على تصديق أنها انتصرت، ثم وثبت وأخذت تتنصَّت في بئر السلم، سمعت بوضوح خطوته على الدرجة الأخيرة، لم يختبئ في مكان. لقد مضى بالفعل! والآن يصطكُّ باب البناية. بيد مرتعشة فتحت بابها، كانت في غاية التوتُّر لدرجة أنها في البداية لم تجد ثقب المفتاح، حين صارت بالداخل وضعت سلسلة المفاتيح أمامها واستلقت فوق أحد كراسي المطبخ، فتدلت أطرافها. لقد اعتصر ذاك الصراع آخر قطرة من قوة تبقت لها. لم يعد رمقٌ في عظامها، لدرجة أنها لو فقط لمست أي أحد بطرف أناملها لسقطت من فورها من فوق الكرسي.

لكن بالتدريج، وفيما هي جالسة في مكانها، بدأت القوة والحياة تعودان إليها. إذًا ها هي قد حقَّقت إرادتها لمرة واحدة وأجبرت إصراره العنيد على الخضوع؛ احتفظت ببيتها لنفسها، لنفسها

وحدها، لن يعود ليجلس متكاسلًا ليثرثر ثرثرته التي لا تنتهي عن الخيول ويسرق منها كل مارك وكل لقمة خبز تقع عليها يده.

وثَبَتْ تملؤها شجاعة الحياة من جديد، لقد بقيت لها هذه القطعة من الحياة. بعد الخدمة اللا نهائية في البريد تحتاج إلى هذه الساعات هنا تقضيها وحدها، فدورة التوزيع كانت قاسية عليها، في غاية القسوة. كل يوم أقسى من سابقه، لقد كانت تعاني في الماضي في الجزء السفلي من جسدها. ووجود ثلاثةٍ من أطفالها في باحة الكنيسة لم يكن من فراغ؛ كلها ولادات مبكرة. حتى ساقاها لم تكونا تريدان ذلك، لم تكن امرأة خُلقت للكد في العمل. لقد كانت ربة منزل حقيقيَّة. لكنها فجأة اضطررت إلى العمل من أجل كسب المال بعد أن توقف زوجها عن العمل. آنذاك كان الولدان ما يزالان صغيرين. وهكذا استطاعت أن تُنشِّئهما، وأن تصنع لنفسها هذا المنزل: مطبخ وغرفة. وفي تلك الأثناء جَرَّتْ الرجل معها، إن لم يكن مستلقيًا لدى واحدة من عشيقاته.

بطبيعة الحال كان يمكنها أن تطلب الطلاق منذ زمن طويل، فهو حتى لم يكن يعبأ بخياناته الزوجية. لكن لم يكن ذلك ليغير شيئًا، فبالطلاق أو بدونه كان إِيْنُوْ سيظل معلقًا بها. إن كل شيء عنده سواء، فهو رجل لا يمتلك ذرة شرف واحدة في كِيانه.

أما نجاحها في إخراجه من الشقة فلم يتحقق إلا بعد أن استُدعي الولدان إلى الحرب. وحتى حدث ذلك كانت ما تزال تعتقد أن عليها أن تحافظ على الأقل على مظهر العائلة. ورغم ذلك فلقد أدرك الولدان كل شيء، لقد كانت تستشعر خجلًا كبيرًا من أن يلحظ

الآخرون ما يحدث. وحين تُسأَل عن زوجها كانت دائمًا ما تجيب بأنه في الورشة. وكانت تذهب حتى إلى والدَيْ إِيْنُوْ، وتأخذ معها شيئًا من الطعام أو بضعة ماركات، كتعويض عن المال الذي يسرقه ابنهما لنفسه من معاش والديه الزهيد.

لكنها داخليًّا كانت قد فرغت تمامًا من ذلك الرجل، حتى لو أنه تغيَّر، حتى لو أنه عاد للعمل وعاد كما كان في سنوات زواجهما الأولى، لم تكن لتقبل به. لم تكرهه، لقد كان مجرد لا شيء، لا شيء يساوي أن يكرهه المرء، لقد كان ببساطة مقزِّزًا مثل العناكب والأفاعي. لقد كان عليه فقط أن يدعها في سلام، لم تكن تريد أن تراه، وهذا فقط سيجعلها راضية!

وفيما تدور هذه الأفكار في رأس إيفا كْلُوْجِه، وضعت طعامها على موقد الغاز، ورتَّبت الغرفة التي تحوي المطبخ. أما غرفتها هي ـ التي تحوي الفراش ـ فهذه ترتبها دائمًا في الصباح الباكر. وفيما هي تسمع صوت غليان المَرَق وتبدأ رائحته في تعبئة الغرفة كلها، توجهت إلى سلة الخياطة، إذ كانت تعاني مع الجوارب مأساة أبديَّة وقد مزَّقت في النهار أكثر من واحد، وعليها الآن أن تخيطها وتحشوها. لكنها لم تكن مستاءة من العمل عليها، إذ كانت تحب نصف الساعة الساكنة هذه قبل الطعام حين يمكنها أن تجلس على كرسيها الخيزران منتعلةً حذاء المنزل الفرو، وأن تباعد ما بين ساقيها اللتين تؤلمانها وتميلهما قليلًا نحو الداخل؛ هكذا أفضل وضع يساعدها على الاسترخاء.

بعد الطعام تريد أن تكتب لحبيبها، الولد الكبير، كارْلمان الذي في بولندا. لم تكن متفقة قطُّ معه، خصوصًا بعد أن انضم إلى الشرطة العسكرية النازية، فلقد صرنا نسمع في الآونة الأخيرة كثيرًا من الأنباء السيِّئة عن تلك القُوَّات، خصوصًا بسبب تعاملاتهم الوضيعة تجاه اليهود. لكنها لم تكن لتصدِّق أنه يفعل ذلك، ابنها الذي حملته ذات مرة أسفل قلبها، أن يعتدي ـ أولًا ـ على الفتيات اليهوديات ثم يطلق عليهن الرصاص بعدها مباشرة. فهذه فَعلة لا يقترفها كارْلمان! من أين تأتيه مثل تلك القسوة؟ فهي لم تكن قطُّ شديدة ولا خشنة. أما أبوه فلم يزِد على كونه خرقة تنظيف. لكنها ستحاول في الخطاب أن تلمِّح بأن عليه أن يظل محترمًا. وبطبيعة الحال ينبغي أن يُكتَبَ هذا التلميح بحذر بالغ بطريقة لا يفهمها إلا كارْلمان نفسه. وإلا تعرَّض لمضايقات إن وقع الخطاب في يد الرقيب. سَيَتَفتَّق ذهنها عن أمر ما، ربما تُذَكِّره بواحدة من ذكريات الطفولة، مثل تلك المرة حين سرق منها ماركين واشترى بهما بونبون. بل ربما الأفضل حتى أن تُذَكِّره كيف أنه حين بلغ الثالثة عشرة وهجم على فاللي ـ التي لم تكن سوى بغي وضيعة ـ كم تسبب ذلك آنذاك في مشكلات من أجل تخليصه من براثن تلك المرأة. كم كان كارْلمان سريع الغضب أحيانًا!

لكنها تبتسم عندما تفكِّر في هذه المصاعب. فكل شيء يتَّصل بطفولة الولدين يبدو لها اليوم جميلًا. كان لديها عافية آنذاك، وكانت تستطيع أن تدافع عن ولديها ضد العالم كله، وعملت بالنهار وعملت بالليل فقط كي لا يفوتهم أي شيء يحصل عليه الأطفال الذين لديهم أب محترم. لكن في السنوات الأخيرة بدأت قواها تخور، خصوصًا بعد أن استُدعي الولدان إلى الحرب.

كلا. ما كان ينبغي لهذه الحرب أن تندلع. لو أن الزعيم كان قائدًا عظيمًا حقًّا، لكان عليه أن يتجنبها. قليلٌ من دَانْزِجْ*، و«الممر البولندي»**ــ ومن أجلها وضع ملايين البشر في خطر يومي يهدد حياتهم ـ هذه أشياء لا يفعلها الرجل العظيم حقًّا!

لكن الناس يحكون أنه ابن غير شرعي، وأنه لم يكن لديه قطُّ أُمٌّ تهتم حقًّا لأمره، وبالتالي فهو لا يعرف كيف تشعر الأمهات بهذا الخوف الأبدي الذي لا ينقطع أبدًا. بعد خطاب من أرض المعركة يبقى الوضع أفضل ليوم أو يومين، ثم بعدها نعود فنحسب كم مرَّ من الوقت على إرساله، فيبدأ الخوف من جديد.

---

* دانزج، مدينة شبه مستقلة تأسست بموجب معاهدة فرساي 1919م. وهي تتألف من ميناء دانزج على بحر البلطيق ومثتي مدينة وقرية أخرى. شملت المدينة غالبية من السكان الألمان وأقلية بولندية، وبموجب المعاهدة ينبغي أن تظل مستقلة عن ألمانيا وبولندا، وكانت تحت حماية عصبة الأمم. في العام 1933، سيطر الحزب النازي المحلي على حكومة المدينة وقمع المعارضة الديمقراطية. تعد دانزج هي المدينة التي أشعلت شرارة الحرب العالمية الثانية، إذ قررت ألمانيا غزو المدينة بزعم إلغاء الاضطهاد الذي يتعرض له الألمان فيها. (المترجمة)

** الممر البولندي ــ أو «ممر دانزج» ـ هو مصطلح يشير إلى شريط ضيق من الأرض يفصل ألمانيا عن مقاطعة بروسيا الشرقية. كانت المنطقة محل نزاع بين ألمانيا وبولندا منذ القرن التاسع عشر وأدت إلى توترات ساهمت في اندلاع الحرب بين البلدين. انتُزع الممر من ألمانيا بعد هزيمتها في الحرب العالمية الأولى وأعطي لبولندا سنة 1919م بموجب معاهدة فرساي كي يضمن لها طريقا مباشرًا إلى بحر البلطيق. استعادت ألمانيا سيطرتها على الممر في بداية الحرب العالمية الثانية 1939م، وبعد نهاية الحرب في 1945م أصبح الممر ونصف بروسيا الشرقية جزءًا من بولندا. (المترجمة)

كانت قد تركَت الجورب ينزلق من يدها منذ بعض الوقت وظلَّت هكذا تحلم، والآن تقف بطريقة آلية محضة، تبعد المَرَق عن عين الموقد الأكبر شعلةً إلى الأخرى الأصغر، ثم تضع حلة البطاطس على العين القوية. كانت ما تزال أمامها حين رنَّ جرس الباب، ومن فورها وقفت متخشبة. «إيْنُوْ».. تفكر، «إيْنُوْ!».

تضع الحلة برفق وتتسلل بخِفَّة إلى الباب مرتدية خُفَّيها الفرو. يخِفُّ قلبها من جديد. أمام الباب، بعيدًا قليلًا، حيث يمكن أن تُرَى بوضوح، وقفت الجارة السيدة جِيشْ. بالتأكيد تريد أن تستعير شيئًا ثانية، دقيقًا أو بعض السمن الذي دائمًا ما تنسى أن تعيده. لكن إيفا كْلُوْجِه ظلَّت متشككة رغم ذلك، وأخذت تمشط بعينها بسطة السلم كلها بالقدر الذي سمحت به العين السحرية. وتتسمَّع أي صوت، لكن كل شيء على ما يرام. غير أن جِيشْ تخشخش بنفاد صبر بقدميها وتنظر من آن إلى آخر في العين السحرية.

حسمت إيفا كْلُوْجِه أمرها. لقد فتحت الباب لكن بالقدر الذي تسمح به السلسلة وتسأل: نعم، ما الأمر يا سيدة جِيشْ؟

تجهَّم وجه السيدة جِيشْ في التو، وهي سيدة هزيلة كما لو أنها عملت حتى الموت، لها بنات يتمتعن بحياتهن على حساب أمهن، ويتركنها مع طوفان من الغسيل القذر لناس آخرين. دائمًا عليها أن تغسل لناس آخرين، ولا يشبعن أبدًا، فإيمي وأوللي لا تفعلان شيئًا على الإطلاق؛ بعد العشاء تخرجان وتتركان الغسيل كله لأمهما.

- نعم، سيدة كْلُوْجِه. كنت أريد أن أسألكِ، عندي شيء في ظهري، أعتقد أنه خرَّاج، ليس عندنا إلا مرآة واحدة وأنا ضعيفة النظر.

فلو أنه من الممكن أن تتفقدي هذا الشيء. لا أستطيع أن أذهب إلى طبيب بسببه، ثم.. متى كان عندي وقت للطبيب؟ لكن ربما استطعتِ أن تعصريها إن لم يكن الأمر يثير اشمئزازك، فأحيانًا ما تكون بعض تلك الحبوب مقرفة...

وفيما كانت السيدة جِيشْ ما تزال تشتكي فتحت السيدة كْلُوْجِه السلسلة بعفوية، فدلفت السيدة إلى الغرفة. أرادت السيدة كْلُوْجِه أن تعيد غلق الباب، لكن حَالَتْ قدمٌ دون ذلك، وسرعان ما وقف إِيْنُوْ كْلُوْجِه داخل الشقة. وجهه كما دائمًا خال من التعبير، لاحَظَتْ أنه منفعل قليلًا لأن جفنيه الذين بالكاد يحويان أيَّ شعيرات كانا يرتعشان بشدة.

تقف إيفا كْلُوْجِه بذراعين معلقتين، وترتعش ركبتاها بقوة تجعلها تفضِّل لو أنها تسقط أرضًا. أما العاصفة الكلامية التي أطلقتها السيدة جِيشْ فتوقفت فجأة، وأخذت تنظر صامتة إلى الوجهين كليهما. يخيِّم الصمت على المطبخ إلا من حلة المرق التي تُبقبق بصوت خفيض.

وأخيرًا قالت السيدة جِيشْ:

- الآن قدَّمتُ لكَ هذا الصنيع يا سيد كْلُوْجِه. لكني أقول لك.. حدث هذا مرة واحدة فقط ولن يتكرر. وحين لا تفي بوعدك وتبدأ من جديد في تلك البطالة والجري في الحانات ورهانات الخيول..

ثم قاطعت نفسها بعد أن نظرت إلى وجه السيدة كْلُوْجِه، وقالت:

- أما لو كنتَ قد أسأتَ التصرُّف فسوف أساعدكِ في الحال يا سيدة كْلُوْجِه في طرد شبيه الرجال هذا، فأنا وأنتِ نقدر عليه معًا!

صنعت إيفا كْلُوْجِه حركة دفاعية وقالت:

- لا عليكِ يا سيدة جِيشْ. الأمر لا يساوي!

تذهب ببطء وحذر إلى الكرسي الخيزران وتهبط فيه، تتناول مرة أخرى جوربها في يدها لكنها تحدق إليه، كأنها لا تعرف ما هذا.

تقول السيدة جِيشْ ببعض الاستياء:

- إذًا عِمتُم مساء. أو هايْلْ هتلر.. مثلما يقول أولئك السادة!

متعجلًا يقول إيْنُوْ كْلُوْجِه:

- هَايْل هتلر!

وببطء كأنها تستيقظ من نومها تجيب إيفا كْلُوْجِه:

- تصبحين على خير يا سيدة جِيشْ.. (وتفكر لتقول)

ولو أنَّ سوءًا حقًّا في ظهركِ...

- لا لا.. (تردُّ السيدة جِيشْ بعد أن تقف فعلًا أمام الباب بسرعة)

لا شيء في ظهري. لقد ادَّعيت ذلك فقط. لكني بالتأكيد لن أتدخَّل ثانية في شؤون الآخرين. فإني أرى المسألة الآن.. لن أحصل أبدًا على الشكر من وراء ذلك.

وبتلك الكلمات أخرجت نفسها من الباب، سعيدة بتركها لهذين الشخصين رغم أن ضميرها يؤنبها بعض الشيء.

وما كاد الباب ينغلق وراءها حتى تحرَّك الرجلِ القصير، وبمنتهى الطبيعية فتح الدولاب وأخلى شماعةً لنفسه بأن علَّق فستانين لزوجته

واحدًا فوق الآخر، ثم علَّق معطفه على الشماعة. أما القلنسوة الرياضية فوضعها فوق الدولاب. ما يزال يتعامل بعناية مع قِطَع ملابسه فهو يكره ألا يظهر في هندام مرتب، خصوصًا وهو يعلم جيِّدًا أنه لا يقدر على شراء ملابس جديدة.

والآن يحكُّ يديه ويقول «إذًا.. إذًا»، يتوجَّه إلى موقد الغاز ويتشمَّم الحلل:

- رائع! (يقول)

بطاطس مسلوقة مع لحم بقري. رائع رائع!

يتوقف عن الكلام، فيما تجلس السيدة ولا تتحرَّك وتدير ظهرها إليه. يضع من جديد الغطاء فوق الحلة بهدوء ثم يتحدَّث إليها بصوت خفيض:

- لا تظلي جالسة هكذا يا إيفا كأنك تمثال رخامي! ما الذي حصل؟ لقد حصلتِ مجدَّدًا على زوج لبضعة أيام في شقتك. لن أضايقك، سأفي بما وعدتك به. أيضًا لا أريد شيئًا من مرق البطاطس، على الأكثر بعضَ البقايا. وفقط في حالة أن تعطيني إياها عن طيب خاطر؛ لن أسألكِ ذلك.

لا تجيبه السيدة بأي كلمة. تعيد سلة الخياطة إلى الدولاب، تضع لنفسها طبقًا غويطًا على الطاولة تملؤه من الحلل ثم تبدأ في تناول الطعام ببطء. جلس الرجل إلى طرف الطاولة الآخر وأخرج بضع مجلات رياضية من جيبه وكَتَب لنفسه ملحوظات في نوتة سميكة لزجة. وفيما يفعل ذلك يلقي نظرة سريعة من آن إلى آخر على السيدة التي تتناول الطعام. تأكل ببطء شديد لكنها غرفت لنفسها مرتين

بالفعل، لن يتبقى كثير من أجله بالتأكيد، وهو جائع مثل ذئب؛ لم يتناول أي طعام طيلة اليوم، بل من مساء أمس، فالرجلُ زَوجُ لُوتِيْه الذي عاد في إجازة من الميدان أيقظه ـ بدون أي مراعاة لطعام إفطاره ـ على ركلات أخرجته من الفراش.

لكنه لا يجرؤ أن يخبر إيفا عن جوعه، فصمتُ السيدة يثير فيه الخوف. لا بد أن يَحدُثَ كثيرٌ قبل أن يبدأ في الشعور بأنه هنا في بيته حقًّا. هو لا يشكك في أن تلك اللحظة ستأتي، ولا لثانية واحدة؛ يحصل الإنسان على أي امرأة، فقط عليه أن يبقى عنيدًا بما فيه الكفاية وأن يتغافل عن كثير من الأمور. وأخيرًا، وبغتةً في أغلب الأحوال، يستسلمن، فقط لأنهن يُنهَكن من مواصلة الدفاع عن أنفسهن.

تخدش إيفا كُلُوْجِه البقايا من الحلل؛ لقد أتت على الطعام. لقد أنهت الطعام المخصص ليومين في أمسية واحدة، والآن لن يتمكن من أن يتوسَّل إليها كي يحصل على البقايا! وبعدها أنهت غسل المواعين القليلة وبدأت عملية إعادة ترتيب كبرى، مباشرة وأمام عينيه أخرجت كل شيء له قيمةٌ عندها ووضعته في الغرفة، والغرفة لها قفل قوي. لم يدخل تلك الغرفة بعد، سحبت خزين الطعام، فساتينها ومعاطفها الجيدة، دولاب الأحذية، وسائد الأريكة، حتى صورة الولدين، ووضعت كل شيء في الغرفة أمام عينيه. ولم تكترث لأي شيء يعتقده أو يقوله. لقد دخل إلى الشقة بالحيلة، لكنه لا ينبغي أن يحصل على كثير منها.

ثم تغلق باب الغرفة بالقفل وتحضر أدوات الكتابة وتضعها على الطاولة، إنها منهَكة من التعب، تتمنى لو أنها تستلقي في الفراش، لكنها قطعت على نفسها وعدًا أن تكتب اليوم لِكارْلمان، وهذا ما تفعله الآن. إنها تقدر أن تكون صارمة تجاه نفسها مثلما هي صارمة تجاه زوجها.

بدأت بكتابة بضعة جُمَل، وعندها أمال الرجل رأسه إلى الطاولة وسأل:

- إلى مَن تكتبين يا إيفا الصغيرة؟

ورغمًا عنها أجابته، رغم أنها انتوت ألَّا توجِّه إليه أي كلام:

- إلى كارْلمان!

- هكذا إذًا! (يقول ويضع المجلات من يده)

إذًا تكتبين له وربما سترسلين إليه طردًا صغيرًا. أما لأبيه فلا تقدمين ولو طبقًا صغيرًا من البطاطس أو قطعة لحم متبقية، رغم أنه يتضور جوعًا!

لقد فقد صوتُه جزءًا من نبرة عدم الاكتراث، ويُظهر أنه شعر فعلًا بالإهانة، كأنَّ أحدهم سلبه حقًّا من حقوقه لأنها تعطي الابن شيئًا تمنعه عن أبيه.

- دعكَ من هذا يا إيْنُوْ.. (تقول بصوت هادئ)

هذا شأني. كارْلمان ولد طيب جدًّا!

- هكذا إذًا! يبدو أنكِ نسيتِ كيف عامل أبويه بمجرد أن جعلوه قائد مجموعة في الشرطة العسكرية النازية! حين لم يعد بمقدورك

أن تعاتبيه على شيء، وبدأ هو يسخر منا كأننا مواطنَيْنِ عجوزين أحمقين! نسيت كل شيء يا صغيرتي إيفا؟ فعلًا طيب جدًّا هذا الولد كارْلمان!

- لم يسخر مني أنا قط! (تدافع عنه بصوت ضعيف)
- أجل. بالطبع لم يفعل! (أخذ يتهكَّم)

ونسيتِ أيضًا أنه تجاهل أمه نفسها حين دخلتْ إلى شارع برينسلاور تحمل حقيبة البريد الثقيلة؟ وكيف أنه أشاح بوجهه بعيدًا لأنه كان بصحبة فتاته، ذاك الولد الطيب الأصيل، ذاك!

- شيء من هذا لا يمكن أن تؤاخِذَ عليه شابًّا في مقتبل العمر، فكلهم يريدون أن يَبدون في أحسن صورة أمام فتياتهم. كلهم يتصرَّفون على ذلك النحو، ثم يتغيَّر ذلك لاحقًا. يعود كل منهم إلى الأم التي حملته على صدرها.

لوهلة ظلَّ ينظر إليها مترددًا، هل يزيدُ ما يريد قوله؟ في العادة هو ليس لجوجًا لكنه هذه المرة يشعر أنها أساءت إليه إساءة بالغة. لأنها ـ بدايةً ـ لم تعطه شيئًا يأكله، ثم لأنها حملت كل الأشياء المهمة أمام عينيه إلى الغرفة. وهكذا يقول:

- أنا، لو كنت أُمًّا، لم أكن لأريد ولدًا مثل هذا في حضني، ذاك الولد الذي أصبح كالخنزير!

يحدق إلى عينيها اللتين اتَّسعتا من الخوف. يقول لها هذا الكلام الخالي من الرحمة في وجهها الشمعي:

- في إجازته الأخيرة أراني صورة له التقطها أحد رفاقه، وكان يباهي بهذه الصورة. كان فيها ابنك كازْلمان يمسك بطفل يهودي يبلغ ثلاث سنوات بين ساقيه، ويضرب رأسه في (إكصدام) سيارة...

- لا! لا! (بدأت تصرخ)

هذا كذب تفتريه! هذا أمر لفقته من أجل أن تثأر مني لأني لم أقدم لك الطعام! فَعلة كهذه لا يقترفها كازْلمان!

- كيف يمكن لي أن ألفق أمرًا كهذا؟

يسأل وقد أصبح أكثر هدوءًا بعد أن سدد لها هذه الضربة.

- لستُ في حالة تسمح لي بتلفيق مسألة كتلك! وبالمناسبة. إن كنت لا تصدقينني تستطيعين أن تذهبي إلى معمل التقطير الخاص بزينفتينبيرج، حيث عرض الصورة على كل الناس هناك. أراها كذلك لزينفتينبيرج البدين وزوجته الشمطاء رأتها أيضًا.

يتوقف عن الكلام؛ سيكون من العبث أن يواصل الكلام مع تلك المرأة، فهي تجلس هناك واضعة رأسها على الطاولة وتنتحب، هذا ما نالها من الموضوع. وكونها ساعية بريد يعني أنها هي أيضًا عضوة في الحزب وأنها أقسمت بحياة القائد وبكل أفعاله؛ لا ينبغي أن تتعجب الآن أن كازْلمان أصبح على تلك الشاكلة.

توقف إيْنُوْ كْلُوْجِه هنيهة ونظر مرتابًا نحو الأريكة. ليس ثمة غطاء أو وسائد! ستكون ليلة سعيدة. لكن لعلها الآن اللحظة المناسبة للمخاطرة! يقف متشكِكًا، ناظرًا نحو باب الغرفة الموصد ثم يحسم أمره. لقد وضع يده في جيب مريلة السيدة الذاهلة المنتحبة وأخرج المفتاح. فتح الباب وبدأ في التفتيش، ولم يلتزم حتى الهدوء...

إيفا كْلُوْجِه، ساعية البريد المستثارة، التي هدها التعب، تسمع كل شيء. وتعرف أنه يسرقها لكنها لم تعد تكترث، فعالمها معطوب بالفعل، ولن يمكن إصلاحه. من أجل ماذا إذًا عاشت في هذا العالم؟ ومن أجل أي غرض أهدت الحياة أطفالًا، وسعدت بضحكاتهم وبلعبهم إن كانوا سيتحولون لاحقًا إلى حيوانات؟ أَخْ كارْلْمان! كم كان ولدًا حلوًا أشقرَ! عندما دخلَتْ به مرة سيرك بوش وكان على الأحصنة أن تستلقي على الرمال، كم شعر وقتها بالتعاطف مع الأحصنة المسكينة متسائلا إن كانت مريضة، وكان عليها أن تطمئنه بأن الجياد فقط نائمة.

والآن يمضي ليأتي بهذه الأفعال في أطفال أمهات أخريات؟ لم تَشُكَّ السيدة إيفا كْلُوْجِه ولو للحظة أن ما قاله إِيْنُوْ عن الصورة صحيح، فإِيْنُوْ فعلًا ليس لديه قدرة على تلفيق أمر كهذا، كلا. والآن ها هي تفقد الابن أيضًا. هذا أمر أسوأ كثيرًا من لو أنه تُوفي، على الأقل كانت ستستطيع أن تحزن عليه. الآن لن تستطيع أن تضمه بين ذراعيها وسيتعيَّن عليها أن تغلق باب بيتها في وجهه.

أما الرجل الذي يفتش في الغرفة فلقد وجد في تلك الأثناء الشيء الذي كان يشك في أنه بحوزة زوجته: دفتر توفير في البريد، به 632 ماركًا. يا لها من سيدة مجتهدة! ولكن لأي شيء كل هذا الاجتهاد؟ فهي ستحصل على معاشها يومًا ما، أما ما توفره فعلاوة على ذلك. على أي حال سيراهن غدًا بعشرين ماركًا على «أدبار»، وربما بـ10 على «هاميلكار». يقلب في الدفتر، ليست فقط سيدة

مجتهدة وإنما أيضًا منظمة؛ كل شيء في مكانه، ففي خلفية الدفتر الطوابع وكذلك استمارات الصرف.

وحين أوشك على دس الدفتر في جيبه، جاءت السيدة. أخذت الدفتر ببساطة من يده ووضعته على السرير: «اخرُج!». لم تقل سوى هذه الكلمة.. «اخرُج!».

والآن هو الذي كان يظن أنه أطبق على النَّصر بيديه.. خرج أمام عينيها الغاضبتين من الغرفة. وبيدين مرتعشتين وبدون أن يجرؤ على النطق بكلمة أخرج المعطف من الدولاب وأخذ القلنسوة، وبدون أن يقول كلمة خرج عبر الباب المفتوح ومر من جوارها إلى المَنْوَر المظلم. أغلق الباب وضغط على زر النور وهبط على السلالم. والحمد لله أن أحدهم ترك باب البيت مفتوحًا، سيذهب إلى حانته المعتادة، وفي حال لم يجد أحدًا ربما يتركه صاحب الحانة ينام على الأريكة هناك. بدأ يجز الخُطى مستسلمًا لمصيره، معتادًا أن يتلقى ركلات القدر. أما السيدة بالأعلى فبالفعل كان تقريبًا قد نسيها.

أما هي فوقفت في الشرفة وحدقت إلى ظلمة المساء، جميل.. سيئ.. حتى كارْلمان فُقِد أيضًا! ستحاول مرة أخرى مع مَاكْس، الابن الأصغر. مَاكْس كان دائمًا بلا لون، يشبه أباه أكثر من أخيه اللامع. ربما تستطيع أن تربح ابنًا في مَاكْس. وإن لم تنجح في ذلك فلا بأس؛ ستعيش لنفسها. لكنها ستحافظ على استقامتها، سيكون إذًا ما نجحت في تحقيقه في حياتها هو أنها ظلت محترمة. ستبدأ في الغد تَتَسمَّع كيف يبدأ المرء في الخروج من الحزب، بدون أن توضع في معسكر تعذيب. سيكون ذلك صعبًا لكنها تعتقد أنها ستستطيع

تحقيق ذلك. أما لو حَكَمَ الأمرُ ولا مفر.. فلا بأس أنَ تمضي بعض الوقت في معسكر تعذيب. سيكون ذلك على نحو ما تكفيرًا قليلًا عما اقترفه كارْلْمان.

انثنى الخطاب المبلَّل بالدموع الذي بدأته لابنها الكبير. تضع ورقة خطاب جديدة وتبدأ في الكتابة:

«ابني الحبيب مَاكْس

أريد أن أكتب لك ثانية خطابًا قصيرًا. لا تزال أموري بخير وهذا ما أتمناه لك أيضًا. كان أبوك هنا لكني طردته، لم يكن يريد إلا أن يسحب مني المال. كذلك فقدت الأمل في أخيك كارْلْ بسبب الفظائع التي اقترفها. الآن أنت ابني الوحيد، أرجو أن تحافظ دائمًا على استقامتك. سأفعل كل ما بوسعي من أجلك. اكتب لي في القريب العاجل خطابًا قصيرًا. تحياتي وقبلاتي..

والدتك».

6

أوتُّو جْفَانْجِل يتخلى عن منصبه

تحوي ورشة مصنع الأثاث الآن تقريبًا ثمانين عاملًا وعاملة، يرأسها أُوتُّو جْفَانْجِل بوصفه كبير العمال، كانت تنتج قطعًا منفردة من الأثاث وفق التصميمات وذلك حتى اندلاع الحرب، فيما المصنع كاملًا بكل أقسامه ينتج أثاثًا بالجُملة. ومع بداية الحرب غُيِّر نشاط المصنع إلى إنتاج ما يخدم المجهود الحربي، وورشة جْفَانْجِل الصغيرة صار من واجباتها أن تنتج صناديق ذات مواصفات خاصَّة، وثقيلة جدًّا، فقد ادُّعِيَ أنها تُنتَج من أجل نقل القنابل الثقيلة.

أما أُوتُّو جْفَانْجِل فلم يكن يكترث لِما تخدمُ هذه الصناديق، إذ كان يشعر بأن هذا العمل الجديد الخالي من الروح أقل من مستواه ومُهين. لأنه كان نجارًا مبدعًا حقيقيًّا يعطيه تعرُّق الخشب، أو تجهيز دولاب جميل ذي زخارف دقيقة شعورًا عميقًا بالرضا. كان في عمل كهذا يشعر بكثير من السعادة يقدرها مَن هو على شاكلته من أصحاب الشخصيَّات الهادئة. الآن انخفضت رتبته إلى مجرد محفِّز ومراقب، من المفترض أن يراقب أن ورشته تحقق الرقم المطلوب منها، وحبذا تحقيق أكثر منه. ولكن بسبب طبيعته فإنه لم يتفوَّه بكلمة حول شعوره تجاه هذا العمل، ولم تَشِ ملامح وجهه الذي يشبه وجه طائر بأيٍّ من الاحتقار الذي يستشعره تجاه العمل

على خشب شجر البلوط. ولو أن أحدهم راقبه بدقة، للاحظ أن جْفَانْجِل صاحب الكلام القليل، لم يعد يتحدَّث أصلًا، وأنه صار يميل ـ تحت نظام التشغيل هذا ـ إلى المبالغة في التغافل.

لكن من عساه يعبأ برجل جافٍ مقتضب الكلام مثل أُوتُّو جْفَانْجِل؟ لقد بدا طوال عمره مثل حمارِ شغلٍ بدون اهتمام بأي شيء آخر سوى العمل الذي عليه أن ينجزه. لم يكن لديه هنا أيُّ صديق، ولم يتحدَّث بكلمة طيبة لأي أحد. العمل، والعمل فقط، وفي ذلك يستوي البشر والآلات، عليهم فقط أن ينجزوا العمل المطلوب!

ورغم ذلك لم يكن مكروهًا، حتى وهو يتولى الرقابة على الورشة ويحفز الناس على العمل، لكنه لم يسبَّ قطُّ، ولم يَشِ بأي أحد عند السادة أصحاب المناصب العليا. وحين يظهر له أن العمل لا يسير بشكل صحيح، يتوجَّه نحو العقبة ويحلها بيديه الماهرتين بدون أن ينبس بكلمة. أو يقف مع بعض الثرثارين، محدقًا بعينيه الدَّاكنتين الخاويتين من أي نظرة إلى شخص المتحدث، ويبقى محدقًا إلى أن تنتفي لديهم الرغبة في مواصلة الكلام. لقد كان باستمرار يُشِيع شعورًا بالبرودة حوله. وفي الاستراحات القصيرة كان يعمَد العمال إلى الجلوس في أبعد نقطة ممكنة عنه، وبهذا تمتَّع باحترام طبيعي ما كان ليحصل عليه آخرُ يسير بينهم بكثرة الحديث وتأليب النفوس.

أما إدارة المصنع فكانت تعرف أيضًا مميزات أُوتُّو جْفَانْجِل، فورشته كانت تحقِّق دائمًا أعلى الإنجازات، وهو لا يقع في مشكلات مع الناس، ثم إن جْفَانْجِل كان مطيعًا. كان من السهل

ترقيته من مدة لو أنه حسم أمره وانضم إلى الحزب، لكنه كان دائم الرفض؛ «ليس لدي فائض مال لأمر كهذا».. كان يقول «أحتاج إلى كل مارك؛ عليَّ إطعام أسرتي».

كان الناس يبتسمون في الخفاء وهم يتحدَّثون عن «بخله القذر»، فهذا الجْفَانْجِلِ يبدو أنه يهلك لكل قرش يتعيَّن عليه دفعه في جمعٍ ما. وهو لا يفكِر مطلقًا أنه بدخوله الحزب سيحصل على راتب أعلىَ من المبلغ الذي سيدفعه للانضمام، بَيْدَ أن هذا الحِرفي المجتهد لا أمل فيه في ما يخص السياسة، وبالتالي لم يُثِرِ القلق، وتركوه في هذا المنصب القيادي الصغير رغم أنه ليس عضوًا في الحزب.

في الحقيقة لم يكن بخل أُوتُو جْفَانْجِل هو الذي يمنعه من الانضمام إلى الحزب، بالتأكيد هو كان حريصًا أيَّما حرص في الأمور المالية وكان بوسعه أن يظل غاضبًا لأسابيع وأسابيع إن علم بإنفاق قرش في غير موضعه. لكن بسبب أنه كان دقيقًا جدًّا في محاسبة نفسه، كان كذلك دقيقًا في محاسبة الناس، وكان واضحًا له أن هذا الحزب ليس دقيقًا في تطبيق مبادئه. والذي عايشه من خلال تربية ابنه في المدرسة ومنظمة شباب هتلر، وما سمعه من آنًا، أن كل المناصب ذات الرواتب الجيدة في المصنع تُمنح فقط لأعضاء الحزب، وأن على أكثر العمال اجتهادًا -ممن لم ينضموا إلى الحزب- أن يتجنبوهم، كل هذا قَوَّى قناعته بأن الحزب ليس دقيقًا، بمعنى أنه ليس عادلًا، وبالتالي لم يكن يريد أن تكون له أي صلة بشيء من ذلك.

ولهذا ساءَتْهُ صيحة آنًا في الصباح «أنت وزعيمكَ!» كثيرًا. صحيح أنه ما يزال مؤمنًا بنِيَّات الزعيم الشريفة، لكن يظل عليه أن يهشَّ ذلك الذباب المتملق ونَهّازي الفرص، الذين لا يعنيهم شيء سوى حلب المال ومتع الحياة، وأن يجتثَّهم من محيطه، وبذلك تتحسن الأمور. لكن إلى أن يحدث ذلك، فلن يشارك، على الأقل هو لن يفعل، وهذا ما تعرفه آنًا أيضًا، إنها الوحيدة التي يتحدَّث معها حديثًا حقيقيًا، بل إنها تعرف ذلك جيِّدًا. بالطبع هو يتفهَّم أنها قالت ذلك في غضبتها الأولية، ولعله سينسى بمرور الوقت، ولن يؤاخذها على أمر كهذا.

ها هو يقف وسط صرير وأزيز الورشة، رأسه مرفوع قليلًا ونظرته تجُول من مَكِنَة التشغيل التي تحوي المخرطة والفارِزة والمجلخة والمثقب.. إلى خط الإنتاج، إلى دقاقي المسامير، وحاملي الألواح، يلاحظ كيف يتوغل و يؤثر فيه خبر موت أُوتُّو، ثم سلوك آنًا وتْرُودِل. إنه لا يفكِّر في الأمر حقيقةً، ويعرف مع الأسف أن هذا النجار دُولْفُوس ترك الورشة قبل سبع دقائق، ولهذا فالعمل في صفِّهِ متوقف لأنه يريد مرة أخرى أن يدخن سيجارة في المرحاض أو لأنه يريد أن يثرثر؛ سيمنحه ثلاث دقائق إضافية، ثم سيحضره إلى الداخل، سيحضره بنفسه!

وفيما تنزلق عينه على عقرب ساعة الحائط، ويقرر أن دُولْفُوس -حقيقةً- بعد ثلاث دقائق سيكون قد ضيَّع عشر دقائق، يخطر بباله ذلك الملصق الكريه فوق رأس تْرُودِل، لا يفكِّر في ما إذا كان هذا خيانة عظمى للوطن، وكيف له أن يعرف أمرًا كهذا؟ لكنه يفكِّر

أيضًا في الخطاب الذي أعطاه إياه أحد الحراس فَدَسَّه في جيب سُترته، إذ وجده يحوي طلبًا موجزًا ومقتضبًا بأن يظهر رئيس الورشة جْفَانْجِل بلا تأخُّر في تمام الخامسة في مقصف الموظفين.

ليس الأمر أن هذا الخطاب أقلقه أو أزعجه، فدلقد كان في السابق ـ وقتَ أن كان المصنع ما يزال ينتج الأثاث ـ يُضطر إلى الذهاب إلى إدارة المصنع، من أجل أن يناقش تصنيع قطعة موبيليا. مقصف الموظفين هذا جديد، لكن كل الأمور لديه سواء وحتى الخامسة ما تزال أمامه ست دقائق. وحتى ذلك الوقت لا بد من جعل ذلك النجار دُولْفُوس يعود إلى خط إنتاجه. ولهذا يذهب دقيقةً مبكرًا عما كان ينتويه، هيا، فليذهب للبحث عن دُولْفُوس!

لكنه لا يجده لا في المراحيض ولا في الطرقات، ولا في الورش المجاورة، وحين عاد إلى ورشته كانت الساعة دقيقةً قبل الخامسة، وعليه أن يتحرَّك إن كان يريد أن يلتزم الموعد المحدد. ينفض سريعًا تراب النُّشارة عن جاكته ويسرع بالذهاب إلى مبنى الإدارة الذي يحوي مقصف الموظفين في الطابق الأرضي.

من الواضح أن القاعة معدَّة لعقد محاضرة، فلقد جُهِّزَت منصة لإلقاء خطبة، وطاولة طويلة للرؤساء، والقاعة كلها ممتلئة بصفوف من الكراسي. يعرف كل ذلك من اجتماعات جبهة العمل التي كان عادة ما يُضطر إلى المشاركة فيها، بَيْدَ أن تلك الاجتماعات كانت تُعقد في مقصف الورشة. الفرق الوحيد أن الجلوس هناك كان على مقاعد خشبية خام، فيما الكراسيُّ هنا معدنية وبالتالي كان يجلس أغلب الناس مثله هناك في ملابس العمل، فيما هنا أكثر الجالسين يرتدون الزي الموحد البني والرمادي ويختفي الموظفون المدنيُّون بينهم.

جلس جْفَانْجِل على كرسي قريب من الباب حتى يعود إلى ورشته في أسرع وقت ممكن بمجرد أن تنتهي الخطبة. كانت الصالة تقريبًا ممتلئة حين أتى جْفَانْجِل. يجلس بعض الرجال على الكراسي، أما البعض الآخر فما يزالون في الطرقات أو يقفون في مجموعات صغيرة مستندين إلى الجدران، ويتحدَّثون معًا.

لكن كل المجتمعين هنا يرتدون الصليب المعقوف. يبدو أن جْفَانْجِل هو الوحيد الذي لا يرتدي شارة الحزب (وبغض الطرف عن السادة المرتدين للزي الحربي، لكن هؤلاء يرتدون الشعار الوطني). ربما ثمة خطأ في دعوته إلى الحضور. يحرك جْفَانْجِل رأسه بحذر هنا وهناك، يتعرف على بعض الوجوه، فالبدين الشاحب هناك الذي يجلس بالفعل على طاولة الرؤساء، هذا هو المدير العام شْرُودِر، يعرفه من مظهره.

والقصير ذو الأنف المدبب الذي يرتدي النظارة هذا هو السيد رئيس الخزانة الذي يتحصَّل منه على ظرف الراتب كل سبت، وتشاجر معه بضع مرات بسبب الاستقطاعات الكثيرة. «غريب أنه حين كان يجلس على الخزانة لم يرتَدِ قطُّ شارة الحزب!» يفكِّر جْفَانْجِل تفكيرًا عابرًا.

أما معظم الوجوه التي يراها فهو لا يعرفها، إذ على الأرجح أن معظم السادة الجالسين هنا هم من المكاتب. فجأة تصبح نظرة جْفَانْجِل حادَّة وثاقبة، فلقد رأى وسط مجموعةٍ الرجلَ الذي حاول بلا جدوى أن يجده قبل قليل في المراحيض، إنه النجار دُولْفُوس. بَيْدَ أن النجار دُولْفُوس لا يرتدي الآن زي العمل، بل بدلة أنيقة

ويتحدَّث مع رجلين يرتديان الزي الموحد للحزب، ويكلمهما بطريقة كأنَّه ندٌّ لهما. وهو يضع الآن أيضًا شارة الصليب المعقوف، ذاك الرجل، الذي لفت نظره في الورشة عدة مرات بسبب حديثه. «هكذا الأمر إذًا!» يفكِر جْفَانْجِل. «إنه جاسوس إذًا! وعلى الأرجح ليس الرجل نجارًا حقيقيًا وربما اسمه ليس دُولْفُوس. ألم يكن دُولْفُوس مستشارًا في النمسا، وأُغتِيل؟ كلها إحالات.. وأنا لم ألحظ شيئًا مطلقًا!».

ثم بدأ يفكِر مليًا إن كان دُولْفُوس موجودًا في ورشته حين سُرِّحَ لادندورف وتريتش، وكلهم أشاعوا أنهم قد اقتِيدوا إلى معسكر التعذيب.

تبدَّلت حال جْفَانْجِل وأصبح أكثر تخشُّبًا. «حذارِ!» هتف صوت داخله. ثم «إنني أجلس هنا كأنني بين قتلة!»، بعد ذلك يفكِر «لن أدع هؤلاء الإخوة ينالون مني. فأنا لست إلا رئيس ورشة مملًا عجوزًا لا أفهم شيئًا على الإطلاق. لكن أن أشارك، كلا، لن أشارك في شيء من هذا. لقد رأيت الأمر صباح اليوم مع آنًّا وبعد ذلك مع تْرُودِل. لن أشارك في شيء من هذا، لا أريد لأي أم أو لأي عروس أن تُغتال بسببي، عليهم ألا يُدخلوني في أمورهم».

هكذا يفكِر، وفي هذه الأثناء امتلأت الصالة حتى آخر كرسي. وطاولة الرئاسة مزدحمة بأصحاب الزي البني والمعاطف السوداء، وعند منصة الخطابة يقف الآن جنرال أو كولونيل -لم يعرف جْفَانْجِل قطُّ أن يفرق بين الأزياء وما تدل عليه من رُتَبٍ- متحدثًا عن الوضع في الحرب.

بالطبع الوضع رائع، والانتصار على فرنسا يُحتفى به بالشكل المستحق، وربما هي فقط مسألة أسابيع قليلة ثم تركع إنجلترا أيضًا وتسوَّى بالأرض. بعد ذلك اقترب المتحدث تدريجيًّا من النقطة التي تهمه: حينما تُحقِق الجبهة انتصارات كبيرة مثل هذه، ينتظر أيضًا أن يفي الوطن بالتزاماته. وما تلا ذلك جعل الأمر يبدو كأن هذا المارشال أو الجنرال أو الكولونيل أو النقيب- قَدِم رأسًا من مركز العمليات الرئيسية لكي يبلغ المستخدمين في مصنع «كْرَاوْزِه وشركاه للأثاث» برسالة مباشرة من الزعيم مفادها أنَّ عليهم وبشكل حتمي زيادة الإنتاج. فالزعيم ينتظر أن يرفعوا معدل الإنتاج بنسبة 50 في المائة في الشهور الثلاثة المقبلة، وأن يُضاعَف الإنتاج في ستة الأشهر القادمة. وتُقبَل اقتراحات الجميع بشأن تنفيذ ذلك. أما الذي لن يشارك في هذا فسيعدُّ من المخرِّبين، وسيُعامَلُ في هذا الإطار.

وفيما المتحدث يلقي بالتحية النازية «زيج هايل» يفكِّر أُوتُّو جْفَانْجِل.. «هل تركع إنجلترا في غضون عدة أسابيع، فتنتهي الحرب؟ ونحن سنرفع إنتاجنا الحربي في غضون ستة أشهر بنسبة 100 في المائة! كيف يمكن تصديق هؤلاء القوم؟».

لكنه يجلس ثانية وينظر إلى المتحدث التالي الذي يقف أمام المنبر في زيّ بني بصدر منتفخ مُزدان بالميداليات والأوسمة والنياشين. هذا المتحدِّث الحزبي طراز مختلف عن المتحدث العسكري الذي سبقه، فهو منذ البداية يتحدَّث بحدة وعنف لدرجة حولت حديثه إلى صراخ. يتحدَّث عن الروح غير المواتية التي تسود المصانع.. رغم النجاحات الباهرة للزعيم ولجيش الدفاع. ولا

يستنكف أن يتحدَّث عن الساخرين الهازلين. ويقول إنه -الآن- سَيُتَخَلَّص من آخر زمرة منهم. وسينالون ما يستحقون، سيُرسَلون إلى نزهة بالزلاقة، ويُضرَبون على أفواههم إلى أن تختلط أسنانهم وتتكسَّر! لقد كان الشعار اللاتيني «لكل واحد ما يستحق» معلقًا على قباب القصور في الحرب العظمى الأولى، وهذا الشعار معلق الآن بالألمانية على بوابات معسكرات التعذيب! حيث يتلقى كل واحد الدرس الذي يلزمه، وكل واحد يهتم بإدخال رجل كهذا أو امرأة كتلك إلى ذلك المكان، فلقد أسدى خدمة للشعب الألماني وليعتبر نفسه من رجال الزعيم.

- أما أنتم، يا كل من يجلس هنا.. (يواصل المتحدث صراخه)

أنتم يا رؤساء الورش ورؤساء الأقسام ويا أيها المراقبون والمديرون، فسأعاقبكم بنفسي لو لم تكن أقسامكم نظيفة! والنظافة من صُلب القيم النازية! هذا فقط. أما من سيثبُت أنه يلعب بذيله ويُدَلِّي لسانه، ولا يبلغ عن كل شيء مريب حتى عن أصغر تفصيلة- فسَأُطَيِّره هو نفسه إلى معسكر التعذيب. سأحرص على ذلك بشكل شخصي، وسواء كُنتَ مديرًا أو رئيسَ قسم خرعًا، سأؤدبك بنفسي، حتى لو اضطُررت إلى نفض أجسادكم حتى تتطاير منها تلك الرخاوة!

يقف الخطيب لوهلة وقد رفع يديه المتخشبتين من الغيظ، أما وجهه فصار أحمرَ يميل إلى الزُّرقة. وأما الجمع فخيم عليهم صمت القبور بعد هذا الانفجار، وكانت قسمات وجوههم جميعًا ممتعضة، فهؤلاء حُوِّلوا فجأة وبلا مواربة إلى جواسيس على زملائهم. يبتعد الخطيب عن المنبر وتُحدِثُ خطواته وقعًا ثقيلًا، في الوقت الذي ترن

فيه النياشين على صدره خفيفًا. والآن يقف المدير العام شْرُودِر بوجهه الشاحب ويسأل بصوت خفيض لو أن أحدًا يريد أن يطلب الكلمة.

يتنفس الجمع الصُّعَداء، ويعتدلون في مجلسهم كأن كابوسًا مزعجًا قد انزاح ليعود اليومُ إلى حالته الطبيعية. يبدو أنَّ أحدًا لن يتكلم بالمزيد، وربما يريد كل واحد منهم أن يغادر هذه القاعة بأسرع وقت ممكن، كما أن المدير العام يريد أن يختتم التجمع بالتحية النازية «هايْلْ هتلر». وفجأة يقف رجل في الخلفية يرتدي قميص العمل الأزرق ليقول في ما يتعلق برفع الإنتاج في ورشته إن هذا أمر في غاية السهولة؛ لا بد فقط من تركيب عدة مَكِنَات. وأخذ يعدد أنواع المَكِنَات اللازمة وكيفية تركيبها. أجل، ثم ينبغي طرد ستة أو ثمانية أشخاص من ورشته فهم متسكِّعون ولا يصلحون لأي شيء. وبذلك سيحقِّق مضاعفة الإنتاج بنسبة 100 في المائة خلال ربع سنة.

يقف جْفَانْجِل هناك، باردًا غيرَ مُبالٍ، لقد قَبِلَ الصِّراع. يشعر أنهم جميعًا يحدقون إليه، هو هذا الحِرفِيُّ البسيط، الذي لا ينتمي إلى تلك الصفوف التي يجلس فيها السادة النبلاء. لكنه قطُّ ما كان يقيم للناس وزنًا، كل شيء سواء بالنسبة إليه، ولا يهمه إن كانوا يحدقون إليه. والآن.. ما دام أفرغ ما في جعبته.. يتشاور السادة الرؤساء على المنصة بشأنه، والخطباء يريدون أن يعرفوا من عساه يكون هذا الرجل في القميص الأزرق. ثم يقف الكولونيل أو النقيب ويقول لجْفَانْجِل إن الإدارة التقنية ستتناقش معه بخصوص المَكِنَات، لكن ماذا يعني بستَّةِ أو ثمانيةِ العمال الذين ينبغي طردُهم من الورشة؟

أجاب جْفَانْجِل ببطء وحسم:

- بعضهم لا يستطيع العمل، وبعضهم لا يريد. ها هو ذا واحد منهم يجلس هناك!

ويشير بسبابته الضخمة المتصلبة بلا أي مواربة نحو النجار دُولْفُوس الذي يجلس أمامه بعدة صفوف.

والآن ينفجر بعضهم في الضحك، بينهم أيضًا النجار دُولْفُوس، الذي أدار رأسه نحوه ونظر إليه متهكمًا. لكن جْفَانْجِل يقول بدون أن تتحرك في وجهه قسمة:

- أجل؛ كلام، سجائر في المرحاض، تفويت العمل، هذه أمور تعرفها كلها، سيد دُولْفُوس!

وعلى طاولة الرؤساء تقاربت الرؤوس ثانية للتداول في شأن ذلك المهووس الذي يشبه بومة غريبة الأطوار، لكن لا شيء يوقف الخطيب البُنيَّ الذي يثب ويصيح:

- أنت لست عضوًا في الحزب. لم لستَ عضوًا في الحزب؟

ويجيب جْفَانْجِل نفس الإجابة التي يقولها كلما سُئِل هذا السؤال:

- لأنني أحتاج إلى كل قرش، لأن لي أسرة، لهذا لا أقدر على تلك المصروفات!

يصيح البُنّي:

- بل لأنك كلبٌ بخيل! لأنك لا تريد أن تضحِّي من أجل زعيمك وشعبك! قل لي إذًا كم يبلغ عدد أفراد أسرتك؟

وببرود أجابه جْفَانْجِل في وجهه:

- لا تحدثني اليوم عن أسرتي، أيها السيد العزيز! فاليوم جاءني خبر وفاة ابني في الحرب!

ولوهلة خيَّم الصمت على القاعة. ومن فوق صفوف كراسيِّ الجالسين تبادلت عيون الزمرة البنية وعيون رئيس الورشة العجوز التحديق بعضها إلى بعض. وبعد ذلك يجلس أُوتُّو جْفَانْجِل فجأة كأنَّ كل شيء قد حُسم الآن، وبعده بقليل يجلس أيضًا البُنيُّ. ومرة أخرى ينهض المدير العام شْرُودِر ويلقي بالفعل تحية النَّصر النازية على اسم الزعيم «زيج هايْلْ!».. لكن ضعيفًا. ومن ثَمَّ اختتم الاجتماع.

وبعد خمس دقائق لاحقة وقف جْفَانْجِل مرة أخرى في ورشته، وبرأس مرفوع قليلًا حرك نظراته من مَكِنَات التشغيل إلى خط الإنتاج، ومن هناك إلى النجارين والحدادين وحاملي الألواح... لكنه لم يعد نفس جْفَانْجِل القديم الذي يقف هناك. إنه يشعر بذلك، إنه يعرف ذلك، لقد احتال عليهم جميعًا. ربما احتال بطريقة قبيحة لأنه استغلَّ موت ابنه، لكن هل يتعيَّن على الإنسان أن يكون نزيهًا مع هؤلاء الوحوش؟ «كلا!» قال لنفسه بصوت يكاد يُسمع.. «لا لن تعودَ جْفَانْجِل القديم ثانية أبدًا. أشعر بالفضول نحو ما يمكن أن تقوله آنًا عن كل ذلك. تُرى ألن يعود دُولْفُوس ثانية إلى موقعه؟ عليَّ إذًا أن أطلب واحدا غيره اليوم؛ نحن متعطلون. لكن لا ينبغي أن أخشى شيئًا، ها هو ذا دُولْفُوس يأتي»، بل إنه قادم برفقة واحد من رؤساء الأقسام وافتتحوا الكلام مع رئيس الورشة أُوتُّو جْفَانْجِل مصرِّحين بأنه يدير هذه الورشة، ولكن، عليه أن يترك منصبه في جبهة العمل الألمانية للسيد دُولْفُوس.

- مفهوم؟

- ما أجمل ما فهمتُ! أنا سعيد لأنك تأخذ مني ذلك المنصب يا دُولْفُوس! إنَّ سمعي يضعف مع الوقت، والتنصُّت بالطريقة التي طلبها السيد الخطيب قبل قليل أمر لا أستطيعه في ضوضاء هذا المكان مطلقًا.

يومئ دُولْفُوس إيماءات قصيرة ويقول بعجالة:

- وما رأيتَه أو سمعتَه هناك فإياكَ أن تنبس عنه بكلمة لأي إنسان، وإلا...

يجيب جْفَانْجِل ببعض الاستياء:

- لمن يمكن أن أتحدث يا دُولْفُوس؟ هل سمعتني أتحدث لأي بشر؟ هذا أمر لا يهمني، أنا لا يهمني سوى عملي وأعلم أننا عندنا تأخير اليوم. وسيستغرق الأمر بعض الوقت إلى أن تعود لتقف أمام مَكِنَتِك! (وبنظرة على الساعة قال)

لقد فَوَّتَّ حتى الآن ساعةً وسبعًا وثلاثين دقيقة!

بعد ذلك بلحظات يقف النجار دُولْفُوس بالفعل على المنشار، وبسرعة البرق. ولا أحد يعلم من أين انتشرت في الورشة شائعة أن دُولْفُوس قد نال عقابًا بسبب تدخينه المستمر وثرثرته التي لا تنتهي.

بَيْدَ أن رئيس الورشة أُوتُّو جْفَانْجِل يتحرَّك بحذر من مَكِنَة إلى أخرى، يتدخل، يحدق إلى عيني من يثرثر. ويفكِّر.. «لقد تخلصت منهم، أخيرًا وإلى الأبد! والآن لا تساورهم أي شكوك في أني مجرد أبله عجوز! ولأنني خاطبتُ البَنِّيَّ قائلًا «أيها السيد العزيز!» فلقد

قضى ذلك عليهم! أنا فقط ينتابني الفضول حول ما يمكنني الشروع فيه الآن. لأني أعلم أنني لا بد أن أفعل شيئًا، وسأفعله، فقط لست أعرف ما هو بعد».

7

اقتحامٌ لَيلِيٌّ

في المساء، وبعد أن تأخر الوقت كثيرًا عما اتُّفِق عليه، تقابل كلٌّ من إيمِيلْ بُورْكْهاوْزِن وإيْنُوْ في مطعم «فيرنر ليفن»، وقد جاء ذلك كنتيجة حقَّقتها إيفا كْلُوْجِه بغضبتها المقدسة. جلس الرجلان معًا يحتسيان البيرة على طاولة في إحدى الزوايا. وهنالك أخَذَا يتهامسان، وظَلَّا يتهامسان لمدة طويلة جدًّا -وأمامهما كأس بيرة واحد- إلى أن طالبهما النادل بأن يعود كل منهما إلى امرأته، قائلًا إنه قد نبَّههما بالفعل ثلاث مرات بأن ساعة الإغلاق قد حانت.

وفي الشارع أكملا كلامهما، وبعد أن اجتازا زقاق برينسلاور، طلب إيْنُوْ أن يعودا، لأنه خطر بباله، أنه ربما يكون الأفضل أن يجرِّب مع واحدة كان يعرفها من قبلُ تُدعى تُوتِّي.

«تُوتِّي البابون»*، ربما يكون ذلك أفضل من تلك القصص الخائبة...

أما إيمِيلْ بُورْكْهاوْزِن فكاد ينفجر من كل هذا الجهل. لقد أكدَّ لإيْنُوْ للمرة العاشرة، للمرة المائة، أن الحديث هنا لا يدور عن قصص خائبة. والأمر هنا يتعلق بمصادرةٍ -تكاد تكون قانونية-

* قرد البابون من أكبر أنواع القردة في العالم، ويتصف بالنَّهَم في أكل النباتات والحيوانات الصغيرة. (المترجمة)

ستنجح تحت حماية الشرطة العسكرية. ثم إنها ليست سوى يهودية شمطاء، لن يسأل عنها أحد. ثم إن كُلًّا منهما سينصلح حاله لفترة طويلة، والشرطة والقضاء لن يتدخلا في ذلك.

وهو الأمر الذي رد عليه إِيْنُوْ لمرة جديدة؛ لا، لا، لم يتورط في هذه المسائل من قبل، ولا يفهم فيها مطلقًا. إن سألته عن النساء فنعم، إن سألته عن رهانات خيل السباق فألف نعم، لكن أن تورِّطه في صيدة خائبة وسَمَكة فاسدة فَلَا.

لقد كانت تُوتِّي دائمًا طيبة رغم أنهم يطلقون عليها لقب «البابون»، بالتأكيد هي لن تفكر كثيرًا في أنها أنقذته من مأزقه ببعض المال وبعض البطاقات للحصول على المواد الغذائية، من دون أن تعرف.

ومع هذه الفكرة كانا قد وصلا إلى زقاق برينسلاور. بُورْكْهاوْزِن، ذلك الرجل الذي يتأرجح ما بين التملق والتهديد، قال غاضبًا فيما يقرطم شعيرات من شاربه تتطاير هنا وهناك:

- من بحق الآلهة طلب أن تفهم أي شيء؟ «سأُؤَرجح الطفل» وحدي. وإن أردتَ أن تظل واقفًا ويداكَ في جيبك فلتفعل. بل سأحزم لك حقائبك إن كنت تريد! لكن افهم أخيرًا يا إِيْنُوْ أنني أريدك معي كي أحمي ظهري من مقالب الشرطة العسكرية، وكشاهد من نوع ما، على أن القسمة عادلة. فقط فكِّر في كل الممتلكات التي يمكن أن نحصل عليها من ربة عمل يهودية غنية مثلها. حتى لو أن الجيستابو ضيَّع بعض الأشياء في المرة التي قبض فيها على زوجها!

وافق إينُوْ كْلُوْجِه فجأة، من دون دفاعات أو تفكير زائد وبدون مراوغة. الآن يَجزُ الخطى بسرعة نحو شارع يابْلونْسْكِي. لكن الذي دفعه إلى التغلب على خوفه، وإلى قول «نعم» لا مبالية، ليس هو حديث بُورْكْهاوْزِن، ولا ترقُّب الغنيمة الثمينة، وإنما -بشكل مباشر- الجوع. وجد نفسه فجأة يفكِّر في غرفة الخزين الخاصَّة بالسيدة رُوْزِنْتال، وأن اليهود دائمًا يسعدون بتناول الطعام الجيد، وأنْ لا شيء في الحياة طاب له مذاقُهُ مثل رقبة الإوزة المحشوة التي دعاه إليها ذات مرة خياط يهودي.

وفجأة هام في خيالاته الجائعة تلك، حتى كاد يجدُ رقبة إوزة محشوة في مخزن رُوْزِنْتال. ولقد رأى بعين خياله قِدْرَ البورسيلين التي كانت موضوعة فيها بوضوح تام أمام عينيه. والرقبة الراقدة على طبقة من الدهن الثخين الذي تجمَّد فوق المرق، وكانت محشوة عن آخرها وطرفاها مربوطان بخيط. سوف يأخذ القِدْر ويسخن كل شيء على موقد الغاز ولن يبالي بغير ذلك. أما بُورْكْهاوْزِن فليفعل ما يشاء! فهذا أمر لا يهمُّه البتة. سيغمس الخبز في المرق الثخين الدافئ الممتلئ دهنًا، المُبهَّر بالتوابل النفاذة، ثم سيأكل الإوزة المحشوة بيده فيتصبب الدهن حولها من كل الجوانب.

- هلَّا أغلقت فمك يا إيمِيلْ، أنا على عجلة!

- لِمَ فجأة؟

سأل بُورْكْهاوْزِن، لكن في الحقيقة كان الأمر يناسبه. ثم إنه قرر أن يغلق فمه طواعية، فهو سيكون سعيدًا لو أن المسألة اعتُبرت منتهية، كما أنها لا تتعارض مع مجال تخصصه. إنه لا يشعر بالخوف بسبب

الشرطة مثلًا أو بسبب تلك الشمطاء اليهودية، إذ أي ضرر كبير قد يقع عليه إن قرر أن يضم أملاكها الكثيرة إلى أملاك العِرق الآري؟ لكنه لا يخشى سوى آل بِيزْزِيكِه. إنهم عصابة ملعونة وخائنة، وهم من الوضاعة بحيث يمكن لهم أن يحفروا حفرة لزميل لهم. وبسببهم فقط أخذ معه هذا الأرنبَ الأهطلَ المدعُوَ إِيْنُوْ؛ إنه شاهدٌ لا يعرفونه وسيكبح أذاهم.

وفي شارع يابْلونْسْكِي سارت كل الأمور بسلاسة. كانت الساعة تقارب العاشرة والنصف حين فَتَحَا باب البناية بمفتاحٍ سَليم وقانوني، ثم تنصَّتَا في بئر السلم، وحين تيقَّنَا أنْ لا شيء يتحرَّك ضغطَا مفتاح النور، وخلعَا الأحذية على ضوئه؛ «لأننا يجب أن نراعي نوم المستأجرين الهانئ» قال بُورْكْهاوْزِن مبتسمًا.

ولما انطفأ النور ثانية، صَعِدَا بخُفُوت وخفة وتمَّ كل شيء بسلاسة وسكون، لم يقترفَا أيًّا من الأخطاء التي يرتكبها المبتدئون مثل إحداث ضوضاء، أو الاصطدام بشيء بسبب السرعة، أو الجري بطريقة تجعل الأحذية تنخلع من أقدامهما، لا، لقد صعدَا الطوابق الأربعة بكل هدوء. أي إنهما أبليا بلاءً حسنًا في صعود السلالم رغم أنهما ليسا لصين حقيقيين، ورغم أن كلًّا منهما كان متوتِّرًا على نحو ما، أحدهما بسبب الإوزة المحشوة، والآخر بسبب الغنيمة وآل بِيزْزِيكِه.

أما عن باب رُوْزِنْتال فلقد تخيَّل بُورْكْهاوْزِن أن المسألة ستكون أصعب مئات المرات، لكن بمجرد أن أدخلَ المفتاح في الباب انفتح بسهولة كبيرة ولم يُضطرَّ حتى إلى إيصاده. يا لها من سيدة مستهترة! رغم أن كونها يهودية لا بد أن يجعلها أكثر حذرًا! وهكذا

دخل كلاهما إلى الشقة، بدون حتى أن يعلَمَا كيف، إذ تم كل شيء بسرعة فائقة.

ثم أشعل بُورْكْهاوْزِن النور في بئر السلم بلا خوف، إنه الآن ليس خائفًا و«إن ندَّت عن الخنزيرة اليهودية أيُّ خنخنة، فسأنهال على رأسها ضربًا» قال، تمامًا مثلما أعلن أمام بَالْدُوْر بِيرْزِيكِه صباح اليوم. لكنها لم تصدر أي صوت، في البداية تفقَّدَا بهدوء الأمور في الرَّدهة الصغيرة التي كانت ممتلئة بالأثاث والحقائب والصناديق. أجل، آل رُوْزِنْتال لديهم شقة كبيرة إلى جوار دكانهم وعندما يضطر الواحد إلى أن يخرج فجأة، وليس لديه إلا حجرتان بمطبخ، فلا بد أن تتكدَّس الأغراض بعضها فوق بعض، أليس كذلك؟ علينا أن نتفهم أمرًا كهذا.

شَعَرَا بحكَّة في أصابعهما تدفعهما إلى البدء في التفتيش والبحث وحزم الأمتعة. بَيْدَ أن بُورْكْهاوْزِن رأى أنَّ الأصح هو أن يتفقَّدا أولًا رُوْزِنْتال ويَلُفَّا منديلًا حول فمها، حتى لا تسبب مشكلة. كانت الغرفة ممتلئة بالأغراض لدرجةٍ تُصعِّب الحركة، وسرعان ما فهمَا كُنْهَ الأغراض الموجودة بالغرفة، وهي أشياء لن يستطيعَا نقلها حتى في عشرِ ليال، عليهما فقط استخراج أفضل الموجود. أما الغرفة الأخرى فلم تكُن حالها مختلفة، وفي القمرة كانت الحال نفسُها. فقط لم يجِدَا رُوْزِنْتال! سريرها لم يمس. ولأجلِ النظام بحثَ بُورْكْهاوْزِن كذلك في المطبخ ثم في الحمام، لكن السيدة لم تكن هناك، وهذا ما يسميه المرء حظًا سعيدًا، لأنه يوفر المتاعب وييسِّر العمل بشكل هائل.

عاد بُورْكْهاوْزِن إلى الغرفة الأولى وبدأ في التنقيب، لم يلاحظ أن زميله إيْنُوْ اختفى. كان يقف في قمرة الخزين وشعر بمرارة الخذلان لأنه لم يجد رقبة الإوزة المحشوة، وإنما فقط بعض البصل ونصف رغيف خبز. لكنه بدأ في الأكل، قطع البصل لنفسه شرائح ووضعها على الخبز، وحتى هذا طاب له مذاقه بعد الجوع الشديد.

وفيما يمضغ إيْنُوْ كْلُوْجِه لقمته سقط نظره على الجزء السفلي من مكتبة، ورأى فجأة، أن آل رُوْزِنْتال حتى عندما لا يكون لديهم ما يأكلونه، فإن لديهم بعض الأشرِبَة. لأن الرف السفلي كان يحوي زجاجات مرصوصة بعضها فوق بعض، زجاجات نبيذ وخمر كذلك. وإيْنُوْ الذي هو في الجوانب الأخرى شخص معتدل، خاصَّة في المسائل التي لا تتعلق برهانات الخيول، سرق زجاجة نبيذ حلو، ثم بلَّل بها شرائح البصل التي يتناولها. لكن السماء وحدها تعرف كيف كان مذاق ذلك، إذ فجأة عافت نفسه ذلك الكحول الرخيص. هو -الذي بوسعه أن يمضي ثلاث ساعات أمام نفس كأس البيرة- الآن يفتح لنفسه زجاجة كونياك، ويرتشف عدة رشفات سريعة، ثم -في خمس دقائق فقط- أفرغ نصف الزجاجة. ربما كان الجوع هو السبب.. أو الإثارة هي التي غيَّرته لهذه الدرجة. ويئس من الأكل.

وبعدها لم يعد مهتمًّا بالخمر كذلك وذهب للبحث عن بُورْكْهاوْزِن، كان ما يزال يفتِّش في الحجرة الكبيرة، فتح الدواليب والحقائب، وكل ما كان مضبوبًا فيها أخرجه ورماه على الأرض، باحثًا عن شيء أفضل.

- أيها الشاب، أيها الشاب، يبدو أنهم أخذوا معهم كل محتويات المغسلة!

قال إيْنُوْ مستثارًا.

- لا تتكلم. الأفضل أن تساعدني! (كانت هذه إجابة بُورْكْهاوْزِن)

لا بد أنَّ ثمة مجوهرات مخبأة ونقودًا، فهؤلاء كانوا في السابق أناسًا أغنياء، آل رُوْزِنْتال، مليونيرات، وأنت تتحدَّث عن صيدة خائبة وسمكة فاسدة! يا لك من ثور!

ظلَّا يعملان صامتَيْنِ لبعض الوقت، وهذا يعني أنهما ألقيا بمزيد من الأشياء على الأرض التي امتلأت عن آخرها بالملابس والغسيل والأجهزة لدرجة أنهما صارا يَطَآنِها بأحذيتهما. ثم قال إيْنُوْ الذي كان مخمورًا بتأثير الويسكي:

- لم أعد أرى شيئًا آخر. أحتاج إلى شرب كأس أخرى لأصفي ذهني. أحضِر لنا بعض الكونياك من غرفة الخزين يا إيمِيلْ!

ذهب بُورْكْهاوْزِن بدون مهاترات وعاد بزجاجتَيْ ويسكي، فجلسا بلا مبالاة فوق الغسيل وظلَّا يتناولان رشفة بعد الأخرى ويناقشان الحال بجدية ودقة.

- يبدو أننا لن نفرُغ من هذه الأغراض بسرعة يا بُورْكْهاوْزِن.. لن نفرغ من هذه الكراكيب بسرعة، كما أننا لا نريد أن نجلس هنا طويلًا. أفكر أن يأخذ كل واحد منا حقيبتين ونهرب بهما أولًا. وأعتقد أننا يمكن أن نعيد الكَرَّةَ في ليل الغد!

- أتفق معك يا إيْنُوْ، لا أريد أن أجلس هنا أكثر من ذلك، بسبب آل بِيرْزِيكِه.

- ومن يكون هؤلاء؟
- أجل.. أناسٌ... لكن عندما أفكر أن أهرب بحقيبتين مليئتين بالغسيل، وأترك هنا حقيبة مليئة بالمجوهرات والنقود، أشعر أني أريد أن أهشم رأسي. لا بد أن تَدَعَني أبحث أطول قليلًا. نخبك. إيْنُوْ!
- في صحتك إيمِيلْ! لماذا لا نبحث لوقتٍ أطول قليلًا؟ الليل طويل. ثم إننا لن ندفع حساب الكهرباء. لكن الأمر الذي أريد أن أسألك عنه.. إلى أين ستذهب بحقيبتيك؟
- لماذا؟ ماذا تعني بهذا السؤال يا إيْنُوْ؟
- أبدًا. فقط أريد أن أعرف أين ستخبئهما؟ هل ستضعهما في شقتك؟
- لا، هل تعتقد أن بوسعي أن أحملهما إلى إدارة المفقودات؟ بالطبع سآخذهما إلى شقتي، عند زوجتي أُوْتّي. وباكرًا أحمل البضاعة المسروقة إلى شارع مونتس وأوزعها، ثم تعود العصافير إلى الزقزقة!

حَكَّ إيْنُوْ الفلِّين على رقبة الزجاجة:

- اسمع يا عزيزي، كي يزقزق العصفور.. في صحتك يا إيمِيلْ! أنا، لو كنت مكانك، فلن أفعل ما أنت مُقدم عليه، في الشقة وعند الزوجة، السيدة ليست في حاجة إلى معرفة مكتسباتك الجانبية. كلا، لو كنت مكانك لفعلت الأمر مثلما سأفعله أنا: أسلم الأمتعة في مستودع الأمانات. أما إيصال الإيداع فأرسله إلى نفسي، لكي

يُحفظ بشباك البريد، وبهذا لن يجدوا عندي أي شيء، ولا يمكن لأي أحد أن يُثبت شيئًا ضدي.

- لقد فكرتَ في المسألة جيِّدًا يا إيْنُوْ! (قال بُوزْكْهاوْزِن مستحسنًا) ومتى تستعيد هذه الكراكيب ثانية؟

- حسنًا، عندما تهدأ الرياح، يا إيمِيلْ، رغم كل شيء!

- وكيف ستعيش حتى ذلك الوقت؟

- حسنًا، لقد قلتُ لك من قبلُ، سأذهب إلى تُوتِي. حينما أحكي لها عن الفَعلة التي اقترفتُها فسوف تتلقَّفني بمحبة بين ذراعيها!

- جيد. جيد جدًّا! (أثنى بُوزْكْهاوْزِن على كلامه)

وحينما تذهب إلى المستودع سأضع أنا أغراضي في محطة القطار. أتعرف؟ هكذا لن نلفت النظر!

- هذا أيضًا تدبير ليس سيِّئًا بالمرة، يا إيمِيلْ، لك أيضًا دماغ مضيء!

- لدي خبرة من الاختلاط بالآخرين.. (يقول بُوزْكْهاوْزِن بتواضع) يُسمَعُ هذا أو ذاك. الإنسان مثل البقرة، في كل يوم يتعلم فكرة!

- أتفق معك! إذًا في صحتك يا إيمِيلْ!

- في صحتك يا إيْنُوْ!

ظل كلٌّ منهما لوهلة ينظر إلى الآخر بصمتٍ، وبعينين راضيتين، ومن آن إلى آخر يشربان. ثم قال بُوزْكْهاوْزِن:

- لو أنك استدرتَ يا إيْنُوْ، لكن لا يتعيَّن أن تفعل ذلك حالًا، وراءَكَ راديو، لا بد أنه يحوي أنابيبه العشرة. سأضعه في حقيبتي.

- افعل ذلك يا إيمِيلْ؛ الراديو جيد دائمًا! سواء احتفظت به أو بعتَه! دائمًا الراديو جيد!
- إذًا لِنَرَ إن كنا سنتمكن من حشر ذاك الشيء في الحقيبة، ثم ندسُّ الغسيل حوله.
- هل ينبغي أن نفعل ذلك في التو، أم نشرب كأسًا قبل ذلك؟
- يمكننا أن نسمح لأنفسنا بشرب كأس أولًا يا إيْنُوْ. لكن كأس واحدة فقط!

وعليه أخذا كأسًا وكأسًا أخرى وثالثة، ثم وقفا ببطء على قدميهما، وجاهدا كي يضعا راديو كبيرًا له عشرة أنابيب في حقيبة يد كان يمكن أن تسع مذياع الشعب*.

وبعد برهة من العمل المضني قال إيْنُوْ:

- لا جدوى، اترك الراديو للشمطاء يا إيمِيلْ، خد الحقيبة بالبِدَلِ أفضل لك.

---

* مذياع الشعب: طراز من الراديو طوَّره أوتو جرايسنج بطلب من يوزف جوبِلز وزير الدعاية في ألمانيا النازية، بهدف جعل تقنية الاستقبال الإذاعي متاحة لجميع أطياف الشعب، فقد أدرك جوبِلز أهمية هذه التقنية الجديدة في ذلك الوقت ولذلك عمل على أن يكون لها انتشار واسع. وقد كان تصميم جميع نماذج مذياع الشعب يسمح باستقبال المحطات المحلية فقط، وذلك لضمان أن الدعاية النازية تصل بسهولة إلى جميع فئات الشعب، فيما وسائط الإعلام الأخرى مثل خدمة «بي بي سي» العالمية غير ممكنة الاستقبال. جدير بالذكر أن الاستماع إلى الإذاعات الأجنبية في عهد ألمانيا النازية عُدَّ جريمة، أما في المناطق المحتلة مثل بولندا فقد كان الاستماع إلى المذياع من قبل المواطنين غير الألمان خروجًا عن القانون. تراوحت العقوبة من مصادرة جهاز المذياع والسجن، إلى عقوبة الإعدام خاصة في مراحل الحرب الأخيرة. (المترجمة)

- لكن أُوْتِّي زوجتي تحب سماع الراديو!

- ظننتُكَ لن تحكي لشمطائك عن فَعلتنا هذه. لقد سكرتَ يا إيمِيلْ!

- وأنت وتُوتِّي؟ كلاكما أحمق؟ من أين لك بتُوتِّي هذه؟

- ستغرِّد! وأقولها لك.. تغريدُها سينتشر!

ثم يحكُّ من جديد الفلين الرطب على رقبة الزجاجة:

- فلنشرب كأسًا أخرى!

- في صحتك يا إيْنُوْ!

يشربان ثم يكمل بُوزْكْهاوْزِن:

- لكنِ الراديو، أريد أن آخذه فعلًا. فإن كان هذا العجوز لا يريد أن يندس في حقيبة فسأعلقه بحبل على صدري، وبذلك ستكون يداي حُرَّتَيْنِ.

- افعل ذلك يا رجل. نريد أن نحزم الأمتعة معًا.

- أجل هذا ما نريد. أزف الوقت!

لكن بقيا واقفين يحدق كل منهما إلى الآخر بحماقة وهو يبتسم.

- حين يفكِّر الإنسان.. (بدأ بُوزْكْهاوْزِن يقول)

إنها حقًّا حياة جميلة. كل الأشياء الجيدة هنا، ونحن نستطيع أن نأخذ كل ما نريد، وفي الوقت نفسه فنحن بصراحة نفعل خيرًا حين نسلب اليهودية كل الأشياء التي سطت عليها.

- أتفق معك يا إيمِيلْ، نحن نفعل خيرًا، ونسدي صنيعا إلى الزعيم والشعب الألماني. هذه هي الأوقات الطيبة التي وَعَدَنا بها.

- وزعيمنا يفي بوعده، إنه يفي بوعده يا إِيْنُوْ!

ينظر كلٌّ منهما إلى الآخر بتأثر، وقد ترقرقت الدموع في عينيهما.

- ماذا تفعلان هنا، أنتما الاثنان؟! (رنَّ صوتٌ حاد قادم من ناحية الباب)

يجفلان ويَرَيان فتًى قصيرًا في زِيٍّ بُني.

ثم يومئ بُورْكْهاوْزِن إلى إِيْنُوْ ببطء وحزن:

- هذا هو السيد بَالْدُوْر بِيرْزِيكِه، الذي حكيتُ لك عنه يا إِيْنُوْ! الآن ستبدأ المتاعب!

8

مفاجآت صغيرة

فيما المخموران يُحدِّث بعضهما بعضًا، كان كل رجال عائلة بِيرْزِيكِه قد اجتمعوا في الحجرة. وقف بَالْدُوْر بجوار إِيْنُوْ وإيمِيلْ بقوامه الرشيق وعيناه تلمعان وراء نظارته حادة الصقل، ووراءه بمسافة قصيرة يقف الأخوان بالزي الأسود للشرطة العسكرية النازية لكن بدون قلانِس. وقُربَ الباب، يقف أيضًا صاحب الحانة السابق بِيرْزِيكِه العجوز، كأنَّ من سبقوا غير كافين لإفساد سلام اللحظة. أيضًا عائلة بِيرْزِيكِه كانت مخمورة، لكنْ فَعَلَ الخمر فيهم تأثيرًا مغايرًا عن تأثيره في اللصين المقتحمين. فهو لا يجعلهم عاطفيين، وحمقى، ونَسَّائين، لأن آل بِيرْزِيكِه صاروا أكثر حدَّةً، وجشعًا، وأكثر توحُّشًا من حالهم في وضعهم العادي.

يسأل بَالْدُوْر بِيرْزِيكِه بحدة:

- والآن.. هل نسمع إجابة سريعًا؟ ماذا يفعل كلاكما هنا؟ أم أن هذه مثلًا شقتكما؟

- لكن يا سيد بِيرْزِيكِه! (يقول بُوزْكْهاوْزِن بصوت متذمر)

يتعمد بَالْدُوْر أن يظهر كأنَّه لم يتعرف على الرجل إلَّا الآن:

- لكن هذا بُوزْكْهاوْزِن من شقة القبو في البيت الخلفي! (يصيح بدهشة بالغة لأخويه)

لكن يا سيد بُورْكْهاوْزِن ماذا تفعل هنا إذًا؟

تتحول دهشته إلى سخرية:

- أليس من الأفضل أن تعتني -خصوصًا في منتصف الليل- بزوجتك، أُوْتِّي الصغيرة الطيبة؟ فلقد سمعت أنَّ احتفالات تُجرى هناك يحضرها رجال أفضل، وأن الأطفال أيضًا يسكرون حتى آخر الليل ويترنحون في الحَوش. ضعِ الأطفال في الفراش يا سيد بُورْكْهاوْزِن!

- متاعب! (يغمغم بُورْكْهاوْزِن)

لقد عرفتُ فورًا بمجرد أن رأيتُ الأفعى التي ترتدي نظارةً.. متاعب!

يومئ إلى إيْنُوْ مرة أخرى بحزن.

يقف إيْنُوْ كْلُوْجِه عليه سيماء البَلَه. يترنح قليلًا على ساقيه ممسكًا بالكونياك بيده المدلاة، ولا يفهم كلمة مما يقال.

يتحول بُورْكْهاوْزِن مرة أخرى نحو بَالْدُوْر بِيرْزِيكِه. نبرته ليست متشكِّية بقدر ما هي مدعية، إذ إنه شعر فجأة بالإهانة البليغة:

- إن كانت زوجتي تفعل شيئًا، ليس صائبًا.. (يقول)

فأنا مسؤول عن ذلك يا سيد بِيرْزِيكِه. فأنا الزوج والأب، وَفقًا للقانون. وإن كان أطفالي سكارى، حسنًا، سكارى.. وهم أيضًا ما يزالون صغارًا، حقًّا، فهذا ما هم عليه يا رجل!

ينظر إلى بَالْدُوْر بغضب ويحدق الآخر إليه بعينين مشتعلتين، ثم يعطي إخوته علامة غير ملحوظة كي يكونوا على استعداد.

- وماذا تفعل هنا في شقة رُوْزِنْتال؟ (يسأل أصغر آل بِيرْزِيكِه بحدة)

- أتيت حَسَبَ الاتفاق! (يؤكد بُورْكْهاوْزِن الآن بحماسة)

كل شيء حَسَبَ الاتفاق. أنا وصديقي سنذهب فورًا؛ لقد كنا حقيقةً ذاهبين فعلًا. أنا إلى المستودع، وهو إلى محطة القطار. كل واحد سيأخذ حقيبتين، وسيتبقى لكم ما فيه الكفاية.

يغمغم بكلماته الأخيرة، فلقد شارف على فقدان الوعي. يراقبه بَالْدُوْر بانتباه. ربما ستُحَلُّ المسألة بغير عنف، فكلا الرجلين بلغ به السكر مبلغه، غير أن حذره يدق ناقوس الإنذار. وعليه يمسك بكتف بُورْكْهاوْزِن ويسأله بحدة:

- من هذا الرجل؟ وما اسمه؟

- إيْنُوْ! (يجيب بُورْكْهاوْزِن بلسان ثقيل)

صديقي إيْنُوْ ...

- وأين يسكن صديقك إيْنُوْ؟

- لا أعلم يا سيد بِيرْزِيكِه. فهو مجرد معرفة من الحانة. نشرب معًا وقوفًا. اسمها «فيرنر ليفن»...

حسم بَالْدُوْر أمره، وسدد بقبضة يده ضربة لبُورْكْهاوْزِن في صدره، جعلت الأخير يترنح إلى الوراء، بعد أن صرخ صرخة خافتة وسقط فوق الأثاث والغسيل..

- خنزير! ملعون! (يصيح)

كيف تسميني الأفعى ذات النظارة؟ سأريك أي طفل أنا!

إلا أن سبابه قد أصبح بلا داعٍ، فالرجلان لم يعودا يسمعانه. فكلا الأخوين المنتميين إلى الشرطة العسكرية هجم عليهما وحسم الأمر بضربات مسددة لكلٍ منهما.

- هكذا! (يقول بَالْدُوْر راضيًا)

في أقل من ساعة نسلم كلا اللصين إلى الشرطة كمقتحمين أُمسِك بهما، وفي هذه الأثناء سننقل إلى شقتنا بالأسفل الأشياء التي يمكن أن نستفيد منها. لكن فلننزل بهدوء على السلم، لقد تَنَصتُّ لكني لم أسمع أن جْفَانْجِل العجوز عاد من وِرديَّته المتأخرة بعدُ إلى بيته.

يوميء كلا الأخوين. ينظر بَالْدُوْر أولًا إلى الضحيتين المخدرتين المدماتين، ثم إلى كل الحقائب، والغسيل وجهاز الراديو. وفجأة يبتسم، يتجه نحو أبيه:

- إذًا ما رأيك يا أبي؟ كيف أدرتُ المسألة؟ أنت في خوفك الأبدي! أرأيت...

لكنه لا يواصل الكلام. فالواقف على الباب لم يكن الأب كما هو متوقع. لكن الأب اختفى، اختفى بلا أثر، وبدلًا منه يقف الحِرفي جْفَانْجِل، ذلك الرجل بوجه الطائر الحاد البارد، ينظر إليه صامتًا بعينيه الدَّاكنتين.

حين عاد أُوتُّو جْفَانْجِل من وِرديَّته المتأخرة إلى البيت، كان الوقت قد تأخر بسبب تعطل الإنتاج، فلم يركب التِّرام الكهربي توفيرًا لبعض القروش، ولذلك وصل أمام البيت ورأى أنه رغم أوامر الإظلام فإنَّ ضوءًا قادم من شقة السيدة رُوْزِنْتال. وبعد مراقبةٍ وجد أن ضوءًا أيضًا عند عائلة بِيرْزِيكِه، وتحتها أيضًا شقة فْرُومْ،

حيث ينبعث الضوء خافتًا من حافات شيش النافذة. في ما يتعلق بمستشار المحكمة العليا فْرُومْ، لا يعرف المرء عنه بالضبط إن كان قد خرج على المعاش بسبب سنِّه أم بسبب النازيين، والنور مشتعل عنده نصف الليل دائمًا، لهذا ليس ما يدعو إلى العجب في ذلك. أما آل بِيرْزِيكِه فلربما لا يزالون يحتفلون بالنَّصر على فرنسا. لكن أن يشتعل الضوء لدى العجوز رُوْزِنْتال وأن يكون هذا علانية وفي النوافذ كافة، فثمة ما يريب. فالعجوز خائفة ومرتعبة وهي لن تنير شقتها أبدًا بهذه الطريقة.

«هنالك شيء مريب!» فكَّر أُوتُّو جْفَانْجِل فيما هو يفتح باب البناية ببطء ويصعد السلالم. وكعادته تخلى عن إشعال النور، فهو لم يكن حريصًا في النفقات على نفسه فقط، هذا الانضباط التزَمَهُ دائمًا مع الجميع، حتى مع صاحب البيت. «ثمة شيء مريب! لكن ما دخلي في الأمر؟ الناس لا يعنون لي أي شيء! أنا أعيش لنفسي فقط، ولآنَّا، نحن الاثنين فقط. وربما يكون الجيستابو ينفذ حملة تفتيشية فوق. رائع، ماذا لو تدخلتُ الآن! لا. سأذهب للنوم...».

لكنَّ حِسَّه الذي قوِيَ بسبب الاتهام «أنت وهتلرك!»، حِسَّ الانضباط الذي يمكن أن نطلق عليه «حِسَّ العدالة»، وصل إلى نتيجة مفادها أن كل تبريراته قاصرة بحق. وقف الآن منتظرًا، وفي يده المفتاح، مديرًا رأسه إلى الأعلى. لا بد أن الباب فوق مفتوح، فثمة ضوء خافت في الأعلى، كما أنه سمع أيضًا صوتًا حادًّا يتكلم، سيدة عجوز بمفردها تمامًا، فكَّر فجأة بشكل باغته هو ذاته.. «بلا أي حماية. بلا أي رحمة...».

في هذه اللحظة وجد يدًا رجالية صغيرة لكنها قوية تمسكه من صدره آتية عبر الظلام، وتديره في اتجاه السلم. صوت مهذب للغاية مقتضب، قال: «تقدم من فضلك يا سيد جْفَانْجِل. سأتبعك وسأَظْهَر في اللحظة المناسبة».

وبدون تردد، صعد جْفَانْجِل الآن على السلالم، سُلطة مقنعة كامنة في تلك اليد وفي ذلك الصوت. لا يمكن أن يكون هذا إلا المستشار العجوز فْرُومْ، فكَّر.. «يا له من متسلل! أظن أنني، في كل السنوات التي عشت فيها هنا، لم أره قطُّ بالنهار أكثر من عشرين مرة مثلًا، وها هو ذا يتسلل في الليل على السلالم!».

وفيما هو يفكِّر هكذا صعد السلالم بلا تردد إلى أن وصل إلى شقة رُوْزِنْتال. رأى -بمجرد ظهوره- هيئةً تميل إلى البدانة، ربما يكون بِيرْزِيكِه الكبير. دخل إلى المطبخ، وسمع كلمات بَالْدُوْر الأخيرة حول المؤامرة التي تُحاك، وأنه يتعيَّن على المرء أن يتخلَّص من خوفه الأبدي...

والآن يقف الاثنان، جْفَانْجِل وبَالْدُوْر صامتين وعين كل منهما على الآخر. ولوهلة حتى بَالْدُوْر بِيرْزِيكِه ظن أنه خسر كل شيء. ثم هداه تفكيره إلى الاستعانة بأحد مبادئه في الحياة: (الوقاحة تنتصر). فقال بشيء من التحدي:

- أجل، أنت تتعجب! لكنك أتيت متأخرًا قليلًا يا سيد جْفَانْجِل، لقد أمسكنا اللصوص ومنعنا أذاهم!

توقف قليلًا، لكن جْفَانْجِل سكت. أكمل بَالْدُوْر بنبرة أكثر تراخيًا:

- بالمناسبة، ظهر أن أحد الغرابين هو السيد بُورْكْهاوْزِن الذي يسمح عندنا هنا في الحوش بالدعارة!

تابَعَتْ نظرة جْفَانْجِل سبَّابة بَالْدُوْر التي تشير وهو يقول: «أجل» قال بجفوة:

- أحد المقتحمين هو بُورْكْهاوْزِن.

- وبالأساس...

ندَّت فجأة عن أحد الأخوين المنتميين إلى الشرطة العسكرية أدولف بِيرْزِيكِه، ثم أردف:

- لِمَ تقف هنا وتحدق فقط؟ يمكنك أن تذهب إلى قسم الشرطة يا جْفَانْجِل وتبلغ عن الاقتحام ليأخذوا الأخوين المستلقيين هنا! أما نحن فسنراقب الموقف!

- اصمت يا أدولف! (غمغم بَالْدُوْر غاضبًا)

ليس من حقك أن تعطي السيد جْفَانْجِل أي أوامر! فالسيد جْفَانْجِل يعرف مسبقًا ما ينبغي أن يفعل.

لكنَّ هذا تحديدًا ما لم يكن يعرفه جْفَانْجِل في تلك اللحظة؛ لو كان بمفرده لكان حسم أمره مباشرة، لكن كانت تلك اليد على صدره، ذلك الصوت الرجولي المهذب، لم يكن يعلم ما ينتويه المستشار المتقاعد، وما يتوقع منه أن يفعل. ولم يكن يريد أن يفسد عليه لعبته. لو أنه فقط يعلم!

لكن تحديدًا في هذه اللحظة ظهر الرجل العجوز في الصورة ليس كما كان يتوقع جْفَانْجِل -إلى جواره- وإنما من داخل الشقة.

وفجأة وقف هناك مثل شبح بينهم وتسبب لآل بيرزيكيه في رعب جديد.

كان السيد العجوز غريب المظهر. هيئته رقيقة، متوسط الطول يرتدي مَنَامَةً حريرية زرقاء داكنة، ذات حافات مَخِيطة بالحرير الأحمر، وتنغلق بأزرار حمراء كبيرة من الخشب. وكان له لحية بلون رمادي ثلجي وشارب مهذب بعناية على شفته العليا. أما شعره الخفيف الذي لا يزال بُنيًا فكان ممشطًا بعناية على جانبي رأسه، لكنه لا يغطي الصلعة تمامًا. وخلف النظارة ذات الإطار الذهبي لمعت بين آلاف التغضُّنات عينان مستمتعتان ساخرتان.

- كلا يا سادة! (قال ببساطة وبدا كما لو كان يواصل تسلية في قمة المتعة بدأت من مدة)

كلا، يا سادتي، السيدة رُوْزِنْتال ليست في الشقة، لكن لو أتعب أحد الشابين نفسه بتفقد الحمَّام! يبدو أن السيد والدكما ليس بصحة جيدة. فهو ما يزال يحاول تعليق منشفة هناك، لم أتمكن من إثنائه عن هذا الأمر.

ابتسم المستشار المتقاعد، لكن الأخوين الأكبرين بِيرْزِيكِه غادَرَا الحجرة فجأة لدرجة أشاعت غرابة في الأجواء. أما بِيرْزِيكِه الصغير فقد صار شاحبًا وأكثر يقظة، لقد بدا العجوز الذي دخل الغرفة منذ قليل متحدثًا بتلك السخرية، رجلًا لا يملك أحدٌ إلا أن يعترف بتفوُّقه حتى على بَالْدُوْر نفسه. ليس مجرد أنه يأتي بأفعال فائقة، بل إنه ذاته كان فائقًا. قال بَالْدُوْر بِيرْزِيكِه بنبرة تكاد تكون متوسلة:

- تفهم سيادتكم، سيدي المستشار، الوالد، بلا مواربة، مخمور تمامًا. استسلام فرنسا...

- أتفهَّم، أتفهَّم تمامًا. (قال المستشار العجوز وصنع بيده علامة تهوين)

نحن كلنا بشر، لكن ليس كلنا يعلق غيره على المشانق حين يسكر!

يصمت للحظة ويبتسم. يقول:

- لقد قال أيضًا كل ما يمكن أن يقال. لكن من عساه يهتم لكلمات رجل مخمور؟

ثم يبتسم مرة أخرى.

- سيدي المستشار! (قال بَالْدُوْر بِيرْزِيكِه متوسلًا)

أرجوك، تَوَلَّ زمام هذه المسألة! لقد كنتَ قاضيًا، وتعلمُ ما الذي يتعيَّن عمله...

- لا، لا.. (يقول المستشار رافضا بحسم)

أنا عجوز ومريض...

رغم أن ذلك لا يبدو عليه مطلقًا. على العكس.. يبدو عليه الازدهار.

- ... ولهذا أعيش في عزلة تامة، وبالكاد بقيَتْ لديَّ علاقة بالعالم. لكن أنت يا سيد بِيرْزِيكِه، أنت وعائلتك، أنتم حقًّا مَن داهَمَ المقتحمين، أنتم من يسلِّمهم إلى البوليس، وتُؤَمِّنون الغنائم التي هنا في الشقة. لقد تمكنتُ من إلقاء نظرة قصيرة في مروري

المتعجل؛ لقد أحصيتُ -على سبيل المثال- سبع عشرة حقيبة، وواحدًا وعشرين صندوقًا. وثمة أشياء أخرى إضافية.. ثمة أشياء أخرى...

أخذ إيقاعه في الكلام يتباطأ، ثم يصير أبطأ. والآن يقول بخِفَّة:

- أستطيع القول إن إمساككم بالمقتحمين سيجلب لكم ولأسرتكم مزيدًا من الشهرة والشرف.

صمت المستشار. فيما وقف بَالْدُوْر يفكِّر مليًا.. «يمكن أيضًا للمسألة أن تسير على تلك الشاكلة. يا له من ثعلب قديم ذلك الـفْرُومْ! لا بد أنه قد رأى كل شيء، وبالتأكيد ثرثر أبي بالكلام، لكنه يريد أن يحفظ هدوءه، ولا يريد أن يتورَّط في هذا الموضوع. ليس ثمة خطر من جانبه. وماذا عن جْفَانْجِل، الحِرفِيّ العجوز؟ لم يسبق له أن اهتمَّ بأحد من سكان المنزل، لم يُلقِ التحيةَ على أحد قطُّ، ولم يتبادل مع أحد أي كلمة. جْفَانْجِل ليس أكثر من حِرفي عجوز، هزيل، منهَك. لم تعد لديه فكرة واحدة في دماغه. بالتأكيد لن يثرثر بكلام لا لزوم له؛ حقًا لا خطر من جانبه. لا يبقى سوى الاثنين المخمورين الأحمقين الراقدين هناك. بالطبع يمكن أن نسلمهم إلى الشرطة، وإنكار كل ما يدَّعيه بُورْكْهاوْزِن عن المؤامرة. لن يصدقه أحد في كلامه ضد أعضاء في الحزب، والشرطة العسكرية وشبيبة هتلر. ثم علينا تبليغ الجيستابو بهذه الواقعة؛ ربما ساعتها نحصل على جزء من الغنيمة بشكل شرعي ما كنا لنحصل عليه إلا لو عرَّضنا أنفسنا لمخاطر جمَّة. وفوق ذلك ثمة تقدير نناله..

طريق مُغْرٍ، لكن ربما الطريق الآخر أفضل بالفعل: تَرْكُ الأمور لتهدأ من تِلقاء نفسها، وإسكات بُورْكهاوْزِن وذاك الإِيْنُوْ ببضعة ماركات؛ بالتأكيد لن يتحدَّثا، وإغلاق الشقة على حالها بغض النظر عن عودة رُوْزِنْتال من عدمها. ربما تتَّضح لاحقًا أمور أخرى يمكن فعلها، فهو لديه إحساس قويٌّ بأن التيار ضد اليهود سيشتدُّ. لينتظر ويشرب الشاي. خلال نصف سنة قد يتمكَّن من فعل أشياء قد لا يقدر عليها اليوم. واليوم، كشفوا ـ آل بِيرْزِيكِه ـ كثيرًا عن أنفسهم؛ ليس بالضرورة أنهم سيتحرَّكون ضدنا، لكن سيدور كثيرٌ من الكلام عنا في الحزب. ولن نصبح أهلًا للثقة التامة».

يقول بَالْدُوْر بِيرْزِيكِه:

- أنا على شفا إطلاق سراح هذين الأحمقين. إني آسف لحالهما، سيدي المستشار، ما هما إلا كلبان صغيران.

ينظر حوله، يجد نفسه وحده؛ المستشار قد ذهب وكذلك الحِرفي. تمامًا كما فكر.. «لا يريدان التورط في هذا الأمر». وهو أذكى ما يمكن أن يفعله أحد. بَالْدُوْر نفسه ما كان ليفعل خلاف ذلك، مهما تعرَّض لمسبَّة أخويه.

أطلق بَالْدُوْر تنهيدة عميقة أمام كل الأشياء الجميلة التي عليه أن يتخلَّى عنها، وَهَمَّ إلى المطبخ كي يقنع أباه وأخويه بالتخلِّي عما حققوه فعلًا.

أثناء نزولهما السلم، قال المستشار لجِفَانْجِل الذي تبعه إلى خارج الغرفة بدون أن ينبس بكلمة:

- إن كنتَ ستلقى متاعب بسبب رُوْزِنْتال، يا سيد جْفَانْجِل، فالجَأ إليَّ. طابت ليلتكَ.

- وماذا يعنيني في أمر رُوْزِنْتال؟ أنا لا أعرفها على الإطلاق! (قال جْفَانْجِل محتجًّا)

- إذًا طابت ليلتك، سيد جْفَانْجِل!

ثم اختفى المستشار فْرُومْ هابطًا السلم. وبعدها فتح أُوتُّو جْفَانْجِل باب شقته المظلمة.

9

حديث ليلي في شقة آل جفَانْجِل

ما كاد جْفَانْجِل يفتح باب غرفة النوم، حتى صاحت زوجته آنّا مذعورة:

- لا تفتح النور يا بابا! فتْرُودِل نائمة هنا في سريرك. لقد أعددتُ لك فراشًا على الأريكة في حجرة المعيشة.

- حسنًا، يا آنّا!

يجيب جْفَانْجِل ويتعجب من هذا الأمر الجديد الذي يجعل تْرُودِل مضطرة إلى النوم في سريره. فعادة ما كانت هي التي تنام على الأريكة.

لكنه لا يقول شيئًا إلا بعد أن يخلع ملابسه ويتمدَّد أسفل الغطاء على الأريكة. يسأل:

- هل تريدين أن تنامي يا آنّا، أم تحبين أن نتحدَّث قليلًا؟

تتردَّد لوهلة ثم تجيب عبر الباب المفتوح لغرفة النوم:

- أنا متعبةٌ جدًّا، ومنهكة يا أُوتُّو!

«إذًا هي ما تزال غاضبة مني. لماذا؟» يفكِّر أُوتُّو جْفَانْجِل، ويقول من دون أن تتغيَّر نبرته:

- إذًا فلتنامي يا آنّا، تصبحين على خير!

ومن ناحية سريرها يصل إليه الرد:

- تصبح على خير يا أُوتُّو!

مكتبة ياسمين
telegram @ yasmeenbook

وكذلك تْرُودِل تهمس بصوت منخفض:

- تصبح على خير، أبتاه!

- تصبحين على خير يا تْرُودِل!

يجيب وينام على جنبه، لا تملؤه إلا أمنيةُ أن يتمكّن من النوم سريعًا، لأنه في غاية التعب. لكنه ربما منهك أكثر من اللازم، ويتضور جوعًا، لذا لا يريد النومُ أن يأتيه. لقد أمضى يومًا طويلًا بأحداث جمَّة لا تريد أن تنتهي، يومًا لم يكن له مثيلٌ في حياة أُوتُّو من قبل.

لكنه لم يكن يومًا على هواه. بغض النظر عن كونه مليئًا بالأحداث غير المواتية، ويشمل ذلك إعفاءه من منصبه في جبهة العمل. إنه يكره هذا القلق، هذا الاضطرارِ إلى الحديث مع كل أشكال البشر، الذين لا يطيق وجودهم، ويفكِر في خطاب الميدان الذي احتوى خبر وفاة أُوتُّو الصغير، الذي سلمته إياه السيدة كْلُوْجِه. وفي الجاسوس بُوزْكهاوْزِن الذي كان يريد أن يبتزَّه بغباوة، وفي ردهة مصنع الأزياء الموحدة بما حوته من ملصقات تَرِفُّ مع تيار الهواء، الملصقات التي أسندت تْرُودِل رأسها إليها. يفكِر في النجار المتنكِر دُولْفُوس، ذلك المدخن الأبدي. وفي النياشين والأوسمة التي ترن على صدر المتحدث البُنِّي. والآن تمسك به من صدره يدٌ حازمة عبر الظلام، اليد الصغيرة للمستشار القضائي فْرُومْ المتقاعد الذي يدفعه على السلالم. ثم ها هو يجد بِيرْزِيكِه الصبي بحذائه

اللامع ذي الرقبة الطويلة واقفًا فوق الغسيل، ويصبح أكثر تملُّقًا، فيما في الركن يرقد السكيران الدمويان مُصدِرَيْنِ صفيرًا وأنينًا.

يبدأ من جديد بعدما كاد يغلبه النعاس. لكنَّ شيئًا يزعجه في هذا اليوم، شيئًا سمعه بدقة ثم نسيه. جلس على الأريكة واستمع مطولًا وبانتباه. هذا صحيح، لم يخطئ السمع، وبنبرة آمرة صاح: آنَّا!

تجيب متذمرة على نحو جديد عليها:

- لماذا تزعجني مجدَّدًا يا أُوتُّو؟ أليس من حقي أن أنال قسطًا من الراحة؟ لقد قلتُ لك فعلًا لا أريد أن أواصل الكلام!

لكنه يكمل:

- لِمَ عليَّ أن أنام على الأريكة إن كانت تْرُودِل نائمة إلى جوارِكِ في الفراش؟ ألا يعني هذا أن سريري خاوٍ؟

لوهلة خيَّم صمت عميق هناك، ثم قالت السيدة بنبرة تكاد تكون متوسلة:

- لكن يا بابا.. تْرُودِل نائمة فعلًا في فراشِكَ! أنا في فراشي وحدي.. فآلام المفاصل...

يقاطعها:

- لا تكذبي عليَّ يا آنَّا؛ ثمة ثلاثة يتنفسون عندكم، لقد سمعت هذا جيِّدًا. من الذي ينام في سريري؟

ران صمت، صمت طويل. ثم قالت السيدة بثبات:

- لا تسأل كثيرًا. فكما قال المثل «لا تسأل عن شيء إن بدا لك أساءك»، والزم الصمت يا أُوتُّو. فهذا أفضل!

فقال بدون أن يثنيه ذلك:

- في هذه الشقة أنا السيد، في هذه الشقة لن تخفى أسرارٌ عليَّ. لأني أنا المسؤول عن كل شيء. لهذا السبب يجب أن أعرف إذًا، من ينام في سريري؟

صمت طويلٌ، طويل. ثم يسمع صوتًا نسائيًا عجوزًا رخيمًا يقول:

- أنا يا سيد جْفَانْجِل.. السيدة رُوْزِنْتال. ولا ينبغي أن يسبب ذلك متاعب لك وللسيدة زوجتك. سأرتدي ثيابي وأغادر إلى شقتي فورًا!

- لن تستطيعي الذهاب إلى شقتك الآن يا سيدة رُوْزِنْتال. آل بِيرْزِيكِه فوق، ورجلان آخران. فلتبقي مستلقية في فراشي. وباكرًا، في الوقت المناسب في السادسة أو السابعة، اهبطي السلالم إلى حيث المستشار فْرُومْ ورِنِّي جرسه في (طابق الميزانين). سوف يقدم لكِ المساعدة. لقد قال لي ذلك.

- أشكرك أنت أيضًا، شكرًا جزيلًا يا سيد جْفَانْجِل.

- يمكنكِ أن تشكري المستشار، أما أنا فلا. فأنا فقط سأخرِجُك من شقتي. ثم يأتي دوركِ يا تْرُودِل...

- هل يتعيَّن عليَّ أنا أيضًا أن أخرج يا أبتِ؟

- نعم، ينبغي. هذه زيارتكِ الأخيرة لنا، وأنتِ أيضًا تعرفين السبب. ربما تزوركِ آنًا أحيانًا، لكن لا أظن. ربما حين تعود إلى رشدها وحين أكون قد تحدَّثت معها حديثًا ملائمًا...

تقول السيدة بما يشبه الصراخ:

- لا أتحمل هذا، لذا سأذهب أنا أيضًا. فلتبقَ إذًا بمفردك في شقتك! فأنت لا تفكر إلا في راحتك...

- صحيح! (يقاطعها بحدة)

لا أريد شيئًا يهدِّد أماننا، ولا أريد أن يورِّطني الآخرون في قصصهم الخطرة. إن كان يتعيَّن على رأسي أن يتدلَّى، فلا أريد لذلك أن يحدث بسبب حماقات الآخرين، ولكن بسبب أنني اقترفت شيئًا أردتُ أن أفعله. لا أقول إني سأفعل شيئًا. لكن حين أفعل شيئًا، سأفعله معكَ أنت فقط، وليس مع أي شخص آخر، حتى لو كان فتاة لطيفة مثل تْرُودِل، أو عجوزًا لا حول لها مثل السيدة رُوْزِنْتال. لا أقول إن الصواب هو ما أفعل. لكني لا أستطيع غير ذلك. فهذا أنا، ولا أريد للأمور أن تسير بطريقة أخرى. والآن أريد أن أنام!

وبهذا رقد أُوتُّو جْفَانْجِل ثانية، أما على الناحية الأخرى فظلَّت وشوشات خافتة، لكن هذا لم يزعجه. فهو يعرف أن إرادته ستتحقَّق فعلًا. وباكرًا تعود شقته نظيفة وآنًا ستنصاع. لا حاجة بنا إلى قصص أخرى جانحة، وهو وحده. هو وحده. هو وفقط!

يخلد إلى النوم، ومن يستطيع أن يراه الآن وهو نائم سيجده يبتسم ابتسامة قاتمة على هذا الوجه القاسي الجاف الذي يشبه وجه طائر، ابتسامة قاتمة مكافحة، لكنها أبدًا ليست شريرة.

10

ما حدث صباح الأربعاء

كل الأحداث التي تم الحديثُ عنها في ما سبق.. وقعت يوم ثلاثاء. وفي صباح الأربعاء التالي، في الصباح الباكر جدًّا، ما بين الخامسة والسادسة، غادرت السيدة رُوْزِنْتال -تصحبها تْرُودِل بَاوْمَان- شقة آل جْفَانْجِل. كان أُوتُّو جْفَانْجِل لا يزال في نوم عميق، وتْرُودِل أوصلت السيدة رُوْزِنْتال التي تشعر بالعجز التام ويملؤها الخوف الكبير مُعَلَّقةً النجمة الصفراء على صدرها إلى أعتاب شقة السيد فْرُومْ. ثم ابتعدت مسافة نصف درجة إلى الأعلى وقد عزمت على أن تدافع عن السيدة ولو بحياتها أو بشرفِها ضد أيٍّ من آل بِيرْزِيكِه.

راقبت تْرُودِل كيف دقت السيدة رُوْزِنْتال على الجرس، وتقريبًا فُتح الباب في التوِّ، كأن أحدهم كان ينتظر وراءه بالفعل. تم تبادل بضع كلمات بصوت خفيض، ثم دخلت السيدة رُوْزِنْتال، وانغلق الباب فمرَّت تْرُودِل بَاوْمَان من أمامه إلى الشارع. كان باب البناية مفتوحًا.

كان الحظ حليف السيدتين، فرغم أن الوقت مبكِّرٌ جدًّا، ورغم أن الاستيقاظ المبكر ليس من عادات آل بِيرْزِيكه، كان الشابَّان العاملان في الشرطة العسكرية قد مَرَّا عبر تلك السلالم قبل أقل من خمس دقائق. إذًا بفارق خمس دقائق فحسب تجنَّبت مقابلةً، ما كانت عواقبها إلا لتكون وخيمة خصوصًا للسيدة رُوْزِنْتال، بما عُرف عن الصبيين من حماقة وقسوة.

لم يكن صبيَّيْ الشرطة العسكرية هما من رحَلَا فحسب، فلقد تلقيا الأمر من أخيهما بَالْدُوْر بأن يُخرِجا بُوزْكهاوْزِن وإيْنُو كْلُوْجِه -إذ كان بَالْدُوْر في هذه الأثناء قد تفحَّص أوراقه- من البناية ويوصلاهما إلى زوجتيهما. كان المقتحِمان الهاويان ما يزالان مخمورين من كَمّ الكحول الذي تناولاه، ومن الضربة التي تلقياها. ورغم ذلك نجح بَالْدُوْر بِيرْزِيكِه في إفهامهما كيف أنهما تصرَّفا مثل الخنازير، وأنه لولا إنسانيَّة آل بِيرْزِيكِه لكان سلَّمهما إلى البوليس في التوِّ، وأن هذا ما سيفعلونه لو صدر منهما أي ثرثرة في أي مكان. وعلاوة على ذلك ينبغي ألا يَظهرا عند أي أحد من آل بِيرْزِيكِه وألا يدَّعيا معرفة أيٍّ منهم. أما لو سوَّلت لهما أنفسهم اقتحام شقة رُوْزِنْتال مرة أخرى فَسيُسَلَّمان إلى الجيستابو مباشرة.

كل هذا كرَّره عليهم بَالْدُوْر مرارًا مع كثير من التهديدات والشتائم، حتى يثبت ذلك في دماغيهما الأحمقين. جلَسَا هناك على الطاولة في شقة بِيرْزِيكِه، ساعة الشفق، وبينهما بَالْدُوْر الذي لا يكفُّ عن الثرثرة، ولا إلقاء التهديدات، ولا الحركة الخاطفة. وعلى الأريكة جلس صبِيَّا الشرطة العسكرية متراخيَيْن، بوجوه عابسة مهدَّدة رغم تدخينهما المستمر للسجائر. كان لديهما إحساس أنهما جالسان في قاعة محكمة، في انتظار النطق بالحكم، وبدا أن الموت يتهددهما. ترنَّحَا على كرسيَّيْهِما محاولَيْنِ أن يفهما ما كان يتعيَّن عليهما فهمه. وبين هذا وذلك يغفوان فتعاجلهما ضربة مؤلمة من قبضة بَالْدُوْر يستيقظان إثرها ثانية. كل ما خططا له، وفعلاه، وتحملاه بدا لهما مثل حلم غير واقعي، فلم يعودا يريدان سوى النوم والنسيان.

وأخيرًا صرفهما بَالْدُوْر مع أخويه، وكان في جيب كل منهما -بدون أن يعرفا- خمسين ماركًا في أوراق ذات فئة مالية صغيرة؛ لقد قرر بَالْدُوْر هذه التضحية المؤلمة الجديدة، ما جعل عملية السيدة رُوْزِنْتال تتحوَّل مؤقتًا إلى صفقة خاسرة بالنسبة إلى آل بِيرْزِيكِه. لكنه قال لنفسه إنه لو عاد الرجال إلى زوجاتهم بدون المال، محطَّمين وغير قادرين على العمل، فسيؤدي ذلك إلى تعالي أصواتهن بالصياح وسيتشاجرن ويطرحن أسئلة أكثر كثيرًا من حال عاد الرجلان المخموران وبحوزتهما بعض المال. وكان يعوِّل على أن النساء سيجدن المال نظرًا إلى الحالة التي عليها الرجلان.

أنجز بِيرْزِيكِه الأكبر -الذي كُلِّف بتوصيل بُورْكْهاوْزِن إلى بيته- مهمته في عشر دقائق، وفي هذه الدقائق العشر، كانت السيدة رُوْزِنْتال قد وصلت إلى شقة فْرُومْ، وخرجت تْرُودِل بَاوْمَان إلى الشارع. لقد أمسكَ -ببساطة- بِبُورْكْهاوْزِن غير القادر على المشي من ياقة قميصه، وجَرَّه عبر الحوش، ووضعه على الأرض أمام شقة آل بُورْكْهاوْزِن ثم قرع الباب بقبضته القوية عدة مرات فأيقظ السيدة بُورْكْهاوْزِن. ولما ظهرت مذعورة وراء النافذة صاح فيها: لقد جلبتُ لكِ رجلك! خذيه وأرقديه في السرير! ممنوع منعًا باتًّا أن يتسكع عندنا على السلالم وهو مخمور هكذا يتقيَّأ ويوسخ كل شيء!

وبهذا مضى وترك الأمر الآخَر لأُوْتّي. ولقد بذلت مجهودًا كي تُجرد إيمِيلْ من ملابسه وتضعه في السرير. وتعيَّن على السيد الأكبر الأفضل الذي كان ما يزال ضيفًا عليها أن يساعدها على ذلك. وبعدها صرفته، رغم الساعة المبكرة. ومنعته من العودة إلى هنا، ربما يمكن أن تلتقيه في مقهى، لكن هنا لا، ليس ثانية أبدًا.

فلقد شعرت أُوتّي بذعر كبير منذ أن رأت السيد بِيرْزِيكِه من الشرطة العسكرية واقفًا عند الباب. إذ كانت قد سمعت عن زميلةٍ ما أرسلها هؤلاء الرجال الذين يرتدون زيًّا أسودَ إلى معسكر التعذيب بدلًا من أن يدفعوا لها حسابها، بتهمة أنها معادية للمجتمع ومتكاسلة عن العمل. لقد ظنت أنها في شقتها المعتمة في القبو، يمكن أن تتكسَّب قوت يومها بدون أن يلحظها أحد. لكنها عرفت الآن أنها -مثلها مثل كل شيء في هذا الزمن- يُتَجَسَّس عليها بشكل مستمر. وللمرة المائة في حياتها تعهدت لنفسها بأن تصير أفضل. ولقد سهُل عليها هذا القرار عندما وجدت 48 ماركًا في جيب إيمِيلْ؛ دست المال في جوربها وقررت أن تنتظر لتسمع ماذا سيخبرها إيمِيلْ عما حصل، وفي كل الأحوال ستنكر معرفتها أي شيء بخصوص المال.

أما مهمة بِيرْزِيكِه الثاني فكانت في جوهرها أصعب، خصوصًا أن الطريق الذي يتعيَّن قطعه أبعد كثيرًا، لأن آل كْلُوْجِه يسكنون في الناحية الأخرى من فريدريشسهاين. وكان يصعب المشي على إِيْنُوْ مثله مثل بُوزْكْهاوْزِن. لكن بِيرْزِيكِه لا يستطيع أن يمسكه من الياقة ويسحبه في الشارع أو يمسكه من ذراعه. لقد كان أمرًا محرجًا جدًّا له أن يظهر في المجتمع بصحبة هذا الرجل المحطم، السكير، لأنه كلما فكر في وضاعة شرفه وشرف الناس من حوله، اعتقدَ رفعةَ ومكانةَ الزيِّ الذي يرتديه.

وكان من غير المجدي أن يأمر كْلُوْجِه أن يخطو وراءه أو أن يمشي أمامه بخطوة، فلقد كان دائمًا ينحو إلى التهاوي على الأرض، أو يتعثر أو يتساند إلى الأشجار والجدران، أو يصطدم بالمارة. ظلَّت

كل ضربة من قبضة اليد، وكل أمر حاسم يوجَّه إليه.. بلا جدوى، إذ لم يكن جسده يستجيب، ومع أن تلقيه ضربة قوية كان كفيلًا بإيقاظه، لكن الشوارع كانت مكتظة بالمارة بما لا يتيح ذلك. وقف بِيرْزِيكِه والعرق يتفصَّد من جبهته، وعضلات وجنتيه متشنِّجة من الغضب وأقسم أن يخبر تلك السلحفاة السامة التي اسمها بَالْدُوْر بما يظن حيال هذه المهمات.

كان عليه أن يتجنَّب الشوارع الرئيسية، وأن يأخذ شوارع جانبية أكثر هدوءًا. ثم أمسك كْلُوْجِه من ذراعه وحمله عبر ناصيتين أو ثلاث، إلى أن أُنهِكَ ولم يعد يقدر. وأتعبه كثيرًا أيضًا شرطي الحماية الذي لَفَتَ انتباهَه تلك النقلةُ في تلك الساعة المبكرة، فجعل يتبعهما عبر دائرة الحي كاملة، ما أجبر بِيرْزِيكِه على التصرُّف بطريقة رقيقة مهتمة.

لكنه انتقم لكل ذلك بمجرد وصولهما إلى فريدريشسهاين. أجلس كْلُوْجِه على مقعد خشبي خلف شجيرة وفعل به الأفاعيل لدرجة أن الرجل ظلَّ فاقدًا للوعي عشر دقائق كاملة. هذا المراهن الضئيل الذي لم يكن يهتم بأي شيء في العالم عدا خيول الرهان، التي في الحقيقة لم يرَهَا طوال حياته إلا على صفحات الجرائد، ذلك المخلوق الذي لم يكن قادرًا على استشعار الحب أو الكراهية، ذلك العاطل، الذي لم يشغل تلافيف مخه إلا بكيفية تجنُّب المجهود الحقيقي، ذلك الرجل إِيْنُوْ كْلُوْجِه، الشاحب، الراضي بالقليل، الذي بلا لون، سيظل يلازمه بعد لقائه ذلك آلَ بِيرْزِيكِه.. خوفٌ من أيِّ أحد يرتدي الزيَّ الموحَّد للحزب، خوف سيسبب شللًا في روحه وعقله عند أي تماسٍ مع أمثال أولئك من المنتمين إلى الحزب.

بضعُ ركلات في أضلاعه كانت كفيلة بإيقاظه من غيبوبته، وبضعُ ضربات على الظهر جعلته يمشي، وهكذا صار يَرْفُلُ، مذعورًا مثل كلب تعرض للتعذيب، أمام معذبه، إلى أن وصل إلى شقة الزوجة. لكن الباب كان موصدًا، فساعية البريد إيفا كْلُوْجِه التي أصابها القنوط في الليل بسبب ابنها وبالتالي يئست من حياتها، ها هي ذي قد بدأت عملها الروتيني في موعده، وفي جيبها الخطاب الذي كتبته لابنها مَاكْس، لكن بقلب لا يحمل إلا قليلًا من الأمل والإيمان. وزَّعت البريد، مثلما تفعل منذ سنوات، إذ إن ذلك أفضل جدًّا من الجلوس في المنزل تحت رحمة الأفكار الكئيبة.

وبعدما اقتنع بِيرْزِيكِه بأن السيدة ليست في المنزل حقًّا، رنَّ على باب الجار، مصادفةً على باب السيدة جِيشْ، التي ساعدت السيد إيْنُوْ في الليلة السابقة على الدخول إلى شقة زوجته. دفع بِيرْزِيكِه الهيكل المتذمِّر من ذراعيه نحو المرأة التي فتحت الباب وقال: «هاكِ! تولَّيْ أمر هذا الرجل. إنه يخصكم!» ومضى. كانت السيدة كْلُوْجِه قد اتخذت قرارًا قاطعًا بعدم التدخُّل ثانية أبدًا في شؤون آل كْلُوْجِه. لكن عنف رجل الشرطة العسكرية كان كبيرًا - وكذلك خوف كل رفقاء الشعب- اضطرها أن تقبل كْلُوْجِه في شقتها بدون أن تنبس، وأجلسته إلى طاولة المطبخ ووضعت أمامه خبزًا وقهوة. كان زوجها قد ذهب إلى العمل. رأت السيدة جِيشْ كيف أن السيد كْلُوْجِه القصير كان منهكًا، كانت تنظر أيضًا إلى وجهه وإلى قميصه الممزق، والبقع المتسخة على المعطف التي تفصح عن آثار معاملة سيِّئة مستمرة. ونظرًا إلى أن السيد كْلُوْجِه قد سُلِّمَ إليها من رجل

الشرطة العسكرية.. تجنَّبت أن تطرح أي سؤال. أجل، كانت لتفضِّل أن تتركه أمام باب شقتها بدلًا من أن تسمع ما حدث. لم تُرِد أن تعرف أي شيء. فهي إن لم تعرف شيئًا فلن تقول شيئًا، ولن تثرثر، ولن تشِيَ، وكذلك لن تعرض نفسها للخطر.

جلس كْلَوْجِه يمضغ الخبز ببطء ويشرب القهوة. وفي أثناء ذلك سالت على وجهه دموع غزيرة، دموع الألم والإنهاك. وكانت السيدة جِيشْ تلقي نظرة جانبية ثم نظرة متفحِّصة إن واتتها فرصة. وبعدها، لما فَرَغ أخيرًا سألته:

- إلى أين تنوي الذهاب الآن؟ زوجتك لن تستقبلك ثانية. بالتأكيد تعرف ذلك!

لم يُحِر جوابًا، أخذ فقط يحدق أمامه.

- لا يمكن أن تبقى عندي. فأولًا لن يسمح يُوسْتافْ بذلك، وثانيًا لا أحب أن أُضطر أن أقفل على كل شيء بسببك. إذًا إلى أين ستذهب؟

ومرة أخرى لم يُحِر جوابًا.

قالت السيدة جِيشْ محمومة:

- إذًا سأضعك أمام الباب على السلم! سأفعل ذلك حالًا! أم ماذا؟

قال بإنهاك:

- تُوتِّي.. صديقة قديمة... (وبكى مجدَّدًا)

- يا إلهي! يا لك من متهافت! (قالت السيدة جِيشْ باحتقار)

رغم أن قلبي سيرقُّ مرة أخرى، حتى إن ساءت كل الأمور! تُوتِّي إذًا! ما اسمها الحقيقي وأين تسكن؟

وبعد أسئلة كثيرة وتهديدات علمت أن إِيْنُوْ كْلُوْجِه لا يعرف اسم تُوتِّي الحقيقي لكنه واثق بأنه يستطيع أن يجد شقتها.

- حسن إذًا.. (قالت جِيشْ)

لكن لا يمكنكَ أن تذهب على هذه الحال. فأي رجل من شرطة الحماية قد يقبض عليك؛ سأوصلك. لكن إن لم يكن عنوان الشقة صحيحًا فسأتركك واقفًا في الشارع. ليس لديَّ وقت للبحث الطويل؛ عليَّ أن أعمل!

- دعيني أنام لحظة أولًا! (توسَّلَ)

قررت بعد تردُّد قصير:

- ليس أطول من ساعة! بعد ساعة بالضبط سأوقظك. استلقِ فوق الأريكة، سأضع غطاء فوقك!

كان قد غرق في النوم قبل أن تعود إليه بالغطاء.

أما مستشار محكمة الاستئناف العجوز فْرُومْ فقد فتح بنفسه الباب للسيدة رُوْزِنْتال. قادها إلى غرفة مكتبه التي كانت كل جدرانها ممتلئة بالكتب وجعلها تتخذ مجلسًا في كرسي كبير وثير. كان ثمة أباجورة قراءة مضاءة، وكتاب مفتوح موضوع على الطاولة. السيد العجوز حمل بنفسه صينية عليها براد شاي صغير وفنجان، وسكر وشريحتا خبز رقيقتان، وقال للسيدة المذعورة:

- تناولي فطورك أولًا يا سيدة رُوْزِنْتال، وبعدها نتحدَّث!

وعندما أرادت أن تقول له ولو كلمة شكر، قال بودٍّ:

- لا، من فضلك، حقًّا تناولي فطورك أولًا. تصرفي كأنك في بيتك، وهذا ما سأفعله أنا أيضًا!

وبهذه الكلمات أخذ كتابه من أسفل أباجورة القراءة وبدأ يقرأ فيه، فيما يمشِّط بيده اليسرى لحيته الرمادية من أعلى إلى أسفل بطريقة آلية. وبدا عليه أنه نسِيَ الزائرة تمامًا.

وبالتدريج عادت بعض الثقة للعجوز اليهودية المذعورة، فمنذ شهور وهي تعيش في خوف وقهر، بين أغراضها المضبوبة في انتظار دائم لأسوأ اقتحام ممكن. ومنذ شهور لا تعرف معنى البيت ولا الهدوء ولا السلام ولا الراحة. وها هي الآن تجلس في منزل رجل عجوز بالكاد رأته على السلم. وترى الجدران التي لا تحوي سوى الكتب المجلدة بدرجتي البُني الناصع والدَّاكن، ومكتب كبير من الماهوجني بجوار النافذة، وقطع أثاث تشبه ما كان عندها هي نفسها في سنوات زواجها الأولى، وسجادة متهالكة نوعًا على الأرض. إضافة إلى ذلك السيد العجوز الذي يقرأ ويمسد لحيته بلا توقف، وهي لحية قصيرة صغيرة مثل تلك التي كان يفضِّلها كثير من اليهود، ويضاف إلى ذلك أيضًا جلباب النوم الطويل الذي يُذكِّرها بقفطان أبيها.

بدا الأمر كأن تعويذة سحرية أصابت العالم الذي غرق في الألم والدماء والدموع، وأعادتها مجدَّدًا إلى الزمن الذي كانت تعيش فيه كإنسان مكرَّم ومحترم، ولم يكن التحريض المحموم يعدُّ فيه واجبًا إلزاميًّا.

رجَّلت شعرها بعفويَّة، واتخذت قسمات وجهها تلقائيًّا تعبيرًا مختلفًا. لا يزال إذًا سلامٌ في هذا العالم، بل حتى هنا في برلين.

- أنا ممتنة لكَ كثيرًا يا سيدي مستشار محكمة الاستئناف!

قالت. حتى صوتها كانت له نبرة مختلفة، نبرة أكثر ثباتًا.

رفع رأسه متعجلًا عن كتابه:

- من فضلك اشربي شايَكِ وهو ساخن، وكلي خبزك. لدينا وقت طويل، لن يفوتنا شيء.

ثم عاد يقرأ، أطاعته وبدأت تشرب الشاي الآن وتأكل الخبز أيضًا، رغم أنها كانت تفضِّل أن تتحدَّث مع الرجل المسنِّ. لكنها أرادت أن تطيعه، وألَّا تعكِّر سلام شقته. نظرت حولها. ينبغي أن يظل كل هذا على حاله التي هو عليها الآن، لا يجب أن تعرضه للخطر (بعد ثلاث سنوات ستنفجر قنبلة في هذا البيت وهذا السيد المهندم العجوز سيموت في القبو، موتًا بطيئًا وبعد عذاب كبير...).

قالت بعد أن أعادت الفنجان الفارغ على الصينية:

- سيادتك تتعامل معي بطيبة، سيادةَ المستشار، وبكل شجاعة. لكني لا أريد أن أعرِّضك وبيتك لخطر بلا داع. لم يعد شيء يجدي، سأعود إلى شقتي.

نظر إليها السيد بانتباه وهي تتحدَّث، ثم قال للسيدة التي نهضت بالفعل أن تجلس في كرسيها:

- من فضلك، اجلسي لحظة يا سيدة رُوْزِنْتال!

فعلت ذلك ممتعضةً:

- حقًّا يا سيدي المستشار، أنا أعني ما أقول...
- اسمعيني أولًا من فضلك. أنا أيضًا جادٌّ في ما سأقول لك. فأولًا.. في ما يختص بالخطر الذي ستعرضينني له أقول إنني منذ عملت في وظيفتي أتعرَّض يوميًا لأخطار. لديَّ سيدة عليَّ أن أطيعها، وهي التي تحكم عليَّ، وعليكِ، وعلى العالم، حتى على العالم في الخارج، وهذه السيدة هي «العدالة». لقد آمنت بها دائمًا، وما زلت أؤمِن بها حتى اليوم، والعدالة وحدها هي التي اتخذتُها مقياسًا لأفعالي...

وفيما هو يتحدَّث هكذا، كان يروح ويجيء في الغرفة، ويداه على ظهره، محافظًا على بقائه في مرمى بصر السيدة رُوْزِنْتال. خرجت كلماته هادئة وبلا معاناة من شفتيه، تحدَّث عن نفسه كأنَّه يتحدَّث عن رجل ماضٍ لم يعد له وجود. تتبَّعت السيدة رُوْزِنْتال مشدودة كل كلمة يقولها.

- يا لي مِن!.. (أضاف السيد المستشار)

أنا أتحدث عن نفسي بدلًا من أن أتحدث عنكِ، إنها عادة كل الذين يعيشون وحيدين. اعذريني، فلنقل كلمة عن الخطر. لقد وصلتني خطابات تهديد من عشر سنوات، من عشرين سنة، من ثلاثين... والآن يا سيدة رُوْزِنْتال، ها أنا أجلس، رجلًا مُسِنًّا، وأقرأ كتاب بلوتارخ. الخطر لا يعني لي شيئًا، لا يخيفني، ولا يشغل أبدًا عقلي أو قلبي. لا تتحدَّثي عن الأخطار يا سيدة رُوْزِنْتال...

- لكنَّ ثمة أناسًا آخرين هذه الأيام! (قالت السيدة رُوْزِنْتال معترضةً)

- ماذا لو قلت لكِ إن هذه التهديدات وصلتني من المجرمين ومعاونيهم؟ ألا يكفي هذا؟!

ابتسم ابتسامة خفيفة، وأردف:

- ليس ثمة بشر آخرون؛ لقد أصبحوا أكثر قليلًا، والبعض الآخر أصبح أكثر جبنًا، لكن العدالة بقيت كما هي، وأنا أتمنى أن يشهد كلانا انتصارها.

وقف لحظة، واستقام ظهره. ثم عاد يجول مرة ثانية. قال بصوت خفيض:

- وانتصار العدالة لن يكون انتصار هذا الشعب الألماني!

صمت برهة، ثم عاد يقول بصوت أخف:

- لا، لن تتمكَّني من العودة إلى شقتك. كان آل بِيرْزِيكِه فيها اليوم، أولئك المنتمون إلى الحزب الذين يسكنون في الشقة فوقي. تعرفينهم، معهم مفتاح الشقة، وسيراقبون شقتك باستمرار. هناك ستتعرضين فعلًا لخطر لا داعي له.

- لكن لا بد أن أكون هناك في حال عاد زوجي! (رَجَت السيدة رُوْزِنْتال وتوسَّلت)

- زوجكِ! (قال المستشار فْرُومْ بود مهدئا)

لن يستطيع زوجكِ زيارتك في الوقت الحالي. فهو حاليًا في سجن التحقيقات في مُوَابيت، تحت ادِّعاء أنه أخفى ملكيَّته لعدة أراض في الخارج. سيظل في مأمن ما ظلَّت النيابة وهيئة الضرائب مهتمة بهذه الإجراءات.

ابتسم المستشار العجوز بحكمة، ونظر إلى السيدة رُوْزِنْتال مشجعًا ثم عاد يجول من جديد.

- لكن من أين تعرف؟ (صاحت السيدة رُوْزِنْتال)

صنع بيده علامة مهدئة. قال:

- القاضي القديم تصله الأخبار دائمًا من هنا وهناك، حتى عندما لم يعُد في منصبه. ربما سيهمكِ أيضًا أن تعرفي أن لزوجك محاميًا مجتهدًا وأنه ينال عناية جيدة بالنسبة إلى الظروف التي نحن فيها. لن أخبرك باسم المحامي ولا عنوانه، فهو لا يريد زيارات بهذا الخصوص...

- لكن ربما أستطيع أن أزور زوجي في مُوَابيت! (صاحت السيدة رُوْزِنْتال منفعلة)

يمكنني أن أجلب له بعض الغيارات النظيفة، فمن يهتم هناك بغسيله؟ وأغراض التواليت، وربما شيئًا يأكله...

- عزيزتي السيدة رُوْزِنْتال..

قال المستشار المتقاعد ووضع يده المسنَّة المليئة بالبقع، ذات الأوردة الزرقاء المنتفخة بقوة على كتفيها:

- لن تتمكَّني من زيارة زوجك كما أنه لن يتمكَّن من زيارتك. زيارة كهذه لن تنفعه، لأنك لن تصلي إليه، ولن تسبِّب لك إلا الضرر.

نظر إليها. فجأة لم تعد عيناه تضحكان، حتى صوته اكتسب نبرات صارمة. أدركَتْ أن هذا الرجل القصير الرقيق الطيب يتبع بلا هوادة قانونًا في داخله، ربما تلك العدالة التي تحدَّث عنها منذ قليل.

- سيدة رُوْزِنْتال (قال بصوت خفيض)

ستظلين ضيفتي، ما دمتِ تتَّبعين قواعد الضيافة، التي سأخبرك ببعض الكلمات عنها فورًا. هذه أول قاعدة من قواعد الضيافة: بمجرد أن تتصرَّفي بمفردك، بمجرد أن يحدث ذلك مرة، مرة واحدة فقط، بمجرد أن تخرجي وتغلقي باب هذه الشقة وراءك، فهذا الباب لن ينفتح لك ثانية، وسَيَمَّحِي اسمك واسم زوجك إلى الأبد من هذا الرأس. هل تفهمين ما أقول؟

مَسَّ جبهته خفيفًا ونظر إليها نظرات مقتحمة.

بخفوت همست: نعم!

الآن فقط رفع يده عن كتفها، وعيناه اللتان دَكِنَتَا من الجدية عادَتَا مرة أخرى إلى لونهما الطبيعي، وببطء شرع يجول من جديد:

- من فضلكِ.. (أردف بخِفَّة)

الحجرة التي سأريك إياها الآن، لا تغادريها في أثناء النهار، ولا تقفي عند نافذتها. خادمتي يمكن الوثوق بها، لكن...

انقطع حديثه بيأس، وبحث عن الكتاب الذي أسفل الأباجورة ثم أكمل:

- حاولي أن تفعلي مثلي، أن تقلبي الليل إلى نهار. سأعطيك منوِّمًا كل يوم. والطعام سأؤمِّنه لك ليلًا. هلَّا تبعتني الآن؟

تبعته في الطرقة. عادت الآن مضطربة وخائفة، كان مضيفها قد تغير تمامًا، لكنها قالت لنفسها -وكانت محقَّة- إن السيد العجوز يحب السكون فوق أي شيء آخر، وبالكاد معتادٌ التعاملَ مع الناس. لقد كان الآن متعبًا بسببها ولا بد أنه يتوق إلى العودة إلى بلوتارخ، أيًا من يكون هذا البلوتارخ.

فتح المستشار بابًا أمامها، وأشعل النور.

- شيش النوافذ مغلق، أيضًا هنا أُظلِمت الغرفة. اتركيها هكذا من فضلكِ، حتى لا يراك أحدهم من الحوش الخلفي. أعتقد أنك ستجدين هنا كل ما تحتاجين إليه.

تركها لوهلة ترى هذه الغرفة المنيرة المبهِجة، ذات الأثاث المصنوع من خشب الباتولا، ذات التسريحة المليئة بكل الأغراض، والسرير الذي لا يزال يملك «سماءً» من قماش الشيت المطبوع بنقشات الأزهار. نظر إلى الغرفة كأنَّه لم يرها من مدة، يعيد التعرف عليها. ثم قال جادًا وبصوت رخيم:

- إنها غرفة ابنتي. ماتت في سنة 1933. ليس هنا، كلا، ليس هنا. لا تخافي!

سلم عليها بيده في عجالة:

- لن أوصد الغرفة يا سيدة رُوْزِنْتال، لكني أرجوكِ أن تحبِسي نفسك الآن. هل معك ساعة؟ حسنًا! في الساعة العاشرة مساء سأقرع عليك الباب. طابت ليلتكِ!

ذهب. ثم استدار مرة أخرى عند الباب:

- ستكونين في الأيام المقبلة وحيدة تمامًا مع نفسك. يا سيدة رُوْزِنْتال. حاولي أن تعتادي ذلك. الوحدة يمكن أن تعني شيئًا طيبًا. ولا تنسي.. كل ناج مسؤول عن مصيره، حتى أنت، بل أنت تحديدًا! فكِري في إيصاد الباب!

ذهب بهدوء، وأغلق الباب بهدوء كبير، لدرجة أنها لم تلحظ إلا متأخرًا أنها لم تقل له تصبح على خير، ولا شكرته. ذهبت مسرعة نحو الباب لكن في الطريق ثابت إلى رشدها. ثم أدارت القفل لتوصد الباب وجلست على أقرب كرسي مرة أخرى، كانت ساقاها ترتعشان. وفي مرآة التسريحة رأت وجهًا شاحبًا، منكمشًا من البكاء وطول الاستيقاظ. أومأت ببطء لهذا الوجه المتعكر.

«هذا أنتِ يا سارة» سمعت صوتًا داخلها. لُوْرَه التي سَتُدْعى الآن سارة. لقد كنتِ سيدة أعمال مجتهدة، دائمًا مشغولة. كان لكِ خمسة أطفال، واحد يعيش الآن في الدنمارك، وواحد في إنجلترا، واثنان في الولايات المتحدة الأمريكية، وواحد يرقد هنا في مقبرة اليهود الكائنة في زقاق شونهاوزر. لستُ أغضب حين ينادونك «سارة». فلقد خَرَجَتْ سارة من لُوْرَه، من دون أن أريد ذلك جعلوني ابنةً لشعبي، فقط مجرد ابنة لذلك الشعب. إنه عجوز طيب وراق، لكنه غريب، غريب جدًّا... لن أتمكن أبدًا من إجراء حديث حقيقي معه، مثلما كنت أتحدَّث مع زِيجْفرِيد. أعتقد أنه بارد، رغم كل الطيبة التي فيه، لكنه بارد. حتى طيبته باردة. فهذا فِعل القانون الذي يخضع له، تلك العدالة. أما أنا فلقد كنت دائمًا خاضعة لقانون واحد.. أن أحب زوجي وأولادي وأن أساعدهم على

التقدم في الحياة. والآن أجلسُ هنا عند هذا الرجل العجوز، وكل ما كُنْتُهُ، قد سقط عني. هذه هي الوَحدة التي يتحدَّث عنها. لم تكد الساعة تبلغ السادسة والنصف صباحًا، ولن أراه قبل العاشرة مساء. خمس عشرة ساعة ونصف سأقضيها وحدي مع نفسي. ماذا سأعرف عن نفسي لم أكن أعرفه من قبل؟ أنا خائفة، أنا خائفة جدًّا! أعتقد أني سأصرخ، حتى في أثناء النوم سوف أصرخ من الخوف! خمس عشرة ساعة ونصف! نصف الساعة هذا كان يمكن له أن يقضيه معي، لكنه أراد تمامًا أن يقرأ في كتابه القديم. فالناس لا يعنون له شيئًا رغم كل طيبته، فقط عدالته هي التي تعني له بعض الشيء. إنه يفعل ذلك لأنها تسأله ذلك، وليس من أجل خاطري. لكنها لن تمثل قيمة بالنسبة إليَّ إلا إذا كان يفعل ذلك من أجلي!

تومئ ببطء لذلك الوجه المغموم لسارة في المرآة. تنظر حول السرير. «حجرة ابنتي. لقد توفيت عام 1933. ليس هنا! ليس هنا!».. تتوارد الأفكار على خاطرها بسرعة؛ تجفل من الطريقة التي قال ذلك بها. لا بد أن ابنته ماتت أيضًا بسببهم، لكنه لن يتحدَّث عن ذلك أبدًا، «وأنا أيضًا لن أجرؤ أبدًا أن أسأله عن ذلك. لا، لا أستطيع أن أنام في هذه الغرفة؛ إنها مقبضة، وغير إنسانيَّة. عليه أن يعطيني غرفة خادمته، فراشًا يكون ما يزال دافئًا من جسد إنسان حيّ ينام فيه. لن أستطيع النوم هنا أبدًا. لا أستطيع هنا سوى أن أصرخ...».

قلبت العلبة الصغيرة والصندوق الصغير على التسريحة، كريمات جفَّت، وبودرة مكتَّلة، وأصابع أحمر شفاه تحول لونه إلى الأخضر! «وهي ميتة منذ 1933، سبع سنوات. لا بد أن أفعل شيئًا. إنه

يتصاعد داخلي، إنه الخوف. والآن، بما أنني قد هبطت على جزيرة السلام هذه، يتصاعد الخوف؟! عليَّ أن أفعل شيئًا. لا ينبغي أن أظل وحدي مع نفسي».

بحثت في حقيبتها. وجدت أوراقًا وقلم رصاص. «سأكتب للأولاد، جيردا في كوبنهاجن، وإيفا في إيلفورد، وبيرنهارد وشتيفان في بروكلين. لكن هذا عبث، فالبريد متوقف، إنها الحرب. سأكتب إلى زِيجْفرِيد، بطريقة ما سأهرِّب الخطاب إلى مُوَابيت. لو أن هذه الخادمة العجوز أهلٌ حقًّا للثقة.. لا ينبغي أن يعلم المستشار شيئًا عن ذلك، ويمكن لي أن أعطيها مالًا أو مجوهرات. لا يزال معي ما يكفي».

أخرجت ذلك أيضًا من حقيبة يدها، المال والمجوهرات التي لفَّتها في عبوات. وأخذت سوارًا في يدها، «هذا أهداه لي زِيجْفرِيد حينما وضعتُ إيفا. كانت ولادتي الأولى واضطررت إلى تحمُّل الكثير. كيف ضحك عندما رأى المولودة! كان بطنه يؤلمه من الضحك. كل الناس كانت تضحك حين ترى المولودة بشعرها الأسود المموج فوق رأسها كله وشفتيها الغليظتين البارزتين، نعتوها بالزنجية البيضاء. أما أنا فكنت أرى أن إيفا جميلة. آنذاك أهداني السوار. كلفه كثيرًا، كلَّ المال الذي اكتسبه في الأسبوع الأبيض*. كنت فخورة جدًّا أني أصبحت أُمًّا. لم يكن السوار يعني لي شيئًا. إيفا الآن لديها ثلاث بنات، وهَارْيِيت بلغَتْ التاسعة. ترى كم تفكِر فيَّ وهي هناك في إيللفورد. لكن مهما بلغ بها التفكير فلن تستطيع

* دَرَجت بعض المناطق الألمانية قديمًا على تخصيص أسبوع لبيع أي بضائع بيضاء اللون بسعر مخفض. (المترجمة)

أن تتخيل كيف تجلس أمها هنا في غرفة موتى عند القاضي فْرُومْ الذي لا يخضع إلا للعدالة، وحدها تمامًا...».

وضعت السوار جانبًا وأخذت الخاتم. جلست اليوم كله أمام أشيائها، تغمغم مع نفسها، تتعلَّق بماضيها، لا تريد أن تفكر في ما أصبحت عليه اليوم.

ووسط ذلك هاجمتها نوبات ذعر ضارية، في إحداها وقفت فعلًا عند الباب وقالت لنفسها: «لو أنني فقط أعرف أنهم لا يعذبون الواحد عذابًا طويلًا، لو أنهم يقضون عليه بسرعة وبدون ألم.. لذهبت إليهم. لم أعد أحتمل هذا الانتظار، وربما الأمر كله عبث. فلا بد أنهم سيمسكون بي في أحد الأيام. لماذا النجاة مسؤولية كل واحد؟ لماذا أنا تحديدًا؟ لن يعود الأولاد يفكِّرون فيَّ، والأحفاد لن يذكروني مطلقًا، وزِيجْفْرِيد سرعان ما سيموت في مُوَابيت. لا أفهم ماذا كان يعني المستشار، لا بد أن أسأله اليوم مساء عن ذلك. لكن ربما سيبتسم فقط ويقول لي شيئًا لا أفهمه، لأني إنسانة حقيقيَّة، من لحم ودم، سارة التي صارت سيدة عجوزًا».

استندت بيدها إلى التسريحة، ونظرت بغمّ إلى وجهها الذي أصبح مغطًّى بشبكة من التجاعيد. تجاعيد جمعت الهمَّ، والخوف، والكره، والحب. ثم عادت إلى طاولتها، وأدوات زينتها. أخذت تعدُّ -فقط من أجل أن تمرِّر الوقت- الأوراق المالية كلها، لاحقًا حاولت أن ترتب الأوراق وَفْقَ أرقامها المسلسلة. وبين حين وآخر تكتب جملة في خطاب إلى زوجها. لكنه لم يكن خطابًا، فقط بضعة أسئلة: كيف حال إقامته، وما يأكل، وهل يمكن لها أن تؤمِن

بعض الغيارات... أسئلة بسيطة بلا أي أهمية. وأخبرته أنها بخير، وأنها في مأمن.

لا، ليس خطابًا، ثرثرة لا لزوم لها، ثم إنها ليست الحقيقة. لم تكن في مأمن، لم تشعر في الشهور الكئيبة الماضية بخوف بقدر ما شعرت في هذه الغرفة. كانت تعرف أنه سيتعيَّن عليها أن تتغيَّر في هذه الغرفة وأنها لا ينبغي أن تسمح لهم أن يمسكوا بها. وكانت تخشى الشخص الذي يمكن أن تتحوَّل إليه، ربما سيكون عليها أن تعاني وتتحمل الأكثر رعبًا، هي التي حولوها -بغير إرادة منها- من لُوْرَه إلى سارة.

لاحقًا استلقت فعلًا على الفراش، وحينما دقَّ على بابها مضيفُها في قرابة العاشرة، كانت مستغرقة في نوم عميق لدرجة أنها لم تسمعه. فتح الباب بحذر بمفتاح أدار القفل، وحين رأى النائمة أومأ برأسه وابتسم. جلب صينية تحوي طعامًا، ووضعها على الطاولة، وحين كان يزيح المجوهرات والمال جانبًا، أومأ وابتسم ثانية. خرج من الغرفة بهدوء، وضغط على القفل، وتركها تنام...

وهكذا حدث أن السيدة رُوْزِنْتال في الأيام الثلاثة الأولى من وضعها الجبري تحت الحماية لم تَرَ إنسانًا. وكانت دائمًا تنام الليل لتستيقظ على نهار مريع يعذبها بالخوف. ثم في اليوم الرابع، وبنصف إدراك، اقترفت فعلًا...

11

ما زلنا يوم الأربعاء

أرادت جِيشْ أن توقظ الرجل القصير النائم على الأريكة بعد ساعة، لكن لم يطاوعها قلبها. بدا في حالته تلك مثيرًا للشفقة، مستغرقًا في النوم من الإنهاك، أما البقع على وجهه فبدأ يتحول لونها إلى الأحمر المزرَق.

كانت شفته السفلى ممطوطة مثل طفل حزين، يرتجف جفناه أحيانًا، ويرتفع صدره في تنهيدة ثقيلة، كأنَّه على وشك البكاء في أثناء نومه.

عندما فرغت من إعداد طعام الغداء أيقظته وقدمت إليه بعضه، غمغم بما يشبه الشكر. أكل مثل ذئب وألقى نظرات عليها، لكنه لم ينبس بكلمة عما حدث.

وأخيرًا قالت:

- إذًا، لا أستطيع أن أقدم لك أكثر من هذا، وإلا فلن يتبقى ما يكفي جوستاف. استلقِ على الأريكة ونم قليلًا. بعدها سأتحدث بنفسي مع زوجتك.

مرة أخرى غمغم بشيء ما، لا تعرف إن كانت موافقة أم اعتراضًا. لكنه مضى راضيًا نحو الأريكة، وبعد دقيقة كان قد غطَّ ثانية في نوم عميق.

سمعت السيدة جِيشْ بعد العصر باب الجارة ينفتح، فتسلَّلت بصوت خفيض إلى هناك وطرقت الباب. فتحت إيفا كْلُوْجِه فورًا، لكنها وقفت لدى الباب بحيث تمنع الدخول:

- ماذا الآن؟ (سألت بنبرة عدائية)

- أرجو المعذرة يا سيدة كْلُوْجِه ... (شرعت السيدة جِيشْ تقول) إن كنتُ أزعجك من جديد. لكن زوجك نائم عندي. جَرَّه رجل من رجال الشرطة العسكرية في الصباح الباكر وألقى به هنا، بعد أن خرجتِ بقليل جدًّا.

تصلَّبت إيفا في صمتها العدائي، وأكملت جِيشْ:

- لقد أدَّبوه كما ينبغي، لم يبقَ جزء من بدنه لم ينل الضرب. ليكن كما هو لكنك لا تستطيعين أن تتركيه أمام الباب. ألقِ نظرة عليه بنفسك يا سيدة كْلُوْجِه!

قالت دون أن يطرف لها جفن:

- لم يعد لي زوج يا سيدة جِيشْ. لقد قلت لكِ هذا. ولا أريد أن أسمع ثانية عن هذا الموضوع.

وأرادت أن تدخل إلى شقتها؛ قالت جِيشْ بحماسة:

- لا تتعجَّلي هكذا يا سيدة كْلُوْجِه. في النهاية هو زوجك الذي أنجبتِ منه أطفالًا...

- هذا ما أنا فخورة به يا سيدة جِيشْ، بهذا تحديدًا!

- يمكن للمرء أن يكون لا إنسانيًّا يا سيدة كْلُوْجِه، وما تريدين أن تفعليه هذا لا إنساني. لا يمكن أن تتركي الرجل هكذا في الشارع!

- وهل كان ما فعله معي كل السنوات الماضية إنسانيًّا؟ لقد عذبني وأفسد حياتي كلها، في النهاية سلبني أعز أبنائي! هل عليَّ أن أتعامل بإنسانيَّة، فقط لأنه بُرح ضربًا من الشرطة العسكرية؟ لا أفكر في هذا على الإطلاق! هذا أمر لا تغيره بعض الضربات!

وبعد هذه الكلمات القوية السيِّئة أغلقت السيدة كْلُوْجِه الباب في وجه السيدة جِيشْ وقطعت عليها السبيل لأي كلام آخر. لم يكن لديها القدرة على تحمُّل مزيد من الكلام. لا يمكن أن تعيد الرجل إلى بيتها فقط لتتخلَّص من القيل والقال ثم تظل تندم على ذلك إلى الأبد!

جلست على كرسي المطبخ، وحدقت إلى شعلة الموقد الزرقاء وعادت بذاكرتها إلى ذلك اليوم.. عندما أبلغت رئيسها في العمل أنها تريد أن تخرج من الحزب فورًا، ولقد تسبَّب ذلك في كثير من الأقاويل. لقد أعفاها أولًا من دورتها في توزيع البريد. لكنها اليوم خضعت للتحقيق، فقرب الظهيرة حضر رجلان يرتديان ملابس مدنية ويحملان حقيبة ملفات واستجوباها، كان عليها أن تحكي عن حياتها كلها، عن أبويها، وإخوتها، وزواجها...

في البداية كانت راضية، وسعيدة، أن تتهرَّب من الأسئلة التي لا تنتهي عن أسباب رغبتها في ترك الحزب. لكن عندما كان عليها أن تخبر عن زواجها، عادت عنيدة من جديد. إذ بعد الكلام عن الزواج

سيأتي الدور على الأبناء ولن تستطيع أن تحكي عن كازْلمان بدون أن يدرك هؤلاء الثعالب أن شيئًا ما غير سليم.

لا، حتى عن ذلك لم تنبس بكلمة. لا دخل لأحد لا بزواجها ولا بأولادها.

لكن هؤلاء الناس كانوا شديدي المراس، كانوا يعرفون كثيرًا من الأساليب؛ وضع أحدهم يده في حافظة أوراقه وبدأ يقرأ في أحد الملفات. كانت تحب أن تعرف ماذا يقرأ؛ لا يمكن أن يكون لها ملف مثل هذا عند الشرطة الجنائية، ورغم أن هؤلاء يرتدون الملابس المدنية.. لاحظت شيئًا شرطيًا في سَمْتِهم.

ثم بدأ في طرح الأسئلة من جديد، وقد اتَّضح أن هذا الملف يحوي شيئًا عن إِيْنُوْ، لأنها الآن تسأل عن أمراضه، وتراخِيه عن العمل، وشغفه بالرهانات، ونسائه. بدأ الأمر مجدَّدًا على نحو غير مُؤذٍ، ثم فجأة رأت الخطر، فأغلقت فمها بإصرار ولم تَزِد شيئًا. لا. حتى هذا كان خاصًا. فهذه أمور لا تعني أحدًا. حالها مع زوجها كانت شأنها وحدها، علاوة على ذلك فهي تعيش منفصلة عن زوجها.

ها قد اصطِيدَتْ مرة أخرى. منذ متى تعيش منفصلة عنه؟ متى رأته آخر مرة؟ هل رغبتها في الخروج من الحزب لها أي علاقة بزوجها؟

كانت فقط تهز رأسها. لكنها ظلَّت تفكر برعب إن كان سيتعيَّن استجوابُ إِيْنُوْ الآن، ومن هذا المخلوق الرخو سيعتصرون كلَّ شيء في أقل من نصف ساعة! ساعتها ستقف وحدها مجلَّلة بالعار الذي لم يكن يعرفه أحد من قبل، ستقف عارية ومتجردة أمام الجميع.

- أمر خاص! خاص تمامًا!

جفلت ساعية البريد التي تراقب ارتعاش واهتزاز الشعلة الزرقاء لموقد الغاز وهي غارقة في أفكارها. لقد اقترفت خطأً ثقيلًا فلقد كانت فقط في حاجة إلى أن تعطي إينُوْ مالًا يكفيه بضعة أسابيع وأن تخبره أن يختفي لدى واحدة من صديقاته.

رنَّت على السيدة جِيشْ: اسمعيني يا سيدة جِيشْ، أريد فقط أن أقول بضع كلمات لزوجي!

والآن بعد أن استجابت لطلبها استاءت السيدة جِيشْ:

- كان عليكِ أن تفكري جيِّدًا في هذا من قبل؛ الآن زوجك قد مضى منذ قرابة عشرين دقيقة. الآن قد حضرت متأخرةً جدًّا!

- إلى أين ذهب إذًا يا سيدة جِيشْ؟

- وكيف لي أن أعرف ذلك؟ بعد أن طردْتِه! غالبًا عند واحدة من نسائه!

- ألا تعرفين عند أيٍّ منهن؟ أرجوكِ أن تخبريني يا سيدة جِيشْ! فالأمر جدٌّ مهم...

- فجأة؟! (ثم أردفت معترضة)

ذكر شيئًا عن واحدة تدعى تُوتِّي...

- تُوتِّي؟ (سألَتْ)

إنها تْرُودِه، يعني جِيرْتْرُود... ألا تعرفين الاسم الآخَرَ يا سيدة جِيشْ؟

- هو نفسه لم يكن يعرفه! لم يكن يعرف حتى أين تسكن تحديدًا. لقد ظنَّ فحسب أنه سيجدها. لكن في الحالة التي عليها الرجل...

- ربما يعود.. (قالت السيدة كْلُوْجِه مُتفكِّرة)

عندئذ أرسليه إليَّ. في كل الأحوال شكرًا لك يا سيدة جِيشْ. عمت مساء!

لكن السيدة جِيشْ لم تردَّ التحية، وصفقت الباب. فهي لم تنسَ بعد كيف أن الأخرى أغلقت الباب في وجهها سابقًا، لم يمض وقت طويل على المرة التي صرفت فيها الرجل حين ظهر هنا ثانية. امرأة كهذه كان عليها أن تثوب إلى رشدها في الوقت المناسب. فحين تؤجل الأمور يحدث أحيانًا أن يفوت الوقت.

عادت السيدة كْلُوْجِه إلى مطبخها. غريب؛ رغم أن الحديث مع السيدة جِيشْ لم يسفر عن نتيجة، لكنها تشعر بالراحة. على الأشياء إذًا أن تسير في مسارها. لقد فعلتْ ما بوسعها أن تفعله كي تبقى نظيفة. لقد تبرَّأت من الأب ومن الابن، وسوف تمحوهما من قلبها. ولقد أعلنت خروجها من الحزب. والآن فليحدث ما ينبغي أن يحدث. لن تستطيع أن تغير ذلك، حتى أسوأ شيء لم يعد يخيفها بعد كل ما مرت به.

هي أيضًا لم تخشَ شيئًا في أثناء الاستجواب الذي أجراه معها المدنيَّان وانتقلا من طرح الأسئلة التي بلا معنى إلى الأسئلة المهدِّدة. هل تعرف أن خروجها من الحزب يمكن أن يكلِّفها وظيفتها في البريد؟ بل أكثر من ذلك.. حين تستقيل من الحزب بدون أن تذكر الأسباب فهذا يعني أنها سياسيًّا غير جديرة بالثقة، «ولهؤلاء مكانٌ

يدعى معسكر التعذيب! ربما سمعتِ عنه من قبل. حيث يُحَوَّلُ غير الجديرين بالثقة إلى أشخاص مؤهلين للثقة بسرعة كبيرة، ثم يبقون جديرين بالثقة ما بقي لهم من عمر. تفهمين بالطبع!».

لم تُصَب السيدة كْلُوْجِه بالخوف. وأصرَّت على أن الشيء الخاص يظل خاصًّا، وأنها لن تتحدَّث عن أي شيء خاص. وفي النهاية سمحوا لها بالانصراف. لا، لم يُقبَل طلبها بالخروج من الحزب في الوقت الحالي وستسمع الرد لاحقًا. لكن أوقفت عن العمل في خدمة البريد. وعليها أن تظل في شقتها تحت الاستدعاء في أي وقت.

وفيما تزيح السيدة كْلُوْجِه إناء الشُّربة التي نسيتها طويلًا على شعلة الغاز، تقرر فجأة أنها لن تطيع حتى في هذه النقطة؛ لن تجلس بلا عمل في الشقة منتظرةً تعذيب السادة. كلا، ستسافر غدًا باكرًا في قطار السادسة صباحًا إلى أختها في روبين. يمكنها ساعتها أن تعيشٍ أسبوعين أو ثلاثة بدون أن تخبرهم مسبقًا بحضورها، وهم سيتمكنون من إطعامها بلا عناء. فهم لديهم بقرة، وخنازير، وأرض مزروعة بالبطاطس. ستعمل في الحظيرة وفي الحقل. سيكون هذا مفيدًا لها، أفضل من توزيع البريد إلى ما لا نهاية خفة ونشاطًا!

صارت حركاتها منذ أن قررت أن تذهب إلى الريف أكثر خفة. جلبت حقيبة يد وبدأت تحضر أمتعتها. فكرت لوهلة إن كان عليها على الأقل أن تخبر السيدة جِيشْ أنها مسافرة، وليس عليها أبدًا أن تعرف إلى أين. لكنها قررت أن كلا، الأفضل ألا تقول شيئًا. فكل ما تفعله تفعله لأجلها فقط. لا تريد أن تُدخِل أي إنسان فيه. ولن تخبر الأخت ولا زوج الأخت عن أي شيء. ستعيش الآن وحدها تمامًا

كما لم يحدث من قبل. لطالما كان هناك إنسان ما عليها الاهتمام به: الأبوان، الزوج، الأطفال. الآن هي وحدها. ويبدو لها في هذه اللحظة ممكنًا جدًّا أن هذه الوَحدة ستعجبها. ربما حين تكون وحدها تمامًا، تتمكّن من صنع شيء من نفسها، الآن، حين صار لها أخيرًا وقت لنفسها تمامًا، وحين لن تضطر إلى نسيان نفسها لأجل كل الآخرين.

في هذه الليلة، التي تخشى فيها السيدة رُوْزِنْتال الوَحدة، تبتسم ساعية البريد كْلُوْجِه لأول مرة في نومها. وتحلم بأنها ترى نفسها واقفة على حقل ضخم من البطاطس، تحمل المِعزقة في يدها. أينما نظرت ثمة حقول بطاطس مترامية، وهي تقف بينها وحيدة؛ عليها أن تحرث الحقل. تبتسم، ترفع المجرفة، عاليًا يرن حجرٌ أصابته، تهبط ساقُ رُغلٍ، تحرث وتحرث.

12

إينُو وإيمِيل بعدَ الصدمة

لقد أوجعت الصدمة إينُوْ كْلُوْجِه القصير أكثر بكثير من «شريكه في الجريمة» إيمِيلْ بُوزْكْهاوْزِن، الذي بعد أحداث هذه الليلة له امرأة، ولتكن من تكون، فلقد أخذته إلى سرير حتى لو أنها سرقته فور أن وضعته فيه. كما أن المُراهن الضعيف تلقى ضربات أكثر بكثير من ذلك الجاسوس، نهَّاز الفرص، ذي العظام البارزة. لا، لقد أصاب إينُوْ السوءُ بدرجة أكبر.

وفيما هو يجري خائفًا في الشوارع بحثا عن تُوتِّي، كان بُوزْكْهاوْزِن قد خرج من فراشه وبحث في المطبخ عن شيء يأكله وبدأ يأكل مكتئبًا مهمومًا. وبعد ذلك وجد بُوزْكْهاوْزِن في خزانة الملابس علبة سجائر، أشعل واحدة لنفسه، ثم دسَّ العلبة في جيبه، وجلس مكتبئًا مرة أخرى على الطاولة، واضعًا رأسه بين يديه.

وهكذا وجدته امرأته أُوْتِّي، بعد أن عادت من مشاويرها. وبالطبع رأت فورًا أنه تناول طعامًا، وكانت تعرف أيضًا أنه لم يكن لديه ما يدخِّنه في جيبه حين ذهبت، واكتشفت على الفور السرقة من خزانة ملابسها. وفي التو أطلقت العنان للسانها بالشجار، رغم خوفها الكبير:

- أجل، كم أحب شيئًا كهذا! رجل، يأكل طعامي ويسرق سجائري! فورًا تعيد إليَّ أشيائي! أو تدفع لي ثمنها! أعطني مالًا يا إيمِيلْ!

انتظرت متوتِّرة، لترى ما سيقول، واثقة بموقفها. فالثمانية وأربعون ماركًا قد صرفتها كلها بالفعل، لن يستطيع أن يفعل أي شيء حقًّا.

رأت من إجابته، رغم وقعها السيِّئ، أنه لا يعرف شيئًا عن النقود. تشعر أنها أذكى كثيرًا من هذا الأحمق الذي تزوجته، لقد سرقته، والقرد لا يدرك ذلك حتى!

- أغلقي فمكِ! (يغمغم بُورْكْهاوْزِن فقط بدون أن يرفع رأسه) واخرجي من الغرفة، وإلا سأضربكِ حتى أهشم عظامك!

تنادي من طرقة المطبخ، ببساطة، لأنها لا بد أن يكون لها الكلمة الأخيرة، ولأنها تشعر أنها أقوى منه، رغم أنها تشعر بالخوف منه الآن:

- فلتحرص أنت نفسك كي لا يحطم رجال الشرطة العسكرية عظامك. فأنت لست بعيدًا عن ذلك!

وبهذا ذهبت إلى المطبخ ونفَّست عن غضبها ببعض النقانق.

أما الرجل فجلس في الغرفة وأمعن التفكير. لا يعرف إلا قليلًا عما جرى في أثناء الليل، لكن القليل الذي يعرفه يكفيه. كما أنه فكر أن شقة رُوْزِنْتال موجودة في الأعلى وعلى الأرجح أن آل بِيرْزِيكِه قد أتوا على كل محتوياتها، وأنه كان عليه أن يأخذ المزيد والمزيد! وأنه بسبب سكره قد أخفق في ذلك!

لا، إينُوْ يتحمل ذنب ذلك، فإينُوْ هو من بدأ شرب الخمر، إينُوْ كان من البداية مخمورًا. بدون إينُوْ كان ليمتلك الآن كومةً من الأشياء، الغسيل، والملابس، وبصعوبة يتذكر وجود جهاز راديو. لو أن إينُوْ أمامه هنا الآن لَكَسَّر كل عظامه، ذلك الضعيف الجبان الذي أفسد الأمر كله!

لكن بعد وهلة يهزُّ كتفيه ويسأل. «من هذا الإينُوْ؟ حشرة جبانة يعيش على الدم الذي يسحبه من النساء. لا، المذنب الحقيقي هو ذاك البَالْدُوْر بِيرْزِيكِه! ذلك الأحمق، تلميذ المدرسة المنتمي إلى شبيبة هتلر كان ينتوي من البداية أن يقضي عليه! لقد كان كل شيء مُعَدًّا، من أجل أن يمسك بمتهم ثم يستولي هو على الغنيمة لنفسه بدون عقاب! لقد دبر هذا الثعبان السام الذي يرتدي نظارات لامعة بدقة أن يوقع به بهذه الطريقة، ذلك الصبي اللعين!».

لكن بُورْكْهاوْزِن لا يفهم تمامًا السبب الذي يجعله الآن ليس راقدًا في زنزانة في شارع أليكساندر وإنما في غرفة بيته. لا بد أن أمرًا قد حدث لأولئك. وبصعوبة يتذكر وجود شبحين، لكن من كانا؟ ولماذا لم يتعرف عليهما في حالته التي تشبه الخاضع للتخدير؟ أما الآن فلم يعد يعرف ما حدث.

لكنه يعرف شيئًا واحدًا: لن يغفر ذلك لبَالْدُوْر بِيرْزِيكِه أبدًا، مهما تسلق سلم الرضا في الحزب سيظل بُورْكْهاوْزِن يراقبه. بوسعه أن ينتظر، لا ينسى بُورْكْهاوْزِن شيئًا. أحمق مثل هذا! سينال منه يومًا ما، وسيوقعه في الوحل! لكن عليه أن يقع أسوأ من وقعة بُورْكْهاوْزِن، ولا ينبغي أن يقف على قدميه بعد هذه السقطة. تشي بشريك الجريمة؟ لا. هذا

لن يُغتفر أبدًا ولن يُنسى! الأشياء الجميلة في شقة رُوْزِنْتال، الحقائب والصناديق والراديو، كان يمكن له أن يحصل على كل ذلك لنفسه!

ويواصل بُورْكْهاوْزِن التفكير في نفس الشيء، وخفيةً أخذ مرآة يدِ أُوْتّي الفضية - هي التذكار الأخير من رجل كريم- وشرع في تأمل وجهه ولمسه.

وكذلك راح إيْنُوْ القصير يكتشف منظر وجهه في مرآة محل للأزياء، وهذا ما زاد من خوفه تمامًا وطيَّر عقله. لم يجرؤ على النظر إلى أي إنسان لكنَّ لديه إحساسًا أن الجميع يدققون فيه. يدفع نفسه إلى السير في الشوارع الجانبية، ويصبح بحثه عن تُوتِّي أمرًا مضنيًا، فهو لم يعد يعرف أين تسكن، ولم يعد يعرف أين هو الآن. لكنه يدخل إلى كل مدخل مظلم وينظر في الأحواش الخلفية نحو النوافذ في الأعلى: تُوتِّي.. تُوتِّي...

سرعان ما سيحل الظلام وعليه أن يجد مكانًا يُؤويه قبل الليل وإلا ستقبض عليه الشرطة، وحينما يرون الحالة التي هو عليها، سيُحِيلونه إلى لحم مفرُوم إلى أن يعترف بكل شيء. وحينما يعترفُ على آل بِيرْزِيكِه ويبوح بكل شيء من خوفه، سيضربه آل بِيرْزِيكِه حتى يُفضوا به إلى الموت.

ظل يسير بلا هدف...

في النهاية تخور قواه. يجلس على أحد المقاعد الخشبية، ببساطة لم يعد قادرًا على مواصلة المشي أو التفكير في شيء. في النهاية يبدأ -بطريقة ميكانيكية تمامًا- يبحث في جيوبه عن شيء يمكن تدخينه، ربما تمنحه سيجارةٌ طاقةً مرة أخرى لمواصلة السير.

لا يجد في جيوبه أي سيجارة، لكنه يجد شيئًا بالتأكيد لم يكن ينتظره، ألا وهو النقود. وجد 46 ماركًا. كان يمكن للسيدة جِيشْ أن تخبره بذلك قبل ساعات.. أن معه نقودًا في جيبه، كان ذلك ليُطمئن الرجل المذعور في بحثه عن مأوى. لكن السيدة جِيشْ ما كانت لتفشي أنها فتَّشت جيوبه فيما هو نائم. السيدة جِيشْ امرأة محترمة؛ لقد أعادت النقود، حتى ولو بعد صراع قصير. لو كانت وجدت المال عند زوجها جوستاف لكانت أخذته بلا تردد، لكن لأنه رجل غريب. لا، لم تكن من تلك الشاكلة من النساء! وبالطبع أخذت السيدة جِيشْ ثلاثة ماركات من الـ49 ماركًا التي وجدتها. لكن هذه لا تُعدُّ سرقة، بل حسابًا عادلًا جزاء الطعام الذي قدَّمَته للسيد كْلُوْجِه. كان يمكن أن تقدِّم له الطعام كذلك بدون مقابل، لكن كيف لها أن تقدم طعامًا مجانيًا لرجل غريب معه مال؟ هي أيضًا ليست من هذه النوعية من البشر.

على أي حال فإن الـ46 ماركًا تقوي إِيْنُوْ كْلُوْجِه المذعور بدرجة كبيرة، فهو يعرف الآن أنه بوسعه أن يؤجر مكانًا لقضاء الليل. كذلك بدأت ذاكرته في العمل، صحيح أنه بعدُ لا يتذكر موقع شقة تُوتِّي، لكن خطر بباله فجأة أنه تعرف عليها في مقهًى صغير عادة ما تتردَّد إليه؛ ربما يعرفون هناك عنوان شقتها.

ينهض ويعاود السير. يحدِّد مكانه، وبمجرد أن يرى التِّرام الكهربي، الذي يمكن أن يقرِّبه من وجهته، يتجاسر على القفز في المقصورة الأمامية المعتمة للعربة الأولى. فهناك المكان مظلم ومزدحم بدرجة لن تسمح لأحد بأن ينتبه لمنظر وجهه. وبعد ذلك

ذهب إلى المقهى. لا، لا يريد أن يتناول شيئًا، توجَّه مباشرة إلى البوفيه وسأل الآنسة هناك إن كانت تعرف أين تُوتِّي، وإن كانت تُوتِّي لا تزال تأتي إلى هنا؟

تسأل الآنسة بصوت حاد معدني يُسمع المكان كله أيَّ تُوتِّي يعني، فعدد كبير من التُوتِّيات في برلين!

يجيب الرجل القصير الخجول محرجًا:

- فقط تُوتِّي، التي تأتي إلى هنا دائمًا! داكنة الشعر وسمينة نوعا ما...

وَا! تُوتِّي، تقصد تلك التُوتِّي! لا! لا شأن لك بتلك التُوتِّي! فهي لن تجرؤ على الحضور إلى هنا ثانية! ولن تريدَ أن تسمع عنها أي كلمة!

وبهذه الكلمات أشاحت بوجهها مستاءة عن السيد إيْنُوْ، غمغم كْلُوْجِه ببضع كلمات معتذرًا وخرج من المقهى. وقف حيرانَ لا يدري ماذا يفعل الآن، وفي الشارع المظلم وحين خرج رجل آخر من المقهى، رجل كبير في السن، متهالك إلى حد كبير، مشى وراء إيْنُوْ. ثم توجه الرجل نحو إيْنُوْ مترددًا ثم التفت، وخلع قبعته وسأل إن كان هو الرجل الذي كان منذ قليل في المقهى مستعلِمًا عن تُوتِّي معينة.

- ربما.. (يجيب إيْنُوْ كْلُوْجِه بحذر)

لماذا تسأل إذًا؟

- فقط أسأل. أستطيع أن أخبرك لاحقًا أين تسكن، بل أستطيع أن أوصلك حتى شقتها، لكن عليك أن تسدي إليَّ صنيعًا!

- أي صنيع هذا؟ (يسأل إينُوْ بنبرة ازدادت حذرًا)

لا أعرف أي صنيع يمكن أن أسديه إليك. فأنا لا أعرفك أصلًا!

- هل نذهب مباشرة نحو الزاوية إذًا؟ (يصيح الكبير)

لا. ليس ثمة طريق حين نستمر في المشي إلى الأمام. المسألة ببساطة، والظرف أن تُوتِّي ما تزال لديها حقيبة بها أغراضي. ربما تستطيع أن تحضر إليّ الحقيبة غدًا صباحًا بسرعة حين تكونُ تُوتِّي نائمة أو مشغولة في أمورها.

بدا أن الرجل الكبير يفترض أن مبيت إينُوْ ليلته عند تُوتِّي هو أمر مفروغ منه.

- لا! (يقول إينُوْ)

لن أفعل هذا. لا أتورط في مثل تلك الأشياء. أعتذر!

- لكني أستطيع أن أخبرك بما هو موجود في هذه الحقيبة بدقة. إنها حقيبتي حقًّا!

- إذًا لماذا لا تطلبها إلى تُوتِّي بنفسك؟

- ممم، حين تتكلم بهذه الطريقة.. (قال الرجل الكبير مستاءً)

أنت إذًا لا تعرف تُوتِّي. هذه امرأة، لا بد أن تعرفها! لها شعر على أسنانها، بل ليس شعرًا، إنها أشواك قنفذ! إنها تعض وتبصق مثل القرد، ولهذا أطلقوا عليها هذا الاسم!

وفيما الرجل الكبير يرسم هذه الصورة المحبَّبة عن تُوتِّي جال في بال إينُوْ كْلُوْجِه بذعر أن تُوتِّي بالفعل على تلك الشاكلة، وأنه في المرة الأخيرة اختفى ومعه حافظة نقودها وبطاقات صرف المواد

الغذائية. إنها بالفعل تعض وتبصق مثل القرد حينما تستشيط غضبًا، وربما صبَّت غيظها هذا فورًا على إيْنُوْ بمجرد أن يذهب إليها الآن. كل ما تخيله عن المبيت عندها ليس إلا مجرد خيال.

وفجأة يقرر إيْنُوْ -ارتجالًا- أنه بدءًا من هذه الدقيقة فصاعدًا.. سيعيش بعيدًا عن قصص النساء هذه، بدون سرقات صغيرة وكذلك بدون رهانات خيول. لديه 46 ماركًا في جيبه يستطيع أن يعيش بها إلى موعد قبض الأجر التالي. وفي صباح الغد سيسمح لنفسه بالراحة، بعد كل الإنهاك الذي هو عليه، وبعد الغد سيبدأ في العمل بشكل صحيح. وسيجعلهم يعرفون قيمته ولن يرسلوه ثانية إلى الجبهة. إنه لا يستطيع حقًّا بعد كل ما عاناه في الأربع وعشرين ساعة الماضية أن يغامر ويضع نفسه تحت رحمة استقبال القردة تُوتِّي.

- أجل.. (يقول إيْنُوْ كْلُوْجِه متفكِّرا للسيد الكبير)

هذا صحيح؛ هكذا هي تُوتِّي. ولأنها هكذا فلقد قررتُ الآن ألا أذهب إليها. سأبيت الليلة في الفندق هناك. تصبح على خير يا سيد... معذرةً! لكن...

وبهذا يسير حذِرًا بعظامه المحطمة، وينجح -رغم مظهره المتهالك والغياب التام لأي أمتعة- في تسوُّل فراش من الخادم مقابل ثلاثة ماركات. يزحف إلى حفرته الضيقة العطِنة الرائحة في الفراش الذي بات على ملاءاته عديدون من قبله، يمطُّ بدنه ويقول لنفسه «من الآن فصاعدًا أريد أن أعيش بطريقة مختلفة تمامًا. لقد كنتُ وضيعًا حقيرًا، خصوصًا مع إيفا، لكن من هذه الدقيقة فصاعدًا سأتغير. لقد استحقَقْت بالفعل ما جرى لي، لكني من الآن سأتغير».

يرقد ساكنًا تمامًا في الفراش الهزيل، واضعًا يديه على طرفي سرواله محدقًا إلى السقف. يرتجف من البرد، والإنهاك، والآلام. لكنه لا يشعر بذلك مطلقًا. يفكِر في أنه في السابق كان عاملًا محترمًا ومحبوبًا، والآن هو مجرد رجل قصير متهالك ينفر منه الجميع. لا، لقد ساعدته الضربات، سيصير كل شيء مختلفًا الآن. وبينما هو يرسم لنفسه هذا التغيير، غطَّ في النوم.

بحلول هذا الوقت أيضًا ينام كل آل بِيرْزِيكِه، والسيدة جِيشْ والسيدة كْلُوْجِه، والزوجان بُورْكْهاوْزِن، فلقد سمح بدون كلمة لأُوْتّي أن تنسل إلى جواره في الفراش.

والسيدة رُوْزِنْتال تنام مذعورة وتتنفس بصعوبة. وكذلك تْرُودِل بَاوْمَان الصغيرة. فلقد تمكنت في العصر أن تهمس لواحد من عصبتها أنها تريد أن تخبرهم بشيء وأن عليهم غدًا مساءً أن يلتقوا في حانة إليزيوم، ويحاولوا بقدر المستطاع ألَّا يلفتوا الأنظار. شعَرَتْ بالخوف قليلًا لأن عليها أن تعترف بثرثرتها، لكنها الآن نائمة.

ترقد السيدة آنَّا جْفَانْجِل في الفراش في الظلام، فيما يقف زوجها في ورشته في مثل هذا الوقت في كل ليلة ويتابع بانتباه كل مراحل العمل. لم يستدعوه إلى الإدارة التقنيَّة من أجل تحسين التصنيع. هذا أفضل جدًّا!

آنَّا جْفَانْجِل ترقد في الفراش، لكنها لا تستطيع أن تنام؛ لا تزال ترى زوجها باردًا تمامًا وبلا قلب. من الطريقة التي تلقَّى بها خبر وفاة أُوتُّو، والطريقة التي أخرج بها تْرُودِل المسكينة والسيدة رُوْزِنْتال من الشقة؛ بارد، وبلا قلب، ولا يفكِر إلا في نفسه. لن تستطيع أن

تعامله معاملة طيّبة كما في السابق، حين كانت تظنُّ أنه على الأقل يُكِنُّ لها بعض المشاعر. لقد رأت ذلك الآن. لقد استاء فقط من الكلمة التي نطقتها بدونٍ رَوِيَّة «أنتَ وزعيمك!». الآن لن تجعله يستاء بسهولة، لن تتمكّن بسهولة من الحديث معه ثانية. اليوم لم يتبادلا ولا كلمة واحدة، لم يقولا حتى «صباح الخير».

أما المستشار المتقاعد فْرُومْ فلا يزال مستيقظًا، مثلما هو مستيقظ دائمًا في الليل. يكتب بقلمه خطابًا يبدأ كالتالي: «السيد المبجَّل المحامي العام...»، وأسفل أباجورة القراءة ينتظره «بلوتارخ» مفتوحًا على مصراعيه.

13

رقصة النّصر في حانة الإيليزيوم

قدَّمت صالة الإليزيوم -حانة المرقص الكبير في شمال برلين- مساءَ هذه الجمعة صورة من شأنها أن تسعد عيون كل ألماني طبيعي: أزياء رسميَّة موحّدة فوق أزياء رسميَّة موحّدة. لم يكُنْ جَيشُ الدفاع بلونيه الرمادي والأخضر هو ما رسم الخلفية القوية لهذه اللوحة ذات الألوان البهيجة، بل بمقدارٍ أقوى الزيُّ الموحَّد للحزب وعناصره المختلفة التي جعلت الصورة تتلوَّن بالبني، والبني الناصع، والبني الذهبي، والبني الدَّاكن، والأسود. ويمكن أن يُرى إلى جوار القمصان البنيَّة الخاصَّة بكتيبة العصف* القمصانُ ذات اللون البني الأكثر نصوعًا الخاصَّة بشبيبة هتلر، كذلك منظمة تُود** كانت مُمَثَّلة، مَثَّلَهَا مَثَلُ «خدمة عمال الرَّايخ»***، وكذلك رأى الناس الأزياء الرسميَّة الصفراء للزعماء الخاصين الذين يُدعَونَ «السُّمَانَى الذهبيُّ»، وأيضًا شوهد القادة السياسيون إلى جوار حراس المجال الجوي. لم يكن

---

* الجناح شبه العسكري للحزب النَّازي، أُسِّس كنوع من الشرطة المُساعِدة، وضم إلى جانب قادة الجيش السابقين نحو 700 ألف عضو، وتركزت مهمته الأساسية في تتبع المعارضين السياسيين واليهود. (المترجمة)

** منظمة تابعة للحزب النَّازي تختص بالهندسة المدنية والعسكرية. (المترجمة)

*** وكالة كبرى أُسِّسَت لتخفيف آثار البطالة على الاقتصاد الألماني من خلال تأهيل القوى العاملة وتلقينها الآيديولوجية النَّازية. (المترجمة)

الرجال فقط هم من ارتدوا البِزَّات الموحَّدة التي تَشرَحُ القلب، ففتيات كثيرات ارتدين الزي الموحد: رابطة الفتيات الألمانيات*، وخدمة القوى العاملة، ومنظمة تُود، كلها ظهرت بزعيماتها وقائداتها الأولى والفرعية، وبدا أن كثيرًا من المنتسبين إلى تلك التنظيمات قد أُرسلوا أيضًا إلى ذلك المكان.

أما المدنيون القليلون فقد ضاعوا تمامًا في تلك الجموع، بلا أيِّ أهمية تُذكر، وبدَوا مملِّين وسط كل تلك البِزَّات الرسميَّة الموحّدة، مثل سائر الشعب المدني في الشارع وفي المصانع الذي لم يَنشُدْ أن يكون ذا أهمية في الحزب. لقد كان الحزب هو الكل والشعب لا شيء.

كانت طاولةٌ على الطرف، بعيدة عن الأنظار، جلست إليها فتاة مع ثلاثة شُبَّان. ولا واحد من الأربعة كان يرتدي أي زي موحد، أو وَضَعَ حتى شارةً للحزب.

فتاة وشاب حضرا أولًا كرفيقيْن، ولاحقًا حضر شاب آخر وطلب الإذن أن يجلس معهما، وفي النهاية حضَرَ أيضًا مدنيٌّ رابع وطلب نفس الإذن. حاول الرفيقان الشابَّان أن يرقُصا وسط المعمعة. وفي هذه الأثناء انخرط الرجلان الآخران في حديث اشترك فيه الرفيقان من حين إلى آخر بعد أن عادا يشعران بالانضغاط والحَرِّ.

واحد من الرجال، في بداية الثلاثينيات، بجبهة بارزة وشعر قليل استند إلى كرسيه مبتعدًا إلى الوراء وأخذ يراقب الهرج على ساحة

---

* القسم الخاص بالفتيات المماثل لـ«شبيبة هتلر»، يضمُّ فتيات من سن 18 - 14. (المترجمة)

الرقص والطاولات الجانبية. والآن قال فيما لا يكاد ينظر إلى الآخرين:

- اختيار سيِّئ لمكان التجمع؛ نحن تقريبًا الطاولة الوحيدة التي يجلس عليها مدنيُّون في هذه الصالة. نحن نلفت الأنظار.

قال فارس الفتاة الشابة مبتسمًا لها رغم أن كلماته كانت موجَّهة إلى الرجل ذي الجبهة البارزة:

- على العكس يا جْرِيجُولَايْت، نحن لن نُلاحَظَ مطلقًا، على الأكثر سَنُحتَقَرُ. فهؤلاء السادة لا يفكِّرون إلا في أن النَّصر المزعوم على فرنسا قد جلب لهم إذنًا بالرقص لعدة أسابيع.

- لا أسماء! ولا تحت أي ظرف! (قال الرجل ذو الجبين البارز محتدًّا)

ولوهلة صمت الجميع. رسمت الفتاة شيئًا بسبابتها على الطاولة، لكنه لم يكن واضحًا رغم أنها كانت تشعر أن كلهم يرونه.

- في كل الأحوال، يا تْرُودِل.. (قال الرجل الثالث بوجه بريء كأنَّه رضيع كبير)

هل الآن الوقت المناسب للنبأ الذي تريدين قوله؟ ماذا حدث؟ الطاولات الجانبية شبه فارغة، الكلُّ يرقص. إذًا هاتِي ما عندكِ!

لم يَكُنْ صمت الرجلين الآخرين يعني شيئًا سوى الموافقة. قالت تْرُودِل بَاوْمَان بصوت متهدِّج وبدون أن ترفع رأسها:

- لقد -فيما أظن- ارتكبتُ خطأ. في كل الأحوال لم أَفِ بكلمتي، رغم أن الذي حدث في رأيي ليس خطأ بكل صراحة...

- أوه، توقفي! (صاح الرجل صاحب الجبين البارز بطريقة مهينة) هل تريدين أن تقلدي نقيق الدجاج؟ لا تُتَأتئِي، قولي مباشرة، ماذا حدث؟!

رفعت الفتاة رأسها ونظرت إلى وجه كل رجل من الثلاثة على التوالي، وشعرت أنهم يحدقون إليها ببرودٍ. ترقرقت عبرتان في عينيها، كانت تريد أن تتكلم لكنها لم تتمكّن، وأخذتْ تفتِّش عن منديل جيب.

تراجع الرجل ذو الجبين البارز إلى الوراء وأطلق صفيرًا منخفض الصوت:

- عليها ألّا تنقنق كالدجاج؟! إنها تنقنق مثل دجاجة! انظُر فقط إلى وجهها!

اعترض الفارس الجالس إلى جوار تْرُودِل بسرعة:

- غير معقول! تْرُودِل فتاة من الذهب الخالص. قولي له إنكِ لم تثرثري يا تْرُودِل!

وضغط على يدها مشجعًا.

توجَّه زُوْيِجْلِينْج بعينيه المستديرتين الزرقاوين منتظرًا، لا يكاد يندُّ عنه أي تعبير تجاه الفتاة. ابتسم الطويل ذو الجبين البارز محتقِرًا. ضغط سيجارته في المنفضة وقال باستخفاف:

- والآن يا آنسة؟

تمالكت تْرُودِل نفسها ثم همست بشجاعة:

- أجل، عنده حق. لقد ثرثرتُ، حماي جلب لي نبأ وفاة أُوتُّو. ولقد جعلني هذا أفقد اتِّزاني. قلت له إني أعمل في خليَّة.

- ذكرتِ أسماءَ؟

لم يكن أحد يتوقع أنَّ زُوْيِجْلِينْج غير المؤذي يمكن أن يطرح سؤالًا بهذه الحِدَّة.

- بالطبع لا. بل لم أَحْكِ أي شيء إضافي. ثم إن حماي عامل مُسِنٌّ، لن ينبس بكلمة واحدة.

- حموكُ فصلٌ مستقلٌّ آخرُ. أنت الفصل الأول! تقولين إنك لم تذكري أسماءَ...

- وعليكَ أن تصدِّقني في هذا يا جْرِيجُولَايْت! أنا لا أكذب. لقد اعترفتُ إليكم بمحض إرادتي.

- ها قد ذكرت اسمًا مرة ثانية يا آنسة بَاوْمَان!

قال زُوْيِجْلِينْج:

- لكن ألا ترونَ أن الأمرَ سواءٌ.. إن ذكَرَتْ أسماءَ أم لم تذكر؟ لقد أخبرته أنها تعمل في خلية؛ ثرثرَتْ مرة وستثرثر ثانية. لو وقعت في أيدي السادة العليمين ببواطن الأمور.. لو عذبوها قليلًا فستتحدَّث. بغض النظر عن أي شيء أفشته حتى الآن!

- لن أتحدث أبدًا إلى هؤلاء، حتى لو سألقى حتفي! (صاحت تْرُودِل بوجنتين مشتعلتين)

- أوه! (قال ذو الجبين البارز)

الموت سهل للغاية يا آنسة بَاوْمَان، لكن أحيانًا يأتي قبل الموت بضعة أشياء مزعجة حقًّا!

- أنت لست رحيمًا (قالت الفتاة الشابة)

لقد ارتكبتُ خطأ، لكن...

- أرى أيضًا أن.. (جاء صوتٌ من ناحية الأريكة إلى جوارها)

علينا أن نراقب حماك، وإن كان حقًّا أهلًا للثقة...

- بين يَدَيْ هؤلاء لا مكان للثقة! (قال جْرِيجُولَايْت)

- تْرُودِل.. (قال زُوْيِجْلِينْج مبتسمًا بلطف)

تْرُودِل لقد قلتِ توًّا إنك لم تذكري أي اسم!

- فعلًا. لم أذكر أي أسماء!

- وتزعمين أنك مستعدة للموت قبل أن تَشِي بشيء؟

- نعم! نعم! (صاحت بحماسة)

- الآن.. (قال زُوْيِجْلِينْج وابتسم منتصرًا)

الآن يا تْرُودِل، ماذا لو أنك تموتين اليوم مساءً قبل أن تثرثري بالمزيد؟ سوف يمنحنا هذا بعض الأمان ويوفر علينا عملًا كثيرًا.

خيَّم صمت ثقيل بين الأربعة، وابيضَّ وجه الفتاة من الشحوب وقال فارسها «لا!» ووضع يده على يدها بخِفَّة، لكنه عاد ورفعها سريعًا.

ثم عاد الراقصون إلى طاولتهم ما جعل إتمام هذا الحديث مستحيلًا لبعض الوقت.

أشعل صاحب الجبين البارز سيجارة لنفسه، فيما ابتسم زُوْيِجْلِينْج بشكل غير ملحوظ حين رأى كيف أن يدها ترتجف، ثم قال للدَّاكن الجالس إلى جوار الفتاة الشاحبة الصامتة:

- تقول «لا». لكن لماذا حقًّا؟ إنه حَلٌّ مُرْضٍ جدًّا للمهمة وحَلٌّ -كما فهمتُ- اقترحَتْهُ الجالسةُ إلى جوارك بنفسها!

- الحلُّ غير مُرْضٍ (قال الدَّاكن ببطء)

كثيرون يموتون بالفعل، نحن لسنا هنا لنرفع معدل الوَفَيَاتِ!

- أتمنى.. (قال ذو الجبين البارز)

أن تفكِّر في هذه الجملة حين تقف أنت وأنا وهذه هناك في باحة محكمة الشعب!

- صمتًا! (قال زُوْيِجْلِينْج)

اذهبَا إلى الرقص قليلًا. يبدو أن هذه رقصة لطيفة. ويمكن لكما في هذه الأثناء أن تتناقشا، وكلانا سيجلس ويناقش المسألة هنا...

ممتعضًا وقف الشاب الدَّاكن وانحنى انحناءة خفيفة أمام سيدته، وضعت يدها ممتعضة على ذراعه. شاحبَيْنِ ذهَبَا كلاهما إلى تيار الراقصين المتدافع في حلبة الرقص. رَقَصَا جادَّيْنِ صامتَيْنِ، وبدا له أنه يراقص ميْتةً، وكان هذا كفيلًا بأن يجعله يرتجف. الأزياء الرسميَّة الموحّدة من حوله، وشارات الصليب المعقوف، والرايات ذات اللون الأحمر الدموي المعلقة على الجدران التي تحمل الشعار الكريه، صورة الزعيم المزينة بالأخضر، الضوضاء الموقعة في أثناء دوران الرقصة..

- لن تفعلي ذلك يا ترُودِل! (قال لها)

إنه مجنون، أن يطلب شيئًا كهذا. عِدِيني!

كانا يتحرَّكان في نفس المكان الذي تتكاثف فيه حركة الجموع الصاخبة، ربما لأنهما كانا يتلامسان طوال الوقت مع راقصين آخرين. ربما لهذا لم تنبسْ.

- ترُودِل! (رجاها مرة أخرى)

عديني! تستطيعين الذهاب إلى مصنع آخر والعمل هناك، كي لا يراك هؤلاء. عديني...

حاول أن يجعلها تنظر إليه، بَيْدَ أن عينيها كانتا تنظران بعناد فوق كتفيه.

- أنتِ أفضلُ مَنْ فينا.. (قال فجأةً)

أنتِ الإنسانيَّة، أما هو فمجرد شخص دوغمائي. عليكِ أن تواصلي حياتكِ، لا تخضعي!

هزت رأسها، ربما لتعني نعم أو لتعني لا:

- أريد أن أعود.. (قالت)

لا أريد مواصلة الرقص.

- ترُودِل! (قال كارْلْ هِرْجِيزِيل بسرعة بمجرد أن استَلَّت نفسها من بين الراقصين)

أُوتُّو خطيبُكِ مات أمسِ، فقط أمسِ علمتِ بالخبر. الوقت مبكِّر جدًّا. لكنك تعرفين بالفعل، دائمًا ما كنتُ أحبكِ. لم أنتظر قطُّ شيئًا

منك، لكن الآن أنتظر أنكِ على الأقل تعيشين. ليس من أجلي، لا، فقط أن تعيشي!

لكنها هزَّت رأسها من جديد، ومن جديد ظلَّت غير متيقِّنة ما رأيها في حبّه، وما رأيها في أمنيته أن تظلَّ على قيد الحياة. وصَلَا إلى طاولة الآخرين.

- والآن؟ (سأل جْرِيجُولَايْت صاحبُ الجبين البارز) كيف كان الرقص؟ المكان مزدحم قليلًا، أم ماذا؟

لم تعاود الفتاة الجلوس وقالت:

- سأذهب الآن. كونوا بخير. كنت أتمنى أن أعمل معكم.

استدارت وهي تمضي إلى سبيلها.

كان ذلك الزُوْيِجْلِينْج البدين غير المؤذي أول من مشى وراءها، وأمسكها من مفصل يدها وقال:

- لحظة من فضلك!

كان يقولها بنبرة كلها رجاء، غير أن نظراته كانت مليئة بالتهديد.

عادت إلى الطاولة. وجلست ثانية. سأل زُوْيِجْلِينْج:

- هل لي أن أفهم يا تْرُودِل ماذا يعني بالضبط هذا الوداع؟

- لقد فهمتُ ما قلتَهُ على نحو صحيح تمامًا. (قالت الفتاة ونظرت إليه بعينين جامدتين)

- ولهذا، أرجوكِ، أن تسمحي لي أن أرافقك لبقية المساء!

فما كان منها إلا أن أتت بحركة دفاع مذعورة.

قال بأدب جَمّ:

- لا أريد أن أفرِض نفسي عليكِ، لكني أرى أنه في تنفيذ مثل تلك النِيَّات كثيرًا ما تُرتكب أخطاءٌ.. (ثم همس مهدِّدًا)

لا يهمني أن ينتشلكِ أحمقُ ما من المياه أو أن ترقدي صباح الغد في أحد المستشفيات بوصفك الفتاة التي حاولت أن تقتل نفسها بالسم. المهم أنه لا بد أن أشهد ما سيحدث!

- مضبوط! (قال صاحب الجبين البارز)

أؤيد هذا.. هذا ما يضمن لنا الحماية الحقيقيَّة...

- سوف أكونُ.. (قال الدَّاكن مؤكدًا)

اليومَ وغدًا وفي كل يوم بعدَه إلى جانبها. سوف أفعل كل ما في وسعي كي أؤخر هذا الأمر. وسوف أستعين بمساعدة خارجية إن ضغطتم عليَّ، حتى لو استعنت بالشرطة!

أطلق صاحب الجبين البارز صفارة جديدة، طويلة وممطوطة، بصوت خفيض غاضب.

قال زُوْيِجْلِينْج:

- حسنًا. الآن أمامنا المثرثر الثاني على الطاولة. مغرمٌ، أم ماذا؟ كنت أشكُّ في هكذا حال طوال الوقت. هيا يا جْرِيجُولَايْت، لقد حُلَّتِ الخليةُ. ليس مِنْ خلية بعدُ. وهذا ما تسمُّونه نظامًا، أنتم يا أصحاب القلوب الرخوة!

- لا، لا! (صاحت الفتاة)

لا تستمعوا إليه. صحيح إنه يحبني، لكن أنا لا أحبه. سأذهب معكم مساء اليوم...

- هراء! (قال زُوْيِجْلِينْج بنبرة غاضبة للغاية)

ألا ترون أنكم لا تقدرون أن تفعلوا أيَّ شيء، لأنه...

ثم صنع حركة برأسه نحو الدَّاكن:

- آخ...

- ماذا! (قال بصوت خفيض وباقتضاب)

- لقد انتهى كل شيء! هيا جْرِيجُولَايْت!

وقف صاحب الجبين البارز بالفعل. ومعًا توجهوا نحو باب الخروج. فجأةً نزلَتْ يدٌ على ذراع زُوْيِجْلِينْج. نظر إلى الوجه الأملس المترهِّل قليلًا لواحد من مرتدي الزيِّ البني الموحد.

- لحظة من فضلك! ماذا قلتَ منذ قليل عن تحلل الخلية؟ هذا أمر من شأنه أن يهمني كثيرًا...

لكن زُوْيِجْلِينْج حرر ذراعه بوحشية:

- اتركني لحالي! (قال بصوت عالٍ جدًّا)

إن كنتَ تريد أن تعرف ما كنا نقول فاسأل الشابة هناك! أمسِ فقط سقط خطيبها صريعًا واليوم صار لها حبيب جديد! اللعنة على النساء!

واستمر في التدافع من أجل الوصول إلى بابِ الخروج الذي وصل إليه جْرِيجُولَايْت. والآن هو أيضًا خرج. رمقه البدين لوهلة ثم اتجه إلى الطاولة التي ما زالت تجلس إليها الفتاة والرجل الدَّاكن

بوجهين شاحبين. هدَّأَه هذا؛ «ربما فعلًا لم أرتكب خطأ حين تركتُهُ يمضي. لقد فاجأني. لكن...».

قال بأدب:

- اسمحوا لي أن أجلس معكم لبرهة من الوقت وأطرح بعض الأسئلة؟

أجابت تْرُودِل بَاوْمَان:

- لا أستطيع أن أخبركَ بشيء مختلف عمَّا قاله السيد للتَّوّ. لقد تلقيتُ أمس نبأ موت خطيبي، واليوم يريد هذا السيد أن يتقدَّم لخطبتي!

كان صوتها ثابتًا وواثقًا. الآن، إذ يجلس الخطر إلى طاولتها، تبدَّد الخوف والقلق.

- هل عندكِ مانع أن تذكري اسم خطيبك ورتبته؟

فعلَتْ ذلك.

- واسمكِ؟ عنوانكِ؟ عنوان عملكِ؟ هل لديكِ ربما بطاقة هوية معكِ؟ أشكركِ! والآن أنتَ يا سيد...

- أعمل في نفس المصنع. اسمي كارْلْ هِرْجِيزِيل. هاك دفتر عملي.

- والسيدان الآخران؟

- نحن لا نعرفهما مطلقًا. لقد جلسا إلى طاولتنا وفجأةً تدخلا في شجارنا.

- ولم تشاجرتما؟

- لا أريده!

- لماذا إذًا كان هذا السيد غاضبًا منكِ إن كنت لا تريدينه؟
- وما يُدريني؟ ربما لم يصدق كلامي. لقد غضب كذلك لأني رقصت معه.
- ممم، جميل!

قال المترهل وأغلق دفتر الملاحظات وبدَّل نظراته في أثناء ذلك بين الفتي و الفتاة. كان منظرهما بالفعل أقرب إلى الحبيبين المتعاركين أكثر من المتآمِرَيْنِ اللذين وقَعَا في الفخ. حتى الطريقة الخائفة التي يتجنَّبان بها النظر بعضهما إلى بعض. ورغم ذلك فإن أيديهما قريبة تكاد تتلامس على سطح الطاولة.

- ممم، جميل. بالطبع سيُتَحَقَّق من صحة البيانات التي أدليتما بها، لكني أفكر... على أي حال، أتمنى لكما تكملةً أفضل لهذه الأمسية.
- ليست لي! (قالت الفتاة)

ليست لي!

ووقفت على الفور مع الآخَرِ:

- سأعود إلى البيت.
- سأوصلكِ.
- لا شكرًا. أفضِّل أن أذهب وحدي.
- تْرُودِل! (رجاها)

دعيني أقُل لكِ شيئًا!

ابتسمَ صاحب الزي الرسمي الموحد وهو ينقل بصره بينهما. لقد كانا فعلًا عاشقين؛ سيكون الفحص العابر للبيانات كافيًا.

فجأةً قرَّرتْ:

- حسنًا، لكن فقط في دقيقتين!

ذهبا. أخيرًا خرجا من تلك الصالة المريعة، من تلك الأجواء المتناقضة المشبَّعة بالكراهية. تَلَفَّتا خلفهما.

- لقد ذهبا.

- لن نراهما ثانية.

- وأنت تستطيعين مواصلة الحياة يا تْرُودِل! كلا، بل ينبغي أن تواصلي الحياة يا تْرُودِل! خطوة غير محسوبة منك وتعرضين الآخرين للخطر، آخرين كُثُرًا، فكري دائمًا في ذلك يا تْرُودِل!

- أجل.. (قالت الفتاة)

الآن علي أن أعيش.

ثم وبقرار مباغت: تحياتي، كارْلْ!

للحظة استندت إلى صدره وقبَّلت شفتيه، وقبل أن يستوعب ركضت نحو التِّرام وانطلقت العربة.

تحرك كأنَّه يريد أن يلحق بها، لكنه ثاب إلى رشده.. «سأراها في المصنع حين تسمح الظروف» فَكَّرَ.. «حياة كاملة لا تزال في انتظارنا، لديَّ وقت. الآن أعرف أنها حقًّا تحبني».

14

السبت: اضطراب لدى آل جْفَانْجِل

طوال يوم الجمعة أيضًا لم يتبادل الزوجان جْفَانْجِل كلمة واحدة. ثلاثة أيام من الصمت بينهما، ولا حتى طلب مناولة الجريدة، لم يحدث هذا من قبل قطُّ طوال زواجهما. رغم أن جْفَانْجِل بطبيعته مقتضب الكلام، كان ينطق بجملة من آن إلى آخر، يقول شيئًا عن أحد العمال في الورشة أو على الأقل عن الطقس أو أن الطعام قد أعجبه اليوم بشكل خاص. أما الآن فلا شيء مطلقًا!

آنًا جْفَانْجِل كانت تشعر أن الصمت كلما زاد ثقل، وأن الحزن العميق الذي تستشعره بسبب وفاة الابن بدأ يتبعثر بسبب القلق على الزوج الذي تغيرت حاله. كانت تريد أن تفكر الآن في الولد، لكنها لم تعد قادرة على ذلك حين تراقب حال الزوج الطاعن في السنِّ أُوتُّو جْفَانْجِل، رغم كل شيء هو لا يزال الزوج الذي وهبته معظم وأجمل سِنِي عمرها. ما الذي حدث لذلك الرجل؟ ما الذي يشغل باله؟ ما الذي غيَّره هكذا؟

يوم الجمعة قُرب الظهيرة كان غضب آنا وكل اتهاماتها له قد تبدَّدت. لو أنها حقَّقت أقل نجاح في ذلك لكان عليها أن تطلب أن يسامحها على كلمتها التي أطلقتها بدون تفكير «أنت وزعيمك!»، لكن كان من الجلي للعيان أن جْفَانْجِل لم يعد يشغل باله ذاك الاتهام،

بل يبدو أنه لم يعد يفكِّر فيها هي شخصيًّا. كان نظره يتجاوزها، أو ينظر إليها ولا يراها، كان يقف لدى النافذة واضعًا يديه في جيب جاكيت العمل ويصفر ببطء، ويفكِّر مليًّا، بوقفات كبيرة بين ذلك، ناظرًا أمامه، وهو أمر لم يفعله من قبل قط.

فيم يفكِّر الرجل؟ ما الشيء الذي جعل باطنه مضطربًا هكذا؟ وضعت له الطعام على الطاولة، فبدأ يتناوله بالملعقة. ولِهُنيهة أخذت تراقبه من المطبخ، وجهه الحاد كان محنيًّا على الطبق، أما الملعقة فكان يحركها بشكل آلي نحو فمه، وعيناه الدَّاكنتان كانتا تنظران إلى شيء غير مرئي.

توجهت إلى المطبخ ثانية لتسخين بقية الكرنب، فقد كان يحبه ساخنًا. لقد عقدت أمرها الآن على أن تحدثه حالًا حين تدخل عليه بالكرنب، حتى لو أنه سيرد عليها بحدة، لا بد أن تكسر هذا الصمت غير المقدس.

لكنها بمجرد أن دخلت إلى الغرفة بالكرنب الساخن كان أُوتُّو قد خرج منها، تاركًا طبقه نصف ممتلئ على الطاولة. إما أن جْفَانْجِل قد لاحظ نيَّتها فانسحب مثل الطفل الذي يريد أن يواصل العناد، وإما أنه نسيَ أن يواصل الأكل بسبب ما يعتمل في داخله. على أي حال فقد ترك الغرفة ومضى وسيتعيَّن عليها أن تنتظره حتى منتصف الليل.

لكنْ من ليل الجمعة إلى السبت عاد أُوتُّو جْفَانْجِل متأخِّرًا جدًّا من عمله، وكانت هي رغم كل النِيَّات الطيبة قد استسلمت للنوم

حين عاد ليستلقي إلى جوارها في الفراش. ثم استيقظت لاحقًا بسبب سعاله وسألته برفق:

- أُوتُّو، هل أنت نائم؟

توقف السعال وظلَّ راقدًا ساكنًا. فسألت مرة أخرى:

- أُوتُّو، هل أنت نائم؟

لا شيء مطلقًا، لا رد. وهكذا رقد كلاهما ساكنًا لمدة طويلة، وكل منهما يعلم أن الآخر ليس نائمًا.

لم يجرؤ أي منهما أن يغيِّر وضعه كي لا يفتضح أمره، وفي النهاية خلد كلاهما إلى النوم.

غير أن السبت بدأ بما هو أسوأ؛ نهض أُوتُّو جْفَانْجِل من فراشه مبكرًا على غير العادة، وقبل أن تهيئ له الفطور على الطاولة كان قد انطلق إلى واحد من مشاويره العاجلة الغامضة التي لم يكن يذهب إليها سابقًا. ثم عاد، ومن المطبخ سمعته يذرع الحجرة جيئة وذهابًا، وحين دخلت عليه بالقهوة كان يطوي بعناية ورقة بيضاء كبيرة كان يقرؤها قرب النافذة ثم دسها.

كانت آنَّا واثقة بأن ما يمسكه ليست صحيفة، فالورقة أكثر بياضًا، الكتابة أكبر من كتابة الصحف. ماذا كان يقرأ الرجل؟

غضبت ثانية منه، من إخفائه الأسرار، من كل هذا التغيير الذي جلب كثيرًا من القلق والهموم، علاوة على الهموم القديمة التي كانت تكفيهم أصلًا. ورغم ذلك قالت:

- أُوتُّو، قهوة؟

حين سمع صوتها اتَّجه وجهُه نحوها، نظر إليها كأنَّه متعجِّب أنه ليس بمفرده في الشقة، متعجِّب مَن ذاك الذي يتحدَّث معه. كان يتأمَّلها ثم لا يعود ينظر إليها، لم يكن يتأمَّلها كشريكة حياته آنًا جْفَانْجِلِ، بل كواحدة عرفها ذات يوم وعليه أن يبذل الآن جهدًا كبيرًا كي يتذكَّرها. زينت ابتسامةٌ وجهه، وعينيه، ثم انتشرت تلك البسمة على كل بقعة من وجهه بطريقة لم تعهدها فيه من قبل. كانت على وشك أن تصيح: «أُوتُّو، أوه! أُوتُّو لا ترحل أنت أيضًا وتتركني!».

لكن قبل أن تحسم أمرها كان قد مرَّ من جوارها وخرج من الشقة. مرة أخرى بدون قهوة، وعليها أن تحمل القهوة إلى المطبخ لتسخينها. بدأت تنشج بصوت خفيض: «أي رجل هذا! ألا يمكن أن يظلَّ أي شيء لي؟ هل بعد أن فقدتُ الابن سأفقد الأب كذلك؟».

في هذه الأثناء توجَّه جْفَانْجِلِ إلى زقاق برينسلاور، خطر بباله أنه من الأفضل أن يرى بيتًا كهذا أولًا، وليرى إن كانت فكرته عن بيت كهذا صحيحة، وإلا فسيتعيَّن عليه أن يفكِّر في شيء آخر.

في زقاق برينسلاور بدأ يمشي ببطء، وتفحصت عيناه لوحات أبواب المنازل كأنها تبحث عن شيء معين. وفي زاوية منزل وجد لوحة محاميَيْنِ وطبيب إلى جوار عديد من لوحات الأعمال التجارية.

ضغط على باب المنزل فانفتح من فوره. صحيح، لا بواب لمنزلٍ يقْدِمُ إليه كثير من الوافدين طوال الوقت. صعد ببطء، واضعًا يده على الدرابزين، سلم عتيق لمنزلِ «نبيلٍ» سابق، ذي أرضية مصنوعة من خشب البلوط، لكن كثرة الاستخدام والحرب سلبته كل أثر من

آثار النُّبل. لا يبدو الآن إلا ملوثًا متهالكًا، اختفت منه المشايات وربما سُحِبَتْ بسبب اندلاع الحرب.

مَرَّ أُوتُّو جْفَانْجِل على لوحة محام في الطابق فوق الأرضي، أومأ، ثم ببطء واصل الصعود. لم يكن الأمر كما لو كان هو وحده من يستعمل السلم، لا، فدائمًا ما كان يمر من جواره أناس مستعجلون، يقابلونه من وجهه أو يسبقونه من ورائه. ودائمًا ما كان يسمع رنين أجراس، وهواتف، وتكتكة آلات كاتبة، وأصواتًا تتحدَّث.

لكن بين ذلك كانت تأتي من آن إلى آخر لحظة يكون فيها أُوتُّو جْفَانْجِل على السلم بمفرده تمامًا، وتبدو الحياة كأنها قد انسحبت إلى غرف المكاتب. ستكون هذه هي اللحظة المناسبة لفعل ذلك؛ كل شيء صحيح كما تخيله تمامًا. أناس مستعجلون، لا ينظر بعضهم إلى وجوه بعض، نوافذ قذرة لا يتسرَّب منها إلا ضوء نهار تحوَّلَ إلى الرمادي، لا بواب، لا أحد على الإطلاق يهتم بأمر أحد سوى نفسه.

وعندما قرأ أُوتُّو جْفَانْجِل لوحة المحامي الثاني في الطابق الأول، أشار إليه أحدهم بأن الطبيب يسكن في الطابق الأعلى، أومَأ موافقًا. بعدها عاد أدراجه، قائلًا إنه قادم للتو من عند المحامي وإنه سيغادر المنزل. إذ ليس من الضروري أن يطيل بقاءه لتفقد الأحوال، لقد كان هذا المنزل كما يحتاج إليه بالضبط، ومِن مِثل هذا البيت يوجد آلاف في برلين.

وقف الحِرفيُّ أُوتُّو جْفَانْجِل مرة أخرى في الشارع، تقدم نحوه شاب قاتم ذو بشرة وجه في غاية البياض.

- السيد جْفَانْجِل، أليس كذلك؟ (سأل)

السيد أُوتُّو جْفَانْجِل من شارع يابْلونْشكِي، أليس كذلك؟

يغمغم جْفَانْجِل بـ«وليكن؟»، صوت يمكن أن يعني تأكيدًا أو نفيًا.

أما الشاب فقد اعتبر هذا تأكيدًا:

- عليَّ أن أرجوك من طُرف تْرُودِل بَاوْمَان.. أن تنساها تمامًا. وعلى زوجتك ألَّا تزورها كذلك، ليس من الضروري يا سيد جْفَانْجِل أن...

- تطلُبُ!.. (يقول أُوتُّو جْفَانْجِل)

أنا لا أعرف تْرُودِل بَاوْمَان ولا يكون التحدُّث إليَّ بالهراء...

أصابت قبضته ذقن الشاب مباشرة وبدأ يترنح مثل خرقة مبتلَّة. مضى جْفَانْجِل غير مكترث وسط الناس الذين بدؤوا السير معًا، واخترقهم وعَبَرَ من جوار الشرطي إلى أن وصل إلى محطة التِرام. جاء التِرام فصعد ومرَّ على محطتين. ثم عاد إلى الاتجاه المعاكس راكبًا هذه المرة في المقصورة الأمامية. الموقف كما تخيَّله: الجزء الأكبر من الناس تاهُوا في الوقت الفاصل، عشرة أو اثنا عشر من الفضوليين لا يزالون واقفين أمام المقهى الذي على الأرجح جَرُّوا إليه المضروب.

ثم عاد إليه رشده مرة أخرى. للمرة الثانية خلال ساعتين يجد كارْلْ هِرْجِيزِيل نفسه مضطرًّا لإثبات شخصيته أمام موظف رسمي؛ أَكَّدَ:

- لم يكن شيئًا ذا بال، سيدي الحارس. لعلِّي دست على قدمه من دون أن أدري، فسدَّد ضربته إليَّ مباشرة. ليس لدي فكرة من كان هذا، لقد ضربني حتى قبل أن أنطق باعتذاري!

ومرة أخرى سمح لكارْل هِرْجِيزِيل أن يمضي بسلام، ليس من تهمة ضده. لكنه يعلم تمامًا أنه لا ينبغي عليه أن يواصل وضع حظه السعيد على المحك. لقد توجَّه إلى ذلك الحَمَا السابق أُوتُّو جْفَانْجِل من أجل أن يطمئن على سلامة تْرُودِل. أما ما يخص ذاك الأُوتُّو جْفَانْجِل فلا يعنيه. إنه طائر صلب، وغاضب أيضًا. وبالتأكيد ليس واشيًا رغم منقاره الكبير المعقوف. بتلك الطريقة التي سدَّد بها إليه ضربة سريعة وغاضبة!

ولأن إنسانًا كهذا يمكن أن يثرثر، حُثَّتْ تْرُودِل على قتل نفسها. لكن هذا لن ينبس أبدًا، حتى أمام الجماعة أولاء! ولن يهتم أيضًا لشأن تْرُودِل، إذ بَدَا أنه لا يريد أن يعرف عنها شيئًا من الآن فصاعدًا. أرأيت كيف يمكن لضربة قاصمة في الذقن أن تجلب كثيرًا من التنوير!

توجه كارْل هِرْجِيزِيل مرتاح البال تمامًا إلى المصنع، وحين عرف هناك - من خلال الاستعلام الحذر- أن جْرِيجُولَايْت وزُوْيِجْلِينْج قد تركا العمل تنفس الصُّعَداء؛ الآن كل شيء آمن. لا خلية بعد اليوم، لكنه ليس نادمًا على ذلك مطلقًا. وفي المقابل ستعيش تْرُودِل!

لم يكن مهتمًّا كثيرًا بالعمل السياسي من الأساس، بقدر ما كان مهتمًّا بتْرُودِل!

عاد جْفَانْجِل إلى بيته مستخدمًا التِرام، لكن حين تعين عليه النزول مرَّ على شارعِ يابْلونْسْكِي. ليؤمِّن الأمر، فلربما لا يزال أحد يتعقَّبه، وحينها سيودُّ الانفراد به لا أن يجرَّه إلى الشقة. ثم إن آنّا ليست في حالتها الطبيعية، ولن تتمكّن من التعامل مع مفاجأة غير سارَّة. عليه أن يتكلم معها أولًا. بالتأكيد سيفعل ذلك، فآنّا تلعب دورًا كبيرًا في الموضوع الذي ينتويه. لكن أولًا عليه أن يُنهِي أشياء أخرى.

لقد قرر جْفَانْجِل ألَّا يعود إلى البيت قبل موعد العمل. ولسوف يستغني عن القهوة وطعام الغداء. ستشعر آنّا ببعض القلق، لكنها ستنتظر ولن تأتي بأي تصرف متعجل. عليه أن ينجز اليوم شيئًا. فغدًا يوم الأحد، وينبغي لكل الأغراض أن تكون جاهزة.

ينزل ثانية ويصعد ثانية ثم يعود إلى المدينة، ليس بسبب هذا الشاب تحديدًا الذي عاجله بضربه من قبضته في فمه، فهو لا يقلق بشأنه كثيرًا. كما أنه لا يعتقد حقًّا بوجود أحد يتعقَّبه، بل يميل أكثر إلى الاعتقاد بأن هذا الرجل جاء من طرف تْرُودِل، فلقد أوضحت شيئًا من قبيل أنها ينبغي أن تعترف أنها حنثت بقسمها. وعليه.. فلقد منعوها من أي تواصل معه وأرسلت إليه هذا الرسول الشاب. كل هذا غير خطير. إنها مجرد لعب أطفال، وهم مجرد أطفال تركوا أنفسهم يلعبون هذه اللعبة التي لا يفهمون أدنى قواعدها. أما هو، أُوتُو جْفَانْجِل، فيفهم أكثر منهم قليلًا. إنه يعرف في أي شيء سيورِّط نفسه. لكنه لن يلعب هذه اللعبة مثل الطفل، وسوف يفكِر مليًّا في كل بطاقة من بطاقاتها.

يرى تْرُودِل مرة أخرى أمامه، وكيف أنها استندت في تلك الطرقة التي جرت فيها تيارات الهواء إلى الملصق الخاص بمحكمة الشعب، بدون أن تدري شيئًا. يستشعر مرة أخرى ذلك الإحساس غير المريح الذي اعتراه بمجرد أن توَّج الإعلان «باسم الشعب الألماني» رأس الفتاة، في هذه المرة يقرأ اسمه بدلًا من الاسم الغريب. لا، لا هذه مسألة تخصُّه وحده، وتخصُّ آنًّا، تخصُّ آنًّا بالطبع. سَيُريها (من يكون زعيمه)!

بعد أن وصل إلى وسط المدينة قام جْفَانْجِل أولًا بشراء بعض الأغراض، اشترى مقابل بضعة قروش بطاقات بوستال، وَيَدَ ريشة، وبضع ريشات معدنية وزجاجة حبر. وحتى هذه المشتريات انتقاها من أماكن مختلفة: متجر كبير، وفرع وُوْلوُوْرث، ومحل لوازم الكتابة. وأخيرًا، وبعد تفكير طويل، اشترى زوجين من القفازات المصنوعة من قماش رقيق، حصل عليهما بدون فاتورة.

بعدها جلس في واحد من تلك المطاعم الكبيرة التي تقدم البيرة في ميدان أليكساندر، شرب كأسًا من البيرة، أمكنه أيضًا أن يأكل شيئًا بدون تقديم كوبونات الطعام. نحن نكتب العام 1940م، حين بدأ استغلال الشعوب التي تم الانتصار عليها، وليس على الشعب الألماني أن يتحمل الحرمان. في الحقيقة لقد بقي من الممكن الحصول على كل شيء تقريبًا، بل حتى ليس بمقابل سعر مُغالًى فيه.

أما ما يخص الحرب نفسها، فتدور رَحاها في بلاد غريبة بعيدة عن برلين. صحيح أنه تظهر أحيانًا طائرات إنجليزية فوق المدينة. ثم تقذف بضع قنابل، ويخرج الشعب في الأيام التالية في جولات مطولة

ليرى الدمار. لكن معظمهم يضحك ويقول: «إن كانوا سيقضون علينا بهذه الطريقة فسيستغرقون في ذلك مائة عام، ثم لن يكون هناك آثار كثيرة لذلك. فيما نحن نمحو مدنهم عن وجه الأرض!».

هكذا يتحدَّث الناس، والآن وبعد أن طلبت فرنسا وقف إطلاق النار، تضاعف عدد الناس الذين يتحدَّثون بهذه الطريقة أضعافًا كثيرة. فمعظم الناس يتبعون النجاح. أما رجل مثل أُوتُّو جْفَانْجِل الذي خرج عن الصف في ذروة النجاح، فهو استثناء.

يجلس هناك، لا يزال لديه وقت، ليس عليه أن يذهب إلى المصنع الآن. لكنه الآن قد تخلَّص من قلق الأيام الأخيرة. منذ أن تفقَّد ذلك المنزل، ومنذ أن اشترى تلك الأغراِض، صار كل شيء محسومًا. إنه حتى ليس في حاجة إلى أن يفكِر مليًّا في ما يتعيَّن عليه عملُه. فَسَيُنجَزُ ذلك من تلقاء نفسه، الطريق واضح أمامه. لن يحتاج إلَّا إلى أن يمضي فيه، ثم إن الخطوات الحاسمة فيه قد تم أُنجِزَت بالفعل.

عندما حان موعده، دفع حسابه وتوجَّه إلى المصنع. ورغم أنها مسافة بعيدة من ميدان أليكساندر.. قطعها سيرًا على الأقدام. فلقد أنفق اليوم ما يكفي من المال، للتنقلات، والمشتريات، والطعام. ألا يكفي هذا؟ يكفي وزيادة! ورغم أن جْفَانْجِل قرر أن يبدأ حياة جديدة تمامًا، فإنه لن يغير شيئًا من عاداته التي اكتسبها حتى اليوم. سيبقى حريصًا على المال، وسيظل يُبقِي الناس على مسافة منه.

وأخيرًا يقف في ورشته ثانية، منتبهًا ويقظًا، بعيدًا عن الآخرين، ولا ينبس بكلمة، تمامًا مثل حاله دائمًا. ولا يبدو على مظهره أي شيء مما مرَّ به.

15

إينو كلوجِه يعمل مجددًا

حين بدأ أُوتُّو جْفَانْجِل عمله في ورشة النجارة، كان إِيْنُوْ كْلُوْجِه قد أمضى ست ساعات واقفًا على المخرطة. أجل، لم يبق الرجل القصير مستلقيًا يعاني في السرير رغم ضعفه وآلامه، بل ذهب إلى المصنع. في الحقيقة، لم يكن استقباله هناك ودودًا على نحو خاص، لكن من الصعب توقُّع خلاف ذلك.

- ها، هل جئت لتزورنا مرة أخرى يا إِيْنُوْ؟ (سأله الحِرفي) تُرى كم من الوقت ستبقى في هذه المرة؟ أسبوعًا أم اثنين؟

- لقد استرددت صحتي تمامًا، سيدي.. (أكد إِيْنُوْ كْلُوْجِه بحماس) أستطيع أن أعمل من جديد، وسأعمل، وسترى بنفسك!

- سنرى!

قال الحِرفي وهو تقريبًا غير مصدِّق، لكنه ظلَّ واقفًا يراقب وجه إِيْنُوْ متفكِّرًا ثم قال:

- وماذا فعلت في وجهك يا إِيْنُوْ؟ هل ضغطَتْك مكواة ساخنة؟

أخفض إِيْنُوْ رأسه على القطعة التي يعمل عليها، لا ينظر حتى إلى العامل، حتى ردَّ أخيرًا:

- نعم يا سيدي، تقلَّبتُ أسفل المكواة.

يظلُّ الحِرفيُّ واقفًا أمامه متفكِّرًا، ومراقبًا له باستمرار. وأخيرًا لا يريد أن يفوِّت أن يقول:

- حسنًا، ربما ساعدك هذا فعلًا، ربما لديك الآن دافع حقيقي للعمل!

وبهذا مضى الحِرفيُّ وسَعِدَ إِيْنُوْ كْلُوْجِه بأن الضربات فُهِمَتْ على ذلك النحو. فلو أن الحِرفيَّ ظنَّ أنه كاد يتداعى هكذا بسبب تكاسله عن العمل فحسب.. فهذا أفضل جدًّا! فهو لم يكن يريد أن يتحدَّث مع أي أحد عن ذلك. وإن كانوا هنا سيفكِّرون على ذلك النحو فهذا من شأنه أن يرحمه من كل أنواع الأسئلة. أقصى ما سيفعلونه الآن هو أن يضحكوا عليه من وراء ظهره، فليفعلوا ذلك بسلام، فهو أمر لا يكترث له. إنه يريد الآن أن يعمل، وعليهم أن يتعجَّبوا من أموره!

وافق إِيْنُوْ كْلُوْجِه بابتسامة متواضعة -يشوبها بعض الفخر- على تسجيل اسمه طواعية في وِردية يوم الأحد. بعض الزملاء الأكبر سنًّا وكانوا يعرفونه من قبلُ أطلقوا بضعة تعليقات ساخرة. لكنه ببساطة شاركهم الضحك، ورأى ببساطة أنه حتى الحِرفيُّ كان يبتسم.

فلقد استخدم الافتراض الخاطئ الذي افترضه الحِرفيُّ، أي تلقِّيه الضرب بسبب تكاسله عن العمل، في كلامه مع الإدارة. فلقد استُدعِيَ إلى هناك مباشرة بعد راحة الغداء. وقف هنالك مثل المتهم، أما القضاة فكانوا يرتدون الزي الموحد للفيرماخت*، والزي الموحد لكتيبة العصف، وواحد فقط يرتدي زيًّا مدنيًّا، لكنه مزدان أيضًا بشارة الرمز الوطني، ما زاد من خوفه.

---

* جيش الدفاع النَّازي. (المترجمة)

قلَّب الضابط المرتدي زي الفيرماخت في ملف الأوراق، ثم تلا على إينُوْ كْلُوْجِه بصوتٍ لا مكترث متقزِّزٍ خطاياه. في اليوم الفلاني الذي ترك فيه الفيرماخت في مصنع السلاح، ثم اليوم الفلاني الذي سجَّل فيه في المصنع الذي «وُزِّعَ عليه»، عمل 11 يومًا، ثم أخذ إذنًا مرضيًّا بسبب نزيف المعدة، ثلاثة أطباء، مستشفيان، وفي اليوم الفلاني قيل إنه قادر على العمل وإنه سليم ومعافًى، عمل خمسة أيام، تغيب ثلاثة، عمل يومًا، ثم نزيف بالمعدة مرة أخرى الخ.

وضع ضابط الفيرماخت الملف من يده. ونظر إلى كْلُوْجِه متقزِّزا، كان يسدِّد نظراته إلى الزرِّ الأعلى من جاكيت كْلُوْجِه وقال بنبرة متعالية:

- ماذا تظنّ حقًّا أيها الخنزير؟

صاح بغتة، لكن بدا عليه أنه يصيح بشكل اعتاده بدون أي توتُّر داخلي:

- هل تظنُّ أنك تستطيع أن تخدعنا بنزيف معدتك ذاك؟ سوف أرسلك إلى فرقة عقاب، وهؤلاء سيستخرجون أمعاءك العفنة من جسدك، حينها ستتعلَّم معنى نزيف المعدة!

وهكذا ظل الضابط يصيح لبعض الوقت. كان إينُوْ معتادًا ذلك من أصحاب الرتب العسكرية، ولم يكن ذلك يصيبه بالذعر. لقد استمع إلى تلك المرافعة عن العقاب واضعًا يديه بحذر على خط الخياطة في سرواله المدني، مثبِتًا نظراته على ذلك الذي يصيح. وكلما أراد الضابط أن يتوقَّف لأخذ بعض الأنفاس، كان إينُوْ يقول بنبرة مصطنعة -واضحٌ تمامًا- لكنها ليست ذليلة ولا وقحة، وإنما موضوعية:

- نعم سيدي الملازم الأول! سمعًا وطاعة سيدي الملازم الأول.

ولقد نجح في أحد المواضع وبدون أي تأثير ملحوظ أن يسرِّب جملة «أسلِّم نفسي وأنا في أتمِّ صحة، سيدي الملازم الأول! وسأعمل!».

ومثلما بدأ الصياح فجأةً توقف الضابط عنه فجأةً. وأغلق فمه، وأشاح نظرته عن الزر الأعلى في جاكيت كْلُوْجِه وتوجَّه ببصره إلى جاره المرتدي الزيَّ البني:

- هل ثمة شيء آخر؟ (سأل بتقزز)

أجل، حتى هذا السيد كان لديه ما يقوله، أو بالأحرى يصيح به. كل هؤلاء السادة الرؤساء لا يستطيعون إلا أن يصرخوا في رجالهم. كان هذا يصرخ عن خيانة الشعب وتخريب العمل، عن الزعيم، الذي لا يتسامح أبدًا مع وجود الخونة في الصفوف، وعن معسكرات التعذيب التي يتحقَّق فيها العدل.

- وكيف تأتي إلينا؟ (صاح البنيُّ فجأةً)

ما الذي فعلتَهُ بنفسك أيها الخنزير؟ انطق؟ هل تأتي بسِحنةٍ كهذه إلى العمل؟ هل كنت داعرًا بين النسوة، أيها الداعر! تُبدِّد طاقتك هناك وعلينا نحن هنا أن ندفع لك! أين كنت؟ من الذي أدبك على هذا النحو؟ أنت أيها القوَّاد الحقير، انطق!

- لقد نالوا مني! (قال إيْنُوْ وهو يشعر بالخجل من نظرات الآخرين)

- من؟ من الذي فعل بك ذلك، أريد أن أعرف!

صاح القميص البُني. وأخذ يناوش بقبضته تحت أنف الآخر ويدق الأرض بقدمه.

غادرت الأفكار كلها رأس إِيْنُوْ كْلُوْجِه، وتحت تهديد التعرض للضرب مجددًا هرب منه الثبات والحذر وصاح مذعورًا:

- أسلِم نفسي، لقد شذَّبني رجال الشرطة العسكرية!

في هذا الرجل خوف لا معنًى له، غير أن فيه شيئًا ما مقنعًا جعلهم يصدقونه على الفور. ثم ظهرت على وجوههم ابتسامات مؤيدة متفهمة. صاح البني:

- شذَّبوك؟ اسمها «أدبوك».. «عاقبوك عن حق»! ما اسمها؟

- بكل طاعة أقول «اسمها عاقبوني عن حق»!

- حسن، آمل أن تتذكر ذلك. المرة القادمة لن تمرَّ هكذا ببساطة! انصراف!

ولِنصف ساعة بعدها ظل إِيْنُوْ كْلُوْجِه يرتجف لدرجة أنه لم يتمكن من إتمام عمله على المخرطة.

فحشر نفسه وسط المنصرفين، إلا أن رئيس العمال أمسك به وطارده إلى أن عاد إلى موقعه وهو يوبِّخه. وقف رئيس العمال إلى جواره وأخذ يسبُّه بسبب الكيفية التي أخذ إِيْنُوْ كْلُوْجِه يخرب بها قطعة عمل بعد أخرى؛ لقد كان كل شيء يدور في رأس الرجل القصير: سباب رئيس العمال، سخرية زملاء العمل، تهديدات الزجِّ به في معسكر التعذيب أو فرقة العقاب، وبالتالي فقد القدرة على الرؤية الواضحة. حتى يداه الماهرتان رفضتا الانصياع له. شعر بقواه تخور، ورغم ذلك كان عليه أن يتماسك وإلَّا ضاع تمامًا.

وأخيرًا رأى الحِرفيُّ بنفسه أن المسيطر هنا ليس الإرادة الضعيفة ولا التكاسل عن العمل.

- لو كنتَ مريضًا لقلت لك أن تستلقي في الفراش لبضعة أيام إلى أن تنتهي فترة النقاهة.

وبهذه الكلمات تركه رئيس العمال وأردف:

- لكنك تعرف ماذا يمكن أن يحصل لك!

أجل كان يعرف. واصل العمل، حاول ألا يفكِّر في آلامه ولا في الضغط غير المحتمل الذي يهْصِر رأسه. ولوهلة جذبه ذلك الحديد اللامع بطريقة ساحرة. كان لا يحتاج إلا إلى وضع أصابعه خلاله، ثم يحصل على الهدوء، يدخل إلى الفراش، يرتاح، ينام، ينسى.

لكنه فكر مرة أخرى مباشرة في عقوبة الإعدام لمن يشوِّه نفسه عمدًا.. ثم سحب يده.

وهكذا كان الأمر: الإعدام في فرقة العقاب، الموت في معسكر التعذيب، الموت في حوش السجن. كانت تلك هي الأشياء التي تهدِّده يوميًّا وكان عليه أن يبعدها عنه. وكانت طاقته قليلة للغاية.

بطريقة ما مر ذلك العصر، وبشكل ما صار وسط تيار العائدين إلى بيوتهم بعد أن جاوزت الساعةُ الخامسةَ بقليل. كان يتوق إلى الراحة والنوم حين وقف في حجرته الضيقة بالفندق، لكنه لم يتمكن من التمدُّد على الفراش؛ مضى ثانيةً ليشتري لنفسه بعض الطعام.

ثم عاد إلى الحجرة ووضع الطعام على الطاولة أمامه إلى جوار الفراش، لكنه لا يستطيع البقاء هنا. كان يشعر كأنه محموم، لم يكن

ليتحمل البقاء في هذه الغرفة، كان عليه أن يشتري بعض الغيارات وأن يشترى قميصًا أزرقَ من أحد تجار الأغراض المستعملة.

مضى ثانيةً، وحين وقف في صيدلية خطر بباله أنه لا يزال لديه حقيبة يد تحوي كل ممتلكاته لدى لُوْتِه ولقد ألقاها بفظاظةِ زوجها القادم من الإجازة. ركض من الصيدلية، وركب التِرام، سيغامر ببساطة ويذهب إليها. لا يستطيع أن يتخلًى عن كل أشيائه! كان يخشى أن يتعرَّض للضرب في نوبة غضب، لكن الدافع إلى الذهاب إلى لُوْتِه كان أقوى.

وكان حظُّه حسنًا، فلقد وجد لُوْتِه في المنزل وزوجها لم يكن هناك.

- أشياؤك، يا إيْنُوْ؟ (سألته)

لقد وضعتُها في القبو كي لا يجدها. انتظر سأحضر المفتاح!

لكنه أمسك بها، ولف ذراعيه حولها، ثم وضع رأسه على صدرها العامر. كان إجهاد الأسابيع الأخيرة كبيرًا عليه، فشرع في البكاء.

- آه.. لُوْتِه، لُوْتِه، لن أستطيع أن أتحمل بدونك! أتوق إليك بشدة!

ارتجف جسده كله من النشيج. أما هي فأصيبت بفزع حقيقي. كانت معتادةً التعامل مع الرجال، حتى البكائين، لكنهم كانوا يبكون وهم مخمورون، أما هذا هنا فهو يقظ! ثم ما هذا الحديث عن الشوق إليها وعن العجز من غيرها؟ لقد مضى عمر طويل منذ قيل لها مثل هذا الكلام! إن كان أحد قد قاله لها من قبلُ أصلًا!

هدَّأت من روعه بقدر ما استطاعت:

- سيبقى فقط ثلاثة أسابيع في إجازة، وبعدها يمكنك أن تعود إليَّ يا إيْنُوْ! لملِم شتات نفسك الآن، وخذ أشياءك قبل أن يعود. فأنت تعرف الحال!

أوه، إنه يعرف، بل يعرف جيِّدًا جدًّا كل ما يهدِّده!

أوصلته إلى التِّرام حتى ركب، وساعدته على حمل حقيبة اليد.

عاد إيْنُوْ كْلُوْجِه إلى فندقه، شاعرًا ببعض الارتياح. فقط ثلاثة أسابيع، مضيٍ منها بالفعل أربعة أيام، ثم سيعود زوجها ثانية إلى الجبهة، ليتمكن هو من التمدُّد في فراشه! كان إيْنُوْ يظن أنه سيستطيع أن يعبر الأزمة مستغنيًا عن النساء، لكن هذا غير ممكن، لن يقدر على ذلك ببساطة. ربما حتى ذلك الموعد يرى الوضع لدى تُوتِّي، فلقد رأى الآن أنه بمجرد أن يبكي الواحد أمامهن، فإنهن لا يسِئْن معاملته. بل يقدِّمن المساعدة فورًا! ربما تمكَّن من البقاء لدى تُوتِّي هذه الأسابيع الثلاثة، فغرفة الفندق الوحيدة سيِّئة للغاية.

لكنْ رغم النساء سيظل يعمل، ويعمل، ويعمل! لن يتحجَّج ثانية، ليس ثانية أبدًا! أبدًا ومطلقًا! لقد شفي!

16

نهاية السيدة رُوزِنتال

استيقظت السيدة رُوْزِنْتال صباح الأحد بصرخة مذعورة أفاقتها من نومها العميق؛ لقد حلمت حلمًا مخيفًا بالشيء الذي ينتابها كل ليلة تقريبًا: كانت مع زِيجْفرِيد في رحلة هرب. اِختَبَآ، مرَّ متتبعوهم إلى جوارهم وبدا من عيونهم أنهم يحتقرون الشخصين اللذين لم يحسِنا الاختباء.

وفجأةً بدأ زِيجْفرِيد في الركض، وهي ركضت وراءه. لم تتمكَّن من الركض بسرعه مثله وصاحت:

- ليس بهذه السرعة يا زِيجْفرِيد! لا أستطيع اللحاق بك! لا تتركني وحدي!

ثم ارتفع عن الأرض، وطار. طار قليلًا فوق الأسفلت، ثم أخذ يرتفع أكثر وأكثر إلى أن اختفى وراء أسطح المنازل. أما هي فوقفت بمفردها على شارع جرايفسفالدر ودموعها تسيل على وجهها. يد كبيرة ذات رائحة تضغط على وجهها، وصوت يهمس في أذنها:

- خنزيرة يهودية، هل أمسكت بكِ أخيرًا؟

حدَّقَتْ إلى النوافذ نحو ستائر الإظلام، كان ضوء النهار يتسرَّب من حافتها. هربت مخاوف الليل أمام ذعر النهار وما ينتظرها فيه. لقد كان نهارًا جديدًا! مرة أخرى نامت وفوَّتت فرصة الحديث مع

المستشار، الشخص الوحيد الذي تستطيع أن تتحدَّث معه! لقد عاهدت نفسها أن تظل مستيقظة، لكنها نامت! يوم آخر تقضيه بمفردها، اثنتا عشرة ساعة، خمس عشرة ساعة! ياه، ما عادت تستطيع تحمل ذلك! إن جدران هذه الغرفة ستنهار فوقها. دائمًا نفس الوجه الشاحب في المرآة، دائمًا عدُّ نفس المال؛ لا، لن يستمر الوضع على نفس المنوال. إن أسوأ شيء ليس أسوأ من هذا المحبس الذي لا تفعل فيه أي شيء.

ارتدت السيدة رُوْزِنْتال ملابسها في عجالة، ثم ذهبت إلى الباب، أدارت القفل، فتحت ببطء ثم ألقت نظرة خاطفة على الطرقة. كل شيء ساكن في الشقة، وكذلك في البناية. لم يبدأ الأطفال بعد في صياحهم في الشارع؛ لا بد أن الوقت لا يزال مبكرًا. ربما لا يزال المستشار في غرفة مكتبه! ربما لا يزال يمكنها أن تتمنى له صباحَ خيرٍ! وأن تتبادل معه جملتين أو ثلاثًا تمنحها بعض الشجاعة على تحمل يوم لا ينتهي!

تتجرأ، تتجرأ على مخالفة أمره، تمضي مسرعة عبر الطرقة وتدخل غرفته، يوقفها الضوء الباهر قليلًا، الضوء المتدفق من النافذة المفتوحة فتتراجع أمام الشارع، والعامة، والهواء الذي يحكم المكان هنا. لكنها تتوقَّف مذعورة أكثر بسبب سيدة تنظف السجاد بالمكنسة. إنها سيدة جافة مُسنة تلف رأسها بمنديل، والمكنسة تؤكد لها أنها العاملة المسؤولة عن التنظيف.

حين دخلت السيدة رُوْزِنْتال قطعت تلك السيدة عملها، حدقت لوهلة إلى الزائرة غير المتوقَّعة أولًا، فيما تطرف بجفونها عدة مرات، كأنها لا تستطيع أن تعتبر المنظر ذاك حقيقيًا تمامًا. وبعدها أسندت المكنسة إلى الطاولة وبدأت تصنع حركات مقاومة بيديها ورجليها، فيما هي من وقت إلى آخر تطلق صيحة «ششش» حادة كأنها تهشُّ دجاجًا.

فيما تقول السيدة رُوْزِنْتال بتوسل:

- أين المستشار؟ لا بد أن أتحدث معه لدقيقة واحدة!

أطبقت السيدة على شفتيها وهزت رأسها بقوة. ثم شرعت مرة أخرى في حركاتها التي تهشُّ بها الدجاج مطلقة الصوت الحاد «ششش! ششش!» إلى أن تراجعت السيدة رُوْزِنْتال تمامًا إلى غرفتها. وهناك غطست، فيما عاملة التنظيف تغلق الباب ببطء. في كرسيِّها المستند إلى الطاولة انفجرت من عينيها الدموع فأخذت تبكي كسيرةَ النفس؛ كل هذا الهراء! يوم آخر حُكم عليها فيه بذلك الانتظار الوحيد غير المُجدي. كثيرٌ يدور في هذا العالم، ربما يموت زِيجْفْرِيد الآن حالًا أو ربما قاذفة قنابل تقتل لها إيفا. لكن هي عليها أن تبقى هنا في الظلام بدون أن تفعل أي شيء.

تهز رأسها غير راضية؛ ببساطة لن تشارك في ذلك. لن تفعل! إن كان عليها ألا تكون سعيدة، أو أن تظل مضطربة وتعيش خائفة، فلتفعل ذلك على طريقتها. ولينغلق هذا الباب وراءها إلى الأبد فهي لن تستطيع أن تمنع ذلك. لقد كانت هذه الاستضافة حسنة النية، لكنها ليست مفيدة لها.

وعندما وقفت ثانية عند الباب غيَّرت رأيها. عادت ثانية إلى الطاولة، وأخذت السوار السميك الذهبي المرصع بالياقوت. ربما هكذا...

غير أنها لما عادت إلى حجرة العمل لم تجد السيدة، ووجدت النوافذ قد أغلقت مجدَّدًا. وقفت السيدة رُوْزِنْتال مترقبة في الطرقة قريبًا من باب الخروج، ثم سمعت طقطقة أطباق فتبعت تلك الضوضاء إلى أن وجدت السيدة تغسل الأواني في المطبخ. أمسكت أمامها السوار بتوسل، وقالت بصوت متهدج:

- حقًّا لا بد أن أتحدث مع المستشار. أرجوكِ، أرجوكِ فعلًا!

عبست الخادمة وتغَضَّنت جبهتها بسبب هذا الإزعاج الجديد، ولم تلقِ إلا نظرة عابرة على السوار. ثم بدأت مجدَّدًا في الهش بحركات يديها وهي تصيح «شش! شش!» وأمام هذا الهشّ عادت السيدة رُوْزِنْتال إلى غرفتها راكضة. لكنها اصطدمت بالكومود، ففتحه وأخرجت منه المنوم الذي أعطاها المستشار إياه.

لم تكن قد احتاجت إلى هذا المنوم من قبل. الآن كبَّت كل الحبات، اثنتا عشرة أو أربع عشرة في يدها الفارغة، ذهبت إلى الحوض، صبت لنفسها الماء وابتلعتها. لا بد أن تنام اليوم. سوف تعبر اليوم بالنوم. ثم ستتحدَّث مساءً مع المستشار وتسمع منه ما الذي يتعيَّن فعله. استلقت على الفراش بثيابها، وسحبت غطاءً خفيفًا عليها. بقيت ساكنة على ظهرها وعيناها تحدقان إلى السقف تنتظر النوم.

ويبدو أنه أتى فعلًا؛ تلاشت الأفكار المعذبة، وصور الرعب المكررة التي يولِّدها عقلها من خوفها. أغلقت عينيها، وشعرت بالخدر يسري في مفاصلها، لقد عبرت نحو النوم.

وهناك، على عتبة النوم، شعرت بأن يدًا تهزها لتستيقظ. شعرت بنفسها ترتجف وتنكمش على ذاتها كأن جسدها كله يتعرَّض فجأةً لشد عضلي.

ومرة أخرى استلقت على ظهرها محدقة إلى السقف، لتعود الطاحونة ذاتها تدور بما فيها من أفكار معذبة وصور مرعبة. ثم بعدها.. تصبح الصور أضعف، وتنغلق العينان، ويقترب النوم. ومرة أخرى على العتبة تجد الصدمة، والدفع، وتقلُّص جسدها كله. ومرة أخرى تُطرَد من الراحة، والسلام، والنسيان...

تكرر ذلك ثلاث أو أربع مرات، فيئست من انتظار النوم. نهضت ومشت ببطء وهي تترنح قليلًا وجلست إلى الطاولة بمفاصل خائرة. حدقت أمامها، وأدركت أن الأبيض المنبسط أمامها هو الخطاب الذي بدأته قبل ثلاثة أيام إلى زِيجْفْرِيد، ولم يتجاوز الأسطر الأولى. تواصل النظر فتتعرف على أوراق البنكنوت وعلى قطع الحلي. وهناك صينية عليها الطعام المخصص لها. من دون ذلك لقرصها الجوع نهارًا لكنها الآن لا تعيره اكتراثًا. فهي لا تحب أن تأكل.

وفيما تجلس هناك على ذلك النحو أدركت بنصف وعي أن المنوم قد أحدث فيها تغييرًا، فعلى الرغم من أنه لم يمنحها الغفو، لكنه سلبَها ذلك القلق المستمر الذي يرافق أصْبَاحها. تجلس هناك، أحيانًا في الكرسي الوثير، تكاد تكون محنية، ثم تنهض. لقد مر

وقت، قد يكون قليلًا أو كثيرًا، لا تعرف، لكن بعض هذا اليوم المرعب قد انقضى.

لاحقًا، سمعت خطوات على السلم. جفلت في لحظة مراقبة للذَّات حاولت أن تستوضح إن كانت حقًّا تستطيع أن تسمع من هذه الغرفة حين يكون أحدهم على السلم. غير أن هذه الدقيقة الحرجة قد مرت بالفعل، وهي تحاول أن تنصت مشدودة إلى الخطوات على السلم، خطوة إنسان، يحاول أن يصعد بمجهود كبير، يتوقَّف من آن إلى آخر، ثم بعد بعض السعال يواصل الصعود مستعينًا بالدرابزين. والآن هي لا تسمع فقط، بل أيضًا ترى. ترى زِيجْفرِيد بوضوح كبير، ترى زِيجْفرِيد وهو يتسلَّل صاعدًا إلى شقتهم. لقد عذبوه ثانية، ورأسه يمتلئ بضمادات ربطت على عجل في أماكن متفرقة، لا تزال جروحه تنزف، أما وجهه فيمتلئ بالسَّحجات والبقع من لكماتهم. كان زِيجْفرِيد يجرُّ نفسه جرًّا لصعود السلم. فيما يُصدر صدره أصوات حشرجة، صدره هذا الذي جُرح من ركلاتهم. ثم رأت زِيجْفرِيد يهرب حين وصل إلى عتبة السلم...

جلست هنالك لبعض الوقت، بالتأكيد لم تفكر في أي شيء، ولا حتى في المستشار أو اتفاقها معه. لكنها شعرت أنه ينبغي عليها أن تصعد إلى شقتهم -كيف سيفكِّر زِيجْفرِيد حين يجد شقتهم فارغة؟- غير أنها مُتعَبة على نحو مرعب، ويكاد يكون من المستحيل النهوض من هذا الكرسي!

لكنها تقف مرة أخرى، وتُخرِج الميدالية من حقيبة يدها وتمسك السوار المرصع بحجر الزفير، كأنَّه طِلَسْمٌ يمكن أن يحميها، وبِبطء وترنُّح تخرج من الشقة وينغلق الباب وراءها.

وبعد تردُّد طويل من الخادمة توجهت فعلًا إلى المستشار وأيقظته، لكنه وصل متأخِرًا جدًّا فلم يتمكّن من منع ضيفته عن رحلتها إلى عالَمٍ على درجة عالية من الخطورة.

وقف المستشار برهة لدى الباب الذي فُتح بصوت خفيض، يتنصت ما في الأعلى وما في الأسفل. لا يسمع أي شيء. ثم، حين يسمع شيئًا بالفعل، خاصَّة الخطوات الثقيلة لحذاء ذي رقبة عالية، يعود منسحبًا إلى شقته، لكنه لا يتخلَّى عن المراقبة عبر الباب، فلو أنَّ ثمة فرصة أخرى لإنقاذ تلك المنحوسة فلن يتردَّد في فتح بابه مرة أخرى رغم كل المخاطر.

لم تلاحظ السيدة رُوْزِنْتال البتَّة أنها مرت إلى جوار أحدهم على السلم، إذ لم تكن تستولي عليها سوى فكرة أنها تريد أن تسارع إلى الشقة كي تصل إلى زِيجْفْرِيد. غير أن زعيم «شبيبة هتلر» بَالْدُوْر بِيرْزِيكِه الذي تعين عليه أن يلبِّي استدعاءً صباحيًّا بقي مذهولًا تمامًا فاغرًا فاه على السلم حين مرت إلى جواره تلك السيدة وكادت تصطدم به. رُوْزِنْتال، رُوْزِنْتال التي اختفت لأيام، يراها اليوم في صبيحة الأحد، ترتدي بلوزة داكنة بدون أن تضع شارة اليهود، تحمل في يدها سوارًا، وميدالية مفاتيح فيما تستند بالأخرى إلى الدرابزين ليساعدها على الصعود المجهد، إنها ثملة تمامًا! كيف تكون بهذه الثمالة صبيحة الأحد؟

وقف بَالْدُوْر لوهلة هناك يتملَّكه الذهول التام، لكن عندما اختفت السيدة رُوْزِنْتال مرة أخرى عند انحناءة السلم عادت إليه أفكاره وانغلق فمه، لقد شعر أنه قد حانت الآن اللحظة الحاسمة، عليه فقط ألا يرتكب أي خطأ! لا. هذه المرة سينفذ المسألة بمفرده. ولا ينبغي لأخويه ولا لأبيه ولا حتى لبُورْكهاوْزِن أن يفسدوا عليه الأمر.

لا يزال بَالْدُوْر ينتظر أن تصل السيدة رُوْزِنْتال إلى شقة جْفَانْجِل ثم يذهب ببطء إلى شقة والديه. وهناك الكل نائم، والهاتف معلق في الطرقة. يرفع السماعة ويدير القُرص ثم يطلب رقمًا معينًا. يحالفه الحظ؛ رغم أنه الأحد وُصِلَت المكالمة إلى الرجل الصحيح. قال بإيجاز ما ينبغي أن يقال، ثم قرب لنفسه كرسيًا من الباب وفتح فتحة وانتظر متصبِرًا كأنَّه يحرس المكان لنصف ساعة، بل حتى ساعة كاملة، كي لا يطير الطائر ثانية.

أما لدى عائلة جْفَانْجِل فلم يستيقظ سوى آنًا وبدأت إدارة الأمور في بيتها بصوت خفيض. ومن حين إلى آخر تتفقَّد أُوتُّو؛ لا يزال نائمًا بعمق. يبدو شكله مجهدًا ومعذبًا حتى في أثناء النوم، كأن شيئًا ما لا يتركه يرتاح. تقف هناك وتتأمَّل وجه الرجل الذي عاشت معه ما يقارب ثلاثة عقود يومًا بيوم، لقد اعتادت منذ مدة طويلة هذا الوجه، ملامحه الحادة التي تشبه الطائر، على فمه الدَّقيق الذي لا يكاد ينفتح، لم يعد هذا يخيفها. فهذا هو فعلًا شكل الرجل الذي وهبت له حياتها كلها، فالمسألة لا تتعلَّق بالمظهر الخارجي.

لكن في هذا الصباح بدا لها أن الوجه قد ازداد حدَّة، وأن الفم قد ازداد نحافة، كأن التجاعيد التي تبدأ من الأنف متَّجهة نحو

الأسفل قد ازدادت عمقًا. إنه يحمل همومًا، همومًا ثقيلة، ولقد ضيعت الفرصة أن تتحدَّث معه عنها في الوقت المناسب، لتساعده على تحمُّل العبء. في صبيحة هذا الأحد، بعد أربعة أيام من تلقيها نبأ موت ابنها، اقتنعت آنَّا جْفَانْجِل من جديد، أنها مع هذا الرجل عليها أن تصمد كما كانت تفعل من قبل، وبأنها كانت غير محقة في أن تبدأ مَسلَكَ العناد هذا. كان عليها أن تعرفه على نحو أفضل، إنه يفضِّل الصمت على الكلام. عليها دائمًا أن تشجعه كي يحلَّ عقدة لسانه، فهذا الرجل لن يتحدَّث من نفسه مطلقًا.

والآن، اليوم سيتكلم، في الليل. لقد وافق لها على ذلك عندما عاد من عمله. أما آنَّا فكانت قد مرت بيوم سيِّئ حين انطلق بدون إفطار، وحين انتظرَتْهُ ساعات بلا جدوى، وحين لم يظهر أيضًا وقت الغداء، وحين أدركت أنه لا بد قد بدأ عمله، ولن يحضر الآن بالتأكيد- انتابها القنوط بشكل كبير.

ما الذي أصاب ذلك الرجل منذُ تفوَّهت بتلك الكلمة المتعجِّلة غير المُتَدَبَّرة؟ ما الذي يعتمل في داخله ويدفعه هنا وهناك؟ إنها تعرفه جيِّدًا؛ منذ أن تفوَّهت بتلك الكلمة، صار كل ما يشغله أن يريها أنه ليس «زعيمه». كأنها كانت تعني ذلك حقًّا! كان حريًّا بها أن تخبره أنها قالت الكلمة في غمرة الغضب والحزن الأولى. كان يمكن لها أيضًا أن تقول أشياء أخرى ضد هؤلاء المجرمين الذين اختطفوا منها ابنها بلا أي معنى. لكن لم تنفلت منها إلا تلك الكلمة بالذات!

غير أنها لم تقل سوى ذلك.. وها هو يركض هنا وهناك في الدنيا مُعَرِّضًا نفسه لشتى المخاطر لكي يُظهر حقه، ولكي يثبت لها بشكل عملي ملموس أنها ظلمته! ربما لن يعود.. لو أنه قال أو فعل شيئًا من شأنه أن يستثير الإدارة أو الجيستابو، ربما هو بالفعل الآن في السجن! لقد كان قلِقًا جدًا ذلك الرجل الهادئ في باكر صباح اليوم!

لا تتحمَّل آنَّا جْفَانْجِل أن تظلَّ تنتظره بلا فعل. جهَّزت بعض الشطائر، ثم انطلقت في الطريق إلى مصنعه. حتى في ذلك هي زوجته الوفية، ورغم أن لكل دقيقة قيمتها، فإنها - ورغم كل قلقها - لن تستخدم التِّرام. لا، ستذهب سيرًا على القدمين وتوفِّر القروش مثلما يفعل.

عرفت من بواب مصنع الأثاث أن الحِرفيَّ جْفَانْجِل قد وصل في موعده تمامًا إلى العمل مثلما يفعل دائمًا. لذا سألت مرسالًا أن يوصل إليه الشطائر «المنسية»، وها هي تنتظر عودة المرسال.

- والآن، ماذا قال؟

- ماذا يمكن أن يقول؟ إن هذا لا يقول شيئًا أبدًا!

والآن يمكن أن تعود إلى بيتها هادئة، لم يحدث شيء رغم كل قلق الصباح، ومساءَ اليوم ستتحدَّث معه...

عاد في الليل. تأمَّلت وجهه وعليه علامات التعب.

- أُوتُّو! (قالت مُتوَسِّلة)

لم أكن أعني ذلك بتلك الطريقة. فقط في لحظات الرعب الأولى انفلتت مني. لا تبقَ غاضبًا!

- أنا.. أغضب.. عليكِ؟ بسبب شيء كهذا؟ أبدًا!

- لكنك تريد أن تفعل شيئًا، أشعر بذلك! أُوتُّو، لا تفعل ذلك، لا تُلقِ بنفسك إلى التهلكة من أجل شيء كهذا! لن أسامح نفسي مطلقًا.

يتأمَّلها لبعض الوقت، يكاد يبتسم. ثم يضع كلتا يديه في عجالة على كتفيها. وبسرعة يدفعها بعيدًا كأنَّه يخجل من تلك الرقة العفوية.

- ماذا سأفعل؟ سأنام! وغدًا أخبركِ ماذا سنفعل معًا!

والآن جاء الصباح وجْفَانْجِل لا يزال نائمًا. لكن نصف ساعة أزيد أو أقل لن تُحدث فارقًا، إنه عندها، لن يستطيع أن يفعل شيئًا خطيرًا، إنه نائم.

تشيح بوجهها عن فراشه، وتبدأ في أعمالها المنزلية الصغيرة.

وفي هذه الأثناء كانت السيدة رُوْزِنْتال قد وصلت منذ أمد إلى باب شقتها، رغم أنها كانت تصعد ببطء شديد. لم يفاجئها أن تجد الباب موصدًا؛ تفتحه. في الشقة لا تبحث أولًا عن زِيجْفرِيد ولا تناديه. حتى تلك الفوضى العارمة لا تلاحظها، كما نسيت أنها ما دخلت إلى الشقة إلا لتتبع خطوات زوجها.

إن الدوار آخذٌ في الازدياد ببطء وبلا توقف. لا يستطيع المرء أن يقول إنها نائمة، لكنها أيضًا غير مستيقظة. كيف أنها تتحرك ببطء وبصعوبة، مفاصلها أصبحت ثقيلة كأنها مخدَّرة، عقلها كذلك. تأتيها صور مثل الأسراب ثم تتلاشى قبل أن تتمكَّن من رؤيتها بوضوح. تجلس في ركن الأريكة واضعة قدميها على الغسيل القذر، تنظر حولها ببطء وتثاقُل. وفي يدها لا تزال تحمل المفاتيح والسوار

المرصَّع بحجر الزفير الذي أهداها زِيجْفْرِيد إياه بمناسبة ميلاد إيفا. المكسب الذي جنته من الأسبوع الأبيض الذي يلي عيد الفصح.. تبتسم قليلًا.

تسمع باب الطرقة ينفتح بحذر وتعرف.. «إنه زِيجْفْرِيد. الآن سيأتي. لهذا السبب قد صعدتُ إلى هنا، أريد أن ألتقيه».

لكنها تظل جالسة، تنتشر ابتسامة على كامل وجهها المتجهِّم. سوف تستقبله من مجلسها هنا، كأنها لم تغادر قط، كأنها كانت هنا دائمًا في انتظار عودته لاستقباله.

وأخيرًا ينفتح الباب، وبدلًا من زِيجْفْرِيد المنتَظَر يقف ثلاثة رجال. وبمجرد أن رأت بين الرجال ذلك الزي البني الكريه عرفَتْ.. هذا ليس زِيجْفْرِيد، وزِيجْفْرِيد ليس معهم. يريد بعضُ الخوف أن يعتمل داخلها، لكنه حقًّا قدر قليل من الخوف. لقد حان الوقت أخيرًا.

وببطء تتلاشى الابتسامة عن وجهها الذي تحوَّل لونه من الرمادي إلى الأصفر المائل إلى الأخضر.

يقف الثلاثة أمامها مباشرة الآن. تسمع رجلًا ضخمًا ثقيلًا يرتدي معطفًا أسود يقول:

- ليست سكرانة يا صغيري؛ ربما مصابةٌ بالتسمُّم من تناول منوِّم. نريد أن نرى ما الذي يمكن أن نحصل عليه منها بسرعة. اسمعيني. أنت السيدة رُوْزِنْتال؟

تومئ موافقة:

- نعم أيها السادة، لُورِيه، أو الأصوب سارة رُوْزِنْتال. زوجي في مُوَابيت، ابنان في الولايات المتحدة، ابنة في الدانمارك، وأخرى متزوجة في إنجلترا...

- وكم من الأموال أرسلتِها إليهم؟ (سألها المأمور الجنائي رُوْشْ بسرعة)

- مال؟ لأي شيء أرسل المال؟ كلهم لديهم ما يكفيهم من المال! لأي غرض أرسل إليهم المال؟!

تومئ بجدية؛ كل أبنائها يعيشون في حالة جيدة، بل يستطيعون بدون جهد أن يتكفَّلوا بأبويهم. وفجأةً يخطر ببالها شيء تشعر أنها لا بد أن تفصح عنه لهذا السيد:

- إنه ذنبي.. (تقول بقلَّة حيلة ولسان ثقيل، يزداد ثقله فلا يمكنها الكلام، وتبدأ في التأتأة)

إنه ذنبي وحدي. لقد أراد زِيجْفْرِيد منذ زمن أن يغادر ألمانيا. لكني كنت أقول له «لماذا نترك كل الأشياء الجميلة، وعملنا الجيد هنا وأن نبيعهم مقابل مبلغ زهيد؟ لم نضر أحد قط، وهم لن يؤذونا»، لقد تمكنت من إقناعه. لولا ذلك لكنا غادرنا منذ زمن!

- وأين تركتم أموالكم؟ (يسأل المفتش بنبرة يشوبها نفاد الصبر)

- المال؟

تحاول أن تتذكر؛ كان شيءٌ متبقيًا هناك، لكن أين عساه ذهب؟ لكن التفكير الحاد يجهدها، ولهذا يخطر ببالها شيء آخر. تمسك بالسوار المرصع بين يدي المفتش:

- هاكَ! (تقول ببساطة)

هذا هو!

يُلقي المأمور رُوْش نظرة خاطفة ثم ينظر إلى مرافقَيْهِ كليهما، ذاك الزعيم الفظ من شبيبة هتلر، وإلى تابعه الدائم، فْرِيدْرِيش، الغبي البدين الذي يماثل مساعد جلاد. يلاحظ أن كليهما يراقِبُه بتوتُّر. ولهذا يدفع اليد المرفوعة بالسوار جانبًا، ويمسك بالسيدة المتثاقلة من كتفيها ويهزها بعنف:

- استيقظي أيتها السيدة رُوْزِنْتال! (يصيح)

آمُرُكِ! عليك أن تستيقظي!

ثم يفلتها؛ يسقط رأسها على مسند الأريكة فيما ينكمش الجسد على نفسه، ويتلفظ لسانها بكلام غير مفهوم. هذه الطريقة التي يوقظها بها لا تبدو صحيحة تمامًا، ولهنيهة يراقب الثلاثة السيدة العجوز، كيف تجلس منكمشة على نفسها، ولا يبدو عليها أنها استعادت الوعي.

يهمس المأمور فجأةً بصوت خفيض جدًّا:

- خذها معك إلى المطبخ، ولتعمل على إيقاظها!

فْرِيدْرِيش، مساعد الجلاد، أومأ فقط؛ حمل السيدة الثقيلة مثل طفل على ذراعه وعبر بحذر العوائق الملقاة على الأرض.

وحينما وصل إلى الباب صاح المأمور:

- حافظ على أن تبقى هادئة! لا أريد ضوضاء في صبيحة أحدٍ في بناية بها شقق مؤجرة! وإلا سنتوجَّه إلى شارع الأمير آلبِرت. في كل الأحوال سأصحبها إلى هناك.

ينغلق الباب خلفهما، فيجلس المفتش وزعيم شبيبة هتلر بمفردهما.

يقف المأمور رُوْشْ عند النافذة ويتأمَّل الشارع:

- شارع هادئ هذا.. (يقول)

ملعب أطفال حقيقي، أم ماذا؟

يؤكد بَالْدُوْر بِيرْزِيكِه أن شارع يابْلونْسْكِي شارع هادئ.

يبدو المأمور متوتِّرا قليلًا، ليس بسبب الأمر الذي ينفذه فْرِيدْرِيش في المطبخ مع اليهودية العجوز. فأشياء كهذه - بل أفظع منها - تلائم طبيعته. إن رُوْشْ قانوني مفلس وجد طريقه إلى الشرطة الجنائية، التي سلَّمته إلى الجيستابو. إنه يستمتع بأداء عمله، سيستمتع بتقديم خدماته لأي حكومة، غير أن الأساليب الملتوية التي تتَّبِعها هذه الحكومة تعجبه على نحو خاص. «فقط ابتعد عن سَكرَة المشاعر» يقول أحيانًا لأحد المستجدين.. «نحن نؤدي واجبنا فقط عندما نحقِّق هدفنا. أما الطريق إلى ذلك فلا يشكِّل فارقًا على الإطلاق».

كلا، إنه لا يفكِّر أدنى تفكير في تلك اليهودية الشمطاء، فلقد تحرَّر من أي مشاعر مُسكِرة.

لكن هذا الصبي -زعيم شبيبة هتلر- بِيرْزِيكِه، لا يتوافق معه. إنه لا يحب أن يوجد غريبٌ في مسألة كهذه، فالمرء لا يعرف أبدًا كيف يتقبلون ذلك. وبصراحة يبدو هذا من النمط الصحيح، لكن لا يُعرف ذلك بدقة إلا فيما بعد.

- أرأيت يا سيدي المأمور؟

يسأل بَالْدُوْر بِيرْزِيكِه بحماس.. فهو لا يريد ببساطة أن يتنصَّت على ما يحدث في المطبخ، فهذه مسألة تخصُّهم!

- أرأيت أنها لا ترتدي نجمة اليهود؟

- لقد رأيتُ أكثر من هذا! (يقول المأمور متفكِّرًا)

لقد رأيتُ -على سبيل المثال- أن السيدة ترتدي حذاء نظيفًا، فيما في الخارج الأجواء موحلة.

- نعم (يؤكد بَالْدُوْر بِيرْزِيكِه بتفهُّم)

لا بد إذًا أن أحدهم قد خبأها في هذا البيت، منذ الأربعاء، إن كانت حقًّا لم تكن في شقتها كما تقول.

- أنا أكاد أُجزم.. (شرع بَالْدُوْر بِيرْزِيكِه يقول)

ثمة شيء مضلِّل في هذه النظرة المتدبرة التي لا ترتفع عنه.

- الجَزْم بالكاد لا يساوي شيئًا أيها الشاب! (يقول المأمور بنبرة احتقار)

لا يوجد ما يسمى «أكادُ أُجزم»!

- أنا واثق تمامًا! (يقول بَالْدُوْر بسرعة)

أستطيع أن أُقْسِم في كل وقت إن السيدة رُوْزِنْتال لم تكن في شقتها منذ الأربعاء!

- جميل، جميل (يقول المأمور بخِفَّة)

تعرف بالطبع أنك بمفردك قد وضعت الشقة تحت المراقبة منذ الأربعاء. شيء كهذا لن يتقبَّله أي قاضٍ.

- لي أخَوَان يعملان في الشرطة العسكرية! (يقول بَالْدُوْر بِيرْزِيكِه بحماسة)

- جميل إذًا! (يقول المأمور رُوْشْ ساخرًا)

سيسير كل شيء على نحو خاطئ. بالمناسبة.. ما أردتُ أن أقوله لك هو أنني سأحضر في المساء لأفتِّش البيت. فَهَلَّا واصلت مراقبة الشقة؟ أليس المفتاح معك؟

أكد بَالْدُوْر بِيرْزِيكِه بِرِضًى أنه سيفعل ذلك بكل سرور، كانت السعادة العميقة تطفح من عينيه. إذًا، هكذا إذًا ستسير الأمور، وبطريقة مشروعة تمامًا!

- سيكون من الجيد جدًّا.. (قال المأمور متململا ونظر من النافذة مجدَّدًا)

لو أن كل شيء ملقًى مثلما هو الآن. بالطبع لا يسري هذا على ما في الدواليب والحقائب، لكن بخلاف ذلك...

وقبل أن يتمكَّن بَالْدُوْر من الإجابة، رنَّت من داخل الشقة صرخة خوف حادة وعالية.

- اللعنة! (قال المأمور، لكنه لم يتحرَّك من مكانه)

حدق إليه بَالْدُوْر شاحبًا وقد تمكَّن منه الخوف.

أما صرخة الخوف فقد كُتِمَتْ على الفور، ولم يعد يُسمع إلا صوت فْرِيدْرِيش وهو يلعن.

- الذي أردت قوله... (شرع المأمور يقول مجدَّدًا وببطء)

غير أنه لا يتكلم، بل يواصل الإنصات. فجأةً يتعالى صوت سباب في المطبخ، وركلات، وخبطات هنا وهناك. والآن يصيح فْرِيدْرِيش بصوت عالٍ جدًّا: «فورًا! حالًا!».

ثم صرخة عالية، ومزيد من اللعنات البذيئة. والآن يُفتَح باب، وقعقعة فوق الأرض وفي الغرفة يصيح فْرِيدْرِيش:

- ماذا تقول الآن سيدي المأمور؟ لقد كادت تتحدَّث، لكن الحمقاء قفزت من النافذة!

ضربه المفتش بغضب على وجهه:

- يا لك من سلحفاة ملعونة! سأسلخ جلدك عن بدنك! هيا انطلق بسرعة!

ثم خرج من الغرفة وركض على السلم إلى أسفل...

- في الحوش! (صاح فْرِيدْرِيش مُتوَسِّلًا فيما يركض وراءه)

لقد سقطت في الحوش، وليس في الشارع! لن تُحدث جلبة سيدي المأمور!

لكنه لا يحصل على إجابة. يركض الثلاثة على السلم فيما يحاولون إصدار أقل قدر ممكن من الضوضاء في ذلك السكون الذي يملأ البيت صبيحة يوم الأحد. يركض بَالْدُوْر بِيرْزِيكِه آخِرًا محافظًا على مسافة نصف درجة. لم ينْسَ أن يوصد باب شقة رُوْزِنْتال. رغم أن الرعب يستقر في عظامه، لكنه يعرف أنه يتحمل الآن المسؤولية عن كل الخيرات التي تحويها، ولا يمكن أن يسمح لشيء أن يفلت منها!

يمر الثلاثة على شقة جْفَانْجِل، وبِيرْزِيكِه، وشقة المستشار فْرُومْ. لم يعد أمامهم سوى درجتين ليصلوا إلى الحوش.

وفي هذه الأثناء كان أُوتُّو جْفَانْجِل قد استيقظ، وغسل وجهه وتفقد زوجته في المطبخ، وكيف أنها تُحضِّر الفطور. وبعد الإفطار سيتحدَّث بعضهما مع بعض. ولقد تبادلا تحية الصباح بشكل عابر، لكنها كانت تحية ودودة.

يجفل كلاهما فجأةً، فصُراخ يعلو في المطبخ بالأعلى، يُنصتان، ينظر أحدهما إلى الآخر بتوتر وغَمّ. ثم يصير شبَّاك المطبخ لثوانٍ معدودة معتمًا. شيء ثقيل يبدو أنهٌ سقط؛ يسمعانه يرتطم قويًّا في الحوش. في الأسفل يصرخ أحدُهم في الحوش.. رجلٌ. ثم يخيم الصمت.

فتح أُوتُّو جْفَانْجِل شباك المطبخ، لكنه تقهقر إلى الوراء لما سمع جلبة على السلم.

- أخرجي رأسك أنت يا آنَّا بسرعة! (قال)

انظري إن كنتِ ستتمكَّنين من رؤية أي شيء. فسيدةٌ لن تلفت النظر في مسألة كهذه.

يمسكها من كتفها ويضغط عليها بقوة.

- لا تصرخي! (يقول آمِرًا)

إياك أن تصرخي! هيا أعيدي غلق الشباك!

- يا إلهي! يا أُوتُّو! (انتحبت السيدة جْفَانْجِل وحدقت إلى زوجها بوجه شاحب)

لقد سقطت السيدة رُوْزِنْتال من النافذة. إنها ترقد في الأسفل على أرضية الحوش. يقف بُورْكْهاوْزِن إلى جوارها و...

- صمتًا (يقول)

الآن صمتًا! نحن لا نعرف شيئًا. لم نَرَ ولم نسمع أي شيء. أحضري القهوة إلى الغرفة!

وفي داخل الغرفة يؤكد مرة أخرى «نحن لا نعرف شيئًا يا آنا. لم نَرَ رُوْزِنْتال مطلقًا. والآن كُلي! كُلي أقول لك. واشربي القهوة! حينما يأتي أحدهم لا ينبغي أن يلاحظ علينا أي شيء!».

المستشار فْرُومْ لا يزال واقفًا في موقع المراقبة الخاص به. لقد رأى مدنيَّيْنِ يصعدان السلم، والآن ينزل ثلاثة رجال -والصبي بيرْزِيكِه معهم- على السلم، لقد حدث إذًا شيء! وسرعان ما جلبت له خادمته النبأ من المطبخ، أن السيدة رُوْزِنْتال سقطت من علٍ إلى الحوش. حدق إليها مرتعبًا..

ولوهلة وقف ساكنًا تمامًا. ثم أومأ برأسه عدة مرات بتؤدة.

- نعم يا ليزا.. (قال)

ليس الأمر مختلفًا. لا ينبغي على المرء أن يريد الإنقاذ فحسب. لا بد أن يوافق الآخر أيضًا على الإنقاذ وبشكل صحيح. (ثم أضاف في عجالة)

هل أُغلِقَت نافذة المطبخ مجدَّدًا؟

أومأت ليزا:

- بسرعة يا ليزا. أعيدي ترتيب غرفة الآنسة المرحومة. لا ينبغي أن يرى أحد أنها استُخدِمت. تخلصي من الغسيل ومن الأواني!

ومرة أخرى أومأت ليزا. ثم سألت:

- والمال والمجوهرات التي على الطاولة يا سيدي المستشار؟

وقف لوهلة بلا حيلة، وبدا عليه التذمُّر وابتسم ابتسامة حيرى:

- أجل يا ليزا.. (قال بعدها)

هذا سيُصعِّب الأمر. على الأرجح لن يعلن أيٌّ من الورثة عن نفسه. وبالنسبة إلينا هو مجرد عبء.

- سألقي بهم إلى صفيحة القمامة (اقترحت ليزا)

هز رأسه:

- هؤلاء أذكى من جرادل القمامة يا ليزا؛ إن لديهم القدرة على التفتيش في القمامة. لا، سأرى أين يمكن وضعهم. افرغي فقط بسرعة من الغرفة، بسرعة! كل دقيقة لها قيمتها الآن!

مؤقتًا وقفوا في الحوش ومعهم بُورْكهاوْزِن.

لقد كان بُورْكهاوْزِن أول من تلقَّى صدمة الرعب الأولى وأقواها. لقد كان يتسكع في الحوش منذ بزوغ النهار، يعذبه كراهيته لبِيرْزِيكِه وطَمَعه في الأشياء التي سُلِبْت منه. كان يريد على الأقل أن يعرف، وهكذا كان يراقب درابزين السلم دائمًا، والنوافذ في الأمام.

وفجأةً سقط أمامه شيء كثيف، قريبًا جدًّا ومن ارتفاع عالٍ، لقد لمسه. جرى الذعر في مفاصله لدرجة أنه استند إلى جدار الحوش ثم اضطر إلى الجلوس على الأرض وأعتمت الدنيا أمام ناظريه.

ثم نهض مرة أخرى، لأنه لاحظ فجأةً أنه يجلس إلى جوار السيدة رُوْزِنْتال في الحوش. يا إلهي لقد سقطت السيدة العجوز من شباك المطبخ، أما المذنب في ذلك، فهو يعرفه أيضًا.

رأى بُورْكْهاوْزِن فورًا أن السيدة ماتت. خرج من فمها بعض الدم، وارتسم على وجهها تعبير ينم عن السلام العميق لدرجة أن الجاسوس الصغير اللعين اضطر إلى أن يشيح بعيدًا بوجهه. ثم سقطت نظراته على يدها، ورأى أنها تمسك شيئًا فيها، قطعة حلي مرصَّعة بأحجار تلتمع.

ألقى بُورْكْهاوْزِن نظرة مرتابة حوله. إنْ أراد أن يفعل شيئًا فعليه أن ينفذه بسرعة. انحنى مشيحًا عن الجثة بحيث لا يضطر إلى رؤية وجهها ثم سحب من يدها السوار المرصع بالزفير ودسه في جيب سرواله. ومرة أخرى نظر حوله بارتياب، وشعر أن شباك مطبخ آل جْفَانْجِل ينغلق بحذر.

لحظتها وصلوا إلى الحوش راكضين، ثلاثة رجال، ولقد عرف فورًا من الاثنان الآخران. والآن صارت المسألة تتعلَّق بأن يُحسن التصرُّف من البداية.

- لقد سقطت السيدة رُوْزِنْتال لتوها من الشباك، سيدي المأمور.

قال كأنَّه يبلغ عن حدث يومي عادي، وأردف:

- كادت السيدة تسقط على رأسي!

- من أين تعرفني إذًا؟

سأل المأمور سؤالًا عارضًا فيما هو ينحني مع فْرِيدْرِيش تجاه الجثة.

- لا أعرفك سيدي المأمور.. (قال بُورْكْهاوْزِن)

لقد فكرت في هذا فحسب. لأنني أحيانًا ما كنت أعمل لدى المفتش إشيرِش.

- هكذا! (اكتفى المأمور بالقول)

إذًا فلتبق واقفًا هنا بعض الوقت. أنت أيها الشاب (تحول إلى بِيرْزِيكِه)

راقب الأحوال قليلًا، بحيث لا نفقد هذا الشاب. فْرِيدْرِيش، اهتمَّ بألا يأتي ناس إلى الحوش. وأبلغ السائق أن عليه أن يحترس لدى مدخل البوابة، أما أنا فسأصعد سريعًا لأجري اتصالًا هاتفيًا من شقتها!

وحين عاد السيد المأمور رُوْشْ بعد أن أجرى الاتصال الهاتفي إلى الحوش كان الوضع هناك قد تغير قليلًا. إذ امتلأت نوافذ البيت الخلفي كلها بالوجوه، ووقف ناس كذلك في الحوش. وغُطِّيت الجثة الآن بملاءة، قصيرة نسبيًا، فأظهرت ساقي السيدة رُوْزِنْتال حتى ركبتيها.

بدا وجه السيد بُورْكْهاوْزِن شاحبًا مصفرًا ووُضعت في يديه الأصفاد. ومن جانب الحوش تنظر إليه زوجته وأولاده الخمسة صامتين.

- سيدي المأمور، إنني أعترض على ذلك! (صاح بُورْكْهاوْزِن متذمرًا)

بالتأكيد أنا لم أُلْقِ السوار في القبو. السيد الشاب بِيرْزِيكِه يكرهني...

اتضح أن فْرِيدْرِيش بعد أن أتمَّ مهماته وعاد، بدأ فورًا في البحث عن السوار. لقد كانت السيدة رُوْزِنْتال لا تزال تمسك به في المطبخ، وبسبب هذا السوار تحديدًا الذي لم تُرِد أن تتخلى عنه أثارت نوعًا من الغضب في نفس فْرِيدْرِيش، وفي سكرة الغضب لم يراقب الأحوال كما هي عادته وغافلته السيدة ومررت عليه مقلبَ القفز من النافذة. لا بد إذًا أن يكون السوار في مكان ما هنا في الحوش.

وحينما بدأ فْرِيدْرِيش في البحث كان بُورْكْهاوْزِن يقف مستندًا إلى جدار المنزل. وفجأةً رأى بَالْدُوْر بِيرْزِيكِه شيئًا يلمع ومباشرة سمعوا صوت رنين في فتحة القبو. تفقد الأمر فورًا و.. -انظروا!- هناك يرقد السوار في القبو.

- أنا بالتأكيد لم أُلقِهِ سيدي المأمور! (قال بُورْكْهاوْزِن مذعورًا)

لا بد أنه سقط في فتحة القبو من السيدة رُوْزِنْتال.

- هكذا! (قال المأمور رُوْش)

هكذا عصفور أنت إذًا! هكذا عصفور يعمل لدى زميلي إشيرِش! سيسبب هذا لزميلي إشيرِش سعادة عارمة، عندما يسمع الحكاية!

لكن فيما المأمور يتكلم بسلام تام كانت نظراته تتأرجح ما بين بُورْكْهاوْزِن وبَالْدُوْر بِيرْزِيكِه. ثم قال رُوْش:

- أظن أنك لن تمانع في أن تصحبنا إلى نزهة قصيرة؟ أليس كذلك؟

- لكني لستُ... (أكد بُورْكْهاوْزِن وهو يرتجف وازداد وجهه شحوبًا)

لكن آتي معكم بكل سرور! فكل ما يهمني أن يُوَضَّحَ كل شيء على النحو الصحيح يا سيدي المأمور!

- إذًا قضي الأمر! (قال المفتش بجفاء. وبعد نظرة عاجلة نحو بِيرْزِيكِه)

فْرِيدْرِيش، فُكَّ قيود الرجل. إنه سيأتي معنا، أليس كذلك؟

- بالتأكيد أنا قادم معكم، بالتأكيد، بكل سرور! (أكد بُورْكْهاوْزِن بحماس)

لن أهرب. حتى لو فعلت فستجدونني وتمسكون بي يا سيدي المأمور!

- صحيح! (ردَّ بجفاء مرة أخرى)

عصفور مثلك نصطاده من أي مكان! (ثم قطع كلامه ليقول)

ها هي ذي سيارة الإسعاف، والشرطة. نريد أن نتيَقَّن من أنهم سيتخلَّصون من هذه الكراكيب بسرعة. فلا يزال لديَّ كثير من العمل لإنجازه صباح اليوم.

لاحقًا، بعد أن «تخلصوا من الكراكيب بسرعة» صعد المأمور رُوشْ والصبي بِيرْزِيكِه مرة أخرى إلى شقة رُوزِنْتال. «فقط من أجل إغلاق شباك المطبخ!» قال المأمور.

على السلم وقف الصبي بِيرْزِيكِه فجأةً:

- ألم يلفت نظرك شيء سيدي المأمور؟ (سأل هامسًا)

- لقد لفت نظري كثير من الأشياء.. (رد المأمور رُوْش)
لكن ما الذي لفت نظرك -بحق السماء- يا فتى؟

- ألا يلفت نظرك ذلك السكون الذي يغرق فيه الجزء الأمامي من المنزل؟ ألم تلاحظ أنه ما من رأس واحد أطلّ من الشباك، فيما في الخلفي كل الرؤوس أطلت لترى؟ هذا أمر مريب. لا بد أنهم لاحظوا شيئًا هؤلاء الناس في الجزء الأمامي. لكنهم فقط لا يريدون أن يُظهروا أنهم رأوا شيئًا. في الحقيقة لا بد أن تبدأ حملة التفتيش الآن يا سيدي المأمور!

- وسأبدأ أنا لدى آل بِيرْزِيكِه. (أجاب المأمور وواصل صعود الدرج بهدوء)
فعندهم أيضًا لم يطل رأسٌ من الشباك!
ضحك بَالْدُوْر محرَجًا:

- إخوتي من الشرطة العسكرية.. (أوضح بعدها)
لقد شربا أمس حتى ثَمِلَا!

- ابني العزيز.. (واصل المأمور حديثه كأنَّه لم يسمع شيئًا)
الذي أفعله هو شأني أنا. وما تفعله أنت هو شأنك أنت. والمقترحات من طرفك غير مرحَّب بها، فأنت لا تزال في عيني مجرد عود أخضر..

تجاهل بصمت وباستمتاع وجه الصبي المنزعج:

- يا فتى.. (قال بعدها)

إن لم أقم بحملة تفتيش هنا فلن يكون ذلك إلا بسبب أنه يُستنفد وقتٌ ثمينٌ لإبعاد كل ما له قيمة. فلماذا نبذل كل هذا الجهد من أجل سيدة يهودية ميتة؟ يكفيني ما يشغلني به الأحياء.

وفي هذه الأثناء كانا قد بلغا شقة رُوْزِنْتال. فتح بَالْدُوْر الباب بالمفتاح، أُغلِقت نافذة المطبخ وأُعيدَ كرسي مقلوب إلى مكانه.

- هكذا.. (قال المأمور رُوْشْ ونظر حوله)

كل شيء في أفضل حال!

تقدم نحو الغرفة وجلس على الأريكة، على الموضع ذاته الذي جلست عليه السيدة العجوز رُوْزِنْتال قبل ساعة حين كانت تهذي فاقدةً الوعي:

- هكذا يا بُنَيّ. والآن أحضر لنا زجاجة كونياك وكأسين.

ذهب بَالْدُوْر ثم عاد وصبَّ الشراب وقرع كلاهما الأنخاب.

- جميل يا بني! (قال المفتش مرتاحًا، وأشعل سيجارة)

والآن قُصَّ عليَّ ما كنت تنتويه أنت وبُورْكْهاوْزِن هنا في الشقة!

أردفَ بسرعة، قبل حتى رؤيته لحركة الصبي بِيرْزِيكِه الممتعضة:

- فكِّر جيِّدًا يا بني. فحتى زعيمٌ من شبيبة هتلر يمكنني أن أصحبه معي إلى شارع الأمير آلبِرت إن بدأ يكذب في وجهي بوقاحة. فكِّر إن كنت تفضِّل الحقيقة، ربما تظل الحقيقة بيننا، فلنَرَ ماذا لديك لتحكيه. (ولأنه رأى بَالْدُوْر يترنَّح قال)

لقد لاحظتُ أيضًا عدة ملاحظات. نحن نسميها «ملاحظات». فمثلًا رأيت نعليك على بياضات السرير، أنت لم تظهر اليوم في الزاوية أبدًا. ومن أين عرفت هكذا بسرعة أن كونياك هنا وعرفت مكانه؟ وما تظنُّ ما قاله لي بُورْكْهاوْزِن في رعبه الكبير؟ هل أنا محتاج إلى أن أجلس هنا وأتركك تكذب عليَّ؟ أنت بالنسبة إليَّ مجرد عود أخضر!

وهنا أدرك بَالْدُوْر أيضًا أنه «عود أخضر» بالنسبة إلى الرجل فأخرج كل ما في جعبته.

- هكذا! (قال المأمور أخيرًا)

هكذا يفعل كل امرئ ما في وسعه أن يفعل. الحمقى يأتون بأفعال حمقاء والأذكياء عادة ما يأتون بأفعال أكثر حماقة! يا بني، في النهاية لقد أصبحتَ أكثر مكرًا ولم تكذب على والدك رُوْشْ. وأمر كهذا لا ينبغي أن يمر من دون مكافأة. ماذا تريد أن تأخذ من هنا؟

أشرقت عينا بَالْدُوْر. منذ وهلة كان قد بدأ يشعر باليأس التام لكنه الآن صار يرى الضوء من جديد.

- جهاز الراديو مع مشغل الأسطوانات والأسطوانات يا سيدي المأمور! (همس بجشع)

- جميل جميل! (قال المفتش بصوت رحيم)

لقد سمحتُ لك بذلك. قبل السادسة لن أعاود الحضور إلى هنا. شيئًا آخرَ؟

- ربما حقيبةً أو اثنتين من حقائب الغسيل! (قال بَالْدُوْر راجيًا)

فوالدتي ينقصها كثيرٌ من الغسيل.

- يا إلهي! كم هذا مؤثر! (سخر المأمور)

- يا لك من ابن رقيق القلب! يا لكَ من ابن بارٍّ بوالدتك! حسنًا. من طرفي لا مانع، لكن هذا كل شيء! ستكون مسؤولًا أمامي عن كل شيء عدا ذلك! ولتعلم أن لي ذاكرة قوية ولعينة، تتذكر كيف كان كل شيء يبدو وأين كان موضعه، لن يسهل عليك خداعي! وكما لاحظتَ بالفعل في كل حالة شَكٍّ سيتم سيُفَتَّش بيت بِيرْزِيكِه. وفي كل الأحوال سنجدُ جهاز الراديو ومشغل الأسطوانات، وحقيبتين مليئتين بالغسيل. لكن لا تخف، يا بني، ما دُمتَ صادقًا، فسأكون أنا أيضًا.

ذهب إلى الباب. ثم أضاف من فوق كتفه:

- بالمناسبة، إن ظهر ذلك البُورْكْهاوْزِن مرة أخرى إياك أن تتورط معه؛ لا أحب ذلك. مفهوم؟

- بكل تأكيد، سيدي المفتش.

أجاب بَالْدُوْر بِيرْزِيكِه مطيعًا. وعلى هذا انفصل الاثنان، بعد أن قضَيَا صباحًا مليئًا بالنجاح.

17

كتابة البطاقة الأولى

بالنسبة إلى آل جْفَانْجِل لم يجلب هذا الأحد نجاحًا، على الأقل لم تتحقَّق أمنية السيدة آنَّا في الحصول على محادثة.

- لا! (قال جْفَانْجِل ردًا على إلحاحها)

لا يا أماه، ليس اليوم. لقد بدأ اليومُ بداية خاطئة. في يوم كهذا لا أستطيع أن أفعل ما انتويت فعله حقًّا. ولأنني لم أعد قادرًا على فعله، فلا أريد أيضًا أن أتحدَّث عنه. ربما في يوم أحد آخر. ألا تسمعين؟ أجل، ها هو ذا أحد آل بِيرْزِيكِه يتسلَّل مرة أخرى على السلم؛ سنتركهم وحالهم! لو أنهم فقط يتركوننا في سلام!

غير أن أُوتُو جْفَانْجِل كان رقيقًا على غير عادته في يوم الأحد هذا. لقد سمح لآنَّا أن تتحدَّث كما تشاء عن ابنهما الذي سقط في الحرب، لم يغلق فمها عن هذا. بل إنه حتى تفقد الصور القليلة التي كانت تمتلكها لابنها، وفيما بدأت تبكي قليلًا، وضع يده على كتفها وقال:

- لا تحزني، يا أماه، لا تحزني. من يعرف ما الخير؟ لعله جنَّب كثيرًا من السوء.

إذًا، هذا الأحد ظلَّ جيِّدًا حتى من دون الحديث المُرتَقَب. فمنذ أمدٍ بعيد لم تَرَ آنَّا زوجها بهذا اللطف، كأن الشمس تشرق من جديد، مرة أخيرة فوق البلاد قبل أن يسود الشتاء الذي يخبئ كل الحياة تحت غطاء من الجليد والثلوج. في الشهور المقبلة التي ستجعل آل جْفَانْجِل يشعرون أكثر بالبرودة فيما يقل حديثهم، ستظل تفكر كثيرًا في هذا الأحد، الذي كان لها عزاءً وتشجيعًا في الوقت نفسه.

ثم بدأ أسبوع العمل مجددًا، واحد من تلك الأسابيع المتماثلة، سواء كان ذلك أوان تفتح الأزهار أو أوان سقوط الثلوج. لقد كان العمل هو هو دائمًا، كما أن الناس أيضًا ظلوا كما كانوا دائمًا.

مجرد تجرِبة صغيرة جدًّا عايشها أُوتُّو جْفَانْجِل. حين توجه إلى المصنع قابله المستشار المتقاعد فْرُومْ في شارع يابْلونْسْكِي. أراد جْفَانْجِل أن يحيّيَه لكنه كان يخشى عيون بِيرْزِيكِه. وأيضًا لم يكن يريد أن يراه بُورْكْهاوْزِن الذي حكت له آنَّا أنه ذهب مع الجيستابو. لقد عاد بُورْكْهاوْزِن مجدَّدًا، لو افترضنا أنه ذهب أصلًا، وأخذ يدور حول البيت.

وهكذا مرَّ جْفَانْجِل من جوار المستشار من دون أن يراه. لعله لا يخشى شيئًا، على أي حال لقد خلع قبعته أمام جاره وابتسم بعينيه ثم دخل إلى المنزل.

اتجه إلى الأمام ثم انحنى يمينًا! فكَّر جْفَانْجِل. من رأى ذلك سيفكِر.. إن جْفَانْجِل هو نفسه القاسي صاحب الجفوة، فيما المستشار هو الرجل الأرقى. لكنْ لن يفكِر أن الرجلين يتَّصلُ بعضهما ببعضٍ لأي غرض!

مرَّ باقي الأسبوع بدون أي أحداث خاصَّة، وهكذا أتى الأحد مرة أخرى، هذا الأحد الذي انتظرَتْه آنا جْفَانْجِل طويلًا لتُجري فيه الحديث الذي أُجِّلَ ويبوحَ فيه أُوتُّو لها بخططه. لقد استيقظ متأخِرًا، لكنه كان في مزاج رائق وليس مضطربًا. أحيانًا كانت تنظر إليه بسرعة بطرف عينها وهو يشرب القهوة، نظرات مشجِّعة لكنْ بدا أنه لا يلحظ ذلك، أكل، مضغ خبزه ببطء وقلَّب قهوته.

لم تتمكَّن -إلا بصعوبة- من أن تقرر أن تجمع الأواني لتغسلها. لكن هذه المرة لم يكن دورها فعلًا أن تنطق بالكلمة الأولى. لقد اتَّفق معها على إجراء هذه المحادثة في هذا الأحد وسيفي بكلمته، كل مطالبة منها كانت ستبدو إلحاحًا من جانبها.

وهكذا وقفت بعد أن أطلقت تنهيدة قصيرة وحملت الفناجين والأطباق إلى المطبخ. وعندما عادت لتأخذ سلة الخبز وإبريق القهوة وجدته محنيًّا أمام درج الكومود يفتِّش فيه. لم تتمكَّن آنَّا جْفَانْجِل من تذكُّر الأشياء التي كانت موضوعة في ذاك الدرج. لا بد أنها مجرد كراكيب قديمة منسية.

- هل تبحث عن شيء معين يا أُوتُّو؟ (سألَتْ)

لكنه لم يُعطِ سوى صوت غمغمة، لذا انسحبت مجدَّدًا إلى المطبخ، من أجل غسل الأواني وإعداد الطعام. إنه لا يريد. إنه لا يريد ثانية! وأكثر من أي وقت مضى صارت مقتنعة أنَّ شيئًا ما يعتمل داخله، وأنها ما زالت لا تعرف عنه شيئًا، وأن عليها أن تعرف!

لاحقًا، عندما عادت إلى الحجرة، لكي تجلس إلى جواره وهي تقشر البطاطس، وجدته قد أزاح المفرش عن الطاولة، ورأت قُرْصَهَا مليئًا بسكاكينِ نحت، وغطت النشارة الدقيقة بالفعل الأرضية حوله.

- ماذا تفعل يا أُوتُّو؟ (سألت بدهشة طاغية)

- لِنَرَ إن كنت لا أزال قادرًا على النحت!

ردَّ عليها. كانت مضطربة قليلًا. حتى لو أن أُوتُّو غير عليمٍ بأرواح البشر، لا بد أنَّ له معرفةً ولو قليلة بحالها الباطن، وكَمِّ التوتُّر الذي تنتظر به أيَّ خبر منه. والآن يمسك بسكاكين النحتَ التي عمرها من عمر سنوات زواجهما الأولى، ويَنحت الخشب مثل ذلك الوقت حينما كان ينتابها القنوط من صمته الأبدي. آنذاك لم تكن قد اعتادت قلة كلامه مثلما حالها اليوم، لكن اليومَ، اليومَ تحديدًا، بدا لها هذا الصمت غير محتمل بالمرة. نحت خشب؟ يا الله! ما هذا الرجل وما تلك الأفكار التي تخطر بباله؟! إن كان سيقضي الساعات في نحت الخشب ليحافظ على صمته.. فلا، لأن ذلك لن يعني بالنسبة إليها سوى إحباط جديد ثقيل الوطأة لن تقابله هذه المرة ساكتةً.

وفيما هي تفكر في كل ذلك بيأس، وقع نظرها على لوح الخشب الطويل السميك الذي يديره بين يديه الكبيرتين وهو يفكِّر، ثم يستخرج منه بسكينه بين الحين والآخر شريحة خشب قوية. لا لن يكون ذلك مجرد صندوق غسيل مثل الذي صنعه آنذاك، لقد أدركَتْ ذلك على الأقل.

- ماذا سيكون ذلك يا أُوتُّو؟

سألت وجزء منها لا يريد أن يسأل. فلقد عبرت بخاطرها فكرة غريبة، أنه يصنع إحدى القطع الخشبية للعمل، ربما جزء من مفجر القنابل. لكن مجرد التفكير في شيء كذلك كان ضربًا من العبث؛ ما دخل أُوتُّو بالقنابل؟ علاوة على ذلك، لربما أصلًا لا يصلح استخدام الخشب مع القنابل.

- ماذا سيكون ذلك يا أُوتُّو؟

لهذا سألت مرة أخرى على غير إرادتها. في البداية بدا كأنَّه لا يريد أن يجيب إلا من خلال الغمغمة، لكن ربما خطر بباله أن آنَّا قد تحملت كثيرًا منه هذا الصباح، لعله كان أيضًا مستعدًّا أن يدلي بمعلومات.

- رأس. (قالَ)

ما زلت سأرى إن كان يمكنني أن أنحت رأسًا. لطالما نَحَتُّ رؤوسَ غلايين في الماضي.

ثم استدار وواصل النحت.

- رؤوس غلايين! (قالت آنا بنبرة ممتعضة. ثم الآن بمنتهى الغضب)

رؤوس غلايين! هَلَّا عدت إلى عقلك يا أُوتُّو! العالم ينهار وأنت تفكر في رؤوس الغلايين! يا لِهول ما أسمع!

بدا كأنَّه لا يولي اكتراثًا كبيرًا لا لغضبها ولا لكلماتها. قال:

- لن يكون هذا بالطبع رأس غليون. أريد أن أرى إن كنت سأقدر أن أنحت وجه ابننا أُوتُّو الصغير.

وفي التَّوِ تبدَّل مزاجها. إذًا لقد كان يفكِّر في أُوتُّو الصغير، وإن كان يفكِّر فِي أُوتُّو الصغير ويريد أن ينحت رأسه في الخشب، فهذا يعني أنه يفكِر فيها هي أيضًا ويريد أن يسعدها. نهضت من كرسيِّها وقالت بسرعة وهي تضع وعاء البطاطس:

- انتظر يا أُوتُّو، سأحضر لك الصور، حتى تعرف كيف كان أُوتُّو الصغير يبدو حقيقةً.

هز رأسه رافضًا:

- لا أريد أن أرى صورًا؛ أريد أن أنحت وجه أُوتُّو على الشاكلة التي أحمله بها في داخلي.

طرق جبينه العالي. وبعد وقفة أضاف: إن استطعتُ!

ومرة أخرى لامست كلماته شغاف قلبها؛ لقد كان أُوتُّو الصغير أيضًا داخله، لديه صورة ثابتة تخصُّ الولد. والآن صارت فضولية حول الكيفية التي سيبدو عليها ذلك الرأس.

- ستستطيع بالتأكيد يا أُوتُّو!

- أجل! (لم يقل سوى ذلك، وبنبرة مؤيدة لا يائسة)

وبذلك انتهت المحادثة بين الاثنين. كان على آنَّا أن تعود إلى المطبخ، لتحضير الغداء، وتركته هناك على الطاولة، يدير تلك الكتلة من خشب الزيزفون بين أصابعه، ينزع منها رقاقةً بعد أخرى.

لكنها تفاجأت جدًّا عندما عادت قبل الغداء بقليل، لتُعدَّ المائدة، أن وجدت الطاولة وقد نُظِّفت وأعيد إليها المفرش. كان جْفَانْجِل يقف في النافذة ناظرًا إلى شارع يابْلونْسْكِي في الأسفل حيث كان الأطفال يصخبون.

ها أُوتُّو، هل انتهيت بالفعل من النحت؟ (سألَتْ)

- لقد انتهيت من عمل اليوم

أجاب، وفي ذات اللحظة عرفت أن الحديثَ أصبح وشيكًا، وأن أُوتُّو ينتوي شيئًا، هذا الرجل العنيد الغامض، الذي ليس ثمة ما من شأنه أن يستعجله، لأنه دائمًا ينتظر التوقيت الصحيح.

تناوَلا طعام الغداء صامتين، ثم ذهبت ثانية إلى المطبخ لترتبه، وتركته جالسًا في ركن الأريكة محدقًا إلى الفراغ أمامه.

وعندما عادت بعد نصف ساعة، كان لا يزال يجلس في موضعه. لكنها لم تَعُد تود أن تنتظر مزيدًا من الوقت حتى يقرر، فصمته ونفاد صبرها جعلاها في غاية التوتُّر، إذ بوسعه أن يظلَّ جالسًا هكذا حتى الرابعة، بل وإلى موعد العشاء! لم تعد تتحمَّل مواصلة الانتظار!

- والآن يا أُوتُّو، ما الأمر؟ لن تخلد إلى القيلولة مثل كل أحد؟

- اليوم ليس مثل كل أحد. ثم إن كل أحد انقضى إلى الأبد.

نهض فجأةً وخرج من الغرفة.

لكنها لم تكن مهيَّأة اليوم أن تدعه يواصل الهرب إلى أحد ممراته السرية التي لم تعرف قطُّ أي شيئ عنها.

- لا يا أُوتُّو! (شرعت تقول)

وقف عند باب البيت الذي كان قد فتح سلسلته للتو، رفع يده ليطلب السكوت وتنصَّت خارجًا في البيت. ثم أومأ وهو يمرُّ من جوارها وعاد إلى الحجرة. وعندما عادت إليه اتخذ موضعه من الأريكة مرة أخرى فجلست إلى جواره.

- عندما يدق الجرس يا آنَّا.. لا تفتحي الباب قبل أن أ...
- من سيدقُّ يا أُوتُّو؟ (سألت بنفاد صبر)
من سيأتي إلينا؟ والآن قُل ما تودُّ قوله!
- سأخبركِ يا آنَّا.. (ردَّ بلطف غير معتاد)
ولكن عندما تدفعينني إلى البوح تُصَعِّبين الأمر عليَّ.

لمست يده بسرعة، يدَ هذا الرجل الذي يصعب عليه البوح بالشيء الذي يعتمل في داخله أيًّا ما كان هذا الشيء.

- لن أضغط عليك يا أُوتُّو.. (قالت بنبرات مُهدِّئة)
خذ وقتك!

لكن بعد ذلك مباشرة بدأ في الكلام، والآن تحدث خمس دقائق متواصلة، بجمل بطيئة مقتضبة، فكر فيها مليًّا، وكلما أنهى جملة أغلق شفتيه الدقيقتين، كأن مزيدًا من الكلام لن يخرج. وفيما هو يتحدَّث بهذه الطريقة كان يوجِّه بصره نحو شيء موضوع على الجانب وراء آنَّا.

غير أن آنَّا جْفَانْجِل كانت تركِّز عينيها -فيما هو يتحدَّث- على وجهه بثبات، وكانت تشعر نحوه بما يشبه الامتنان لأنه لم يكن يحدق إليها، إذ إن الإحباط الذي بدأ يُحكم قبضته عليها كبير لدرجة أنها لن تقدر أن تخفيه. يا إلهي ما هذا الذي تفتَّقَ عنه ذهن هذا الرجل! لقد فكرت في أعمال عظمى (وتخشاها)، فكرت في هجوم على الزعيم، أو على الأقل في كفاح فعَّال ضد الفاسدين والحزب.

وماذا أراد أن يفعل؟ ولا أي شيء، شيء ضئيل مضحك، شيء يليق بطريقته في الحياة، شيء صامت، نافر، يحفظ عليه هدوءه. أراد أن يكتب البطاقات، بطاقات تحوي هتافات مضادة للزعيم وللحزب، وللحرب، من أجل تنوير الناس، هذا كل ما في الأمر. وهذه البطاقات لم ينتوِ إرسالها إلى أناس بعينهم أو أن يعلِّقها على الجدران مثل الملصقات. كلا، بل أراد أن يضعها على سلالم العمارات التي يكثر تردُّد الناس عليها ويتركها لمصيرها، بدون تحديد من يستقبلها، أو من يدوس عليها فورًا، أو يمزقها... كل ذرة فيها استنكرت هذه الحرب المخفيَّة الخالية من المخاطر. أرادت أن تكون فاعلة، لا بد من فعل شيء يستطيع الإنسان أن يرى أثرًا له!

غير أن جْفَانْجِل بعد أن أنهى كلامه، لم يَبدُ عليه أنه ينتظر أي ردٍّ من زوجته التي ظلت جالسة في ركن الأريكة تصارع نفسها. أليس من الأفضل أن تقول له شيئًا؟

نهض ثم عاد إلى التنصُّت عند الباب. وعندما عاد، سحب مرة أخرى المفرش عن الطاولة، وطواه، ثم علقه بعناية على ظهر الكرسي. بعدها توجه إلى المكتب الماهوجني، بحث عن ميدالية المفاتيح في جيبه وأخرجها ثم فتح الأدراج.

وفيما لا يزال يفتش في الخزانة، حسمت آنًا أمرها. قالت مترددة:

- أليس هذا قليلًا نوعًا ما، ذلك الأمر الذي تعتزم القيام به يا أُوتُّو؟

توقف قليلًا عن التفتيش في محتويات الأدراج وهو لا يزال مُكبًّا عليها، أدار رأسه نحو زوجته:

- قليل أو كثير يا آنَّا.. عندما يمسكون بنا ستكون رؤوسنا هي المقابل.

بدت كلماته مُقنِعة لدرجة مرعبة، والنظرة التي تشبه نظرة الطائر التي حدجها بها، نظرته القاتمة التي لا قرار لها، جعلتها تنكمش من الرُّهْب. ولوهلة رأت أمامها حوش السجن الرمادي ذا الأرضية الحجرية، والمقصلة منتصبة يتلاشى لمعان حديدها في غبشة الفجر. بدت الصورة مثل وعيد صامت.

شعرت آنَّا أنها ترتجف. ثم نظرت متعجِّلة نحو أُوتُّو ثانية. ربما عنده حق، سواء كان الفعل بسيطًا أو كبيرًا، لا أحد يستطيع أن يخاطر بأغلى من حياته. كل واحد بحسب قوته وتأهيله. أما مربط الفرس فيتمثَّل في المقاومة.

ظلَّ جْفَانْجِل ينظر إليها صامتًا، كأنَّه يراقب الصراع الذي يعتمل داخلها. والآن أصبحت نظرته أكثر إشراقًا، أخرج يده من المكتب، اعتدل وقال بنبرة تكاد تكون ضاحكة:

- لكنهم لن يمسكوا بنا هكذا بسهولة! إن كانوا ماكرين، فنحن أيضًا بوسعنا أن نكون ماكرين. ماكرين وحذرين. حذرين يا آنَّا، دائمًا على خطر، كلما طال أمد صراعنا، صار تأثيرنا بليغًا. لن ينفعنا بشيء أن نموت مبكرًا. نريد أن نعيش، وأن نعايش سقوطهم. نريد يا آنَّا أن يكون في وسعنا القول إننا قد ساهمنا!

نطق تلك الكلمات بخِفَّة تقارب الفكاهة.

الآن، وفيما هو يعبث مجدَّدًا بمحتويات الأدراج، أسندت آنا ظهرها ثانية إلى الأريكة وقد بدا عليها الارتياح. لقد أزيح عبءٌ ثقيل عن كاهلها، وصارت مقتنعة أن ما يعتزم أُوتُّو فعله هو أمر كبير.

حمل زجاجة الحبر الصغيرة، والبطاقات البريدية الموجودة في ظرف، والقفازات البيضاء الضخمة إلى الطاولة. نزع الفلين عن الزجاجة، سخَّن الريشة بواسطة عود ثقاب ثم وضعها في الحبر. طقطقت بصوت خفيض، نظر إلى الريشة بانتباه وهز رأسه. ارتدى القفازات بعد عناء، وأخذ بطاقة من الظرف ووضعها أمامه. أومأ إلى آنَّا ببطء، كانت قد تابعت كل تلك الخطوات التحضيرية الوئيدة بعينين منتبهتين. أشار إلى القفازات قائلًا:

- من أجل البصمات. تفهمين!

ثم أخذ الريشة بيده وقال بصوت خفيض، لكن بإصرار:

- الجملة الأولى على بطاقتنا الأولى هي «أماه! قتل الزعيم ابني».

ومرة أخرى ضربتها قشعريرة الرهبة. شيء مشؤوم، وقاتم، وحاسم في تلك الكلمات التي تلفَّظ بها أُوتُّو لتوِّه. أدركت في لحظة أنه بهذه الجملة الأولى قد أعلن الحرب اليوم وإلى الأبد، كما أنها فهمت على نحو غامض معنى ذلك، حرب بينهما هما الاثنين، العاملَيْنِ الفقيرَيْنِ البسيطَيْنِ اللذين بلا أي حيثية، اللذين بسبب كلمة واحدة يمكن أن يفقدا حياتهما من جانب، أما الجانب الآخر فيقف عليه الزعيم والحزب، ذاك الجهاز الهائل بكل سلطاته وبريقه، ويقف وراءه ثلاثة أرباع أو ربما أربعة أخماس الشعب الألماني. وهما وحدهما هنا في هذه الغرفة الصغيرة في شارع يابْلونْسْكِي، وحدهما!

نظرت نحو الرجل. فيما فكرت هي في كل ذلك كان هو قد وصل إلى الكلمة الثالثة من الجملة الأولى. بصبر لا ينتهي يكتب الزاي في كلمة زعيم.

- دعني أنا أكتب يا أُوتُّو! (رَجَتْه)

سأكتب أسرع!

في البداية زمجر فقط، لكنه بعد ذلك أعطاها تفسيرًا:

- خَطُّكِ؛ سيمسكون بنا عاجلًا أو آجلًا بسبب خطِّكِ. أما هذا فخط مصطنع، حروف مكتوبة داخل القالب كما ترين، كأنها كتابة مطبعية.

صمت مجدَّدًا، وواصل الكتابة. نعم لقد تدبر الأمر على ذلك النحو، لا يظن أنه نسي أي شيء. هذا الخط المصطنع يعرفه من الرسومات على الأثاث للمصممين الداخليين، لا يمكن لأحد أن يعرف الكاتب من خلال الخط. طبيعي أن خطها سيكون كبيرًا وأخرق مقارنة بخط أُوتُّو. لكن هذا لا يضير في شيء، لن يشي به. بل إن هذا أفضل، وهكذا ستكتسب البطاقة بعض صفات الملصق، وستشدُّ البصر نحوها على الفور. واصل أُوتُّو الكتابة صبورًا.

وهي أيضًا صارت صبورة. بدأت تفكر في الأمر، وأن هذه حرب طويلة. ثمة هدوء داخلها، لقد فكر أُوتُّو في كل شيء، يمكن الوثوق في أُوتُّو، دائمًا وأبدًا. يا للطريقة التي دبَّر بها الأمور! الفضل في كتابة البطاقة الأولى في هذه الحرب يعود إلى ابنها الشهيد، فهي تتحدَّث عنه. ذات مرة كان لهم ابن، قتله الزعيم، والآن يكتبون

البطاقات. فصل جديد من الحياة. خارجيًا لم يتغيَّر شيء. الهدوء يلف آل جْفَانْجِل. أما داخليًا فكل شيء تبدَّل تمامًا، ثمة حرب.

أمسكت سلة الخياطة وبدأت في حشو الجوارب، من آن إلى آخر تنظر نحو أُوتُّو الذي يرسم حروفه بتؤدة بدون أن يسرع إيقاعه. تقريبًا بعد كل حرف يمسك البطاقة على طول ذراعه ويتأمَّلها بعينين مزمومتين.

وأخيرًا أراها هذه الجملة الأولى الجاهزة، لقد استنفد سطورًا كبيرة من البطاقة.

قالت: لن تتمكَّن من كتابة كثير على بطاقة كهذه!

أجاب: الأمر سواء تمامًا! لا زلت سأكتب مزيدًا من تلك البطاقات!

- بطاقة كهذه تستغرق وقتا طويلًا.

- سوف أكتب واحدة، ولاحقًا ربما اثنتين في يوم الأحد. الحرب لم تنته بعد، والقتل لا يزال مستمرًّا.

لا يمكن زعزعته. لقد اتخذ قراره، وسيتصرَّف بناء على هذا القرار. لا شيء يمكن أن يغير مساره، ولا أحد يمكن أن يجبر أُوتُّو جْفَانْجِل على التوقف.

قال:

- الجملة الثانية «أماه! سيقتل الزعيم أبنائك أيضًا»، لن يتوقَّف حتى لو أدخل الحزن إلى كل منزل في هذا العالم...

- «أماه! سيقتل الزعيم أبنائك أيضًا»! (كرَّرَت)

أومأت وقالت:

- هذه أكتبُها! (فكرت وأضافت)

علينا أن نضع هذه البطاقة في مكان تتوافد عليه النساء!

فكر في كلامها، ثم هز رأسه:

- كلا. فالواحد لا يستطيع أن يتوقع أبدًا رد فعل النساء حين يصيبهن الذعر. أما الرجل فسيدس بطاقة مثل هذه في جيبه على السلم. لاحقًا سيقرؤها بإمعان. علاوة على ذلك، كل الرجال هم أبناء أمهات.

عاد إلى صمته ثانية، وشرع في الكتابة مجدَّدًا. انقضت فترة ما بعد الظهيرة ولم يفكِّرا في وجبة العصر. وأخيرًا حلَّ المساء، وصارت البطاقة جاهزة. نهض وتأملها ثانية.

- هكذا! (قال)

وبهذا نكون قد فرغنا. الأحد القادم نكتب الثانية.

تومئ.

- متى تحملها بعيدًا؟ (تهمس)

ينظر إليها:

- غدًا ضحًى.

توسلت إليه:

- خذني معك في تلك المرة الأولى!

- كلا. المرة الأولى خاصةً لا؛ عليَّ أن أرى أولًا كيف سيجري الأمر.

- إنها بطاقتي! إنها بطاقة الأم! (ترجوه)

- حسنًا! تعالَيْ معي. لكن فقط حتى باب البناية، سأدخلها بمفردي.

- اتفقنا.

ثم دُسَّتْ البطاقة بعناية داخل كتاب، ووضعت أدوات الكتابة في مكانها، وكذلك القفازات.

تناولا طعام العشاء، وهما لا يكادان يتحدَّثان. لكنهما لا يلاحظان مطلقًا أنهما صامتان، حتى آنَّا لا تلاحظ ذلك. كلاهما متعب، كأنهما قد أنهيا عملًا ثقيلًا أو كأنهما عائدان من سفر طويل.

قال وهو ينهض مبتعدًا عن الطعام:

- سأخلد مباشرة إلى النوم.

- سأُنهي فقط عمل المطبخ ثم ألحق بك. يعلم الله كم أنا متعبة، رغم أننا لم نفعل شيئًا بعدُ!

نظر إليها بنصف ابتسامة ثم توجَّه إلى غرفة النوم وبدأ في خلع ملابسه.

لكن وكلاهما راقد في الظلام لم يتمكَّنا من النوم؛ تقلَّبَا يمينًا ويسارًا، استمع كل منهما إلى صوت تنفُّس الآخر، وأخيرًا بَدَآ يتحدَّثان. بدا الكلام في الظلام أيسر.

- ما رأيكَ؟ (تسأل آنَّا)

ما الذي سيحدث لبطاقاتنا؟

- سيصاب الجميع بالذعر أولًا حينما يرون البطاقات ملقاة ويبدؤون في قراءة الكلمات الأولى. فكل الناس خائفون هذه الأيام.

- أجل. كل الناس...

لكنها تستثنيهما، «جْفَانْجِل. معظم الناس خائفون» تفكر.. «لكن ليس نحن».

- أولئك الذين سيجدونها.. (يكرر مئات المرات بعد تفكير)

سيخافون أنهم لاحظوا وجودها على السلم. سيدسون البطاقة بسرعة ويهربون. أو سيتركونها في مكانها ويسيطرون على انفعالهم، ثم يأتي الشخص التالي...

- هكذا سيكون الأمر!

قالت آنا فيما ترى السلم أمام عينيها، سلم أي عمارة في برلين، غير جيد الإضاءة، وكل من يمسك هذه البطاقة في يدِه، يشعر فجأةً كأنَّه تحول إلى مجرم. لأنه -واقعيًا- كل واحد يفكِر بنفس طريقة كاتب البطاقات، ولا ينبغي له أن يفكِر هكذا لأن الموت مقترن بهذه الطريقة من التفكير.

- بعضهم.. (يكمل جْفَانْجِل)

سيُبلِغ فورًا عن البطاقة لدى حارس العقار أو الشرطة، فقط ليتخلَّص منها بسرعة! لكن حتى هذا أيضًا لن يساوي شيئًا، سواء في الحزب أو خلافه، سواء لدى قائد سياسي أو الشرطة، كلهم سيقرؤون البطاقة، وسوف تؤثر فيهم. حتى لو أن هذا التأثير هو مجرد أن يعرفوا لمرة إضافية أن ثمة معارضة، ليس الجميع يتبع هذا الزعيم!

- لا. ليس الجميع؛ نحن لسنا معه.

- وسنزيد يا آنَّا، من خلالنا سيزيد العدد. ربما نُلهِم الآخرين بفكرة أن يكتبوا مثل تلك البطاقات كما أفعل الآن. وفي النهاية سيجلس العشرات أو المئات ويكتبون. سنُغرق برلين بهذه البطاقات. سوف نعيق دوران المَكِنَات، وسنُسقط الزعيم، وننهي الحرب...

توقف متأثرًا بكلماته، وبتلك الأحلام التي تزور قلبه البارد في توقيت متأخر.

تقول آنَّا جْفَانْجِل وهي سعيدة بهذه الرؤية:

- سنكون الرواد. لن يعرف أحد شيئًا عن ذلك. لكننا سنعلم.

قال فجأةً بيقظة:

- ربما يفكِّر كثيرون بالفعل مثلنا. لقد سقط في الحرب آلاف الرجال. ربما كاتبو البطاقات موجودون فعلًا. لكن كله سواء يا آنَّا. ما شأننا بذلك؟ نحن سنفعل ما نحن مقدمون عليه!

- أجل.

يقول مرة أخرى مأخوذًا بتأثيرات الفعل الذي سيشرعان فيه:

- وسنحرِّك الأمور لدى الشرطة، والجيستابو، والشرطة العسكرية، وفرقة العصف. في كل مكان سيدور الحديث عن كاتب البطاقات الغامض، سيقومون بحملات تفتيش، ومراقبة المتهمين، واقتحام بيوت.. لكن سدى! سنواصل الكتابة، دائمًا سنواصل الكتابة!

- ربما سيضعون تلك البطاقات أمام الزعيم نفسه. وهو بنفسه سيقرأ أننا نشكوه! سيثور! فهو دائمًا ثائر وصارخ عندما لا يسير أمر ما وفق إرادته. سيأمر بالعثور علينا، ولن يجدونا! وسيتعيَّن عليه أن يواصل قراءة شكوانا!

يصمتان وكلاهما مغمور بتلك الرؤى. ماذا كانا حتى تلك اللحظة؟ كِيانين مجهولين، يدوِّمان مع الدوامة القاتمة. أما الآن فهما وحيدان تمامًا، منفصلان، يسموان فوق الآخرين ولا يريدان تبديل أدوارهما معهم. برودة جليدية تحيط بهما. إلى هذا الحد هما وحيدان.

أما جْفَانْجِل فرأى نفسه واقفًا في الورشة، مثل حاله دومًا، يفعل نفس الفعل، قائِدٌ ومَقُوْد، رأسه يقظ، يدور منتقلًا من مَكِنَة إلى أخرى. بالنسبة إلى هؤلاء سيظلُّ هو دائمًا جْفَانْجِل الأخرق العجوز، الذي لا يعنيه شيء سوى عمله وتقتيره القذر. غير أن رأسه يحوي أفكارًا لا يملكها أي واحد منهم. كل واحد منهم كان ليموت من الرعب لو أنه يملك مثل تلك الأفكار. لكنه.. هو ذلك العجوز الثقيل جْفَانْجِل، لديه تلك الأفكار. إنه يقف أمامهم ويخدعهم جميعًا.

تفكر آنًا جْفَانْجِل الآن في الطريق الذي سيسيران فيه غدًا صباحًا من أجل وضع البطاقة الأولى. ليست راضية عن نفسها على نحو ما لأنها لم تُصِرَّ على أن تصحب جْفَانْجِل إلى داخل البناية. تفكر إن كان من الأفضل أن ترجوه مرة أخرى، لربما.. «لا يغير أُوتُّو جْفَانْجِل رأيه بسبب الرجاء، لكن ربما يفعل اليوم مساءً، خاصَّة أنه يبدو في حالة مزاجية رائقة. ربما أسأله فورًا الآن!».

لكنها استغرقت كثيرًا من الوقت إلى أن حسمت أمرها، ولاحظت أنه خلد إلى النوم بالفعل. وبذلك فالأفضل أن تدخل هي أيضًا في النوم، ولِتَرَ إن كان الموضوع ملائمًا طرحه في الصباح. إن كان كذلك فستسأله بالتأكيد.

وبعدها خلدت هي أيضًا إلى النوم.

18

لقد وضعت البطاقة الأولى

لم تجرؤ أن تحدثه عن ذلك إلا في الشارع، رغم كلامه المقتضب في ذلك الصباح.

- أين تريد أن تضع البطاقة يا أُوتُّو؟

أجاب ممتعضًا:

- لا تتحدَّثي عن ذلك. ليس الآن ونحن في الشارع.

ثم أكمل رغم اعتراضه:

- لقد اخترتُ عمارة في شارع جرايفسفالدر.

- لا (تقول بحسم)

لا، لا تفعلها يا أُوتُّو. هذا خطأٌ ما تعتزم أن تفعله هناك!

- تعالي! (يقول غاضبًا لأنها ظلت واقفة)

لقد قلتِ لك سلفًا، ليس هنا في الشارع!

يواصل المشي، تتبعه وتصر على حقها في الكلام:

- ليس قريبًا هكذا من شقتنا؛ إن كُشف الأمر فسنكون فقط على مبعدة مرمى حجر منهم. دعنا نذهب إلى أليكس.

فكَّر وتدبَّر. «ربما، لا، بالتأكيد لديها حق. علينا أن نحسب حساب كل شيء». ورغم ذلك، هذا التحول المفاجئ في خططه لا

يناسبه حقًّا. إن كانا سيمضيان الآن حتى أليكس، فسيكون الوقت ضيقًا للغاية، وعليه أن يصل إلى عمله في الموعد. كما أنه لا يعلم بوجود عمارة مناسبة في أليكس. بالتأكيد هناك عمارات كثيرة، لكن عليه أن يبحث أولًا عن واحدة مناسبة. ثم إنه يفضل أن ينفذ الأمر منفردًا على أن تصاحبه زوجته التي تزعجه.

بعدها، وعلى نحو مفاجئ تمامًا، حسم أمره:

- حسنًا. لديكِ حق يا آنًّا؛ فلنذهب إلى أليكس.

تنظر إليه بجانب عينها نظرة امتنان، إنها سعيدة لأنه تقبَّل مرة اقتراحًا من طرفها. ولأنه أسعدها للتو، تريد أن ترجوه في المسألة الأخرى، أن يسمح لها بالدخول معه إلى البناية. والآن حسنٌ، إن دخل بمفرده فستشعر ببعض الخوف في فترة انتظاره. لكن لم حقًّا؟ إنها لا تشكُّ ولو للحظة، في أنه سيعود. إنه هادئ جدًّا، وبارد جدًّا، ولا يسمح لأحد أن يأخذه على حين غرة. حتى لو سقط في أيديهم فلن يشي بشيء، وسيصارع من أجل حريته.

وفيما هي تفكر في أثناء مشيها إلى جوار الرجل الصموت، وصلا من شارع جرافسفالدر إلى نويكونيج شتراسِه. كانت غارقة في أفكارها إلى درجة لم تلحظ كيف أن عينَيْ أُوتُّو جْفَانْجِل المنتبهتين تمسحان البيوت. ثم وقف فجأةً؛ ثمة مسافة عليهم قطعها إلى ميدان أليكساندر. يقول:

- هاك، انظري إلى واجهات الدكاكين، سأعود في الحال.

وسرعان ما قطع طريق التِّرام متوجِّهًا نحو مبنى إداري كبير ومضيء.

بدأ قلبها يخفق بقوة. أرادت أن تناديه: «لا، ليس هنا، لقد اتفقنا على أليكس. دعنا نَبقى معًا فترة أطول! وعلى الأقل ودعني!»، لكن الباب انغلق وراءه بالفعل.

أطلقت تنهيدة ثقيلة ثم علقت بصرها بواجهات الدكاكين. لكنها لم تر شيئًا من المعروضات. أسندت جبهتها إلى الزجاج البارد، كل شيء يتغبش أمام عينيها. يخفق قلبها بقوة، لدرجة أنها صارت تتنفس بصعوبة، وبدا أن كل الدماء التي يحويها جسدها تتدفق نحو رأسها.

«أنا خائفة بالفعل»، فكَّرَتْ. «بحق الله لا ينبغي أن يلاحظ عليّ ذلك، لا ينبغي أن يرى أنني خائفة. وإلا فلن يصحبني معه ثانية أبدًا. لكن ما أستشعره ليس خوفًا حقيقيًّا»، تواصل التفكير «لست أخاف على نفسي، أنا خائفة عليه. ماذا لو أنه لم يعد!».

لا تستطيع أن تدع الأمر، عليها أن تستدير متوجِّهة نحو المبنى الإداري. فُتح الباب، الناس يدخلون ويخرجون؛ لماذا لا يأتي جْفَانْجِل؟ لا بد أنه قضى هنالك خمس، لا، بل عشر دقائق. لماذا يركض الرجل الذي خرج للتو من المبنى بهذه الطريقة؟ هل من الممكن أنه سيبلغ الشرطة؟ هل أمسكوا بجْفَانْجِل هكذا من المرة الأولى؟

«أوه، أنا لا أتحمَّل ذلك! ماذا يعتزم؟ وأنا التي ظننت أنه أمر بسيط! كل أسبوع مرة، وعندما يكتب بطاقتين في الأسبوع فسيعرض حياته للخطر مرتين أسبوعيًّا! ولن يريد أن يصحبني دائمًا! لقد لاحظت ذلك اليومَ مبكرًا، حقيقةً إن مجيئي معه لم يَرُقْه. سيذهب وحده،

سيكتب البطاقات ويضعها وحده، ومن هناك سينطلق إلى المصنع (أو ربما لن يعود ثانية أبدًا إلى المصنع!)، وأنا سأظل جالسة في البيت، وأنتظر عودته بخوف. أشعر أن هذا الخوف لن يتوقَّف أبدًا، ولن أعتاده أبدًا. ها هو ذا أُوتُّو قادم! أخيرًا! لا، ليس هو. ليس هو! سأذهب الآن كي أتعقَّبه، مهما أغضبه ذلك! لابد أن شيئًا قد حدث، لا بد أن ربع ساعة قد انقضت، لا يمكن لأمر كهذا أن يستغرق أبدًا أبدًا كل ذلك الوقت! سأبحث عنه الآن!».

خطت ثلاث خطوات نحو المبنى، ثم عادت أدراجها. وقفت أمام الواجهة الزجاجية تحدق إليها.

«لا، لن أتعقبه، لن أبحث عنه. لا ينبغي أن أفشل كل هذا الفشل من المرة الأولى. إنني أتخيل فقط أن أمرًا سيِّئا قد وقع؛ إنهم يدخلون ويخرجون من المبنى كما هي عادتهم. وبالتأكيد فإن ربع ساعة لم تنقض على ذهاب أُوتُّو بعد. فلأنظر الآن ما الموجود في هذه الواجهة. صدرية، حزام...».

في تلك الأثناء كان جْفَانْجِل قد دخل إلى المبنى الإداري، لقد قرَّر أن يتعجَّل في الدخول بسبب السيدة التي إلى جانبه، لقد سبَّبت له توترًا. كل دقيقة تبدأ في الحديث عن «الأمر». في حضورها لن يمكنه أن يبحث طويلًا. بالتأكيد ستشرع في الحديث مجدَّدًا عن الأمر. تقترح مبنى، ترفض آخر. لا، لا مزيد من الكلام عن الأمر. الأفضل إذًا أن يدخل إلى أول مبنى مناسب، حتى لو أنه أول وأسوأ واحد.

telegram @yasmeenbook

كان أول وأسوأ مبنى، كان مبنى مضيئًا حديثًا، به عديد من الشركات، لكنْ أيضًا ثمة حارس يرتدي بزة رمادية. عبر جْفَانْجِل بلا اكتراث من جواره، إنه مصمم أن يسأل عن وجهته، لقد لاحظ أن المحامي تُوْلْ له مكتب في الطابق الرابع. لكن الحارس لم يسأله عن أي شيء، بل يتحدَّث مع رجل ما. فقط نظر إلى ذلك العابر نظرة لا مكترثة خاطفة. توجَّه جْفَانْجِل يسارًا، واعتزم أن يصعد السلالم، عندها سمع صرير مصعد. هذا أمر إضافي لم يحسب حسابه، أن يوجد مصعد في مبنى حديث مثل هذا سيجعل استخدام السلالم نادرًا.

لكن جْفَانْجِل واصل صعود السلم. سيفكِر الشاب الذي في المصعد «هذا رجل عجوز لا يثق بالمصعد». أو سيفكِر، أنه يريد فقط أن يصعد إلى الطابق الأول. أو لعله لن يفكِّر في شيء مطلقًا. في كل الأحوال هذه السلالم لا تكاد تستعمل. لقد وصل بالفعل إلى الطابق الثاني، ولم يصادفه حتى الآن إلا ساعٍ في أحد المكاتب، نزل متعجلًا وهو يحمل مجموعة من الخطاباتٍ في يده. لم ير جْفَانْجِل أصلًا. يستطيع أن يضع بطاقته هنا في أي مكان، لكنه لا ينسى أن هذا المصعد موجود ويمكن لأي أحد أن يراه عبر زجاجه.

عليه أن يواصل الصعود، وعندما يهبط المصعد عميقًا سيفعلها.

بقي إلى جوار إحدى النوافذ العالية بين طابقين محدقًا إلى الشارع بالأسفل. وفي أثناء ذلك سحب - وهو آمن من أي نظرات- القفاز من جيبه وأدخل يده اليمنى فيه. ثم وضعها مجدَّدًا في جيبه، وبحذر زلقها فوق البطاقة الكائنة هناك أيضًا كي لا يثنيها. أمسكها بإصبعين...

وفيما أُوتُّو جْفَانْجِل يفعل كل ذلك، كان قد رأى آنَّا قد تركت مكانها إلى جوار الواجهات ووقفت على حافة مسار التِّرام ناظرة بوجه شاحب نحو المبنى الإداري. ورغم أنه على ارتفاع كبير لكنه يرى أنها لا ترفع بصرها، بل على الأرجح تراقب الأبواب في الطابق الأرضي. يهز رأسه محبَطًا، ولقد عقد عزمه، ألا يصحب هذه السيدة ثانية أبدًا في طريق كهذا. بالطبع هي خائفة عليه. لكن لماذا هي خائفة عليه؟ عليها أن تخاف على نفسها، فالطريقة التي تتصرَّف بها خاطئة تمامًا. فهي بذلك تعرض كليهما للخطر!

واصل صعود السلم، وعندما مر على النافذة التالية، نظر مرة أخرى نحو الشارع، لكنه رأى آنَّا تطالع مرة أخرى الواجهات. جيد، جيد جدًّا، لقد سيطرت على خوفها. إنها امرأة شجاعة. لن يحدِّثها أبدًا عن ذلك. وفجأةً أخذ جْفَانْجِل البطاقة، ووضعها بحذر على قاعدة النافذة، ومزق القفاز عن يده في أثناء ذهابه ثم دسه في الجيب.

وفي أثناء نزوله أول الدرجات عاد ونظر وراءه. ها هي ذي موضوعة في ضوء النهار الغامرِ، مِن هنا يستطيع أن يرى كم أن خطه عليها كبير وواضح! سيتمكن أي أحد من قراءتها! ومن فهمها كذلك! ابتسم جْفَانْجِل بحزن.

في الوقت نفسه سمع أيضًا بابًا انفتح في الطابق من فوقه، المصعد هبط إلي الأسفل قبل دقيقة. إن شعر ذلك الذي غادر أحد المكاتب للتوِّ بالملل، فسيضطر إلى انتظار عودة صعود المصعد، سيجد البطاقة إن تعيِن عليه النزول (جْفَانْجِل لم ينزل إلا درجة). إن ركض الرجل سيتمكن من الإمساك به، ربما لن يقدر على ذلك إلا في الطابق

الأرضي، لكنه سيستطيع أن يلحق به لأن جْفَانْجِل ليس مسموحًا له بالركض. رجل عجوز يهبط السلم جريًا مثل تلميذ بالمدرسة، لا، سيلفت هذا النظر. وهو لا ينبغي أن يلفت الأنظار، لا ينبغي أن يتذكَّر أحدٌ رجلًا كان يبدو كذا وكذا شوهد في هذا المبنى، مطلقًا.

يواصل هبوط تلك الدرجات الحجرية متعجلًا بقدرٍ ما، وبين الضوضاء التي تصنعها خطواته ينصت في الأعلى، إن كان الرجل حقًّا قد استعمل السلم. لا بد إذًا أنه قد رأى البطاقة، فهي موضوعة في مكان يصعب ألا يلاحظها فيه أحد. لكن جْفَانْجِل غير متيقن من أمره، يعتقد أنه سمع خطوات. لكنه الآنَ لا يسمع شيئًا على الإطلاق. والآن قد وصل إلى أسفل ولن تتمكَّن أذناه من التقاط شيء. أما المصعد فيتحرَّك بضوئه نحو الأعلى.

توجه جْفَانْجِل نحو المخرج، في الوقت الذي دخلت فيه مجموعة من البشر إلى الحوش، إنهم عمال مصنع ما، اندفع جْفَانْجِل بينهم. هذه المرة هو واثق تمامًا، بأن الحارس لم يره مطلقًا. عَبَرَ خطوط التِّرام ووقف إلى جوار آنا. قال:

- تم!

وحينما رأى إشراق عينيها، وارتجافة شفتيها، أكمل:

- لم يَرَنِ أحد! تعالَيْ، فلنذهبْ. لديَّ وقت؛ أستطيع أن أذهب إلى المصنع سيرًا على الأقدام.

يمضيان. لكنَّ كلًّا منهما يلقي نظرة على المبنى الإداري الذي ستتخذ منه بطاقتهم الأولى طريقها إلى العالم. أومَآ إلى البناية كأنهما يودعانها على نحو ما. إنها بناية جيدة، ومهما عثرا على بنايات

كثيرة في الشهور والسنوات التالية لذات القصد، فإنهما لن ينسيا هذه البناية.

آنا جْفَانْجِل تريد لو أنها تمسك يد زوجها لكنها لا تجرؤ. ولذا فهي تصطدم بها مصادفة وتقول مذعورة:

- معذرة يا أُوتُّو!

ينظر إليها بجانب عينه متعجِّبًا، لكنه يصمت.

يواصلان طريقهما.

مكتبة ياسمين
telegram @
yasmeenbook

الجزء الثاني

الجيستابو

19

طريق البطاقات

يحب المحامي تُوْلْ أن يعبِّر قائلًا إن صديقه الممثل مَاكْس هَارْتْأيزِن، يحمل رأسًا يشبه خزانة أسرار يخشى افتضاحها تعود إلى ما قبل الحقبة النازية. فهو قد شارك بالتمثيل في أفلام مع مخرجين يهود، ولعب أدوارًا في الأفلام التي تدعو إلى السلام، وأحد أدواره على المسرح لعب فيها شخصيَّة ذلك الضعيف الملعون الأمير فون هومبورج، الذي لا يملك أي نازي حقيقي إلا أن يحتقره. إن مَاكْس هَارْتْأيزِن لديه إذًا ما يكفي من أسباب كي يبقى في غاية الحذر. ولمدة طويلة ظلَّ من غير المؤكد أن يسمح له السادة أصحاب البِزَّات البنية بمواصلة التمثيل، لكنه نجح في النهاية. وبطبيعة الحال تعيَّن على الشاب الطيب أن يتدرب على ممارسة بعض التحفظ، وأن يترك الصدارة للممثلين المنتمين إلى الحزب البُني حتى لو لم يكونوا موهوبين مثله. لكن حتى مع هذا التحفظ، لم يعلم الفتى ما الذي لفت أنظار الوزير جُوبِلْز إلى الطريقة التي يمثل بها، بل إن الوزير أُغرم بالفتى هَارْتْأيزِن. وكل طفل يعلم تبعات ميول الوزير جُوبِلْز، لأنه لم يوجد إنسان أكثر مزاجية أو يأتي بأفعال غير محسوبة مثل الوزير الدكتور يوزف جُوبِلْز.

في البداية بدا الأمر غرورًا وسعادة وبريقًا، لأن الوزير عندما يوقِّر أحدًا لا يفرِّق بين سيدة ورجل. ومثلما الوضع مع عشيقةٍ، اتصل الدكتور جُوبِلْز كل صباح بالممثل هَارْتْأيزِن، يسأله إن كان نام جيِّدًا، وعامله مثل نجمة أولى، فيرسل إليه الأزهار والحلوى، ولا يمر يومٌ من دون أن يقضي الوزير ولو وقتًا قصيرًا مع هَارْتْأيزِن. أجل، حتى إنه اصطحب الممثل معه إلى نورنبيرج في يوم الحزب، شارحًا له «المعنى الحق» للنازية، وفهم هَارْتْأيزِن كل شيء يتعيَّن عليه أن يفهمه.

لكنه فقط لم يفهم أن النازية الحقيقيَّة تشمل أن رفيقًا عاديًّا من الشعب لا ينبغي عليه أن يعارض الوزير. لأن كونه وزيرًا يجعله أذكى من غيره عشرات المرات. وعند سؤال عادي وبسيط عن أحد الأفلام عارض هَارْتْأيزِن الوزير، بل ادَّعى أن ما قاله السيد جُوبِلْز لتوه هو مجرد هراء محض. ستؤجَّل مسألة إن كان السؤال العابر النظري الذي لم يحمل في طياته أي شيء آخر هو ما أشعل الغضب، أم إنه كان قد اكتفى من التقدير المتصاعد المغالَى فيه الذي يقدمه له الوزير لدرجة جعلته يتمنَّى كسر الرابطة بينهما. ورغم ذلك، ورغم بعض التحذيرات ظلَّ عند رأيه بأن ما قيل هو هراء محض. وسيظل هراء، سواء من وزير أو خلافه.. سيَّان!

أجل، كم تبدل العالم من حول مَاكْس هَارْتْأيزِن! لا سؤالَ صباحيًّا حول جودة نومه، لا شوكولاتة، لا أزهار، ولا زيارات لدى السيد الدكتور جُوبِلْز، وكذلك لا محاضرات حول ماهية النازية الحقَّة! آخ، كان عليه أن يتحمل كل ذلك، بل لعل كل ذلك كان يتمناه، لكن فجأةً لم تعد أدوارٌ تُعرض على هَارْتْأيزِن، حتى الأفلام التي أُبرمت

عقودها حُلَّت، وعروض الاستضافة في أدوار شرفية لم تسفر عن شيء. لم يعد شيء متاحًا أمام الممثل هَارْتْأيزِن.

وبما أن هَارْتْأيزِن لم يكن رجلًا يقدر مهنته فقط بسبب ما تدرُّ عليه من دخل، بل لأنه كان ممثلًا حقيقيًّا تتخذ حياته لحظاتها المُهمة فوق خشبة المسرح وأمام الكاميرا، فلقد سقط في القنوط بسبب هذا التوقف الذي فرض عليه. لم يستطع ولم يُرِدْ أن يصدِّق أن الوزير الذي ظل صديقه المخلص لسنة ونصف قد تحوَّل الآن إلى عدو حقير ومنعدم الضمير يستخدم كل سلطته من أجل إتعاس إنسان آخر بسبب معارضة. (لم يفهم هَارْتْأيزِن الطيب بعدُ رغم أن العام هو 1940، أن كل نازي مستعد في أي وقت -حين يلتقي بأي ألماني له رأي يختلف عن رأيه- ليس فقط لسلبه بهجة الحياة، بل حتى أن يسلبه حياته نفسها).

لكن بما أن الوقت صار ينقضي ومعه تنتهي كل فرصه في العمل، بدأ مَاكْس هَارْتْأيزِن أخيرًا يصدِّق ذلك. أخبره الأصدقاء أن الوزير أوضح في مؤتمر سينمائي أن الزعيم لا يريد أن يرى هذا الممثل في بدلة عسكرية على أي شاشة. وبعد ذلك بقليل انتشر النبأ بأن الزعيم لا يريد أن يرى هذا الممثل مطلقًا، ثم أُعلنَ رسميًّا أن الممثل هَارْتْأيزِن «غير مرغوب فيه». انتهى، يا عزيزي، وُضِع اسمك على القائمة السوداء وأنت ما زلت في السادسة والثلاثين، وستظل كذلك على امتداد عمر الرايخ الذي سيستمر آلاف السنين!

والآن صار للسيد الممثل هَارْتْأيزِن حقًّا ما يُلقي به إلى التهلُكة! لكنه لم يستسلم، ظل ينخر ويسأل، أراد أن يعرف -بأي ثمن- إن كانت

تلك الأحكام القاضية صادرة عن الزعيم نفسه أم أن الرجل القصير هو الذي اخترعها من أجل أن يتخلّص من عدو. وفي يوم الاثنين هذا كان هَارْتْأيزِن واثقًا بانتصاره، ومرَّ على محاميه تُوْلْ وصاح:

- وجدتها! وجدتها يا إيْرفيْن! لقد كذب المنحطّ. الزعيم لم يشاهد مطلقًا الفيلم الذي لعبت فيه دور الضابط البروسي ولم ينطق أي كلمة ضدي.

وأخبره بحماس أن هذا النبأ مؤكد تمامًا، لأن مصدره هو جُورِنْج نفسه. فصديقة زوجته لها عمة، وابنة عمتها قد دعاها جُورِنْج إلى ضيعة كارينهال. «وهناك فتحتُ الموضوع، وقال جُورِنْج ما قلتُ آنفًا».

نظر المحامي إلى الممثل المنفعل بقليل من السخرية:

- حسنًا يا مَاكْس، وأيَّ شيء يغير ذلك؟

غمغم الممثل متفاجئًا:

- لكن هذا الجُوبِلْز قد كذب يا إيْرفيْن!

- ثم ماذا؟ هل تعتقد أن كل ما ينطق به هذا الأعرج كلام حقيقي؟

- لا، بالطبع لا. لكن عندما نفتح الموضوع أمام الزعيم.. لقد أساء استخدام اسم الزعيم!

- أجل، ولأنه فعل ذلك سيطرد الزعيم رفيقًا قديمًا في الحزب فقط لأنه أحزن السيد هَارْتْأيزِن!

نظر الممثل نحو المحامي الساخر الأرفع مكانة مُتوَسِّلا المساعدة:

- لكن لا بد أن يحدث شيء في موضوعي يا إيْرفيْن! أريد أن أعمل! وجُوبِلْز يعيقني عن ذلك بلا أي حق!

- أجل.. أجل.

قال المحامي، وصمت مرة أخرى. لكن لأن هَارْتْأيزِن كان ينظر إليه متلهِّفًا واصل بقوله:

- أنت طفل يا مَاكْس، طفل كبير!

ألقى الممثل الذي كثيرًا ما يتملَّكه الإطناب برأسه إلى الوراء قانطًا.

- نحن هنا يا مَاكْس وحدنا. (واصل المحامي)

هذا الباب عازل جيد، لذلك نستطيع أن نتحدَّث بصراحة. لقد عرفتُ أيضًا -على الأقل بقدر يسير- كيف أن الأحوال في ألمانيا تسير الآن بشكل صارخ ودموي ويحطم القلوب، وليس ثمة من ينعَى ذلك. على العكس، إنهم يفاخرون بعارِهِم. لكن، لأن الممثل هَارْتْأيزِن قد نالت منه قرصة أذن بسيطة.. اكتشف فجأةً أن الظلم يحدث في العالم، فأخذ يصيح مطالبًا بتحقيق العدالة، مَاكْس العزيز!

قال هَارْتْأيزِن محبَطًا:

- لكن ماذا عليَّ أن أفعل إذًا يا إيْرفيْن؟ لا بد أن يحدث شيء!

- ماذا عليك أن تفعل؟ أليس الأمر جليًّا تمامًا الآن؟ تذهب أنت وزوجتك إلى مكان لطيف في الريف وتَركَنُ إلى الهدوء. وأهم شيء أن تتوقَّف عن حديثك العبثي عن «وزيرك» وتتخلى عن نشر النبأ الذي جاءك به جُورِينْج. وإلا فمن الممكن أن يدبر لك الوزير أمرًا آخرَ مختلفًا تمامًا.

- لكن كم من الوقت يتعيَّن عليَّ أن أظلَّ ساكنًا هكذا في الريف ولا أفعل شيئًا؟

- أمزِجَة الوزير تتبدَّل، إنها تذهب أيضًا يا مَاكْس، تيقَّن من ذلك. يومًا ما ستعود إلى البريق والازدهار.

ارتجف الممثل:

- ليس هذا.. فقط ليس هذا.. (نهض)

وأنت ترى حقًّا أنك لا تستطيع أن تفعل شيئًا في موضوعي؟

- ولا حتى أقل القليل! (قال المحامي مبتسمًا)

إلا أن كنت تريد أن تنتهي بك الحال إلى الاستشهاد في معسكر تعذيب لأجل خاطر وزيرك.

بعد ذلك بثلاث دقائق وقف الممثل مَاكْس هَارْتْأيزِن على السلم الخاص بالمبنى الإداري حاملًا بطاقة بين يديه مضطربًا «أماه! قتل الزعيم ابني...».

«بحق السماء!».. فكَّر «أي إنسان يكتب شيئًا كهذا؟ لا بد أنه مجنون. إنه يكتب مخاطرَ برأسه». وتلقائيًّا أدار البطاقة. لكن لم يجد مُرسِلًا أو مُرسَلًا إليه، وإنما «ناوِل البطاقة لغيرك ليقرأها مزيد من الناس! – لا تدفع لمعونة الشتاء! – اعمل ببطء، ثم ببطء أكثر! ذُرَّ الرمال في المَكِنَات! كل يد تعمل أقل تساهم في وقف الحرب أسرع!».

نظر الممثل إلى أعلى، مرَّ المصعد مضيئًا إلى جواره، تولد داخله شعور أن أعينًا عديدة تنظر إليه.

بسرعة دس البطاقة في جيبه، ثم أسرع وأخرجها مرة أخرى. أراد أن يضعها ثانية على قاعدة النافذة، ثم اعترته الهموم -ربما رأوه واقفًا هنا من المصعد والبطاقة في يده- ثم إن وجهه معروف لكثيرين. عثر على البطاقة، سيقسمُ عديدون إنه هو من وضعها. لقد وضعها بالفعل، أعاد وضعها، كما قيل. لكن من سيصدقه، خصوصًا الآن، وهو في حال الخصومة مع الوزير؟ رأسه خزانة أسرار مريبة، ثم تأتي هذه أيضًا!

تفصَّد العرق من جبينه، وفجأةً فهِمَ، ليس كاتب البطاقة، بل هو نفسه معرَّض لخطورة حقيقيَّة على حياته، بل ربما أكثر منه. تردَّدت يده، أراد أن يضع البطاقة، ثم أراد أن يأخذها معه، أراد أن يمزقها الآن وفورًا. لكن ربما ثمة من يقف فوق على السلم ويراقبه! لقد اعتراه في الأيام الأخيرة شعور أنه مراقب عدة مرات، وقد اعتبر ذلك مجرد نتاج للعصبية بسبب خباثة الوزير جُوبِلْز .

وربما كل شيء هو مجرد فخ نصبه له هذا الرجل من أجل أن يمسك به إلى الأبد؟ وليثبت للعالم كله كيف أن رأيَ الوزير صواب في حق الممثل هَارْتْأيزِن؟ يا الله، لقد أصبح مجنونًا بالفعل، وصار يرى الأشباح! هذه أفعال لا يأتي بها وزير! أم هل يفعلها حقًّا؟

لكنه لن يستطيع أن يظلَّ واقفًا هنا إلى الأبد. عليه أن يقرر، لا وقت الآن ليفكِّر في جُوبِلْز، عليه أن يفكِّر في نفسه فقط!

قفز صاعدًا نصف السلالم إلى أعلى، لا أحد يقف هناك لمراقبته. لكنه دقَّ جرس المحامي تُوْلْ، واقتحم المكتب مارًّا بموظفة الاستقبال، ثم ألقى البطاقة على طاولة المحامي وصاح:

- هاك! انظُر ما وجدت توًّا في بئر السلم!

ألقى المحامي نظرة سريعة على البطاقة، ثم نهض وأغلق الباب المزدوج لمكتبه، الذي تركه ذلك المنفعل مفتوحًا. بعدها عاد إلى مكتبه، تناول البطاقة مرة أخرى وقرأها مطوَّلًا وبعناية، فيما هَارْتْأيزِن يروح ويجيء مثبتًا نظراته عليه بنفاد صبر.

والآن ترك البطاقة وسأل: أين تقول إنك وجدتها؟

- هنا على السلم، عدة درجات لأسفل.

- على السلم! على الدرجات يعني؟

- لا تكن دقيقًا هكذا يا إيْرفيْن! لا، ليس على الدرجات، وإنما على قاعدة النافذة!

- وهل تسمح لي بسؤالك، لم كان عليك أن تحمل هذه القطعة الساحرة حتى مكتبي؟

جاء صوت المحامي حادًّا، فقال الممثل راجيًا:

- كيف لي أن أتصرف؟ لقد كانت البطاقة هناك، ولقد أخذتها بدون أي تفكير.

- ولِمَ لَم تعدها إلى مكانها؟ ذلك أكثر شيء طبيعي!

- مر المصعد عليَّ وأنا أقرأها، وشعرت أنني مراقب. وأن وجهي معروف!

- أفضل وأفضل.. (قال المحامي بمرارة)

وبعدها جئتَ إليَّ والبطاقة ظاهرة في يدك؟

أومأ الممثل مغتمًّا.

- لا يا صديقي.. (قال تُوْلْ بحسم وأمسك بالبطاقة أمامه)

من فضلك خذها ثانية. لا أريد أن يكون لي أي شأن بهذه المسألة. ولقد لاحظت جيِّدًا أنك لا تستطيع أن تعتمدَ عليَّ. لم أَرَ هذه البطاقة قط. خذها!

حدق هَارْتْأيزِن إلى صديقه بوجه شاحب:

- أفكرُ.. أنك لست فقط صديقي، بل أنت المحامي الذي يتولَّى أموري!

- أما هذا فلا، أو فلنقل بشكل أدق «ليس بعد اليوم»؛ أنت فأل سيئ، لديك موهبة مذهلة في التورط في أسوأ القصص. وستجر الآخرين معك إلى الهلاك. وعليه، خذ بطاقتك ثانية!

وقدمها له مجدَّدًا.

لكن هَارْتْأيزِن ما زال واقفًا بوجهه الشاحب ويديه مدسوستان في جيوبه.

وبعد صمت طويل قال بصوت منخفض:

- لا أثق بنفسي، لقد شعرت عدة مرات في الأيام السابقة أني مراقَب. أسْدِ إليَّ معروفًا ومزِّقْ البطاقة. ألقِ بها مع باقي الأشياء في سلة مهملاتك!

- خطر جدًّا يا عزيزي! ساعي المكتب أو أي سيدة فضولية يمكن أن تشم خبرًا وأكون أنا المتورط!

- أحرِقها!

- أنت تنسى أن لدينا هنا تدفئة مركزية!

- خذ عود ثقاب وأحرقها في منفضة السجائر. لن يعرف أحد.

- ستعرف أنت.

حدق بعضهما إلى بعض بوجوه شاحبة. لقد كانا صديقين قديمين، معًا في المدرسة، لكن الخوف وقف الآن حائلًا بينهما، ولقد جلب الخوف معه سوء الظن. نظر كل منهما إلى الآخر صامتًا.

«إنه ممثل..» فكَّر المحامي، «ربما لعب عليٌّ هنا دورًا ما ويريد أن يورطني معه. لعله يريد أن يختبر مقدار الثقة التي يمكن أن يوليني إيَّاها. منذ وقت قصير -وبسبب المرافعة المشؤومة أمام محكمة الشعب- نجوتُ بأعجوبة. لكنهم لا يثقون بي من ساعتها...».

«إلى أي حدٍّ يعتبر إيْرفيْن محامِيًا حقًّا؟» فكَّر الممثل في هذه الأثناء مغمومًا، «لم يرغب في مساعدتي في المسألة مع الوزير، والآن يريد أن يدَّعي عكس الحقيقة، بأنه لم يَرَ البطاقة قط. إنه لا يضع مصلحتي في عين اعتباره. إنه يتصرَّف ضدي. من يعرف! لعل هذه البطاقة... في كل مكان نسمع عن فخاخ تنصب للناس. يا للعبث! لقد كان دائمًا صديقًا لي، إنسانًا يمكن الوثوق به».

لكنَّ كُلًّا منهما عاد إلى صوابه، وكلٌّ منهما حدق إلى الآخر، وبدأ كلٌّ منهما يبتسم.

- لقد جننا، لقد أسأنا الظن بعضنا ببعض!

- نحن، نحن الذين يعرف بعضنا بعضًا لأكثر من عشرين سنة!

- أنهينا المدرسة الثانوية معًا!

- أجل، ولقد نجحنا حتى الآن في تحقيق أهداف جيدة!

- ماذا يحدث لنا؟ الابن يخون أمه، الأخت تخون أخاها، والصديقُ الصديقَةَ...

- لكننا لا يخون بعضُنا بعضًا!

- نريد أن نفكِّر في أفضل ما يمكن فعله بهذه البطاقة. سيكون ضربًا من الجنون أن تسير بها في الشارع، خصوصًا وأنت تشعر أنك مراقب.

- ربما شعوري هو محض توتُّر. أعطني البطاقة، سأرى أين يمكن أن أضعها!

- أنت بذاك الداء المشؤوم الذي يُعلِّقك باللا معقول! لا، ستبقى البطاقة هنا!

- لديك زوجة وطفلان يا إيْرفيْن. وربما لا يمكن الوثوق بمستخدِميك في المكتب. من الذي يمكن إذًا الوثوق به اليوم؟ أعطني البطاقة. سأتصل بك بعد ربع ساعة وأبلغك أن البطاقة مضت في سبيلها.

- بالله عليك يا مَاكْس! ما زلتَ كما أنت. ستُجري مكالمة من أجل شيء كهذا! لِمَ لا تتصل بهيملر* مباشرة؟ وهكذا تنقضي المسألة أسرع!

ومرة أخرى يحدِّق بعضهما إلى بعض، يشعران ببعض العزاء، أنهما ليسا وحيدين بالكامل، وأن كلًّا منهما لا يزال لديه صديق يستطيع الوثوق به.

---

* المقصود هاينريش لويتبولد هيملر، القيادي البارز في الحزب النَّازي، وزعيم الشرطة العسكرية ومهندس الهولوكوست. (المترجمة)

فجأةً ضرب المحامي البطاقة بغضب:

- في ماذا فكَّر هذا الأحمق حينما كتب هذا الشيء وتركه على السلم! هل يريد أن يدفع الآخرين إلى التهلكة؟!

- وبسبب ماذا؟ ماذا كتب حقيقةً؟ لا شيء، لا يعرفه كل واحد فينا! لا بد أنه مجنون!

- هذا الشعب كلُّه قد أصبح شعبًا من المجانين، تنتقل عدوى الجنون من واحد إلى آخر.

- حينما يتم الإيقاع بهذا الرجل الذي يوقع الآخرين في المتاعب! سأشعر مباشرة بالسعادة...

- آخ، لا تقل هذا! بالتأكيد لن تشعر بالسعادة لأن واحدًا إضافيًا سيلقى حتفه. لكن كيف سنخلِّص أنفسنا من هذه المتاعب؟

نظر المحامي إلى البطاقة متفكِّرًا مرة أخرى. ثم أمسك بالهاتف:

- لدينا هنا قيادي سياسي في المنزل؛ (قال موضِّحًا للصديق)

سوف أسلمه البطاقة بشكل رسمي، وأوضح له مُلابسات المسألة، كما هي، لكن بالمناسبة لا ينبغي أن نولي الأمر أهمية كبيرة. هل أنت متيقِّن من أقوالك؟

- تمامًا

- ومن أعصابك؟

- بالتأكيد يا عزيزي. لم أُصَبْ بالرهبة قطُّ على خشبة المسرح. لكن دائمًا قبل صعود الخشبة! ما نوع هذا القيادي السياسي؟

- لا علم لديَّ. لا أتذكَّر أني رأيته من قبل. ربما يكون أحد القِططة الصغيرة الفاسدة. على كل حال سأتصل به الآن.

لكن الرجل القصير الذي حضر لم يَبْدُ عليه أنه قِطٌّ فاسد، بل بدا مظهره إلى الثعلب أقرب، كما شعر بالإطراء حينما رأى الممثل الذي طالما شاهده في الأفلام. بل ذَكَر ارتجالًا ستة أفلام؛ غير أن الممثل لم يلعب دورًا في أيٍّ منها. تعجَّب مَاكْس هَارْتْأيزِن من ذاكرة الرجل القصير، وبعدها دخلا في الشق العملي من الزيارة.

قرأ الثعلب القصير البطاقة، ولم يَبْدُ على وجهه أي تعبير يمكن قراءته يشي بإحساسه. فقط بدا ماكرًا. ثم سمع التقرير الخاص بالعثور على البطاقة وحتى توصيلها إلى المكتب هنا.

- جيد جدًّا. صواب جدًّا! (مدح القياديُّ)

ومتى كان ذلك تقريبًا؟

تردَّد المحامي لوهلة، ثم ألقى نظرة سريعة على الصديق. الأفضل ألا يكذِبَا، فكر. فلقد شاهداه يدخل المكتب منفعلًا والبطاقة في يده.

- قبل نصف ساعة بالتمام. (قال المحامي)

رفع الرجل القصير حاجبيه دَهِشًا:

- كل ذلك الوقت؟! (سأل بصوت خفيض مدهوش)

- كان لدينا أمور أخرى نناقشها.. (أوضح المحامي)

لَمْ نُوْلِ المسألة أهمية كبيرة. أم هل هي ذات أهمية؟

- كل شيء مهم. كان من المهم الإمساك بذلك الصبي الذي وضع البطاقة. لكن الآن بعد نصف ساعة فلقد تأخر الوقت كثيرًا.

كانت كل كلمة من كلماته تبدو كأنها اتهام هادئ تسبَّب في «تأخر الوقت كثيرًا».

- أعتذر عن هذا التأخير! (قال الممثل هَارْتْأيزِن مؤكِّدًا كل حرف) أتحمل أنا الذنب في ذلك. فلقد كنت أعطيت الأولوية لموضوعي قبل هذه المسألة؛ اعتذاراتي!

- كان عليَّ أن أزن المسألة بشكل أفضل. (قال المحامي)

ابتسم الثعلب مهدِّئا كليهما:

- الآن سادتي، ما فات وقته قد فات وقته. ويسعدني على أي حال أنني بسبب هذا الموضوع قد نلت شرف لقاء السيد هَارْتْأيزِن بشكل شخصي. هايْلْ هتلر!

نهَضَا قفزًا وهتَفَا بقوة «هايْلْ هتلر!».

وبعدما انغلق الباب وراءه، تأمَّل كل صديق وجه صديقه.

- الحمد لله، لقد تخلصنا من هذه البطاقة المشؤومة! (قال المحامي)

- وهو لا يشكُّ فينا بالمرة!

- ليس بسبب البطاقة! لكنه فهم تمامًا أننا تأرجحنا ما بين تسليمها وعدم تسليمها.

- هل تعتقد أن لهذا الأمر ما وراءه؟

- لا، في الحقيقة لا أظن. في أسوأ الأحوال سيستجوبوننا بعنف، أين ومتى وكيف وجدت البطاقة. وليس هناك ما نخفيه.

- تعرف يا إيْرفيْن، بشكل أساسي أشعر بالسعادة المطلقة بأن أخرج قليلًا خارج هذه المدينة.

- قلت لك!

- تسوء حال الإنسان في هكذا مدينة!

- صحيح! حدث فعلًا! بل على نحو قوي!

في هذه الأثناء كان الثعلب القصير قد توجَّه إلى فرقته. الآن شخص من أصحاب القمصان البنية يحمل البطاقة في يده.

- هذه مسألة لا تخص إلا الجيستابو. (قال القميص البُنِّي)

الأفضل أن تسلمها بنفسك يا هاينتس. انتظِر، سأعطيك بضعة أسطر معها. وماذا عن السَّيِّدَينِ؟

- لا شأن لهما البتَّة! بطبيعة الحال لا يمكن الوثوق سياسيًّا بأيٍّ منهما. لكني أقول لك، لقد كانت الدماء تتفصَّد منهما مع العرق عندما وَجَدَا أنفسهما أمام البطاقة.

- هَارْتْأيزِن مغضوب عليه من الوزير جُوبِلْز. (قال القميص البُنِي متفكِّرًا)

- ورغم ذلك.. (قال الثعلب القصير)

لن يجرؤ مطلقًا على شيء كهذا. إنه خائف للغاية. لقد ذكرتُ له ستة أفلام في وجهه لم يظهر فيها مطلقًا، وأثنيتُ على تمثيله الرائع.

ما كان منه إلا أن انحنى المرة بعد الأخرى وأشرق وجهه بالامتنان. ساعتها كنت أشم رائحة خوفه الذي يفرزه مع العرق!

- كلهم خائفون! (قرر القميص البُنِّي باحتقار)

لِمَ حقًّا؟ لقد سُهِّلَتْ كل الأمور عليهم. ليس عليهم سوى اتباع التعليمات التي نُملِيها عليهم.

- يحدث هذا لأن البشر لا يستطيعون التخلِّي عن التفكير. يعتقدون أن التفكير قد يوصلهم إلى نتيجة.

- ليس عليهم إلا الطاعة. أما التفكير فهو شأن الزعيم.

خبط القميص البني على البطاقة:

- وهذا هنا؟ ماذا ترى فيه يا هاينتس؟

- ماذا عليَّ أن أقول في هذا؟ ربما يكون حقًّا قد فقد ابنه...

- يا الله! الذين يكتبون ويفعلون شيئًا كذلك ليسوا إلا المحرضين. يريدون أن يحقِّقوا هدفًا لأنفسهم. الأبناء وألمانيا بكاملها، كل ذلك واحدٌ لديهم. لعله اشتراكي قديم أو شيوعي...

- لا أعتقد. لا أعتقد ذلك على الإطلاق. هؤلاء لا يستطيعون الخروج عن شعاراتهم الفاشية، ورد الفعل، والتضامن والطبقة العاملة. لكن من كل تلك الكلمات المفتاحية لا شيء على البطاقة. يا الله! أي اشتراكي أو شيوعي أستطيع أن أشمَّ رائحته ولو كان على بُعد عشرة كيلومترات عكس اتجاه الريح!

- وأنا أعتقد فعلًا! لقد تنكَّروا كلهم جميعًا...

لكن السادة في الجيستابو لم يكونوا من رأي السيد القميص البُنِّي. وبالمناسبة استُقبِل تقرير الثعلب القصير باسترخاء وسعادة. إذ إنهم هناك معتادون أشياء أخرى.

- أجل أجل! (قالوا)

جميل وحسن، سنرى. لو تكرَّمت بالتوجُّه إلى المفتش إشيرِش، سنُعلِمه هاتفيًّا وسيتناول هو الموضوع. أعطه مرة أخرى تقريرًا دقيقًا عن تصرف السيدين. بالطبع لن يتَّخذ إجراء ضدهما في الوقت الراهن، لكن هذا مفيد في جمع مادة لحالات لاحقة محتملة، تفهم، أليس كذلك؟

المفتش إشيرِش رجل طويل ومتأرجح ذو شارب منسدل بلون الرمال، يرتدي بدلة ذات لون رمادي زاهٍ، كل شيء في هذا الرجل بلا لون، لدرجة أنك يمكن أن تعتبره خارجًا من غبار الملفات.

- إذًا... (المفتش إشيرِش يقلِّب البطاقة بين يديه يمينًا ويسارًا)

لوحة جديدة، ليس لديَّ مثلها في مجموعتي. يدٌ ثقيلة، لم يكتب كثيرًا في حياته، وعمل مستخدِمًا يده دائمًا.

- شيوعي؟ (سأل الثعلب القصير)

ابتسم المفتش إشيرِش:

- لا تُلْقِ النكات يا سيد! شيء كهذا لا يخرج من يد شيوعي! لو كان عندنا شرطة حقيقيَّة ولو كان للمسألة وزنها لكان كاتب هذه الرسالة في السجن خلال أربع وعشرين ساعة!

- وكيف كنت ستتناول المسألة؟

- الأمر بسيط للغاية! سأبحث في كل مكان في برلين، عن الذي فقد ابنه في الأسبوعين أو الثلاثة الماضية، لاحِظ أنه ابن وحيد، لأن الكاتب لديه ابن واحد فقط!

- ما دليلك على ذلك؟

- الأمر بسيط للغاية! في الجملة الأولى التي يتحدَّث فيها عن نفسه يقول ذلك. في الجملة الثانية التي يخاطب فيها الآخرين يتحدَّث عن أبناء. وعلى المجموعة التي سينطبق عليها مجال البحث -لا يمكن أن يكون عددهم كثيرًا في برلين- سأضع عيوني على هؤلاء، وسرعان ما سيجلس الكاتب خلف القضبان!

- لكن لِمَ لا تفعلها؟

- لقد قلت لك بالفعل. ليس لدينا الأجهزة التي تنفذ ذلك، ولأن المسألة لا تستحق. ألا ترى إمكانيتين هنا؟ أن يكتب بطاقتين أو ثلاثًا ويكتفي بذلك، فلأن الأمر سيكبده كثيرًا من المشقة، أو لأنه يعرضه لخطر محدق. ورغم ذلك لن يحقِّق من وراء فعلته كثيرًا. ولن يصل إلينا منه أعمال أخرى.

- هل تعتقد أنه سَيُسَلَّمُ كثيرٌ من البطاقات؟

- ليس كلها، لكن معظمها بالتأكيد. فالشعب الألماني يمكن الاعتماد عليه...

- لأنهم جميعًا خائفون!

- أنا لم أقل هذا. ليس هذا الرجل مثلًا.. (طَرَقَ على البطاقة ببرجمته)

إنه ليس خائفًا. لكن أعتقد أن الإمكانية الثانية ستتحقَّق؛ سيواصل الرجل الكتابة. أتركه. كلما كتب أكثر كَشَفَ عن نفسه. الآن فضح جزءًا ضئيلًا من نفسه، ألا وهو أنه فقد ابنه الوحيد. لكن مع كل بطاقة سيكشف لي مزيدًا عن نفسه. لست في حاجة إلى الانشغال بالموضوع أكثر من ذلك. لا أحتاج إلى غير الجلوس هنا والمراقبة قليلًا، ثم! سيسقط في يدي! في قسمنا هذا لا نحتاج إلا إلى الصبر. أحيانًا يستغرق الأمر سنة، أحيانًا أكثر، لكن في النهاية نمسك بكل الناس. أو.. تقريبًا كل الناس.

- وماذا بعد ذلك؟

أحضر الرجل ذو اللون الرملي خريطة لمدينة برلين وعلَّقها على الحائط. والآن شرع يغرز فيها علمًا صغيرًا أحمر اللون، في ذات المكان، الذي فيه المكتب الإداري بشارع نويه كونيجزشتراسه.

- أُنظر، هذا كل شيء أستطيع أن أفعله في هذه اللحظة. لكن في الأسابيع المقبلة ستزيد تلك الأعلام الصغيرة، وفي المكان الذي ستُشكِّل فيه كتلة كثيفة سيكون الرجل. ذلك لأن الوقت ضيق أمامه، ولأن الطرق البعيدة غير مجدية بالنسبة إليه، فهو لن يسلكها لمجرد وضع بطاقة. والأمر يسير للغاية! ومرة أخرى! سيقع في قبضة يدي!

- وماذا بعد ذلك؟ (سأل الثعلب القصير يدفعه فضول شهواني)

نظر إليه المفتش إشيرِش ساخرًا على نحو ما:

- أنت تتلذَّذ بسماع ذلك؟ حسنًا، لن أحرمك هذا الصنيع. محكمة الشعب وينتهي الغراب! ماذا يعنيني الأمر؟ ماذا يجبر الرجل على

كتابة بطاقة حمقاء كتلك، لا يقرأها ولا يريد أن يقرأها أحد! لا، هذه مسألة لا تعنيني البتَّة. أنا أحلِّل راتبي. إن كنت أبيع من أجله الماركات أو أضع الأعلام فلا فرقَ بالنسبة إليَّ. لكني سأتذكَّركَ. لن أنسى أنك من جلب لي البلاغ الأول، وحينما أمسك بذلك الرجل، ويحين الوقت، سأرسل إليك دعوة كي تحضر الإعدام.

- لا شكرًا حقًّا. لم أكن أقصد ذلك!

- بالطبع كنت تقصد ذلك. لِمَ تستَحِيْ مني؟ لا إنسان في حاجة إلى أن يستحيِيَ أمامي، فأنا أعلم حال البشر، لو أننا لم نعرف ذلك هنا، فمن يعرفه سوانا؟ لا أحد ولا حتى الله الرحيم! إذًا لقد اتفقنا. سأرسل إليك بطاقة دعوة إلى الإعدام! هايْل هتلر!

- هايْل هتلر! إذًا لا تَنْسَ!

20

بعد ذلك بستة أشهر، آل جفَانجِل

بعد مرور نصف عام أضحت كتابة البطاقات بالنسبة إلى آل جْفَانْجِل عادة يواظبان عليها كل أحد، بل يمكن القول إنها تحولت إلى عادة مقدسة، وصارت جزءًا لا يتجزأ من حياتهم اليومية مثل الحفاظ على الهدوء التام الذي يحيط بهما، أو الحرص الفولاذي على كل قرش. كانت أجمل ساعات الأسبوع، حينما يجلسان معًا في أيام الأحد، هي في ركن الأريكة، في يدها أي قماش يحتاج إلى حشو أو ترتيق، وهو متخشِّب فوق كرسيِّه مُكِبٌّ على الطاولة، ممسك بالريشة في يده الكبيرة، يكتب كلمة فكلمة.

الآن ضاعف جْفَانْجِل إنجازه الأوليَّ الذي تمثل في كتابة بطاقة واحدة في الأسبوع. بل في أيام الآحاد الجيدة استطاع أن ينجز ثلاث بطاقات. لكنه لم يكتب قَطٌّ بطاقات لها نفس المحتوى. إذ إن كلًّا من آل جْفَانْجِل اكتشف مزيدًا من أخطاء الزعيم والحزب كلما أمعَنَ في الكتابة. وهي أخطاء لم يدركا أنها منذرة حين اقتُرفت، مثل قمع كل الأحزاب الأخرى أو مسألة معاداة اليهود التي بدت لهما حتى ذلك الحين مجرد أمر بولِغَ في حجمه، ونُفِّذَ بفظاظة. هذه المسائل اكتسبت الآن - وقد أصبحا أعداء للزعيم- وجهًا ووزنًا مختلفًا تمامًا. إذ أثبتت لهما خداع الحزب والزعيم. ومثل الداخلين

الجدد في ديانة كان لهما طموح أن يَهدِيَا آخرين سواء السبيل، وبهذه النبرة كُتِبَتْ البطاقات التالية، غير أنها لم تكن ذات وتيرة واحدة، ثم إنهما لم يُعدَمَا الموضوعات.

تخلت آنَّا جْفَانْجِل منذ زمن عن موقعها كمستمعة، فهي تجلس هنالك على الأريكة بمنتهى الحيوية، تشارك في الحديث، وتقترح موضوعات وتفكر في صياغات الجمل. عَمِلَا في تعاون من أجمل ما يكون، وهذا التعاون العميق الداخلي، الذي تعرَّفَا عليه الآن فقط بعد هذا الزواج الطويل، أصبح بالنسبة إليهما مصدرًا للسعادة الكبرى، التي تُشعُّ بضوئها على باقي الأسبوع. كأنَّ كلًّا منهما يرى الآخر بنظرة جديدة، يبتسمان فيعرف الواحد منهما عن الآخر أنه فكَّر في البطاقة التالية، أو في تأثير تلك البطاقات، أو في متابعيهما الذين يتزايد عددهم باطِّراد، وينتظرون بحماسة الخبر التالي الذي سيصدر عنهما.

لم يَشُكَّ أيٌّ من آل جْفَانْجِل ولو لحظة، في أن البطاقات تنتقل سرًّا في المصانع من يد إلى يد، وأن برلين بدأت تتحدَّث عن هؤلاء المحاربين. كذلك بدا جليًّا لهما أن جزءًا من هذه البطاقات وقع في يد الشرطة لكنهما افترضا.. ربما بطاقة من كُلِّ خمسٍ أو ستٍّ. ولطالما فكَرَا في تأثير ذلك وتحدَّثا عنه قائلَيْنِ إن توزيع أخبارهما، والأنظار التي يلفِتانها بدت لهما أمر طبيعي تمامًا، وإنها حقيقة لا ينبغي التشكيك فيها.

وفي خضم كل ذلك لم يملك أيٌّ من آل جْفَانْجِل أدنى دليل واقعي. لو أن آنَّا جْفَانْجِل الآن تقف في طابور أمام محل بيع مواد

غذائية، أو أن الحِرفيَّ يقف صامتًا بعيون حادة في مجموعةٍ من المشترين لأجل أن يسمع ثرثراتهم، فإنهما لم يسمعا قطُّ كلمة عن المحارب الجديد ضد الزعيم، ولا عن الرسائل التي يبعث بها إلى العالم. لكن هذا الصمت حول عملهما لم يجعلهما يتزعزعان في اعتقادهما الراسخ أن حديثًا يدور بالفعل عنهما وعن أثرهما. برلين مدينة كبيرة للغاية وتوزيع البطاقات تمدَّد على نطاق واسع، لذا فانتشار العلم بوجودهما مجرد مسألة وقت. باختصار كان حال آل جْفَانْجِل مثل حال كل الناس؛ لقد آمَنَا بوجود ما يتمنَّيان وجوده.

ومن قواعد الحِيطة التي اعتبرها جْفَانْجِل ضرورية في بداية عمله، أنه ألغى الآن ارتداء القفازات. فالتفكير المدقِّق في المسألة أفضى به إلى أن هذه الأشياء المزعجة التي تبطِئ من عمله كثيرًا لا تجدي نفعًا. والمفترض أن بطاقاته -قبل أن تصل إحداها إلى الشرطة- ستمرُّ عبر أيادٍ كثيرة، لن يستطيع تمييزها أكثر رجال الشرطة حنكة، ولن يخمِّن من خلالها بصمات كاتبها. بطبيعة الحال واصل جْفَانْجِل اتباع أقصى درجات الحذر. فهو دائمًا ما يغسل يديه قبل الكتابة، ولا يلمس البطاقات إلا مَسًّا رقيقًا، وفقط على الحواف، وفي أثناء الكتابة يضع ورقًا نَشَّافًا أسفل اليد التي تكتب.

أما ما يخص وضع البطاقات نفسها في المباني الإدارية الكبرى، فسرعان ما فقد إحساس الإثارة التي تصحب الأمر الجديد. فالوضع الذي بدا لهما في البداية فعلًا في منتهى الخطورة أثبت أنه أسهل جزء في المهمة. مجرد أن يدخل الواحد بيتًا عامرًا بالحركة، ثم ينتظر اللحظة الملائمة، ثم ينزل السلالم من جديد، شاعرًا بالاسترخاء

قليلًا، متحررًا من ضغط في منطقة البطن، وفي رأسه تدور فكرة «لقد سارت الأمور مرة أخرى على نحو طيب»، بدون أن يشعر بانفعال خاص.

في البداية كان جْفَانْجِل يضع هذه البطاقات بمفرده، بل بدت مرافقة آنًا له أمرًا غير مرغوب فيه. لكن تغيَّرت المسألة من تلقاء نفسها وتحولت آنًا إلى مساعدة مؤثِرة. حرص جْفَانْجِل كل الحرص أن تغادر البطاقات، سواء واحدة أو اثنتان -أحيانًا حتى ثلاث- المنزل في اليوم التالي لكتابتها. لكن أحيانًا ما كانت ساقاه المصابتان بالروماتيزم تخذلانه عندما يتطلب الحذر أن تُوَزَّع البطاقات في أجزاء بعيدة من المدينة. ويستتبع ذلك رحلات بالتِّرام مستنزِفة للوقت يصعب أن ينجزها شخص واحد في فترة الضحى.

وهكذا تكفَّلت آنًا بهذا النصيب من المشاركة في العمل. وللمفاجأة اكتشفت أن الوقوف في انتظار زوجها خارج إحدى العمارات أكثر إقلاقًا وتعذيبًا للأعصاب من وضع البطاقات بنفسها. أما في تلك الحالات الأخيرة فكان الهدوء يسكنها ويحيطها. بمجرد أن تدخل إلى عمارة مناسبة تشعر بالثقة بين الصاعدين السلالم والهابطين عليها، وتنتظر بصبر أن تواتيها الفرصة ثم تضع البطاقة. واثقة تمامًا بأن أحدًا لم يَرَها أو يتذكَّر ملامحها بشكل يجعله يُدلي بأوصافها. في الحقيقة لقد كانت شخصيَّة تلفت الانتباه بدرجة أقل كثيرًا من زوجها ذي وجه الطائر الحاد. مجرد مواطنة بسيطة تركض بسرعة إلى عيادة الطبيب.

مرةً واحدة فقط تعرَّض آل جْفَانْجِل للإزعاج في أثناء الكتابة صبيحة أحدِ أيام الأحد، لكن حتى هذا الإزعاج لم يتسبَّب حتى في أقل القليل من الإثارة والاضطراب. فبحسب ما اتَّفقا عليه بعد أن ناقَشَا تلك المسألة مراتٍ عديدة من قبلُ، تسلَّلت آنَّا نحو الطرقة وألقت نظرة على الزوَّار من العين السحرية للباب، وفي هذه الأثناء أزال أُوتُّو جْفَانْجِل أدوات الكتابة ودسَّ البطاقة التي بدأ كتابتها داخل كتاب. كان عليها الكلمات التالية: «أيها الزعيم عليك الأمر وعلينا الطاعة. أجل سنتبعك، فلقد تَحوَّلنا إلى قطيع من الأغنام يستطيع زعيمنا أن يقوده إلى أي مذبحة. لقد تخلَّينا عن التفكير».

وضع جْفَانْجِل البطاقة التي تحمل هذه الكلمات في كتاب صنعه ابنه الشهيد بنفسه، وفيما آنَّا جْفَانْجِل تدخل مع الزائرين، رجل قصير أحدب، وامرأة طويلة سمراء مرهقة، جلس أُوتُّو أمام قطعة خشب محفور ومسَّ تمثال الصبي، الذي بدا أنه متقدم جدًّا وأنه -وَفق رؤية آنَّا جْفَانْجِل- صار يشبه الولد أكثر فأكثر. اتضح أن القصير الأحدب هو أخو آنَّا، فالإخوة لم يلتقوا قطُّ منذ ثلاثين سنة. لقد عمل الأحدب القصير في راتناو في مصنع للبصريات ونُقِلَ أخيرًا إلى برلين لكي يعمل اختصاصيًّا في مصنع ينتج جهازًا ما يُركَّب في الغواصات. أما المرأة السمراء المتعَبة فكانت زوجة أخيها التي لم تَرَها آنَّا من قبل. أما أُوتُّو جْفَانْجِل فلم يكن قد تعرَّف إلى أيٍّ من هؤلاء الأقارب من قبل.

في ذلك الأحد لم يتقدَّم العمل الكتابي، وظلَّت البطاقة قابعة في كتاب أُوتُّو الصغير. ورغم اعتراض آل جْفَانْجِل على أنواع الزيارات والصداقات والقرابات كافَّة من أجل الحفاظ على الهدوء الذي يريدان أن ينعَمَا به، فإن ذلك الأخ الذي طرق بابهما مع زوجته على غير انتظار لم يضايقهما في شيء. إذ كان الهدوء أيضًا من طبائع آل هِفْكِه، وكانا ينتميان إلى جماعة دينية ما، أُنذِرَت بالغلق ولوحِقَتْ من النازيين. لكنهما قلَّما تحدَّثا عنها، مثلما صار الجميع يتجنَّب الحديث عن أي شيء سياسي بسبب الخوف.

لكن جْفَانْجِل كان ينصت دَهِشًا للطريقة التي يتبادل بها أُولْرِشْ هِفْكِه الحديث مع آنَّا عن ذكريات الطفولة. فلأول مرة يسمع أن آنَّا كانت أيضًا طفلة ذات يوم، طفلة ذات مُجون، ومشاكسة ومقالب. فهو لم يتعرف على زوجته إلا حينما صارت صبية كبيرة، لم يفكِر قطُّ أنها كانت تبدو على صورة مختلفة في يوم من الأيام قبل أن تتحوَّل إلى تلك الخادمة غير المبتهجة، والتي جرَّدها عملها كثيرًا من عنفوانها وآمالها.

والآن رأى -فيما يتحدَّث الإخوة بعضهم مع بعض- القرية الحدودية الصغيرة الفقيرة أمام ناظريه، وسمع أنه تعين عليها حماية الإوز وأنها كثيرًا ما اختبأت كي لا تشارك في زرع البطاطس لأنها تكره ذلك العمل، فنالها الضرب المبرِّح. وعرف كم أحبها الناس في القرية حقًّا، لأنها اتَّصفت بالعناد والشجاعة وثارت كلما اشتمَّت رائحة الظلم. لدرجة أنها ذات مرة قذفت بثلاث كرات من الثلج على مدرس ظالم في المدرسة وأطاحت بالقبعة من فوق رأسه، ولم

يكتشف أنها الفاعلة، ولم يعرف أحد عن ذلك إلا هي وأُولْرِشْ فقط، وهو بدوره لم يَشِ بها قط.

لا، لم تكن هذه زيارة مزعجة، رغم أن الكتابة نقصت بطاقتين. بل إن آل جْفَانْجِل عَنَيَا تمامًا الوعد الذي قطعاه لآل هِفْكِه بِرَدِّ الزيارة. ولقد وفَّيا بالوعد كذلك. فبعد خمسة أو ستة أسابيع سعيا إلى آل هِفْكِه في شقتهم الصغيرة التي اضطرتهم إليها الضرورة، وأُخلِيَت من أجلهم في الغرب بالقرب من ميدان نولليندورف. ولقد استغلَّ آل جْفَانْجِل هذه الزيارة من أجل وضع بطاقة في الغرب. ورغم أن اليوم كان أحدًا والحركة في المبنى الإداري قليلة للغاية.. تمَّ كل شيء على ما يرام.

ومنذ ذلك الحين توالت الزيارات المتبادلة يفصل بينها تقريبًا ستة أسابيع. صحيح لم تعد مثيرة مثل السابق لكنها على أي حال جلبت هواء جديدًا إلى حياة آل جْفَانْجِل. في الغالب يجلس أُوتُّو وزوجة الأخ صامتين إلى الطاولة يستمعان إلى الحديث الهادئ بين الأخوين اللذين لا يتعبان أبدًا من الثرثرة حول ذكريات الطفولة. استفاد جْفَانْجِل أيضًا من التعرف إلى تلك الآنَّا الأخرى. وبصراحة لم يجد أبدًا أي جسر بين السيدة التي تعيش اليوم إلى جواره وتلك الفتاة التي تفهم في أعمال الفلاحة، وتحضِّر المقالب الجسورة ورغم ذلك تظلُّ أفضل تلميذة في مدرسة القرية الصغيرة.

علمًا أيضًا أن والِدَيْ آنَّا لا يزالان يعيشان في مسقط رأسيهما، طعنا في السنِّ كثيرًا، أضاف الأخ على نحو عرضي أنه يرسل إليهم كل شهر عشرة ماركات. كادت آنَّا جْفَانْجِل تتحمَّس وتخبر أخاها

بأنها منذ الآن ستفعل الشيء نفسه، لكنها فهمت في الوقت المناسب نظرات زوجها المحذِّرة فالتزمت الصمت.

وفي طريق العودة إلى البيت قال موضحًا:

- لا، الأفضل ألا نفعل ذلك يا آنَّا. فلأي هدف ندلِّل أناسًا طاعنين في السن هكذا؟ لديهم معاشهم، وإن كان أخوك يرسل إليهما عشرة ماركات إضافية فهذا يكفي.

- لدينا كثير من المال في دفتر التوفير! (قالت آنَّا مُتوَسِّلةً)

لن نستهلك ذلك أبدًا! في السابق كنا نظن أن المال سيؤول إلى أُوتُّو الصغير، لكن الآن... دعنا نفعلها يا أُوتُّو! حتى لو كنا سنرسل إليهما خمسة ماركات شهريًّا فقط!

غير أن ذلك لم يحرِّك مشاعر أُوتُّو جْفَانْجِل الذي قال:

- الآن، بعد أن تورَّطنا في المسألة الكبرى، لا نعرف في أي شيء يمكن أن نحتاج إلى أموالنا ذات يوم، ربما سيتعيَّن علينا أن نستخدم كل مارك يا آنَّا. ثم إن العجوزين يعيشان حتى الآن بدون مساعدتنا، فلم لا يواصلان الحياة على نفس المنوال؟

صمتت، استاءت قليلًا ربما، ليس بسبب حبها لوالديها، لأنها قلَّما فكَّرت فيهما على مرِّ السنوات، ولم تكن ترسل إليهما إلا خطابًا مرة في السنة بدافع الواجب للتهنئة بعيد الميلاد المجيد. لكنها بدت أمام أخيها مقصِّرة ومحرجة. لم تكن تريد أن يعتقد أخوها أنه يقدر على فعل شيء هي لا تقدر عليه.

قالت آنَّا بعناد:

- سيظن أُولْرِشْ أننا لا نقدر على ذلك يا أُوتُّو. سيظن أن عملك لا يدرُّ دخلًا كافيًا، ولن يقدِّرك حق قدرك.
- الأمر سواء تمامًا ما يظنُّ الآخرون بي. لن أصرف من الدفتر قرشًا من أجل تلك الفكرة.

شعرت آنَّا أن جملته الأخيرة لا يمكن دحضها. صمتت وخضعت كالعادة عندما يتحدَّث أُوتُّو بجملة كتلك، لكنها ظلَّت مستاءة قليلًا، أن زوجها قلَّما يراعي مشاعرها. غير أن آنَّا جْفَانْجِل سرعان ما نسيت هذا الاستياء عندما واصَلَا العمل الكبير.

21

بعد مرور ستة أشهر

المفتش إشيرِش

بعد مرور ستة أشهر على استقبال البطاقة الأولى وقف المفتش إشيرِش، ممسِّدًا شاربه رملي اللون أمام خارطة برلين التي يضع عليها الأعلام الحمراء الصغيرة التي يحدِّد بها أماكن العثور على بطاقات آل جْفَانْجِل. أربعة وأربعون من تلك الأعلام على الخريطة، من مجموع ثمانٍ وأربعين بطاقة كتبها آل جْفَانْجِل ووزعوها في ستة الأشهر الماضية، أربعٌ فقط لم يعثر عليها الجيستابو.

بل حتى هذه الأربعة لم تكد تنتقل من يد إلى أخرى مثلما تمنَّى آل جْفَانْجِل، لكنها مُزِّقت من الذعر بمجرد الشروع في قراءتها، أو أُلقِيَتْ في المرحاض أو أُحرِقَت.

يُفتح الباب ويدخل رئيس المفتش إشيرِش، بْرَالْ، قائد مجموعات العمل* في الجيستابو محيِّيًا

- هايْلْ هتلر! إشيرِش. لم تعض هكذا على شاربك؟

- هايْلْ هتلر، سيدي قائد مجموعات العمل! إنه كاتب البطاقات، «شبح البحر» كما أطلقتُ عليه.

* أعلى رتبة في «كتيبة العصف» والشرطة العسكرية والجيستابو. (المترجمة)

- هه؟ ولم «شبح البحر»؟
- لا أعرف، هكذا خطر ببالي. ربما لأنه يريد أن يثير الذعر بين الناس!
- وإلى أين وصلنا في هذه المسألة يا إشيرِش؟
- مممم.. (غمغم المفتش بصوت ممطوط)

ونظر مرة أخرى بتفكُّرٍ إلى الخريطة:

- من طريقة توزيع البطاقات يمكن أن نستنتج أنه على الأرجح يسكن في مكان ما شمال ميدان ألكسندر، فأغلب البطاقات تظهر هناك. لكنْ أيضًا الشرق والمركز مغطيان بشكل جيد. أما الجنوب فلم يُمَسَّ مطلقًا، وفي الغرب ظهرت بطاقتان في جنوب ميدان نولليندورف؛ لا بد أنه كان يقضي هناك مصلحة عابرة.
- بلغة واضحة، إن البطاقة لا تشي بأي شيء! بهذا لا نكون قد تقدَّمنا ولو خطوة واحدة!
- علينا الانتظار! بعد ستة أشهر إن لم يأتِ شبح البحر بأي خطأ فستعطينا البطاقات حينذاك معلومات أكثرَ كثيرًا.
- ستة أشهر! يا لِسخائك يا إشيرِش! تريد أن تمنح ستة أشهر لهذا الخنزير يرتع فيها كما يريد، ولا تفعل أنت أي شيء سوى وضع أعلامك الصغيرة تلك وبالك مرتاح؟
- لا بد في عملنا أن نطيل حبال الصبر، سيدي قائد مجموعات العمل. مثلما نختبئ في مكمن ننتظر صيدًا. لا بد من الانتظار. قبل أن يأتي لا ينبغي أن تطلق النار. لكن عندما يظهر ساعتها سأطلق النار، ثِقْ بهذا!

- لم أعد أسمع عن شيء سوى الصبر يا إشيرِش! هل تظنُّ أن السادة الذين فوقنا لديهم كل هذا الصبر؟ أخشى أن نلقى قريبًا عقوبة نظل نعاني منها أمدًا طويلًا. فكِّر، في نصف سنة أربعٌ وأربعون بطاقة، هذا يعني كل أسبوع بطاقتين تصلان إلينا، هذا شيء يراه السادة. ثم يسألونني «وماذا بعدُ؟ لم تمسك به بعد؟ لم؟ ماذا تفعلون إذًا؟»، أقول لهم «نضع الأعلام الصغيرة ونطرقع أصابعنا»! وعليه يضيِّقون عليَّ الخناق ويصدر الأمر بوجوب الإمساك بالرجل في أسبوعين.

ابتسم المفتش إشيرِش أسفل شاربه رملي اللون:

- وبعدها ستضيق الخناق عليَّ أنا، سيدي قائد مجموعات العمل، وتعطيني الأمر أن أمسك بالرجل في أسبوع!

- لا تبتسم هذه الابتسامة السخيفة يا إشيرِش! إن وصلت حالة مثل هذه إلى أسماع واحد مثل هيملر، فلنَقُلْ للوظيفة الوداع، وربما نقضي ذات يوم في معسكر التعذيب في زاكسنهاوزن وقتنا في التفكير حول الزمن الجميل الذي كان يُسمح لنا فيه بوضع الأعلام الصغيرة الحمراء على الخريطة.

- لا داعي للقلق، سيدي قائد مجموعات العمل! أنا محقِّق جنائي قديم وأعلم ألا أحد يستطيع أن يفعل أفضل مما نفعله؛ فلننتظر. يمكنهم أن يقترحوا علينا طريقًا أفضل، أولئك الأذكياء الذين يسفِّهون من عملنا، فليقولوا كيف يمكن الإمساك بشبح البحر؟ لكن بطبيعة الحال هم لا يملكون اقتراحات أخرى.

- إشيرِش، فكِّر في الأمر، إن كانت 44 بطاقة قد وصلت إلينا، فهذا يعني أن ضِعفَها على الأقل، ربما أكثر من 100 بطاقة تدور دورتها في يومنا هذا في برلين، تغرس الاستياء وتشعل أعمال التخريب. ليس سهلًا أن نراقب ذلك بهدوء!

- مئة بطاقة تدور دورتها! (ضحك إشيرِش)

هل لديك أي فكرة عن الشعب الألماني، سيدي قائد مجموعات العمل؟ أستميحك عذرًا ألف مرة، سيدي قائد مجموعات العمل، لم أكن أعني ما قلتُ بهذه الطريقة، لقد كانت زلة لسان! بالطبع فإن السيد قائد مجموعات العمل لديه فكرة جمَّة عن الشعب الألماني، ربما أكثر مني، لكن الناس حاليًّا يعيشون في خوف كبير! ولهذا يسلمون كل البطاقات؛ لا أظن أنَّها أكثر من عشر بطاقات متداولة!

وبعد نظرة غاضبة بسبب إساءة إشيرِش «هؤلاء الناس الذين أتوا إلينا من الشرطة الجنائية، يمتلكون كثيرًا من الحماقة ويتصرَّفون كأننا زملاء!»، قال قائد مجموعات العمل:

- لكن حتى عشر بطاقات هو عدد كبير! بل بطاقة واحدة تعد كثيرة! لا يمكن السماح بتداول أي بطاقة! عليك الإمساك بالرجل يا إشيرِش. وبسرعة!

وقف المفتش صامتًا. ولم يرفع بصره عن الحافَةِ اللامعة في حذاء قائد مجموعات العمل، وأخذ يمسِّد شاربه والتزم الصمت بعناد.

- ستظل واقفًا صامتًا! (صاح بْرَالْ غاضبًا)

وأعلم أيضًا فيم تفكر. تفكر حالًا أني أيضًا من أولئك السفهاء الذين يوزِّعون تهديداتهم من دون أن يقدِّموا اقتراحات أفضل...

كان من الصعب أن تَزُورَ حمرة الخجل وجه المفتش إشيرِش لأنه فقدها من مدة كبيرة. لكنه في هذه اللحظة التي أُمسِك به وبأفكاره السرية فيها، لم يملك أن يسيطر على احمرار وجنتيه. وكان أيضًا يشعر بالحرج وهو أمر لم يشعر به من مدة.

ولم يَخْفَ هذا كله على قائد مجموعات العمل السيد بْرَالْ. قال بخِفَّة:

- لا أريد أن أعرِّضك للحرج يا إشيرِش، بالتأكيد، وكذلك لا أريد أن أُسدي إليك نصائح. فأنت تعرف، أنا لست مختصًّا بالجنايات، ولم آتِ إلى هنا إلا امتثالًا للأوامر. لكن أرجو أن تخبرني بأي شيء، إذ سيتعيَّن عليَّ في الأيام المقبلة أن أقدم تقريرًا عن هذه الواقعة، وكم أودُّ لو أننا نفرغ منها. ألم يحدث قطُّ أن شوهد الرجل وهو يضع البطاقات؟

- قَطُّ.

- ولم تَثُرْ شكوك داخل المباني التي وُجدت فيها البطاقات؟

- شكوك؟ بل شكوك فوق الشكوك! الشكوك منتشرة اليوم في كل مكان. لكن لا شيء وراءها سوى بعض الغِلِّ من جار على جاره، وتلصُّص، ورغبة محمومة في تقمُّص دور المخبر السري. لكن لا أثر حقيقيًّا وراء كل ذلك!

- وماذا عن الذين عثروا على البطاقات؟ لا مشتبه فيه بينهم؟

- لا مشتبه فيه؟ (مطَّ إشيرِش شفتيه)

يا إلهي، يا سيدي قائد مجموعات العمل، الناس كلهم، مشتبه فيهم هذه الأيام!

وبعد نظرة خاطفة إلى وجه رئيسه قال:

- كلهم مشتبه فيهم، لكننا هنا صَفَّيْنا كل من عثروا على البطاقة، مرة بعد أخرى. وليس بينهم من يمتُّ إلى كاتب البطاقة بِصِلة.

زفر قائد مجموعات العمل:

- كان عليك أن تصبح قسيسًا. تستطيع أن تقدم المواساة بشكل رائع يا إشيرِش. يتبقى إذًا البطاقات؛ فما الموقف مع نقاط الارتكاز؟

- شحيح. شحيح للغاية! لا أريد أن أكون قسيسًا سيدي قائد مجموعات العمل! بعد الخطأ الأول الذي أفشى فيه حكاية الابن الوحيد ظننتُ أنه سيسلِّمني نفسه لأقوده أنا شخصيًا إلى المقصلة. لكن هذا الشبح ماكر!

- قل يا إشيرِش! (صاح بْرَالْ فجأةً)

هل فكَّرت أن الشبح يمكن أيضًا أن يكون امرأة؟ لقد خطرت هذه الفكرة ببالي الآن حينما تحدَّثت عن الابن الوحيد.

حدَّق المفتش متفاجئًا إلى وجه رئيسه، ثم فكَّر مليًّا. وبعدها قال هازًّا رأسه من الغم:

- لا ليس هذا سيدي قائد مجموعات العمل. فهذه تحديدًا واحدة من النقاط التي أنا متيقِّن منها. شبح البحر أرمل، أو هو في كل

الأحوال رجل يعيش وحيدًا معظم أوقاته. لو أنَّ امرأة في المسألة لأسفر ذلك عن بعض الثرثرة. لاحظ معي: ستة أشهر، ما من سيدة تحتمل ذلك!

- لكن لو أنها أم فقدت ابنها الوحيد؟

- أيضًا لا. هذا تحديدًا لا. (قرر إشيرِش بحسم)

حامل الهموم يريد عزاء. ومن أجل أن يحصل عليه لا بد أن يتكلم. لا، بالتأكيد لا امرأة في المسألة. أو وجودها لا يعرفه سوى شخص واحد، وهذا الشخص يستطيع أن يلزم الصمت.

- كما قلت لك: قسيس! وماذا عندك من نقاط ارتكاز أخرى؟

- الوضع شحيح سيدي رئيس مجموعات العمل، شحيح للغاية. أنا تقريبًا متيقِّن أن الرجل بخيل أو أنه في وقت ما تشاجر مع جهاز معونة الشتاء. لأنَّ على البطاقة تحذيرًا من التبرع لجهاز معونة الشتاء!

- ممم، يا إشيرِش هل سيتعيَّن علينا أن نلاحق شخصًا لا يريد أن يتبرع لجهاز معونة الشتاء؟

- لم أقل هذا يا سيدي قائد مجموعات العمل. المعلومات أقل مما ينبغي. المعلومات شحيحة.

- وما عدا ذلك؟

هز المفتش كتفيه:

- أقل القليل، لا شيء تقريبًا. يمكن أن نقرِّر بدرجة قريبة من الثقة، أن موزع البطاقات لا وظيفة ثابتة لديه، لأن البطاقات كلها عُثِرَ

عليها في أوقات متفرقة من اليوم، ما بين الثامنة صباحًا، والتاسعة مساء. وفي زحام السلالم التي يستخدمها «شبح البحر» يمكن أن نفترض أن كل بطاقة عُثِرَ عليها بعد مدة قصيرة من وضعها. عدا ذلك.. هو واحد يعمل بيديه، لم يكتب كثيرًا في حياته، لكن تعليمه المدرسي ليس سيِئا، فهو بالكاد يقع في أي خطأ كتابي ويكتب ببعض البلاغة.

صمت إشيرِش، ثم صمت كلاهما لمدة طويلة نوعًا فيما يحدِّقان إلى الخريطة ذات الأعلام الحمراء بذهن خالٍ تمامًا من الأفكار.

بعدها قال قائد المجموعات العمل السيد بْرَالْ:

- تبدو كحبَّة بندق عسيرة يا إشيرِش. عسيرة على كلينا!

قال المفتش مواسيًا:

- ليس ثمة بندُقة صُلبة إلى هذه الدرجة؛ كسارة البندق تكسرها.

- لكن البعضَ تعلَقُ أصابعه أيضًا في تلك الكماشة يا إشيرِش!

- فقط بعضَ الصبر، سيدي قائد مجموعات العمل، فقط بعضَ الصبر!

- لو أن السادة الذين فوقنا يتحلَّوْن به فقط! المشكلة ليست فيَّ أنا يا إشيرِش. عمومًا، اشحذ عقلك جيِّدًا يا إشيرش ربما يخطر ببالك شيء أفضل من انتظار ذلك المأفون. هايْلْ هتلر، إشيرش!

- هايْلْ هتلر، سيدي قائد مجموعات العمل!

وبعد أن صار بمفرده وقف المفتش إشيرِش بعض الوقت أمام الخريطة، يمعن التفكير فيما يمسد شاربه. لم يكن الأمر على الصورة التي أراد لرئيسه أن يقتنع بها، إذ إنه لم يعد في هذه القضية مجرد خبير جنائي محنَّك لا يمكن لشيء أن يستثيره.

لكنه صار مهتمًّا بذلك الصامت، كاتب الرسالة الذي لم يتعرف عليه تمامًا بعد، وزجَّ بنفسه إلى صراع لا يبشِّر بأي خير، بجسارة لكن بحذر، حاسبًا كل خطوة يخطوها. لقد كانت واقعة «شبح البحر» في البداية مجرد واحدة من عديد. ثم شعر تجاهه بالحماسة. لا بد أن يعثر على ذلك الرجل الذي يجلس في مكان ما أسفل آلاف الأسقف في برلين، عليه أن يراه وجهًا لوجه، ذلك الرجل الذي يرسل إلى مكتبه بدقة ميكانيكية تقارب دقة الآلات بطاقتين أو ثلاثًا كل مساء الاثنين أو ضُحى الثلاثاء على الأكثر.

كان إشيرِش بعيدًا كل البعد عن ذاك الصبر الذي ظل يحث قائد مجموعات العمل أن يتحلَّى به. إشيرِش كان يصطاد، إشيرش ذلك الخبير الجنائي المحنك كان أيضًا صيادًا. إنها هُوِيَّة تجري منه مجرى الدم، كان يلاحق الناس مثلما يلاحق الصيادون الخنازير البرية. أما كون الخنازير والناس يموتون في نهاية الصيد فهذه حقيقة لم تكن تهزُّ مشاعره بأي حال. كان الأمر محتومًا أن يموت الخنزير بهذه الطريقة، مثلما هو محتم أيضًا على الناس الذين يكتبون بطاقات كهذه. لقد أهلك رأسه بالفعل في التفكير في الطريقة التي يمكن بها أن يصل إليه، فهو ليس في حاجة إلى توصية من قائد مجموعات العمل كي ينشغل بذلك. لكنه لم يجد أي طريق، لأنه ليس من شيء

هنا إلا الصبر. لا يستطيع الواحد أن يشغل جهاز الشرطة بكامله في أمر تافه كهذا -تفتيش كل شقة في برلين- بغض النظر عن أنه من غير المسموح له أن يثير مثل هذا القلق في المدينة. لا بد أن يواصل التحلِّي بمزيد من الصبر.

وعندما يتحلَّى المرء بالصبر لمدة كافية، فإن شيئًا ما يقع بغتة، غالبًا ما يحدث شيء. يرتكب المجرم خطأ، أو تُوقع به المصادفة. لا بد للواحد أن ينتظر أمرًا من أمرين: المصادفة أو الخطأ. فواحد منهما غالبًا ما يحدث، أمل إشيرِش أن هذه الحالة لا تكون منِ حالات «غالبًا». فهو مهتم، بل مهتم للغاية. وبشكل أساسي لم يشكِل له أي فارق إن كان صاحب العمل اليدوي هنا مجرم أو خلافه. فإشيرِش -كما قيل سلفًا- يصطاد. ليس من أجل الشواء، لكن لأن الصيد شهوة. لقد كان يعرف في اللحظة نفسها، أين يقع الحيوان البرِّي في الشرك، الإمساك بالمجرم وإثبات الجريمة بشكل مقنع تلك هي اللحظة التي يتوقَّف فيها عن الاهتمام. لقد قُضِيَ على الحيوان، والرجل يقبع في الحبس رهن التحقيقات؛ انتهى الصيد. هلم إلى الحيوان التالي!

أشاح إشيرِش بنظرته الخافتة عن الخريطة، إنه يجلس الآن إلى مكتبه ويتناول فطوره ببطء، فيما يواصل التفكير. وحين يرن الهاتف، يمد يده نحوه بعد تردُّد. وبلا أي اكتراث يسمع النبأ:

- هنا مخفر فرانكفورتر أليه. المفتش إشيرِش؟

- معك!

- هل تتعامل مع قضية «البطاقة المجهولة» ؟

- نعم. ماذا هناك؟ بسرعة لو سمحت!
- لقد أمسكنا موزع البطاقات ونحن تقريبًا متيقنون منه.
- وهو يوزعها؟
- تقريبًا. لكنه يكذب بالطبع.
- أين وضعتموه؟
- لا يزال عندنا في المخفر.
- حافظوا عليه هناك، سأصل بسيارتي إليكم خلال عشر دقائق. إياكم ومواصلة التحقيق معه! اتركوه في هدوء. أريد أن أتحدَّث معه بنفسي. مفهوم؟
- أوامرك، سيدي المفتش!
- أنا قادم فورًا.
- وقف المفتش إشيرِش برهة وهو لا يكاد يصدر أي حركة. المصادفة.. المصادفة الرحيمة الطيبة! لقد كان يعرف، على الواحد أن يتحلَّى فقط بالصبر!

توجَّه متعجلًا إلى التحقيق الأول مع موزع البطاقات.

22

بعد ذلك بستة أشهر، إِيْنُوْ كْلُوْجِه

جلس الميكانيكي إِيْنُوْ كْلُوْجِه بنفاد صبر في غرفة انتظار الطبيب. جلس هناك مع ثلاثين أو أربعين آخرين ينتظرون مثله. نادت واحدة من المساعدين الرقم 18 بصوت منفعل، لكن إِيْنُوْ كان يحمل الرقم 29. سيتعيَّن عليه أن يظلَّ جالسًا لساعة أو أكثر، وفي حانة «فيرنر ليفن» مَن ينتظره بالفعل.

لم يتمكَّن إِيْنُوْ كْلُوْجِه من تحمُّل الجلوس أكثر من ذلك. وكان يعلم جيِّدًا أنه لا يستطيع أن يمضي قبل أن يكتب له الطبيب إذنًا مرضيًّا، وإلا تعرض لمشكلة في المصنع. لكنه في الحقيقة لم يكن بوسعه أن يواصل الانتظار أطول من ذلك وإلا صار الوقت متأخِّرًا على إتمام رهانات السباق.

أراد إِيْنُوْ أن يتمشى في الغرفة ذهابًا وجيئة، لكن لن يتمكَّن من ذلك بسبب الزحام الشديد، صارت أعصابه مستثارة. ولهذا انسحب إلى الصالة، حينها رأته المساعدة وطالبته بالعودة إلى غرفة الانتظار، لكنه سألها بعصبية عن الحمام.

أشارت إلى مكانه وأرادت أن تنتظر حتى يخرج. لكن حينها رن جرس الصالة عدة رنات قصيرة متتالية، وعليها أن تستقبل المرضى أرقام 43، و44، و45، لتتسلَّم منهم أغراضهم الشخصيَّة

وتملأ بطاقاتهم وتختم الأذون المرضيَّة. وتسير الحال على هذا المنوال من بكرة الصباح إلى ساعة متأخرة من الليل. تُمسي هي والطبيب على شفا الانهيار من التعب، وأبدًا لا تغادرها تلك الحالة اللعينة التي تجعلها متحفِّزة طوال الوقت، وتستمر لأسابيع وأسابيع. وفي هذه الحالة تُلقي موجات من كراهية حقيقيَّة تجاه هذا النهر الجاري من المرضى الذين لا يتركون لها أي فرصة للراحة، فهم يقفون لدى الباب منذ الثامنة صباحًا في الوقت الذي تحضر فيه، ويظلون في غرفة الانتظار حتى العاشرة مساء ويملؤون فضاء الغرفة بروائح عطنة. كلهم يتسلَّلون من العمل، من الجبهة، بشرٌ يريدون أن يقتنصوا لأنفسهم مواد غذائية أكثر أو أفضل بمجرد إظهار الشهادة الطبية. كلهم بشر يريدون الهرب من التزاماتهم، أما هي فلا تستطيع أن تفعل ذلك. عليها أن تتحمَّل العمل هنا، من غير المسموح لها أن تمرض (وإلا فكيف سيتصرَّف الطبيب بدونها؟)، وفوق ذلك عليها أن تعامل هؤلاء المخادعين بودٍّ، هؤلاء الذي يوسخون كل شيء بمخاطهم وفضلاتهم! حتى الحمام مليء بكميات هائلة من رماد السجائر.

انتبهت على أن المتسلل الخبيث لم يعد، ذاك الذي اضطرت أن تريه الطريق إلى دورة المياه. بالتأكيد لا يزال يجلس هناك ملتذِّذا بتدخين السجائر. تقفز من مكانها، وتجري ثم تبدأ الطرق على الباب.

- مشغول! (يصيح صوتٌ مَن الداخل)

- اخرج بسرعة إذا سمحت! (بدأت تؤنبه بصوت غاضب)

هل تظنّ أن في وسعك أن تظل جالسًا ساعات وساعات؟ ثمة آخرون يريدون استخدام دورة المياه كذلك!

ترمي بكلمات لكْلُوْجِه الذي تسلل من جوارها:

- بالطبع ملأتَ المكان عن آخره بدخانك! سأخبر السيد الدكتور بكل ذلك ليعرف كم أنت مريض! ستلقى جزاء فَعلتك!

أسند إيْنُوْ كْلُوْجِه رأسه إلى الجدار محبَطًا. وكان كرسيُّه قد شُغل في تلك الأثناء. كان الطبيب قد وصل إلى الرقم 22.

ربما يكون من العبث مواصلة الانتظار هنا. فتلك المتوحشة بالخارج بصدد أن تحفِّز الطبيب ضده بحيث لا يكتب له إذنًا طبيًا. وما يترتب على ذلك؟ سيُطرد من المصنع! فلقد غاب حتى اليوم أربعة أيام؛ إنهم بصدد تحويله إلى التأديب أو لعلهم يفعلون ذلك حقًا أو يرسلونه إلى معسكر تعذيب، فالإخوة في مقدورهم ذلك! أجل، لا بد أن يحصل اليوم على شهادة مرضية، وأفضل ما يفعل هو أن ينتظر هنا ما دام انتظر كل ذلك الوقت. لو ذهب إلى طبيب آخر لوجد العيادة مزدحمة أيضًا على ذلك النحو. سيتعيَّن عليه أن يظل هنا إلى الليل، وعلى الأقل فلقد سمع من قبل عن هذا الطبيب، وقيل إنه يكتب الشهادة المرضية بسهولة. عليه اليوم إذًا ألا يراهن على الخيول، فليُتم السبق اليوم بدون إيْنُوْ، لا مفر من ذلك.

يستند إلى الحائط وهو يسعل، حركة ضعيفة. الأفضل لا شيء. إنه لم يتعافَ قط من الاحتكاك برجل الشرطة العسكرية بِيرْزِيكِه. صحيح أن حاله في العمل صارت أفضل بعد عدة أيام رغم أن يديه لم تعودا إلى نفس المهارة القديمة. لكن يكفيه أن يكون عاملًا

متوسطًا. لن يصل أبدًا إلى المهارة القديمة، ولن يصبح رجلًا مرموقًا في تخصصه.

ربما كان ذلك هو ما جعله لا يكترث للعمل، وربما تعلَّق الأمر بأنه مع الوقت لم يعد يستمتع به. ولم يعد يرى جدوى أو هدفًا لما يفعله. من أجل ماذا يجهد نفسه كل هذا الجهد إن كان يستطيع أن يحيا حياة كافية بدونه؟! من أجل الحرب مثلًا؟ فليقودوا حربهم اللعينة تلك بمفردهم، فهذا أمر لا يهمه. ربما ساعتها يرسلون كل قططهم السمينة الفاسدة إلى الجبهة وبهذا ستضع الحرب أوزارها بسرعة!

لا، لم تكن المسألة أيضًا تتمثَّل في السؤال حول قيمة عمله، التي جعلته يكره كل نشاط. لقد كان الظرف هو أن إِيْنُوْ في الوقت الحالي يستطيع أن يعيش بدون أن يعمل. أجل، لقد كان ضعيفًا، إنه يعترف لنفسه بذلك الآن، لقد عاد إلى النساء مرة أخرى، ذهب أولًا إلى تُوتِّي، ثم لُوْتِه، وكانت كل واحدة مستعدة تمامًا أن تتحمَّل هذا الرجل القصير اللزج لبرهة من الوقت. وفي اللحظة التي يستسلم فيها الواحد للنساء، ينتهي بالنسبة إليه أي عمل نظامي. في الصباح يسبُّونه حينما يطالب بقهوته وفطوره في السادسة صباحًا، ماذا يعني ذلك؟ في هذا الوقت ينام كل الناس، وهل يحتاج إلى ذلك فعلًا؟ عليه أن يعود زاحفًا مرة أخرى إلى الفراش الدافئ!

يستطيع الواحد أن يخرج منتصرًا من معركة كهذه مرة أو اثنتين، لكن حينما تكون إِيْنُوْ كْلُوْجِه لن توجد مرة ثالثة. اضطُرَّ إلى أن يستسلم، ويزحف إلى النساء في الفراش، ثم ينام ساعة أو اثنتين أو حتى ثلاثًا إضافية.

وحين يتأخر الوقت جدًّا لا يستطيع أن يذهب إلى المَصنع، وبالتالي يتغيَّب. أما إن كان الوقت مبكرًا نوعًا ما فإنه يذهب متأخِرًا جدًّا إلى العمل متحجِّجًا بأي عذر قبيح، فَيُوَبَّخ (لكنه صار معتادًا ذلك منذ زمن فلم يعد الكلام يؤثر فيه)، يعمل أي شيء لعدة ساعات، ثم يرجع إلى المنزل، ليُستقبل بالشتائم من جديد: «لأي شيء إذًا أستَبقِي رجلًا في البيت إن كان سيظل مبتعدًا طوال النهار؟ بسبب عدة ماركات! بالتأكيد يمكن كسبها بطريقة أسهل من ذلك! لا، إن كان لا بد من العمل فالأفضل أن يظل في تلك الغرفة الصغيرة بالفندق، لأن الأمرين يصعب دمجهما». مع واحدة يمكن.. مع إيفا. وبالطبع حاول إيْنُوْ كْلُوْجِه أن يعود إلى السكن مع زوجته، ساعية البريد. لكنه علم من السيدة جِيشْ أن إيفا سافرت. لقد تلقت إيفا خطابًا منها، تُخطرها أنها في مكان ما في روبينشن لدى بعض الأقارب. أجل، السيدة جِيشْ معها مفاتيح الشقة، لكنها لم تفكر أن تسلمها لإيْنُوْ كْلُوْجِه. من يرسل الإيجار بشكل منتظم.. هو أم هي؟ إذًا الشقة تخصُّها، لا تخصُّه هو! لقد ارتكبت بسببه ما يكفي من حماقات، ولن تفكِّر الآن أن تعطيه الشقة.

وبالإضافة إلى ذلك إن كان يريد أن يفعل شيئًا لزوجته، فليذهب إلى البريد. فهم قد أرسلوا عدة مرات في طلب السيدة، ثم وصلَتْ أخيرًا مطالبةٌ بالمثول أمام محكمةٍ ما من محاكم الحزب، وببساطة أعادت السيدة جِيشْ الخطاب ممهورًا بملاحظة «المُتَسَلِّم مسافر إلى جهة غير معلومة». لكن هذه المسألة مع البريد عليه أن يحسمها ببساطة. فلا بد أن لزوجته حقوقًا.

قصة الحقوق هذه أثارته، ففي النهاية ما زال يستطيع أن يثبت أنه زوجها الشرعي، وأن حقوق إيفا هي أيضًا حقوقه. لكن هذا الطريق ثبت أنه طريق خطأ؛ في البريد وضعوه بقوة بين شقي الرحى. لا بد أن إيفا فعلت شيئًا للحزب، لقد كانوا غاضبين منها! وهكذا لم يعد متعجلًا في إثبات أنه الزوج الشرعي لإيفا، على العكس لقد صار يبذل جهدًا كبيرًا كي يثبت أنه يعيش منفصلًا عن إيفا من مدة طويلة وأنه لم يعد لديه أدنى فكرة عما تفعل. في النهاية تركوه يمضي في حال سبيله. إن أي شيء يمكن استخراجه من ذلك الرجل القصير الذي على استعداد دائمًا أن يَئِنَّ ويبدأ في الارتعاش كلما سمع صوت الصافرة. إذًا يمكن أن يمضي، كان عليه أن يأتي وإن حدث ورأى زوجته مرة أخرى فعليه فورًا أن يرسلها إلى الهيئة هنا. أو الأفضل، عليه أن يعطيهم إشارة بأين تقطن، أما الباقي فسيتولونه بأنفسهم.

وفي طريق العودة إلى لُوْتِه ابتسم مجدَّدًا. إذًا إيفا المجتهدة هي أيضًا في ورطة، ولهذا انطلقت هاربة إلى أقاربها في روبينشن ولم تعد تجرؤ أن تظهر في برلين مرة أخرى! بطبيعة الحال لم يكن إيْنُوْ من الحماقة بحيث يكشف لرجال البريد عن وجهة سفر إيفا، فهو ماكر مثل السيدة جِيشْ. ليبقى ملاذٌ أخيرٌ، إن كانت أحواله في برلين ستسوء للغاية، فبوسعه دائمًا أن يظهر لدى إيفا، وربما تستقبله فعلًا. لأنها ربما تخجل من أن تنتقده بعنف أمام أقاربها. إذ طالما أعطت إيفا أهمية للمظهر والسمعة الحسنة. وأخيرًا سيستطيع أن يأسرها بأفعال كارْلْمان البطولية، لن تتحمَّل أبدًا أن يحكي لأقاربها، وبالتالي سيكون من الأفضل لها أن تقبل به.

ملاذ أخير، حينما فعلًا تتدهور الأحوال. لكن بشكل مؤقت لا يزال لديه لُوْتِه. إنها حقًّا لطيفة، عدا ثرثرتها، فهي لا تتحمَّل أن تبقى صامتة لثانية واحدة، وعدا طبعها اللعين في استقبال رجال في غرفتها. ويتعيَّن عليه في تلك الأثناء أن يمضي ليلته كلها أو نصفها في المطبخ، وبالتالي لا يتمكَّن من الذهاب إلى عمله في اليوم التالي.

لم يعد الرجل المناسب تمامًا للعمل، ولن ينصلح الأمر ثانية. كان يعلم ذلك جيِّدًا. لكن ربما تنتهي هذه الحرب أسرع مما يظنُّ، وها هو ذا قد تمكن من التحمل إلى الآن. ولهذا السبب عاد إلى التسكع ثم التسلل من العمل. كان وجه رئيسه يحمرُّ من الغضب لمجرد أن يراه. ثم جاءه إنذار ثانٍ من الإدارة لكن هذه المرة اختلف الأمر. رأى إِيْنُوْ كُلُوْجِه بالفعل ما الموجود على المحك، لقد كانوا يحتاجون إلى العمال كل يوم، ولهذا فلن يطردوه بسهولة!

سرعان ما مضت ثلاثة أيام من التسكع، تعرَّف فيها إلى أرملة مثيرة، لم تعد شابة، ولم يعد قوامها فاتنًا، لكنها بكل تأكيد أفضل كثيرًا من النساء اللائي عرفهن حتى الآن. لديها دكان حيوانات بالقرب من كونيجزتور! وعملها يسير على نحو طيب. كانت تتاجر في الطيور والأسماك والكلاب، لديها طعامهم وأطواق الرقبة والرمل وكعك الكلاب والدود المطحون. عندها أيضًا سلاحف، ضفادع، وسَحَالٍ وقطط... عمل يدر ربحًا وهي سيدة مجتهدة، سيدة أعمال حقيقيَّة.

ادعى أمامها أنه أرمل، وجعلها أيضًا تعتقد أن «إِيْنُوْ» هو لقب عائلته، أما هي فأطلقت عليه تدليلًا «هَيِنْشِن» أي هانس الصغير.

بالتأكيد لديه فرص مع السيدة. لقد رأى ذلك جيِّدًا في الأيام الثلاثة التي تسكع فيها عندها مدعيًا أنه يساعدها في العمل. رجل قصير لا ينشد إلا بعض الحنان كان يناسبها تمامًا. لقد كانت في السنِّ التي تقلق فيها السيدة على فرصها في الحصول على رجل يبقى معها لأيام الشيخوخة. بالتأكيد ستريد أن تتزوجه، لكنه سيحاول أن يحتال على هذا الأمر بطريقة أو بأخرى. في النهاية ثمة عقد قران خاص بأيام الحرب لا تُفحص فيه الأوراق بدقة، كما أنه لا يحتاج إلى القلق بشأن إيفا. ستكون سعيدة أن تتخلَّص منه إلى الأبد، وستغلق فمها فعلًا!

فجأةً اشتعلت الرغبة في نفسه أن يحرِّر نفسه من المصنع تمامًا. عليه أن يلعب دور المريض في كل الأحوال لأنه تغيب ثلاثة أيام بدون أن يعتذر. ثم أراد أن يكون مريضًا فعلًا، وفي أثناء هذا المرض سيعمل على إنجاح المسألة مع الأرملة هِيْتِه هِيْبِرْلِه. فالآن صار يصاب بالتقزُّز من الوجود مع لُوْتِه، لم يعد يستطيع تحمُّلها أكثر من ذلك، لا ثرثرتها، ولا رجالها، بل ولا حتى رقتها حينما تكون مخمورة. لا، في غضون ثلاثة أو أربعة أسابيع يريد أن يكون قد تزوَّج ويصبح له دخل منتظم! وعلى الطبيب أن يعينه على ذلك.

لا يزال عند الرقم 24، سيستغرق الأمر نصف ساعة إلى أن يحين الدور على إيْنُوْ. بطريقة آلية

تجاوز أقدام المرضى إلى أن وصل ثانيةً إلى الردهة. سيدخن سيجارة أخرى في دورة المياه رغم أنف المُساعدة المزعجة. حالفه الحظ ونجح في الوصول إلى دورة المياه من دون أن يراه أحد. لكن

ما إن سحب عدة أنفاس حتى وجد تلك المرأة الفجَّة تدقُّ بابه من جديد.

- أنتَ مجدَّدًا في دورة المياه! أنت تدخن مرة أخرى! (صاحت) أعلم تمامًا من أنت! هلَّا خرجت من فضلك أم تريدني أن أُحضر السيد الطبيب؟

يا للطريقة المزعجة التي تصرخ بها! الأفضل أن يسلِّم نفسه فورًا مثلما يستسلم دائمًا بدلًا من أن يقاوم. تركها تجرُّه إلى غرفة الانتظار، لم ينطق بكلمة اعتذار. والآن جلس مستندًا إلى الحائط وانتظر أن يحين الدور على رقمه. أما هذه فبالتأكيد ستشكوه إلى الطبيب، تلك الحمقاء المقززة.

لقد جرَّت المساعدة إِيْنُوْ كْلُوْجِه القصير حتى مكانه، وذهبت مجدَّدًا إلى الطرقة. لقد تمكنت منه!

وحينها رأت بطاقة على الأرض بعيدة نوعًا ما عن فتحة صندوق البريد. لم تكن البطاقة هنا من خمس دقائق عندما فتحت الباب للمريض التالي، هي تعرف ذلك تمامًا. لم يرنَّ أحد الجرس، ثم إن الوقت الآن ليس موعد توزيع البريد.

فكرت المساعدة في كل ذلك تفكيرًا خاطفًا فيما تنحني لتلتقط البطاقة، وتيقَّنت تمامًا أنها كانت هناك قبل أن تمسكها بيديها، بل حتى قبل أن تراها، ودار في وجدانها شعور أن ذلك الرجل القصير المتسلِّل له علاقة بالمسألة.

ألقت نظرة سريعة على النَّصِّ، قرأت بضع كلمات ثم جَرَت متحفِّزة إلى الطبيب في غرفة الكشف:

- سيدي الطبيب! سيدي الطبيب! انظر ماذا وجدتُ للتو عندنا في الصالة!

قطعت الاستشارة، وسألت المريض الذي يرتدي نصف ملابسه أن ينسحب إلى الغرفة المجاورة، ثم أعطت الطبيب البطاقة ليقرأها. بالكاد استطاعت أن تنتظر حتى يقرأها للنهاية وسرعان ما أخبرته عمَّن تشتبه فيه:

- لايمكن حقًّا أن يكون أي أحد آخر سوى المتسلل القصير! من البداية لم أرتح له بتلك النظرات الخجولة التي ينظر بها! إنه يجسِّد قلة الضمير، لم يتمكّن من الجلوس هادئًا ولو للحظة. يخرج دائمًا إلى الصالة، ولقد جلبته مرتين من دورة المياه! وعندما فعلتها للمرة الثانية كانت البطاقة في الصالة! لا يمكن أن يكون قد ألقاها أحدهم من الخارج، ثم إنها كانت بعيدة جدًّا عن فتحة صندوق البريد! سيدي الطبيب! اطلب الشرطة فورًا قبل أن يهرب الرجل! يا إلهي! يمكن أن يكون قد هرب الآن فعلًا، لا بد أن أذهب لأرى...

وبهذا خرجت مندفعة من غرفة الكشف وتركت الباب مفتوحًا وراءها.

وقف الطبيب هناك وهو لا يزال يحمل البطاقة في يده، شعر بحرج بالغ أن شيئًا كهذا حدث تحديدًا في وقت عيادته! حمدًا لله أن مُساعِدَته وجدت البطاقة وأنه يستطيع أن يثبت أنه لم يغادر غرفته منذ ساعتين، إنه حتى لم يذهب إلى دورة المياه. الفتاة لديها حق،

أفضل شيء هو الاتصال فورًا بالشرطة. بدأ في البحث عن رقم قسم الشرطة في دليل التليفونات.

نظرت الفتاة من الباب المفتوح:

- إنه لا يزال هنا سيدي الطبيب! (قالت هامسة)

يفكِّر بالطبع أنه بهذه الطريقة يُبعد عن نفسه الشبهات. لكن أنا متيقنة تمامًا...

- هذا حسن.. (قاطع الطبيب السيدة المتحفِّزة)

أغلقي الباب من فضلك. سأطلب الشرطة الآن.

قدَّم بلاغه، وسمع التنبيه بضرورة الإمساك بالرجل إلى أن يصل أحد من القسم، أخبر مساعدة الطبيب بذلك وطلب أن تناديه فورًا إن كان الرجل سيأتي بمحاولة للخروج، ثم عاد ليجلس ثانية في كرسيه. كلا، لن يتمكَّن من مواصلة الكشف على المرضى فهو منفعل للغاية. أن يحدث له شيء كهذا! هو تحديدًا! لماذا؟! يا له من إنسان منعدم الضمير كاتب البطاقات هذا، لقد جلب للناس محنة كبرى! ألم يفكِّر في المتاعب التي ستصنعها لهم بطاقته الملعونة؟

حقيقةً كأنَّ حظ الطبيب السعيد كان ينقصه هذه البطاقة! الآن الشرطة في الطريق، ربما يكون هو أيضًا موضع شبهة، ستُفَتَّش العيادة، وفي اللحظة التي يثبت فيها أن اشتباههم فيه في غير محله، سيجدون في غرفة الساعي...

وقف الطبيب، على الأقل ينبغي أن يبلغها بالخبر...

ثم جلس مجدَّدًا. كيف يمكن إذًا أن يكون موضع شبهة؟ حتى بعد أن يجدوها، ستظل هي مديرة منزله كما تقول أوراقها. لقد فكَّر في كل ذلك وناقشه مئات المرات، قبل ستة أشهر، منذ أن اضطُرَّ إلى تطليق زوجته اليهودية تحت ضغط النازيين. لقد فعل ذلك، مستجيبًا لتوسلاتها في المقام الأول، من أجل أن يضمن شكلًا من أشكال الحياة لأطفالهما. لاحقًا، وبعد أن غيَّر الشقة التي كانا يسكنان فيها، أعاد زوجته السابقة بوصفها مديرة المنزل بعد أن دبَّر لها أوراقًا مزيفة. في الحقيقة لا يمكن أن يحدث أي شيء، لم يكن يظهر عليها أنها يهودية على الإطلاق.

هذه البطاقة اللعينة! التي كان لا بد أن تصل إليه هو تحديدًا! لكن ربما كانت المسألة على ذلك النحو، أنها تثير الرعب والخوف أينما عُثر عليها. فكل واحد لديه ما يُخفيه هذه الأيام!

ربما كان هدف هذه البطاقة هو إثارة الخوف والذعر؟ ربما وُزِّعَت هذه البطاقة بتدبير شيطاني على المشتبه فيهم ليُسجَّل كيف سيتصرَّفون؟ ربما كان موضوعًا تحت المراقبة من مدة طويلة وكانت هذه فقط واحدة من الوسائل لإثبات أن المشتبه فيه يرتكب حماقات!

في كل الأحوال فلقد تصرَّف على النحو الصحيح؛ لقد اتصل بالشرطة بعد خمس دقائق من العثور على البطاقة. بل إنه سيقدِّم لرجال الشرطة المشتبه فيه، ربما يكون شيطانًا مسكينًا، لا شأن له على الإطلاق بالمسألة. هنا لن يستطيع أن يساعده، وعلى الرجل أن يتولَّى بنفسه مسؤولية الإفلات من هذه القصة! أهم شيء أن يظل هو محميًّا.

ورغم أن هذه الأفكار جعلت الطبيب يهدأ إلى حدٍّ كبير، فلقد نهض وأعطى نفسه بسرعة حقنة مورفين على سبيل الاحتياط، ستجعله في حالة تمكنه من مقابلة السادة الذين على وشك اقتحام المكان بهدوء، بل ربما تظهر عليه علامات الملل. هذه الحقنة الصغيرة هي وسيلة مساعدة منذ أن شعر بـ«عار الطلاق»، كما سمَّى الوضع داخل نفسه، لمنحِهِ ملاذًا آمنًا. ليس مدمن مورفين، إنه بعيد جدًّا عن ذلك، بل إنه يستطيع أن يجتاز خمسة وأحيانًا ستة أيام بدون المورفين، لكن عندما تظهر بعض المصاعب في طريق حياته، وهذه المصاعب تتزايد وتتراكم الآن بسبب الحرب، ساعتها يأخذ المورفين. هذا ما يساعده، فبدون هذه المساعدة الصناعية سيفقد أعصابه. لا، هو لم يصبح مدمنًا بعد! لكنه على الطريق الأقرب أن يكون. آخ، لو أن هذه الحرب تنقضي بحيث يتمكّن من الخروج من هذه البلاد التعسة! سيكون راضيًا بوظيفة ممرض صغير في الخارج.

بعد ذلك بدقائق يستقبل الطبيب الشاحب المنهك رجلين من شرطة الحراسة. الأول يرتدي الزي الرسمي وصدرت إليه الأوامر بحراسة باب الصالة، صرف المُساعِدة فورًا.

أما الثاني فمدني، المعاون الجنائي شْرُودِر. يناوله الطبيب البطاقة في غرفة الكشف، ماذا يمكن أن يقول؟ الآن لا يستطيع أن يُدلي بأي شيء، فهو جالس هنا منذ أكثر من ساعتين بدون مقاطعة مع المرضى، لقد كشف على قرابة عشرين أو خمسة وعشرين على التوالي. لكنه سينادي المُساعِدة فورًا.

أتت وكان لديها كثيرٌ لتقوله. تُصوِّر ذلك «المتسلِّل» كما تسميه الآن، بكراهية غير مفهومة على الإطلاق لمجرد أنه دخَّن مرتين في الحمام. راقبها الطبيب جيِّدًا، كيف أنها مستثارة، لدرجة أن صوتها يتقطَّع وهي تدلي بأقوالها. يفكِّر «عليَّ أن أرى إن اتَّخذَتْ إجراء جادًّا مع داء بازدوف*، لأن حالتها تسوء أكثر فأكثر»؛ إنها تتحدَّث الآن بانفعال يجعل من الصعب أن يحمل أحدٌ كلامها على محمل الجد.

بدا أن المعاون الجنائي يفكِّر بطريقة مشابهة.

- شكرًا! أعرف الآن ما يكفي! (قال بإيجاز مقاطعًا كلامها)

أريني الآن يا آنسة أين وجدتِ البطاقة، لكن لو سمحت بأكبر قدر من الدقة!

وضعت الآنسة البطاقة في موضع، برأيها أنه يبدو بعيدًا عن فتحة صندوق البريد. لكن المعاون اختبر -بمساعدة الحارس- قَذْفَ البطاقة إلى أن وصلت إلى مكان مقارب للمكان الذي عيَّنته المساعدة. مقارب، لا يبعد إلا سنتيمترات...

- هل يمكن أن تكون وقعت هنا يا آنسة؟ (يسأل المعاوِن)

تقول المُساعِدة إنها سعيدة أن المعاون نجح في هذه التجرِبة. لكنها توضح بحسم:

- لا، لا يمكن أن تكون البطاقة قد وُضعت قريبًا هكذا من الباب! بل بعيدة في الصالة كما أوضحتُ سابقًا. أعتقد الآن أنها وُضعت إلى جوار الكرسي مباشرة.

---

* مرض مناعي يصيب الغدة الدرقية. (المترجمة)

ثم تشير إلى بقعة تبعد نصف متر عن مكان الرمي:

- أنا متيقِّنة أنني كدت أصطدم بهذا الكرسي حين رفعتها عن الأرض.

- هكذا إذًا!

قال المعاون وحدَّق ببرود إلى الغاضبة، فيما هو -داخليًّا- يشطب على كل أقوالها. «إنها شخصيَّة هيستيرية» فكَّر.. «بالطبع ينقصها رجل. فكلهم بالطبع في الميدان، ثم إنها لا تبدو على قدر من الجاذبية».

توجَّه بصوتٍ عال نحو الطبيب:

- أريد الآن أن أجلس مثل مريض لثلاث دقائق في غرفة الانتظار، وأرى الرجل المتهم بدون أن يعلم من أنا. هل هذا قابل للتنفيذ؟

- بالطبع يمكن تنفيذ ذلك. آنسة كِيزُوفْ سَتُريك أين يجلس.

- يقف! (توضِح المُساعِدة بغضب)

فمِثل هذا لا يجلس! بل يفضِّل أن يدوس على أقدام الآخرين رواحًا وجَيئةً! ولا يعطي ضميره أي راحة! ذلك المتسلل...

- إذًا أين هو؟ (قاطعها المعاون مرة أخرى، وهذه المرة ليس بأدب جمّ)

- في البداية وقف إلى جوار المرآة في النافذة.. (أجابت وهي مستاءة للغاية)

لكني لا أستطيع أن أقول أين يقف الآن، لأنه كثير الحركة بطبعه.

- سأجده! (قال المعاون شْرُودِر)

لقد وصَفَتْهُ لي

ثم يذهب إلى غرفة الانتظار.

هناك قلق، إذ لم يُستَدعَ أي مريض إلى غرفة الكشف منذ أكثر من عشرين دقيقة، كم من الوقت سيتعيَّن عليهم أن يظلوا جالسين؟ فلديهم كثير من الأشغال الأخرى. ربما يفضِّل الطبيب عليهم بعض المرضى الخاصين الذين يدفعون له جيِّدًا، أما مرضى التأمين فعليهم أن يظلوا جالسين هنا إلى أن يتفحَّموا! لكن كل الأطباء يفعلون ذلك، سيدي العزيز، اذهب حيثما شِئت! ففي كل مكان الأولوية لمن يدفع أكثر!

وفيما يتصاعد الحديث عن شراء ذمم الأطباء وينخرط فيه مزيد من الموجودين، يحدِّق المعاون صامتًا بحثًا عن رجله المنشود. لقد عرفه على الفور. لا هو مفرط الحركة ولا هو متسلِّل كما وصفته المساعدة. بل إنه يقف هناك هادئًا تمامًا إلى جوار المرآة ولا يشارك في الحديث مع الآخرين. ولا يبدو أنه يسمع ما يقولون من الأساس. وهذا ما يفعله الواحد من أجل أن يمرِّر وقت الانتظار الطويل المملّ. يشاهد بعض الوقت بلا مشاهدة حقيقيَّة وأحيانًا يشترك في المشاهدة بعض الخوف. عامل بسيط، يقرر المعاون، لا، بل أفضل قليلًا، تبدو يداه ماهرتين، ثمة آثار عمل، لكن لا آثار لأعمال شاقة، بدلة ومعطف مهندمان بعناية كبيرة لا تشي بتهالكهما. بشكل عام لا شيء يشبه النبرة التي يستخدمها كاتب البطاقة في تقديم نفسه. فهذا يكتب بأسلوب قوي جدًّا، أما ذلك الرجل الذي يبدو كالأرنب الأنيق...

لكن المعاون يعرف منذ زمن أن البشر غالبًا مختلفون تمامًا عن مظهرهم. وهذا الرجل لا يزال يحمل كثيرًا مما يستحق التحقُّق منه في ضوء ما روته الشاهدة. لا بد أن كاتب البطاقات هذا قد جعل السادة يشعرون ببعض القلق، قريبًا صدر أمر تحت عنوان «سرِّي! سرِّي للغاية!» بأن يُتَابعَ أي أثر يخص هذه المسألة فورًا مهما كان صغيرًا. «سيكون جميلًا لو أنني حقَّقت نجاحًا صغيرًا هنا!» يفكِّر المعاون.. «لقد حان وقت الترقية».

وفي أثناء استمرار حالة الاستياء الكلامية يتوجَّه -بدون أن يلاحظه أحد- نحو الرجل القصير الواقف إلى جوار المرآة، يربت على كتفه ويقول:

- تفضل معي دقيقة إلى الصالة. أريد أن أسألك عن شيء.

يتبعه إِينُوْ كْلُوْجِه مطيعًا مثلما يتبع كل أمر منصاعًا. لكن فيما هو يسير خلف الرجل الذي لا يعرفه يمسك الخوف بتلابيبه «ما هذا؟ ماذا يريد هذا مني؟ يبدو مثل الثور كما أنه يتحدَّث تمامًا مثل الثور. ما شأني والشرطة الجنائية؟ أنا لم أرتكب شيئًا على الإطلاق!».

في اللحظة ذاتها عادت إليه ذكرى اقتحام شقة رُوْزِنْتال؛ لا شك أن بُورْكْهاوْزِن قد وشى به. صار الخوف داخله أكبر. لقد أقسم إنه لن ينطق بكلمة لو أن ذلك الرجل التابع للشرطة العسكرية أراد أن يستجوبه ويعذبه ثانية، وهذه المرة ستكون أسوأ كثيرًا! ليس مسموحًا له أن يقول أي شيء، لكنه لو لم ينطق بأي شيء سيمسك به هذا الثور، وسيضطر ساعتها إلى إفشاء كل شيء. هنا خراب، وهناك خراب.. أوه، يا لهذا الخوف المريع!

وحينما وَطِئت قدمه الصالة وجد أربعة أوجه تنظر إليه، لكنه لا يراها على الإطلاق، لا يرى إلا الزي الرسمي للشرطة ويعرف أنه كان محقًّا في الشعور بالخوف، وأنه الآن يقف ما بين هلاك وهلاك.

يُضفي الخوف على إينُوْ كْلُوْجِه صفات هي عادةً ليست فيه، مثل الحسم والقوة والسرعة. دفع المعاون المتفاجئَ -الذي لم يتوقع هذه الحركة من القصير الضعيف- في وجه الشرطي، وركض من جوار الطبيب والمساعدة ثم نهب الصالة وسرعان ما قفز على السلم...

يتبعه الشرطي مُصدِرًا تنبيهًا بصافرته، أما هو.. فلم يقوَ على استباق ذلك الشاب الطويل الساقين الذي أمسك به على درجة السلم الأخيرة وسدَّد إليه لكمة أسقطته، وفيما الدنيا تميدُ به سمع صوت الشرطي يقول بودٍ وهو يبتسم:

- هيا مُدَّ ذراعك الجميلة، نريد أن نهديك سِوارًا. في المرة القادمة سنذهب إلى النزهة معًا، أليس كذلك؟

وسرعان ما اصطكَّ حديد الأصفاد وهو ينغلق على رسغيه، واصل صعود السلم بين الثور الصامت ذي النظرات القاتمة، والشرطي المبتسم المستمتع، الذي يتسلَّى بهذا المتمرِّد الأحمق.

في الأعلى، حيث المرضى يقفون في الصالة ولم يعودوا مستائين من طول وقت الانتظار لدى طبيبهم، لأن عملية الاعتقال هي دائمًا عملية مسلية، وبالطريقة التي تحكي بها المساعدة فغالبًا هذا الرجل ناشط سياسي، شيوعي، وهؤلاء الإخوة ينالون ما يستحقون- في الأعلى إذًا مضى عابرًا بكل تلك الوجوه إلى غرفة الكشف في العيادة.

يصرف المعاون المساعدةَ الآنسة كِيزُوفْ فورًا، لكنه يسمح للطبيب أن يبقى في أثناء التحقيق ليسمع، يقول المعاون:

- والآن يا بني، فلتجلس أولًا على الكرسي لتلتقط أنفاسك بعد هذا التعب. فإنك تعطي انطباعًا بأنك لُوحِقْتَ. أيها الحارس، تستطيع أن تخلع الأصفاد عن السيد. فهو لن يهرب منَّا مرة أخرى. أليس كذلك؟

- بلى، بلى! (يؤكد إِيْنُوْ كْلُوْجِه يائسًا، وسرعان ما تفيض الدموع على وجنتيه)

- لو تكرَّر الأمر يا بني فلن آمُرَ بملاحقتك. المرة القادمة سيفرقع الرصاص مباشرة يا بني!

يصر المعاون على مخاطبة كْلُوْجِه، الذي قد يكون أكبر منه بنحو عشرين سنة بكلمة «بُنَيَّ».

- لا تبكِ هكذا! لا يمكن أن يكون ما اقترفتَهُ بهذا السوء. أم ماذا؟

- لم أفعل شيئًا على الإطلاق! (يقول إِيْنُوْ كْلُوْجِه باكيًا)

لا شيء على الإطلاق!

- بالطبع يا بني! (يقول المعاون مؤكِّدًا)

لهذا تركض سريعًا مثل الأرنب بمجرد أن ترى الحارس مرتديًا الزي الرسمي! يا دكتور، أليس لديك أي شيء يمكن أن يساعد زكيبة البكاء هذا في الوقوف ثانية على قدميه؟

بعد أن شعر الطبيب أنه لا خطر يتهدَّد رأسه، صار ينظر إلى ذلك البائسٍ بتعاطُف من القلب. «ما هو إلا إنسان آخر داست عليه الدنيا».. فكّر الطبيب في أن يسمح له بحقنة مورفين بأقل جرعة ممكنة. لكنه لا يجرؤ على ذلك بسبب الموظف الجنائي. الأفضل أن يعطيه بعض البروم.

ولكن -فيما لا يزال يذيب ملح البروم في الماء- يقول إِيْنُوْ كْلُوْجِه:

- لا أحتاج إلى شيء. لا أريد أن أتناول أي شيء. لن أدعكم تُسمِّمونني. أفضِّل أن أقول كل شيء...
- إذًا هيا! (يقول الموظف الجنائي)

كنت أعرف أنك ستتعقَّل يا بني! فَلتَحْكِ لنا إذًا...

يمسح إِيْنُوْ كْلُوْجِه الدموع عن وجنتيه ويبدأ في الحكي.

كان يبكي دموعًا حقيقيَّة، لأن أعصابه تخلَّت عنه. لكن حتى وهو على هذه الحالة فإنه يعرف منذ مدة بسبب -تعامله مع النساء- أن الواحد عندما يبكي يستطيع أن يفكِّر جيِّدًا. وفي أثناء ذلك خطرت بباله فكرة أنه من غير المحتمل أنهم يريدون القبض عليه عند الطبيب بسبب الاقتحام. لأنهم لو كانوا فعلًا يراقبونه لقبضوا عليه في الشارع أو عند السلم، ما كانوا ليتركوه جالسًا ساعتين في غرفة الانتظار.

لا، هذه المسألة لا تمُتُّ بأدنى صلة إلى اقتحام شقة السيدة رُوْزِنْتال. ربما هذا الاعتقال ليس إلا خطأ، ولعله ذو صلة بشيء دبَّرته المُساعِدة.

لكنه الآن محاصر، ومهما فعل فلن يستطيع أن يقنع ثورًا مثل هذا بأنه هرب فقط بسبب التوتُّر لأنه ببساطة يفقد عقله أمام كل زي رسمي. ثورٌ مثل هذا لن يقبل منه حجة كتلك. لا بد إذًا من أن يقول شيئًا قابلًا للتصديق ويمكن اختبار صدقه، وما هذا الشيء؟ سيعرف حالًا. صحيح أن وضعه سيِّئ أن يتحدَّث عنه، كما أن العواقب لا يمكن توقُّعها لكن مِنْ شَرَّيْنِ.. فإن اعترافًا كهذا هو بالتأكيد أقلهما ضررًا.

وحينما طُلِب إليه الكلام، أخذ يجفِّف دموعه وبدأ بصوت ثابت -لكنه آسِفٌ- يتحدَّث عن عمله فنيًّا ميكانيكيًّا، وكيف أنه صار كثيرًا ما يمرض لدرجة أن رؤساءه هناك صاروا غاضبين منه، والآن يريدون الزجَّ به في معسكر تعذيب أو سجن عقابي. بالطبع لا يحكي إيْنُوْ كْلُوْجِه شيئًا عن تكاسله في العمل، ويفكِّر أن هذا ما سيستنتجه الثور من تلقاء نفسه.

وبهذا هو عنده أيضًا حق، فالثور فهم جيِّدًا كيف أن إيْنُوْ كْلُوْجِه فاكهة صغيرة فاسدة.

- أجل سيدي المفتش، حينما رأيت الزي الرسمي للسيد الحارس، وبما أنني كنت جالسًا تحديدًا عند الطبيب ليكتب لي إذنًا مرضيًّا، قلت لنفسي «لقد حان الوقت، الآن سيمضُون بك إلى معسكر التعذيب، ولهذا السبب حاولت الفرار...».

- هكذا! هكذا! (قال المعاون. فكر لوهلة ثم قال)

لكن يبدو لي يا بني أنك لا تظنُّ أننا هنا من أجل ذلك.

- لا أعتقد فعلًا، هذا صحيح. (يعترف كْلُوْجِه)

- ولماذا لا تعتقد ذلك يا بُنيَّ؟

- لأنكم يمكن أن تعتقلوني أسهل كثيرًا من المصنع أو من بيتي.
- إذًا، لديك أيضًا شقة، يا بني؟
- بالطبع سيدي المستشار. زوجتي تعمل ساعية بريد، لقد تزوجتُ زواجًا سعيدًا. ولداي يحاربان في الميدان، أحدهما يعمل في الشرطة العسكرية في بولندا. أحمل أوراقي هنا، أستطيع أن أثبت لك كل شيء قلتُه بخصوص شقتي وبخصوص مكان عملي.

يسحب إِيْنُوْ كْلُوْجِه حقيبته الصغيرة المتهالكة ويبدأ في إخراج الأوراق.

- اُترك أوراقك في الحقيبة الآن يا بني. (يقول المعاون ناهيًا) سيكون وقت لاحق لهذا...

غاص في التفكير، وكل شيء الآن صامت.

لكن الطبيب بدأ في الكتابة على مكتبه بسرعة. ربما لديه حقًّا فرصةٌ هذا الرجلُ القصيرُ الذي تتناوب عليه المخاوف واحدًا بعد الآخر، سيكتب له إذنًا طبيًّا. «مغص مراري إذًا» قال. إنه وقت ينبغي للواحد فيه أن يساعد الآخر، كلما سنحت الفرصة!

- ماذا تكتب هناك يا دكتور؟ (صاح المعاون فجأةً بعد صمته)
- قصص المرضى.. (أوضح الطبيب)

أريد أن أستغل الوقت في ما يفيد قليلًا، لا يزال أكوام من البشر يجلسون هناك في غرفة الانتظار.

- صحيح، دكتور. (قال المعاون ونهض، لقد حسم قراره) نحن أيضًا لا نريد أن نعطِلك أكثر من ذلك.

إن حكاية إِيْنُوْ كْلُوْجِه يمكن أن تكون حقيقيَّة، بل هي على الأرجح حقيقيَّة، لكن المعاون لا يغادره الشعور بأنَّ شيئًا آخر وراءها، وأنه لم يسمع بعد القصة كاملة.

- ممم، إذًا تعالَ يا بني، أنت ستصاحبنا عدة خطوات. لا، ليس حتى أليكس، بل في القرب من هنا في قسمنا. أريد أن أتحدَّث معك قليلًا، صبي نشيط مثلك، ونحن لا نريد أن نعطل الطبيب أكثر من ذلك.. (قال للحارس)

لا، بلا قيود. سيأتي معنى مثل الولد الشاطر الذكي. هايْلْ هتلر، أيها السيد الدكتور، وشكرًا جزيلًا!

يقفون بالفعل عند الباب، وبدا الأمر كأنهم يريدون حقًّا الذهاب. لكن فجأةً يسحب المعاون البطاقة -بطاقة جْفَانْجِل- من جيبه، ويمسكها أسفل أنف إِيْنُوْ كْلُوْجِه ويقول للمتفاجئ بحدة:

- اقرأ لنا يا بني! لكن بسرعة بدون تردُّد أو تهتهة!

قالها كما يليق بثور متنمر.

لكن عندما رأى المعاون كيف أمسك كْلُوْجِه البطاقة وكيف أن عينيه تنظران بعدم فهم، ثم بدأ يتهته «أيها الألماني! لا تنس! لقد بدأ الأمر بضم النمسا. وتبعها بلاد السوديت وتشيكوسلوفاكيا. ثم اجتياج بولندا، وبلجيكا، وهولندا»، وهنا عرف المعاون بيقين تقريبِيّ:

- هذا الرجل لم يمسك البطاقة من قبل بيديه، ولم يقرأ محتواها، ناهيك بكتابتها؛ هذا الرجل أغبى من ذلك بكثير!

غاضبًا نزع البطاقة من يد إِيْنُوْ كْلُوْجِه وقال بإيجاز «هايْلْ هتلر!»، وغادر غرفة الكشف ومعه رجل الشرطة والمقبوض عليه.

مزق الطبيب ببطء الشهادة الطبية التي حضَّرها لإِيْنُوْ كْلُوْجِه. لم يجد فرصة كي يدُسَّها له. خسارة! لكن ربما لم تكن لتساعده في شيء، ربما محتم على هذا الرجل الذي يبدو ضعيفًا أن يتحمَّل متاعب الوقت الراهن، أن يزج به في الهاوية. ربما لم يكن أي شيء خارجي يستطيع أن يساعده لأنه لا شيء فيه متين.

خسارة...

23

التحقيق

رغم قناعة المعاون الجنائي الراسخة بأن إِيْنُوْ كْلُوْجِه لا هو كاتب البطاقات المذكورة ولا موزعها، لكنه أعلم المفتش إشيرِش هاتفيًّا أنه قد يكون موزع هذه المطويَّات، ولقد فعل ذلك لأنه تابع ذكي، وأي تابع ذكي لا ينبغي أن يفرض استنتاجاته على رئيسه. إذ ثمة بلاغ ثابت ضد كْلُوْجِه من المساعدة الآنسة كِيزُوفْ، وسواء كان البلاغ مبرَّرًا أم لا، فعلى المفتش أن يكتشف ذلك بنفسه.

لو كان ثمة مبررات، سيضمن المعاون أنه صار رجلًا قديرًا وحريصًا على الصالح العام في نظر المفتش. أما لو كان البلاغ في غير محله فسيؤكد هذا أن المفتش أذكى من المعاون، وغالبًا ما يكون ذكاء الرئيس أكثر فائدة للمرؤوسين من كل اجتهاداتهم.

- والآن؟ (قال إشيرِش الطويل الرمادي واندفع داخل قسم الشرطة) الآن يا زميلُ شْرُودِر؟ أين صيدك؟

- في آخر زنزانة على اليسار، سيدي المفتش.

- هل اعترف «شبح البحر»؟

- مَن؟ شبح البحر؟! آخ، هكذا إذًا، إنني أفهم! لا، سيدي المفتش، لقد جلبته إلى هنا مباشرة بعد محادثتنا الهاتفية.

- جيد! (قال إشيرِش ممتدحًا)

وما معلوماته عن البطاقات؟

- لقد جعلتُهُ.. (قال المعاون متوخيًا الحذر)

يقرأ البطاقة التي وجدت مرة بصوت عال. أقصد يقرأ بدايتها.

- وانطباعك؟

- لا أريد أن أستبق الأمر، سيدي المفتش.

- لا تكن خائفًا هكذا أيها الزميل شْرُودِر! انطباعك؟

- يبدو لي في كل الأحوال أنه من غير المرجح أنه كاتب البطاقة.

- لماذا؟

- ليس ذكيًّا إلى هذا الحد. كما أنه مذعور على نحو مريع.

مسح المفتش إشيرِش على شاربه رملي اللون غير راض.

- ليس ذكيًّا.. مذعور على نحو مريع.. (كرَّر)

لا، شبح البحر ذكي وبالتأكيد ليس مذعورًا. لماذا تعتقد أنك أمسكت بالشخص الصحيح؟ أخبرني!

امتثل المعاون شْرُودِر للأمر. قبل أي شيء كرَّر الادعاءات القوية التي أدلت بها المساعدة وشدَّد على محاولة الهرب:

- ما كان لي أن أتصرَّف على نحو آخر سيدي المفتش. بعد الأوامر الصادرة كان لا بد من القبض عليه.

- صحيح، زميل شْرُودِر. تصرفتَ على نحو صحيح تمامًا. ما كنت لأتصرف بطريقة أخرى.

قَوِيَت شجاعة إشيرِش مرة أخرى بعد هذا التقرير. وكان إيقاع الكلام أفضل من «ليس ذكيًا» و«مذعور». ربما يكون موزع البطاقات، رغم أن المفتش يعتقد أن شبح البحر يعمل منفردًا.

- هل فحصتم أوراقه بالفعل؟

- ها هي ذي. تؤكد أقواله بشكل عام. لديَّ انطباع، سيدي المفتش أنه يتهرَّب من عمله، ويخاف من الجبهة، ولا رغبة له في أي عمل، كما أنه يشارك في الرهان على خيل السباق؛ لقد وجدت عنده مجموعات كاملة من مجلات الخيول والفواتير. خلاف خطابات عادية متبادلة مع نسوة بلديات، إنه يأتي بتصرفات مراهقة، تفهمني سيدي المفتش، مع أنه يخطو نحو الخمسين.

- جميل جميل.

قال المفتش رغم أنه لم يجد أي شيء جميل. فلا كاتب البطاقة ولا موزعها يمكن أن يكون له صلة بالنسوة. كان هذا اعتقاده الراسخ. لقد خَبَا أمله الذي لم يكد يحيا. لكن بعدها فكَّر إشيرِش في رئيسه -قائد مجموعات العمل- بْرَالْ، وفي مَن هم أعلى منه وصولًا إلى هيملر نفسه. سيحيلون حياته جحيمًا في الأيام القادمة، حينما لا يكون ثمة أثر. على الأقل توجد ادِّعاءات قوية هنا، وتصرفات مريبة. يمكن تتبُّع هذا الأثر حتى لو كان الواحد في قرارة نفسه يعلم أنه ليس الأثر الصحيح. على الأقل سيكسب وقتًا، وهو ينتظر صابرًا. لن يصاب أحد بالأذى جراء ذلك. ثم ماذا يمكن أن يخسر مراهق كهذا؟!

نهض إشيرِش: سأتوجه إلى الزنزانة يا شْرُودِر. ناولني البطاقة الجديدة، وانتظر هنا.

ذهب المفتش ببطء تام، قابضًا على المفاتيح في يده كي لا تُصَلصِل. وبحذر بالغ أزاح الغطاء عن عين الباب ونظر في الزنزانة.

كان المحتجَزُ يجلس على مقعد بلا مسند ظهر. وضع رأسه بين كفيه فيما عيناه معلقتان بالباب. كان الانطباع المنبثق منه كأنَّه ينظر محدقًا إلى عين المفتش المتلصِّص. غير أن تعبيرات وجه كْلُوْجِه أفشت أنه لا يرى شيئًا. لم يرتجف الرجل حينما تحرك الغطاء، ولم يكن وجهه أيضًا مشدودًا مثلما تكون الحال دائمًا مع رجل يشعر بأنه مراقَب.

وإنما كان ينظر ببساطة أمامه، لا يبدو أنه شارد الفكر، بل الأقرب أنه ناعس، مليء بتوقعات ضبابية.

لقد عرف المفتش الواقف على العين السحرية الآن الخبر اليقين: هذا ليس شبح البحر ولا حتى مساعد شريك في الجريمة. وإنما هذا مجرد احتجاز خاطئ. ولتَقُل الادعاءات ما تقول، وَلْيَبْدُ سلوكُه مريبًا كما بَدَا.

لكن إشيرِش عاود التفكير في رئيسه، وظلَّ يلعب في شاربه، ويفكِّر مليًّا، كيف يمكن تمديد هذا الأمر إلى أن يُكتَشَفَ أن هذا الرجل محتجز بالخطأ. إنه لا يريد أيضًا أن يُعرِّض نفسه للحرجَ في هذا الصدد.

وبدفعةٍ فتح الزنزانة ودخل. ارتعش المحتَجَز من مباغتة صلصلة المفاتيح، وحدق إلى الداخل عليه بارتباك، ثم حاول أن يقف.

غير أن إشيرِش ضغطه ليجلس على المقعد مرة أخرى.

- ابقَ جالسًا يا سيد كْلُوْجِه. ابقَ جالسًا. ففي سَنِّنا يصعب أن نظلَّ واقفين مدة طويلة.

ضحك، وهذا الكْلُوْجِه حاول أيضًا أن يشارك الابتسام، فقط تأدُّبًا، فابتسم ابتسامة تشي بالشكوى.

فتح المفتش السرير المعلق على الحائط وجلس عليه.

- حسن يا سيد كْلُوْجِه...

قال وحدَّق إلى الوجه الشاحب ذي الذّقن الضعيف، والفم الأحمر المتورِّم، والعينين الباهيتين، اللتين ترمشان باستمرار.

- حسن يا سيد كْلُوْجِه. والآن فَلْتَحْكِ لي كل ما يثقل قلبك. أنا المفتش إشيرِش من جهاز أمن الدولة..

أكمل وهو يتحدَّث برقة، عندما رأى الآخر يرتجف من مجرد ذكر اسم الجيستابو:

- لا داعي للخوف، نحن لا نلتهم الأطفال الصغار. وأنت لست إلا طفلًا صغيرًا، هذا ما أراه فعلًا...

وبسبب تلك النفحة البسيطة من التعاطف التي استشعر كْلُوْجِه وجودها وراء الكلمات، اغرورقت عيناه بسرعة بالدموع، وارتجفت عضلات وجنتيه.

- لا لا! (قال إشيرِش ووضع يده على يد الرجل القصير) ليس الأمر بهذا السوء. أم إنه بهذا السوء؟

- كل شيء ضاع! (صاح إيْنُوْ كْلُوْجِه يائسًا)

لقد قُضي عليَّ! ليس معي شهادة طبية، وعليَّ أن أذهب إلى العمل. وها أنا جالس هنا، وسيرسلونني إلى معسكر التعذيب، سيزجون بي فيه، ولن أتحمَّل الحياة هناك ولا حتى لأربعة عشر يومًا!

- لا لا! (قال المفتش كأنَّه يتحدَّث إلى طفل)

تلك المسألة التي تخصُّ مصنعك، سَتُسَوَّى. عندما نعتقل أحدهم، ويتبيَّن أنه رجل مستقيم، فإننا نراعي ألا يصيبه ضرر من الاعتقال. وأنت رجل مستقيم يا سيد كْلُوْجِه. أم ماذا؟

ومرة أخرى تقلَّصت قسمات وجه كْلُوْجِه، ثم قرَّر أن يقدِم اعترافًا جزئيًا لهذا الرجل المتعاطِف:

- أنا لا أعمل كفاية من وجهة نظرهم.

- وما رأيك أنت يا سيد كْلُوْجِه؟ هل ترى - من وجهة نظرك - أنك تعمل كفايةً أم ماذا؟

ومرة أخرى فكر كْلُوْجِه.

- أنا بالفعل أمرض كثيرًا! (قال شاكيًا)

لكن هؤلاء يقولون فقط إن الوقت الآن لم يعد مُناسبًا للإصابة بالمرض!

- هل أنت مريض دائمًا؟ ثم في الوقت الذي لا تكون مريضًا فيه وتعمل.. هل تعمل كفاية؟ كيف ترى هذا الأمر يا سيد كْلُوْجِه؟

ومرة أخرى قرر كْلُوْجِه:

- آه يا إلهي! يا سيدي المفتش، النسوة يلاحقنني! (قال متشاكيًا)

وَشَتْ نبراته بالشكوى وبالفخر في الوقت ذاته.

هز المفتش رأسه آسفًا كأن هذا الشيء سيِّئ في الحقيقة.

- هذا ليس جيِّدًا يا سيد كْلُوْجِه؛ في سنِّنا هذه لا ننفِّس عن غضبنا الحقيقي، أليس كذلك؟

نظر إليه كْلُوْجِه فقط بابتسامة ضعيفة، سعيد أنه وجد بعض التفهُّم لدى هذا الرجل.

- أجل.. وما أخبار الحالة المالية؟ (سأل المفتش)

- أُرَاهِنُ في بعض الأحيان.. (اعترَفَ كْلُوْجِه)

ليس كثيرًا، ولا أرفع قيمة الرهان، سيدي المفتش. ولا مرة راهنت بأكثر من خمسة ماركات، إن كان مِن معلومة مؤكدة تمامًا، فهذه أقسم لك عليها يا سيدي المفتش.

- ومن أي تدفع ذلك يا سيد كْلُوْجِه؟ النسوة والرهانات، في حين لا تعمل كثيرًا؟

- النسوة يدفعن لي يا سيدي المفتش.

قال كْلُوْجِه بثبات شاعرًا ببعض الاستياء من عدم التفهُّم. وابتسم بغرور:

- لأني مجتهد جدًّا!

في هذه اللحظة نحَّى المفتش إشيرِش الاتهام بأن إِيْنُوْ كْلُوْجِه لديه أدنى علاقة بتأليف أو توزيع البطاقات نهائيًّا في الملفات. فهذا الكْلُوْجِه أبسط من أن يقدر على شيء كهذا، كل المقومات تنقصه. لكن ظلَّ عليه أن يستجوبه بسبب هذا الأمر، لأنه عليه أن يكتب محضرًا حول هذا الاستجواب، محضرًا يقدمه للسادة الرؤساء، كي

يلزموا بعض الهدوء، محضرًا يجعل كْلُوْجِه تحت الاشتباه، ويبرِّر الخطوات التي ستُتَّخذ ضده.

وهكذا سحب البطاقة من جيبه، ووضعها أمام كْلُوْجِه وقال بغير اكتراث:

- تعرف هذه البطاقة يا سيد كْلُوْجِه؟

- نعم.

قال إيْنُوْ كْلُوْجِه بلا تفكير، لكنه سرعان ما أصيب بالذعر وقال مصوِّبا نفسه:

- أقصد لا بالطبع. لقد اضطُررت إلى قراءتها من قبل. أقصد قراءة بدايتها. لكن بخلاف ذلك فأنا لا أعرف البطاقة! أقسم لك يا سيدي المفتش!

- أجل أجل.. (قال إشيرِش بريبة)

سيد كْلُوْجِه، إن كنَّا سنتحدَّث عن أمر كبير مثل عملك ومعسكر التعذيب، حيث سأذهب بنفسي إلى السادة من أجل تسوية هذه المسألة من أجلك، فعلينا أن نتفق على أمر بسيط مثل هذه البطاقة!

- لا صلة لي بها، لا شيء على الإطلاق، سيدي المفتش!

- ما كنت لأتمادى إلى هذا الحدِّ يا سيد كْلُوْجِه!

قال المفتش بلا التفات إلى هذه التوسلات:

- لن أتمادى مثلما فعل زميلي الذي يعتبرك كاتب البطاقة ويريد أن يجرَّك إلى محكمة الشعب وفيها تُقطع رقبتك، يا سيد كْلُوْجِه!

ارتجف الرجل القصير وصار وجهه كالحًا في لون الرماد.

- لا! (قال المفتش مهدِّئًا، ووضع يده ثانية على يد الآخر)

لا، لا أعتبركَ كاتب البطاقة. لكن البطاقة كانت موضوعة في صالة الطبيب، ولقد أتيتَ بكثير من الأفعال المريبة في الطرقة، ثم توتُّرك، ثم هَرَبُك. وثمة شهود على هذا. لذا يا سيد كْلُوْجِه، الأفضل أن تقول لي الحقيقة. لا أريدك أن تلقي بنفسك إلى التهلكة!

- لا بد أن البطاقة جاءت من الخارج سيدي المفتش. ليس لي بها أي صلة، أقسم لك سيدي المفتش!

- لا يمكن أن تكون دُسَّت من الخارج بسبب الطريقة التي وُجِدت موضوعة عليها! أيضًا.. قبل ذلك بخمس دقائق لم تكن هناك، وهذا ما تقسم عليه الآنسة التي تعمل لدى الطبيب. في الوقت ما بين ذلك وذاك كنتَ في دورة المياه. أم هل تريد أن تدَّعي أن شخصًا آخر توجَّه من غرفة الانتظار إلى دورة المياه؟

- لا، لا أعتقد سيدي المفتش. لا، بالتأكيد لا. إن كنا نتحدَّث عن خمس دقائق فبالتأكيد لا. لقد كنت أريد أن أدخن وقتًا أطول، ولهذا كنت مراعيًا إن كان أحدهم يريد الحمام.

- هكذا! (قال المفتش وقد بدت عليه علامات الرضا)

ها أنت تقولها بنفسك.. أنتَ فقط، أنتَ فقط وحدك من كان في وسعه أن يضع البطاقة في الطرقة!

حدَّق إليه كْلُوْجِه بعينين يملؤهما الذعر.

- بعدما اعترفتَ بذلك...

- أنا لم أعترف بشيء، لا شيء على الإطلاق! لقد قلت فقط إن خمس الدقائق الأخيرة لم يسبقني أحد لدخول الحمام.

قالها كْلُوْجِه تقريبًا وهو يصيح.

- لكن، لكن... (قال المفتش وهزَّ رأسه مستاءً)

لا يمكنكَ أن تتراجع عن اعتراف أدليْتَ به في التو، أنت رجل أعقل من ذلك. لأنه سيتعيَّن عليَّ أن أسجل هذا التراجع في المحضر يا سيد كْلُوْجِه، وشيء كهذا لا يبدو جميلًا أبدًا.

حدق إليه كْلُوْجِه يائسًا، يهمس بلا صوت:

- لم أعترف بشيء...

- سوف يكون لدينا وقت لنتفق على ذلك.. (قال إشيرِش مُهدِّئًا روعه)

لكن قل لي أولًا، من أعطاك البطاقة قبل أن تضعها؟ هل كان شخصًا تعرفه جيِّدًا؟ صديقًا؟ أم هل حدَّثك أحد في الشارع وأعطاك بضعة ماركات مقابل ذلك؟

- لا شيء! لا شيء! (عاد كْلُوْجِه إلى الصراخ)

لم أمسك البطاقة بيدي، ولم أرها بعيني قبل أن يعطيني إياها زميلك!

- لكن، لكن يا سيد كْلُوْجِه! لقد اعترفتَ منذ قليل بأنك وضعت البطاقة على أرضية الطرقة...

- لا شيء، لم أعترف بشيء! لم أقل شيئًا كهذا مطلقًا!

- لا!

قال إشيرِش، ومسَّدَ لحيته ومسح ابتسامة كانت ترتسم على وجهه. لقد بدأ يستمتع بأن يجعل هذا الكلب الجبان يتراقص أمامه. سيكون المحضر أنيقًا به شُبهة قوية، لخاطر الرؤساء.

- لا! (قال)

لمْ تقُلها بهذه الطريقة، لكنك قلت فقط إن البطاقة كانت موضوعة هناك، وإنه لم يكن أحد سواك هناك، وهذا الأمران متفقان في المعنى.

حدَّق إليه إيْنُوْ بعينين مفتوحتين عن آخرهما. ثم قال فجأةً معترضًا:

- لم أقل هذا أيضًا. من الممكن أن يكون أناس آخرون ذهبوا إلى الحمام، ليس فقط الجالسون في غرفة الانتظار.

جلس ثانية، إذ كان قد قفز من مكانه بمجرد أن سمع الادعاءات الباطلة.

- لكني لن أقول أي شيء آخر. أنا أطالب بوجود محامٍ. ولن أوقِّع على المحضر.

- ولكن، ولكن هل طلبتُ إليكَ يا سيد كْلُوْجِه أن توقع على محضر؟ هل كتبتُ أي ملحوظات من أي شيء قلته؟ نحن نجلس هنا معًا مثل صديقين قديمين، ما نقوله هنا، لا يعني أحدًا.

نهض، وفتح باب الزنزانة عن آخره.

- انظر، لا أحد في الرَّدهة يتسمَّع. فيما أنت تصعِّب عليَّ الأمور بسبب بطاقة غبية؟ ألا ترى أنني لا أعير هذه البطاقة أيَّ أهمية؟

أجل أحمقُ ذلك الذي كتبها! لكن بما أن المساعدة وزميلي قد أثارا الموضوع فلا بد أن أستعلم عن هذا الأمر! لا تكن ضفدعًا يا سيد كْلُوْجِه. قل لي ببساطة.. رجل في زقاق فرانكفورت أعطاني البطاقة لأنه يريد أن يصنع مقلبًا في الطبيب كما قال. ودفع لك عشرة ماركات، كان معك ورقة جديدة بعشرة ماركات، هذه قد رأيتُها فعلًا بنفسي. ألا ترى أنك إن قلت لي ذلك الآن ستكون أحد رجالي. وبهذا لن تصعِب الحياة عليَّ وسأستطيع بعدها أن أعود إلى منزلي هادئًا؟!

- وأنا؟ أنا أين أذهب؟ تلقي بي إلى أسماك القرش؟ ثم تقطعون رأسي بعدها! لا يا سيدي المفتش، لن أقول هذا أبدًا أبدًا!

- أنت، أين ستذهب يا سيد كْلُوْجِه بعد أن أعود إلى بيتي؟ أنت أيضًا ستعود إلى بيتك، ألم تفهم هذا بعد؟ أنت حُرٌّ، هكذا أو هكذا، سأتركك تمضي...

- حقًّا، سيدي المفتش؟ تقسم لي على ذلك؟ أستطيع أن أمضي بدون أقوال وبدون محضر؟

- بالطبع تستطيع أن تمضي يا سيد كْلُوْجِه. الآن فورًا تستطيع أن تمضي. فقط فكِر في أمر واحد قبل أن تمضي...

وربت على كتف الرجل الذي قفز وتوجه نحو الباب:

- ألا ترى، سوف أسوِّي مسألة المصنع من أجلك، سأسدي إليك هذا الصنيع. لقد وعدتك بذلك وسأفي بكلمتي. لكن الآن فكِر فِيَّ للحظة يا سيد كْلُوْجِه. فكِر في كل المتاعب التي سيُسبِّبها لي زملائي عندما أتركك تمضي. سيسوء موقفي أمام رؤسائي، ولن

ينالني إلا كل أذًى، سيكون بالفعل محترمًا منك أن توقع لي على الأقوال الخاصَّة بالرجل الذي قابَلَكَ في زقاق فرانكفورت، فهذا أمر لا خطورة فيه عليك. فالرجل لا يمكن العثور عليه يا سيد كْلُوْجِه!

لم يتحدَّث أحدهم إلى إيْنُوْ كْلُوْجِه في حياته قطُّ بهذه الكلمات الرقيقة المخترِقة. وقف هناك يائسًا، كانت الحرية تجذبه، كما أن كل شيء سيكون على ما يرام في المصنع لو لم يخالف كلام هذا الرجل. إن أكثر ما يخشاه هو أن يخالف كلام هذا المفتش اللطيف. ساعتها سيواصل الثور المتنمِّر العمل على القضية وسوف يصل الأمر يومًا ما إلى اقتحام شقة رُوْزِنْتال. وساعتها سيضيع إيْنُوْ كْلُوْجِه، ولا تَنْسَ أن بِيرْزِيكِه هو أحد رجال الشرطة العسكرية.

يستطيع بالفعل أن يسدي صنيعا إلى المفتش. ما عواقب ذلك؟ لقد كانت مجرد بطاقة عابثة، هراء سياسي لا شأن له به على الإطلاق، وهي أمور لم يفهم فيها قطُّ. ثم إن الرجل في زقاق فرانكفورت لن يُعثَرَ عليه أبدًا، ببساطة لأنه غير موجود. أجل، أجل، سيُسدي إلى المفتش هذا الصنيع وسيوقِّع على أقواله.

ولكن هنا نبَّهته ثانية حاسة الحذر الفطرية لديه:

- أجل.. وعندما أوقِّع لن يطلقوا سراحي!

- ولكن ولكن.. (قال المفتش إشيرِش وهو يرى أنه فاز بالفعل في اللعبة)

بسبب بطاقة قذره كهذه ولأنك تسدي إليَّ صنيعًا فأنا أعدك بشرفي يا سيد كْلُوْجِه بوصفي مفتشًا جنائيًّا وإنسانًا- بمجرد أن توقع المحضر ستكون حُرًّا.

- وإن لم أوقع؟
- تكون حُرًّا أيضًا بالطبع!
حسم إِيْنُوْ كْلُوْجِه قراره:
- حسن، سوف أوقع يا سيدي المفتش، كي لا تتعرَّض للمضايقة ولكي أسدي إليك هذا الصنيع. ولكن لا تنسَ مسألة مصنعي!
- سيُسَوَّى الأمر اليوم يا سيد كْلُوْجِه. اليوم وليس غدًا. وسترى في الغد ولن تحتاج إلى الشهادات المرضية الغبية تلك. يوم إجازة عارضة، لنقُل يومًا كل أسبوع، ولن يفتح أحد فمه معك بكلمة بعدما أتحدَّث معهم. هل الأمر يلائمك على هذا النحو يا سيد كْلُوْجِه؟
- بالطبع! أنا ممتن لك يا سيدي المفتش!

وبهذا الكلام مَضَيا من الزنزانة إلى الغرفة حيث كان المعاون شْرُودِر منتظرًا وجالسًا مشدود الأعصاب، مترقبًا النتيجة التي سيسفر عنها الاستجواب متفكِرًا في مصيره هو نفسه لو أن ثمة شيئًا عالقًا. قفز من مكانه بمجرد أن دخل الرجلان.

- ها شْرُودِر...

قال المفتش مبتسمًا، وأشار برأسه نحو كْلُوْجِه الذي وقف جانبًا.. صغيرًا وخائفًا، لأن المتنمر سدَّد نظراته التي أثارت فيه الذعر مجدَّدًا:

- هاك صديقنا. لقد اعترف لي للتو بأنه وضع البطاقة على طرقة الطبيب، لقد حصل عليها من سيد في زقاق فرانكفورت...

صوت يشبه التنهيد انفلت من صدر المعاون:

- يا للسماء! لكن لا يمكن مطلقًا...

- والآن... (أكمل المفتش بدون أن يتأثر)

والآن سنكتب محضرًا صغيرًا، وبعدها سيمضي السيد كْلُوْجِه إلى منزله. فهو حرٌّ طليق. أليس هذا ما حدث يا سيد كْلُوْجِه؟ أم لم يحدث؟

- بلى!

أجاب كْلُوْجِه لكن بصوت خفيض للغاية، لأن حضور المتنمر كان يثير فيه الذعر والقلق. أما المعاون فبقي واقفًا مرتبكًا. كْلُوْجِه لم يضع البطاقة، لم يفعل ذلك بتاتًا. هذا ما يعتقده بلا ذرة شك. والآن صار كْلُوْجِه مستعدًّا أن يقول العكس، ويوقّع على تلك الأقوال.

«يا له من ثعلب ذاك الإشيرِش! كيف وصل إلى ذلك معه؟» اعترف شْرُودِر لنفسه -ليس من دون حسد- بأن هذا الإشيرِش متفوق عليه بمراحل. ثم بعد هذا الاعتراف، سيطلق سراح الصبي! لا شيء للفهم، لا شيء للفحص! ثمة دائمًا من هُم أذكى منًّا، مهما ظنَّ الإنسان نفسه ذكيًّا.

- هل تسمعني أيها الزميل؟ (قال إشيرِش الذي نال كفايته من الاستمتاع بذهول زميله) يمكنكم فورًا أن تفسحوا لي الطريق حتى القسم.

- تحت أمرك سيدي المفتش!

- أنت تعلم أن تلك القضية عندي.. ماذا كان اسمه؟ أَخْ! أجل.. قضية «شبح البحر». تذكُر ذلك يا زميل؟

التقت عيناهما وتفاهما على الفور.

- إذًا يا سيد شْرُودِر، ستذهب من أجلي إلى القسم وتخبر الزميل لِينْكِه. لكن اجلس يا سيد كْلُوْجِه، معذرة، أريد فقط أن أخبر الزميل بضع كلمات.

ذهب مع المعاون إلى الباب. وهمس:

- اطلب مِن هناك رجلين، عليهما أن يحضرا إلى هنا فورًا، أريد رجلين مجتهدين يمكنهما التخفِّي؛ هذا الكْلُوْجِه ينبغي أن يظلَّ تحت المراقبة منذ اللحظة التي يغادر فيها القسم. ويُبَلَّغَ عن كل تحركاته كل ساعتين أو ثلاثة. كما اتُّفِق، ويكون الإبلاغ هاتفيًا وموجهًا إليَّ في الجيستابو. كلمة السر «شبح البحر». دع الرجلين يشاهدان هذا الكْلُوْجِه. عليك أن تستأذن ثم تعود عندما يتجهز الرجال. وبعدها سأترك هذا الأرنب ينطلق.

- سأنفذ الأوامر كلها سيدي المفتش. هايْلْ هتلر!

صرَّ الباب وخرج الثور. جلس المفتش إلى جوار إِيْنُوْ كْلُوْجِه وقال:

- إذًا خَلَصنا منه! أنت لا تحبه كثيرًا يا سيد كْلُوْجِه، أليس كذلك؟

- ليس مثلما أحبك، سيدي المفتش!

- أرأيت نظراته عندما سمع أني سأطلق سراحك؟ إنه الآن غاضب جدًا! لهذا صرفته. لا أحتاج إليه وأنا أكتب محضرنا الصغير. كان يريد أن يغير رأيي. أنا حتى لن أطلب آنسة لتكتب المحضر على الآلة الكاتبة، بل سأنقر بنفسي تلك الأسطر القليلة، لأشعر أنني مغطًى قليلًا أمام رؤسائي في ما يخص إطلاق سراحك.

وبعدما أعاد الهدوء بكلماته إلى ذلك الفأر المذعور، أخذ الريشة وبدأ يكتب. أحيانًا يقول بصوت واضح وعالٍ ماذا يكتب -إن كان يكتب حقًّا ما يقول بصوت عال، فهذا أمر مشكوك فيه حال التعامل مع خبير جنائي مثل إشيرِش- وأحيانًا كان يغمغم فقط. لم يكن كْلُوْجِه قادرًا على أن يفهم ما يسمع.

رأى فقط أنها ليست مجرد أسطر قليلة، بل تحولت إلى ثلاثٍ بل أربعٍ من صفحات الملفات. لكن هذا لم يهمه كثيرًا في تلك اللحظة، إذ كان جلُّ ما يهمه هو أن يُطلَق سراحه فعلًا. نظر نحو الباب. وبقرار سريع وقف وتوجَّه نحوه ثم فتحه قليلًا...

- كْلُوْجِه! (ناداه من ورائه، لكن ليس بصوت آمر)

يا سيد كْلُوْجِه، من فضلك!

- أجل؟ هل ليس من حقي أن أذهب؟ (ابتسم مذعورًا)

نظر إليه المفتش، ممسكا بيدِ الريشة مبتسمًا:

- هل أنت نادم يا سيد كْلُوْجِه على ما تناقشنا فيه، وما وعدتني به وعدًا قاطعا؟ إذًا لا بأس. لقد كنتُ أكتب كل هذا الكلام بلا جدوى!

ألقى بالريشة بعيدًا:

- اذهب إذًا يا كْلُوْجِه، فإني أرى الآن أنك رجل بلا كلمة! إذًا فلتذهب، فلقد كنت أعرف أنك لن توقع! لا بأس، ليكن...

وبهذه الطريقة تمكَّن المفتش من جعل إيْنُوْ كْلُوْجِه يوقِّع فعلًا على المحضر. أجل، بل إن كْلُوْجِه لم يطلب حتى أن يقرأ عليه المحضر بصوت عال وواضح. وقَّع فقط بلا تفكير.

- والآن هل يمكنني الذهاب سيدي المفتش؟
- بالطبع. جزيل الشكر لك يا سيد كْلُوْجِه، لقد أحسنت التصرُّف. إلى اللقاء. الأفضل أن نقول «إلى لقاء في مكان آخر ليس في هذا المكان». أَخْ! انتظر لحظة يا سيد كْلُوْجِه...
- لن تسمح لي إذًا بالخروج؟
بدأ وجه كْلُوْجِه يرتعش مجدَّدًا.
- على العكس، بالتأكيد! ألا تثق بي ثانية؟ يا لك من إنسان سِيئ الظن يا سيد كْلُوْجِه! لقد كنت أفكر أنك ستحب أن تأخذ معك أوراقك وأموالك؟ أريت! نريد أن نتيقَّن أن كل شيء معك يا سيد كْلُوْجِه.
ويدآ في المقارنة: دفتر العمل، تصريح الجيش، شهادة الميلاد، قسيمة الزواج...
- ولم تصحب معك كل هذه الأوراق يا سيد كْلُوْجِه؟ ماذا لو أنك فقدتها!
(بلاغات في الشرطة، أجرة أربعة أيام)
- لكنك لا تكسب كثيرًا من المال يا سيد كْلُوْجِه! أجل، هذا صحيح أرى أنك لا تعمل في الأسبوع إلا ثلاثة أو أربعة أيام، أنت أيها المتهرب من العمل!
(ثلاثة خطابات)
- مممم، اترك الأمر، هذه أشياء لا تهمني البتة.
(37 ماركًا في أوراق نقدية، و65 بفينيج عملاتٍ)

- أرأيتَ؟ هنا لدينا أيضًا العملة فئة عشرة الماركات التي حصلتَ عليها من السيد، الأفضل أن آخذها وأضعها في الملفات، انتظر، لا تريد أن تخسر بسبب ذلك، سأعطيك عشرة ماركات من عندي على سبيل التعويض...

وهكذا استهلك المفتش كثيرًا من الوقت إلى أن عاد المعاون شْرُودِر ودخل:

- نُفذت الأوامر سيدي المفتش. وعليَّ أن أخبركم أن المفتش لِينْكِه يسعده أن يتحدَّث معك في قضية «شبح البحر».

- حسن، حسن. جزيل الشكر يا زميل. أجل، لقد انتهينا ها هنا. إذًا إلى اللقاء يا سيد كْلُوْجِه. شْرُودِر وَصِّل السيد إلى باب الخروج. إذًا السيد شْرُودِر سيعبر بكَ غرف القسم. إلى اللقاء مرة أخرى يا سيد كْلُوْجِه. لن أنسى المصنع. لا، لا. هايْلْ هتلر!

- ها.. إذًا كل شيء على ما يرام يا سيد كْلُوْجِه.

قال شْرُودِر، ووقف في زقاق فرانكفورت وهزَّ يده مودِّعًا:

- أنت تعلم، العمل هو العمل، وأحيانًا ما نضطر أن نمسك الواحد بقوة. لكني فككت عن يديك الأصفاد بسرعة. أما اللكمة التي سدَّدها لك الحارس، فأرجو أنك لا تستشعر ألمها بعد!

- لا أشعر بها على الإطلاق. كما أنني أتفهم كل شيء. آسف جدًّا بسبب كل المجهود الذي اضطررتم إلى بذله بسببي يا سيدي المفتش.

- إذًا.. هايْلْ هتلر يا سيد كْلُوْجِه!

- هايْل هتلر سيدي المفتش!

وانطلق إيْنُوْ كْلُوْجِه القصير المهلهل متعجلًا. كان يعرج في طريقه بين البشر في زقاق فرانكفورت، وكان المعاون شْرُودِر يراقبه. وأقنع نفسه أن الرجلين اللذين كلفهما بمراقبته سيتعقَّبان أثره على نحو سليم، فأومأ برأسه ثم عاد إلى موقعه.

24

المفتش إشيرِش

يعالج قضية شبح البحر

- هاكَ، تفضل واقرأ! (قال المفتش إشيرِش للمساعد شْرُودِر وناوله المحضر في يده)

- حسن.. (أجاب شْرُودِر وأعاد الورقة)

إذًا لقد اعترف وصار جاهزًا للمثول أمام محكمة الشعب. لم أفكر في ذلك!

ثم أضاف بعد تفكُّر: وهذا الفأر يجري حُرًّا في الشوارع؟!

- نعم.

قال المفتش، ووضع المحضر في ملف، ثم وضع الملف في حقيبة أوراقه المصنوعة من الجلد:

- أجل، فأر كهذا يجري حُرًّا في الشوارع، لكنه مراقب مِن كثب مِن قِبل رجالنا؟

- بالطبع! (سارع شْرُودِر في التأكيد)

لقد شهدتُ ذلك بنفسي. كلا الرجلين يتبعه.

- ولأنه حُرٌّ طليق.. (أضاف المفتش إشيرِش وهو يمسِّد شاربه)

سيجري ويجري ورجالنا يتبعون خطواته! ويومًا ما -اليوم أو خلال أسبوع أو بعد ستة أشهر- سيجري كْلُوْجِه الصغير العفن نحو كاتب البطاقة، سيجري نحو الرجل الذي كلَّفه بالمهمة؛ ضع البطاقة هناك واتركها. سيقودنا إليه بكل تأكيد مثلما نردِّد «آمين» في الكنيسة. وساعتها سأقبض على كلٍّ منهما وسيكونان جاهزين للمحاكمة وتقطع رقابهما.. وهكذا دواليك.

- سيدي المفتش.. (قال المعاون شْرُودِر)

لا أستطيع أن أصدق تمامًا بعدُ أن كْلُوْجِه هو من وضع البطاقة. لقد رأيت الأمر بنفسي حين وضعتُها في يده، لم يكن يعرف شيئًا البتة عن البطاقة! لقد كان كل شيء من نسج خيال تلك المرأة الهيستيرية، تلك المساعدة.

- لكن كل شيء مثبت في المحضر، هو من وضع البطاقة!

بادله المفتش الحُجَّة لكن بدون تأكيد خاص.

- بالمناسبة أريد أن أنصحك بألَّا تذكر شيئًا في تقريرك عن المرأة الهيستيرية. لا أحكام شخصيَّة، لا بد من التزام الموضوعية. إذا كنتَ تريد.. يمكنك أيضًا أن تستجوب الطبيب في مسألة مصداقية مساعدته. ممم لا. دع المسألة تقف عند هذا الحد يا رجل. لأن هذا سيكون أيضًا حكمًا شخصيًّا، فلنترك هذا الأمر لقاضي التحقيقات، فليقيِّم هو الأقوال كيفما شاء. أما نحن فنعمل بموضوعية محضة، أليس كذلك يا شْرُودِر، بلا أي حكم مسبق.

- بالطبع، سيدي المفتش.

- أي أقوال مكتوبة هي أقوال، وهي ما نتمسك به. أما كيف ولماذا نشأت فهذا أمر لا يعنينا. نحن لسنا اختصاصيِّين نفسيِّين، نحن مختصُّون جنائيُّون. crime، جريمة، يا شْرُودِر، الجريمة فقط هي ما يعنينا. وعندما يعترف أحدهم أنه اقترف جريمة فهذا كافٍ بالنسبة إلينا. هذه على الأقل رؤيتي للمسألة، أم إن لك رأيًا آخر في هذا الموضوع يا شْرُودِر؟

- بالطبع لا يا سيدي المفتش!

صاح المعاون شْرُودِر. بدا صوته كأنَّه أصيب بذعر لا محدود من فكرة أن يكون له رأي آخر خلاف رأي رئيسه.

- هذا تمامًا ما أفكر فيه! نحن دائمًا ضد الجريمة!

- كنت أعلم ذلك. (قال المفتش إشيرِش ومسد شاربه)

نحن -الجنائيين القدامى- نتفق دائمًا في الرأي. أوتعلم يا شْرُودِر، كثير من الدخلاء يعملون في مهنتنا، لكننا دائمًا ما نتماسك معًا، وهذا ما يجعلنا نربح. حسن يا شْرُودِر.

وبدافع مهني محض:

- سأتلقَّى اليوم تقريرك عن اعتقال كْلُوْجِه والمحضر الذي يحوي أقوال المساعدة والطبيب. أجل، ولقد كان معك حارس أيضًا يا شْرُودِر!

- كبير الحراس دوبركه من القسم هنا...

- لا أعرفه. عليه هو أيضًا أن يكتب تقريرًا عن اعتقال كْلُوْجِه. باختصار، بموضوعية، لا ثرثرة زائدة، لا أحكام شخصيَّة، مفهوم يا سيد شْرُودِر؟

- أوامرك، سيدي المفتش!

- إذًا يا شْرُودِر! بعد أن تسلم التقرير لن نشغلك بهذا الأمر، قد تدلي بأقوالك مرة أمام القاضي أو عندنا في الجيستابو. (كان يراقب مرؤوسه بتمعن)

كم قضيت في رتبة المعاون يا سيد شْرُودِر؟

- ثلاث سنوات ونصف، سيدي المفتش.

عين المتنمر التي صارت تحدق إلى المفتش تحوي الآن تعبيرا مؤثرًا، غير أن المفتش لم يقل إلا:

- أجل، إذًا بالتدريج يحين الوقت. (وغادر القسم)

وفي شارع برنس-آلبريشت طلب مباشرةً مقابلة رئيسه، قائد مجموعات العمل في الشرطة العسكرية السيد بْرَالْ. اضطر إلى الانتظار ساعة، ليس لأن السيد بْرَالْ كان مشغولًا، بل هذا صحيح فلقد كان في غاية الانشغال؛ سمع إشيرِش اصطكاك الكؤوس، وفرقعة الفلِّين عن زجاجات النبيذ، سمع الضحكات والصيحات. إنها إذًا واحدة من اللقاءات المعروفة لدى كبار القادة. الأُنس، الشراب، الاسترخاء، التسلية بعد المجهود الصعب في تعذيب البشر وتعليقهم على المشانق.

انتظر المفتش صابرًا، رغم أنه لا يزال يتعيَّن عليه إنجاز كثير من الانشغالات في هذا اليوم. كان يعرف الرؤساء بشكل عام، ويعرف هذا الرئيس بشكل خاص. أي إلحاح لن يكون مفيدًا، ولو أن نصف برلين اشتعلت فيها النيران وهو يريد أن يسكر، فسيسكر أولًا ثم يرى. هكذا كان الأمر!

بعد ساعة من الزمن سمح لإشيرِش بالدخول. آثار واضحة للشرب في الغرفة، أما بْرَالْ فاشتعل لون وجهه بالحُمرة من أثر الخمر، وبدا منفلتًا لكنه قال منتشيًا:

- هاك يا إشيرِش! صب لنفسك كأسًا! هذه ثمار انتصارنا على فرنسا: آرمانياك أصلي، أفضل عشر مرات من الكونياك. عشر مرات؟ بل مئة مرة! لماذا لا تشرب؟

- أرجو المعذرة، سيدي قائد مجموعات العمل؛ عليَّ إنجاز كثير من العمل اليوم، وأريد أن أحافظ على ذهني يقظًا. وبالمناسبة لم أعد معتادًا الشرب.

- وَيْ! ماذا؟! ذهن يقظ! يا للهراء! من أجل ماذا تحتاج إلى ذهن يقظ؟ دع غيرك يقوم بعملك ونل قسطا كافيًا من النوم. نخبك، يا إشيرِش، نخب زعيمنا!

قرع إشيرِش الكأس لأنه كان مضطرًا إلى ذلك. وقرع النخب مرة ثانية، وثالثة وفكر في تلك الأثناء كيف أن الصُّحبة غيرت زميله هي والكحول. لقد كان بْرَالْ في الواقع محتَمَلًا للغاية، وليس سيِّئًا مثل مئات الرجال الآخرين الذين يركضون في هذا المبنى بزيهم الأسود، لكنه كان أقرب إلى الريبة قليلًا، «مأمور» فقط مثلما قال مرة، وبالتأكيد لم يكن مقتنعًا بكل ما يجري.

لكن تحت تأثير زملائه والكحول صار مثلهم؛ أفعاله غير محسوبة، قاسيًا، متسرعًا، ومستعدًّا لإبادة أي رأي آخر بالحديد والنار، حتى لو كان الرأي الآخر يخصُّ الشرب والجعة. لو أن إشيرِش رفض أن يشاركه النخب بشكل جدِّي، لقضى عليه بالتأكيد مثله مثل أسوأ المجرمين. بل في الواقع، أمرٌ كهذا كان سَيُعَدُّ أشدَّ فداحة لأنه يقارب الإهانة الشخصيَّة عندما لا يَقرع المرؤوس كأس رئيسه حسب رغبات الأخير.

وهكذا قرع إشيرِش النخب، عدة مرات، وشاركه الشراب.

- حسن، ما الأمر يا إشيرِش؟

قال بْرَالْ وهو يحاول أن يجلس إلى مكتبه منتصب الظهر بقدر المستطاع: ماذا وراءك؟

- محضر.. (أوضح إشيرِش)

أعددته بنفسي في موضوع «شبح البحر». بعض المحاضر والتقارير الأخرى في الطريق. لكن هذا هو المحضر الأهم. تفضَّل سيدي قائد مجموعات العمل.

- شبح البحر؟ (سأل بْرَالْ، متفكِّرًا مليًّا)

أليس هذا هو الرجل صاحب البطاقات؟ هل خطر ببالك شيء يخصُّ تلك المسألة يا إشيرِش كما أمرتك؟

- أوامرك سيدي قائد مجموعات العمل. هلَّا قرأ القائد المحضر؟

- أقرؤه؟ كلا، ليس الآن. ربما لاحقًا. اقرأه أنت الآن يا إشيرِش!

لكنه قاطع القراءة بعد الجمل الثلاث الأولى:

- سأسمح لنفسي أولًا بواحد. نخبَك يا إشيرِش! هايْلْ هتلر!

- هايْلْ هتلر، سيدي قائد مجموعات العمل!

وبعدما أفرغ كأسه عن آخرها عاد إشيرِش يتابع القراءة.

لكن الآن خطر ببال بْرَالْ الذي امتلأ بالكحول أن يلعب لعبة شقية. كلما قرأ إشيرِش ثلاث أو أربع جمل قاطعه بقولَةِ «نخبك!» وكان على إشيرِش بعدما يقرع النخب أن يبدأ من البداية. لم يتركه بْرَالْ يتخطَّى الصفحة الأولى، وسرعان ما عاجله بـ«نخبك!»، وكان يرى -رغم سكره- كيف أن ذلك يؤثر في الرجل، وكيف يقاوم الشراب اللاذع، لدرجة أنه صارت لديه الرغبة في أن يضع المحضر ويمضي، وكيف أنه لم يجرؤ على فعل ذلك، وكيف كان عليه أن يخضع، وألَّا يظهر عليه أي أثر للحنق...

- نخبك، إشيرِش!

- شكرًا. سمعًا وطاعة، سيدي قائد مجموعات العمل! نخبك!

- والآن واصل القراءة، يا إشيرِش! لا، أعِدِ القراءة من البداية. هذا الموضع لم أفهمه تمامًا. لقد كنت دائمًا بطيء التفكير.

وكان إشيرش يقرأ. أجل، الآن صار يتعذَّب تمامًا مثلما كان يعذِّب الفأر كْلُوْجِه قبل ساعتين، ومثله تمامًا صار لا يعذِّبه شيء قدر رغبته في الخروج من الباب. لكن بقي مجبَرًا أن يقرأ، يقرأ ويشرب، ويشرب ويقرأ إلى أن يكتفي الآخر من ذلك. وبدأ يشعر بالفعل كيف أن رأسه يغيم ويدور؛ لقد ضاع عمله المتقن! اللعنة!

- نخبكَ يا إشيرِش!

- نخبكَ، سيدي قائد مجموعات العمل!
- إيهِ.. فلتقرأ الآن من البداية مرة أخرى!

وفجأةً صارت هذه اللعبة مملَّة لبْرَالْ فقال بخشونة:

- أَخْ! فلتدع هذه القراءة السخيفة، ألا ترى أني سكران؟ كيف يمكن لي إذًا أن أستوعب هذا الشيء؟ هل تريد أن تستعرض عضلاتك بهذا التقرير البليغ أم ماذا؟ تقارير أخرى في الطريق لكنها ليست بأهمية تقرير الخبير الجنائي إشيرِش! آه مما يصيبني عندما أسمع شيئًا كهذا! باختصار.. هل أمسكتَ بكاتب البطاقات؟
- تحت أمرك. لا يا سيدي قائد مجموعات العمل. ولكن...
- ولماذا إذًا حضرت إليَّ؟ لماذا تسرق وقتي الثمين وتعكِّر عليَّ متعة الآرمانياك الرائع؟

ثم بدأ يصرخ في وجهه:

- هل أُصبت بالجنون التامّ يا سيد؟ لكن معك سأتحدَّث بنبرة مختلفة تمامًا يا سيد! لقَد كنتُ طيبًا معك بما يكفي ويبدو أن هذا جعلك تتطاول، مفهوم؟
- تحت أمرك سيدي قائد مجموعات العمل!

وفي عجالة، قبل أن يبدأ الصراخ من جديد قال إشيرِش:

- ولكني أمسكت بأحدهم كان يوزع البطاقات. هذا ما ظننته على الأقل.

هدَّأ هذا الخبر من انفعال بْرَالْ قليلًا. نظر إلى المفتش بعينين مخترِقَتين وقال:

- أحضر الرجل إليَّ. ينبغي أن يخبرني من الذي أعطاه البطاقات. سأُقشِّره وأُقطِّعه مثل البصل، فأنا الآن في مزاج يسمح بذلك!

ترنَّح إشيرِش لوهلة، كان بوسعه القول إن الرجل ليس في شارع برنس-آلبريشت بعدُ، وإنه سيُحضره. ثم يُحضِره فعلًا، من الشارع أو من بيته بمساعدة من يراقبونه. أو إنه سيظل ينتظر من بعيد إلى أن يفرغ قائد مجموعات العمل من سكرته، وبعدها ربما سيكون قد نسي كل شيء.

ولكن، لأن إشيرِش هو إشيرِش، أي إنه خبير جنائي غارق في ذنوبه، أي ليس جبانًا، وإنما شجاع، ومن منطلق هذه الشجاعة قال (ولتخرُج كلماته كيفما اتفق):

- لقد أطلقتُ سراح الرجل مرة أخرى يا سيدي القائد!

صراخ! لا من فضلك أيتها السماء! يا له من صراخ بهيمي! لقد تحول بْرَالْ الذي عادة ما يكون أكثر تهذيبًا من أي قائد رفيع الرتبة، لدرجة أنه أمسك المفتش من صدره وصرخ:

- أطلقت سراحه؟ أطلقت سراحه؟ هل تعلم ما سأفعل فيك الآن؟ أنت يا خنزير! الآن سأوصلك بالكهرباء، عليك أن تجلس أولًا! انتظر، سأكهربك بمصباح قدرته ألف وات على شاربك، وكلما نبت سأوقظك على التعذيب، أنت يا مؤخرة القرد!

وهكذا استمرت الحال لبعض الوقت. ترك إشيرِش للقائد أن يهزَّه بعنف ويسبه فيما هو مستسلم وساكن. ربما كان من الجيِّد حقًّا أنه شرب بعض الخمر. لأنه استشعر كل شيء من وراء خدر الآرمانياك الذي سَرَى فيه، كل شيء غائم كأنَّه يرى أحداثًا في منام.

«اصرُخ فقط!».. فَكَّرَ «كلما علا صراخُكَ، بُحَّ صوتك. هيا واصل كما أنت، نَكِّلْ بإشيرِش بكامل قوتك!».

وفعلًا، بعدما ظلَّ يصرخ إلى أن بُحَّ صوته، ترك بْرَالْ مرؤوسه. صبَّ لنفسه كأسًا أخرى من الآرمانياك، ونظر إلى إشيرِش بنظرات غاضبة وصاح:

- والآن أخبرني السبب في أنك ارتكبت هذه الحماقة الكبرى.

- أولًا أريد أن أخبر أن الرجل مراقَب مِن أفضل رجالنا في القسم على مدار الساعة. وأعتقد أنه عاجلًا أم آجلًا سيتوجَّه إلى كاتب البطاقات. هو الآن ينكر أنه يعرفه. المعروف.. المجهول الكبير.

- كنت لأعصره وأستخرج منه الاسم؛ هؤلاء الرقباء في الغالب سيفقدون الرجل!

- لا لن يفعلوا. إنهم من أكفأ الناس في أليكس.

- لا، لا.. (لكن العاصفة هدأت لدى بْرَالْ)

تعلم.. لا أريد أيًّا من هذه التعقيدات! كنت أفضِّل أن يكون الرجل في قبضتي!

«هذا ما تريد!» فكَّر إشيرِش. «وخلال نصف ساعة ستعرف أنه لا شأن له بالبطاقات، وتبدأ في ملاحقتي من جديد!».

لكنه قال بصوت مرتفع:

- إنه مجرد فأر صغير مذعور يا سيدي قائد مجموعات العمل. إنْ خرَّطْته مثل البصل فسيقول لك كل شيء تريد أن تسمعه،

وسنضطر إلى ملاحقة مئات الكذبات. أمَّا هكذا فسيقودنا بسلاسة إلى كاتب البطاقات.

ضحك قائد مجموعات العمل:

- أنت أيها الثعلب المخضرم، فلنشرب نخبًا!

وهكذا شرِبَا كأسًا أخرى.

نظر قائد مجموعات العمل إلى المفتش متفحصًا. يبدو أن نوبة الغضب التي اجتاحته كانت مفيدة، إذ إنه بَدَا أكثر تيقظًا.

فكَّر ثم قال: بخصوص المحضر هذا، أنت تعرفُ...

- أوامرك، سيد قائد مجموعات العمل.

- ... بخصوص المحضر، فلتتركْ لي بعض التعديلات التي يمكن أن أجريها. أَعْمِل قدراتك العقلية الفذة مرة أخرى. (ابتسم كلاهما)

فهنا ما زال الآرمانياك يفعل فعله!

وضع إشيرِش المحضر مرة ثانية في الملف، والملف في الحافظة.

وفي هذه الأثناء كان رئيسه يبحث عن شيء في درج مكتبه، وعاد يده وراء ظهره:

- قل يا إشيرش، هل نلت صليب الاستحقاق في الحرب؟

- لا، يا سيدي قائد مجموعات العمل.

- هذا خطأ يا إشيرِش! هاك!

وفجأةً مدَّ يده التي كانت مخبَّأَة، وفي راحتها كان الصليب.

اجتاحت المفتش مشاعر كثيرة لدرجة أنه لم يقدر على النطق إلا بكلمات مقطعة:

- لكن يا سيدي قائد مجموعات العمل، لم أستحق، لا أجد الكلمات...

لقد توقع أن يناله أي شيء بسبب نوبة الغضب التي كانت قبل خمس دقائق، ولم يستبعد حتى أن يمضي عدة أيام وليال في السجن، أما أن ينال مباشرة وسام الاستحقاق...

- في كل الأحوال أشكر وأمتثلُ!

تسلَّى القائد بْرَالْ بذهوله من المفاجأة.

- أجل يا إشيرِش.. (قال بعدها)

تعلم أني لست هكذا. ثم في النهاية.. أنت أيضًا موظف مجتهد جدًّا. لا بد أن ندفعك من آن إلى آخر وإلا ستنام مني تمامًا. هيًا، فلنقرع نخبًا آخر. نخب وسامك يا إشيرِش!

- نخبك سيدي قائد مجموعات العمل. مرةً أخرى.. شكرى وامتثالي!

بدأ قائد مجموعات العمل يثرثر:

- في الحقيقة لم يكن الوسام مقررًا من أجلك يا إشيرِش على الإطلاق. في الواقع كان من المفترض أن يحصل عليه زميلك رُوْشْ، من أجل مسألة شائكة، أدارها مع يهودية شمطاء. لكن بدا أنك الأولى.

واصل الثرثرة لبعض الوقت، ثم أضاء النور الأحمر فوق باب مكتبه الذي يعني «مباحثات مهمة! ممنوع الإزعاج!».

واستلقى كي ينام على الأريكة.

وعندما دخل إشيرِش إلى مكتبه وهو يمسك بوسام الاستحقاق، كان نائبه على الهاتف يقول: ما الأخبار؟ قضية شبح البحر؟ هل هذا خطأ؟ ليس ثمة قضية شبح بحر هنا!

- هاتِ! (قال إشيرِش وأمسك السماعة)

عبِّر عن نفسك بسرعة! (صاح في التليفون)

نعم هنا المفتش إشيرش؟ ما وضع شبح البحر؟ هل تريد توصيل خبر؟

- أُخبر بكل امتثالٍ سيدي المفتش، أننا فقدنا الرجل، فلقد..

- ماذا فعلتم؟!

كان إشيرِش على وشك أن ينفجر في نوبة غضب مثل التي عايشها قبل ربع ساعة من رئيسه. لكنه تمالك نفسه:

- كيف حدث ذلك؟ كنت أظنُّكَ رجلًا مجتهدًا وأن هدف المراقبة مجرد فأر مسكين!

- أجل، هذا صحيح سيدي المفتش. لكنه يركض مثل ابن عِرس، وفي زحام محطة التِرام في ميدان أليكسندر اختفى فجأةً. لا بد أنه لاحظ أننا نراقبه!

- حتى هذا! (قال إشيرِش متنهِّدًا)

لاحِظْ! أنت يا قرن الثور أفسدت عليَّ فيلمًا كاملًا. الآن لن أستطيعِ أن أرسلكما وراءه فقد صار يعرفكما. والجُدُد لا يعرفونه!

فكّر ثم قال:

- إذًا بسرعة توجَّهْ إلى القسم! كلٌّ واحد منكما يحضر بديلًا له. وواحد منهما يتَّخذ موضعًا قريبًا من شقته. لكن عليه أن يغطي نفسه جيِّدًا، مفهوم؟ حذارِ أن يلاحظكم مرة أخرى. واجبكم فقط هو أن تُشيروا للبدلاء إلى كْلُوْجِه، وبعدها اختَفُوا. الآخَر يذهب إلى المصنع حيث يعمل، وليخبر عن نفسه لدى الإدارة. انتظِرْ. انتظِرْ أيها البطل المغوار، عليك أولًا أن تأخذ عنوان الشقة!

بحث في الأوراق وأملاه العنوان:

- الآن بسرعة إلى مواقعكم! كما يستطيع البديل أن يتوجَّه إلى المصنع بمفرده، وليكن هذا غدًا في الصباح الباكر. وهناك تُرِيه الرجل. سأحسم الأمر. وخلال ساعة سأكون بنفسي في شقته.

كان عليه أن يملي كثيرًا وأن يُجري كثيرًا من الاتصالات الهاتفية، ولهذا لم يذهب إلا متأخِرًا جدًّا إلى شقة إيفا كْلُوْجِه. لم يَرَ رجاله، وكان يرنُّ جرس الباب بلا جدوى. وهكذا لم يبقَ أمامه سوى الجارة، السيدة جِيشْ.

- السيد كْلُوْجِه؟ هل تقصد السيد كْلُوْجِه؟ لا، إنه لا يسكن هنا. هنا تسكن فقط السيدة زوجته أيها السيد العزيز، وهي لا تسمح له بدخول الشقة منذ أمد بعيد. لكنها مسافرة. أين يسكن هو؟ كيف لي أن أعلم أيها السيد العزيز؟ إنه يتنقل من مكان إلى آخر،

دائمًا مع نساء. سمعت هذا مرة على الأقل، لكن لست أنا من قال ذلك، لقد قالت لي السيدة ما يكفي من الاتهامات لأني ساعدت الرجل مرة على دخول شقتها.

- اسمعيني يا سيدة جِيشْ...

(قال إشيرِش وكان قد خَطَا إلى رَدهة الشقة، لأنها كانت تريد أن تغلق الباب في وجهه)

... الآن تحكينَ لي بصراحة كل ما تعرفينه عن آل كْلُوْجِه!

- كيف أفعل ذلك أيها السيد العزيز؟ وكيف تسمح لنفسك أن تدخل شقتي هكذا؟!

- أنا المفتش إشيرِش من جهاز أمن الدولة، هاكِ بطاقتي إن كنت تريدين رؤيتها...

- لا لا!

(صاحت السيدة جِيشْ مدافعةً وتراجعت مذعورة حتى اصطدمت بجدار المطبخ)

... لا أريد أن أرى شيئًا ولا أريد أن أسمع شيئًا! وعن آل كْلُوْجِه فقد قلت لك الآن بالفعل كل ما أعرفه!

- الآن، أفكِر أنك ستعيدين النظر يا سيدة جِيشْ، لأنك لو لم تخبريني بكل شيء فسوف أضطر إلى دعوتك إلى مقرِّ الجيستابو في شارع برنس-آلبريشت واستدعائك إلى استجواب حقيقي. وهذا بالتأكيد أمر لن يعجبك. أما هنا فسنتحدَّث قليلًا بمنتهى الاسترخاء ولن يُدَوَّن شيء!

- أجل، يا سيدي المفتش. لكني حقًّا ليس لديَّ شيء آخر أقوله. فأنا فعلًا لا أعرف شيئًا عن أي منهما.

- كما تشائين يا سيدة جِيشْ. إذًا استعدي، لديَّ بعض الرجال بالأسفل تستطيعين أن تصحبينا الآن فورًا. واكتبي لزوجك -لديك زوج بالتأكيد، أليس كذلك؟- اتركي له ورقةً واكتبي عليها «أنا في الجيستابو. موعد عودتي غير معروف». هيًا إذًا يا سيدة جِيشْ! اكتبي الورقة!

أصاب الشحوب وجه السيدة جِيشْ وارتجفت أطرافها واصطكَت أسنانها.

- لن تفعل ذلك أيها السيد العزيز، العزيز! (توسَّلَت)

أجاب بخشونة مصطَنَعة:

- بالتأكيد سأنفذ ذلك يا سيدة جِيشْ، عندما ترفضين الإدلاء بأقوالك. فلتتعَقَّلي إذًا، ولتجلسي هنا وأخبريني بكل ما تعرفينه عن آل كْلُوْجِه. ما حال السيدة؟

وبطبيعة الحال تعقَّلت السيدة جِيشْ. ففي الأساس كان الرجل لطيفًا، ذلك الرجل من الجيستابو، مختلف تمامًا عن الكيفية التي تصوَّرَتْ بها هؤلاء الرجال. عرف المفتش إشيرش كل ما يمكن أن تخبره به السيدة جِيشْ. أخبرته حتى عن كازْلْمان رجل الشرطة العسكرية لأن ما يعرفه السكِير تعرفه أيضًا السيدة جِيشْ. كان ذلك ليثقل قلب ساعية البريد السابقة السيدة المجتهدة إيفا كْلُوْجِه إن سمعَتْ كيف لاكت الألسنة أخبارها هي وعزيزها السابق كازْلْمان.

وعندما ودَّع المفتش إشيرِش السيدة جِيشْ لم يترك للزوج بعض السيجار فحسب، وإنما اكتسب للجيستابو جاسوسةً متحمّسة ومستعدَّة للعمل بلا مقابل. فهي ستفتح عينها على شقة كْلُوْجِه وكذلك ستتنصَّت في البيت كلِّه وفي كل طوابير المحلات وتتصل مباشرة بالسيد العزيز المفتش بمجرد أن تسمع شيئًا يمكن أن يفيده.

وفي أعقاب هذا الحديث اتصل المفتش إشيرِش بِرَجُليه مرة أخرى. فاحتمالية الإمساك بكْلُوْجِه في شقة زوجته ضعيفة بعد ما عَرَف. بالإضافة إلى ذلك فإن السيدة جِيشْ تتولى مراقبة الشقة. وبعد ذلك توجَّه المفتش إشيرِش إلى هيئة البريد وإلى فرع الحزب وأجرى تحرِّيات إضافية عن السيدة كْلُوْجِه هذه. ما كان لأحد أن يعلم في أي شيء يمكن لهذا كله أن يفيد.

كان يمكن لإشيرش أن يقول إنه يعتقد أنَّ ارتباطًا ما بين انفصال السيدة كْلُوْجِه عن الحزب وبين أفعال ابنها المشينة في بولندا. وكان يمكن له أن يفشي عنوان السيدة كْلُوْجِه في روبينشن لو أنه دَوَّنه من الخطاب الذي كتبَتْه كْلُوْجِه إلى جِيشْ حين أرسلت المفتاح. لكنَّ إشيرش لم يفعل ذلك. لقد طرح أسئلة كثيرة، ولم يدلِ بأيِّ معلومات.

ربما كان الحزب وهيئة البريد أمرًا رسميًا، لكن ليس من شأن الجيستابو أن يساعد الآخرين على مَهمَّاتهم؛ الجيستابو أفضل من ذلك بكثير، وفي هذه النقطة على الأقل كان المفتش إشيرِش يمثِّل تصور الجيستابو تمامًا عن نفسه.

تعيَّن على السادة في المصنع أيضًا معرفةُ ذلك. فهم يرتدون الزي الرسمي، كما أنهم أعلى رتبة وبالتأكيد أعلى راتبًا من السيد المفتش الذي بلا لون. لكنه أصرَّ على الأمر:

- لا يا سادتي، ما عندنا ضد السيد كْلُوْجِه هو أمر خاص بجهاز أمن الدولة. لن أخبركم بأي شيء من هذا. أخبركم فقط أن عليكم ترك كْلُوْجِه يأتي ويمضي كما يحلو له بدون مشكلة، ولا أريد له أي مضايقة أو ترويع، وأن تسمحوا له بالعمل في مصنعكم وأن تساندوه في عمله. هل نحن متفقون؟

- أطلُبُ تأكيدًا كتابيًّا لهذه الأوامر! (صاح ضابط)

وليصلني اليوم!

- اليوم؟ سيتأخر هذا بعض الوقت. لكن ربما غدًا. فبالتأكيد لن يحضر كْلُوْجِه قبل الغد، إن كان سيعود ويحضر هنا من الأساس! إذًا، هايْلْ هتلر، سادتي!

- اللعنة! (قال الضابط مكشِّرا عن أنيابه)

هؤلاء الرجال يزدادون وقاحة! على الجلاد أن يعدم كل رجال الجيستابو! يظنون لأن بوسعهم أن يصعقوا بالكهرباء كل إنسان ألماني، كأنَّ من المسموح لهم أي شيء. لكن أنا ضابط، بل إنني ضابط مهني.

- ثمة ما أريد إضافته... (ظهر رأس إشيرِش مجدَّدًا في فرجة الباب.)

هل للرجل هنا أوراق، خطابات، متعلقات شخصيَّة؟

- عليك أن تسأل رئيسه؛ لديه مفتاح لدولابه.

- جميل إذًا! (قال إشيرِش وغطس في أحد الكراسيّ)

- فلتسأل إذًا رئيسه عنها، سيدي الملازم الأول! لكن بسرعة إن كان هذا لا يتسبَّب لك في مزيد من الجهد. ممكن؟

لوهلة تبادلا النظرات. دخلت عينا إشيرِش الكالح الساخر مع الآخر ذي النظرات المعتمة من الغيظ في صراع متبادل. ثم ضرب الضابط الصليب المعقوف وغادر الغرفة بسرعة ليحضر المعلومات المطلوبة.

- ديكٌ مقزز!

قال إشيرِش للقط الفاسد المنتمي إلى الحزب، الذي جلس فجأةً إلى مكتبه لينجز أعماله بنشاط.

- يتمنَّى أن يعلِّق رجال الجيستابو على المشانق. أريد أن أعرف كم من الوقت ستتمكَّنون من الاحتفاظ بأماكنكم هنا لو لم نكن نحن موجودين. في النهاية، الدولة كلها تقوم على الجيستابو. وبدوننا سينهار كل شيء، وستُعَلَّقون جميعكم على المشانق!

25

قرار السيدة هِيْتِه

سيكون من الغريب على المفتش إشيرِش وكذلك على رجاله من أليكس أن يسمع أن إيْنُوْ كْلُوْجِه لم يكن يدري شيئًا عن كونه مُراقَبًا. وأن الفكرة الوحيدة التي سيطرت عليه منذ اللحظة التي ودَّعه فيها المعاون شْرُودِر هي أن ينطلق حُرًّا مباشرة نحو السيدة هِيْتِه!

ركض في الشوارع من دون أن يرى الناس، لم يكن مدركًا مَن وراءه ومَن إلى جواره. لم يرفع رأسه حتى، فقط فكر «هَلُمَّ إلى هِيْتِه!».

ابتعله نفق المترو، ركب إحدى العربات، وأفلت هذه المرة من رقابة المفتش إشيرِش، ورجال أليكس، والجيستابو كله.

لقد قرر إيْنُوْ كْلُوْجِه: سيذهب أولًا إلى لُوْتِه ليجلب كل أغراضه. أراد أن يرسو فورًا بحقيبته في بيت هِيْتِه، ليرى حقًّا إن كانت تحبه وليثبت لها أنه أنهى كل ما يتعلق بحياته القديمة.

وهذا ما جعل مراقبيه يفقدونه، بسبب الزحام في مترو الأنفاق وسوء الإضاءة. لم يكن إلا مجرد ظل، ذلك الإيْنُوْ المرهَف! ولو أنه ذهب مباشرة إلى هِيْتِه -وإلى كونيجزتور- لَوَسِعَهُ الذهاب إلى أليكس مشيًا على الأقدام، فهو لا يحتاج إلى مترو الأنفاق في هذه

الحالة، وما كانوا ليفقدوه، ولَوَجدوا في متجر الحيوانات الأليفة نقطة انطلاق ثابتة لأنشطتهم في المراقبة.

ثم إنه صادف حظًّا طيبًا مع لُوْتِه؛ لم تكن بالمنزل، فجمع أغراضه في عجاله ووضعها في حقيبة يده. بل إنه حتى قاوم غواية أن يفتش في أغراضها علَّه يجد شيئًا مفيدًا فيأخذه. لكن لا، هذه المرة سيتصرَّف بطريقة مختلفة، لا ينبغي أن يتكرر أبدًا ما حدث عندما استأجر الغرفة الصغيرة في الفندق، لا، هذه المرة هو حقًّا يريد أن يعيش حياة مختلفة، إن قبلت به هِيْتِه.

كلما اقترب من المحل تباطأت خطواته، وتزايد عدد المرات التي يضع فيها الحقيبة على الأرض رغم أنها لم تكن ثقيلة إلى هذا الحد. وتزايد عدد المرات التي يمسح فيها العرق عن جبينه رغم أن الجو لم يكن حارًّا لهذه الدرجة.

ثم وقف أمام المتجر ونظر عبر سياج أقفاص العصافير. أجل لقد كانت هِيْتِه منهمكة في عملها، إذ كانت في التوِّ تلبِّي طلبات أربعة أو خمسة زبائن موجودين في المتجر. وقف إلى جوارهم ونظر فخورًا في الوقت الذي كان قلبه يرتجف فيه، كيف تعامل الزبائن بمهارة فائقة وكيف أنها تتحدَّث معهم بأدب جم!

- لم يعد لدينا دخن هندي يا سيدتي. لا بد أنك تعرفين ذلك بما أن الهند تنتمي إلى الإمبراطورية البريطانية. لكن لا يزال لديَّ دخن بلغاري، وهو أفضل كثيرًا.

وقالت وهي تخدم زبائنها:

- السيد إيْنُوْ! كم هو لطف منك أنك تريد تقديم بعض المساعدة. من الأفضل أن تضع الحقيبة في الغرفة، وبعدها أحضر لي مباشرة رمال العصافير من القبو. سأحتاج أيضًا إلى رمال للقطط. ثم بيض نمل...

وفيما هو مشغول بتنفيذ هذه المهمة أو تلك، فكّر «لقد رأتني مباشرة، وقد رأت فورًا أن معي حقيبة. أن تسمح لي بأن أضع الحقيبة في الغرفة لهي علامة طيبة. لكنها ستستجوبني أولًا، فهي دقيقة في كل شيء على نحو مرعب. لكني سأتمكّن من سرد أي قصة لها».

وهذا الرجل الذي يشارف على الخمسين، هذا اللعوب العجوز، العاطل، زير النساء، شَرَعَ يدعو مثل طفل في المدرسة «يا إلهي الرحيم، اجعل لي هذه المرة حظًا حسنًا، هذه المرة أيضًا! أريد بالتأكيد أن أبدأ حياة مختلفة، فقط اجعل هِيْتِه تقبل بي»!

وهكذا دعا وتوسّل. وتمنى أن يطول الوقت إلى أن يحين موعد إغلاق المحل، الذي سيعقبه حديث مفصّل، وسيتوجّب عليه أن يقدِّم اعترافًا لهِيْتِه. كيف سيشرح لها إذًا أنه جاء عندها بكل ما يملك في الدنيا، وهو متاع قليل على كل حال. فلطالما لعب أمامها دور الرجل الكبير.

وفجأةً حان الوقت. أغلقت أبواب المتجر، مرت ساعة ونصف قدموا فيها الماء والعلف الطازج لكل قاطنيه ونظفوا المكان. والآن جلس كل منهما قبالة الآخر على الطاولة المستديرة، تناوَلَا الطعام، وتجنّبَا الموضوع الرئيسي بخوف، وفجأةً رفعت هذه السيدة المحنكة وشيكةُ الذبول رأسها وطرحت السؤال: والآن يا هَيِنْشِن؟ ما الخبر؟ ما الذي حدث؟

وبمجرد أن تلفظت بهذه الكلمات بصوت أُمومي مليء بالاهتمام والرعاية، طفرت الدموع من عينَيْ إيْنُوْ، ببطء أولًا ثم بتسارع وغزارة، وانهمرت على وجهه النحيف الشاحب ما جعل أنفه يبدو أكثر حدة باستمرار.

تنهَّد:

- آه يا هِيْتِه، لم أعد أستطيع! الوضع سيِّئ للغاية! لقد أمسك بي الجيستابو!

وفيما يقول ذلك من خلال النشيج خبَّأ رأسه في صدرها الأمومي العامر. وبهذه الكلمات رفعت السيدة هِيْبِرْلِه رأسه وظهر في عينيها بريق حاد، تصلَّبت رقبتها وسألت في عجالة:

- ماذا أراد منك الجيستابو؟»

لقد أصاب سهم إيْنُوْ كْلُوْجِه الضئيل -بكل تأكيد- بكلماته المتقنة التي لا يجيد سواها. وكل قصصه التي كانت تنتوي إثارة شفقتها أو محبَّتها ما كانت لتنجح معها مثلما نجحت تلك الكلمة «جيستابو». إن الأرملة هِيْتِه هِيْبِرْلِه تكره الفوضى، ولم يكن ممكنًا أن تستقبل هذا اللعوب، قاتل الوقت في بيتها وبين ذراعيها الأموميين. لكن كلمة «الجيستابو» فتحت له كل بوابات قلبها الأمومي، فشخص يتعرَّض لملاحقة الجيستابو كان ليضمن من البداية شفقتها ومساندتها.

فزوجها الأول -وهو ناشط شيوعي بسيط- وضعه الجيستابو بالفعل عام 1934 في معسكر تعذيب، ولم تره منذ ذلك الحين، ولم تسمع عنه أي خبر، عدا طرد وصلها يضم بعض أغراض قذرة

ومتهالكة تخصُّه، وفوقها شهادة الوفاة، صادرة عن سجل 2، أورانينبورج، سبب الوفاة: التهاب رئوي. لكنها سمعت من معتقلين آخرين -أُطلق سراحهم- عن مفهومهم عن الالتهاب الرئوي هناك في أورانيونبورج ومعسكر تعذيب زاكسنهاوزن القريب منها.

والآن رجل آخر بين ذراعيها، رجل استشعرت نحوه بعض العطف بسبب كِيانه الخجول، المتملِّق المحتاج إلى الحب، وها هو ذا مجدَّدًا مُلاحَق من الجيستابو.

- اهدأ، يا هَيِنْشِن! (قالت بنبرة مواسية)

احكِ لي كل شيء. عندما يكون أحدهم ملاحَقًا من الجيستابو يمكنه أن يحصل مني على أي شيء!

كانت لتلك الكلمات مفعول البلسم في أذنيه، وما كانت لِتَحْدُث مع إِيْنُوْ كْلُوْجِه الخبير بالنساء، لو أنه لم يستغل فرصته. فكل ما حكاه من خلال كثير من النشيج والدموع ما هو إلا مزيج خاص من الحقيقة والأكاذيب. لكنه نجح في تهريب سوء المعاملة الذي تعرض له على يد بِيرْزِيكِه رجل الشرطة العسكرية.

لكن كراهية هِيْتِه هِيْبِرْلِه للجيستابو أعمتها عن كل اللا معقول الذي حوته تلك القصة، وبهذا بدأ الحب ينسج شباكه حول قلبها من أجل الرجل عديم النفع. قالت:

- لقد وقَّعت إذًا على المحضر وغطَّيت بذلك على المجرم يا هَيِنْشِن. كان هذا فعلًا شجاعًا منك، كم تثير إعجابي! ما كان ليجرؤ على ذلك حتى عشرة رجال. لكن أنت تعلم بالتأكيد حينما

يمسكون بك.. ستسوء الأحوال، وأنهم بهذا المحضر يستطيعون أن يوقعوك في الفخ دائمًا، هذه مسألة واضحة تمامًا.

قال، وقد هدأ روعه قليلًا:

- فقط إن كنتِ ستقفين إلى جواري فلن يمسكوا أبدًا بي.

لكنها هزَّت رأسها ببطء وتفكر:

- لا أفهم لم تركوك تمضي من الأساس! (وفجأةً خطر ببالها) يا إلهي، إنهم سيراقبونك، هل كانوا يعرفون إلى أين تذهب؟

هز رأسه بالنفي:

- لا أعتقد، يا هِيتِه. لقد ذهبت أولًا.. لقد ذهبت أولًا إلى مكان آخر كي أُحضر أغراضي. كنت سألاحظ لو أن أحدهم يتتبعني. ولماذا؟ هم ليسوا في حاجة من الأساس إلى إطلاق سراحي.

لكنها فكرت:

- إنهم يعتقدون أنك تعرف كاتب البطاقة وأنك ستقودهم إليه. وربما أنت تعرفه فعلًا ووضعت البطاقة هنالك بنفسك. لكني لا أريد أن أعرف شيئًا عن ذلك بتاتًا، لا تخبرني بهذا مطلقًا!

انحنت نحوه وهمست:

- سأذهب الآن لنصف ساعة يا هَينْشِن. وسأراقب المنزل لأرى إن كان جاسوسٌ يراقب في الجوار. أنت ستبقى هادئًا في هذه الغرفة، أليس كذلك؟

قال لها إن هذا الاستطلاع غير مُجدٍ لأنه واثق بأن أحدًا لم يتبعه.

لكنها اجترّت الذكرى المؤلمة، وكيف أنهم أخرجوا زوجها من بيتها ومن الحياة. كان اضطرابها لا يهدأ وشعرت أن عليها الذهاب كي تستطلع الأمر.

وفيما هي تمضي بطيئًا حول المجمع السكني، أخذت معها «بلاكي» من المتجر مربوطًا بحبله، وهو كلب ساحر من فصيلة السكوتش، ومن خلاله بدا هذا الطريق الليلي غير مؤذ، فيما هي -لأجل سلامتها- مشت ببطء، وبدا عليها أنها مشغولة فقط بالكلب، لكنها أرسلت عينيها وأذنيها اليقظة في كل مكان في الجوار. وفي هذه الأثناء تفقد إِيْنُوْ محتويات الغرفة بشكل مبدئي وبيدين حذرتين. فلا يمكن أن يسمح الوقت غير بتفقُّد سطحي، علاوة على ذلك فإنها قد أغلقت كل قطع الأثاث بالمفاتيح. لكن هذا التفقُّد المبدئي وَشَى له، بأنه في حياته كلها لم يحظَ بسيدة مثل تلك المرأة، سيدة لها حساب في البنك، بل ودفتر شيكات يحوي اسمها مطبوعًا على كل الاستمارات بشكل صحيح!

قرر إِيْنُوْ كْلُوْجِه مرة أخرى مع نفسه، أن يبدأ حياة جديدة مختلفة تمامًا، وأن يتصرَّف في هذه الشقة بصورة صحيحة على الدوام، وألا يصادر أي شيء لم تعطه إياه بطيب خاطر.

عادت وقالت:

- لا، لم أَرَ ما يلفت الانتباه. لكن ربما رَأَوك تأتي إلى هنا، وسيعودون غدًا في الصباح الباكر. سأذهب في الصباح مرة أخرى، وسأضبط المنبه على تمام السادسة.

- ليس ضروريًّا يا هِيْتِه. (قال مجدِّدًا)

أنا متيقِّن من أن أحدًا لم يتبعني.

أفردت له مكانًا للنوم فوق الأريكة ثم ذهبت إلى فراشها لتنام. لكنها تركت الباب بين الغرفتين مفتوحًا وأصخت السمع؛ كيف أنه يتقلبُ هنا وهناك ويتنهَّد ولا ينام هادئًا.. إلى أن استغرق في النوم حقًّا. ثم صارت هي ذاتها نَعْسَى، ثم عادت واستيقظت على بكائه. مرة أخرى يبكي. إنه يبكي سواء في اليقظة أو في المنام. ترى السيدة هِيْتِه وجهه في الظلام أمامها، ذلك الوجه الذي رغم سنواته الخمسين لا يزال يمتلك شيئًا طفوليًّا، ربما بسبب ذقنه الضعيف وفمه المستدير المنتفخ الأحمر.

استمعت بعض الوقت إلى هذا البكاء، الذي يستمر وسط عَتَمَة الليل، كأن الليل ذاته ينتحب على كل الهموم الموجودة الآن في العالم.

ثم قررت السيدة هِيْبِرْلِه أن تنهض وتتلمَّس طريقها إلى أريكته.

- لا تبكِ هكذا يا هَيِنْشِن! أنت في مأمن، أنت معي. هِيْتِه ستساعدك...

وهكذا حدَّثته لتواسيه، وعندما لم يتوقَّف البكاء رغم ذلك، انحنت عليه ودست ذراعها أسفل كتفيه، وقادت ذلك الباكي إلى فراشها وهناك احتوته بذراعيها، على صدرها.

سيدة تسير إلى الشيخوخة، رجل يسير إلى الشيخوخة، يحتاج إلى الحب مثل طفل، وبعض المواساة، وبعض الولع، وقليل من سمات المجد حول رأس الحبيب. ولا مرة خطرٍ ببال السيدة هِيْتِه أن تستوضح كيف يمكن لهذا الرجل الضعيف البَكاء أن يكون محاربًا وبطلًا.

- أفضل الآن يا هَينْشِن؟ أليس كذلك؟

لكن لا، هذا السؤال يدفع تيار الدموع مرة أخرى إلى التدفُّق بعدما كاد يتوقَّف. يرتجف بين ذراعيها.

- لكن ما الأمر يا هَينْشِن؟ هل تحمل همومًا أخرى لم تحكها لي؟

هذه هي اللحظة المناسبة التي عمل لأجلها صياد النساء المحنك هذا، لأنه قرر مع نفسه، أنه أمر بالغ الخطورة وغير ممكن أن يتركها بلا معرفة باسمه الحقيقي ووضعه الزوجي. سيعترف الآن، حسن، سيعترف أيضًا وستقبل به ولن يقلَّ حبها له بسبب اعترافه. الآن تحديدًا وهي تحتويه بين ذراعيها لن تطرده إلى الشارع ثانية!

سألَتْ هَينْشِن، إن كانت هموم أخرى لم يخبرها عنها. الآن يعترف، باكيًا، يائسًا، بأن اسمه ليس هَانسْ إيْنُوْ على الإطلاق، وإنما إيْنُوْ كْلُوْجِه. وبأنه رجل متزوج وبأن لديه ابنين راشدين. أجل هو عاطل، لقد فكَّر أن يكذب عليها ويخدعها لكن قلبه لم يسمح له لأنها تعامله بمنتهى الطيبة.

وكما حاله دائمًا فلقد كان اعترافه نصفَ اعتراف، بعضَ الحقيقة مخلوطًا بكثير من الأكاذيب. رسم صورة لزوجته: نازية قاسية وشريرة تعمل في هيئة البريد لا تتحمَّل وجود زوجها معها لأنه رفض أن ينضم إلى الحزب. هذه السيدة التي أجبرت ابنها الكبير أن ينضم إلى الشرطة العسكرية. ثم أخبرها عن أفعال كارْلمان المشينة. رسم صورة ذلك الزواج السيِّئ غير المتكافئ: الرجل الهادئ الصبور الذي يتحمل كل شيء والسيدة الشريرة الطماعة النازية، لا يستطيع بعضهما الحياة مع بعض، إذ يكره كلٌّ منهما الآخر. والآن طردته

من الشقة! وهكذا كذب على هِيْتِه جُبْنًا، لأنه يحبها كثيرًا، ولم يكن يريد أن يسبِّب لها أي ألم!

لكنه الآن تحرَّر من كل ما كان يقيد كلامه. كلا، الآن لن يعاود البكاء. سينهض ويجمع أغراضه ويرحل عنها، إلى العالم الرديء في الخارج. سيختبئ من الجيستابو في مكان ما، وحينما يقبضون عليه فلن يشكِل له ذلك أمرًا يستحق الاكتراث. لأنه الآن سيكون فَقَدَ حب هِيْتِه، السيدة الوحيدة التي أحبها في حياته حقًّا!

أجل، هو بالفعل متمكِّن من إغواء النساء بحنكته وخبرته الطويلة هذا الإِيْنُوْ كْلُوْجِه. يعرف بالفعل كيف يتناول المسائل مع هؤلاء النسوة. الحب والأكاذيب وَحدةٌ واحدة. لا بد أن يكون بها بعض الحقيقة، لا بد أن تكون قابلة لتصديق جزء من الهراء الذي يحكيه، وقبل كل شيء لا بد أن تكون الدموع جاهزة، الدموع والعجز!

لقد استمعت السيدة هِيْتِه هذه المرة إلى اعترافه بذعر حقيقي. لماذا كذب عليها بهذا الشكل؟ حينما تعارفا لم يكن سبب لمثل تلك الأكاذيب! هل كانت لديه نِيَّات تجاهها حتى في ذلك الوقت المبكر؟ لا بد إذًا أن تكون نِيَّاتٍ خبيثة ما دامت تسبَّبت في تلك الأكاذيب.

تقول لها غريزتها إن عليها أن تصرفه. فرجل قادر على خداع سيدة منذ اللحظة الأولى سيكون دائمًا مستعدًّا للكذب عليها في أي موقف لاحق. ومع كذاب مثل هذا لن تستطيع أن تحيا. لقد عاشت دائمًا حياة نظيفة مع زوجها الأول، وتلك القصص الصغيرة التي وقعت منذ وفاته، ما هي إلا قصص تثير ضحك أي سيدة ناضجة.

لا، سوف تتركه يغادر حضنها، إن كان هذا لا يعني أنها تطرده إلى أحضان العدو، الجيستابو الكريه. لأنها مقتنعة تمامًا بأنها تفعل ذلك إن تركته يمضي. فحكاية ملاحقة الجيستابو هذه حكاية تأخذها على محمل الجد، ولا يخطر ببالها أن تشكِّك في هذه الحقيقة رغم أنها للتوِّ قد تعرَّفت عليه ككذاب.

ثم ثمة تلك السيدة؛ من غير المعقول أن يكون كل ما حكاه عن تلك السيدة غير حقيقي. فشيء كهذا يصعب أن يختلقه أي إنسان، لا بد أنَّ حقيقةً في هذا الأمر. وهي تعتقد أنها تعرف ذلك الرجل الراقد إلى جوارها، إنه مخلوق ضعيف، طفل، هادئ الطبع فعلًا؛ يمكن توجيهه ببعض الكلمات الودودة. لكن تلك السيدة قاسية، مغرورة، تلك النازية التي تريد أن تترقَّى في الحزب، من الطبيعي أن ترى رجلًا كهذا غير ذي شأن، ذلك الرجل الذي كره الحزب، ولربما عمل ضده في السر، ذلك الرجل الذي رفض الانضمام إلى الحزب.

هل بوسعها أن تطرده ليعود إلى مثل تلك المرأة؟ أو أن يقع في يد الجيستابو؟

لن تستطيع ولا ينبغي أن تسمح لنفسها بذلك. اشتعل الضوء. ها هو ذا يقف إلى جوار فراشها مرتديًا قميصًا أزرقَ بالغ القصر، فيما الدموع الصامتة تجري فوق وجهه الشاحب. ينحني تجاهها ويهمس:

- الوداع يا هِيْتِه! لقد كنتِ بالغة الطيبة معي لكنني لا أستحق ذلك، أنا إنسان سيِّئ. الوداع! سوف أمضي الآن...

تعلَّقت به وهمست:

- كلا، ستظل معي. لقد وعدتك، وسأفي بوعدي. لا. لا تقل شيئًا. اذهب الآن من فضلك إلى الأريكة وحاول أن تنال قسطًا من النوم. سوف أفكر كيف نتدبَّر الأمور بأفضل طريقة.

هز رأسه ببطء وحزن:

- هِيْته، أنت أفضل مني كثيرًا. أريد أن أفعل كل ما طلبتِه، لكن حقًّا، الأفضل أن تتركيني أذهب.

لكنه بالطبع لا يذهب، بالطبع يدعها تقنعه بالبقاء. سوف تفكر في كل شيء، وسوف تنظِم كل شيء. وبالطبع يجعلها ترفع عنه النَّفيَ إلى الأريكة، وتسمح له بالعودة إلى السرير. لتحيطه بدفئها الأمومي، ينام سريعًا، هذه المرة بدون مزيد من البكاء.

لكنها هي التي بقيت مستيقظة لفترة طويلة، في الحقيقة ظلَّت مستيقظة طوال الليل. سمعت صوت تنفسه، جميل أن تسمع مرة أخرى صوت رجل يتنفس إلى جوارها، وأن يكون قريبًا منها في الفراش. لقد ظلت بمفردها مدة طويلة. أما الآن فمعها أحد مرة أخرى، شخص تستطيع أن تعتني به. لن تكون حياتها بلا أي مغزى. وحقًّا قد يتسبَّب لها في قلق أكثر من المطلوب، لكن مثل تلك الهموم -الهموم التي نحملها بسبب إنسان نحبه- هي هموم طيبة.

قررت السيدة هِيْتِه أن تبقى قوية لأجل كل منهما. وقرَّرت أن تحميه من كل الأخطار المحدقة به وعلى رأسها الجيستابو. أن تربيه وأن تجعل منه إنسانًا حقيقيًّا، وأن تدافع عن حرية هذا الهَيِنْشْشِن، أَخْ.. كلَّا، فاسمه الآن إيْنُوْ، قرَّرت أن تحرِّر ذلك الإيْنُوْ من تلك المرأة النازية. و أن تُدخِل النظام والنظافة على تلك الحياة المستلقية إلى جوارها.

والسيدة هِيْتِه ليست لديها أدنى فكرة أن هذا الرجل الضعيف المستلقي إلى جوارها سيملك القوة الكافية التي تجلب إلى حياتها الفوضى، والمعاناة، والشك في الذات، والدموع، والخطر. السيدة هِيْتِه ليست لديها أدنى فكرة أن كل قوتها ستتلاشى في اللحظة التي قررت فيها أن تقبل بإيْنُوْ كْلُوْجِه وأن تدافع عنه ضد العالم بأجمعه. السيدة هِيْتِه ليست لديها أدنى فكرة أنها تُعرِّض نفسها ومملكتها الصغيرة التي كدَّت في بنائها.. لأقصى درجات الخطر.

26

الخوف والرهبة

مر أسبوعان على تلك الليلة. تعرفت السيدة هِيْتِه على إِيْنُوْ كْلُوْجِه بشكل أفضل من خلال ذلك التجاور الوثيق. وصارت حال الرجل أنه لا يخرج من البيت خوفًا من الجيستابو. عاشا منعزلين كأنهما يعيشان على جزيرة لهما وحدهما، لم يكونا قادرين على أن يتجنَّب بعضهما بعضًا، ولا أن يجِدَا لدى بشر آخرين ما يجدِّد هواء حياتهما. كانا كلٌّ منهما معتمدًا على الآخر كليةً.

في الأيام الأولى لم تسمح لإِيْنُوْ -ولا مرة واحدة- أن يساعدها في الدكان، في تلك الأيام الأولى لم تكن واثقة إن كان عميلٌ من عملاء الجيستابو يتسلَّل حول المنزل. قالت له إن عليه أن يظل في الغرفة ساكنًا، وأن يحرص على ألا يشاهده أحد. ودهشت من السلاسة التي قبل بها هذه الدعوة، فقد خشيت -حدَّ الذعر- أن يتضايق من الجلوس في الغرفة بلا عمل. لكنه قال فقط:

- حسن. سأقوم على رعاية نفسي!

- وماذا ستفعل يا إِيْنُوْ؟ بلا عمل يصير اليوم طويلًا، وأنا لا أستطيع أن أهتم بشؤونك، كما أن إمعان التفكير لا يجلب خيرًا.

- عمل؟! (سأل مدهوشًا)

ولم العمل؟ هل تعنين الشغل؟

كان على لسانه أن يقول إنه يعتقد أنه لزمن طويل اشتغل بما يكفي، لكنه كان لا يزال حذرًا معها ولذلك قال:

- بالطبع سأشتغل شيئًا ما. لكن ماذا يمكنني أن أشتغل في الحجرة؟ أجل! ربما لو أن في الحجرة مخرطةً! (وضحك)

- لكني أعرف شغلًا لك! انظر يا إِيْنُوْ!

حملت صندوقا كبيرًا من الكرتون مملوءًا عن آخره بكل أشكال البذور. ثم وضعت صينية أمامه، وأحد تلك العدادات ذات الحافة الموجودة على طاولات عديد من الدكاكين. وأخذت ريشة ومحبرة ذات حامل في يدها من تلك التي تُوضع فيها الريشة مقلوبة. واستخدمت الحامل مثل جاروف وبدأت تقسم حفنة من البذور التي وضعتها على العداد إلى مختلف الأنواع، وبسرعة ومهارة تحركت الريشة هنا وهناك، وزَّعت، أزاحت إلى أحد الأركان، فرزت مرة أخرى وكانت توضح في أثناء ذلك:

- هذه كلها بقايا علف، كُنِسَت من الزوايا، ومن الأكياس الممزقة، جمعتُها كلها، منذ سنوات. والآن إذ إن العلف نادر جدًّا، ينفعني هذا. أفرِزُها...

- لكن لماذا تفرِزينها؟ هذا عمل ضخم! فلتعطيه للطيور كما هو وهي ستفرزه بنفسها!

- وأفقدُ في ذلك ثلاثة أرباع العلف! أو تلتهم ما لا يناسبها وتموت! لا. هذا العمل الصغير علينا أن ننجزه بأنفسنا. كنت غالبًا ما أنجز ذلك في المساء وفي أيام الأحد لو عندي وقت. ذات أحد فرزت ما يقارب خَمس أونصات إلى جوار الأعمال المنزلية! والآن

سنرى إن كنتَ تستطيع أن تتجاوز رقمي القياسي! أنت لديك كثيرٌ من الوقت، كما أن هذا العمل يتيح فرصة للتفكير والتأمل. والآن جرب يا إِيْنُوْ!

أعطته حفنة صغيرة في يده وراقبت كيف بدأ يعمل.

- أنت لست بلا مهارة! (مدحته)

ولديك يدان ذكيتان.

وبعد لحظات:

- لكن عليك أن تكون أكثر حرصًا يا هَيِنْشِن.. أقصد يا إِيْنُوْ؛ عليَّ أن أعتاد الاسم! انظر هذه الحبة اللامعة المدببة.. هذه من الدُّخْن، والسوداء المصمتة هذه سَلْجَمٌ. عليك ألا تخلط بينهما. أما بذور الزهرة فالأفضل أن تأخذها أولًا بأصابعك، فهذا أسرع من استخدام الريشة. انتظر، سأحضر لك مزيدًا من الأطباق كي تتمكّن من إنهاء الفرز!

تحمَّسَتْ للغاية لأن تشغله في أيامه المملة. ثم دق جرس المحل للمرة الأولى، وبعدها لم تتمكّن من التملص من الزبائن، ولم تتمكّن إلا من زيارته لدقائق محدودة، لتجده يحلم أمام العداد الخشبي والبذور. أو الأسوأ، عندما يخشى أن تضبطه متكاسلًا فيركض مسرعًا ويتسلَّل مثل الطفل إلى مكان عمله بمجرد أن يسمع صوت الباب.

وسرعان ما رأت أنه لن يحطم أبدًا رقمها القياسي خَمْسَ الأونصات، بل لن يحقِّق حتى أونصتين. وحتى في تلك الحالة فسيتعيَّن عليها أن تراجع وراءه لأنه لم يحسن العمل.

كانت مخذولة قليلًا، لكنها عذرته عندما قال:

- لستِ راضية تمامًا يا هِيتِه، أليس كذلك؟ (وضحك يائسًا)

لكن أتعرفين؟ ليس هذا بالعمل الحقيقي بالنسبة إلى رجل. أعطيني عملًا مُناسبًا لرجل وسترين كيف سأنقض عليه!

بالطبع كان معه حق، وفي اليوم التالي لم تضع له الصينية المليئة بالبذور.

- انظر كيف تريد أن تقضي يومك أيها المسكين! (قالت تواسيه)

لا بد أن الأمر مرعب جدًّا بالنسبة إليك. لكن ربما تودُّ أن تقرأ قليلًا؟ لا يزال لديَّ في الدولاب كتب عديدة تخص زوجي. انتظر، سأفتح لك الدولاب فورًا.

وقف وراءها فيما هي تنظر إلى الرفوف:

- لقد كان ناشطًا في الحزب الشيوعي الألماني. ها هو ذا ماركس، كنت قد أنقذته ساعة تفتيش المنزل. زَجَجْتُ به في فتحة الفرن، وعندما أراد رجل من رجال كتيبة العصف أن يفتح الفرن ناولته بسرعة سيجارة فنسي الأمر. (نَظَرَتْ إليه في وجهه)

لكن ربما ليست هذه الكتب مناسبة لك يا عزيزي. لا بد أن أعترف أنني بالكاد نظرت فيها منذ توفِّيَ زوجي. ربما هذا خطأ، فعلى كل واحد أن يهتم بالسياسة. لو أننا كلنا فعلنا ذلك في الوقت المناسب لما وصلت الحال إلى ما هي عليه الآن بسبب النازيين، لطالما ردَّدَ فَالْتَرْ هذا الكلام. لكن أنا مجرد امرأة ...

قطعت كلامها، لاحظت أنه لم يسمعه من الأساس.

- لكن بالأسفل بضع روايات تخصني.

قال إينُوْ موضِّحًا: أفضِّل لو أن ثمة رواية بوليسية، شيئًا يحوي جريمةً وقتلًا!

- لا أعتقد أن شيئًا كهذا هنا. ولكن عندي كتاب جميل حقًّا قرأته مرارًا وتكرارًا. إنها رواية «رابه: حكاية زقاق شبيرلينج». جرِّب هذا، سيسعدك.

لكنها رأت عندما عادت إلى الغرفة أنه لا يقرؤها. كان الكتاب على الطاولة مفتوحًا، ولاحقًا أزاحه.

- أَوَلا يعجبك؟

"حسنًا أتعرفين؟ لا أعرف! كل هؤلاء أناس جيدون على نحو مرعب، شيء كهذا حقًّا ممل. إنه كتاب وعظيٌّ هذا الكتاب. ليس كتابًا مُناسبًا لرجل. نحن نريد شيئًا أكثر إثارة، أتفهمين؟

- خسارة!

قالت. وأعادت الكتاب إلى الدولاب. استاءت حين عادت إلى الغرفة لترى الرجل جالسًا، بنفس هيئته المسترخية ينظر أمامه بكسل، أو ينام واضعًا رأسه على الطاولة. أو واقفًا إلى جوار النافذة يحدِّق إلى الحوش ويدندن نفس اللحن دائمًا. لقد كانت دائمًا امرأة نشيطة، وحياةٌ بلا عمل هي بالنسبة إليها حياة بلا معنى. لطالما فضَّلت الأوقات التي يمتلئ فيها الدكان بالزبائن وتمنَّت لو تقسِم نفسها إلى عشرة.

وهذا الرجل يقف هناك، يجلس، يتربَّع، يستلقي عشر ساعات، اثنتا عشرة ساعة، أربع عشرة ساعة، من دون أن يفعل أي شيء، لا شيء على الإطلاق! يا إلهي! لقد كان يسرق اليوم! ماذا ينقصه إذًا؟ لقد كان ينام كفاية، ويأكل بشهية، ولا شيء يحدث له، لكنه لا يعمل! وذات مرة نفد صبرها وقالت مستثارة:

- ليتك لا تصفر بنفس اللحن يا إِيْنُوْ! منذ ست أو ثماني ساعات لا تفعل شيئًا سوى الصفير بلحن أغنية «على الفتيات الصغيرات أن يذهبن للنوم...».

ضحك مُحرَجًا:

- هل يضايقك صفيري؟ حسنًا، أعرف ألحانًا أخرى. هل أصفِر لك بأغنية «هورست-فيسيل»؟

وشرع في ذلك: «عاليًا بالراية! ولتنضبط الصفوف...».

وبدون أن تنبس بكلمة عادت إلى المتجر. هذه المرة لم يستفزها فحسب، هذه المرة جرحها بشكل جاد.

لكن هذا أيضًا مَرَّ. لم تحمل ضغينة، وعلاوة على ذلك.. حتى هو لاحظ أنه ارتكب خطأً وصنع لها على سبيل المفاجأة مصباحًا جديدًا إلى جوار الفراش. أجل، هذا أيضًا شيء يستطيع القيام به، حين يريد، كان ماهرًا بما يكفي، لكنه في أغلب الأوقات لا يريد.

كما أن أيام نفيه في غرفة المعيشة سرعان ما مضت. اقتنعت السيدة هِيْتِه بسرعة بأنه لا جاسوس يدور حول المنزل، وهكذا يمكن لإِيْنُوْ أن يساعد في الدكان. لكنه بالطبع ليس مسموحًا له -في الوقت الحاليّ- بأن يتحرَّك في الشارع، فدائمًا يمكن أن يراه

أحد المعارف. لكنه يستطيع أن يساعد في الدكان، وهو أمر أثبت أنه مفيد وماهر فيه. وسرعان ما رأت أن العمل المتكرر لمدة طويلة يسبب له الإرهاق، ولهذا صارت تنوِّع في المَهمَّات التي توكلها إليه.

ثم سمحت له بالمساعدة في خدمة الزبائن. وكان جيِّدًا في التعامل معهم، إذ كان مهذبًا، قوي الحجة، وأحيانًا مهذارًا ساخرًا سخرية حادَّة.

- لقد نجحتِ في الحصول على رجل جيد يا سيدة هِيْبِرْلِه! (يقول أحد الزبائن القدامى)

- هل هو أحد أقاربك؟

- نعم، أحد أبناء عمومتي.

كذبت السيدة هِيْتِه وسعدت بهذا المديح الذي حصل عليه إيْنُوْ.

وذات يوم قالت له:

- إيْنُوْ، أريد اليوم أن أسافر إلى دَالِم. فأنت تعلم أن دكان لُوبِهْ لتجارة الحيوانات سيغلق لأن عليه أن يلتحق بالجيش؛ أريد أن أشتري أغراضه. عنده كثير من الأغراض التي ستفيدنا في الوقت الذي تشحُّ فيه البضاعة. هل تعتقد أنك قادر على إدارة الدكان؟

- بالطبع يا هِيْتِه، وبكل تأكيد! هذا أمر أنجزه وأنا مغمض العينين. كم من الوقت ستمضين في السَّفرة؟

- سأسافر مباشرة بعد الغداء. لكني لا أعتقد أني يمكن أن أعود قبل موعد إغلاق الدكان. إذ أريد أيضًا أن أمرَّ على خيَّاطتي.

- افعلي ذلك يا هِيْتِه. بالنسبة إليَّ أنت في إجازة حتى منتصف الليل. ولا تقلقي بشأن المحل هنا، سأدير الأمور على أفضل وجه.

أوصلها حتى مترو الأنفاق. كان ذلك وقت استراحة الغداء وإغلاق المحل.

ابتسمت حين تحركت العربة. الحياة المشتركة كانت حياة مختلفة! كان من الجميل التشارك في العمل. ثم في المساء يأتي الشعور الحقيقي بالرضا. ثم هو حقًّا يبذل جهدًا أن يُيسِّر لها الأمور. كان يفعل ما بوسعه. بالتأكيد لم يكن إنسانًا مفعمًا بالحيوية ولا الاجتهاد اعترفت بذلك لنفسها. وحين يُضطر إلى التحرك كثيرًا فغالبًا ما ينكمش في غرفة المعيشة حتى لو أن المحل مليء عن آخره بالزبائن ويترك لها الأمور. أو كانت تجده بعد كثير من النداءات غير المجدية في القبو جالسًا على حافَةِ صندوق ينظر ناعسًا، ونصف الدلو مملوء بالرمل أمامه، وهي تنتظره منذ عشر دقائق!

وحين تناديه ببعض الحدة «إينُوْ، أين أنت؟ لقد انتظرتك طويلًا حتى طلوع الروح»، ينتفض مذعورًا مثل تلميذ مدرسة؛ «نعست قليلًا» يغمغم مرتبكًا ثم يبدأ في ملء الدلو ببطء. «سأحضر فورًا سيدتي الرئيسة، وهذا الأمر لن يتكرر».

وبهذه المزحات الصغيرة يحاول أن يصالحها.

كلا، ليس سراجًا منيرًا عظيمًا بأي حال، هذا الإينُوْ، على الأقل رأت ذلك بوضوح، لكنه يفعل ما بوسعه. وعلاوة على ذلك ليِّن المعاملة، مهذب، حسن العشرة، ودود بدون خطايا ظاهرة. حقًّا

يدخن كثيرًا جدًّا من السجائر، لكنها تسامحت مع ذلك. فهي نفسها كانت تدخن من آن إلى آخر حين تتوتر.

غير أن السيدة هِيْتِه لم يحالفها الحظ هذا اليوم في ما يخص شراء الأغراض. لقد كان محل لوبه في دَالِم مغلقًا حينما وصلت ولم يعلم أحد متى يعود السيد لُوبِهْ. كلا، لم يلتحق بالجيش بعد، لكنه الآن يقضي كثيرًا من المشاوير الخاصَّة بالاستدعاء. عادة يفتح المحل أبوابه من العاشرة صباحًا. ربما عليها أن تعاود المحاولة غدًا صباحًا؟

شكرتهم وذهبت إلى الخياطة. لكنها وقفت أمام البيت مذعورة، إذ دهمته قنبلة في الليلة السابقة، ولم يبق منه إلا الحطام. أسرع الناس نحوه ثم مرُّوا من جواره، بعضهم بِوجوه تشيح عمدًا كي لا ترى فظائع الدمار، أو لأنها خائفة ألا تتمكن من إخفاء المرارة التي تستشعرها. ووجوه أخرى تتلكأ في الحركة (ولقد حرصت الشرطة ألا يبقى أحد واقفًا)، وجوه ضاحكة، فضولية، تحدق إلى الخراب بنظرات قاتمة مهددة.

أجل، بدا أن برلين صارت تتوجَّه إلى القبو بمعدلات أعلى، فقد زاد عدد القنابل الملقاة عليها، وصفائح الفوسفور المرعبة. وكثيرًا ما تُستدعى كلمة «جُورِينْج» الآن أكثر من أي وقت مضى، حين قال في بداية الحرب فلتطلقوا عليَّ اسم «ماير»، لو حلقت طائرة معادية واحدة في سماء برلين. في الليلة السابقة جلست السيدة هِيْتِه أيضًا في القبو، بمفردها، إذ لم تكن تريد أن ينظر أحد إلى إِيْنُوْ باعتباره صديقها الرسمي ورفيقها بالمنزل. سمعت أزيز الطائرات فوقها، ذلك الصوت المدمر للأعصاب، مثلما تطنُّ وتئزُّ ناموسة

بشكل متصل. لكنها لم تسمع ضوضاء الهجمات، فمنطقتها كانت لا تزال محمية حتى الآن. يحكي الناس أن الإنجليز لا يريدون أن يفعلوا شيئًا للعمال، إنهم فقط يريدون القضاء على العائلات الراقية في الغرب.

لم تكن الخَيَّاطة غنية، ورغم ذلك ضربتها القنبلة. لقد سعت السيدة هِيْتِه هِيبْزِله إلى معرفة مكان الخَيَّاطة من أحد الحراس. غير أن الحارس أبدى أسفًا لعدم توفر معلومات لديه يمكن أن يدلي بها. ربما ذهبت السيدة إلى القسم، أو ربما عليها أن تسأل في الموقع التالي التابع للدفاع الجوي الفيدرالي.

لكن السيدة هِيْتِه لم تكن في حال تسمح لها بذلك الآن. ورغم شعورها بالأسف تجاه الخياطة، ورغبتها في معرفة شيء يخص مصيرها، ألحَّت عليها الرغبة في العودة إلى البيت. فدائمًا حينما يرى الإنسان شيئًا كهذا يدفعه إلى الذهاب إلى المنزل، إذ يتعيَّن عليه أن يطمئن فورًا أن كل شيء هناك على ما يرام. كانت حماقة، يعرف المرء هذا، لكن هذا ما يتعيَّن فعله. يرى بعينيه أولًا ثم يطمئن أن سوءًا لم يقع.

لكن مع الأسف شيء وقع بالفعل لمحل الحيوانات الصغير في شارع كونيجزتور. ليس شيئًا مأساويًا، بالتأكيد لا، غير أنه زلزل كِيان السيدة هِيبْزِله بعمق، أعمق من عدة أحداث عبر سنوات عديدة. فلقد وجدت السيدة هِيبْزِله أن ستائر المحل مسدلة وعليها لافتة مكتوبة بخط أحمق «نعود فورًا» وأسفلها «السيدة هيدفيج هِيبْزِله».

أن يوجد اسمها أسفل هذه الورقة، أن اسمها الطيب يواري هذه المهزلة وهذا الاستهتار- أمرٌ جرحها بعمق بنفس المقدار الذي أوجعتها به خيانة إِيْنُوْ لثقتها. تسلل من وراء ظهرها، وفتح المحل من وراء ظهرها، ولم يقل لها أي كلمة عن أنه كذب عليها. ويا لها من حماقة! هي فعلًا حماقة مطلقة لأن واحدة من زبائنها الدائمين سألتها: أغلقتِ المحل أمس يا سيدة هِيْبِرْلِه؟

وصلت إلى البيت وفتحت الباب. انتظرت إلى أن يأتي الزبون الأول، لا. لا تريد له أن يأتي الآن مطلقًا. تلك الخيانة من وراء ظهرها! في زواجها كله بفَالْتَرْ لم يحدث شيء كهذا. دائمًا ما كانا يتمتعان بثقة مطلقة بينهما، وقَطُّ لم يخن أحدهما ثقة الآخر. ثم يحدث هذا الآن! ولم تجد له حتى أبسط الأعذار!

أتت الزبونة الأولى فقامت على خدمتها، لكن عندما فتحت هِيْتِه الخزينة من أجل أن تعطيها عشرين ماركًا وجدتها خاوية. كانت الخزينة مليئة بكثير من النقود الفكة عندما غادرت، تصل إلى مئة مارك. تحاملت على نفسها وأحضرت المال من حقيبتها. انتهى الأمر وصَرَّ باب المحل.

أجل، الآن تريد أن تغلق المحل وتبقى بمفردها. تذكرت - كلما فرغت من خدمة أحد الزبائن- أنه طرأ ببالها في الأيام الأخيرة أن حسابات الخزينة غير منضبطة، وأن المكسب اليومي أعلى من الموجود فعلًا. ساعتها طردت تلك الأفكار من رأسها. ماذا يمكن لإِيْنُوْ أن يفعل بالمال؟ إنه لا يخرج من البيت، وكان دائمًا تحت عينيها!

لكنها الآن فكرت أن الحمام موجود على السلم، وأنه دخن سجائر أكثر كثيرًا مما جلب في حقيبته الصغيرة. بالتأكيد وجد بالمنزل من يجلب له السجائر، يشتريها من السوق السوداء، بدون بطاقة من وراء ظهرها! يا للحقارة! كانت تسعد بأن تزوده بالسجائر بدافع المحبة، لم يكن عليه سوى فتح فمه!

في تلك الساعة ونصف التي قضتها السيدة هِيبِرْلِه حتى ظهر إِيْنُوْ.. كانت تخوض صراعًا عصيبًا مع نفسها. ولقد عودت نفسها في الأيام الأخيرة أن رجلًا في المنزل من جديد، وأنها ليست وحدها، وأنها تعتني بواحد، تعتني بواحد تحبُّه. لكن عندما يكون الرجل مثلما اتضح لها.. يتعيَّن عليها أن تنتزع الحب من قلبها! الأفضل أن تعيش وحيدة على أن تظل تعاني عدم الثقة الأبدي والخوف القاتم! لا تستطيع أن تذهب إلى الركن الذي يضعون فيه الخضراوات، خشية أن تكتشف خدعة جديدة! ثم خطر ببال هِيْتِه أن الأغراض لم تُرَصَّ كما ينبغي في حوض الغسل. لا، لا بد أن يحدث، لا بد أن تطرده، اليوم وليس غدًا، رغم صعوبة الأمر عليها. فلاحقًا سيزيد الأمر صعوبة.

ولكن بعدها تفكر أنها سيدة مُسنَّة، وأن هذه ربما تكون فرصتها الأخيرة في أن تتجنب ليالي الوَحدة في حياتها. فبعد هذه التجرِبة مع إِيْنُوْ كْلُوْجِه سوف يكون من الصعب عليها أن تكرر المحاولة مع رجل آخر. بعد هذه التجرِبة المريعة المدمِّرة مع إِيْنُوْ!

- نعم، لقد توفَّر السوس مجدَّدًا. كم تريدين يا سيدتي؟

عاد إيْنُو قبل موعد إغلاق المحل بنصف ساعة، ولقد دلَّ على حالتها الشعورية أنها لم تفكر إلا الآن فقط في أنه لا ينبغي أن يظهر في الشارع تجنُّبًا للخطر المحدق به من الجيستابو. لكنها قبل ذلك لم تتمكَّن من التفكير في هذه المسألة. إلى هذا الحد كانت مشغولة بالخيانة التي اقترفها في حقها. لكن ما نفع كل قواعد السلامة إن كان ببساطة سيمضي في غيابها؟ ولعل كل قصة الجيستابو تلك كذب وخداع؟ فمع هذا الرجل يبدو كل شيء ممكنًا!

وبالطبع لاحظ أنها عادت ودخلت الدكان بسبب الستائر المرفوعة؛ عاد من ناحية الشارع ودخل بحذر وحرص متسلِّلًا عبر الزبائن، مبتسمًا لها، كأن شيئًا لم يكن. وقال وهو يختفي في غرفة المعيشة: «سأرجع فورًا للمساعدة سيدتي الرئيسة!».

وبالفعل رجع بسرعة كبيرة ليحافظ على المظهر أمام الزبائن، عليها أن تتحدَّث معه لتعطيه التعليمات، وأن تتصرَّف كأن شيئًا لم يحدث رغم أن عالمها كله انهار! لكنها لا تُبدي ما ينم عن ذلك، بل تتفاعل مع نكاته الصغيرة التي يلقيها اليوم بكثافة عالية، وفقط حين يريد التوجُّه إلى خزانة المحل تصيح بحدة: «لو سمحت، سأهتم أنا بالخزينة!».

ارتجف، ونظر إليها خجِلًا بجانب وجهه، مثل الكلب الذي تلقى الضرب، أجل، تمامًا مثل كلب معذَّب، فكَّرَتْ. بعدها لمس جيبه بيده، وافْتَرَّ وجهه عن ابتسامة، أجل، لقد أصابته الضربة وجرحته.

- تحت أمرك، سيدتي الرئيسة!

قال بنبرات منخورة ودبَّ بكعبه على الأرض. ضحك الزبائن على تصرُّف الرجل القصير الكوميدي الذي يريد أن يلعب دور الجندي، لكنها لم تضحك معهم.

ثم أغلق المحل. ظلا يعملان معًا لمدة ساعة وربع، منهمكين تمامًا في إطعام الحيوانات وسقيها والتنظيف، وكلاهما صامت بعدما توقف عن إلقاء النكات التي لم تعد تضحك عليها.

وقفت السيدة هِيْتِه في المطبخ لتُعِدَّ طعام العشاء. وضعت بطاطس محمرة في الطاسة، بطاطس جيدة وجميلة ومشوَّحة في الدهن، هذا الدهن الذي حصلت عليه من إحدى الزبائن مقابل عصفور من فصيلة الكناريا. كان يمكن لها أن تسعد بوقفتها لتفاجئه بطعام طيب، لأنه يسعد بتناول الطعام الطيب. صارت البطاطس ذهبية اللون.

لكنها فجأةً أطفأت شعلة الغاز تحت الطاسة، فجأةً لم تعد تتحمَّل وطأة الكلام الذي ينبغي أن يقال. ذهبت إلى غرفة المعيشة، واستندت بظهرها إلى الفرن وسألت بنبرة مهدِّدة:

- والآن؟

كان يجلس إلى الطاولة، طاولة العشاء، التي أعدها لكليهما، مُصفِّرًا بلحن ما كما هي عادته.

ارتجف لما سمع «الآن» المهدِّدة التي نطق بها الجسد الواقف في الظلام.

- نعم يا هِيْتِه.. هل ثمة عشاء قريب؟ أنا أتضوَّر من الجوع.

أرادت أن تضربه من الغيظ، هذا الرجل الذي يعتقد أنها ستصمت عن خيانته! كم يشعر بالثقة هذا السيد لأنه نام معها في سرير واحد! لقد تملَّكَها غضب لم تعرفه من قبل، من الأفضل أن تمسك بهذا الرجل وتهزه وتضربه المرة بعد المرة.

لكنها تتمالك نفسها وتطرح السؤال مرة أخرى:

- والآن؟! (بنبرة أكثر تهديدًا)

- ها! تقصدين المال يا هِيْتِه؟ (وضع يده في جيبه وأخرج كومة من الأوراق المالية)

هاكِ يا هِيْتِه، هذه 210 ماركات، ولقد أخذتُ 92 ماركًا من الخزينة. (ضحك مرتبكًا)

من أجل أن أساهم بقدر ما في الميزانية.

- وكيف حصلت على المال الكثير؟

- اليوم كان موعد السباق الكبير في كارلسهورست. لقد حضرتُ في الوقت المناسب لأغير آدْبَار. آدْبَار انتصر. فأنا أحب أن أراهن على الخيول. وأفهم كثيرًا في السباقات يا هِيْتِه.

قال ذلك بفخر غير معهود فيه.

- لم أراهن بالـ92 ماركًا كلها، فقط 50. وكانت النسبة...

- وماذا كنت ستفعل لو أن الحصان لم يربح؟

- لكنْ آدبار كان لا بد أن يربح؛ أي شيء آخر لم يكن ليحدث!

- أجل ولكن ماذا لو أنه لم يربح؟

شعر الآن وللمرة الأولى أنه متفوِّق على هذه المرأة. ابتسم وقال:

- انظري يا هِيْتِه أنت لا تفهمين أي شيء في السباقات. لكن أنا أفهم كل شيء فيها. وحينما أقول سيربح آدبار وأخاطر بخمسين ماركًا...

تقاطعه. تقول بحدَّة:

- لقد خاطرتَ بمالي! لا أسمح بذلك! عندما تحتاج إلى المال عليكَ أن تقول.. أنت لست مضطرًّا إلى العمل مقابل الطعام فقط. لكن من دون إذني إياك أن تمدَّ يدك إلى الخزينة، مفهوم؟

وبهذه النبرات الحادَّة على غير العادة فقد الثقة. قال متشكيًا (وهي تعرف أنه سيبكي على الفور وهي تخشى تلك الدموع)، قال متشكيًا:

- كيف تتحدَّثين معي يا هِيْتِه؟ كأنني مجرد عامل عندك! وبالطبع لن آخذ مالًا من الخزينة. لقد فكرت فقط أن أقدِّم لك شيئًا يسعدك عندما أكسب هذا القدر من المال، وحيثما المكسب كان مضمونًا!

لم تستسلم لتلك الكلماتِ. كان المال بالنسبة إليها شيئًا فرعيًا. الأهم كان خيانة الثقة. سيفكِر الآن أنها غاضبة فقط من أجل المال، يا له من أحمق! تقول:

- وبسبب رهانات الخيل تلك أغلقتَ المحل ببساطة؟

- نعم، كنتِ ستضطرين إلى إغلاقه أيضًا إن لم أكن موجودًا!

- وكنتَ تعرف أنك ستغلقه مسبقًا، حينما ذهبت أنا؟

- نعم. (قال بمنتهى الحماقة. ثم صحَّح نفسه بسرعة)

لا. بالطبع لا. وإلا كنت سألتكِ الإذن. لقد خطر الأمر ببالي عندما مرَرْتُ بالمحل الصغير للدفاتر، في شارع كونيجزشتراسه الجديد. قرأتُ وأنا أمرُّ عليه النصائح وحينما قرأت عن آدْبَار حسمت أمري.

- هكذا؟!

قالت. لا تصدِّقه؛ لقد خطط للأمر قبل أن يوصلها إلى عربة التِّرام. لقد تذكرَتْ أنه في الصباح الباكر كانَ منشغلًا طويلًا بالصحيفة وأنه ظل يحسب حسابات على ورقة وظلَّ على تلك الحال حتى مع وصول أوائل الزبائن.

- هكذا! (قالت مرة أخرى)

وأنت تذهب ببساطة للتنزُّه في المدينة فيما نحن قد اتَّفقنا أنك ستختفي بقدر المستطاع عن عيون الجيستابو؟!

- لقد سمحتِ أيضًا أن أرافقكِ حتى محطة مترو الأنفاق!

- كنا معًا. وقلتَ بوضوح «ستكون تجرِبة»! هذا لا يعني أن تقضي نصف النهار متسكِّعًا في المدينة. أين كنتَ أصلًا؟

- مجرد مكان صغير كنت أعرفه من قبل. لا يأتي إليه أيٌّ من رجال الجيستابو أبدًا. لا يأتيه سوى المحاسبين والمراهنين.

- الذين يعرفونك كلُّهم! الذين يمكن أن يقولوا في كل مكان «لقد رأينا إِيْنُوْ كْلُوْجِه في المكان الفلاني»!

- لكن الجيستابو يعرف أيضًا أني لا بد موجودٌ في مكان ما. إنهم فقط لا يعرفون أين هذا المكان. والمكان بعيد تمامًا عن هنا. في حي فيدينج. ولم يكن هناك أحد يعرفني ليخبر عني!

يتحدَّث بحماس وطيبة قلب، عندما يستمع الواحد إليه يجدُ معه كل الحق. هو لا يفهم مطلقًا كيف خان ثقتها، ولا أي صراع تخوضه هي مع نفسها من أجلِ خاطره. أخذ المال؟ من أجل أن يسعدها. أغلق المحل؟ هي أيضًا كانت ستفعل. ذهب إلى مكان؟ بعيد جدًّا في فيدينج. كونَها خافت على حبها.. فهذا ما لا يفهمه مطلقًا، هذا أمر لا يدخل رأسه.

- إذًا يا إينُوْ.. هذا كل ما تريد أن تقول، أم ماذا؟

- نعم، ماذا عليَّ أن أقول يا هِيْتِه؟ أرى أنك غاضبة جدًّا مني، لكني حقًّا لا أرى أنني ارتكبت أخطاء جمة! (والآن أتت الدموع التي كانت تخشاها)

آه يا هِيْتِه، فقط عودي طيبة معي! وسوف أسألك عن أي شيء قبل أن أفعله! فقط عودي ودودة معي. لن أتحمل معاملتك هذه!

لكن هذه المرة لم تأسِرْها الدموع ولا التوسُّلات؛ بها شيء خطأ. لقد صارت تشعر بما يشبه التقزُّز من هذا الرجل الباكي.

- عليَّ أن أفكِر مليًّا في كل شيء أولًا يا إينُوْ. (قالت بنبرات كلها دفاع) يبدو أنك لا تفهم على الإطلاق عمق خذلانك لثقتي!

ومرت من جواره إلى المطبخ لتواصل تحمير البطاطس. هي ذي قد باحت بما يجول بخاطرها. وما النتيجة التي وصلت إليها؟ هل أوضح ذلك المسائل؟ هل يَسَّرَ لها الوصول إلى قرار؟

لا شيء من ذلك تحقَّق! لقد أظهر لها ذلك فقط أن هذا الرجل لا يشعر بأنه مذنب. وأنه يكذب بلا تفكير عندما يحتاج الوضع إلى ذلك، ولا يفرق معه على من يكذب.

لا، رجل كهذا ليس الرجل المناسب لها. لا بد أن تنهي علاقتها به. وبصراحة شيء واحد كان واضحًا.. هو أنها لن تستطيع أن تُلقي به مساء اليوم إلى الشارع. فهو لا يعرف ما الذي اقترفه. كان مثل الجرو الصغير الذي عضَّ زوجين من الأحذية ولا يدري لِمَ يعذِّبه سيده.

لا، عليها أن تتركَ له يومًا أو اثنين حتى يعثر لنفسه على مكان جديد. وإن وقع في يد الجيستابو في أثناء ذلك، فعليها أن تترك الأمر. فهو أيضًا لا يهتم، بسبب رهان خيل! لا، لا بد أن تُحرِّر نفسها منه، لن تتمكَّن من الوثوق به ثانية. عليها أن تعيش لنفسها، وحيدة إلى أن تموت! وحين وصلت إلى هذه الفكرة تملَّكها الخوف.

لكن رغم هذا الخوف قالت له بعد الغداء:

- لقد فكرت في كل شيء يا إيْنُو، علينا أن نفترق. أنت رجل لطيف، أنت أيضًا رجل ودود، لكنك ترى العالم بعيون مختلفة كثيرًا، ومع الوقت لن يتحمَّل أحدنا الآخر.

نظر محدقًا إليها، وهي تجهِز له فراشه على الأريكة. لا يريد أن يصدِّق أذنيه. ثم انطلق مغمغا:

- يا إلهي! يا هِيتِه، لا يمكن أن تعني ذلك! في الوقت الذي يحب فيه كلٌ منا الآخر! لا يمكن أن تريدي ذلك، أن تلقي بي إلى الشارع وأنت تعلمين أن الجيستابو يمكن أن يلاحقني.

- أَخْ! (تقول وتريد أن تهدئ نفسها بكلماتها)

مسألة الجيستابو لن تكون بهذا السوء، وإلا ما كنت لتهيم على وجهك في المدينة نصف النهار.

لكنه سقط على ركبته. بصدق، انزلق على ركبتيه نحوها. لقد جعله الذعر يفقد عقله.

- هِيْتِه! هِيْتِه! (صاح وبكى)

هل تريدين قتلي؟ لا بد أن تبقيني هنا! أين أذهب؟ آه يا هيتي! أحبيني قليلًا، أنا إنسان منحوس وتعيس.

انتحَبَ مثل جرو صغير يتلوَّى من الخوف!

أراد أن يتسلَّق ساقيها، ويمسك يديها. جَرَتْ منه إلى غرفة نومها وأغلقت الباب وراءها. لكنها سمعته طول الليل يصطدم بالباب ويجرب فتح المقبض، ينتحب ويتوسَّل...

رقدت في هدوء تام. جمعت في نفسها كل القوة كي لا تستسلم، فينجحَ في إضعاف موقفها بسبب قلبها، وبعد كل تلك التوسُّلات في الخارج! ظلَّت مُصرَّة على موقفها بألا تواصل الحياة معه.

على مائدة الإفطار جلسا معًا وكلاهما بوجهٍ شاحب ومُرهَق من عدم النوم. بالكاد تبادلا كلمة، تصرَّفا كأن الخلاف لم يقع مطلقًا.

فكرت هي في أنه يعرف بشكل قاطع الآن، أنه «حتى لو لم يبحث اليوم عن غرفة، فلا بد أن يغادر بيتي غدًا مساء. غدًا في الظهيرة أُخبِره مرة أخرى. لا بد أن ننفصل!».

(مَرْحَى مَرْحَى! إن السيدة هِيْتِه هِيْبِرْلِه سيدة شجاعة ومحترمة)، ورغم أنها لم تستطع أن تنفذ قرارها بالتحرُّر من إِيْنُوْ، لكن لا علاقة لها بذلك، بل بأناس آخرين لا تعرف عنهم شيئًا. على سبيل المثال المفتش إشيرِش والسيد بُورْكْهاوْزِن.

27

إيميل نوزكهاوزن يصير نافعًا

تَقَارب إِيْنُوْ كْلُوْجِه والسيدة هِيْبِرْلِه في حياة مشتركة، لكنها سرعان ما انهارت، كان المفتش إشيرِش قد مرَّ بوقت عصيب. استنكف أن يُخفي عن رئيسه بْرَالْ أن إِيْنُوْ كْلُوْجِه قد فرَّ بسرعة من مراقبيه بدون أن يخلف أثرًا، وغاص في بحر المدينة الكبيرة.

اضطر المفتش إشيرِش إلى تحمُّل سيل الشتائم الذي انهمر فوق رأسه جرَّاء تلك الواقعة؛ كان أحمق، وجاهلًا، وسيُحْبَس، «هذه البَقَّة، التي لم تتمكن -في ما يقارب السنة- أن تمسك بكاتب بطاقات غبي!».

بل إنه حينما بدا له أثرٌ، ترك الأحمقُ ذلك الرجلَ يهرب! في الواقع لقد ساهم المفتش إشيرِش في الخيانة العظمى، ولا بد من محاكمته هو أيضًا، إن لم يتمكن هذا اليوم أو هذا الأسبوع من أن يجلب إِيْنُوْ كْلُوْجِه أمام بْرَالْ، قائد مجموعات العمل.

نعم، استمع المفتش إشيرِش إلى هذه الشتائم مُذعنًا. لكنَّ أثرها عليه كان غريبًا. فرغم أنه كان يعلم يقينا ألا صلة له بالبطاقات وأنه لن يساعده في التقدُّم خطوة واحدة نحو معرفة الفاعل الحقيقي، تركز فجأةً اهتمامُه على تحديد مكان إِيْنُوْ كْلُوْجِه الضئيل غير ذي الأهمية. بَدَا الأمر فعلًا يدعو إلى الغضب العارم؛ أن هذا الفأر الذي

أراد رئيسُه أن يحتفظ به تسرَّب من بين أصابعه. وفي هذا الأسبوع ظهر «شبح البحر» مجتهدًا على نحو خاص: ثلاثُ بطاقات وصلت إلى مكتب المفتش. لكن للمرة الأولى منذ بدأ يعالج هذا الموضوع لم يهتم إشيرِش لا بالبطاقات ولا بكاتبها. حتى إنه نسِيَ أن يُثبِّت الأعلام الصغيرة على خريطة برلين في المواقع التي عُثِر فيها على البطاقات.

كلا، إنه يريد أن يعثر أولًا على إيْنُوْ كْلُوْجِه مرة أخرى، لذا بذل المفتش إشيرِش جهودًا غير اعتيادية كي يمسك به. إنه حتى سافر إلى روبينشه، حيث إيفا كْلُوْجِه، ومعه أمر بالاعتقال جاهز لما سيسفر عنه اللقاء . لكنه سرعان ما أدرك أن هذه السيدة ليست لها أدنى علاقة بالرجل وأنها لا تعرف إلا القليل جدًّا عن حياته في السنة الأخيرة.

ولقد حكَتْ ما تعرفه للمفتش، ليس عن طيب نفس تمامًا، وليس بلا خوف تمامًا، ولكن بلا اكتراث تام. لقد بَدَا عدم المبالاة جَلِيًّا على هذه السيدة، ولم يَعْنِها مصير الرجل، ولا ما فعله أو لم يفعله. عرَفَ منها المفتش أسماء اثنتين أو ثلاث من الحانات التي كان إيْنُوْ كْلُوْجِه يتردَّد عليها سابقًا، وسمع عن شغفه بالرهانات، وعرف عنوان سيدة تدعى تُوتِّي هيبيكرويتس، وصل منها خطاب إلى الشقة ذات مرة. وفي هذا الخطاب اتُّهِم إيْنُوْ كْلُوْجِه بسرقة مال هيبيكرويتس وبطاقات التموين الخاصَّة بها. لا، السيدة كْلُوْجِه لم تعطِ الرجل الخطاب في المرة الأخيرة التي رأته فيها ولا تحدَّثت معه بشأنه. فقط العنوان احتفظت به بشكل عارض، فهي بوصفها ساعية بريد فإنها تتمتع بذاكرة جيدة بخصوص العناوين.

متسلِّحًا بهذه المعلومات عاد المفتش إشيرِش إلى برلين. وَفيًّا لمبدئه، أن يطرح الأسئلة بدون أن يجيب عن أيٍّ منها، لا ينشر معلومة، تجنَّب أن يعطيِ السيدة كْلُوْجِه فكرة عنَ الإجراء الذي اتُّخِذ ضدها في برلين. إذًا هو لم يرجع بكثير من المعلومات إلى بيته، لكنها تُعَدُّ بداية، أَثَرًا بشكل ما. ويمكن أن يرى بْرَالْ أنه يفعل شيئًا سوى الانتظار المجرد. فالأهم بالنسبة إلى الرجال في السلطة أن يُفعَلَ شيء، حتى لو كان القبض على الرجل الخطأ، مثل حال قضية كْلُوْجِه برمتها. لأن هؤلاء السادة لا يتحمَّلون الانتظار.

لم تسفر التحريات لدى السيدة هيبيكرويتس عن أي شيء. لقد تعرفَتْ على كْلُوْجِه في أحد المقاهي، وكانت تعرف أيضًا عنوان عمله. ولمرتين قضى في بيتها عدة أسابيع، أجل، صحيح، لقد كتبت له بسبب المال وبطاقات التموين. لكنه أوضح هذا الأمر في زيارته الثانية، أن مستأجرًا آخر هو الذي سرقها، وليس إيْنُوْ.

ثم اختفى مرة أخرى، بدون أن يخبرها، لا هي ولا أي امرأة أخرى، فهذه كانت طريقة إيْنُوْ. كلا، لم يكن بينها وبينه أي شيء مطلقًا. لا، ليست لديها فكرة إلى أين ذهب. لكنه بالتأكيد ليس في هذه المنطقة، وإلا لكانت سمعت عنه منذ مدة.

«في الحانتين كان معروفًا باسم إيْنُوْ فعلًا. لم يأتِ منذ مدة كبيرة، لا، لكنه غالبًا سيأتي مرة أخرى. أجل، سيدي المفتش، لن يشعر بنا أحد. نحن رواد حانة محترمون، ولا يتردَّد علينا سوى الناس المحترمين المهتمين بسباق الخيول مثل النبلاء، سنعطيكم إشارة في اللحظة التي يعاود فيها الظهور. هايْلْ هتلر، سيدي المفتش!».

كلَّف المفتش إشيرِش عشرة أنفار ليسألوا عن إيْنُوْ كْلُوْجِه عند كل صانعي الكتب ورواد الحانات في شمال وشرق برلين. وفيما إشيرِش ينتظر نتيجة هذه الحملة، وقع له الأمر العجيب الثاني، إذ فجأةً بدا للمفتش أنه من غير المستبعَد على الإطلاق أن هذا الإيْنُوْ كْلُوْجِه له بالفعل صلة ما بالبطاقات. فأحداث عجيبة تُلقي بظلالها حول الصبي: البطاقة التي عُثر عليها عند الطبيب، ثم الزوجة، التي كانت نازية في البداية ثم قدمت طلبًا للسماح لها بالخروج من الحزب لأن ابنها فعل شيئًا لم يعجبها في خدمة الشرطة العسكرية. لعل إيْنُوْ كْلُوْجِه كان أكثر حنكة مما ظنَّ المفتش، وربما كانت لديه قذارات أخرى غير تلك البطاقة، لكنه بالتأكيد يخفي أفعالًا قذرة عديدة.

وهذا ما أكده أيضًا المعاون شْرُودِر الذي راجع معه المفتش القضية مرة أخرى كي ينعش ذاكرته. أيضًا كان لدى المعاون شْرُودِر شعور بأنَّ شيئًا غير سليم يخص كْلُوْجِه، وأنه يخفي شيئًا. والآن سيرون أن في هذه المسألة لا بد أن يحدث شيء. شعر المفتش بذلك، وهو في هذه المسائل قلَّما يكون شعوره مخادعًا.

هذه المرة لم يخدعه شعوره فعلًا. حدث في أيام التهديد والغضب أنه أُبلغ بأن شخصًا يدعى بُورْكْهاوْزِن يطلب الإذن بالحديث معه.

- بُورْكْهاوْزِن؟ (تساءل المفتش إشيرِش)

بُورْكْهاوْزِن؟ من يكون يا ترى هذا البُورْكْهاوْزِن؟ ها، لقد عرفتُه، إنه ذلك الجاسوس الصغير الذي يمكن أن يبيع أمه مقابل ثماني نكلات.

وبصوت عال: فليدخل!

وعندما دخل عليه بُورْكْهاوْزِن قال له:

- إن كنت تنتوي أن تحكي لي شيئًا عن آل بِيرْزِيكِه فلتتفضلْ فورًا لتعود من حيث أتيت!

نظر بُورْكْهاوْزِن بثبات إلى وجه المفتش وصمت، وفعل كما لو أنه يريد أن يتحدَّث عن آل بِيرْزِيكِه.

- حسن إذًا! (قال المفتش)

لماذا لا تعود أدراجك يا بُورْكْهاوْزِن؟

- بِيرْزِيكِه أخذ راديو رُوْزِنْتال سيدي المفتش! (قال بنبرة مُتَّهِمة) أعلم الآن تحديدًا، أني...

- رُوْزِنْتال؟ (سأل إشيرِش)

أليست هذه هي اليهودية الشمطاء التي قفزت من النافذة إلى شارع يابْلونْسْكِي؟

- هي بعينها! (أكد بُورْكْهاوْزِن)

ولقد سرق منها الراديو ببساطة، ما يعني، لقد كانت ميتة فعلًا، لكن خارج الشقة!

- الآن أريد أن أخبرك بشيء يا بُورْكْهاوْزِن.. (أوضح إشيرِش)

لقد تحدَّثتُ مع المفتش رُوْشْ في الواقعة. إن لم تتوقَّف عن التحريض ضد بِيرْزِيكِه فسوف نعاقبك أنت. لا نريد أن نسمع أي كلمة أخرى بخصوص هذه القصة، ومنك أنت تحديدًا لا شيء من الأساس!

- لكنه سرق الراديو... (بدأ بُورْكْهاوْزِن بعناد مرة أخرى، لا ينمُّ إلا عن كراهية عمياء)

وأستطيع أن أثبت ذلك.

- الآن اخرج يا بُورْكْهاوْزِن، وإلا أمرت بالقبض عليك، والإلقاء بك هنا في القبو!

- إذًا سأتوجه إلى قسم الشرطة في أليكس! (أوضح بُورْكْهاوْزِن وهو مستاء للغاية)

الحقٌّ حقٌّ، والسرقة سرقة...

لكن شيئًا آخر خطر ببال إشيرِش، وهو قضية «شبح البحر»، التي تشغل تفكيره بشكل دائم. لدرجة أنه لم يعد يسمع ذاك الأحمق.

- قل لي يا بُورْكْهاوْزِن، أنت تعرف قطعًا أعدادًا كبيرة من البشر وتذهب كثيرًا إلى الحانات؟ هل تعرف واحدًا يدعى إيْنُوْ كْلُوْجِه؟

بُورْكْهاوْزِن، الذي تشمَّم رائحة صفقة، قال منكودًا:

- أعرف واحدًا اسمه إيْنُوْ. لا أعرف لو أن اسمه الثاني هو كْلُوْجِه. كنت أظن دائمًا أن إيْنُوْ هو اسم عائلته.

- رجل قصير، ضئيل، مرهف، شاحب، خجول ويتحدَّث بصوت خفيض؟

- نعم، تبدو هذه مواصفات الرجل الذي أعرف، سيدي المفتش.

- معطفٌ ناصع، طاقية رياضية ذات نقشة مربعات كبيرة؟

- نعم، أعرفه على تلك الحال.

- دائمًا له قصص مع النساء؟

- لا علم لي بقصص مع النساء تخص الرجل الذي أشير إليه. فالمكان الذي رأيته فيه لا تتردَّد عليه النساء.

- مراهن صغير على الخيول؟

- صحيح سيدي المفتش.

- الحانات «فيرنر ليفن» و«فور ديم شتارت»؟

- هي بعينها سيدي المفتش. إينُوْ كْلُوْجِه الذي تتحدَّث عنه هو ذاته إينُوْ الذي أتحدَّث عنه.

- عليك أن تجده لي يا بُوزْكْهاوْزِن! اترك جانبًا مسألة بِيرْزِيكِه الحمقاء برمتها وإلا سيزج بك في معسكر التعذيب! اعرف لي من فضلك أين يختبئ إينُوْ كْلُوْجِه!

- لكن سيدي المفتش، إنه سمكة لا تناسبك! (صاح بُوزْكْهاوْزِن بطريقة دفاعية)

إنه مجرد بصقة قذرة! ماذا تريد من هذا الأحمق سيدي المفتش!

- هذه مسألة تتركها لي يا بُوزْكْهاوْزِن! لو أنني وصلت إلى إينُوْ كْلُوْجِه عن طريقك ستكسب 500 مارك!

- 500 مارك، سيدي المفتش؟ 500 لا تساوي عشرة من عيار إينُوْ! ثمة خطأ ما!

- ربما ثمة خطأ كبير، لكنه لا يعنيك في شيء يا بُوزْكْهاوْزِن. في كل الحالات تحصل على خمسمائة المارك!

- حسنٌ إذًا! ما دُمتَ أمرتَ سيدي المفتش، سأعمل على الإمساك بإيْنُوْ. لكن لن أفعل سوى أن أريك الرجل، لن أُحضره إلى هنا. فأنا لا أتحدَّث مع رجل مثل هذا مطلقًا.

- ما الذي حدث بينكما؟ لستَ حسَّاسًا عادة إلى هذا الحد يا بُورْكْهاوْزِن! لا بد أنكما قد دفنتما بعض القذارات معًا، لكني لا أريد أن أتدخَّل في أسراركما الدقيقة، انصرف يا بُورْكْهاوْزِن ودُلني على كْلُوْجِه!

- أريد أن أطلب مقدَّمًا صغيرًا سيدي المفتش. لا، ليس مقدمًا صغيرًا.. (صوَّب نفسه)

بل مالًا لأجل نفقاتي.

- وما نفقاتك يا بُورْكْهاوْزِن؟ يهمني أن أعرف.

- عليَّ أن أستخدم التِرام، وأن أبحث في كل الحانات الممكنة، أن أسأل عاهرة هنا، أو أوزع شرابًا، كل هذا يتطلَّب مالًا سيدي المفتش! لكن أعتقد أن خمسين ماركًا تفي بالغرض.

- أجل، عندما يخرج بُورْكْهاوْزِن العظيم، يبقى الجميع متطلِّعًا إلى ما سيصرفه! لا. سأعطيك عشرة ماركات، والآن اغرب عن وجهي. هل تعتقد أني لا يشغلني شيء سوى الثرثرة معك؟

يرى بُورْكْهاوْزِن أن مفتشًا كهذا ليس لديه ما يفعله سوى أن يضايق الناس وأن يجعل الآخرين يعملون نيابة عنه. لكنه ظلَّ حريصًا كي لا يتفوَّه بذلك. والآن توجَّهَ فعلًا نحو الباب وهو يقول:

- لكن عندما أسوِّي لك مسألة كْلُوْجِه عليك أن تساعدني في موضوع بِيرْزِيكِه. لقد نكَّل بي هؤلاء الإخوة أيما تنكيل!

في حركة واحدة وقف إشيرِش وراءه وأمسكه من كتفه وسدَّد قبضته إلى أنفه:

- أترى هذه؟ (صرخ مغتاظًا)

هل تريد أن أذيقك وَقْعَهَا، أيها الكلب اللعين؟ كلمة واحدة عن بِيرْزِيكِه وسأرسلك فورًا إلى الحبس حتى لو أن كلَّ إِيْنُوْ كْلُوْجِه في العالم حُرٌّ طليق!

ثم باغته بركلة من الركبة في مؤخرته فانطلق إلى وجهته مثل قنبلة مدفع. لكنه اصطدم برجل آخر من رجال الشرطة العسكرية فعاجله بدوره بركلة قوية من قدمه...

هذه الضوضاء التي نجمت عن الضربتين لفتت نظر اثنين من حراس الشرطة العسكرية. فأخذا بُورْكْهاوْزِن الذي لا يزال يترنح وألقَيَا به من فوق السلم مثل زكيبة البطاطس، غير مباليَيْنِ على الإطلاق بما قد يحدث له.

وفيما ظل بُورْكْهاوْزِن في الأسفل متوجعًا ونازفًا، ولا يزال مخدَّرًا من السقطة، أمسك به الحارس التالي من قفاه وصاح فيه:

- هل تريد يا خنزير أن توسخ الأرضية هنا بقذاراتك؟

ثم سحبه إلى باب الخروج وألقى به في الشارع.

تابع المفتش إشيرِش بداية السقطة على السلم -إلى أن اختفى بُورْكْهاوْزِن عن ناظريه- بارتياح كبير.

تجنَّب المارة في شارع برنس-آلبريشت بخوف أن ينظروا إلى سيِّئ الحظ ذلك المُلقى في الوحل، لأنهم عرفوا من أيِّ مبنًى خطيرٍ أُلقِيَ به. ربما كان مجرد النظر إلى هذا التعس جريمة، وبالتأكيد ليس مسموحًا لأي أحد بتقديم يد العون له. غير أن الحارس الذي عاد إلى الباب مرة أخرى بخطوات ثقيلة صاح:

- إن لم تغادر واجهة المبنى قبل ثلاث دقائق أيها الخنزير فسوف أفرُمك فرمًا!

كان لهذا أثره الفعال؛ نهض بُورْكْهاوْزِن مترنحًا إلى أن وصل إلى بيته بمفاصل ثقيلة يفتك بها الألم. لكنه داخليًّا كان يحترق من الكراهية والغضب العاجز، وهذا الغضب كان يشتعل أكثر كلما أوجعته جروحه. كان عازمًا على ألَّا يحرك إصبعًا من أجل هذا المفتش الأحمق، فليبحث عن إِيْنُوْ كْلُوْجِه بنفسه!

لكن في اليوم التالي عندما صار الغضب أقل حدَّة وعاد صوت العقل للتحدُّث قال إنه أولًا قد حصل من المفتش إشيرِش على عشرة ماركات، وأن عليه أن يعمل مقابلها وإلا فسيحصل على إنذار بسبب الخيانة. وثانيًا ليس من الجيد على الإطلاق أن يُفسد المسائل مع رجال مهمِّين هكذا. فهؤلاء من السلطة، وعلى الصغار الاتِّباع. والكيفية التي طُرِدَ بها البارحة حدثت بشكل عفوي. فلو أنه لم يصطدم بالحارس لسارت الأمور بسلاسة. لعلهم رأوها مزحة ولو أن بُورْكْهاوْزِن رأى أنهم عاملوا رجلًا آخر نفس المعاملة، لضحك هو أيضًا من قلبه، سيضحك مثلًا لو أنهم سدَّدوا إلى إِيْنُوْ كْلُوْجِه نفس الركلة.

أجل، كان ذلك هو السبب الثالث في أن بُورْكْهاوْزن سيفضِّل أن ينفذ الأمر. وبهذا سيتمكّن من أن يردَّ الضربة لإيْنُوْ كْلُوْجِه الذي تسبَّب في ضياع حقه بسبب سُكره.

وهكذا تحرك بُورْكْهاوْزِن رغم عِظامه المتألِّمة - لكن بكل نِيَّاته الطيبة- نحو الحانتين اللتين بحث فيهما المفتش إشيرِش وزاد عليهما واحدة. لم يسأل عن إيْنُوْ لدى السُّقاة، بل ظلَّ واقفًا يتسكع، ويشرب ببطء، لأكثر من ساعة، ثم تحدث مع فتاة ليل، تحدث قليلًا عن الخيول التي صار يعرف عنها بعض الشيء من السماع المطول (لكنه كان خاليًا من أي شغف بالرهان)، وبعدها ذهب إلى الحانة التالية لكي يكرِّر الشيء ذاته. كان بُورْكْهاوْزِن صبورًا، ولديه قدرة على تكرار نفس الأمر أيامًا بطولها، فالمسألة لم تكن تهمه.

لكنه لم يكن مضطرًا إلى ممارسة الصبر طويلًا، لأنه في اليوم الثاني رأى إيْنُوْ في حانة «فيرنر ليفن». ورأى احتفال الوغد بفوز آدْبَار، وشعر بحسد كبير على الحظ السعيد الذي صار من نصيب ذلك الأحمق. علاوة على ذلك تعجَّب من الخمسين ماركًا التي أعطاها كْلُوْجِه للمحاسب. فهذه لم يربحها بسبب عمله، هذا ما تشمَّمه بُورْكْهاوْزِن على الفور. لا بد أنه تسلَّل إلى فراش جيِّد يبيت فيه، ذلك اللئيم!

من البديهي تمامًا أن السيِّدين بُورْكْهاوْزِن وكْلُوْجِه لا يعرفُ بعضهما بعضًا، وأنهما لم يلتقيا ولو مرة. وليس من البديهي أن ساقي الحانة لم يتَّصل بالمفتش إشيرِش رغم الوعد المشدَّد الذي قطعه معه. لكن الحال الآن هي أن الناس تخشى الجيستابو، بل تعيش في خوف دائم منه، لكن أن تُقْدِم على إسداء صنيع إليه على سبيل

المساعدة فكانت مسألة أخرى. كلا. من ناحية ثانية فإنه لم يتمَادَ لدرجة أن يُحذِّرَ إيْنُوْ كْلُوْجِه، لكن في كل الأحوال لم يُعرضه للخيانة.

كما أن المفتش إشيرِش لم ينسَ هذه المكالمة التي أُغفِلَتْ. أعطى قِسمًا معينًا خبرًا ترتب عليه أن الساقي أُعطيَ بطاقة عمل عليها كلمة «غير محل ثقة». ويومًا ما، عاجلًا أو آجلًا، سيعرف الساقي معنى أن تكون «غير محل ثقة» عند الجيستابو.

كان بُورْكْهاوْزِن هو أول من غادر الحانة من الرجلين، لكنه لم يمضِ بعيدًا وإنما اتَّخذ لنفسه موقفًا خلف عمود من أعمدة الإعلانات ليراقب خروج المسكين في هدوء. فبُورْكْهاوْزِن رقيب لا يترك ضحاياه يفلتون من ناظريه، وهذه الضحية تحديدًا لا يريد أن يفلتها. ولقد تمكن حتى من أن يركب معه نفس عربة التِّرام، ورغم أن بُورْكْهاوْزِن كان طويلًا، فإنَّ إيْنُوْ كْلُوْجِه لم يره.

كان إيْنُوْ كْلُوْجِه يفكِّر فقط في الفوز الذي أحرزه مع آدْبَار، وفي المال الذي سيزيد في جيوبه، ثم فكَّر في هِيْتِه التي يعيش عندها حياة طيبة. فكَّر بحب وتأثُّر في العجوز الطيبة الذاوية، لكنه لم يفكِّر أنه قبل ساعتين كذب عليها وسرقها.

عندما عاد ووقف أمام الدكان ورأى الستائر مرفوعة ورآها تعمل ثانية في المحل، اعتَلَّ مزاجه ثانية. لأنها بالتأكيد ستلومه على هربه من العمل، لكنه دخل إلى المحل متحلِّيًا باستسلامه للقضاء والقدر، الذي يتَّسم به أمثاله وهم يواجهون الصعاب، وتوجه نحو مصيره. ولا يمكن لأحد أن يُدهَش من موقفه فقد كان غارقًا في مثل تلك الأفكار لدرجة أنه لم يلاحظ من يتعقَّبه.

رأى بُورْكْهاوْزِن أن كْلُوْجِه اختفى في المحل، كان يقف بعيدًا إلى حد ما، على أحد الطرق المُفضية إلى البوابة، لأنه افترض أن كْلُوْجِه يريد أن يشتري شيئًا من هناك وأنه سرعان ما سيخرج. لكن الزبائن حضرت وذهبت، وحضرت وذهبت، وتملَّك التوتُّرُ بُورْكْهاوْزِن؛ هل فوَّتَ خروج كْلُوْجِه؟ لقد كان واثقًا بحصوله على خمسمائة المارك هذا المساء، شاعرًا بها فعلًا في جيبه.

الآن تنسدل الستائر وأصبح الأمر أكيدًا.. لقد اختفى إينُوْ بطريقة ما. «ربما كانت لديه حاسة قوية تخصُّ التتبُّع، أو أنه دخل عبر الدكان إلى المنزل بأي حجة ثم خرج من باب البناية ثانية». لعن بُورْكْهاوْزِن نفسه وحماقته التي صرفته عن مراقبة باب البناية. لأنه ظلَّ محدقًا طوال الوقت فقط إلى باب المحل، حمار، هذا ما هو عليه!

الآن ثمة فرصة أن يقابل إينُوْ مرة أخرى غدًا أو بعد غد في الحانة، فهو مُنتَشٍ بفوز آدْبَار وهذا سيدفعه إلى الرهان مجدَّدًا. سوف يأتي كل يوم ويظَل يراهن حتى ينفد ما معه من مال. حصان غريب مثل آدْبَار لن يركض كل أسبوع، وعندما يركض فلن يراهن أحد عليه، وسيخسر إينُوْ ماله بسرعة.

مرَّ بُورْكْهاوْزِن جوار محل الحيوانات وهو في طريقه إلى منزله. وفجأةً رأى عبر زجاج النافذة -باب الدكان كان مغلقًا بمصراع الستارة- ضوءًا وحيدًا يشتعل في الدكان، وعندما ضغط أنفه على زجاج النافذة ونظر فوق أحواض السمك وأقفاص العصافير رأى شبحين لا يزالان يعملان في الدكان، شبحَ عجوز في سِنّ خطرة -كما قَدَّرَ مصيبًا- ثم صديقه إينُوْ. إينُوْ مرتديًا مريلة زرقاء وأكمام

قميص، يملأ أطباق الحيوانات، ويصب لهم الماء ويغسل إسفنجة التنظيف.

ما هذه الحماقات التي يفعلها إيْنُوْ الغبي؟ ليتني أعرف فقط ما تراه فيه النساء؟ فهو، بُورْكْهاوْزن، يقيم مع أُوْتّي وخمسة عيال، وهذا -سارق الشمطاوات- يأتي ويستقر في دكان بكامله لبيع الحيوانات، يقيم إقامة كاملة مع المرأة والأسماك والعصافير.

بصق بُورْكْهاوْزِن باحتقار. يا له من عالم حقير! ذاك الذي يمنع كل شيء جيد عن بُورْكْهاوْزِن من أجل أن يلقيه في حجر ذلك الغبي!

لكن كلما أطال بُورْكْهاوْزِن النظر اتَّضح له أن سحر الحب لا يرفرف على الزوجين، وأنهما بالكاد يتحدَّثان، ولا ينظر أحدهما إلى الآخر أبدًا، وكان من الممكن جدًّا أن إيْنُوْ كْلُوْجِه لا يمثِّل شيئًا سوى عامل يساعد السيدة التي بالداخل في تنظيف المحل. في هذه الحالة إذًا سيخرج من الدكان في وقت معلوم.

عاد بُورْكْهاوْزِن إلى الموقع الذي يراقبهما منه. بما أن الستارة مسدلة فسيخرج كْلُوْجِه من باب البيت، وعليه.. سدَّد بُورْكْهاوْزِن ناظريه نحوه.

حفظ بُورْكْهاوْزِن أولًا اسم «ه. هِيْبِرْلِه» في رأسه ثم انسلَّ إلى الحوش. ورأى، لحسن حظه أن النور مضاء رغم أن الظلام لم يحلَّ بعد، ولقد تمكن من رؤيتهما جيِّدًا عبر ستارة ملتوية ومرفوعة. لكن الذي رآه فاجأه لدرجة أنه أصيب بالذعر.

لأن هناك ركَعَ صديقه إينُوْ على الأرض، ركع أمام السيدة السمينة التي ظلت تعود أدراجها خطوة بخطوة خوفًا منه. غير أن إينُوْ الصغير كان يرفع ذراعيه وبَدَا أنه يُخرج أصواتًا منتحبة.

«أيها العاشقان!» فكَّر بُوزْكْهاوْزِن وعاد إلى موقع المراقبة ينقل ساقيه من النشوة، «أيها العاشقان، إن كنتما بهذه الطريقة تستثيران الشهيَّة من أجل الليل، إذًا فلنقرع الأنخاب، أيها الشقيان! سأظل واقفًا هنا لأتلصص عليكما».

ولكن عندها صفقت العجوز الباب وأوصدته خلفها، وقف إينُوْ لدى الباب وحرك المقبض إلى أعلى وأسفل وبدا أنه يواصل اللعن والسباب.

«ربما لم تكن إذًا لعبةً استفتاحية لإشعال شغف الليل. ربما تعارَكا، كان يريد إينُوْ شيئًا منها، رفضت أن تعطيه إياه، أو لعلها لا تريد أن تسمع شيئًا عن الحبيب الأحمق... ما لي أنا وكل هذا؟ في كل الأحوال سيقضي ليلته هنا، وإلا لم إذًا تحضير تلك الأغطية الوثيرة على الأريكة؟!». وقف إينُوْ كْلُوْجِه أمامها الآن، تمكن بُوزْكْهاوْزِن من رؤية وجه زميله بوضوح تام. كان الموقف يدعو إلى العجب. لا يزال يبكي ويتوجع، وها هو ذا الرجل يضحك، ينظر نحو الباب، ويضحك مجدَّدًا.

«إذًا لقد كان يمثل على العجوز. إذًا يا صغيري حظًّا سعيدًا! أخشى فقط أن إشيرِش سيبصق في صحن حسائك!».

أشعل كْلُوْجِه سيجارة لنفسه. ثم توجه مباشرة نحو النافذة التي يتلصَّص منها بُوزْكْهاوْزِن. ما جعله يتنحى جانبًا من الخوف، صرَّت الستارة المعدنية وإيْنُوْ ينزلها ما جعل بُوزْكْهاوْزِن يتخلَّى عن موقعه ببساطة. فليس من المتوقع أن يحدث ما يثير، على الأقل حتى لو حدث فلن يتمكَّن من رؤية شيء منه. لكن إيْنُوْ أصبح مضمونًا له لهذه الليلة.

في الواقع كان من المتفق عليه مع المفتش إشيرِش، أن يتَّصل به بُوزْكْهاوْزِن بمجرد أن يعثر على إيْنُوْ كْلُوْجِه، سواء كان الوقت ليلًا أو نهارًا. ولكن كلما مضى بُوزْكْهاوْزِن هذه الليلة في اتجاه كونيجزتور، تنامى لديه الشك في أن الاتصال الفوري هو الصواب الذي سيكون في صالحه. فلقد خطر بباله أنَّ طرفين في هذه المسألة، وأنه يستطيع أن يحصِّل منفعة من كلا الجانبين.

كان مالُ إشيرِش مضمونًا، فلماذا لا يحاول أن يخلص بعض المال من إيْنُوْ كْلُوْجِه؟ فهذا الصبي معه خمسين ماركًا في يده راهَنَ حتى وصل بها إلى 200 مارك بسبب فوز آدْبَار. والآن، لماذا ليس عليه هو، بُوزْكْهاوْزِن، أن يحصل على هذا المال؟ فهذا أمر لن يضر إشيرِش في شيء، وسيمسك بإيْنُوْ رغم كل شيء، وإيْنُوْ أيضًا لن يصاب بضرر لأنهم كانوا سيأخذون منه هذا المال في الجيستابو. إذًا ماذا؟

ثم هذه المرأة السمينة التي ركع إيْنُوْ أمامها بطريقة عجيبة بالتأكيد لديها مال، بل ومال كثير. ففيما يبدو.. يسير العمل بشكل جيد في الدكان، وفيه بضاعة كثيرة، و لا يشكو نُدرةَ الزبائن. لا، هذه

المناوشات والتوسلات لا تشي بغير أن الاثنين لا يتوافقان في كل شيء، لكن فلنعترف، مَن سيسلِّم الآن عاشقًا إلى الجيستابو، حتى لو كان ينبذه؟ وحقيقة أن العجوز تسامحت مع بقاء إِيْنُوْ عندها رغم نبذه، وأنها حضَّرت له مكانًا للمبيت فوق الأريكة تثبت أنها لا تزال متعلقة بإِيْنُوْ. ومعنى هذا أنها ستدفع، ربما ليس كثيرًا، لكنها ستدفع شيئًا. وهذا الشيء لم يكن بُوزْكْهاوْزِن مستعدًّا لتضييعه بأي حال.

عندما وصل بُوزْكْهاوْزِن إلى هذه الأفكار ودخل لينام إلى جوار أُوْتّي، أمسك بتلابيبه ذعر خفيف بمجرد أن خطر بباله أنه ينتوي أن يلعب لعبة خطرة. لأن إشيرِش هذا بالتأكيد ليس بالرجل الذي يتسامح مع التدخلات الخاصَّة، كل هؤلاء الرجال في الجيستابو كانوا على تلك الشاكلة، وليس أسهل عليه في العالم من أن يرسل رجلًا إلى معسكر التعذيب. وكان بُوزْكْهاوْزِن يخشى معسكر التعذيب أيما خشية.

ورغم ذلك بقي ممسوسًا بكل تلك الأفكار الإجرامية، لدرجة أنه قال لنفسه «حينما يتحتم علينا أن نفعل شيئًا علينا إذًا أن نفعله، فهذه هي الأصول. وهذا الشيء يتحتم تنفيذه». سينام بُوزْكْهاوْزِن أولًا وهو يفكِّر في المسألة، وعندما يأتي الغد، سيعرف إن كان سيتوجَّه من فوره إلى إشيرِش، أم يرى أولًا الأمر مع كْلُوْجِه. أما الآن فيريد أن ينام.

لكنه لم ينم، وإنما ظل يفكِّر أن رجلًا واحدًا قليلٌ جدًّا على هذا الأمر. فهو -بُوزْكْهاوْزِن- عليه أن يضمن لنفسه سعة في الحركة. عليه أن يسارع في الذهاب إلى إشيرِش في الوقت الذي يبقى فيه

إيْنُوْ كْلُوْجِه بدون رقابة. وإن أمسك السمينة ربما يهرب إيْنُوْ في تلك الأثناء. لا، واحد قليل جدًّا. لكن ليس ثمة آخر يمكنه الوثوق به، ثم إن هذا الثاني سيطالب بنصيبه من العملية، ولم يكن بُوزْكْهاوْزِن ليوافق على الاقتسام بأي حال.

وأخيرًا خطر ببال بُوزْكْهاوْزِن أنَّ بين كوم اللحم الذي لديه.. ولدًا يبلغ الثالثة عشرة، وأنه يمكن أن يعدَّه ابنه. فلطالما حمل شعورًا بأن ذلك النذل ذا الاسم النبيل (كونو-ديتر)، ربما هو ابنه البيولوجي، رغم أن أُوْتّي ادَّعت على الدوام أنه ابن دوق يملك أراضيَ شاسعة في بومرن. لكن أُوْتّي كانت دائمًا مدعية وهذا ما يثبته الاسم الأول للصبي.

وبتنهيدة ثقيلة حسم بُوزْكْهاوْزِن رأيه، وقرر أن يتَّخذ الغلام مراقبًا احتياطيًّا. وهذا لن يكلفه سوى شجار خفيف مع أُوْتّي وبعض الماركات للصبي. ثم بدأت أفكار بُوزْكْهاوْزِن من جديد تحوم حول الأمر برمته، ثم تدريجيًّا صارت أبطأ وأكثر غموضًا إلى أن خلد فعلًا إلى النوم.

28

ابتزاز طفيف

لقد أُخبِرنا فيما سبق أن السيدة هِيْتِه هِيْبِرْلِه وإِيْنُوْ كْلُوْجِه تناولا فطورهما معًا ثم عملا معًا في الدكان بدون أن يوجِّه أحدهما كلمة إلى الآخر. كلاهما شاحب بعد ليلة لم ينعم أيٌّ منهما فيها بالنوم إلا قليلًا، لأن الأفكار طيَّرت النوم من عينيه. فكرت السيدة هِيْبِرْلِه أن إِيْنُوْ لا بد أن يخرج من بيتها غدًا، إِيْنُوْ ذلك الذي لن يَسمح بطرده أبدًا.

وفي هذا السكون دخل الزبون الأول وكان رجلًا طويلًا وقال للسيدة هِيْبِرْلِه:

- اسمعيني جيِّدًا، لديك في الفاترينة ببغاوات. كم ثمن زوجين منها؟ لكن لا بد أن يكونا اثنين، فأنا من أنصار الأزواج...

وأخذ بُورْكْهاوْزِن يجول ويتصنَّع الدهشة، ثم بدهشةٍ مصطنعة تعمَّد ألا يتقنها، نادى كْلُوْجِه الذي أراد فورًا أن ينكمش إلى غرفة خلفية للمحل:

- ألستَ أنت، إِيْنُوْ؟ لا أنا أتكلم وأخرف، وأفكر، «لا يمكن أن يكون هذا هو إِيْنُوْ، ماذا عساه يفعل في حديقة حيوان صغيرة كهذه؟!» لكن أنت هو، أليس كذلك يا زميل؟ إذًا ماذا تفعل هنا يا زميل؟

تسمَّر إِيْنُوْ في مكانه، والمقبض في يده، عاجزًا عن الهرب أو الإجابة. حدَّقت السيدة هِيْتِه إلى الرجل الطويل - الذي كان يتحدَّث

إلى إِيْنُوْ بودِ- بدهشة كبيرة، وبدأت شفتاها في الارتجاف، وتخدَّرت ساقاها. ها قد حلَّ الخطر إذًا، لم يكن كل ما حكاه لها إِيْنُوْ مكذوبًا بخصوص تضييق الجيستابو عليه. فهي لم تَشُكَّ ولو لحظة أن هذا الرجل بوجهه الجبان القاسي جاسوسٌ للجيستابو.

أمَا وقد تجسد هذا الخطر حقًّا، ظلَّ جسد السيدة هِيْتِه يرتعش. وكان عقلها هادئًا ويقول لها: «الآن في هذا الخطر لا يمكن أن تتركي إِيْنُوْ يواجه مصيره، مهما كانت عيوبه».

وقالت السيدة هِيْتِه لهذا الرجل ذي النظرة الثاقبة، التي تنحرف عن هدفها، قالت لهذا الرجل الذي يبدو أنه لا يساوي فلسًا:

- ربما تريد أن تشرب معنا فنجانًا من القهوة يا سيد. ما اسمك؟

- بُوزْكْهاوْزِن، إيمِيلْ بُوزْكْهاوْزِن. (قدم الجاسوس نفسه)

أنا صديق قديم لإِيْنُوْ، كنا نمارس الرياضة معًا. ماذا تقولين الآن يا سيدة هِيْبِرْلِه بخصوص الفوز الذي أحرزه آدْبَار؟ لقد تقابلنا في حانة الرياضة. هل أخبركِ بذلك؟

ألقت السيدة هِيْتِه نظرة عاجلة على إِيْنُوْ. كان لا يزال واقفًا وفي يده المقبض، وعليه أمارات المفاجأة جراء حديث بُوزْكْهاوْزِن الودود. صورة للخوف العاجز. لا، لم يقل لها شيئًا عن هذه المعرفة القديمة، بل لقد ادَّعى أنه لم يَرَ أحدًا يعرفه. لقد كذب عليها إذًا مرة أخرى، لدرجة لا تصب في مصلحته، لأنه صار من الواضح لها تمامًا أن هذا الجاسوس تتبَّعه إلى أن عثر على مخبئه لديها. لو أنه كان قد قال شيئًا أمس عن هذا الصديق القديم، لكان في وسعها أن تواصل طرده!

لكن هذه ليست اللحظة المناسبة للتشاجر مع إِيْنُوْ كْلُوْجِه أو اتهامه بالكذب؛ إنها لحظة العمل. وهكذا قالت مرة أخرى:

- إذًا فلنشرب فنجانًا من القهوة يا سيد بُورْكْهاوْزِن. فالآن لا يأتينا زبائن كثر، إِيْنُوْ، فلتَزْرَعَ الدكان. سأتحدَّث أنا مع صديقك أولًا...

والآن تجاوزت السيدة هِيْتِه ارتجاف الجسد. وظلَّت تفكِّر فقط في حالها مع فَالْتَرْ وتلك الذكريات أمدتها بالقوة. فلقد كانت تعرف هؤلاء الناس، لا ينفع معهم الارتجاف، والتوسُّل، واستجداء العطف، فهم بلا قلب، جلادو هتلر المنزلون من السماء. الشيء الذي يساعد هو التحلِّي بالشجاعة، ليس الجبن، لا يجدر الشعور بالخوف مطلقًا. إنهم يعتقدون أن كل الألمان جبناء مثل حال إِيْنُوْ الآن. لكن ليس هي، السيدة هِيْتِه، أرملة هِيْبِرْلِه، ليست جبانة.

ومن خلال مظهرها الهادئ توصلت إلى أن الرجلين أطاعاها بدون كلمة واحدة. وفي أثناء التوجُّه إلى غرفة المعيشة أضافت:

- لا ترتكب أي حماقة يا إِيْنُوْ! لا تهرب بلا داعٍ! فكِّر في أن معطفك معلق في الغرفة ولن يكون معك مال في جيبك.

- أنت سيدة ذكية!

قال بُورْكْهاوْزِن وهو يجلس إلى الطاولة ويرى كيف تعد له فنجان قهوة:

- ومفعمة بالحيوية! لم أكن أتصوَّر هذا عندما رأيتكِ أمس للمرة الأولى.

تقابَلَتْ نظراتهما.

- حسنٌ.. (أكمل بُورْكْهاوْزِن بسرعة)

في الحقيقة كنتِ البارحة أيضًا مفعمة بالحيوية وهو راكع أمامك على ركبتيه وصفقتِ الباب في وجهه. لن توصدي الباب في وجهه الليلة. أليس كذلك؟

احمرَّت وجنتا السيدة هِيْتِه خجلًا من هذا التلميح، المشهد المخزي، المقزز الذي وقع أمس كان عليه شاهدٌ، بل شاهدٌ حقير مثل هذا! لكنها استجمعت شجاعتها بسرعة وقالت:

- أفترض أنك رجل ذكي كذلك يا سيد بُورْكْهاوْزِن، نحن لا نريد أن نتحدَّث الآن عن مسائل جانبية، وإنما عن الصفقة وفقط. أفترض أن الأمر متعلق بصفقة!

- ربما، ربما بالتأكيد...

(عاجلها بُورْكْهاوْزِن، ولقد تسبَّب إيقاع المرأة له في بعض التوتُّر)

- أنت تريد إذًا.. (أكملت السيدة هِيْتِه)

أن تشتري زوجًا من الببغاء. أفترض من أجل أن تطلق سراحه لأنه لو بقي في القفص فلن يفيدك ذلك في شيء...

حك بُورْكْهاوْزِن رأسه:

- سيدة هِيْبِرْلِه.. مسألة الببغاوات هذه مسألة معقدة عليَّ. أنا رجل بسيط ربما أنتِ أذكى مني بكثير. أتمنى ألا توقعي بي.

- وأنت، لا تفعل بي الشيء ذاته!

- لا فكرة لديَّ! أريد أن أتحدَّث معكِ بمنتهى الصراحة، ليس عن البغاوات. سأقول لكِ كل شيء كما هو، الحقيقة كاملة. فلقد حصلت من الجيستابو على مهمة، أسندها إليَّ المفتش إشيرِش، هل تعرفينه؟ (هزت السيدة هِيْتِه رأسها بالنفي)

لقد أسند إليَّ مهمة أن أعرف أين يختبئ إينُوْ. لا شيء غير ذلك. لماذا ولأي غرض فلا فكرة لديَّ. أريد أن أقول لك هذا يا سيدة هِيبِرْلِه لأني إنسان بسيط للغاية وصريح جدًّا...

(انحنى في اتجاهها فحدقت إلى عينيه الثاقبتين. انحرفت نظرة ذلك البسيط الصريح)

... لقد دُهِشتُ من المهمة يا سيدة هِيبِرْلِه، أقول لكِ ذلك بمنتهى الأمانة. لأن كلينا يعرف بالتأكيد نوع شخصيَّة إينُوْ، ألا وهو لا شيء مطلقًا، فقط بعض الرهانات وقصص نسائية في دماغه. والآن يبحث الجيستابو عن هذا الإينُوْ، بل حتى القسم السياسي، حيث كل شيء يعدُّ خيانة عظمى وقرنبيطًا - هذه مسائل لا أفهمها - فهل تفهمينها أنتِ؟

نظر إليها يتوقَّع ردًّا. ومرة أخرى التقت نظراتهما ومرة أخرى حدث الأمر ذاته، لم يتمكَّن من مواصلة النظر إلى عينيها.

- أكمِلْ بهدوء يا سيد بُورْكهاوْزِن.. كلي آذان مصغية!

- سيدة ذكية! (أومأ بُورْكهاوْزِن)

ذكية ومفعمة بالعفوية بشكل لعين. مشهدُ أمس وهو راكع...

- نريد فقط أن نتحدَّث عن الصفقة يا سيد بُورْكهاوْزِن!

- أجل، أجل بالتأكيد! أنا رجل ألماني طيب وصريح حقًّا، لدرجة أنك تتعجبين لكوني أعمل مع الجيستابو. ربما يكون هذا ما تفكرين فيه. لا يا سيدة هِيبِرْلِه أنا لا أعمل مع الجيستابو. لا أعمل معهم إلا أحيانًا، في مرات معدودة. فالإنسان يريد أن يعيش، أليس كذلك؟ وأنا عندي خمسة أبناء، أكبرهم لم يتجاوز الثالثة عشرة. لا بد أن أوفر الطعام لهم جميعًا...

- الصفقة، يا سيد بُورْكْهاوْزِن!

- لا يا سيدة هِيبِرْلِه، أنا لا أعمل في الجيستابو. أنا إنسان أمين. وكما سمعتُ فهم يبحثون عن صديقي إِيْنُوْ لدرجة أنهم رصدوا مكافأة كبيرة لمن يعثر عليه، وأنا أعرف إِيْنُوْ منذ مدة وأنا له بمثابة الصديق الحقيقي حتى لو أننا اختلفنا ذات مرة! حدَّثتُ نفسي ساعتها يا سيدة هِيبِرْلِه: «انْظُر هناك، إنهم يبحثون عن إِيْنُوْ! الضئيل الذي لا يساوي فلسًا!»، إن تمكنتُ من العثور عليه، تفهميني يا سيدة هِيبِرْلِه، لربما تمكّنت من تحذيره بأي إشارة، ومنحه فرصة للهرب، ما دام في الوقت متسع. وقلت للمفتش إشيرِش «لا تقلق بخصوص إِيْنُوْ. سأعثر أنا عليه، لأنه صديق قديم لي»، وهكذا حصلت على هذه المهمة يا سيدة هِيبِرْلِه، وإِيْنُوْ يعمل في الدكان، وأحواله المادية على خير ما يرام!

صمت كلاهما لوهلة، بُورْكْهاوْزِن مترقِّبًا، والسيدة هِيبِرْلِه متفكِّرة. ثم قالت: إذًا أنت لم تُعلِم الجيستابو بعد؟

- نعم؛ مع هؤلاء لست مستعجلًا ولا مستعدًّا أن يفسدوا الصفقة عليَّ! (ثم صوَّب نفسه)

أردت أولًا أن أعطي صديقي القديم إيْنُوْ إشارة تحذيرية.

وسكتا مرة أخرى. ومرة أخرى سألت السيدة هِيْتِه أخيرًا:

- وما المكافأة التي وعدك بها الجيستابو؟

- ألف مارك! إنه مبلغ هائل على شخص لا قيمة له، أعترف بهذا يا سيدة هِيْبِرْلِه، فأنا شخصيًا أصبت بذهول كبير كبير. لكن المفتش إشيرِش قال لي: «أحضر لي هذا الكْلُوْجِه وسأدفع لك ألف مارك»، هذا ما قاله المفتش إشيرِش. بل سمح لي بالحصول على مئة مارك من أجل المصروفات، هذه حصلت عليها فعلًا، ستضاف على المكافأة.

جلسا مطولًا يفكِّران.

ثم عادت السيدة هِيْتِه تقول:

- لقد ذكرت سابقًا أمر الببغاوات لغرض يا سيد بُوْرْكْهاوْزِن. لأني إن دفعت لك ألف مارك...

- ألفي مارك يا سيدة هِيْبِرْلِه، بين الأصدقاء أَلْفَا مارك. ثم تضاف عليها مئة مارك مصروفات.

- حتى لو أنني سأدفع لك ذلك المبلغ، وأنت تعرف بالطبع أن السيد كْلُوْجِه لا مال لديه، وأنا لا شيء يربطني به...

- يا.. يا سيدة هِيْبِرْلِه، أنت سيدة محترمة. هل ستسلمين صديقك الذي خرَّ راكعا أمامك للجيستابو؟ في الوقت الذي قلت لك فيه إن كل تعاملاتهم تتمحور حول الخيانة العظمى والسرقات الضخمة؟ هل فعلًا لن تفعلي شيئًا يا سيدة هِيْبِرْلِه!

كان يمكن أن تقول له «نعم»، ذلك الرجل الألماني الرقيق الأمين، الذي يفعل تحديدًا الشيء الذي لن تفعله هي مطلقًا لأنها سيدة محترمة، ألا وهو أن تبيع الصديق. لكنها كانت تعلم أن مثل هذه الملاحظات لا جدوى منها، فهؤلاء الرجال ليس لديهم القدرة على فهم أمر مثل هذا.

وهكذا قالت:

- نعم -إن كنت أنا التي ستدفع ألفي المارك- فما الذي يضمن لي أن الببغاوات لن تبقى القفص؟

لقد حسمت أمرها، لأنها رأت كيف أنه مرة أخرى يحك رأسه، وقررت ألا تخجل أبدًا:

- إذًا ما الذي يضمن لي أنك لن تأخذ ألفَيْ المارك مني وتذهب فعلًا إلى إشيرِش لتأخذ الألف منه؟

- أضمن لك ذلك يا سيدة هِيْبِرْلِه! أعطيك كلمتي. أنا مجرد إنسان بسيط صريح، وعندما أعد بشيء فأنا أفي بكلمتي. لقد رأيتِ بنفسك، كيف أنني أتيت إلى إيْنُوْ لتحذيره من الخطر المحدق به كي لا يتحول المحل كله إلى خراب.

نظرت إليه السيدة هِيْتِه بابتسامة طفيفة:

- كل هذا جميل وجيد يا سيد بُورْكْهاوْزِن. لكن لأنك خصيصًا صديق إيْنُوْ الجيد ستفهم أني أريد أن أضمن سلامته بكل طريقة إن كنتُ فعلًا سأدفع له شيئًا.

صنع بُورْكْهاوْزِن حركة مهدئة تعني أن الأمر كله بيدها وأن سيدة مثلها لن تعجز عن ذلك.

- لا يا سيد بُورْكْهاوْزِن؛ ما الذي يضمن لي أنك لن تأخذ مني المال الآن و...

قالت هِيْتِه لأنها رأت أنه لا يستوعب السخرية وأن عليها أن تتحدَّث معه بمنتهى الصراحة. توتر بُورْكْهاوْزِن من فكرة أنه لن يحصل الآن على مبلغ ألفي المارك الذي أصاب رأسه بالدُّوار ولم يره في حياته من قبل.

- ... وأن ثمة عميل جيستابو يقف خارج الباب وسيمسك بإيْنُوْ؟ لا بد أن أحصل على ضمانات أخرى منك!

- لكن لا أحد يقف أمام الباب، أقسم لك يا سيدة هِيْبِرْلِه! أنا رجل أمين، لم سأكذب عليك؟ لقد أتيت مباشرة من بيتي، ويمكن لك حتى أن تسألي زوجتي أُوْتّي!

قاطعت الغاضب:

- إذًا فكِّر في ضمان تقدمه لي، بخلاف كلمتك!

- ليس ثمة ضمان أبدًا! هذه صفقة تعتمد كلية على الثقة. وستثقين بي يا سيدة هِيْبِرْلِه الآن وأنا أتحدَّث إليك بصراحة.

- أجل، الثقة...

أجابت السيدة هِيْبِرْلِه بلا تفكير، ثم غاص كلاهما في صمت طويل، هو مترقبًا، لما يمكن أن تقرر هي، وهي تفكر مليًّا كيف يمكن أن تضمن أقل قدر من الأمان.

وفي هذه الأثناء كان إِيْنُوْ كْلُوْجِه يدير المحل. كان يخدم الزبائن الذين توافدوا على المحل بغزارة بسرعة وكان عمله لا يخلو من مهارة، وتمكن من المزاح وقول النكات. إذ تلاشى الخوف الذي استشعره أولًا بمجرد أن رأى بُورْكْهاوْزِن. فهِيْتِه تجلس في غرفة المعيشة وتتحدَّث مع بُورْكْهاوْزِن. ستتمكّن من وضع الأمر في نصابه. لكن كونها ستضع الأمر في نصابه فذلك يثبت أنها لم تكن قطُّ جادة في التهديد بطرده. وهكذا شعر الآن بالراحة ولهذا تحسَّن مزاجه وصار يلقي النكات.

وفي غرفة المعيشة بالخلف كسرت السيدة هِيْبِزْلِه الصمت الطويل. قالت بحسم:

- إذًا يا سيد بُورْكْهاوْزِن، لقد فكرتُ في المسألة. وسأنجز الصفقة معك تحت الشروط التالية...

- أجل.. قولي هيا! (قال بُورْكْهاوْزِن بضغط وطمع. فلقد بدأ يرى مكافأته تقترب)

- سأعطيك ألفي مارك. لكني لن أعطيك إياها هنا، سأعطيك إياها في ميونخ.

- في ميونخ؟ (نظر ممتعضًا)

لا أذهب أبدًا إلى ميونخ! ماذا أفعل في ميونخ؟

- سنذهب معًا.. (أكملت)

الآن معًا نذهب إلى البريد وسأدفع حوالة بألفي مارك لك تتسلَّمها في ميونخ. ثم أوصلك إلى محطة القطار وتسافر أنت بالقطار الأقرب

إلى ميونخ وتجلب المال من هناك. في محطة آنهالتر سأعطيكَ مئتي مارك إضافية للرحلة بخلاف ثمن التذكرة...

- لا! (قال بُورْكْهاوْزِن في مرارة)

لن أفعل أيًّا من ذلك! هذا فخ لن أقع فيه! بعد أن أسافر إلى ميونخ تسحبين الحوالة من البريد!

- سأعطيكَ وصلًا بمجرد أن يتحرَّك قطارك، وبالتالي لن أتمكن من سحب الحوالة.

- وميونخ؟ (صاح ثانية)

لماذا ميونخ؟ نحن أناس أمناء! لماذا ليس هنا، الآن فورًا، في الدكان، وننتهي! السفر إلى والعودة من ميونخ سيستغرقني يومين وليلة، وخلالها سيكون إيْنُوْ متكومًا هنا!

- لكن يا سيد بُورْكْهاوْزِن، هذه مسألة اتَّفقنا عليها بالفعل ولهذا أعطيك المال! لا ينبغي أن يظل الببغاء في قفصه، أعني إيْنُوْ لا بد أن تتاح له فرصة كي يختبئ، ولهذا أدفع لك ألفَيْ المارك!

برطم بُورْكْهاوْزِن حين لم يجد شيئًا حقيقيًّا يعترض عليه:

- وسأحصل على مائة مارك مصروفات؟

- نعم، هذه أيضًا ستحصل عليها. نقدًا. على المحطة.

لكن حتى هذه الموافقة لم تغير مزاج بُورْكْهاوْزِن. ظلَّ معترضًا:

- ميونخ! لم أسمع بهكذا هراء من قبل! كل شيء كان يمكن أن يكون سهلًا. والآن ميونخ! ميونخ تحديدًا! لماذا لا تقولين مثلًا لندن؟ يمكن أن أسافر إلى هناك بعد الحرب! وكل شيء مدمَّر!

كان الأمر سلسًا للغاية ، لكن لا، لا بد أن نعقِده! ولم؟ لأنك لا تثقين بأخيك الإنسان، لأنك شخص يسيء الظن يا سيدة هِيْبِرْلِه! أنا أمين جدًّا معك...

- وأنا أيضًا أمينة معك! هكذا أعقد هذه الصفقة وليس بأي صورة أخرى!

- حسن إذًا! أستطيع أن أذهب. (نهض وأخذ طاقيته. لكنه لم يذهب)

ميونخ أمر غير وارد مطلقًا.

- ستكون رحلة سعيدة قصيرة.. (أقنعته السيدة هِيْبِرْلِه)

الرحلة جميلة، وميونخ لا يزال يتوفر فيها كثير من الأطعمة والأشربة الجيدة. بيرة قوية كثيرة أكثر من عندنا هنا يا سيد بُورْكْهاوْزِن!

- لا يهمني الشرب. (قال لكنه لم يكن ممتعضًا كما كان منذ قليل، بل أخذ يفكِر)

أدركت السيدة هِيْتِه أنه يحاول أن يتفتَّق ذهنه عن وسيلة يحصل بها على المال ثم يسلم إِيْنُوْ. راجعت اقتراحها مرة أخرى، وبدا لها جيِّدًا. سيُبعد بُورْكْهاوْزِن ليومين على الأقل من الطريق، ولو كان المنزل فعلًا غير مراقَب، فسيمنحها ذلك وقتًا كافيًا من أجل تهريب إِيْنُوْ.

- حسن! (قال بُورْكْهاوْزِن أخيرًا وهو يتأمَّلها)

لن تنفذي الصفقة إلا بهذه الطريقة يا سيدة هِيْبِرْلِه؟

- أجل. (قالت السيدة هِيْتِه)

هذه هي شروطي التي لن أتنازل عنها.

- إذًا علي أن أنفذها؛ لا أستطيع أن أترك ألفَيْ بيضةٍ في مهب الريح!

بدا أنه يقول هذا التبرير لنفسه لا لها.

- إذًا سأسافر إلى ميونخ. وستأتين معي الآن فورًا إلى مكتب البريد.

- فورًا.

قالت السيدة هِيْبِرْلِه متفكِّرة. ها هي ليست راضية تمامًا حتى بعد أن وافق. كانت مقتنعة تمامًا أنه يخطط لحقارة جديدة. وكان عليها أن تكتشف ماذا يخطط.

- نعم، سنذهب فورًا. (قالت مرة أخرى)

وهذا يعني أن عليَّ أولًا أن أهندم نفسي وأغلق المحل.

قال في عجالة: ولم تريدين إغلاق الدكان يا سيدة هِيْبِرْلِه؟ أليس إيْنُوْ هنا!

- سيذهب إيْنُوْ معنا. (قالت)

- ولم هذا أيضًا؟ ليس لإيْنُوْ أي علاقة بالصفقة برُمَّتها!

- لأنني أريد للأمر أن يسير على ذلك النحو. ولا يمكن أن يكون غير ذلك. لا أريد أن يُعتَقَل إيْنُوْ في اللحظة التي أسلمك فيها المال. فهذا السَّهو وارد يا سيد بُورْكْهاوْزِن.

- لكن من يمكن أن يعتقله؟

- على سبيل المثال، الجاسوس الذي أمام الباب...

- ليس مِن جاسوس أمام الباب! (ابتسَمَتْ)

حاولي أن تقتنعي يا سيدة هِيْبِرْلِه. جُوْلِي حول البيت وراقبي كل الناس. ليس مِن جاسوس أمام الباب! أنا إنسان أمين.

قالت بتصميم: أريد أن يبقى إِيْنُوْ إلى جواري. هذا أأمن.

- أنتِ عنيدة مثل بغل عجوز! (صاح غاضبًا)

حسن إذًا، فليذهب إِيْنُوْ أيضًا معنا. لكن هلُمِّي الآن واضبطي هندامك!

- لستُ مستعجلة إلى هذا الحد؛ قطار ميونخ ينطلق قرابة الثانية عشرة. معنا كل الوقت. والآن اعذرني لمدة ربع ساعة، لا بد أن أجهز نفسي.

رأته وهو يجلس إلى الطاولة مسدِّدًا عينه طوال الوقت نحو النافذة التي يمكن له أن يراقب الدكان منها.

- ورجاء إضافي يا سيد بُورْكْهاوْزِن.. لا تتحدَّث الآن مع إِيْنُوْ إذ لديه مشاغل كثيرة في المحل، وفي العموم...

- ماذا عساني أقول لهذا الأحمق؟! (قال بُورْكْهاوْزِن بغضب)

مع غبي مثل هذا لا أتبادل ولا كلمة واحدة!

لكنه سمع كلامها وجلس بطريقة مختلفة بحيث يكون باب غرفة المعيشة وشباك الحوش أمام عينيه.

29

طرد إينُو

وبعد ساعتين كان كل شيء قد تم. تحرك القطار المتجه إلى ميونخ من محطة آنهالتر حاملًا بُوزْكْهاوْزِن في مقصورة من مقصورات الدرجة الثانية، وعلى وجهه ابتسامة مُدَّعية منتفخة إذ هو لأول مرة في حياته يستخدم مقصورة الدرجة الثانية. أجل، السيدة هِيبْزِله التي يمكن أن تكون كريمة أعطته تذكرةً بناء على طلبه لتغطية أي مصروفات إضافية كي تحافظ على مزاجه المعتدل، أو لعلها كانت أيضًا سعيدة بالتخلُّص منه ولو ليومين على الأقل.

والآن.. فيما باقي المسافرين يتدافعون للدخول قالت بصوت منخفض لإيْنُوْ:

- انتظر دقيقة يا إيْنُوْ، سنجلس بعض الوقت في صالة الانتظار لنفكِّر في ما يتحتَّم فعله.

وهكذا جلَسَا بحيث يكون باب الدخول أمامها. كانت صالة الدخول مليئة بشكل معتدل، وبعدهما لم يدخل أحد لمدة طويلة.

سألت السيدة هِيتِه: هل فكرت يا إيْنُوْ في ما قلت لك؟ هل تعتقد أننا مُراقَبان؟

وإيْنُوْ كْلُوْجِه باستهتاره المعتاد لم يكن يشغل بالَه أيُّ خطر:

- أنا؟ مراقَب؟ هل تعتقدين أن أحدًا يمكن أن يراقَبَ من أجل أحمق مثل بُورْكْهاوْزِن؟ لا أحد بهذه الحماقة! لا أحد!

كان على لسانها أن تخبره أنها ترى ذلك البُورْكْهاوْزِن بتشتُّتِه وعجرفته أذكى منه بكثير، هو القصير الجبان، المهمِل الذي يجلس إلى جوارها. لكنها التزمت الصمت. فلقد أقسمت لنفسها وهي تغير ثيابها أن تتوقَّف عن كيل التهم. وإن واجبها الآن هو فقط أن توصل إيْنُوْ كْلُوْجِه إلى برِّ الأمان. وبمجرد أن تؤدي هذه المهمة لن تراه ثانية.

قال مِن منطلق الفكرة التي تؤرقه لأكثر من ساعة، قال من باب الحسد:

- لو أنني مكانك ما كنت أبدًا لأدفع لهذا الرجل ألفين ومائةَ مارك. ثم أضفتِ إليها مائتين وخمسين ماركًا مصاريفَ الرحلة، ثم تذكرة، ثم تذكرة إضافية! لقد أعطيت الرجل أكثر من ألفين وخمسمائة مارك، لهذا الخنزير! ما كنتُ لأفعلها البتَّة!

- وماذا يكون مصيرُكَ لو أني لم أفعلها؟

- لو أنك أعطيتِنِي ألفين وخمسمائة مارك لرأيت كيف كنت سأدير المسألة بحساسية! يمكن أن تصدِقي أن بُورْكْهاوْزِن كان ليرضى بخمسمائة مارك!

- لكن الجيستابو وعده بألف!

- ألف؟! هذا أمر مثير للضحك! كأنهم في الجيستابو يلعبون بالمال وسيبعثرونه هكذا! وعلى جاسوس بلا قيمة مثل بُورْكْهاوْزِن! هذا لا يحتاجون إلا إلى أن يأمروه؛ وسيكون عليه أن ينفذ الأوامر،

مقابل ما لا يزيد على 5 ماركات بقشيش اليوم! لكنْ ألف، ألفان وخمسمائة، لقد خدعك خدعة كبيرة يا هِيْتِه!

وضحك ساخرًا.

جرحها عدم امتنانه. لكنها لم تكن على استعداد أن تدخل معه في جدل. قالت فقط وبنبرة حادة نوعًا:

- لا أريد التحدث عن هذا الأمر ثانية! أتفهم؟ لا أريد!

نظرت إليه نظرة طويلة ثابتة إلى أن أخفض عينيه الفارغتين.

- يجدر بنا أن نفكِّر الآن ما سنفعل بِكَ.

- لا يزال أمامنا بعض الوقت، لا يمكن أن يعود قبل بعدِ غد. فلنعد الآن إلى الدكان. وإلى أن يأتي بعد غد بالتأكيد سيخطر ببالنا فكرة.

- لا أعرف. لا أريد أن آخذك إلى المحل ثانية، فقط - على أقصى تقدير- نذهب لتلملم أغراضك. أنا مضطربة للغاية، ربما نكون مراقَبَيْنِ!

- لكني أقول لك إننا لسنا مراقَبَيْنِ! أنا أفهم أكثر منك في مسألة كهذه! كما أن بُورْكْهاوْزِن لا يمكن أن يعيِّن جاسوسًا، فهو دائمًا مفلس!

- لكن الجيستابو يمكن أن يعيِّن واحدا!

- وجاسوس الجيستابو يسمح بأن يسافر بُورْكْهاوْزِن إلى ميونخ بالقطار! هذه تخاريف يا هِيْتِه!

لا بد أن تعترف أن هذه الحجة لم يجانِبْه فيها الصواب. لكن اضطرابها استمر، سألته:

- ألم تلحظ مسألة السجائر؟

لكنه لم يتذكَّر. كان عليها أن تحكي له كيف أن بُورْكْهاوْزِن، وهما لم يكادا يخرجان من البيت، بحث في كل مكان عن سجائر، وأصَرَّ أن يحصل عليها. ولذلك كان يزمجر في وجه هِيْتِه وإِيْنُوْ طلبًا لها، لكن لم يكن معهما أي منها بعد أن دخناها كلها ليلًا. لكن بُورْكْهاوْزِن ظلَّ مُصرًّا أن يحصل على بعض السجائر، وأنه لا يتحمل لأنه معتاد أن يدخن واحدة في الصباح. ولهذا «اقترض» عشرين ماركًا من هِيْتِه ونادى صبيًا كان يلعب في الشارع محدِثًا ضجيجًا عاليًا:

- أنت يا ولد. هل تعرف من أين يمكن الحصول على سجائر؟ لكن ليس معي بطاقات للتبغ.

- نعم أعرف أحدهم. هل معك مال؟

كان فتًى أشقر ذا عينين زرقاوين يرتدي ملابس شعبية، بدا عليه أنه ابن نمطِيٌّ من أبناء برلين.

- أعطني العشرين ماركًا وسأجلب لك ما تريد.

- ثم تنسى أن تعود؟ لا، سأذهب معك. لحظة يا سيدة هِيْبِرْلِه!

وبهذا اختفى الاثنان في أحد المنازل. وبعد برهة عاد بُورْكْهاوْزِن وحده وأعطى السيدة هِيْتِه العشرين ماركًا بدون أي مطالبة منها.

- لم يكن لديهم أي سجائر. وذاك الغلام الأشقر كان يريد أن ينصب عليَّ ويأخذها. لكني عرَّفتُهُ مكانته. ولا يزال الآن راقدًا على أرض الحوش!

واصلا طريقهما إلى البريد وإلى مكتب السفريات.

- أجل، وما الغريب الذي ترينه في ذلك يا هِيْتِه؟ بُورْكْهاوْزِن مثله مثلي؛ عندما يريد أن يدخِّن يصير في وضع يدفعه إلى قول أي هراء لجنرال في الشارع ليطلب عقب سيجارة!

- لكنه لم يقل أي كلمة بعد ذلك عن السجائر رغم أنه لم يحصل عليها! أجد هذا غريبًا. هل كان يدبر شيئًا مع الغلام؟

- ماذا يمكن أن يكون دبَّر مع هذا الغلام يا هِيْتِه؟ الأكيد أنه طرحه أرضًا.

- ألا يمكن أن يكون ذلك الغلام هو من يتجسَّس علينا؟

لوهلة أطرق إِيْنُوْ كْلُوْجِه. لكنه عاد يقول باستهتاره المعتاد:

- أنتِ تتخيلين أشياء مجدَّدًا! ليتني أستطيع أن أريحك من قلقك!

سكتت. لكن الاضطراب داخلها استمر وأصرَّتْ أن يذهَبَا لوهلة قصيرة إلى المحل كي يجمع أغراضه. ثم أرادت له أن يبيت لدى إحدى صديقاتها مع اتخاذ كلِّ احتياطات السلامة.

لم يناسبه ذلك مطلقًا. شعر أنها تريد أن تتسَلَّ منه. كان يتوفر لديها الأمن، والطعام الطيب، وعدم الاضطرار إلى العمل كلما شعر بسوء. ثم الحب والدفء والمواساة. ثم إنها مثل دجاجة تبيض ذهبًا، لقد استطاع بُورْكْهاوْزِن أن يستخلص منها ألفين وخمسمائة مارك. الدور عليه الآن!

- صديقتكِ! (قال معترضًا)

ما نوع هذه السيدة؟ لا أحب الذهاب إلى غرباء.

كان يمكن لهِيْتِه أن تقول له إنها زميلة قديمة لزوجها، وإنها لا تزال ناشطة بمنتهى الهدوء، وإن كل مطارَد يجدُ لديها ملاذًا. لكنها كانت تشكُّ الآن في إيْنُوْ، فهي الآن قد رأته يجبُن مرتين، لا ينبغي أن يعرف كثيرًا.

- صديقتي؟ إنها سيدة مثلي. في سِنِّي. ربما تكون أصغر بعدة سنوات.

- وماذا تفعل؟ من أين تعيش؟ (واصل الاستفهام)

- لا أعرف على وجه الدقة، ربما هي سكرتيرة. بالمناسبة هي غير متزوجة.

- وفي سِنِّك؟! ألم يأن الأوان لهذا بعد؟ (قال ساخرًا)

جفلت، لكنها لم تجب.

- لا يا هِيْتِه.. (قال وأضفى على صوته نبرة رقيقة)

لماذا أذهب إلى صديقتك؟ نحن كلانا وحدنا، أليس هذا أجمل شيء؟ دعيني أبقى عندكِ، بُوْرْكْهاوْزِن لن يأتي قبل بعد الغد، دعيني على الأقل حتى بعد الغد!

- لا يا إيْنُوْ! أريدك أن تفعل الآن ما أقوله لك. سأذهب وحدي إلى الشقة وأجمع الأغراض. تستطيع في هذه الأثناء أن تنتظر في مكان ما. ثم سنذهب معًا إلى صديقتي.

كان لديه كثير من الاعتراضات لكنه انصاع في النهاية. انصاع أيضًا وهي تقول:

- سوف تحتاج أيضًا إلى المال؛ سأضع لك بعضه في حقيبتك، سأضع لك ما يكفي ليخرجك من اضطرار الحال في الفترة الأولى.

أن تضع له المال في حقيبته -وبالتأكيد هي لن تضع له أقل مما أعطت بُورْكْهاوْزِن- أغرته هذه الاحتمالية وجعلته يصمت. فلو أنه ظلَّ إلى ما بعد الغد عندها فلن يحصل على المال إلا بعد غد. لكنه أراد أن يعرف فورًا المبلغ الذي ستخصِّصه له.

رأت بحزن سبب صمته، إنه يتولَّى الآن القضاء على أي بقية من احترام أو حب له. لكنها تقبلت هذا بلا تذمر. فلطالما عرفت من خبرتها في الحياة أن الإنسان يدفع مقابل كل شيء، وأن معظم الأشياء لا تساوي حقًّا الثمن المدفوع فيها. أهم شيء الآن أنه يمتثل لإرادتها.

وحينما اقتربت السيدة هِيْتِه هِيْبِرْلِه من شقتها رأت الصبي الأشقر ذا العينين الزرقاوين مرة أخرى يلعب في الشارع. شعرت بالذعر. ثم نادته:

- ماذا تفعل هنا؟ ألا تجد مكانًا إلا هنا تلعب فيه بصوت عال؟

- أنا أسكن هنا؛ أين يمكن أن ألعب وأصيح؟

حاولَتْ أن تجد أي أثر لضربة في وجهه، لكنها لم تجد شيئًا. من الواضح أن الغلام لم يتعرَّف عليها، ربما لم يُعِرها أي اهتمام حينما كان يتحدَّث مع بُورْكْهاوْزِن. هذا يعني أنه ليس جاسوسًا.

- تسكن هنا؟! لم أَرَكَ في الشارع من قبل!

- العيب في عيونك! (قال بوقاحة. ثم صفر بنفاد صبر، وصاح نحو البيت عاليًا)

ماما، انظري من النافذة، ثمة سيدة تريد أن تمسك بي، هيا انظري وقولي لها شيئًا!

ذهبت السيدة هِيْتِه إلى دكانها ضاحكة ومقتنعة تمامًا أن ما تصوَّرته بخصوص هذا الغلام لم يكن سوى محض هراء.

لكنها عادت إلى جديتها وهي تحزم الأمتعة. إذ عاودتها الأفكار وتساءلت إن كانت محقَّة في أن تذهب بإيْنُوْ إلى صديقتها آنَّا شُونْلايْن. صحيح أن آنَّا تغامر بحياتها يوميًّا لأي غريب يبحث عن مأوى. لكن بدا للسيدة هِيْتِه أنها تُهَرِّب إلى آنَّا مصيبة كبيرة متمثلة في هذا الإيْنُوْ كْلَوْجِه. صحيح أنه كان يبدو مجرمًا سياسيًّا لا عاديًّا، بل إن بُورْكْهاوْزِن نفسه أكد هذا، لكن...

كان في منتهى الاستهتار، ليس بسبب عدم التفكير وإنما بسبب لا مبالاة تامة بخصوص مصير رفاقه. ما يحدث لهم لا يعنيه مطلقًا، لم يكن يفكِر إلا في نفسه وكان في وسعه أن يذهب إليها مرتين في اليوم تحت حجة أنه يشتاق إليها، وبالتالي سيجُرُّ كل الخطر على آنَّا. وهِيْتِه لها سلطة عليه، أمَّا آنَّا فلا.

بتنهيدة ثقيلة وضعت السيدة هِيْتِه 300 مارك في ظرف ثم وضعته في الحقيبة. لقد أنفقت اليوم مالًا أكثر مما وفرته في عامين، لكنها ستقدم تضحية أخرى. ستعد بتقديم مئة مارك عن كل يوم لا يغادر فيه إيْنُوْ شقة آنَّا. مع الأسف هو من تلك الشاكلة التي يمكن أن تطرح عليها اقتراحًا كهذا. لن يهينه هذا، سيمثِّل في الوهلة الأولى

أنه مستاء، لكن هذا كفيل بأن يبقيه في البيت، فهو لا يطمع إلا في المال.

بالحقيبة في يدها تغادر السيدة هِيْتِه البيت. لم يكن الغلام الأشقر يلعب في الشارع، ربما ذهب إلى أمه. توجهت إلى الحانة في ميدان أليكساندر حيث ستقابل إِيْنُوْ.

30

إيمِيلْ بُوزْكْهاوْزِنْ وابنه

نعم، لقد شعر بُوزْكْهاوْزِن بالراحة في هذا القطار المحترم، في العربة المخصصة للدرجة الثانية النبيلة بصحبة عساكر وجنرالات وسيدات روائحهن خلابة. ولم يزعجه البتَّة كونه غير أنيق أو جيد الرائحة ولا أن المسافرين يرمقونه بنظرات غير طيبة، فبُوزْكْهاوْزِن معتاد ألا يُنظر إليه باحترام. وقلما صادف في حياته إنسانًا ينظر إليه بودٍّ.

لقد أخذ بُوزْكْهاوْزِن يستمتع بهذه السعادة القصيرة بكل كِيانه، لأن هذه السعادة قصيرة. وليس من الضرورة أن تستمر إلى ميونخ، ولا حتى لايبزيج كما كان يخشى في البداية، لكن فقط حتى ليشترفيلده، حيث يتوقَّف هذا القطار مرة أخرى هناك. كان هذا هو الخطأ في حسبة السيدة هِيْتِه. ليس من الضروري للإنسان كي يحصل على مال في ميونخ أن يسافر إلى هناك. يمكن أن يفعل ذلك لاحقًا مثلما ينجز الأعمال الملحَّة في مدينة برلين. والعمل المُلحُّ الآن هو إبلاغ إشيرِش عن مكان إِيْنُوْ والحصول على خمسمائة المارك. كما لا حاجة إلى السفر إلى ميونخ. فكل الأمر أن الواحد يكتب للبريد ليبعث المبلغ إلى برلين. في كل الأحوال لا ضرورة إلى سَفرةٍ فورية إلى ميونخ.

وهكذا خرج -ليس بدون بعض الندم الطفيف- إيمِيلْ بُورْكْهاوْزِن في محطة ليشترفيلده. ودخل في جدل بسيط حيوي مع مدير تشغيل الرحلات الذي رفض أن يستوعب فكرة أن ما بين محطة آنهالتر وليشترفيلده يمكن للواحد أن يغير رأيه بخصوص سفرة إلى ميونخ. وبشكل تام ساور هذا الرجل الشك في بُورْكْهاوْزِن الذي بدا له مريبًا.

لكن بُورْكْهاوْزِن لم يهتز:

- اتَّصِل فقط بالجيستابو، المفتش إشيرِش، وسترى مَن المحق يا سيدي مراقب المحطة! أنا في الخدمة!

في النهاية ردَّ له صاحب الطاقية الحمراء مبلغ الرحلة ورفع كتفيه غير مكترث. كل شيء ممكن اليوم، من الممكن أن تلك الأشكال المريبة تنجز فعلًا مهمات بتكليف من الجيستابو. ما أسوأ الحال!

غير أن إيمِيلْ بُورْكْهاوْزِن انصرف ليبحث عن ابنه. لم يجده أمام دكان الحيوانات الخاص بهِيْتِه هِيبِرْلِه، رغم أن المحل كان مفتوحًا والزبائن تدخل وتخرج. «هل هو مختبئ وراء عمود إعلانات؟» فكر بُورْكْهاوْزِن -معلِّقًا عينيه بباب المحل- في ما يمكن أن يكون قد وقع. هل ترك كونو-ديتر موقعه ببساطة من الملل؟ هل خرج إيْنُوْ؟ ربما ذهب ثانية إلى «فيرنر ليفن»! هل خرج الرجل القصير من هنا تمامًا وبقيت السيدة تعمل وحدها في المحل؟

فكر إيمِيلْ بُورْكْهاوْزِن أن يدخل بمنتهى الوقاحة ليستعلم من السيدة المخدوعة هِيبِرْلِه، لكن في الوقت نفسه تحدث معه صبي في التاسعة:

- اسمعني! هل أنت والد كونو؟

- نعم أنا، ما الأمر؟

- عليك أن تعطيني ماركًا.

- لم أعطيك ماركًا؟

- كي أقول لك ما أعرف.

أمسك بُوزْكْهاوْزِن بالفتى بسرعة: البضاعة أولًا ثم المال!

لكن الفتى كان أسرع منه وانسَلَّ من تحت ذراعه صائحا:

- إذًا لن أخبرك! فلتحتفظ بالمارك!

ثم عاد إلى رفقائه في اللعب الذين كانوا يتصايحون في الشارع مباشرة أمام الدكان.

لا يستطيع بُوزْكْهاوْزِن أن يتبعه إلى هناك، حتى لا يراه أحد. صاح وصفر مستدعيًا الولد الذي كان يلعنه بسبب بُخله. لكن الفتى لم يستجب بسهولة للمكر والغواية. فقط بعد ربع ساعة عاد إلى بُوزْكْهاوْزِن وحافظ على مسافة بينه وبين الرجل الغاضب وأعلن بوقاحة:

- الآن يكلف هذا ماركَيْنِ!

كان بُوزْكْهاوْزِن يريد أن يمسك بالفتى مرة أخرى ليضربه، لكن ما العمل؟ الموضوع معلَّق به لأنه لن يستطيع أن يجري وراءه.

- سأعطيك ماركًا. (قال كاظمًا غيظه)

- لا! ماركَيْنِ!

- حسن، ستحصل على ماركَيْنِ!

أخرج بُوزْكْهاوْزِن حفنة أوراق مالية من جيبة حتى عثر على ماركَيْنِ ثم دس باقي الأوراق في مكانها وأمسك بالمال أمام الصبي.

هز رأسه:

- أنا أعرفكَ. حينما أمد يدي لأخذ المال ستمسك بي. لا؛ ضع المال على الأسفلت!

مغتاظًا لكن بدون أن ينبس بكلمة فعل بُوزْكْهاوْزِن ما طلبه الغلام.

- حسن! (قال ونهض وتراجع خطوة للوراء)

اقترب الولد بحذر نحو الورقة المالية وعيناه مثبتتان على الرجل. وعندما انحنى ليتناول المال لم يتمكّن بُوزْكْهاوْزِن من مقاومة غواية أن يضرب هذا الفتى، كان من الممكن أن يمسك به لكنه قاوم، فهو يخشى إن فعل ألا يحصل على أي معلومة، وهذا الأحمق سيظل يصرخ إلى أن يجمع كل من في الشارع.

- إذًا؟ (سأل مرة أخرى، وهذه المرة مهدِّدًا)

أجاب الولد:

- أستطيع الآن أن أراوغ وأن أطلب مزيدًا من المال ومرة أخرى ومرات أخرى عديدة. لكن أنا لست من تلك الشاكلة. وأعرف جيِّدًا أنك كنت تريد الآن أن تدفعني لكني لست وغدًا.

وبعد أن أوضح كيف أنه متفوق أخلاقيًا على بُوزْكْهاوْزِن قال في عجالة:

- عليك أن تنتظر في شقتك الخبر اليقين من كونو. (ومضى)

أما الساعتان اللتان اضطر فيهما بُورْكْهاوْزِن إلى انتظار خبر من كونو فلم تخفّفا من غضبه، لا، بل ضاعفتاه. ظلت أُوْتّي تثرثر في أثناء تحمير النقانق عن الخنازير الكسالى الذين يجلسون النهار بطوله لا يفعلون شيئًا سوى تدخين السجائر وترك كل العمل للنساء.

ما كان عليه سوى أن يسحب أمامها عملة من فئة عشرة أو خمسين ماركًا وبهذا ينقلب مزاجها العفن إلى أسعد حال، لكنه لم يرغب في ذلك. لم يُرِد أن يدفع المال مرة أخرى بعد أن دفع للتو ماركَيْنِ في خبر عقيم يمكن أن يصل إليه بنفسه. وامتلأ بالغيظ نحو كونو- ديتر الذي أرسل إليه ذلك الوغد الصغير الذي بالتأكيد أخفى شيئًا!

عزم بُورْكْهاوْزِن أن على كونو- ديتر هذا أن يعيد إليه المبلغ الذي سحبه الولد منه.

ثم سمع طرقًا على الباب، وبدلًا من رسول كونو- ديتر المنتَظَر وقف هنالك شخص مدني يبدو مثل عريف سابق.

- هل أنت السيد بُورْكْهاوْزِن؟

- نعم، ما الأمر؟

- عليك أن تحضر إلى المفتش إشيرِش. جهز نفسك. سأوصلك.

- لا أستطيع الذهاب الآن! (اعترض بُورْكْهاوْزِن)

أنتظر رسولًا. أخبر المفتش أني اصطدت السمكة.

- عليَّ أن آخذك إلى المفتش. (قال العريف السابق بصوت عنيد)

- ليس الآن! لن أدع الصفقة تفلت مني! ليس بسببكم يا إخوة!

كان بُورْكْهاوْزِن غاضبًا لكنه تمالك أعصابه:

- أخبر المفتش أني سأحصل على العصفور وأمرُّ عليه اليوم.
- لا شأن لي بتلك الحكايات. تعال معي! (قال الآخر مصمِّمًا)
- ربما تكون تعلمت ذلك عن ظهر قلب، وأنك لا تستطيع أن تقول أي شيء آخر غير «تعال معي»! (صاح بُوزْكهاوْزِن)

ألا تستطيع أن تفهم ما أقول لك؟ ليس لديك ردٌّ سوى «تعال معي»! ألا تستطيع أن تفهم أني أنتظر هنا الخبر اليقين وإلا أفلت الأرنب من المصيدة؟ هل مستوى هذا الكلام عالٍ عليك إلى هذا الحد؟

ثم نظر إليه لبعض الوقت وهو يكتم أنفاسه. ثم أضاف متذمرًا:

- الأرنب هو ما عليَّ اصطياده وجلبه إلى المفتش إشيرِش، أتفهم؟

غير أن العريف السابق قال بلا تأثر:

- لا أعرف شيئًا عن كل هذا. لقد قال لي المفتش: «فِرِيْتْشِه أحضر لي بُوزْكهاوْزِن». وعليه تعال معي!
- لا! (قال بُوزْكهاوْزِن)

أنت لعين. سأبقى هنا. أم تريد أن تعتقلني؟

رأى أن الآخر ليس لديه مقدرة على ذلك:

- إذًا اغرب عن وجهي! (صاح وصفق الباب في وجهه)

بعد ثلاث دقائق رأى العريف القديم يجري في الحوش، يبدو أنه فكَّر في المسألة بشكل مختلف!

وبمجرد أن اختفى الرجل عبر مدخل بوابة المنزل الأمامي اعترى بُوزْكهاوْزِن خوف من التبعات التي سيجرها عليه تصرُّفه الأهوج

أمام رسول المفتش إشيرِش العاتي. إنه الغضب الذي يعتمل في نفسه من كونو-ديتر هو الذي أوصله إلى تلك الحال. كانت وقاحة كبرى أن يترك أباه في انتظاره ساعة وراء ساعة، ربما إلى أن يحلَّ الليل. الحمقى موجودون في كل مكان، عند كل ناصيةِ شارعٍ شخص يمكن أن يرسله الواحد برسالة! لكنه سيُرِي كونو رأيه فيَ تصرفاته، فهذه المزحة لا ينبغي أن تمرَّ بدون عقاب.

استغرق بُوزْكْهاوْزِن في الخيالات عن الأساليب التي يمكن بها أن يعذِّب الولد. كان يرى نفسه مبتسمًا وهو يعذب ذلك الجسد الطفل، لكنها لم تكن ابتسامة الغيظ الذي ينتهي؛ سمعه يصرخ ووضع يده على فمه ليكتم صوته فيما هو يواصل الضرب، ويظل يضرب فيه إلى أن يرتعش جسم الولد كله وكذلك ترتجف شفتاه.

لم يتعب بُوزْكْهاوْزِن من تخيل هذه الصور مرة بعد الأخرى. وكان في هذه الأثناء يتمطَّى على الأريكة ويتنهد باستمتاع.

ثم جاء مرسال الولد مُزعِجًا أخيرًا ودق الباب.

- ما الأمر؟ (سأل بُوزْكْهاوْزِن بإيجاز)

- عليَّ أن آخذك إلى كونو.

هذه المرة كان الولد طويلًا، في الرابعة عشرة أو الخامسة عشرة مرتديًا قميص شباب هتلر.

- لكن أعطني أولًا 5 ماركات.

- خمسة ماركات!

برطم بُورْكْهاوْزِن ولم يتجرأ على أن يعارض ذلك الأحمق الذي يرتدي قميصًا بُنيًّا بشكل صريح.

- خمسة ماركات! أنتم يا شباب تعرفون كيف تعبثون بمالي!

بحث ما بين فئات العملات الورقية.

نظر الولد الطويل المنتمي إلى شبيبة هتلر وهو يشعر بالإثارة نحو المال في يد الآخر.

- لقد صرفتُ نظير مواصلات! ثم.. ما ظنك بالوقت الذي ضيَّعْتُه لآتي من الغرب إلى هنا؟

- ووقتك يكلف كثيرًا من المال أم ماذا؟ (لم يجد بُورْكْهاوْزِن العملة الصحيحة بعد)

وتقول من الغرب؟ لا يمكن أن يكون الغرب! ما الغرب عندك؟ ربما تقصد وسط البلد، هذا أقرب للصواب!

- لا، إن لم تكن آنسباخِر في الغرب...

أدرك الولد متأخِرًا أنه زاد في الكلام. خبأ بُورْكْهاوْزِن المال مرة أخرى.

- شكرًا! (ضحك ساخرًا)

لستَ في حاجة إلى تضييع مزيد من وقتك الثمين. سأجد الطريق وحدي، الأفضل أن أستخدم مترو الأنفاق إلى ميدان فيكتوريا-لويزه، أليس كذلك؟

- هذا ما لن تفعله معي، لن تفعل معي ذلك!

قال الأحمق من شباب هتلر واقترب من الرجل وقد كوَّر قبضته. كانت عيناه الدَّاكنتان تلمعان من الغضب:

- لقد صرفت على المشوار، لقد...

- لقد ضيعت وقتك الثمين، أعرف هذا! (ضحك بُوزْكْهاوْزِن) اغرب عن وجهي يا بنَي، لطالما كلَّفَت الحماقة مالًا!

وفجأةً اعتراه الغضب مجدَّدًا:

- ماذا تريد بعد ذلك هنا في حجرتي؟ هل تريد أن تنهبني في غرفتي؟ انصرف الآن وإلا جعلتك تسمع صراخك المتألم!

جر بخشونة الولد الغاضب خارج الغرفة وصفق الباب. وطوال الطريق إلى محطة مترو الأنفاق في ميدان فيكتوريا ـ لوزيه أخذ يبدل ما بين الملاحظات الساخرة والغاضبة، التي لم يحاول الولد تجنُّبها، رغم أنه بُهِتَ من الغضب لكنه لم يُبْدِ أي رد فعل على أيٍّ من الكلمات التي تضايقه.

في الأعلى في محطة ميدان فيكتوريا ـ لويزه بعد أن خرجا من أنبوب النفق، تسارع إيقاع الولد وسبق الرجل، كان على بُوزْكْهاوْزِن أن يقرِّر أن يسرع في إثره، لأنه لا يريد أن يمنح الأحمقين فرصة أن يتحدَّث بعضهما إلى بعض مطولًا. ولم يكن واثقًا إلى أي فريق ينتمي كونو ـ ديتر، إلى أبيه أم إلى هذا الجبان.

وَقَفَا فعلًا أمام بيت في آنْزْباخِر. تكلم «شابٌ هتلر» بحماسة مع كونو ـ ديتر الذي كان يستمع إليه برأس منكَّس. وحين دخل

بُورْكْهاوْزِن تراجع الرسول عشر خطوات وترك الاثنين وحدهما يتحدَّثان.

- ما خبرك حقًّا يا كونو- ديتر؟ (بدأ بُورْكْهاوْزِن غاضبًا)

ترسل إليَّ دائمًا هؤلاء الصبية، صبية وقحون يريدون الحصول على مال مقدمًا!

- بدون مال لا يفعل أحد شيئًا يا أبي. (أجاب كونو- ديتر لا مباليًا)

تعرف هذا بنفسك. وأريد أيضًا أن أعرف ما الذي سأربحه أنا من هذا العمل، لقد صرفت حق المشوار إلى هنا!

- نفس الحجة، ألا يخطر ببالكم شيء آخر؟ لا يا كونو- ديتر، الآن تخبر والدك أولًا وبشكل منظم ما الذي يحدث هنا في آنْزْباخِر، ثم ترى بعد ذلك ما سيفعل أبوك من أجلك. أبوك ليس هكذا.. فقط يدفع ويدفع. أبوك لا يتحمل ذلك!

- لا يا أبي.. (قال كونو- ديتر)

أخشى أن تنسى أن تدفع لي «المال» بالتأكيد. أعرف أن لديك ضريبات تريد أن تدفعها. معك قدر كبير من المال ستحصل عليه في هذه المسألة، بل وسَتَرِثُ كما أظن. وأنا أقف هنا اليوم بكامله بدون طعام، ولهذا أنا أيضًا أريد المال. ولقد فكرت لذلك في خمسين ماركًا...

- خمسون ماركًا!

كادت أنفاس بُورْكْهاوْزِن تتوقَّف بمجرد أن سمع هذه المطالبة الوقحة.

- سأخبرك ما سأعطيك إياه. سأعطيك خمسة ماركات، خمسة الماركات التي أراد أن يحصل عليها الجبان الواقف هناك، ويمكن لك أن تسعد بها! لكن أنا...

- لا يا أبي.. (قال كونو-ديتر ورمق بُوزْكْهاوْزِن بنظرات متحدية من عينيه الزرقاوين)

أنت تكسب مبلغًا كبيرًا في هذه الصفقة وأنا لن أقوم بالعمل كاملًا وأدعك تُلقي لي بالفتات، أنا لست مغفلًا إلى هذا الحد!

- وماذا تريد أن تقول أيضًا! (ضحك بُوزْكْهاوْزِن ساخرًا)

أن الضئيل مختبئ في البيت، هذا ما أعلمه فعلًا. وباقي الخبر سأعرفه وحدي. لا، اذهب الآن إلى البيت وَدَعْ أمك تحضر لك بعض الطعام! فأبوك ليس أحمقَ إلى هذا الحد! يا لكما من بطلَيْنِ!

- إذًا سأذهب! (قال كونو-ديتر بحسم)

وسأقول للضئيل إنك تراقبه، سأشي بك يا أبي!

- أنت أيها اللعين الملوَّث بالمخاط! (صرخ بُوزْكْهاوْزِن وحاول ضرب ابنه)

لكنه كان قد جرى إلى مدخل جانبي من مداخل البيت؛ ركض بُوزْكْهاوْزِن خلفه، وتبعه عبر الحوش وعلى الدرجات الأخيرة للحوش الخلفي أدركه. دفعه أرضًا ثم بدأ يكيل الركلات للمستلقي المُتَأوِّه. كان الأمر مثلما تخيَّله على الأريكة، غير أن كونو-ديتر لم يكن يصرخ، بل ظلَّ يدافع عن نفسه بغضب مكتوم. وهذا ما ضاعف من غيظ بُوزْكْهاوْزِن. فضرب الولد على وجهه بكامل قوته

وركله بقدميه في بطنه.. «سأُريكَ أيها الحمار!». ثم سال ضباب أحمر على عينيه.

فجأةً شعر بشيء يمسك به من خلفه، وبأن أحدهم أمسك ذراعه، وبشيء ضرب ساقه اليمنى وآخرَ ساقَهُ اليسرى. التفت ليرى، لقد كان ذلك الشاب المنتمي إلى شباب هتلر، ذلك الجبان، غير مكتمل القوة، أربعة أو خمسة غلمان عفِنِين! كان عليه أن ينصرف عن كونو-ديتر ليدافع عن نفسه ضد هؤلاء الفتية الذين يستطيع أن يسقط أي واحد منهم بضربةٍ من يده لكن تَجَمُّعَهم ضده يشكل خطورة جمة عليه.

- أنتم يا عصابة جبانة!

صرخ وحاول أن يتخلَّص من الفتى المتعلِّق بظهره عن طريق الاصطدام بالحائط. لكنهم ظلُّوا متعلِّقين بساقيه إلى أن أسقطوه.

- كونو! (صاح)

ساعد أباك! العصابة الجبانة!

لكن كونو لم يساعد أباه. الآن لَمَّ شَعَثَهُ وكان هو أول من سدَّد الضربة الأولى إلى وجه بُوزْكهاوْزِن.

زمجرةٌ متشكِّية تشبه التنهيدة العميقة، خرجت من صدر الرجل. ثم لف ودارَ مع العصابة على الأرض آملًا أن يتخلَّص من ذلك المتشبِّث بظهره بضربِهِ على السلالم والجدران، وأن يعصره إلى أن يستطيع أن يقف على ساقيه ثانية.

الآن لم يبقَ سوى التأوهات الصادرة عن المتصارعين، وصوت الضربات، ووقع الأقدام... بلا كلام، يتصارعون بكلِّ مرارة.

نزلت سيدة عجوز السلم فظلت واقفة من الذعر، حين رأت الصراع الوحشي أسفل قدميها. تعلقت بالدرابزين وصاحت عاجزةً:

- لكن! لكن لا... في بيتنا الطيب!

تأرجحت عباءتها ذات اللون البنفسجي. ثم حسمت أمرها وأطلقت صرخة ذعر عالية.

حرَّر الصبية أنفسهم من بُوزْكْهاوْزِن واختفوا. جلس الرجل وحدق إلى السيدة بوحشية.

- إنهم عصابة! (برطم)

يريدون أن ينهبوا رجلًا مُسِنًا، وبينهم ابني!

وإثْرَ صرخة السيدة فُتحت عدة أبواب، وحضر بعض الجيران مذعورين وتهامس بعضهم مع بعض، ينظرون نحو الرجل الجالس.

- لقد تعاركوا! (قالت ذات الرداء البنفسجي)

لقد تعاركوا في بيتنا الطيب!

تمالك بُوزْكْهاوْزِن نفسه. لو أن إِيْنُوْ كْلُوْجِه يسكن هنا لكان هذا أفضل وقت يهرب فيه. لكنه يمكن أن يظهر في أي لحظة كي يرى عَلامَ هذه الضجة.

- كنت أُعلِمُ ابني الأدب.. (أوضح للمؤجِّرين الذين يحدِّقون إليه صامتين)

لا شيء يقال. كل شيء على ما يُرام، كل شيء في منتهى الجمال!

نهض وذهب إلى الحوش الخلفي عبر «الحديقة» وخرج منها إلى الشارع، وأخذ ينفض ملابسه ويربط حزامه. أما العصابة فلم يَرَ لهم أيَّ أثر بطبيعة الحال. فلينتظر وحسب، كونو-ديتر سيتعرَّف عليه اليوم! أن يعارك أباه! أن يكون أول من يسدِّد الضربة إلى وجهه! لا يمكن أن تحميه منه أي أُوْتّي في الدنيا! لا، ربما تغضب لهذه البيضة الخائبة التي وضعتها له في العش!

وفيما بُوزْكُهاوْزِن يراقب المنزل يتصاعد غضبه ضد كونو-ديتر ويتجدَّد. لكنه يكاد يفقد عقله عندما يكتشف أن العصابة سرقت منه كل المال من جيبه وهم يتعاركون. لم يبقَ معه إلا بعض بعض الماركات في جيب الصديري. «يا لهم من خنازير! هذه التربية الفاسدة». كان يفضِّل أن ينطلق فورًا ليبحث عنهم، وأن يصنع منهم الجولاش*، ويستعيد ماله!

ثم ينطلق.

ثم حين يفكِّر؛ هو لا يستطيع أن يذهب! عليه أن يظلَّ هنا وإلا خسر خمسمائة المارك كذلك! من الواضح أنه لن يستعيد ماله أبدًا من هؤلاء العصابة، وعليه أن ينقذ على الأقل خمسمائة المارك!

مضى وقد أكله الغضب إلى مقهًى صغيرٍ، واتَّصل هاتفيًا بالمفتش إشيرِش. ثم عاد إلى موقع المراقبة الذي اتخذه وانتظر بنفاد صبر أن يأتي إشيرِش. يا له من تعِس! بعد كل هذا المجهود الذي بذله.. كل شيء ضده ولا يزال كذلك! ينجح الآخرون كلهم بمجرد لمسهم الأشياء فقط، ذلك الوحش إينْوْ يحصل على تلك المرأة وكل هذا

---

* الجُولاش: قطع لحم صغيرة مطهية في صلصة الطماطم. (المترجمة)

المال، ودكان جميل، ذاك الذي لا يساوي فلسًا يراهن على حصان ويربح.. لكن هو! يمكن أن يفعل ما يريد؛ كل شيء يخفق. يا للمجهود الذي بذله مع تلك الهِيْبِرْلِه! سعد بأنه حصل على قليل من المال في جيبه.. سرعان ما تلاشى! وسوار رُوْزِنْتال في تلك المرة.. أيضًا تلاشى! الاقتحام الجميل، تجارة ملابس كاملة.. تلاشت! أي شيء تلمسه يدُه يتلاشى.

«أنا فاشل، هذا أنا!».. قال لنفسه ممتلئًا بالمرارة. «لا، لو أن المفتش يحضر خمسمائة البيضة معه! أما كونو فسأوسعه ضربًا حتى الموت! سأعامله أسوأ معاملة، وسأدعه يتضوَّر جوعًا إلى أن يموت! لن أنسى فَعْلَتَه أبدًا!».

قال بُوزْكْهاوْزِن في التليفون للمفتش إن عليه أن يُحضر معه المال الآن.

- سوف أرى. (أجاب المفتش)

«ما معنى هذا الآن؟ هل يريد هو الآخر أن ينصب عليَّ؟ شيء كهذا لا يمكن أن يكون!».

لا، في المسألة برمتها لا يهمُّه سوى المال. بمجرد أن يحصل عليه سيهرب وليحدُثْ لإِيْنُوْ ما يحدث. لم يعد يهتم بأمره! وربما يسافر فعلًا إلى ميونخ. لقد اكتفى من كل شيء هنا! لا يستطيع أن يواصل. كونو الذي ضربه في وجهه وسرق ماله -شيء كهذا لم يحدث من قبل- ابنه!

لا، هِيْبِرْلِه محقة؛ سيسافر إلى ميونخ. عندما يحضر إشيرِش المال، وإلا فلن يستطيع أن يشتري التذكرة. لكن المفتش لا يفي بكلمته، هذا شيء لا يمكن أن يكون! أم ماذا؟

31

زيارة إلى السيدة آنّا شُونلاين

لقد كان الاتصال الهاتفي الذي أجراه بُورْكْهاوْزِن مع المفتش إشيرِش مفيدًا، بأنَّه وجد إيْنُوْ كْلُوْجِه في غرب برلين. لكنه تسبَّب لإشيرِش في اضطراب. وقال تلقائيًّا: نعم، سأحضر. سأحضر فورًا!

تجهَّز للذهاب ثم داهمته الأفكار.

والآن صار في قبضته، ذاك الذي يتمناه منذ أسابيع، ويتعقَّبه منذ أيام. وفي أثناء البحث المضني نافد الصبر، كان يفكِر في اللحظة التي سيمسك به فيها. طاردًا العنف من كل فكرة تخصُّ ذاك الذي يتعقَّبه.

والآن حان الوقت. وطرح السؤال نفسه «ماذا يريد أن يفعل بإيْنُوْ حقًّا؟»، كان يعرف بشكل تام الوضوح.. إيْنُوْ كْلُوْجِه ليس كاتب البطاقات. في أثناء البحث كان يمكن أن يغطِّي على ذلك، بل إنه كان يتحدَّث مع المعاون شْرُودِر، قائلًا إن كْلُوْجِه بالتأكيد يُخفي وراءه كثيرًا من المخالفات.

أجل، هو يخفي شيئًا آخر، لكن ليس هذا، ليس هو من كتب البطاقات! كلا! لو أنه قَبض عليه واستدعاه إلى شارع برنس-آلبريشت، فلن يوقف شيءٌ قائد مجموعات العمل عن أن يستجوب كْلُوْجِه بنفسه، وسيظهر كل شيء، أي إنه لن يَظهرَ أيُّ شيء يخصُّ

البطاقات، لكنْ كثيرٌ مما يخصُّ المحضر الملفَّق، بكل وضوح! كلا، ليس من الممكن جلبُ كْلُوْجِه إلى هنا!

لكن لم يكن ممكنًا -بنفس القدر- تركُه طليقًا، حتى لو تحت الرقابة الدائمة، لن يسمح بْرَالْ بهذا. كما أنه لن يقبل أيَّ عذر حتى لو لَمْ يُبَلَّغ مؤقتًا بالعثور على كْلُوْجِه. فلقد أشار عدة مرات -بمنتهى القوة- إلى أنه سيضع قضية «شبح البحر» في يدين أُخرِيَيْنِ أكثر مهارة! وأن المفتش لا يمكن أن يلومه على ذلك. علاوة على ذلك فهو متعلِّق بهذه القضية التي صارت مهمة بالنسبة إليه.

يجلس إشيرِش إلى مكتبه ويحدِّق إلى الفراغ أمامه، عاضًّا على شاربه العزيز رمليِّ اللون. لقد وصل إلى طريق لعين مسدود، يقول لنفسه «طريق لعين مسدود حشرت نفسي فيه! أي شيء سأفعله يصبح خطأ، وعندما لا أفعل شيئًا، يكون أيضًا خطأ أكبر! طريق تعيس مسدود!».

يجلس ويقلِّب الأمر. يمر الوقت، ولا يزال المفتش إشيرِش جالسًا يقلِّب الأمر. بُوزْكْهاوْزِن.. فليذهب إلى الجحيم ذلك البُوزْكْهاوْزِن! عليه أن يظلَّ واقفًا ويراقب المنزل! لديه ما يكفي من الوقت! وعندما يفلت إِيْنُوْ من يده سيتمكَّن من التخلص منه! لكن «أحضِرْ معك خمسمائة المارك»! فإِيْنُوْ بأكمله، بل مائةٌ من فئته لا تساوي خمسمائة مارك! سيضرب بُوزْكْهاوْزِن في وجهه، ذلك الكلب اللعين! ماذا يهمُّه في كْلُوْجِه؟ إنه يحتاج إلى كاتب البطاقات!

ثم -في أثناء جلوسه وتفكيره- يتغيَّر رأي المفتش إشيرِش في بُورْكْهاوْزِن. على أي حال ينهض ويتوجَّه إلى الخزينة. ويطلب صرف خمسمائة مارك له (تُسَوَّى لاحقًا)، ثم يعود إلى غرفته. أراد أن يذهب بسيارة الخدمة إلى محطة آنْزْباخِر مصطحبًا معه اثنين من العساكر، لكنه يعدِلُ عن رأيه، فهو لا يحتاج لا إلى أناس ولا إلى سيارة.

ربما لا يكون إشيرِش قد غير رأيه فقط بخصوص بُورْكْهاوْزِن، ربما شيءٌ قد خطر بباله أيضًا يخصُّ قضية إيْنُوْ كْلُوْجِه. على كل حال هو الآن يُخرج مسدس الخدمة من جيب سرواله، ويضع مكانه مسدسًا خفيفًا صُودِرَ قريبًا في إحدى المداهمات. ولقد جرَّبه من قبل، هذا الشيء الصغير ممتاز ويطلق الرصاص جيِّدًا.

«لنمضِ إذًا»؛ يقف المفتش على عتبة غرفته ويستدير مرة أخرى. شيء عجيب يحدث: يقدِّم -بدون أن يريد- تحية وداع لهذه الغرفة. «إلى اللقاء...»؛ شعور قاتم، إحساس ما يكاد يصيبه بالخزي، أنه لن يرى هذه الغرفة ثانية على الحال التي يغادرها فيها الآن. فهو حتى الآن موظف، يمسك بالناس، مثلما يبيع الآخرون طوابع البريد، بانتظام واجتهاد ووَفقًا للوائح.

لكنه عندما يعود غدًا صباحًا إلى هذه الغرفة، غالبًا لن يكون هو نفس الموظف. سيكون لديه شيء يمكن أن يُتَّهم به، شيء لن يتمكَّن من نسيانه. شيء ربما لن يعرفه سواه وهذا أسوأ: إنه يعرف، ولن يتمكَّن أبدًا من قول ما يعرف بحرِّيَّة.

وهكذا يُلقي إشيرِش التحية على غرفته ويمضي ويشعر بالخزي من هذه التحية. «سوف نرى»، يقول مُهدِّئًا روع نفسه. «يمكن أن تقع الأمور بشكل مغاير تمامًا، عليَّ أن أتحدَّث أولًا مع كْلُوْجِه».

استخدم مترو الأنفاق، وحينما وصل إلى شارع آنْزباخِر كان المساء قد حل.

- يمكنكَ أن تجعل رجلًا ينتظر! (غمغم بُورْكْهاوْزِن غاضبًا بمجرَّد أن رآه)

لم أتناول أي طعام طوال اليوم! هل أحضرتَ مالي سيدي المفتش؟

- صَهْ! (زمجر المفتش، ما اعتبره بُورْكْهاوْزِن موافقةً، فعاد قلبه يخفق بخِفَّة)

المال قريب المنال!

- إذًا أين يسكن هنا، ذاك الكْلُوْجِه؟ (سأله المفتش)

- لا أعرف! (أجاب بُورْكْهاوْزِن فورًا مستاءً، كي يسبق الاتهامات)

لا أستطيع أن أدخل إلى هذا البيت لأسأل عنه، وهو الذي يعرفني من قبل! كلا، لكنه ربما يسكن في بيت الحديقة، هذا أمر ستعلمه بنفسك يا سيدي المفتش. لقد أديتُ عملي وأريد الآن مالي.

لم يُلْقِ إشيرِش بالًا لهذا الكلام، وسأل بُورْكْهاوْزِن، لماذا يسكن إِيْنُوْ هنا في الغرب، وكيف تتبع هو أثره إلى هنا.

كان على بُورْكْهاوْزِن أن يخبر عن ذلك تفصيليًّا، والمفتش يدوِّن الملاحظات عن السيدة هِيْتِه هِيْبِرْلِه، ومحل بيع الحيوانات

الأليفة، ومشهد ركوعه عند قدميها.. هذه المرة يدوِّن المفتش كل شيء كاملًا. وبالطبع التقرير الذي يقدمه بُورْكْهاوْزِن ليس كاملًا، ويصعُب أن يُطْلَبَ إليهِ غير ذلك؛ لا أحد يستطيع أن يَطلُبَ إلى رجلٍ أن يعترف بسقوطه، لأنه عندما يخبر بُورْكْهاوْزِن كيف وصل إلى مال هِيْبِرْلِه سيكون عليه أن يُفصح كيف ضاع عليه، سيكون عليه أن يحكي عن ألفي بيضة تُحَوَّل الآن إلى ميونخ لحسابه. كلا! لا يستطيع أحد أن يطلب إليه ذلك!

لو أن إشيرِش في حال أفضل لاستنتج بعض التناقضات في تقرير جاسوسه. غير أن إشيرِش لا يزال منشغلًا داخليًّا وبقوةٍ بأمور أخرى، ويفضِّل لو أن يصرف هذا البُورْكْهاوْزِن بعيدًا.

لكنه لا يزال يحتاج إلى بعض الوقت، وهكذا يقول له: «انتظر هنا!». ويدخل إلى المنزل.

لكنه لا يدخل مباشرة إلى مبنى الحديقة، بل إلى مقرِّ الحارس في البيت الأمامي ويبدأ في التحريات. وبعد ذلك يدخل إلى بيت الحديقة مصحوبًا بالحارس ثم يبدأ في صعود السلم إلى الطابق الرابع ببطء.

لم يتمكَّن الحارس من تأكيد أن إيْنُوْ كْلُوْجِه هنا في البيت. فالحارس موجود فقط لخدمة السادة في البيت الأمامي، وليس للناس في مبنى الحديقة. لكنه بالطبع يعرف كل من يسكنون هناك، لأنه من يوزِّع عليهم بطاقات المواد الغذائية. يعرف بعضهم جيِّدًا والبعض الآخر بشكل أقل. هنا مثلًا السيدة آنًّا شُونْلايْن في الطابق الرابع، من المؤكد أنها تستطيع أن تستقبل رجلًا مثل هذا. هذه

يراقبها الحارس في كل الأحوال، ودائمًا ما يبيت لديها كل أشكال البشر، وسكرتير البريد في الطابق الثالث يَدَّعِي بحسم وثبات أنها تسمَعُ ليلًا قنوات أجنبية. لكن السكرتير لا يستطيع أن يُقسِم على ذلك، فقط كان مستعدًا لمواصلة التنصُّت. أجل، هذا الحارس أراد ذات مرة أن يتحدَّث مع بلُوكفَالْتَرْ بشأن هذه الشُونْلايْن، لكن من الجيد أنه يُنبِئ المفتش بشأنها الآن. عليه أن يجرِّب أولًا بهدوء عند شُونْلايْن، وحينما يتَّضح أن الرجل ليس عندها، يمكن أن يسأل في الطوابق الأخرى. لكن في العموم لا يسكن هنا إلا أناس محترمون، حتى في الخلف في مبنى الحديقة.

- ها هو ذا! (همس الحارس)

- ابق واقفًا هنا حتى يَرَوْكَ عبر العين السحرية. (همس المفتش بالردِّ)

قُلْ أي شيء كَسَبَبٍ لحضورك، مثل عَلْفِ الخنازير لهيئة رعاية الشعب النازي أو معونة الشتاء.

- تم! (قال الحارس ورن الجرس)

لوهلة لا ينجح الأمر. يرن الحارس مرة ثانية وثالثة. لكن تظل الشقة غارقة في السكون.

- أليست في البيت؟ (همس المفتش)

- لا أعلم بحق! (قال الحارس)

لم أَرَ شُونْلايْن اليوم في الشارع.

ثم رنَّ مرة رابعة.

وبشكل مفاجئ تمامًا انفتح الباب، لم يسمع أيٌّ منهما أي صوت من الشقة. وقفت أمامهما سيدة طويلة نحيلة، ترتدي سروال تمرين حَالَ لونُه، وعليه بلوفر أصفر كناري اللون ذو أزرار حمراء. وجهها نحيل وحاد عليه بقع حمراء، بقع حمراء مثل التي تظهر على المصابين بالسُّلِ. أيضًا عيناها تلمعان لمعانَ الحمى.

- ما الأمر؟

سألت بإيجاز ولم تندَّ عنها أي إيماءة ذعر، حينما اقترب المفتش من الباب ووقف بحيث لا يمكن إغلاقه.

- أريد أن أتحدَّث معكِ قليلًا يا آنسة شُونْلايْن. أنا المفتش إشيرِش من شرطة أمن الدولة (الجيستابو).

ومرة أخرى لم تصب بالذعر. ظلت تنظر إليه بعينيها المحمرتين من الحمى. ثم قالت في عجالة:

- تفضل! (ثم تقدمته إلى الشقة)

- ابقَ هنا على الباب.. (همس المفتش للحارس)

وإن أراد أي أحد الدخول أو الخروج فَلتُنادِني!

يدخل المفتش إلى غرفة متربة تحوي قطع أثاث عتيقة للغاية، ذات أعمدة ودوائر من زمن الأجداد. الستائر من المخمل. ثمة حامل رُسِم عليه لوحة رجل ذي لحية كبيرة، صورة مكبرة ملونة. ثمة رائحة دخان سجائر عالقة في الهواء، وأعقاب سجائر في المنفضة.

- ما الأمر؟ (سألت الآنسة شُونْلايْن مرة أخرى)

ظلت واقفة بجوار الطاولة، ولم تَدْعُ المفتش إلى الجلوس.

لكن المفتش جلس رغم ذلك، وسحب علبة سجائر من جيبه مشيرا -في أثناء ذلك- إلى الصورة.

- من هذا؟ (سأل)

- أبي. (قالت الآنسة. وسألت من جديد)

ما الأمر؟

- أريد أن أسألكِ عن عدة أشياء يا آنسة شُونْلايْن.

قال المفتش وأمسك لها بالسجائر: لكن تفضلي بالجلوس واسحبي سيجارة!

قالت السيدة في عجالة: لا أدخن أبدًا!

- واحد، اثنان، ثلاثة، أربعة... (يعدُّ المفتش أعقاب السجائر في المنفضة)

ورائحة تبغ في الغرفة. هل عندك زائر يا آنسة شُونْلايْن؟

نظرت في عينيه بلا خوف أو ذعر:

- لا أعترف أبدًا أني أدخن. لأن الطبيب منعني من التدخين بسبب حال الرئتين.

- يعني لا زائر لديك؟

- يعني لا زائر لديَّ.

- أريد أن أرى شقتك سريعًا! (أوضح المفتش ونهض)

لا لو سمحتِ، لا تجهدي نفسك؛ سأجد طريقي بنفسي.

ذهب بسرعة إلى الغرفتين الأخريين، الممتلئتين بالأرائك، والكراسي، والأعمدة، والدواليب. وقف فجأةً وتسمَّع، وأدار وجهه

نحو دولاب. ثم عاد إلى الآنسة شُونْلايْن. كانت لا تزال واقفة إلى جوار الطاولة مثلما تركها.

قال وهو يجلس مرة أخرى:

- أُبلِغتُ بأنك تستقبلين كثيرًا من الزيارات، زيارات تبيتُ عندك لأكثر من ليلتين ولا تُسَجَّل أبدًا. ألا تعرفين القوانين الخاصَّة بالتسجيل الإلزامي؟

- زُوَّاري هم إما أبناء أخي وإما أبناء أختي، لا يبقون لديَّ لأكثر من ليلتين. أعتقد أن التسجيل الإلزامي يبدأ من الليلة الرابعة.

- لا بد أن لديك عائلة كبيرة جدًّا يا آنسة شُونْلايْن! (قال المفتش متأمِّلًا)

تقريبًا كل ليلة يبيت عندك شخصان وأحيانًا ثلاثة أشخاص.

- هذا تصوُّر مبالغ فيه للغاية. كما أن عائلتي كبيرة فعلًا، ستة أخوة وأخوات كلهم متزوجون ولديهم كثير من الأبناء.

- أبناء إخوتك وأخواتك؛ رجال ونساء كبار محترمون هكذا!

- يزورُني بالطبع أيضًا آباؤهم من حين إلى آخر.

- يا لها من عائلة كبيرة محبة للسفر! بالمناسبة.. الأمر الذي أردت أن أسألك عنه.. أين تضعين جهاز الراديو الخاص بك يا آنسة شُونْلايْن؟ أنا لم أَرَه.

ضغطت على شفتيها: لا جهاز راديو لديَّ.

- بالتأكيد! (قال المفتش)

بالتأكيد. بالطبع بنفس طريقة عدم اعترافك بتدخين السجائر. لكن موسيقا الراديو ليست مضرَّة بالرئة!

- لكن الموقف السياسي.. (أجابت بنبرة ساخرة بعض الشيء)

لا، لا راديو لديَّ. لو أنَّ موسيقا تُسمع من شقتي فهي صادرة عن جهاز جرامافون، هناك وراءك على الرف.

- ويتحدَّث هذا بلغات أجنبية؟! (أكمل المفتش)

- عندي كثير من أسطوانات الرقص الأجنبية. لا أعتبر أن هذه جريمة أن أشغل أسطواناتي هذه من آنٍ إلى آخر لزُوَّاري رغم الحرب الدائرة الآن.

- أبناءَ إخوتك وأخواتك؟ كلا، ليست هذه جريمة حقًّا.

نهض واضعًا يديه في جيوبه. فجأةً لم يعد يتحدَّث بسخرية، بل قال بوحشية:

- ما رأيك؟ ماذا يحدث لو أنني أخذتك الآن يا آنسة شُونْلايْن، ووضعت لك حارسًا سريًّا في شقتك؟ سيكون في استقبال زوارك ليدقِّق في أوراق أبناء إخوتك وأخواتك. ربما حتى يجلب أحدُهم جهاز راديو معه! ما رأيك؟

- أرى. (قالت السيدة شُونْلايْن بلا ذعر)

لو أن لديك من البداية نيَّةً أن تقبض عليَّ، سيكون سواءً كلُّ ما أقول. هيا بنا! لكن هلَّا تركتني أرتدي فستانًا سريعًا بدلًا من سروال التمرين هذا؟

- لحظة من فضلك يا آنسة شُونْلايْن! (صاح المفتش وراءها)

وقفت واستدارت نحوه، يدها على المقبض.

- انتظري لحظة! بالطبع صحيح ما تقولين، لكن هذا حين تُفرِجي عن الرجل المختبئ في الدولاب قبل أن نذهب. فقبل قليل حين دخلتُ إلى غرفة نومك بَدَا أنه يعاني الاختناق. وغالبًا سيحدث له ذلك لو أن بودرةً للعثة في الدولاب...

الآن اختفت البقع الحمراء من وجهها، وحدقت إليه بشحوب تام.

هزَّ رأسه:

- أطفال! أطفال! (قال باستياء ساخر)

كم تسهلون الأمر علينا! وتريدون أن تكونوا متآمرين؟ تريدون أن تدبِّروا شيئًا ضد هذه الدولة بألاعيبكم الصبيانية؟ لا تضرون إلا أنفسكم!

لا تزال تحدق إليه، فمها مغلق بإحكام، عيناها تشعان من الحمى ولا تزال يدها موضوعة على المقبض.

- من حسن حظك، يا آنسة شُونْلايْن.. (واصل المفتش حديثه بنبرة متعالية محتقِرة)

في هذا الصدد، فأنا غير مهتم بكِ اليوم على الإطلاق. ما يهمُّني هو السيد المختبئ في دولابك. من الممكن حينما أبحث بدقة في مكتبي أن أشعر بأنه واجبي أن أحرِّر ضدك بلاغًا. من الممكن أقول. لكن لا أعرف بعدُ. ربما يظهر لي أن حالتك.. بالنظر إلى مرض رئتيك...

وفجأةً اندفع الكلام منها:

- لا أريد رحمةً منكم! أكره تعاطفكم! حالتي لا تهمُّ! حسن، لطالما وفرتُ مأوًى للمضطهدين السياسيين! وسمعت القنوات الأجنبية! والآن أنت تعرف كل شيء! والآن لن تستطيع أن تمنحنى عفوًا رغم حالة رئتي!

- يا فتاة!

قال بنبرة ساخرة، ونظر بما يشبه التعاطف إلى المظهر العجيب لتلك العذراء المُسِنَّة في سروال التدريب والكنزة الصفراء ذات الأزرار الحمراء:

- يبدو أنه ليست رئتك وحدها التي تعاني، وإنما أعصابك كذلك! نصف ساعة من التحقيق عندنا وستُدهشين عندما تَرَينَ جسدك تحوَّل إلى كومة قذرة من الصراخ والنحيب! إنه أمر مزعج للغاية أن يكتشف الواحد ذلك في نفسه، فتلك الإهانة للذات لا يتجاوزها البعض أبدًا وتظلُّ تَجُرُّهم في ركابها.

حدَّق إليها مرة أخرى ثم أومأ بتفكر. قال: وتدَّعون أنكم متآمِرون! جفلت كأنها تلقَّت ضربة من سوط، لكنها لم تنبس بكلمة.

- لكن سننسى بسبب حوارنا اللطيف هذا زائرك في الدولاب! (واصل الكلام)

تعالي يا سيدة شُونْلايْن! لو لم نُحرِّره الآن لَقَضَى.

كان قد شارف إِيْنُوْ كْلُوْجِه على الاختناق، عندما أخرجه إشيرِش من الدولاب. وضع المفتش الرجل القصير على الشيزلونج وحرَّك ذراعيه عدة مرات إلى أعلى وأسفل كي يدخل الهواء إلى رئتيه.

- والآن.. (قال ناظرًا إلى المرأة، التي وقفت في الغرفة بلا كلام)

والآن يا آنسة شُونْلايْن اتركيني في الغرفة لربع ساعة مع السيد كْلُوْجِه. الأفضل أن تجلسي في المطبخ، فَمِنْه لا يستطيع الواحد أن يتنصَّت.

- لا أتنصَّت أبدًا!

- بالطبع، مثلما أنك لا تدخنين أبدًا وفقط تستقبلين أبناء إخوتك وأخواتك وتُسمعينهم موسيقا على الأسطوانات! لا، الأفضل أن تجلسي في المطبخ. سأناديكِ حينما أحتاج إليكِ!

أومأ إليها مرة أخرى وأقنع نفسه أنها بالفعل ذهبت إلى المطبخ. ثم استدار نحو السيد كْلُوْجِه الذي يجلس الآن على الأريكة محدقًا بذعر بعينيه اللتين بلا لون إلى وجه المفتش. وكانت الدموع قد بدأت بالفعل في الانسياب على وجهه.

- لا لا يا سيد كْلُوْجِه! (قال المفتش مُهدِّئًا)

أبهذا تُظهر فرحك بمعاودة لقاء المفتش العجوز إشيرِش؟ هل اشتقت إلَيَّ؟ في الحقيقة أنا أيضًا اشتقت إليك وسعيد أني وجدتك ثانية. والآن لن يحُوْل بيننا شيء يا عزيزي السيد كْلُوْجِه!

تحوَّلت دموع إِيْنُوْ إلى سيول، كان ينتحبُ ويقول متعجِّلًا:

- آه يا سيدي المفتش، لقد وعدتني وعدًا مغلَّظًا أن تطلق سراحي!

- أولم أطلق سراحك؟ (سأل المفتش مدهوشًا)

لكن هذا لا يمنع أن أقبض عليك ثانية حينما أشتاق إليك. ربما يكون لديَّ محضر جديد يحتاج إلى توقيع، أو شيء من هذا القبيل، يا سيد كْلُوْجِه؟ وأنت بوصفك صديقي الطيب لن تمنع عني معروفًا كهذا، أليس كذلك؟

ارتجف إيْنُوْ من نظرات المفتش القاسية المسدَّدة نحوه من عينيه الساخرتين. كان يعرف أن هاتين العينين تستطيعان سحب أي شيء منه، سيثرثر بكل شيء ويضيع إلى الأبد، في أيِّ طريق.

32

إشيرش وكلوجه يذهبان للنزهة

كان الليل قد أرخى سُدولَه لما خرج المفتش إشيرِش وإيْنُوْ كْلُوْجِه من بيت الحديقة في شارع آنْزْباخِر. كلا، فرغم مرض رئتها لم يتمكَّن المفتش من حسم أمره في أن يعتبر قضية الآنسة آنَّا شُونْلايْن تافهة. هذه العذراء المسنَّة يبدو أنها تستقبل أيَ مجرم بلا تفريق وبدون أن تعرف حكايته. لم تسأل إيْنُوْ كْلُوْجِه مثلًا حتى عن اسمه، خبَّأته لمجرد أن صديقة جرَّته إليها.

هو أيضًا يحب أن يرى تلك السيدة هِيْبِرْلِه مِن قُرب. يا لهذا الشعب النكد! الآن، وفيما أعظم الملوك يُقاد إلى مستقبله التعس، ورغم ذلك.. فكل شيء مثير للذعر. وحيثما تَشَمَّمْنا وجدنا رائحة العطن. لقد كان المفتش إشيرِش مقتنعًا بأنه في كل بيت ألماني -تقريبًا- سيجد هذه الأسرار والأكاذيب. تقريبًا لا أحد يملك ضميرًا نقيًّا؛ باستثناء أعضاء الحزب بالطبع. وبالمناسبة، عليه أن يحمي نفسه من أن يُجري تفتيشًا لدى أيٍّ من أعضاء الحزب مثل الذي أجراه في بيت شُونْلايْن.

والآن، وضع الحارس رقيبًا على الشقة. إذ بدا أنه غلام يمكن الوثوق به، كما أنه عضو في الحزب؛ عليه أن يسعى كي يحصل له على وظيفة ذات راتب جيد، فهذا يسعد هؤلاء الناس ويزيد من حدة أسماعهم وأبصارهم. إن الثواب والعقاب أفضل وسيلة للحكم.

توجَّه المفتش ممسكًا إيْنُوْ كْلُوْجِه تحت ذراعه نحو العمود الذي يختبِئ وراءه بُورْكْهاوْزِن. لا يريد بُورْكْهاوْزِن على الإطلاق أن يراه زميله السابق؛ يحاول أن يدور حول العمود متحاشيًا نظراته. غير أن المفتش الذي يغير اتجاهه يمسك به، ويرى إيمِيلْ وإيْنُوْ بعضهما بعضًا.

- مساء الخير إيْنُوْ! (يقول بُورْكْهاوْزِن مادًّا يده)

لكن كْلُوْجِه لا يأخذها. بعض الاستياء يتنامى داخل هذا المخلوق الشاكي. إنه يكره هذا البُورْكْهاوْزِن الذي أقنعه باقتحام شقة، لم يَنَلْ من ورائه سوى الركلات، واستخلص لنفسه آلاف الماركات صباح اليوم، ورغم ذلك وَشَى به الآن.

- سيدي المفتش.. (قال كْلُوْجِه بحماسة)

هل أخبرك هذا البُورْكْهاوْزِن أنه ضغط على صديقتي السيدة هِيْبِرْلِه صباح اليوم واعتصر منها ألفين وخمسمائة مارك؟ وقد فعل ذلك مقابل ألا يشِيَ بي، وها هو الآن...

كان المفتش قد أراد بُورْكْهاوْزِن من أجل أن يعطيه ماله ثم يرسله إلى بيته. لكنه الآن يترك المال في جيبه ويستمع منتشيًا كيف بُورْكْهاوْزِن يردُّ بخشونة:

- أولم أتركك تهرب يا إيْنُوْ؟ ولو أنك يا بغل تدعنا نمسك بك ثانية فما شأني وهذا؟ لقد وفيتُ بوعدي.

قال المفتش:

- سوف نتسامر حول ذلك ذات يوم يا بُورْكْهاوْزِن. والآن انصرف إلى بيتك.

- ولكن أولًا أريد مالي يا سيدي المفتش! (طالب بُورْكْهاوْزِن) لقد وعدتني بخمسمائة بيضة إن سلَّمت إيْنُوْ. والآن هو في قبضة يدك، والآن تدفع لي!

- لن تتقاضى مالًا مرتين مقابل نفس الشيء يا بُورْكْهاوْزِن! (صوَّبه المفتش)

ما دمتَ حصلت على ألفين وخمسمائة مارك!

- لكن المال ليس معي على الإطلاق!

اعترض بُورْكْهاوْزِن الذي عاوده الإحباط بصوت يكاد يصرخ:

- لقد أجَّلَت إرساله إلى ميونخ كي تصرفني من طريقه!

- امرأة ذكية! (قال المفتش مادحًا)

أم كانت تلك فكرتك يا سيد كْلُوْجِه؟

- إنه يكذب مجدَّدًا! (صرخ إيْنُوْ في مرارة)

فقط ألفا مارك أُرسِلَت إلى ميونخ. وخمسمائة، وأكثر من خمسمائة حصل عليها نقدًا. فقط فتِّش جيوبه، سيدي المفتش!

- لقد سُرِقَت مني! لقد داهمتني عصابة من الصبية وسرقت المال كله! يمكنك أن تقلبني من فوقي لتحتي يا سيدي المفتش، لن تجد معي سوى بضعة ماركات كانت معي في الصديري على سبيل المصادفة!

- لا يمكن أن نأتمن أي قدر من المال لديك يا بُورْكْهاوْزِن! (قال المفتش هازًّا رأسه)

لا تستطيع التعامل مع المال. أن تسمح لعصابة من الصبية بسرقتك.. ما هذا يا رجل؟!

شرع بُوزْكْهاوْزِن يستجدي من جديد، يطالب، ويحاول الإقناع، لكن المفتش أمره، إذ وصلوا الآن إلى ميدان فيكتوريا_لويزه:

- الآن تذهب إلى بيتك يا بُوزْكْهاوْزِن!
- سيدي المفتش، لقد وعدتني وعدًا مغلظًا...
- وإن لم تختفِ الآن وفورًا في النفق سأسلمك إلى رجل الشرطة! وسيعتقلك بتهمة الابتزاز.

وبهذه الكلمات توجَّه المفتش إلى رجل الشرطة، وبُوزْكْهاوْزِن، الغاضب، هذا المجرم بالتمني، الذي دائمًا ما يُسلبُ النَّصرَ قبل المكسب بقليل، اختفى من ميدان فيكتوريا_لويزه: «انتظِر فقط يا كونو_ديتر، فقط حين أصل إلى البيت!».

تحدَّث المفتش مع الشرطي، عرَّفه بنفسه وكلَّفه بالقبض على الآنسة آنَّا شُونْلايْن، لكن عليه مراقبتها ليحدِّد السبب:

- لنقل بسبب الاستماع إلى قنوات معادية. لكن رجاء، لا أحد يستجوبها، وفي الغد يأتي واحد من رجالنا ويأخذ تلك الشمطاء. عِمتَ مساء أيها الحارس!
- هايْلْ هتلر! سيدي المفتش!
- أجل! (يقول المفتش في شارع موتس سائرًا في اتجاه ميدان نولليندورف)

ماذا نفعل الآن؟ أنا جائع، هذا موعد طعامي. أتَعلمُ؟ سأدعوك إلى العشاء. لن تتعجل أن تكون معنا في الجيستابو. أخشى أن الطعام لدينا ينقصه الكثير، والناس لدينا كثيرو النسيان، أحيانًا يمرُّ يومان أوثلاثة بدون أن يحضروا أي شيء. ولا حتى مياه. تنظيم سيِّئ. حسنًا، ما رأيك يا سيد كْلُوْجِه؟

بمثل هذا المزاح سحب المفتش كْلُوْجِه المشوش تمامًا إلى حانة صغيرة، بدا أنه معروف فيها. المفتش سخيٌّ، لا يوجد أكل متنوع ممتاز ونبيذ ومزَّات فقط، بل أيضًا حبوب قهوة، وكيك وسجائر. وفي هذا يعلن إشيرِش بلا خجل:

- لا تفكر أني سأدفع ذلك يا كْلُوْجِه! هذا كله على حساب بُوزْكْهاوْزِن. هذا أدفعه من المال الذي كان ينبغي أن يحصل عليه. أليس جميلًا أن ينالَك نصيب من المكافأة المخصصة للقبض عليك؟ يا لها من عدالة ناجزة!

يتحدَّث المفتش ويتحدَّث، ربما لم يكن متفوقًا هكذا كما يُظهر. لقد أكل قليلًا وشرب كثيرًا وبسرعة. ربما داخله قلق، الرجل متوتِّر بطريقة لم يعتَدها. أحيانًا يلعب بكُرات الخبز، ثم يتوجَّه سريعًا نحو الجيب الذي يضع فيه المسدس فيما يلقي نظرة عجلة على كْلُوْجِه.

أما إيْنُوْ فكان يجلس بدون أن يشارك في أيٍّ من ذلك. أكل بهمَّة لكنه بالكاد تناول شرابًا. لا يزال متوتِّرًا تمامًا، ولا يقدر أن يحسم أمره بخصوص المفتش. هل هو معتَقَل هكذا، أم ليس معتقلًا؟ إيْنُوْ لا يفهم شيئًا.

وهذا ما يوضحه إشيرِش الآن:

- ها أنت ذا تجلس يا سيد كْلُوْجِه وتتعجب لأمري، لقد خدعتُك بالطبع. جوعي لم يكن شديدًا لهذه الدرجة، أريد فقط أن أقتل الوقت إلى ما بعد العاشرة، إذ يتعيَّن علينا أن نذهب في نزهة قصيرة، وسيتَّضح حينها ما سأفعل بك. أجل، هذا ما سيتضح.

أخذ المفتش يتحدَّث بخفوت وتأمُّل وبطء، وإيْنُوْ كْلُوْجِه يلقي عليه نظرة مرتابة. ثمة حيلة شيطانية جديدة وراء نزهة العاشرة مساء. لكن ترى ما هي؟ وكيف يمكن أن يفلت منها؟ إشيرِش يراقبه مثل الشيطان، فكْلُوْجِه غير مسموح له حتى بالذهاب إلى الحمام منفردًا.

يستأنف المفتش:

- المسألة هي أنني أتواصل مع رجلي بعد العاشرة. فهو يقطن خارجًا في شلاختنزيه، هل تفهم يا سيد كْلُوْجِه؟ هذا ما أسميه نزهة صغيرة.
- وما شأني وذلك؟ هل أعرف ذلك الرجل؟ أنا لا أعرف أي أحد في شلاختنزيه! لطالما سكنت حول فْرِيدْرِيشسهاين...
- أعتقد أنك تعرفه بالفعل. أريد أن تراه لمرة.
- وعندما أراه، ويتَّضح أني لا أعرفه، ما الحال وقتها؟ ماذا سيحدث لي؟

ندت عن المفتش حركة لا مبالية:

- سيتضح الأمر. أظن أنك ستعرف الرجل.

صمت كلاهما. ثم سأل إيْنُوْ كْلُوْجِه:

- هل للأمر علاقة بقصة البطاقة اللعينة؟ أتمنَّى، لو أنني ما وقَّعت على ذلك المحضر قطُّ. لم يكن ينبغي أن أصنع من أجلكم ذلك الصنيع، سيدي المفتش.

- حقًّا؟ أعتقد على الأرجح أن الحقَّ معك، بالنسبة إليكَ وبالنسبة إليَّ كان الأمر أفضل لو أنك لم توقَع يا سيد كْلُوْجِه!

حدَّق إلى غريمه بنظرة بالغة القتامة لدرجة أن إيْنُوْ كْلُوْجِه أصيب بالذعر مجدَّدًا. لاحظ المفتش ذلك. فقال مُهدِّئًا:

- لا لا.. سنرى. فلنشرب الخمر أولًا ثم ننطلق. أريد أن أركب القطار الأخير في هذه المدينة.

حدَّق كْلُوْجِه فيه مذعورًا:

- وأنا؟ (سأل بشفتين مرتجفتين)

هل سأبقى في الخارج؟

- أنتَ؟! (ضحك المفتش)

ستركب معي بالطبع يا سيد كْلُوْجِه! لماذا تحدق إليَّ بكل هذا الذعر؟ لم أقل شيئًا يدفعك إلى الرعب هكذا. بالطبع سنعود معًا إلى المدينة. ها هو ذا النادل قد أتى بالخمر. أيها النادل انتظر، سنعيد لك أقداحنا على الفور.

وبعد ذلك بقليل كانا في طريقهما إلى محطة تْسُو (حديقة الحيوانات). ثم ركبَا التِّرام، وحينما نَزَلا في شلاختينزيه، كان الليل قد خيَّم لدرجة أنهما وقَفَا على المحطة لبعض الوقت حائرَيْنِ. وبسبب الظلام لم يَرَيَا أي شيء.

- في هذه العَتَمَة لن نجد طريقنا أبدًا! (قال كْلُوْجِه خائفًا)

سيدي المفتش من فضلك دعنا نعد أدراجنا! من فضلك! أفضل قضاء الليل جالسًا لديكم في الجيستابو بدلًا من...

- توقف عن هذا الهراء يا كْلُوْجِه!

قاطعه المفتش بخشونة وسحب الأخرق من ذراعه بقوة:

- هل تعتقد أني أرتحل لنصف الليلة من أجل أن أتنزَّه معك، ثم أعود أدراجي قبل الوصول إلى الهدف بربع ساعة؟ (ثم واصل بصوت أرق)

أستطيع أن أرى بشكل جيد الآن. علينا أن نأخذ ذلك الطريق الجانبي، وبذلك نصل أسرع إلى البحيرة.

مضيا صامتين، وكلاهما يتحسس بقدميه إن كان ثمة عقباتٌ لا يريانها.

وبعدما قطعا مسافة بَدَا أن الهواء أمامهما صار أخف.

- أترى يا سيد كْلُوْجِه؟ (سأل المفتش)

كنت أعرف أنه ينبغي أن أثق بحاستي للمكان. ها هي ذي البحيرة!

صمت كْلُوْجِه، وواصَلا طريقهما صامتين.

كانت ليلة هدأت فيها الريح، كل شيء هادئ. لم يقابلهما أي إنسان. المياه الساكنة للبحيرة، التي استشعراها أكثر مما رأياها، وبَدَا لون رمادي مضيء منبعث من البحيرة كأنها تعكس أخفَتَ إضاءة لآخِرِ شعاعِ نهارٍ انقضى.

تنحنح المفتش كأنَّه يريد أن يتكلَّم لكنه واصل الصمت.

فجأةً توقف إِيْنُوْ كْلُوْجِه. وبضربةٍ حرَّر ذراعه من مُرافقه. وصاح وهو يصرخ:

- لن أخطو خطوة واحدة الآن! إن كنتَ تريد أن تفعل بي شيئًا فلتفعله هنا والآن لا بعد ربع ساعة! لا أحد سيأتي لمساعدتي! لا بد أن الليل قد انتصف!

كأنما لتُؤكِّدَ هذه الكلمات، شرعت ساعةٌ في الدَّقِّ. جاءت دقاتها مفاجئة وقريبة عبر الليل البهيم. وبتلقائية عد الرجلان الدقات معها.

- الحادية عشرة! (قال المفتش)

الساعة الحادية عشرة. ما تزال ساعة حتى منتصف الليل. تعال يا سيد كْلُوْجِه، سنسير خمس دقائق فقط.

ومرة أخرى أمسك بذراعه.

لكن كْلُوْجِه حرَّر نفسه بقوة مفاجئة:

- لقد قلت، لن أخطو خطوة واحدة إلى الأمام، ولن أخطو خطوة واحدة إلى الأمام!

كان صوته يتهدَّج من الخوف، ولهذا شرع في الصراخ. فطار طائر مائي مذعورًا على المنحدر وضرب بجناحيه بقوة قبل أن يبتعد.

- توقف عن الصراخ هكذا! (قال المفتش بغضب)

سوف تثير التمرُّد في البحيرة كلها!

ثم تفكَّر:

- حسنٌ. اهدأ لبعض الوقت وتعقَّل. هل تريد أن نجلس هنا؟

ومرةً أخرى أمسك بذراع كْلُوْجِه؛ ضرب إِيْنُوْ اليد التي تحاول الإمساك به:

- لن أدعك تلمسني! افعل بي ما تشاء، لكن لا تمسك بي!

قال المفتش بحدة:

- ليست هذه هي النبرة التي يتحدَّث بها الناس معي يا كْلُوْجِه! ما تكون أنت إذًا؟ كلب جبان، ضئيل، قذر!

بدأت أعصاب المفتش تنفلت أيضًا.

مكتبة ياسمين
telegram @
yasmeenbook

- وأنتَ؟ (صرخ كْلُوْجِه ثانية)

ما تكون أنت؟ أنت قاتل، قاتل حقير!

ثم ارتعب مما تلفظ به وغمغم:

- آه اعذرني يا سيدي المفتش، لم أعنِ ذلك بهذه الطريقة!

- إنها الأعصاب. عليك أن تعيش حياة أخرى يا كْلُوْجِه، أعصابك لا تتحمَّل هذه الحياة. لنجلس هناك عند رصيف المراكب. لا تخش شيئًا. لن أمسكك ثانية ما دمتَ خائفًا إلى هذا الحد مني.

ذهَبَا نحو الرصيف. طقطق الخشب بمجرد أن خَطَوَا عليه.

- بضع خطوات أخرى! (شجَّعه إشيرِش)

الأفضل أن نجلس في المقدمة، كم أحب أن أجلس على شيء كهذا، ولا شيء حولي إلا الماء!

لكن مرة أخرى مانَعَ كْلُوْجِه. هو -الذي أظهر للتوِّ ما يشبه بعض الشجاعة الحاسمة- بدأ يغمغم فجأةً:

- لن أخطوَ خطوة واحدة! فلترحمْني أرجوك يا سيدي المفتش! لا تُغرقني! لا أستطيع السباحة، أقولها لك الآن! كنت دائمًا أعاني الخوف من الماء! سأوقّع كل محضر تريدني أن أوقِّعه! الغوث! الغوث!

أمسك المفتش بالرجل الضئيل حتى حمله إلى آخر اللسان المائي. ضغط وجهَ إِيْنُوْ على صدره بقوة إلى درجة أن إِيْنُوْ لم يستطع أن يواصل الصياح. وهكذا حمله حتى نهاية الرصيف وأمسك به قريبًا من الماء.

- إن صرختَ مرة أخرى أيها الكلب فسألقي بك في الماء!

ندت زفرة منتحبة عن حلق إِيْنُوْ «لن أصرخ» قال هامسًا:

- آهٍ ما دمنا هنا، فلتلقِ بي! لا أتحمل المزيد...

أجلسه المفتش على الرصيف وجلس إلى جواره:

- وهكذا، بعدما رأيتَ الآن أنني أستطيع أن ألقي بك في البحيرة ولن أفعلها رغم ذلك، ستفهم أنني لست قاتلًا، أليس كذلك يا كْلُوْجِه؟

غمغم كْلُوْجِه بشيء غير مفهوم. واصطكت أسنانه بصوت مرتفع.

- والآن، فلتنصت إليّ جيّدًا. فعندي ما أقول لك. بالنسبة إلى الرجل الذي ينبغي أن تتعرف عليه هنا في شلاختنزيه، فهذه خدعة بالطبع.

- ولكن لماذا؟

- انتظر. أعرِف أيضًا أنه لا شأن لك بكاتب البطاقات، لقد اعتقدتُ أن المحضر سيكون مقبولًا، وسأظهر أمام رؤسائي بأني على الأقل أتعقَّب أثرًا ما إلى أن أقبض على الفاعل الحقيقي. لكنه لم يكن مقبولًا. إنهم يريدون الآن الإمساك بك يا كْلُوْجِه، السادة الكبار في الجيستابو، ويريدون أن يستجوبوك على طريقتهم. وهم يصدِّقون المحضر ويعتبرونك كاتب البطاقة أو واحدًا من موزعيها. وسيعملون على استخراج هذه المعلومة منك بطرقهم في الاستجواب، سيبتزونك، ويعتصرونك مثل الليمونة، ثم يضربونك حتى الموت أو يوقفونك أمام محكمة الشعب وهذه ستقضي عليك أيضًا بنفس الطريقة، فقط ستطيل أمد العذاب بضعة أسابيع إضافية.

توقَّف المفتش عن الكلام فيما إيْنُوْ الممتلئ بالذعر صار يلتصق مرتجفًا بذاك الذي كان يدعوه للتو «قاتلًا» كأنَّه يبحث عن المساعدة لديه.

- أنت تعلم، لم أكن أنا الفاعل! (تهته إيْنُوْ)

أقسم لك! لا يمكنك أن تسلمني إلى أولئك الناس، لن أتحمَّل ذلك، سأصرخ...

- بالتأكيد ستصرخ! (أكد المفتش بلا مبالاة)

بالتأكيد ستفعل ذلك. لكن هذا لن يقلقهم في شيء. بل سيزيد إحساسهم بالمتعة. تعرف يا كْلُوْجِه هؤلاء سيجلسونك على كرسي ويوجهون كشافًا حادًّا للغاية نحو وجهك، وعليك أن تحدِّق إلى الضوء وسوف تذوي من الحرارة والضوء الباهر. وفي أثناء ذلك

سيسألونك ساعات وساعات يستجوبونك، سيسلمك واحد إلى آخر، لكن لن يفلتك أحد مهما كنت متعبًا. وعندما تسقط من الإنهاك سيُفِيقونَكَ بالركلات وضربات السوط، وسيجعلونك تشرب ماء مالحًا، وعندما يستنفدون كل الوسائل سيكسرون عظام أصابعك واحدًا بعد الآخر. وسيصبون الأحماض على أقدامك...

- توقف، آه من فضلك توقف، لا أستطيع أن أسمع هذا...

- لن تسمع هذا فقط، سوف تتحمَّله يا كُلُوْجِه، يومًا، اثنين، ثلاثة، خمسة أيام.. باستمرار، ليلًا ونهارًا، وسيَدَعونك تتضوَّر جوعًا إلى أن تنكمش معدتك وتصير مثل حبة الفول، وستجد نفسك تموت من الآلام الداخلية والخارجية. فهم لا يتركون الواحد بسهولة بعد أن يقع في قبضتهم. وإنما سيـ...

- لا لا لا! (صرخ إِيْنُوْ الضئيل وأغلق أذنيه)

لا أريد أن أسمع المزيد! ولا كلمة زيادة! الأفضل أن أموت فورًا!

- أجل، هذا ما أفكِر فيه أيضًا! (أكد المفتش)

الأفضل أن تموت فورًا.

ولبعض الوقت ساد صمت ثقيل بين الاثنين. ثم فجأةً قال إِيْنُوْ الضئيل مرتجفا:

- لكني لن أمضي إلى الماء...

- لا، لا.. (رد المفتش بطيبة)

لا تفعل ذلك يا كْلُوْجِه. انظر، لقد أحضرت لك هنا شيئًا آخر، فقط انظر، مسدس صغير جميل. ليس عليك إلا أن تضغط على الزناد، لا تخف، سأمسك بيدك كي لا ترتجف، ثم تحني إصبعك الصغير بعض الشيء.. لن تشعر بأي ألم، فجأةً سترحل عن كل هذه العذابات والملاحقات وستحصل أخيرًا على الراحة والسلام.

- والحرية! (قال إيْنُوْ كْلُوْجِه متفكِّرًا)

هذا هو الأمر بالضبط سيدي المفتش، مثلما أقنعتني آنذاك بالتوقيع على المحضر، آنذاك وعدتني بالحرية. هل سيتحقّق الأمر هذه المرة؟ ماذا ترى؟

- بالطبع يا كْلُوْجِه. هذه هي الحرية الحقيقيَّة الوحيدة التي ينبغي أن ننشغل بها كبشر. فهناك لن أستطيع أن أمسك بك مرة أخرى ولا أن أخيفك من جديد ولا أن أعذبك. لا أحد بوسعه أن يفعل ذلك. وستضحك علينا جميعًا.

- وماذا سيحدث بعد ذلك، بعد الراحة والحرية؟ هل سيكون شيءٌ بعد ذلك؟ ماذا تعتقد؟

- لا أعتقد أن شيئًا بعد ذلك، لا محاكمة ولا نار. فقط راحة وحرية.

- ولم إذًا عشت؟ لم كان عليَّ أن أتحمل كثيرًا هنا؟ لم أفعل شيئًا، لم أعش السعادة مع أي إنسان، ولم أسعد بوجود أي أحد بحق.

- أجل.. لم تكن بطلًا كبيرًا يا كْلُوْجِه. كما أنك بشكل ما لم تكن ذا نفع. لكن لِمَ تريد أن تفكر في ذلك الآن؟ لقد فات أوان ذلك، إن كنت ستفعل ما أقوله لك أو تذهب إلى الجيستابو. وأقولها

لك يا كْلُوْجِه من الآن، بعد نصف الساعة الأولى ستركع على ركبتيك طلبًا لرصاصة. لكن الأمر سيستغرق كثيرًا وكثيرًا من أنصاف الساعة التي ستقضيها في العذاب إلى أن تسلمك الحياة إلى الموت.

- لا! لا! لن أذهب إليهم. أعطني المسدس في يدي؛ هل أمسكه هكذا بشكل سليم؟

- نعم.

- وأين عليَّ أن أوجِّهه؟ إلى الصدغ؟

- نعم.

- والآن أضع الإصبع هنا على أمان السلاح. أريد أن أفعل ذلك بحذر، الآن لا أريد.. أريد أن أتحدَّث معك قليلًا...

- ليس عليك أن تخشى شيئًا، فالمسدس مؤمَّن.

- أتعرف يا إشيرِش؟ أنت آخر إنسان أتحدَّث معه، بعد ذلك لن يسود إلا الهدوء، ولن أستطيع التحدُّث مع أي إنسان ثانية.

ارتجفَ:

- حينما وضعتُ توًّا المسدس على صدغي خرجت منه برودة قارصة. لا بد أن الهدوء والحرية اللتين تنتظراني جليديتان هكذا.

انحنى مقتربًا من المفتش وهمس:

- هل لك أن تعدني بشيء يا إشيرِش؟

- نعم. ماذا؟

- لكن عليك أن تفي بوعدك!

- سأفعل ذلك إن كنت أقدر.

- لا تدعني أنزلق إلى الماء عندما أموت، عدني بذلك. فأنا أخاف الماء. دعني أرقد هنا على الرصيف الجاف.

- بالطبع. أعدك بهذا!

- جميل، أعطني يدك على هذا يا إشيرِش.

- ها هي ذي!

- ولن تخدعني يا إشيرِش؟ ألا ترى أني مجرد حمار ضئيل شقي. لن يشكِّل أي فارق إن خُدِعت. لكنك لن تفعلها؟

- بالتأكيد لن أفعلها يا كْلُوْجِه!

- أعطني المسدس يا إشيرِش، هل هو الآن غير مؤمن؟

- لا، ليس بعد، فقط عندما تكون مستعدًّا أخبرني.

- هل وضعته بشكل صحيح؟ الآن لا أشعر البرودة من القُرص الدوَّار. أنا الآن بارد مثله. هل تعلم أن لي زوجة وأبناء؟

- أجل، لقد تحدَّثتُ مع زوجتك، يا كْلُوْجِه.

- أوه! (كان الضئيل مهتمًّا لدرجة أنه وضع المسدس جانبًا)

هل هي هنا في برلين؟ أودُّ أن أتحدَّث إليها لمرة أخيرة.

- كلا، إنها ليست في برلين.

أجاب المفتش ولعن نفسه لأنه خالف مبدأه الأساسي بعدم إعطاء أي معلومة. ستأتي العاقبة فورًا!

- إنها لا تزال في روبينشن عند أقاربها. والأفضل ألا تتحدَّث إليها يا كْلُوْجِه.

- لَمْ تتحدَّث عني بشكل جيد؟
- نعم، مطلقًا. لم تقل عنك إلا أشياء سيِّئة.
- خسارة! (قال الضئيل)

خسارة. الحقُّ أنه أمر غريب يا إشيرِش. أنا لا شيء على الإطلاق يمكن لأي أحد أن يحبه. لكن الكراهية، كثيرون يكرهونني.

- لا أعرف، إن كان ما يحرك زوجتك هو الكراهية، أعتقد أنها فقط تريد أن ترتاح منك. أنت تزعجها...
- هل المسدس لا يزال مؤمَّنًا يا سيدي المفتش؟
- نعم.

أجاب المفتش متعجِّبًا أن كْلُوْجِه الذي صار هادئًا للغاية في ربع الساعة الأخير سأل متوتِّرا هكذا.

- نعم إنه لا يزال مؤمَّنًا.. ماذا بحق الشيطان؟

انطلقت النار من ماسورة المسدس ومرَّت قريبًا جدًّا من عينيه لدرجة أنه ترنح وسقط على الرصيف، شعر بأن الضوء يُعميه فوضع يديه على عينيه ضاغطًا عليهما.

همس كْلُوْجِه في أذنه:

- كنت أعرف، إنه ليس مؤمَّنًا! مرة أخرى كنت تريد أن تخدعني! والآن أنت في يدي، الآن أستطيع أن أَهَبَ لك راحتك وحريَّتك.. (وجَّه زناد المسدس نحو المُتأوِّه وابتسم)

أتشعر كم هو قارص البرودة؟ هذه هي الراحة، هذا هو السلام، هذا هو الجليد الذي سندفن فيه، دائمًا وأبدًا...

نهض المفتش متوجعًا:

- هل فعلتَ ذلك عن عمد يا كْلُوْجِه؟

سأل المفتش بحزم وهو يشد الجفون التي يحرقها الجرح من فوق العيون المتألمة. بدا كأنَّه يرى الآخر مثل كومة سوداء في عَتَمَة الليل البهيم.

- نعم، عن قصد! (كركر الضئيل بصبيانية)

- كانت هذه محاولة قتل! (قال المفتش)

- لكنك مَن قال إن السلاح مؤمن!

والآن صار المفتش متيقِّنًا أن عيونه لم تُصَبْ بسوء.

- سأقذفك في الماء أيها الأخرق! مجرد دفاع عن النفس! (وأمسكَ الضئيلَ من كتفه)

- لا، لا، أرجوك! أرجوك لا! سأفعل الأمر الآخر بالتأكيد! ليس في الماء! لقد وعدتني...

أمسكه المفتش من كتفه:

- ماذا؟! الآنَ لا استعطاف ولا استرحام! لن تمتلك أبدًا الشجاعة لتُقدِم على ذلك! هلم إلى الماء!

فرقعت طلقتان متتاليتان. شعر المفتش بالرجل يسقط بين يديه، كأنَّه يتكوَّم على نفسه بلا توقف. ظل إشيرِش يتحرَّك وهو يرى الميت ينزلق من حافة الرصيف إلى المياه. أرادت يداه الإمساك به.

هزَّ المفتش كتفيه حينما سقط الجسد الثقيل في الماء محدِثًا صوتًا ثم اختفى فورًا.

«هذا أفضل!» قال لنفسه وبلل شفتيه الجافتين؛ «شبهات أقل».

ظلَّ واقفًا لبعض الوقت، غير واثق إن كان عليه أن يلقي بالمسدس المرمِيّ على الرصيف في الماء أم يتركه. لكنه تركه. ثم انصرف ببطء عن رصيف القوارب متّجهًا نحو المحطة.

كانت المحطة مغلقة، والتِّرام الأخير قد غادر. فعزم المفتش لا مباليًا على قطع الطريق الطويل إلى برلين سيرًا على الأقدام.

حينها بدأت الساعة تدق مرة أخرى.

فكَّر المفتش أن الليل قد انتصف. وأنه أنجز المهمة. «منتصف الليل.. كم أشعر بالفضول لمعرفة إلى أي مدًى يعجبه ما وجد من سلام! لديَّ فضولٍ حقيقي. أم تراه وجد نفسه مخدوعًا؟ حمار، حمار ضئيل بَكّاء!».

الجزء الثالث

تنقلب اللُّعبة على آل جْفَانْجِل

33

ترُودِل هيزجزِل

سافر آل هيزْجزِل بالقطار من إيركنر إلى برلين. أجل، لم يعد ثمة ترْودِل بَاوْمَان، إذ إن حب كارْلْ المستمر انتصر وتزوَّجَا، والآن في سنة البؤس 1942، أصبحت ترْودِل حبلى في الشهر الخامس.

بزواجهما تخلَّى كل منهما عن العمل في مصنع الأزياء الرسميَّة. وبعد التجرِبة الضاغطة مع جْرِيجُولاَيْت وزُوْبِجْلِينْج لم يعودا يشعران بالأمان هناك مطلقًا. إنه يعمل الآن في مصنع للكيماويات في إيركنر، فيما ترْودِل تعمل خياطةً منزلية لتزيد دخلهم بعض الشيء. وبقدر طفيف من الخزي يذكران وقت نشاطهما غير الشرعي، إذ بَدَا جليًّا تمام الجلاء لكل منهما أنهما قد أخفقا. وكلاهما صار يعلم أن نشاطًا كهذا الذي يتطلب إنكارًا تامًّا للذات- لا يناسبهما. والآن صارا يعيشان فقط لسعادتهما المنزلية وتمتُّعهما بانتظار الطفل.

فيما يغادران برلين منتقلين إلى إيركنر رَأَيَا أن بوسعهما العيش في هدوء تام. فمِثل كثيرٍ من أبناء المدن الكبرى.. استَسْلَمَا لفكرة أن التجسُّس موجود فقط في برلين بتلك الدرجة من السوء، ظنًّا منهما أن النزاهة لا تزال هي السائدة في الريف وفي مدينة صغيرة. ومثل كثير من أبناء المدن الكبيرة علموا -فيما بعد- أن المخبرين الذين يمارسون التنصُّت والتجسُّس في مدينة صغيرة أسوأ عشر مرات ممن

في المدينة الكبيرة. ففي المدينة الصغيرة لا يمكن للواحد قطُّ أن يختفي وسط الجموع، كل واحد مرئي بوضوح، ظروفه الخاصَّة تُعرف بسرعة، ومن الصعب تجنب الكلام مع الجيران، وفي البداية تعرَّضَا لمثل تلك القصص، اختَبَرَا ذلك بقلق وغمٍّ بالغ.

ولأن أيًّا منهما لا ينتمي إلى الحزب النازي، ويشاركان في كل التجمعات بأقل مساهمة ممكنة، وكلاهما أظهر أنه يميل إلى العيش وحده، وكلاهما يفضِّل القراءة على الذهاب إلى أحد التجمعات، ولأن هيرْجزِل بشعره الطويل اللامع المشعث دائمًا، وعينيه المُشعَّتين السوداوين- يبدو مثل اشتراكي حقيقي محبٍّ للسلام (في نظر أعضاء الحزب)، وترُودِل التي قالت ذات مرة إن الواحد ينبغي أن يشفق على اليهود! لأجل ذلك كله اعتُبِرَا لمدة وجيزة من المشتبه فيهم سياسيًّا، ورُوقِبَت كل خطوة من خطواتهما، وتُنُصِّت على كل كلمة من كلماتهما. عانى آل هيرْجزِل هذه الأجواء التي اضطُرَّا إلى العيش فيها في إيركنر. لكنهما حاولا الاقتناع بأن عليهما ألا يُكبِّرا المسألة، وبأن مكروهًا لا يمكن أن يصيبهما، لأنهما لا يفعلان شيئًا ضد هذه الدولة. «الأفكار حرة»* لطالما ردَّدَا، لكن كان عليهما أن يعرفا أنه حتى الأفكار في هذه الدولة ليست حرة.

وهكذا هَرَبَا بشكل أقوى نحو هناءتهما في الحب. كانا مثل حبيبين في طوفان، متعلِّقين بعضهما ببعض بين الأمواج، بين حطام البيوت، والماشية النافقة، يعتقدان أن قوة اجتماعهما وقوة الحب

---

* أغنية شعبية ألمانية شهيرة، مجهولة المؤلف، ويرجح أن أصولها ترجع إلى العصور الوسطى. (المترجمة)

بينهما ستقيهما النهاية المحتومة. لم يدرِكا بعدُ أن هذه الحرب لم تَعُد تسمح بحياة خاصَّةٍ في ألمانيا على الإطلاق. وأن الانكماش على الذات لا يمنع أن كل ألماني صار ملكية عامة للألمان، وأن عليه أن يعاني المصير الألماني المحتوم. مثلما أن القنابل التي بلا عدد تسقط على الجميع بلا تفريق ما بين الصالح والطالح.

افترق آل هيرْجزِل عند ميدان ألكسندر. كان عليها أن تسلم قطعة مَخِيطة في شارع ألكسندر الصغير، فيما هو كان يريد أن يرى عربة أطفال معروضة للمبادلة. واتَّفقا على معاودة اللقاء مرة أخرى في الظهيرة على المحطة، ثم مضى كل منهما في طريقه. دخلت تْرُودِل هيرْجزِل بسرعة إلى بيت متعدِّد الطوابق في شارع ألكسندر الصغير، إنها -بعد عدة متاعب في البداية- حامل في الشهر الخامس، وها هي ذي تختبر شعورًا لم تعرفه من قبلُ من الثقة بالنفس والسعادة.

صعد رجل الدرج أمامها، رأته فقط من الخلف، لكنها تعرفت عليه على الفور من صفات رأسه المميَّز، والقفا المتيبِّس، والطول، والأكتاف المرفوعة؛ لقد كان أُوتُّو جْفَانْجِل، والد خطيبها السابق، الرجل الذي أخبرته مرَّةً عن سر التنظيم غير الشرعي.

منعت نفسها بتلقائية، كان من الواضح أن جْفَانْجِل لم يشعر بوجودها بعدُ. كان يصعد من دون عجلة لكن بسرعة منتظمة. تبعته محتفظة بمسافة نصف درجة، ومستعدة دائمًا للتوقف فورًا بمجرد أن يدق جْفَانْجِل جرس أيٍّ من هذه الأبواب في هذا المبنى الإداري.

لكنه لم يدق الجرس، ورأت كيف توقف في نافذة طابق، وأخرج بطاقة من جيبه ثم وضعها على «جلسة الشباك». وفيما هو يفعل

ذلك التقت نظراتهما. لكن هل تعرَّفها جْفَانْجِل أم لا؟ لم يبد عليه ذلك، مرَّ من جوارها ونزل السلالم بدون أن ينظر إليها.

وبمجرد أن هبط أكثر أسرعت نحو النافذة وأخذت البطاقة في يدها. قرأت فقط الكلمات الأولى: «ألم تفهموا بعد أن زعيم العارِ والشَّنَارِ قد كذب عليكم حينما قال إن روسيا تجهز نفسها لشَنِّ هجوم على ألمانيا؟».

ثم جرت وراء جْفَانْجِل.

أدركته وهو يغادر المبنى، ودفعت نفسها إلى أن وقفت إلى جواره:

- ألم تعرفني منذ قليل يا أبتِ؟ أنا تْرُودِل، تْرُودِل خطيبة أُوتُّو الصغير!

أدار رأسه نحوها، ولم يَبْدُ لها مثل الطير من قبلُ مثلما بدا في تلك اللحظة. ولوهلة اعتقدت أنه لا يتذكَّرها، لكنه أومأ إيماءة قصيرة وقال:

- تبدين في حال طيبة يا فتاة!

- أجل! (قالت ولمعت عيناها)

أشعر أيضًا بقوة وسعادة لم أختبرهما من قبل. أنتظر طفلًا؛ لقد تزوجتُ. لست غاضبًا يا أبت، أليس كذلك؟

- ولم أغضب؟ بسبب زواجك؟ لا تكوني حمقاء يا تْرُودِل، أنت شابة وقريبًا تحلُّ الذكرى الثانية لوفاة أُوتُّو الصغير. لست غاضبًا. حتى آنَّا لن تغضب منك بسبب الزواج، رغم أنها تذكر أُوتُّو كل يوم.

- كيف حال أمي؟

- مثل حالها دائمًا يا تْرُودِل، كما هي. فعند كبار السن أمثالنا لا يتغيَّر شيء.

- أجل! (قالت وظلت واقفة، واتخذ وجهها ملامح جادة للغاية)

بل تغير كثير عندكم. هل تذكر كيف توقفنا ذات مرة في طرقة مصنع الأزياء الموحَّدة، أسفل الملصقات التي أعْلَنَت الإعدامات؟ حينذاك حذَّرتني...

- لا أعلم عم تتحدَّثين يا تْرُودِل؛ الرجل المسنُّ ينسى كثيرًا.

- اليوم أحذرك يا أبت! (قالت بصوت خافت لكن أكثر اندفاعًا)

لقد رأيتك وأنت تضع البطاقة في المنوَر، هذه البطاقة المرعبة التي أضعها الآن في حقيبتي.

نظر إليها غير مكترث بعينيه الباردتين اللتين بدا أنهما تشعَّان شررًا.

هَمَسَتْ:

- يا أبت، الأمر متعلِّق برأسك. مثلما رأيتك قد يراك آخرون. هل تعلم أمي ماذا تفعل؟ هل تفعل ذلك كثيرًا؟

طال صمته لدرجة أنها ظنَّت أنه لا يريد أن يردَّ عليها. لكنه قال:

- تعلمين يا تْرُودِل.. لا أفعل شيئًا بدون الأم!

- أوه! (صاحت وانسابت دموع من عينيها)

هذا ما كنت أخشاه؛ ستجرُّ الأم أيضًا في هذا.

- الأم فقدت ابنها. هذا ألم لم تنْسَهُ بعد. لا تنسي هذا يا تْرُودِل!

احمرَّت وجنتاها كأنَّه اتهمها.

- لا أظن.. (غمغمت)

أن أُوتُّو الصغير سيكون موافقًا لو أنه رأى تورُّط أمه في أمر كهذا.

- كلٌّ يمضي في طريقه يا تْرُودِل (أجاب أُوتُّو جْفَانْجِل ببرودة)

أنتِ في طريقك. ونحن في طريقنا. أجل، نحن ماضون في طريقنا.

ألقى رأسه إلى الوراء ثم إلى الأمام كأنَّ الطائر ينقر بمنقاره:

- كوني بخير يا تْرُودِل، أنت وطفلك. سأوصل تحياتك إلى الأم، ربما.

ومضى فعلًا.

ثم عاد ثانية:

- البطاقة.. لا تحتفظي بها في حقيبتك، أتفهمين؟ ضعيها في أي مكان مثلما فعلتُ أنا. ولا تخبري زوجك بكلمة عن هذا. أتعدينني بذلك يا تْرُودِل؟

أومأت بخِفَّة، ونظرت إليه بخوف.

- ثم انسينا. انسي كل شيء عن آل جْفَانْجِل؛ وعندما ترينني مرة أخرى؛ أنت لا تعرفينني، أتفهمين؟

ومرة أخرى لم تتمكَّن إلا من هز رأسها.

- إذًا، الوداع!

قال مرة أخرى ثم مضى فعلًا هذه المرة، رغم أن جعبتها حوت مزيدًا مما أرادت قوله.

وحينما وضعت تْرُودِل بطاقة أُوتُّو جْفَانْجِل اعترتها كل مخاوف المجرم الذي يخشى أن يقبض عليه. لم تحسم أمرها بأن تقرأ بقية البطاقة. كم لهذه البطاقة من مصير تراجيدي إذ إن من عثر عليها صديق لأُوتُّو جْفَانْجِل، حتى هنا ليس لها أثر. حتى كتابتها بقيت بلا جدوى، حتى هنا كانت متلقِّيَتُها لا ترجو إلا أن تتخلَّص منها بسرعة.

وحين وضعت تْرُودِل البطاقة على نفس جلسة الشباك التي وضعها عليها أُوتُّو جْفَانْجِل -لم يخطر ببالها أن أي مكان آخر يمكن أن يصلح لذلك- تعجلت في صعود الدرجات المتبقية، ودقت الجرس عند مكتب المحامي الذي خاطت لسكرتيرته فستانًا من قماش مسروق من فرانكفورت أرسله صديق السكرتيرة.

وفي أثناء تجريب الفستان شعرت تْرُودِل بالحرارة ثم البرودة وفجأةً غامت الدنيا أمام عينيها. واضطرت إلى أن تستلقي في حجرة المحامي الذي كان في موعد خارج المكتب، ثم شربت قهوة، مصنوعة من حبوب بُن جيدة مجلوبة من هولندا ومسروقة بواسطة صديق آخر يعمل لدى الشرطة العسكرية.

لكن فيما طاقم المكتب كله يدور حولها لمساعدتها، لم تكن حالتها صعبة التشخيص، لأن الثقل كله حملته أمامها. وفي أثناء ذلك فكرت تْرُودِل هيرْجزِل «معه حق، لا ينبغي أن أخبر كارْلْ بأيِّ من هذا. ما دام الأمر لا يضير الطفل، لقد تسبَّب لي في توتر رهيب. أَخ يا أبت! لا ينبغي أن تفعل شيئًا كهذا! ألا يفكِر في كم الشقاء والخوف الذي يعرض الناس له؟ الحياة صعبة بما فيه الكفاية!».

عندما نزلت السلالم أخيرًا كانت البطاقة قد اختفت. تنفَّستْ بارتياح، بَيْدَ أن هذا الارتياح لم يستمر. لم تتمكّن من التغافل عن الأمر، بل ظلَّت تفكر في مَن قد عثر على البطاقة، وهل أصيب بالذعر مثلها حول ما يتعيَّن فعله بها! ظلَّت أفكارها تدور حول ذلك.

لم تعد إلى ميدان أليكسندر بخِفَّة مثلما ذهبت إليه. ولقد تعيَّن عليها أن تقضي بعض المَهمَّات، غير أنها لم تقدر. جلست ساكنة في صالة الانتظار آملة أن يأتي كارْل بسرعة. عندما يأتي كارْل سيختفي الذعر الذي ما يزال يسكن مفاصلها، حتى لو أنها لم تخبره بشيء؛ مجرد وجوده سيصرف أي خوف. ابتسمت وأغلقت عينيها.

«كارْل الطيب..» قالت.. «الإنسان الوحيد الذي لي!».

نامت.

34

كارْل هيزجزِل وخْرِيخْولَاينت

لم يتمكَّن كارْلْ هيزْجزِل من إتمام المقايضة الخاصَّة بعربة الأطفال، بل لقد غضب غضبًا شديدًا بسببها. كانت عربة الأطفال قديمة، لها عشرون أو خمس وعشرون سنة، موديل قديم الصنع جدًّا، يكاد يرجع صنعها إلى زمن طوفان نوح، بل لعل نوحًا نفسه وضع أصغر أبنائه فيها وجرَّهم بها إلى السفينة. وأرادت العجوز أن تحصل على أوقية زبد وأوقية لحم خنزير في مقابلها. وظلت مُصرَّة على ذلك بعناد غير مفهوم، لأن «أنتم في الريف لديكم كل شيء! أنتم تجلسون عند منابع الخيرات!».

يتوقع بعض الناس أشياء لا تنم إلا عن وقاحة صريحة. لقد ذهبت كلمات هيزْجزِل -بأن إيركنر ليست ريفا كلها- أدراج الرياح، مع توكيداته أنهم لا يستطيعون أن يحصلوا هناك على جرام دهن أزيد مما يحصلون عليه في برلين، وأنه مجرد عامل بسيط وليس في استطاعته أن يدفع مبالغ باهظة.

- وهل تعتقد حضرتك أنني سأنفصل بسهولة عن قطعة قيمة مثل هذه -تلك القطعة التي حملت صغيرَيَّ- إن لم أحصل مقابلها على شيء طيب؟ تريد أن تضع لي بضعة ماركات لا قيمة لها؟ كلًا، شكرًا أيها السيد العزيز، فلتبحث لنفسك عن واحدة أكثر حماقة! (قالت السيدة)

لم يكن هيرْجزِل ليأخذ العربة ولو بخمسين ماركًا، ذلك الوحش المترنح ذو العجلات الضخمة، أصرَّ على أن السيدة في غاية الوقاحة. علاوة على ذلك فهو يضع نفسه تحت طائلة القانون لأن مبادلة البضاعة مقابل الدهن ممنوعة.

- ممنوعة! (زفرت السيدة باحتقار)

ممنوعة! جرِّب أيها الشاب أن تُبلِّغ عنا! زوجي هو كبير الحراس في الشرطة، نحن لا نعاقَب على شيء. والآن أسرع بمغادرة شقتي، لن أسمح لأحد أن يصرخ في وجهي في بيتي! سأعد حتى ثلاثة، وإن لم تخرج ستكون تهمتك هي الاقتحام، وسأبلغ عنك!

الآن، أبلغها كارْلْ هيرْجزِل قبل أن يغادر برأيه كما ينبغي. أفهمها جيِّدًا رأيه في المنتهِزين الذين يستغلون الوضع الطارئ الذي يمر به الألمان، ثم ذهب. لكنه كان لا يزال غاضبًا.

وفي أثناء ذلك الغضب التقى جْرِيجُولَايْت، إنه رجل ينتمي إلى زمن حاول فيه أن يحارب من أجل مستقبل أفضل.

- يا جْرِيجُولَايْت..

ناداه هيرْجزِل عندما مر به ذلك الرجل بهيئته الطويلة والجبين العالي حاملًا حقيبَتَيْ يد ومحفظة أوراق.

- يا جْرِيجُولَايْت، مرة أخرى في برلين؟! (وأخذ حقيبة يد)

يا للسماء! إنها ثقيلة جدًّا! أتريد أن تذهب إلى أليكس؟ أنا أيضًا متجه إلى هناك، سأحمل لك حقيبةً.

ضحك جْرِيجُولَايْت بحدة:

- جميل هيرْجزِل، لطيف منك. أرى أنك لا تزال ذلك الرفيق القديم المستعد لتقديم يد العون. ماذا تفعل الآن؟ وما أخبار تلك الفتاة الصغيرة الجميلة؟ ما كان اسمها؟

- تْرُودِل.. تْرُودِل بَاوْمَان. لقد تزوجتُ تلك الفتاة الصغيرة الجميلة، والآن ننتظر طفلًا.

- لم نكن لنتوقع غير ذلك. مبارك!

لم يَبْدُ على جْرِيجُولَايْت اهتمام بتغيُّر أوضاع هيرْجزِل الحياتية، تلك التي كانت بالنسبة إلى كارْلْ هيرْجزِل مصدرًا متجدِّدًا للسعادة.

- وماذا تفعل الآن يا هيرْجزِل؟ (واصل جْرِيجُولَايْت السؤال)

- أنا؟ تقصد ماذا أعمل؟ فني كهربي مرة أخرى في أحد مصانع الكيماويات في إيركنر.

- لا، أقصد ماذا تفعل حقًّا يا هيرْجزِل؟ من أجل مستقبلنا.

- لا شيء، يا جْرِيجُولَايْت.

أجاب هيرْجزِل وانتابه فجأةً شعور يشبه الذنب. قال موضحًا:

- اُنظر يا جْرِيجُولَايْت، لقد تزوجنا حديثًا ونعيش فقط من أجل أنفسنا. ماذا يعنينا العالم في الخارج بحربه القذرة؟ الآن نحن سعداء أن سيكون لنا طفل. اُنظر يا جْرِيجُولَايْت، هذا أيضًا فعل مهم. عندما نبذل ما في وسعنا كي نظل محترمين وأن نربي ابننا كي يكون إنسانًا محترمًا.

- سيكون من الصعب تحقيق ذلك في هذا العالم الذي يشيده لنا السادة ذوو القمصان البنية! عموما، لنترك الأمر يا هيرْجزِل،

فمثلكما لا ينبغي أن نتوقع منه غير ذلك. لقد كنتما دائمًا ما تفكِّران بنصفكما السفلي بأكثر من رأسكما!

احمَرَّ هيزْجزِل من الغضب. الاحتقار الذي كان يتحدَّث به جْرِيجُولَايْت كان لا يُبَارَى. ورغم ذلك لم يَبْدُ عليه أنه قال أي شيء معيب لأنه واصل - بدون أدنى ملاحظة لاضطراب الآخر- وقال بلا مبالاة:

- أنا أواصل العمل، وكذلك زُوْيِجْلِينْج يواصل العمل. كلا، ليس هنا في برلين. نحن الآن نقيم بعيدًا في الغرب، لا يعني هذا أني أقيم هناك، أنا دائمًا أتحرك في مشاوير، كأني في خدمات توصيل.

- وهل ترجون شيئًا حقًّا من وراء ذلك؟ ببعض أشباه الرجال والمَكِنَة الضخمة!

- أولًا نحن لسنا أشباه رجال. كل ألماني محترم، ومِن هؤلاء لا يزال اثنان أو ثلاثة ملايين سيشاركون معنا. عليهم فقط أن يتخلَّصوا من مخاوفهم. الآن خوفهم من المستقبل الذي سيمنحنا إياه الفَسَدَة مرتدو القمصان البنية لا يزال أقل من خوفهم من تهديدات الوضع الراهن. لكن سرعان ما ستتبدَّل الحال. فلينتصر هتلر لبعض الوقت، لكن بعدها ستتوالى الضربات، سينتصر إلى أن يموت. وهجمات الطيران ستزداد كثافة.

- وثانيًا؟

سأل هيزْجزِل الذي شعر بالملل الشديد من تشخيص الحرب الذي انهمك فيه جْرِيجُولَايْت تمامًا.

- ثانيًا.. ثانيًا يا عزيزي عليك أن تعلم أن المسألة ليست مسألة قلَّةٍ تُحارب كثرة. بل، عندما يدرك الواحد الحقيقة، فعليه أن يحارب من أجلها. أمَّا إن كنتَ أنت ستعايش النَّصر أو الآخر الذي سيحلُّ محلك.. فسيَّان. لا أستطيع أن أضع يدي في حجري وأقول «إنهم حقًّا خنازير، لكن ما شأني بهم؟».

- أجل، لكنك لست متزوجًا، وليس عليك أن تحمل هم زوجة وطفل!

- أوه، اللعنة مرة أخرى! (صرخ جْرِيجُولَايْت مستاءً)

توقف عن هذا الهراء العاطفي! أنت نفسك لا تصدِّق كلمة واحدة مما تقول! زوجة وطفل! أجل، أيها الأحمق، ألا يخطر ببالك قطُّ أنه كان يمكنني أن أتزوج عشرين مرة لو أنني مهتم بتأسيس أسرة؟ لكني لا أفعل شيئًا من هذا القبيل. أقول لنفسي «سيكون من حقي أن أشعر بالسعادة على الصعيد الشخصي لو أنَّ متسعًا لهذه السعادة على هذه الأرض»!

- لقد ابتعد بعضنا عن بعض كثيرًا! (غمغم كارْلْ هيرْجزِل منزعجًا) لا أسلبُ أحدًا حقًّا حين أشعر بالسعادة.

- بل أنت تسرق! أنت تسرق الأبناء من أمهاتهم، والأزواج من زوجاتهم، والأصدقاء من الصديقات، ما دمت تسمح بموت الآلاف قصفًا بدون أن تحرك إصبعًا لوقف جرائم القتل. أنت تعرف هذا جيِّدًا، وأنا أسأل نفسي إن لم تكن أسوأ من أي نازي يرتدي الصوف البني. إنهم أغبى من أن يدركوا حجم الجريمة

التي يرتكبونها. أما أنت فتعلم ولا تفعل شيئًا لمنع ذلك! ألست أسوأ من النازيين؟ بالطبع أنت أسوأ!

- حمدًا لله أننا وصلنا إلى المحطة! (قال هيزْجزِل ووضع الحقيبة الثقيلة على الأرض)

لستَ في حاجة إلى مواصلة سماع مهاتراتك. لو أننا بقينا معًا لمدة أطول لاكتشفت أنني أنا هيزْجزِل -لا هتلر- أنا الذي أشعلت هذه الحرب برمتها.

- هذه حقيقة! بالمعنى المجازي بالطبع. عندما يدقِّق المرء في المسألة، فإن تكاسلك هو ما سمح بـ...

والآن ضحك هيزْجزِل ضحكات عالية، وحتى جْرِيجُولَايْت العابس ندت عنه ابتسامة لمَّا نظر إلى الوجه الضاحك.

- حسن، فلنترك الأمر! (قال جْرِيجُولَايْت)

لن يفهم بعضُنا بعضًا أبدًا.

مسح بيده جبينه العالي:

- لكن في الحقيقة يمكنك أن تقدِّم لي معروفًا صغيرًا يا هيزْجزِل.

- أجل، بكل سرور يا جْرِيجُولَايْت.

- هذه الحقيبة الثقيلة التي جررتَها. في غضون ساعة عليَّ أن أرحل إلى كونيجزبيرج، ولن أحتاج إليها هناك على الإطلاق. هل لك أن تحتفظ بها إلى ذلك الوقت؟

- تعلم يا جْرِيجُولَايْت.. (قال هيزْجزِل ونظر إلى الحقيبة الثقيلة باستياء)

لقد قلتُ لك إنني أقطن الآن في الضاحية في إيركنر. ثمة مسافة طويلة إلى بيتنا. لماذا لا تترك الحقيبة هنا ببساطة في الأمانات؟

- أجل، لماذا؟ لماذا الموزة معوجَّة*؟ لأني لا أثق بالإخوة هنا. لقد وضعتُ فيها كل ثيابي وأحذيتي وأفضل بدلاتي. وهنا السرقات منتشرة. ثم القنابل، أبناء العم توم يركِّزون قنابلهم على محطات القطار؛ سأكون بذلك خسرت كل ما أملك.

ثم واصل الضغط:

- هيا يا هيرْجزِل، قل نعم!

- موافق من ناحيتي. لكن زوجتي لن توافق على ذلك. لكن لأنه أنت، تعرف يا جْرِيجُولَايْت، أفضِّل ألا أخبر زوجتي أنني قابلتك. فهذا سيؤدي إلى توتُّرها. لن يكون ذلك مُناسبًا لحالتها هي والطفل، أتفهم؟

- جميل، جميل. فلتفعل ما تشاء. المهم أن تحتفظ بها لي في حال جيدة. وفي غضون أسبوع سأمرُّ عليك وأستعيد الحمل الثقيل. أخبرني بعنوانك. جميل، جميل! إذًا إلى لقاء قريب يا هيرْجزِل!

- إلى اللقاء يا جْرِيجُولَايْت!

دخل كارْلْ هيرْجزِل إلى صالة الانتظار ليبحث عن تْرُودِل. عثر عليها منكمشة في ركن مظلم، مسندة رأسها إلى مسند الظهر ومستغرقة في النوم. كان نَفَسُها هادئًا. بخِفَّة يرتفع صدرها ويهبط. وكان فمها مفتوحًا قليلًا، لكن وجهها في غاية الشحوب، وعلى جبينها قطرات عرق، كأنها بذلت جهدًا كبيرًا.

* مثل يقال في الألمانية عن شيء بديهي. (المترجمة)

نظر إلى الحبيبة. ثم بقرار مفاجئ أمسك حقيبة جْرِيجُولَايْت وحملها إلى الأمانات. كلَّا، فالبنسبة إلى كارْلْ هيرْجزِل أهم شيء في العالم الآن ألا يعكرَ صفوَ تْرُودِل، وتخطر ببالها أفكار مقلقة وتضطرب. لو أنه أخذ الحقيبة إلى إيركنر لاضطر أن يحكي لها عن جْرِيجُولَايْت، عارفًا أن كل ما يذكِّرها بـ«حكم الإعدام» يجعلها تضطرب أيما اضطراب.

وعندما عاد هيرْجزِل إلى صالة الانتظار واضعًا ورقة الأمانات في جيب حقيبته كانت تْرُودِل قد استيقظت وشرعت تجدِّد حمرة شفتيها. ابتسمت له، كانت لا تزال شاحبة، وسألت:

- ما تلك الحقيبة العملاقة التي كنت تجرُّها؟ بالتأكيد ليس فيها أي عربة أطفال، كارْلي!

- حقيبة عملاقة! (تصنَّعَ الدهشة)

ليس معي حقيبة عملاقة! لم أحضُر إلا الآن يا تْرُودِل وصفقة عربة الأطفال خربت.

نظرت إليه بدهشة. زوجها يكذب عليها؟ لكن لِمَ؟ ما الأسرار التي يخفيها عنها؟ لقد رأته هنا بوضوح عند الطاولة، ثم رأته يعود أدراجه ويجر الحقيبة خارج صالة الانتظار.

- لكن، كارْلي! (قالت له ببعض الاستياء)

لقد رأيتك هنا منذ قليل تقف عند الطاولة مع الحقيبة!

- كيف يمكن لي أن أحصل على حقيبة؟ (أجاب مضطربًا بعض الشيء)

لقد كنت تحلمين يا تْرُودِل!

- لا أفهمٍ، لم تكذب عليّ فجأةً هكذا! لم يحدث هذا بيننا من قبل قطّ!

- لا أكذب عليكِ، لا يمكن أن أفعل!

يردُّ الآن بتوتُّر، فضميره المؤرَّق يدفعه إلى ذلك. يتمالك نفسه ثم يواصل بهدوء أكبر:

- لقد قلتُ لكِ، لم أحضر إلا الآن. لا أعلم شيئًا عن حقيبة، لقد كنت تحلمين يا تْرُودِل!

- هكذا إذًا (تقول ناظرةً نحوه بلا مبالاة)

هكذا إذًا، جيد، كارْلي. لقد كنت أحلم. إذًا لا داعي للحديث عن ذلك.

تخفض نظرتها. يؤلمها بعمق أنه يخفي عنها أسرارًا، وهذا الألم يزداد حرقة لأنها هي أيضًا لديها ما تخفيه عنه. لقد وعدت أُوتُّو جْفَانْجِل ألَّا تحكي لزوجها عن لقائهما، فضلًا على البطاقة. لكن هذا ليس صوابًا. لا ينبغي للمتزوجين أن يُخفوا الأسرار بعضهم عن بعض. والآن هو أيضًا يخفي عنها أسرارًا.

يشعر هيرْجزِل كذلك بالخزي. يا للعار! كذب على حبيبته بكل وقاحة، بل ضايقها لأنها تقول الحقيقة. وصار يصارع نفسه حول إخبارها عن لقائه بجْرِيجُولَايْت. لكنه قرَّر أنْ كلَّا؛ هذا من شأنه أن يزيد اضطرابها.

- سامحيني يا تْرُودِل! (قال وضغط يدها ضغطة سريعة)

سامحيني أنْ ثُرتُ في وجهكِ. لكني تضايقت كثيرًا من حكاية عربة الأطفال. إليكِ ما حدث...

35

الإنذار الأول

زاد هجوم هتلر على روسيا من غضب آل جْفَانْجِل على ذلك الطاغية، هذه المرة تابع جْفَانْجِل مآلات الهجوم بكل تفاصيله. لم يتفاجأ بشيء، منذ التجمعات الأولى للقوات على «حدودنا» حتى الاقتحام. كان يعرف منذ البداية أنهم يكذبون، هتلر وجُوبِلْز وفريتسشه، كل كلماتهم فاسدة وكاذبة. لم يعودوا قادرين على ترك أحد في سلام، وفي نوبة غضب كتب على إحدى البطاقات:

«ماذا فعل الجنود الروس عندما هاجمهم هتلر؟ كانوا يلعبون الورق، لم يكن أحد في روسيا يفكِّر في الحرب!».

وصار عندما يمر على مجموعة من المثرثرين في الورشة، يتمنَّى أحيانًا، لو أنهم يتحدَّثون في السياسة، وألا يتفرقوا هكذا بسرعة. كان ليُسعده أن يسمع الآن ماذا يقول الآخرون عن الحرب.

لكنهم سرعان ما يغرقون في تبرُّم صامت. لقد أصبحت الثرثرة أمرًا في غاية الخطورة. فمثلًا النجار غير المؤذي دُولْفُوس سُرِّح منذ مدة كبيرة، من يا ترى سيخلُفه؟ لم يملك جْفَانْجِل سوى التخمين. أحد عشر رجلًا من رجاله -بينهم رجلان قضيا أكثر من عشرين سنة في المصنع- اختفوا بلا أثر، أُخِذوا من وسط العمل، أو لم يحضروا في الصباح. ولم يُعرَف أين هم، ولقد كان ذلك دليلًا إضافيًا أنهم

ربما في وقت ما ثرثروا بكلمات لا داعي لها، ما جعلهم يستحقون الذهاب إلى معسكر التعذيب.

كما ظهرت وجوه جديدة بدلًا من هؤلاء الرجال الأحد عشر، وغالبًا ما يسأل الحِرفيُّ نفسه إن لم يكن كل هؤلاء الأحد عشر جواسيسَ، بل إن لم يكن نصف المصنع يتجسَّس ويتنصَّت على النصف الآخر. حتى الهواء يفوح برائحة الخيانة. لم يعد أحد يثق بأحد، وفي هذه الأجواء الرهيبة بدا أن الناس ضد كل شيء، وأصبحوا مجرد أجزاء من الآلات التي يعملون عليها.

لكن أحيانًا ما تشتعل وسط هذه الأجواء المكتومة شعلة غضب عارم، مثل تلك المرة، حين ضغط أحد العمال يده على المنشار وصرخ: «فليتعفن هتلر! وسيتعفن مثلما أقطع ذراعي على هذا المنشار!».

وبقوة كبيرة شدوا هذا المجنون من المَكِنَة وبالطبع لم يسمعوا عنه أي شيء بعد ذلك اليوم. ربما مات منذ زمن، الأفضل أن يكون قد مات! أجل، لا بد للمرء أن يكون في غاية الحذر، فليس كل واحد يقف باردًا هكذا مثل حمار الشغل العجوز أُوتُّو جْفَانْجِل، الذي لم يعد يهتم إن كانوا يحقِّقون محصول العمل اليومي من التوابيت. أجل، توابيت! لقد انخفضت رواتبهم من صناديق القنابل إلى صناعة التوابيت، أشياء حقيرة من أرخص وأسوأ أنواع الخشب وتُطلى باللون البني المسودِّ. ينتجون آلافًا بل عشرات الآلاف من هذه التوابيت يوميًّا، كأنها قطار بضائع، محطة كاملة ممتلئة بعربات البضائع، محطات كاملة!

أما جْفَانْجِل، الذي يحني رأسه نحو كل مَكِنَة بحذر، كان يفكِّر في كل هذه الحيوات التي ستُحمل في هذه التوابيت إلى القبر، حياة مقتولة، حياة موءودة سُدًى، سواء كانت هذه التوابيت من أجل ضحايا هجمات القنابل (أي بشكل أساسي للمُسنِّين، للأمهات والأطفال) أو كانت تجول في معسكرات التعذيب، كل أسبوع عدة آلاف من القطع، للرجال الذين لم يتمكّنوا من -أو لم يريدوا- إخفاء قناعاتهم، كل أسبوع آلاف التوابيت لأجل معسكر تعذيب واحد. أو ربما تكون عربات البضائع الممتلئة توابيتَ هذه تتخذ الطريق الطويل إلى الجبهة. رغم أن أُوتُّو جْفَانْجِل لم يكن يريد أن يصدق هذا، لأن آخر ما يشغلهم هو الجنود النافقون! فالجندي النافق ليس له قيمة لديهم أعلى من البغل النافق.

نظرت عين الطائر البارد بصرامة وقسوة تحت الضوء الكهربي، حرَّك رأسه إلى الوراء، ضاغطًا شفتيه الدقيقتين ببعضهما. لا أحد يمكن أن يشعر بالتمرُّد والاستياء اللذين يعتملان في صدره، لا يزال عليه أن يفعل كثيرًا، فهو يعلم أنه اختير لأداء مهمة جليلة، ولم يعد يكتب فقط أيام الآحاد. بل صار يكتب في أيام الأسبوع كذلك قبل موعد بداية العمل. ومنذ الهجوم على روسيا صار يكتب خطابات تستغرق منه يومين، لكنها وسيلته في التنفيس عن غضبه.

اعترف جْفَانْجِل لنفسه بأنه لم يعد يعمل بنفس الحذر القديم. لقد أَفْلَتَ منهم لعامين الآن، ولم يُثِر أدنى شك في شخصه، وصار يشعر بالأمان التام.

تمثل الإنذار الأول في لقائه بتْرُودِل هيزْجزِل، فبدلًا منها كان من الممكن أن يكون أي شخص آخر واقفًا على الدرج يراقبه، ولو وقع ذلك ساعتها لضاع هو وآنَّا. كلا، ليست المسألة متعلِّقة به أو بآنَّا، بل الأمر كله أن يتم هذا العمل اليوم وكل الأيام التالية. لكن لصالح هذا العمل عليه أن يكون أكثر حذرًا. فكون تْرُودِل قد راقبته هناك على السلم وهو يضع البطاقة لهو أسوأ استهتار ممكن منه.

وفي هذا الشأن لم يتوقَّع أُوتُّو جْفَانْجِل أن المفتش إشيرِش -في ذلك الوقت- قد حصل على أوصافه من جانبين. فلقد شوهد أُوتُّو جْفَانْجِل مرتين وهو يضع البطاقات، وفي المرتين من سيدتين، تناولتا البطاقات بفضول، لكنهما لم تَستدعيا النجدة بالسرعة التي تكفي للإمساك بالفاعل وهو لا يزال في البناية.

أجل، المفتش إشيرِش لديه الآن شهادتان بأوصاف شخص واضع البطاقات. لكن المزعج فيهما أنهما تختلفان في كل النقاط. ما عدا نقطة واحدة اتَّفقت عليها السيدتان الشاهدتان، وهي أن وجه الفاعل كان يبدو غير عادي، ليس مثل باقي الناس. لكن عندما أراد إشيرِش منهما أن تُصوِّرا له كيف أن هذا الوجه غير عادي، اتَّضح، إما أن السيدتين لم تتمكَّنَا من الملاحظة، وإما أنهما غير قادرتين على شرح ملاحظاتهما بالكلمات. فكلتاهما لم تتمكَّن من قول شيء أكثر من أن الفاعل بَدَا مثل مجرم حقيقي. وعندما سُئِلَتَا عن الكيفية التي يبدو عليها المجرم الحقيقي في رأيهما، هزَّتا أكتافهما، وقالتا إن السادة -لا بُدَّ- يعرفون.

تردَّد جْفَانْجِل طويلًا حول أن يحكي لآنَّا عن لقائه بتْرُودِل أم لا. ثم قرَّر أن يحكي لها، فهو لا يريد أن يخفي عنها ولو سرًّا صغيرًا.

فمن حقها أيضًا أن تعرف الحقيقة رغم أن خطر وشاية تْرُودِل بهما ضئيل. من حق آنَّا أن تعرف حتى أصغر الأخطار. إذًا فلقد حكى لها الأمر كما وقع بالفعل بدون أن يعفي نفسه من الاستهتار.

وأتى رد فعل آنَّا لينمَّ عن شخصها. تْرُودِل وزواجها والطفل المنتظر لم يهمها في شيء مطلقًا لكنها همست بذعر بالغ:

- لكن فكِّر يا أُوتُّو لو أن أحدًا آخر كان مكانها، أحد من كتيبة العصف!

ابتسم باحتقار:

- لكن لم يكن أحد هناك! ومن الآن فصاعدًا عدت حذرًا!

لكن هذا التوكيد لم يطمئنها.

- لا، لا! (قالت بقوة)

من الآن فصاعدًا سأوزِّع أنا وحدي البطاقات. لا أحد ينتبه لامرأة عجوز، أما أنت فمظهرك يلفت نظر الجميع يا أُوتُّو!

- لم ألفت نظر أحد طوال عامين يا أمي. ليس مطروحًا أن تُنفِذي أخطر ما في العمل بمفردك! هذا يعني أني أختبئ وراء مريلة المطبخ التي ترتدينها!

- أجل! (ردَّت بغضب)

هيا ألقِ عليَّ تلك الحجج الذكورية الحمقاء! ما هذا الهراء؟ أن تختبئ وراء مريلة المطبخ التي أرتديها! أعلم أنك شجاع، لكنك

لست حذرًا، وهذا ما عرفته الآن وهذا ما يدفعني للتصرف. ولتقل ما تشاء!

- آنّا.. (قال وأمسك يدها)

لا تفعلي مثلما تفعل الأخريات، تظلّين تُذَكِّرينني باقتراف نفس الخطأ! لقد قلت لك سأكون أكثر حذرًا ويجب أن تصدِّقيني في ذلك. لقد أديت المهمة لسنتين ولم أكن سيّئا؛ لِمَ ستسير الأمور على نحو سيِّئ في المستقبل؟

- لا أفهم ذلك. (قالت بعناد) مكتبة ياسمين

لِمَ لا أُوَزِّع البطاقات؟ فلقد كان يُسمح لي بذلك وفق الحاجة!

- هذا ما ينبغي أن تواصلي عمله. عندما يكون العدد كثيرًا أو عندما تداهمني آلام الروماتيزم.

- لكن أنا لديَّ وقت أكثر منك. وبالفعل أنا لا ألفت النظر، وساقاي أصغر. ولا أريد أن أموت من الخوف هنا في كل الأيام التي أعرف أنك فيها في الطريق.

- وما ظنُّكِ بحالي؟ هل تظنِّين أني سأجلس مرتاحًا في البيت وأنا أعرف أن آنّا في الخارج تجول؟ ألا تفهمين أني سأشعر بالخزي لو أنك تحمَّلت الخطر الأكبر؟ كلا يا آنّا، لا يمكنكِ أن تطلبي ذلك!

- إذًا فلنذهب معًا. أربعُ عيون ترى أفضل من عينين يا أُوتُّو.

- لو كنا اثنين فسنلفت الأنظار أكثر. واحد بمفرده يَتِيهُ أفضلَ بين الآخرين. كما أني لا أعتقد أن أربع عيون -في مسألةٍ كهذه-

أفضل من اثنتين؛ سيعتمد كلٌّ منّا على الآخر. وأساسًا، يا آنّا، لا تغضبي، سأتوتَّر وأنت إلى جواري، وأعتقد أن الأمر سيكون كذلك بالنسبة إليك.

- أَخْ! أُوتُّو! أعلم تمامًا أنكَ إن صمَّمت على شيء فأنت تنفذه. لا أستطيع أن أغلبك. لكني سأموت من الخوف الآن وقد صرتُ أعرف أنك في خطر.

- ليس خطرًا أكبر من ذي قبل، ليس أكبر من الوقت الذي وضعتُ فيه البطاقة الأولى في نوين كونيجزشتراسه. الخطر حاضرٌ دائمًا يا آنّا لكل مَن يفعل ما نفعل. أم تريدين أن نوقف الأمر بِرُمَّته؟

- لا! (صاحت بصوت عالٍ)

لا، ما كنت لأتحمل أسبوعين بدون هذه البطاقات! لم نعيش إذًا؟ إنها حياتنا، هذه البطاقات حياتنا!

ابتسم مُكْفَهِرًّا وبفخرٍ شجيّ تأمَّلها:

- يا آنّا.. هكذا أحبك. نحن لسنا خائفَيْنِ، نحن نعلم ما يتهدَّدنا، ونحن مستعدَّان، في كل ساعة نحن مستعدان. لكننا نأمل أن تتأخر هذه الساعة.

- لا لا. أفكِّر دائمًا أن هذا لن يحدث أبدًا. سنعيش بعد الحرب، سنبقى بعد النَّازِيّ، وبعدها...

- وبعدها؟

سأل هو أيضًا لأنهما فجأةً رَأَيَا النَّصر الذي تحقَّق، ومن بعده أمامهما حياة فارغة.

- والآن.. (قالت)

أظن أننا سنجدُ شيئًا يستحقُّ أن نحارب من أجله. ربما بشكل واضح بدون كل تلك المخاطر.

- الخطر.. الخطر ماثلٌ دائمًا يا آنًا وإلَّا فلن يكونَ هناك كفاحٌ. أحيانًا أعرف أنهم لن يقبضوا عليَّ، وأظلُّ أقلِّب الأمر ساعات وساعات «أين الخطر الذي ربما غفلت عنه؟»؛ أقلِّب الموضوع ولا أعثر على شيء، ورغم ذلك ثمة خطر، أشعر بذلك. ماذا يمكن أن نكون قد نسينا يا آنًا؟

- لا شيء، لا شيء إن كنت ستلزم الحذر في مسألة توزيع البطاقات...

هزَّ رأسه مُتَصَبِّرا:

- كلا يا آنًا، ليس هذا ما أعني. الخطر لا يقف على السلم ولا في أثناء الكتابة. الخطر في مكان آخر لا أستطيع رؤيته. فجأةً سنستيقظ ونعلم أنه كان هناك دائمًا لكننا لم نَرَه. وسيكون الوقت قد تأخر ساعتها.

ما تزال لم تَفْهَمْه:

- لا أعلم لِمَ حمَّلتَ نفسك الهموم فجأةً يا أُوتُّو! لقد فكَّرنا وجرَّبنا كل شيء مائة مرة. علينا فقط أن نلزم الحذر...

- الحذر! (صاح مستاء بسبب فهمها المتأخِّر)

كيف يمكن للواحد أن يأخذ الحذر من شيء لا يراه! أَخْ يا آنًا! أنت لا تفهمينني. لا يستطيع الواحد أن يحسب كل شيء في الحياة!

- نعم لا أفهمك.. (قالت وهي تهزُّ رأسها)

أظن أنك تقلق بلا داعٍ يا بابا. أظن أن عليكَ أن تنال قسطًا أوفر من النوم في الليل يا أُوتُّوَ؛ أنت تنام أقلَّ مما ينبغي.

صمَتَ. بعد برهة سألت:

- أتعرف ما اسم تْرُودِل بَاوْمَان الآن وأين تسكن؟

هز رأسه نافيًا:

- لا أعرف ولا أريد أن أعرف.

- لكني أريد أن أعرف! (قالت بعناد)

أريد أن أسمع بأذنيَّ هاتين، أن مسألة البطاقة قد باتت في طيِّ النسيان. ما كان ينبغي لك أن تترك الأمر لها يا أُوتُّو! ماذا تعرفُ طفلة كهذه عما تفعل بها؟ ربما وضعَت البطاقة في العراء وقُبِضَ عليها في أثناء ذلك. وهم عندما يمسكون بسيدة شابة بمخالبهم فسرعان ما سيعلَمون اسم جْفَانْجِل.

هزَّ رأسه:

- أعرف أنْ لا خطر يتهدَّدنا من ناحية تْرُودِل.

- لكني أريد أن أتيقَّن! (صاحت السيدة جْفَانْجِل)

سأذهب إلى مصنعها وأستعلم.

- لن تذهبي يا ماما! تْرُودِل لم تعد موجودة بالنسبة إلينا. كلا، لا تتحدَّثي، أنت ستبقين هنا. لا أريد أن أسمع كلمة أخرى عن هذا الموضوع.

وعندما رآها لا تزال عابسة قال:

- صدقيني يا آنّا، كل شيء سليم على النحو الذي قُلتُه لك. لسنا بحاجة إلى الحديث عن تْرُودِل ثانية، لقد انتهت هذه المسألة. ولكن...

(واصل بصوت منخفض)

... لكن عندما أستيقظ ليلًا عادةً ما أفكر أننا لن نخرج سالمين يا آنّا.

نظرت إليه وقد اتَّسعت عيناها دهشةً.

- وأرسم في خيالي كيف سيسير الأمر. من الجيد أن نتخيَّل شيئًا كهذا مسبقًا، كي لا يفاجئنا شيء. أتفكرين أحيانًا في ذلك؟

- لا أعرف عن أي شيء تتحدَّث تحديدًا يا أُوتُّو! (أجابت آنّا جْفَانْجِل بصدود)

وقف مستندًا إلى رفِّ الكتب الخاص بأُوتُّو الصغير، وأحد كتفيه يلمس صندوق الراديو الذي صنعه الفتى. كانت نظراته ثاقبة.

- بمجرد أن يعتقلونا سنفترق يا آنّا. ربما يرى بعضُنا بعضًا مرتين أو ثلاثًا، في التحقيق، وفي المحاكمة ربما لاحقًا لنصف ساعة قبل الإعدام...

- لا لا لا! (صرخت)

لا أريدك أن تتحدَّث عن ذلك! سننجو يا أُوتُّو، يجب أن ننجو!

وضع يده الكبيرة المنهكة على يدها الصغيرة الدافئة المرتجفة محاولًا تهدئتها:

- وعندما لا ننجو، هل ستندمين على شيء؟ هل ستودين إنكار أي شيء مما فعلناه؟

- لا، ولا أي شيء! لكننا سننجو من دون أن يكتشفوا أمرنا يا أُوتُّو، أشعر بهذا!

- أترين يا آنَّا.. (قال بدون أن يلتفت إلى كلامها)

كنت أريد أن أسمع هذا. لن نندم أبدًا على شيء. وسنتحمل مسؤولية ما فعلناه، حتى لو تمادَوا في تعذيبنا.

نظرت إليه وحاولت أن تكتم ارتعاشةً، لكن بلا جدوى.

- آه يا أُوتُّو! (صاحت باكية)

لم تتحدَّث هكذا؟ أنت تَجُرُّ علينا سوء الحظ بهذا الكلام. لَمْ تتحدَّث مطلقًا بهذه الطريقة!

- لا أعلم لماذا أتحدَّث إليك اليوم هكذا! (قال ثم ذهب عن رف الكتب)

عليَّ أن أفعلها. ربما لن أتحدَّث بذلك معك ثانية. لكن كان عليَّ أن أفعل ذلك لمرة، لأنك يجب أن تعرفي أننا سنكون بمفردنا تمامًا في الزنازين، بدون أن نتحادث، نحن اللذين لم نفترق يومًا منذ عشنا معًا.. لأكثر من عشرين سنة. سيكون صعبًا علينا. لكننا سنعلم أخبار بعضنا، أنْ لا أحد منا استسلم، وأننا نستطيع أن يعتمد بعضنا على بعض، مثلما فعلنا في كل مناحي الحياة، وحتى في الموت. سيتعيَّن على كل واحد أن يموت وحده يا آنَّا.

- أُوتُّو، أنت تتحدَّث كأن ساعتنا قد حانت فعلًا! فيما نحن طليقان متمتِّعان بحُرِّيتنا ولسنا موضع اتهام. يمكننا أن نتوقف عن ذلك في أي يوم إن أردنا...

- لكن هل نريد؟ هل يمكن لنا أصلًا أن نريد؟

- لا، لا أقول إننا نريد أن نتوقف. لا أريد ذلك وأنت تعلم! ولكن لا أريدك أن تتحدَّث كأنهم قد قبضوا علينا ولم يعد أمامنا إلا الموت. لا أريد أن أموت يا أُوتُّو، أريد أن أعيش معك!

- ومن يريد أن يموت؟ الكل يريد أن يحيا، الكل، الكل حتى أشقى دودة تصرخ من أجل أن تحيا. حتى أنا أريد أن أبقى حيًّا. لكن ربما يكون جيِّدًا يا آنَّا أن نفكِّر في الموت الصعب فيما نتمتَّع بالحياة الهادئة. حتى يعلم الواحد أنه سيتمكَّن من أن يموت ميتة محترمة بدون صراخ ونحيب. فهذا ما أجده مثيرًا للتقزُّز.

ساد الصمت لبعض الوقت.

وبعدها قالت آنَّا جْفَانْجِل بصوت منخفض:

- يمكنك أن تثقَ بي يا أُوتُّو. لن أتسبَّب لك في العار.

36

سقوط المفتش إشيرِش

في العام الذي تلا «انتحار» إيْنُوْ كْلُوْجِه الضئيل تمكَّن المفتش إشيرِش من أن يعيش حياة هادئة إلى حدٍّ ما لا يعكِّرها نفاد صبر رؤسائه. آنذاك، عندما أُبلغَ عن حادثة الانتحار تلك، اتَّضح أن الرجل أراد الإفلات من كل التحقيقات التي سيُجريها الجيستابو والشرطة العسكرية، وثارت بالطبع لدى قائد مجموعات العمل بْرَالْ عاصفة تلو عاصفة. لكن كل ذلك هدأ مع الوقت، وبرد الأثر وكان لا بد من انتظار أثر جديد.

كما لم يعد «شبح البحر» ذلك مهمًّا، فالرتابة التي يكتب بها البطاقات ذات المحتوى الواحد التي لم يقرأها أحد، ولا أراد أحد أن يقرأها، قد حيَّرت الناس أو أصابتهم بالخوف، لكنها جعلت البعض يضحك ويبدو له الفعل أحمق. لكنَّ إشيرِش ظلَّ مواظبًا على دسِّ الأعلام الصغيرة على خريطة برلين. وكان ينظر بِرِضًى لأنها صارت أكثر كثافةً شمالَ ميدان أليكسندر؛ لا بد أن عشَّ الطائر هناك! ثم هذه المجموعة من الأعلام، تقريبًا عشرة أعلام تقع جنوبي ميدان نولليندورف؛ لا بد أن «شبح البحر» يذهب إلى هناك أيضًا ولو على فترات متباعدة منتظمة. سيتضح كل ذلك ذات يوم.

«ستأتينا حقًّا! أنت بلا شك تقتربُ منَّا يومًا بعد يوم!» ابتسم المفتش وحكَّ يديه ببعضهما.

ثم عاد مرة أخرى إلى بقية أعماله، ثمة حالات أهم وأكثر إلحاحًا. فثمة مجنون «راسخ في النازية» كما يُطلِق على نفسه، دائمًا على عِلم بمجريات الأحداث، لا يفعل شيئًا سوى كتابةِ خطابٍ مُسِيءٍ، بل ذي محتوًى إباحي، إلى الوزير جُوبِلْز. في البداية كانت هذه الخطابات مسلية للوزير، ولاحقًا بدأت تغضبه، ثم بدأ يصيح ويطالب بالضحية، التي أصابت غرورَه في مقتل.

والآن كان من حسن حظ المفتش إشيرِش أنه تَسَلَّم قضية «الخنزير» كما أطلق عليها، واستطاع أن ينجزها في ثلاثة أشهر. كاتب الخطابات -الذي كان عضوًا في الحزب، عضوًا قديمًا فيه- أحضروه إلى الوزير جُوبِلْز، وهكذا تمكن إشيرِش من غلق القضية. كان يعلم أنه لن يسمع ثانية أبدًا عن «الخنزير»، فالوزير لا يتسامح أبدًا في أي إساءة تَوَجَّه إلى شخصه.

ثم جاءت قضايا أخرى، على رأسها قضية ذلك الرجل، الذي كان يبعث إلى الناس المهمين بمنشورات البابا وخطابات توماس مان الإذاعية، حقيقيَّة ومُزيَّفة. ماهرٌ ذلك الرجل؛ لم يكن من السهل القبض عليه. لكن في النهاية تمكن إشيرِش من حبسه في زنزانة الإعدام حتى موعد قطاف رأسه.

ثم ذلك المدير العام، الذي أصيب فجأةً بالجنون، وانتحل شخصيَّة المدير العام لمصنع حديد وهمي، وصار يبعث بخطابات سِرية إلى مديرين آخرين لمصانع قائمة فعلًا، بل كذلك إلى الزعيم،

ينبهه بالحالة المزرية لصناعة الأسلحة الألمانية، وفيها تفاصيل لا يمكن أن تكون ملفَّقة. لكن هذا الطائر كان من السهل اصطياده نوعا ما، فدائرة صغيرة من الناس فقط تملك هذه المعلومات.

أجل، المفتش إشيرِش حقَّق بضعة نجاحات، ودار حديث بين الزملاء عن أنه سرعان ما سيُرَقَّى ليخرج من صفوفهم. لقد كانت سنة سعيدة، تلك الفترة الزمنية التي تلت انتحار كْلُوْجِه الضئيل قضاها المفتش إشيرِش راضيًا.

لكن بعدها أتى وقت وقف فيه رؤساء إشيرِش صامتين أمام خريطة «شبح البحر». جعلوه يشرح لهم معنى الأعلام الصغيرة، كانوا يُومِئُون بتفكر، عندما يشار إليهم أنها أكثر كثافةً شمالي ميدان أليكسندر، وكانوا يُومِئُون بتفكُر أكبر عندما يشير إلى التجمُّع جنوبي ميدان نولليندورف ثم يقولون:

- وما الآثار التي تتعقَّبها الآن يا سيد إشيرِش؟ ما الخطط التي دبَّرْتَهَا من أجل الإمساك بشبح البحر ذلك؟ منذ الهجوم على روسيا صار الصبي أكثر نشاطًا! في الأسبوع الأخير كتب خمسة خطابات وبطاقات؟

- أجل! (قال المفتش)

وهذا الأسبوع كتب ثلاثة!

- إذًا ما الموقف يا إشيرِش؟ فكِّر في المدة التي ظلَّ الرجل يكتب فيها، مستحيل أن يستمرَّ الوضع على تلك الحال! ليس لدينا هنا هيئة إحصائية لتسجيل البطاقات التي تنمُّ عن خيانة عظمى، أنت موظف تعقُّب يا عزيزي! ولذا خبِّرني عن الآثار التي عثرت عليها!

تحت هذا الضغطَ اشتكى المفتشُ بمرارةٍ حماقةَ السيدتين اللتين رَأَتَا الرجل ولم تُوقفاه، ولم تتمكّنا حتى من الإدلاء بأوصاف دقيقة عنه.

- أجل أجل، كل هذا جميل وطيب يا عزيزي. لكننا لا نتحدَّث هنا عن غباوَةِ الشهود. نتحدَّث عن الآثار التي وجدها رأسك الذكي!

من أجل ذلك قادهم المفتش مرة أخرى إلى الخريطة وأراهم هامسًا أنَّ دائرة كبيرة ظلَّت خالية تمامًا من الأعلام.

- وفي هذه الدائرة يختبئ شبح البحر. فهو هنا لا يضعُ أي بطاقات لأنه معروف للغاية، لأنه يخشى دائمًا أن يراه جار. إنها مجرد عدة شوارع، لأناس بسطاء كلهم يسكنون هناك. وهو يقبع هناك.

- ولم تتركه هناك؟ لِمَ لَمْ تأمر بحملات تفتيش على المنازل في تلك الشوارع؟ عليك أن تمسك به. لا نفهمك! فأنت في العادة في غاية الكفاءة، أما في هذه القضية فلا تكف عن ارتكاب الحماقات الواحدة تلو الأخرى! لقد درسنا الملفات. وفيها قصة كْلُوْجِه الذي تركتَهُ طليقًا رغم اعترافه! ثم لم تهتمَّ بأمره وتركته ينتحر في الوقت الذي احتجنا فيه إليه أكثر من السابق! حماقةً تلو حماقةً يا إشيرِش!

فتل المفتش إشيرِش شاربه متوتِّرا، وسمح لنفسه بأن يشير إلى أن كْلُوْجِه -بشكل حاسم- لا علاقة له على الإطلاق بكاتب البطاقات. فالبطاقات البريدية ظلت تَرِدُ بلا تغيُّر قبل وفاته وبعدها.

- أعتبر اعترافه بأنَّ شخصًا لا يعرفه أعطاه البطاقة كي يضعها- اعترافًا مصدَّقًا بلا شك.

- حسن، إذا كنت تراه كذلك! نحن نرى من الضروري أن تفعل شيئًا حيال ذلك! والأمر سواءٌ لدينا، لكننا نريد أن نرى نتائج! فلتبدأ أولًا بحملات التفتيش في تلك الشوارع، ولنَرَ ما سيسفر عنه ذلك. بالتأكيد سيسفر عن شيء، فالعفن في كل مكان!

ومرةً أخرى أعرب المفتش إشيرِش بكل خضوع عن أن المسألة تتعلَّق فعلًا ببضعة شوارع، لكن فيها آلاف الشقق التي سيتعيَّن تفتيشها.

- سيثير ذلك قلق السكان، فالناس متوتِّرون بالفعل بدون كل ذلك بسبب زيادة هجمات الطيران، والآن سنعطيهم سببًا إضافيًّا للتذمر! لكن أيضًا.. ماذا يمكن أن يتوقَّع المرء من حملة تفتيش؟ ماذا يمكن أن نجد حقًّا؟ فالرجل لا يحتاج لفعلته الإجرامية إلا إلى محبرة وريشة، وهي متوفرة في كل بيت، وزجاجة حبر وما شابه. ثم ماذا؟ بضعُ بطاقات بريدية وما شابه. لا أعرف أي تعليمات يمكن أن أعطيها لرجالي الذين سينفِّذون التفتيش، عم يبحثون حقًّا؟ في أحسن تقدير سلبي.. كاتب البطاقات بالتأكيد ليس لديه جهاز راديو. ولا مرة وجدت في البطاقات إشارة إلى أنه استمدَّ الأخبار من الراديو. وغالبًا ما تكون معلوماته خاطئة. لا، لا أعرف من أجل ماذا أبدأ في حملات تفتيش المنازل.

- لكن عزيزَنا الأفضل إشيرِش.. نحن لم نعد نفهمك! أنت دائمًا لديك ما يؤرقك، لكن لا تقدم أي اقتراح بنَّاء! لا بد أن نقبض على الرجل، وبأسرع ما يكون!

- سوف نقبض عليه. (قال المفتش مبتسمًا)

لكن بسرعة حقًّا؟ لا أستطيع أن أعدَ بهذا. على أي حال لا أظن أنه سيواصل كتابة البطاقات لعامين تاليين.

يطلقون زفرة.

- لِمَ لا؟ لأن الوقت لا يعمل لصالحه. انظر إلى الأعلام. مئة أخرى وستكون الصورة لدينا أكثر وضوحًا. إنه فتًى عنيد بارد شبح البحر هذا، لكن لديه أيضًا عيوبًا. فالدم البارد ليس كل شيء. لا بد للمرء من بعض الحظ، وهذا ما كان حليفَه حتى الآن بصورة غير مفهومة. لكن المسألة مثل لعب الورق تمامًا، أيها السادة، لبعض الوقت يمكن للبطاقات أن تكون في صالح اللاعب، لكن فجأةً ينقلب الأمر. وفجأةً ستنقلب اللعبة على شبح البحر وسيسقط في أيدينا!

- كل هذا جميل جدًّا ومثير يا إشيرِش! أفضل نظرية جنائية، نفهم هذا. لكن نحن لا تشغلنا النظريات كثيرًا، ولا نسمع من كلامك إلا أننا سنضطر إلى الانتظار عامين آخرين إلى أن تقرِّر التصرُّف. وهذا ما لن نشارك فيه، بل إننا نقترح عليك، أن تعيد التفكير في القضية برُمَّتها مرة أخرى بدقة، وتقدم لنا - لنقل في أسبوع - مقترحاتك. وبعدها سنرى إن كنتَ الرجل المناسب لإغلاق هذه القضية أم لا. هايْلْ هتلر! إشيرِش!

لكن قائد مجموعات العمل بْرَالْ الذي كان مضطرًّا إلى الإبقاء على فمه مغلقًا بسبب وجود رتبة أعلى منه، اقتحم مرة أخرى غرفة إشيرِش:

- أنتَ يا حمار! أنتَ يا أحمق! أتظنُّ أنني سأترك قسمي يتعرَّض للعار بسبب سلحفاة مثلك؟ لديك مهلة أسبوع واحد! (هز قبضتَيْه بتوتر)

فلترحمك السماء إن لم يخطر ببالك أي أفكار في هذا الأسبوع! سأرغمك على ركوب الزلاجات!

وهكذا ظلَّ يثرثر لكن إشيرِش لم يعد يسمع أيًّا من ذاك الكلام.

وفي مهلة الأسبوع التي أعطُيت له انشغل المفتش إشيرِش بقضية «شبح البحر» لدرجة أنه لم ينشغل بها. فذات مرة سمح لنفسه أن يخرج عن تكتيك الانتظار الذي ثَبَتَ صوابه بسبب إلحاح رؤسائه، ونتج عن ذلك أن كل شيء اتَّخذ مسارًا خاطئًا، واضطر إِيْنُوْ كْلُوْجِه أن يُؤَمِّن ذلك.

ولا يعني ذلك أن الكْلُوْجِه تسبَّب له في الشعور بالذنب؛ إنه مجرد ثرثار منتحب بلا قيمة، لا يهم على الإطلاق إن عاش أو مات. لكن المفتش تعرض لكثير من التأنيب بسبب هذا الحيوان الضئيل، ولقد كلَّفه كثيرًا أن يغلق الفم الذي انفتح مرة. نعم في تلك الليلة التي لا يسعد بذكرها كان المفتش متوتِّرا للغاية، ولو أن الرجل الطويل الشاحب القاتم يكره شيئًا لكان هذا الشيء هو التوتُّر.

كلا، لن يدع أيَّ أحد يجرَّه مرة أخرى خارج صبره الذي صمم عليه، ولا حتى أعلى الرؤساء. ماذا يمكن أن يحدث له؟ إنهم يحتاجون إلى رجلهم إشيرِش، لأنه بالنسبة إليهم -وفي مسائل كثيرة- لا يمكن الاستبدال به. سيسبُّون ويصرخون، لكنهم في

النهاية سيفعلون الشيء الوحيد الصواب: الانتظار الصبور. كلا، ليس لدى إشيرِش أي اقتراحات.

كانت جلسة لا تُنسى. هذه المرة لم تكن في غرفة إشيرِش، بل في صالة برئاسة واحد من علية القادة. بالطبع لم تكن فقط قضية «شبح البحر» هي التي تُتَدَاوَل، بل دارت مناقشات حول قضايا كثيرة من أقسام أخرى. علت الإنذارات والصيحات والسخريات.

- المفتش إشيرِش، هلا عرضت علينا الآن ما تودُّ أن تخبرنا به حول قضية كاتب البطاقات؟

بدأ المفتش يعرض تقريرًا موجزًا حول ما حدث وما جُمِعَ إلى الآن. قدَّم ذلك بمهارة فائقة، وإيجاز، ودقة، بدون أن يخلو من مزاح، فيما يمسِّد شاربه متفكِّرًا.

ثم جاء سؤال الرئيس:

- وما مقترحاتك من أجل إغلاق هذه القضية المستمرة منذ عامين؟ عامين يا مفتش إشيرِش!

- لا أستطيع أن أنصح إلا بالانتظار الصبور، إذ لا حل آخر. لكن ربما يمكن أن تحال القضية إلى السيد مستشار الجنايات تْسُوتْ للمراجعة؟

ساد الصمت لوهلةٍ.

ثم انفجر الضحك الساخر وصاح صوتٌ «هَرَّاب!»، وصاح آخر «تخرب الدنيا ثم تُحِيلها إلى آخر!».

ضرب قائد مجموعات العمل بْرَالْ بقبضته غاضبًا على الطاولة:

- سأضطرك إلى ركوب الزلاجات، أنت يا حثالة!

«أرجو الهدوء التام!» نمّت نبرات الرئيس عن نفور؛ ساد الهدوء.

- لقد شاهدنا سلوكًا للتو يا سادة يكاد يماثل الهرب من الجندية. فرار جبان من وجه المتاعب التي يُحَتِّمُها أي صراع. كم يؤسفني ذلك! إشيرِش أنت مُعْفًى من مواصلة حضور الجلسة. انتظر في مكتبك إلى أن تصلك أوامري!

امتقع وجه المفتش تمامًا - لأنه لم يتوقع رد فعل كهذا - وانحنى. ثم توجه نحو الباب، وهناك طرقع نعليه وصاح بذراع ممدودة: هايْلْ هتلر!

لم يلتفت إليه أحد. ذهب المفتش إلى غرفته.

ظهرت الأوامر التي صدرت بخصوصه أولًا في هيئة رجلين من رجال الشرطة العسكرية، كانا يحدِّقان إليه بعبوس، وقال له أحدهما مهدِّدا:

- إياك أن تمسَّ شيئًا هنا، أتفهم!

أدار إشيرِش رأسه ببطء نحو الرجل الذي يتحدَّث إليه بهذه الطريقة. كانت هذه نبرة جديدة. ليس لأنه لا يعرفها من قبل، بل لأنها لم تستعمل ضده من قبل. رجل الشرطة العسكرية بسيط، مجرد غلام؛ لا بد أن موقف إشيرِش سيِّئ ما دام الغلام يتحدَّث مع المفتش بهذه النبرة.

وجه قاس، أنف مضغوط، ذقن طويل مدبب، يميل إلى أفعال خشنة، مستوى الذكاء متراجع، سيكون خطيرًا في حالة السكر، هكذا لخَّص إشيرِش أوصافه. ماذا قال البعير الأكبر هناك؟ هرب

من الجندية؟ يا للهزل! المفتش إشيرِش يهرب من الجندية! لكن هذا فِعل يليق بهؤلاء الإخوة الكبار، فهم دائمًا ما يتكلمون باستخدام تلك الكلمات الفخمة، وبعدها لا يحدث أي شيء!

دخل قائد مجموعات العمل بْرَالْ والمستشار الجنائي تْسُوتْ.

«ها هم قد قَبِلوا اقتراحي! فهذا أعقل ما يمكن أن يفعلوه رغم أني لا أعتقد أن حتى هذا المُدقِّق الماكر يمكن أن يأتي بجديد!».

أراد إشيرِش أن يُحَيِّي المستشار الجنائي تْسُوتْ بودٍ، ليُظهر له أنه ليس مستاءً من إحالة القضية إليه، لكنَّ رجلين من الشرطة العسكرية طرحاه جانبًا بخشونة وصاح فيه صاحب وجه الجلاد:

- أُعرِّفك برجال الشرطة العسكرية دُوبَاتْ وياكُوبي، ومعهما معتقل!

«معتقل؟! هل هذا أنا؟» فكَّر إشيرِش متعجِّبًا. وبصوت عالٍ:

- قائدَ مجموعات العمل، هل تسمح لي أن...

- اجعلوا الحمار يغلق جَحْفَلَتَهُ! (صاح بْرَالْ الذي ربما ناله بعضُ العقاب كذلك)

كوَّرَ رجل الشرطة العسكرية دُوبَاتْ قبضته وَلَكَمَ بها إشيرِش في فمه؛ شعر بألم فائر وبمذاق دم في فمه. ثم انحنى ولفظ عدة أسنان على السجادة.

وفيما هو يفعل كل ذلك بطريقة آلية -حتى الألم لم يكن يؤلم بحقٍّ- فكَّر: «لا بد أن أوضِّح الأمر فورًا. بالطبع أنا مستعد لفعل أي شيء، حملات تفتيش في برلين كلها، نشرُ جواسيس في كل

منزل يكثر فيه الأطباء والمحامون. سأفعل كل شيء تريدونه، لكن لا يمكنكم أن تضربوني هكذا في فمي، أنا، الخبير الجنائي القديم! وحامل وسام استحقاق الحرب!».

وفيما هو يفكِّر كالمحموم يبحث آليًّا عن طريقة يتخلَّص بها من قبضات رجال الشرطة العسكرية حاول أن يتكلم، لكنه لا يستطيع على الإطلاق بسبب الشفة العليا الممزقة والفم النازف. وفي أثناء ذلك قفز قائد مجموعات العمل بْرَالْ أمامه وأمسك به من صدره بيديه الاثنتين وصرخ:

- ها قد أمسكنا بك أخيرًا، أيها المتكبِّر الذكي الذي لا يُخرِج إلا الهراء من الأفكار! لطالما ظننتَ أنك في منتهى الدهاء كلما ألقيت في وجهي بهرائك الذكي، أليس كذلك؟ هل تظنُّ أني لم ألاحظ أنك تراني غبيًّا، وترى نفسك متَّقد الذكاء؟ هه؟ لا، الآن أنت في قبضتنا، وستُضطر إلى التزلج على الزلاجات، فلتجرب ذلك!

حدق بْرَالْ لوهلة -يكاد يفقد الوعي من الغضب- إلى وجه الرجل النازف.

صاح:

- هل تبصق دم الكلاب القذر على السجادة أم ماذا؟ ابلع الدم يا كلب وإلا سدَّدت لك فورًا بنفسي ضربة في جَحفَلَتِكَ!

والمفتش إشيرِش... لا، الرجلُ المنتحِبُ الخائف إشيرِش، الذي كان قبل ساعة واحدة مفتشًا نافذًا لدى الجيستابو، بذل جهوده - والعرق يتفصَّد من جبينه- أن يبتلع الدم الذي ينزفه كي لا يوسخ السجادة، سجادته، لا، إنها الآن سجادة سيادة المستشار الجنائي تْسُوتْ.

راقب قائد مجموعات العمل هذا السلوك المنتحب للمفتش بعينين نَهِمتين. والآن استدار نحو إشيرِش بغضب:

- أَخْ. ما هذا؟ (وسأل المستشار الجنائي)

هل تحتاج إلى الرجل في أي توضيح يا سيد تْسُوتْ؟

جرت العادة كأنها قانون غير مكتوب، أن يساند كل الكبار الذين خدموا في الجيستابو في القسم الجنائي بعضهم بعضًا في السراء والضراء، مثلما أن رجال الشرطة العسكرية يساندون بعضهم بعضًا -غالبًا- ضد الموظفين الجنائيين. لم يخطر ببال إشيرِش قطُّ أن يُسلِّم زميلًا إلى الشرطة العسكرية مَهمَا بَدَا مذنبًا. كان ليبذل جهدًا في حجب أكبر الجرائم الجالبة للعار عنهم. والآن عليه أن يختبر النظرة العابرة التي ألقاها عليه المستشار الجنائي قبل أن يقول ببرود:

- هذا الرجل؟ يوضح؟ شكرًا قائدَ مجموعات العمل. أفضِّل أن أتبيَّن كل شيء بنفسي!

- اذهبوا بالرجل.. (صاح قائد مجموعات العمل)

وادعموا ساقيه يا شباب!

وبإيقاع سريع جُرَّ إشيرِش بين رَجُلَي الشرطة العسكرية عبر الردهة، نفسِ الردهة التي رَكَلَ فيها بُوزْكْهاوْزِن بقدمه قبل سَنَة تقريبًا، ضاحكًا على النكتة. وعلى نفس السلالم الحجرية قذفوا به، وفي نفس المكان الذي ظلَّ فيه بُوزْكْهاوْزِن راقدًا ينزف. ثم توالت عليه الركلات إلى أن قذفوه في الزنزانة.

آلمه كل مفصل من مفاصله، ثم توالت الضربات واحدة بعد الأخرى؛ خرج من العالم المتحضر إلى عالم الحيوان، إذ وُزِّعَت متعلَّقاته بوقاحة بين رجال الشرطة العسكرية. وطوال الوقت يتلقى الركلات والتهديدات والضربات.

أجل، رغم أن المفتش إشيرِش كثيرًا ما شهد ذلك في السنوات الأخيرة، لم يَرَ فيه ما يدعو إلى الاستياء أو العجب، لأن ذلك يقع للمجرمين، وبالتالي كان عدلًا. أما هو المفتش الجنائي إشيرِش، أن يعد مِن المجرمين الخاطئين، فلم يدخل هذا عقله؛ لم يقترف أي جريمة. فقط قدَّم اقتراحًا بأن يُسمح له بتسليم المسألة التي لم يقدِّم فيها أيٌّ من رؤسائه جميعهم، أيَّ اقتراح مفيد. لا بد أنَّ يتضح الأمر ويخرجوه مرة أخرى! لا يمكن لهم أن يستمروا بدونه! وإلى ذلك الحين عليه أن يحافظ على سلوكه، لا ينبغي أن يُظهر الخوف، ولا حتى سيسمح لآلامه أن يلاحظها غيره.

لقد جلبوا واحدًا للتوِ إلى الزنزانة. نشَّالٌ صغير -كما سَمِع- بلغ سوء حظه أن قُبض عليه وهو يحاول أن يسرق زوجة قائد كبير في كتيبة العصف.

لا بد أنهم نالوا منه في الطريق، مخلوق بَكّاء، تفوح منه رائحة الغائط، ينزلق راكعًا على ركبتيه كل حين ويحيط بسيقان رجال الشرطة العسكرية مُتوَسِلًا ألا يفعلوا به شيئًا بحق العذراء! ويسألهم الرحمة، وسيكافئهم عليها يسوع!

ضحك رجال الشرطة العسكرية على هذا الصغير الذي يطوِّق سيقانهم ويضربونه في منتصف وجهه في أثناء وصلة الشحاذة،

فيدور النشَّال حول نفسه على الأرض صارخًا، إلى أن يعود ناظرًا إلى الوجوه القاسية، ظانًّا أنه قد رأى في أحدها بريق الرحمة فيبدأ في توسلاته من جديد.

سيبقى المفتش إشيرِش العظيم في نفس الزنزانة مع هذه الدودة، مع هذا الجبان الذي تفوح منه رائحة الغائط.

37

الإنذار الثاني

قالت آنّا بتردُّد صباح يوم أحد:

- أظن يا أُوتُّو أن علينا أن نتفقَّد أخي أُولْرِشْ. تعلم أنه دورنا؛ لم نَرَ أيًّا من آل هِفْكِه منذ ثمانية أسابيع.

رفع أُوتُّو جْفَانْجِل رأسه عما يكتب:

- جميل يا آنّا، إذًا الأحد القادم. هل يناسبك؟

- أفضِل لو أننا ذهبنا هذا الأحد يا أُوتُّو. أظن أنهم في انتظارنا.

- بالنسبة إليهم فهذا الأحد مثل غيره. فليس لديهم عمل إضافي، أولئك الخانعين!

وضحك ساخرًا.

- لكن الجمعة كان عيد ميلاد أُولْرِشْ.. (أضافت السيدة جْفَانْجِل) لقد خبزتُ له كعكة صغيرة أريد أن أوصلها له. بالتأكيد هم في انتظارنا اليوم.

- في الحقيقة أريد اليوم أن أكتب خطابًا علاوة على هذه البطاقة. (قال جْفَانْجِل مغتاظًا) لقد رتبت نفسي على ذلك. ولا أحب أن أغير البرنامج الذي وضعته لنفسي.

- من فضلك يا أُوتُّو!

- ألا يمكن أن تذهبي بمفردك يا آنًّا وتقولي لهم إنني غارق في انشغالاتي؟ لقد فعلتِ ذلك من قبل!

- بسبب أنني فعلت ذلك من قبل لا أريد أن أكررها! (رَجَتْهُ آنًّا) خصوصًا في عيد ميلاده...

نظر جْفَانْجِل في وجه زوجته المُتوَسِّل. أراد أن يسعدها بفعل هذا الصنيع لكن فكرة أنه سيترك حجرته اليوم جعلته متعكر المزاج.

- لقد أردتُ أن أكتب الخطاب اليوم يا آنًّا! الخطاب مهم. لقد فكرت في صيغته.. وسيكون له بالتأكيد تأثير كبير. ثم، يا آنًّا، لقد عرفتُ بالفعل كل حكايات الطفولة التي تخصُّكم، عرفتها وحفظتها عن ظهر قلب. أُصاب بالملل عند آل هِفْكِه. لا شيء يجمعني في الحديث معه، وزوجته تجلس أيضًا متجمدة في تلك الأثناء. ما كان ينبغي أن نبدأ حكاية زيارات الأقارب تلك. فالأقارب مزعجون! نحن كافيان معًا!

- حسن يا أُوتُّو! (استسلمَتْ جزئيًّا)

هذه هي الطريقة التي نريد بها أن تكون زيارتنا الأخيرة إليهما. أعدك ألا أطلب هذا ثانية. لكن اليوم فقط لأني خبزت الكعكة وأُولْرِش يحتفل بعيد ميلاده. هذه المرة اليوم فقط من فضلك يا أُوتُّو!

- اليوم تحديدًا مزاجي لا يسمح بذلك.

قال. لكن هزمته عيناها المُتوَسِّلتان، فقال أخيرًا متذمرًا:

- حسن يا آنَّا، سأفكر في الأمر. إلى الظهيرة حين أكون قد أنهيت كتابة بطاقتين.

وفي الظهيرة كان قد أنجز بطاقتين، وهكذا خرج آل جْفَانْجِل قرابة الساعة الثالثة من منزلهما. كانا يريدان الذهاب إلى ميدان نولليندورف باستخدام مترو الأنفاق، لكنْ قبل شارع بولوف بقليل، اقترح جْفَانْجِل على زوجته أن ينزِلَا، لربما يكون ما يمكن عمله.

كانت تعرف أن معه البطاقتين في جيبه، فهمَتْه على الفور وأومأت.

سارا في شارع بوتسدام من دون أن يجِدَا بيتًا مُناسبًا. ثم اضطُرا إلى الانعطاف يمينًا في شارع فينترفيلد وإلَّا بَعُدَا كثيرًا عن شقة صهره، وبَحَثَا مرة أخرى.

- ليست منطقة جيدة مثل عندنا! (قال جْفَانْجِل باستياء)

- واليوم الأحد؛ خذ حذرك وكفى!

- أنا حذر بالفعل. وسأدخل إلى هذه!

لم يكن لديها ما تقول، فلقد اختفى في التوِّ داخل البناية.

وبالنسبة إلى آنَّا فقد بدأت الآن دقائق الانتظار، هذه اللحظات المعذِّبة دائمًا التي تخشى فيها على أُوتُّو ولا تستطيع أن تفعل شيئًا سوى الانتظار.

«يا إلهي!» فكَّرت وهي تراقب المنزل.. «لا يبدو بحالة جيدة على الإطلاق! ربما ما كان ينبغي أن أقنعه أن نأتي إلى هنا. لم يكن يريد، لقد لاحظتُ ذلك عليه. ولم يكن هذا فقط بسبب الخطاب

الذي كان يريد أن يكتبه. لو أن شيئًا أصابه اليوم لظَلَلْتُ ألوم نفسي إلى الأبد! ها قد حضر أُوتُّو!».

لكن ذلك لم يكن أُوتُّو الذي خرج من المنزل، كانت سيدةً ألقت نظرة حادَّة على آنَّا وهي تمرُّ بها؛ «هل نظرت هذه إليَّ بعجرفة للتو؟ أظن أنها فعلت ذلك. هل حدث شيء في المنزل؟ لقد طال غياب أُوتُّو في الداخل، بالتأكيد عشر دقائق! أَخ، هذا ما أعرفه من المرات العديدة.. عندما يظلّ الواحد منتظرًا أمام البيت يبدو له أن الوقت لا يتحرَّك أبدًا. الحمد لله، ها قد أتى أُوتُّو هذه المرة فعلًا!».

أرادت أن تذهب إليه، لكنها بقيت مكانها.

لأن أُوتُّو لم يخرج وحده من البيت، لكنه كان مصحوبًا بسيد طويل للغاية يرتدي معطفًا أسودَ ذا ياقة مخملية، وكان نصف وجهه به ندبة كبيرة من أثر حريق. وفي يده حمل هذا السيد حافظة أوراق سوداء سميكة. بدون أن يتحادثا مرَّ كلاهما بآنَّا التي كاد قلبها يتوقَّف من الهلع، وتوجَّهَا إلى ميدان فينترفيلد. تبِعَتْهُما بقدمين تكادان تعجزان.

«ما الذي حدث؟» سألت نفسها مذعورة.. «من هذا السيد الذي يسير مع أُوتُّو؟ هل يمكن أن يكون هذا أحد رجال الجيستابو؟ منظره مرعب جدًّا خاصَّة بالندبة تلك! لا يتبادلان كلمة واحدة بينهما. يا إلهي! ليتني ما أصررتُ على أُوتُّو كي نخرج. يتصرَّف كأنَّه لا يعرفني، لا بد أنه في خطر إذًا! تلك البطاقة اللعينة!».

فجأةً لم تعد آنَّا تحتمل؛ ذلك الجهل القاتل لا تقدر أن تحتمله مدة أطول. أظهرت حسمًا غير معهود فيها وتابعت الرجلين حتى تجاوزتهما وظلَّت واقفة.

- سيد بيرند! (صاحت ومدَّت يدها نحو أُوتُّو)

من الجيد أن قابلتك! لا بد أن تحضر إلينا الآن. لدينا كسرٌ في ماسورة المياه والمطبخ كله غارق!

قطعت كلامها، ورأت أن السيد ذا الندبة ينظر إليها بتعجُّب وسخرية واحتقار.

لكن أُوتُّو قال:

- سأحضر حالا إليكم. أريد فقط أن أوصل السيد الدكتور إلى زوجتي.

- أستطيع أن أذهب بمفردي! (قال الرجل ذو الندبة)

قلت شارع 17؟ حسن. أرجو أن تلحق بي بسرعة.

- خلال ربع ساعة يا دكتور، على الأكثر خلال ربع ساعة أكون لحقت بك. سأغلق فقط الحنفية الرئيسية.

وبعد عشر خطوات ضغط على ذراع آنَّا على صدره بحنان غير مسبوق.

- لقد فعلتِ ذلك ببراعة يا آنَّا! لم أكن أعلم كيف يمكن أن أتخلَّص من الرجل! كيف جاءتك الفكرة؟

- من كان هذا؟ طبيب؟ لقد تخيَّلت أنه واحد من الجيستابو ولم أقدر على تحمُّل عذاب الانتظار. اِمْشِ ببطء يا أُوتُّو، فكلٌ

مفاصلي ترتعش. منذ قليل لم أكن أرتجف، لكن الآن! ماذا حدث؟ هل يعرف شيئًا؟

- لا شيء. اهدَئِي تمامًا. لا يعرف أي شيء. لم يحدث شيء يا آنًّا. لكن منذ الصباح الباكر، منذ قلتِ لي إنَّ علينا أن نذهب إلى أخيك، ثمة شعورٌ سيِّئ لا يفارقني. ظننت أنه بسبب الخطاب الذي أردتُ أن أكتبه. وبسبب الملل لدى آل هِفْكِه. لكني الآن أعلم أنه بسبب أنني كنت أشعر أن شيئًا ما سيحدث اليوم. الأفضل ألا أخرج اليوم من البيت...

- وهل حدث فعلًا يا أُوتُّو؟

- كلا، على الإطلاق. لقد قلت لك بالفعل ألا شيء قد حدث يا آنًّا. كنت أصعد السلم وأردت أن أضع البطاقة، كانت في يدي، فإذا بذلك الرجل يأتي مسرعًا من الشقة. أقول لك يا آنًّا، كان يركض وكاد يدهسني. لم يكن لديَّ وقت كي أخبئ البطاقة. «ماذا تفعل هنا في البيت؟» صاح فيَّ فورًا. تعرفين لديَّ تلك العادة في أن ألاحظ اسم أي أحد في البيت من اللوحات المعلقة في المدخل؛ «أريد الذهاب إلى د. بول» قلت له. «هذا أنا» قال مرة أخرى. «ما الأمر؟ هل أحد مريض بالمنزل؟»، لم أجد أمامي سوى أن أدَّعي أنكِ مريضة وأن عليه أن يمرَّ علينا. والحمد لله أني تذكَّرت اسم أحد الشوارع. ظننت أنه سيقول سأمرُّ في المساء أو صباح الغد لكنه صاح في التوِّ «مناسب تمامًا! فهذا بالفعل في طريقي! تعال معي يا سيد شْمِيتْ!»، لقد سمَّيتُ نفسي شْمِيتْ، أتفهمين؟ كثير من الناس اسمهم فعلًا شميدت!

- أجل، وأنا خاطبتك أمامه بسيد بيرنت! (قالت آنا بذعر)
لا بد أنه انتبه لذلك!
ظل جْفَانْجِل واقفًا:
- فعلًا! لم أفكر في هذا على الإطلاق! لكن لا يبدو أن الأمر لفت نظره. الشارع فارغ. لا أحد يتبعنا، وفي شارع فون-أينم سيبحث عنَّا بالطبع، لكننا سنكون جالسين مع آل هِفْكِه.
وقفت آنَّا:
- أتعلم يا أُوتُّو، الآن أنا التي تقول دعنا لا نذهب اليوم إلى أُولْرِشْ. الآن لديَّ إحساس أن اليوم سيِّئ. دعنا نعُد إلى البيت. أما البطاقات فسأتولى توزيعها غدًا.
لكنه هز رأسه ضاحكًا:
- لا، لا، يا آنَّا. نريد كذلك أن ننجز هذه الزيارة. لقد اتفقنا على أن تكون هذه هي الزيارة الأخيرة. علاوة على ذلك لا أريد أن أذهب الآن تحديدًا إلى ميدان نولليندورف. فلربما قابلنا الطبيب ثانية.
- فلتعطِنِي البطاقات إذًا على الأقل! لا أريدك أن تتحرك الآن بها في جيبك!
وبعد معارضة مبدئية ناولها البطاقتين البريديتين.
- هذا ليس يومَ أحدٍ طيِّبًا يا أُوتُّو!

38

الإنذار الثالث

لكنْ عند آل هِفْكِه نَسِيَا كل تشاؤمهما السابق. اتَّضح أنهم بالفعل كانوا ينتظرونهما. أيضًا زوجة الأخ القاتمة العابسة خبزت كعكًا، وبعدما فرغوا من أكل الكعكتين أحضر أُولْرِشْ هِفْكِه زجاجة خمر أهداها له زملاؤه في المصنع. شربوا ببطء ومتعة في أكواب صغيرة الشرابَ غير المألوف لهم جميعًا، ما جعلهم أكثر حيوية من المعتاد وأكثر رغبة في الكلام. وأخيرًا -بعد أن فرغت الزجاجة- بدأ الأحدب القصير ذو العينين الرقيقتين يغني أغانيَ كَنَسِيَّة، ويردِّد مقاطع من الكورال: «كم يكلف أن تكون المسيح؟» و«هَلُمَّ إلى حصونك، وكن ضيف قلبي»، إلى آخر المقاطع الثلاثة عشر. غناها بأسلوب الفالصيتو، حيث ترتفع النبرات أعلى من المعتاد، ما جعل وقعها رائقًا وخاشعًا، حتى أُوتُّو جْفَانْجِل شعر أنه يعود إلى أيام طفولته وقت أن كانت هذه الأغاني تعني له شيئًا، حينما كان مؤمنًا ما يزال.

وقتذاك كانت الحياة بسيطة، لم يكن مؤمنًا فقط بالله، بل بالناس. كان يعتقد أن أقوالًا مثل «أحبِبْ أعداءَك» و«طوبى لصانعي السلام»- لها صلاحية سارية على الأرض. لقد اختلف الأمر كليةً منذ ذلك الحين وبالتأكيد لم يتغيَّر إلى الأفضل. لم يعد

بوسع أحد أن يؤمن بالإله، كان مستحيلًا أنَّ إلهًا رحيمًا يسمح بكل الشنائع الموجودة في العالم اليوم، أما البشر، أولئك الخنازير...

غنى الأحدب أُولرِشْ هِفْكِه بصوت عالٍ ونقي: «أنت إنسان، أنت تعرف هذا، ما الذي يجعلك تطمح إلى الأشياء؟».

لكن أن يبقَيَا لتناول العشاء فهذا ما رفضه آل جْفَانْجِل ببساطة. أجل، لقد قضَيَا وقتًا في غاية اللطف ولكن من الضروري الآن أن يعودَا إلى البيت. إذ إن أُوتُّو لا يزال عليه أن يُنهي بعض الأمور.

ورغم كل توكيدات آل هِفْكِه أنه يمكن للمرء أن يُفَوِّت مرة، لكن ليس كل أحدٍ نحتفل فيه بِعِيد ميلاد، وكل شيء معد بالفعل وعليهما فقط أن ينظرا في المطبخ، وليس عليهما القلق بخصوص مسألة بطاقات الغداء- رغم كل هذه التوكيدات، أصر آل جْفَانْجِل على رأيهما بأنه لا يزال يتحتم عليهما العودة إلى المنزل.

ومضيا فعلًا، رغم أنَّ آل هِفْكِه انزعَجَا جدًّا. في الشارع قالت آنَّا:

- أرأيت، بدا على أُولرِشْ الانزعاج، وكذلك زوجته...

- فليبقيا منزعجين كما يحلو لهما! في كل الأحوال هذه زيارتنا الأخيرة!

- لكن هذه المرة كانت في غاية اللطف، ألا ترى ذلك يا أُوتُّو؟

- بالتأكيد. أسهمت الخمر كثيرًا في ذلك...

- وأُولرِشْ غنَّى غناء عذبًا، ألم تجد ذلك جميلًا يا أُوتُّو؟

- بلى. جميل جدًّا. يا له من فتى غريب! أنا متيقِّن أن لا يزال يصلي كل مساء للإله الرحيم.

- اتركه لحاله يا أُوتُّو! فهؤلاء المتدينون تسهل عليهم الحياة هذه الأيام. عندهم مَن يستطيعون التوجُّه إليه في حزنهم. ويعتقدون أن كل هذا القتل له معنى.

- شكرًا! (قال جْفَانْجِل فجأةً غاضبًا)

معنى! الأمر كله هراء! لأنهم يؤمنون بالسماء، لا يريدون تغيير شيء على الأرض. فقط يزحفون ويضغطون أنفسهم! في السماء يصير كل شيء جيد. الله يعلم بالتأكيد لِمَ يحدث ما يحدث! يوم القيامة سنعرف نحن كل شيء! لا شكرًا.

لقد تحدث جْفَانْجِل بسرعة وغضب. الكحول غير المعتاد أحدث أثره فيه. فجأةً ظل جْفَانْجِل واقفًا:

- هذا هو المنزل! (قال فجأةً)

أريد أن أدخل! أعطني بطاقة يا آنًّا!

- أوه، لا يا أُوتُّو. لا تفعل! لقد اتفقنا ألا نفعل شيئًا زيادة اليوم. إنه يوم سيِّئ!

- لم يعد، لم يعد سيِّئا الآن. أعطني البطاقة يا آنًّا!

أعطته إياها بعد تردُّد:

- أتمنى ألا يحدث سوء. لديَّ ذلك الخوف...

ولكنه لم يُعِر كلماتها انتباهًا، كان قد مضى فعلًا.

انتظرت. لكن هذه المرة لم تكن في حاجة إلى أن تطول مدة خوفها إذ إن أُوتُّو قد عاد بسرعة.

- إذًا؟! (قال وشبك ذراعها)

لقد أُنجِز الأمر. أترين كيف كان بسيطًا؟ ليس علينا أن نذعن لتلك المشاعر.

- الحمد لله!

لكن بمجرد أن خَطَوَا بضع خطوات نحو ميدان نولليندورف، داهمها رجل. وفي يده بطاقة جْفَانْجِل.

- أنتَ! أنتَ! (صاح بثورة عارمة)

لقد وضعتَ لتوِّك هذه البطاقة عندي في الطرقة! لقد رأيتكَ! يا شرطة! يا عساكر!

وظل يصيح بصوت أعلى. جرى الناس نحوهم، وأتى رجل شرطة مسرعًا عبر الجسر.

لم يعد ثمة شك؛ لقد انقلبت اللعبة فجأةً على آل جْفَانْجِل. بعدما عمل الحِرفيُّ بنجاح لعامين انقلب حظه فجأةً. إخفاق بعد آخر. في هذه النقطة كان المفتش إشيرِش محقًّا؛ لا يمكن أن نلعب أبدًا مع الحظ، وعلينا أن نحسب حساب سوء الحظ. لقد نسي أُوتُّو جْفَانْجِل ذلك. لم يفكِّر في المصادفات الصغيرة المعاكسة التي تقدِّمها الحياة دائمًا، ولا يستطيع المرء أن يتنبَّأ بها، وعليه -رغم ذلك- أن يحسب حسابها.

في هذه الحالة جاءت المصادفة على صورة موظف بسيط مغلول كان يمضي يوم الأحد في التجسُّس على جارته. فهو ممتلئ بالغضب تجاهها لأنها تتأخَّر في الاستيقاظ صباحًا، وترتدي سروالا رجاليًّا طوال الوقت وتترك الراديو إلى ما بعد منتصف الليل بكثير. كان يشكُّ في أنها تستقبل فِتْيةً في شقتها. إن كان ذلك صحيحًا فسيجعل

حياتها مستحيلة في البيت كله. سيذهب إلى المسؤول ويبلغه أنه من المستحيل أن تبقى تلك العاهرة في بيته المحترم.

كان يراقبها عبر العين السحرية في بابه لأكثر من ثلاث ساعات إلى أن صعد الدَّرَجَ أُوتُّو جْفَانْجِل بدلًا منها. ولقد رآه، رآه بعيني رأسه، وهو يضع البطاقة على درجة السلم؛ كان يفعل ذلك أحيانًا عندما يجد أن نوافذ المنور بلا جلسات.

- لقد رأيتُهُ، بعينَيْ رأسي رأيته! (صاح الغاضب في الشرطي ولوح بالبطاقة)

اِقرأ هنا يا سيادة الشرطي! هذه خيانة عظمى! يستحق الفتى أن يعلق على المشنقة!

- توقف عن الصراخ هكذا! (قال الشرطي مستاءً)

ألا ترى أن السيد الآخر في منتهى الهدوء؟ لن يهرُب. والآن هل الأمر كما يصوِّره هذا الرجل؟

- هراء! (أجاب أُوتُّو جْفَانْجِل بغضب)

لا بد أنه رأى شخصًا آخر. لقد كنت في زيارة لعديلي في شارع جولتس. أما هنا في ماسينشتراسه فلم أدخل أي بيت. أسأل زوجتي...

نظر حوله باحثًا، كانت آنًا تدفع نفسها وسط الدائرة الكثيفة التي شكّلها جمع الفضوليين. فكّرت فورًا في البطاقة الثانية التي في حقيبتها، لا بد أن تتخلص منها فورًا، هذا أهم شيء. دفعت نفسها وسط الناس، رأت صندوق بريد وبدون أن يلحظها أحد - فالكل كان ينظر نحو الرجل الذي يصرخ- دست البطاقة في الصندوق.

والآن هي تقف إلى جوار زوجها وتبتسم نحوه مشجعة.

وفي هذه الأثناء قرأ الشرطي البطاقة؛ صار جادًّا ودسها في كمه. كان يعلم بأمر هذه البطاقات، فكل قسم شرطة قد أُعلِمَ بشأنها عشرات المرات، كان تعقُّبُ ولو أقل أثر فرضًا واجبًا.

- ستحضرون كلكم معي إلى مقر الحراسة! (حسم أمره)

- وأنا؟ (صاحت آنًّا جْفَانْجِل مستاءة ووضعت ذراعها في ذراع زوجها)

سآتي معكم! لن أترك زوجي يذهب بمفرده!

«لديك حق يا أمُّ».. صاح الصوت العميق من جمع المتفرجين، «فلا أحد يعرف ما سيفعله الإخوة.. حافظي على زوجك!».

- هدوءًا! (صاح الحارس)

هدوءًا! ارجعوا إلى الوراء! ليس ثمة ما تشاهدونه هنا!

لكن الجماهير كان لها رأي آخر. ورأى الشرطي أنه من المستحيل أن يراقب ثلاثة من البشر ويفرِّق جمعًا من الناس يزيد على خمسين من العابرين، لذا تخلَّى عن دفع الناس إلى التراجع.

- أحقًّا تظنّ أنك غير مخطئ؟ (سأل المُدَّعِي الغاضب)

هل كانت السيدة معه على السلم؟

- لا لم تكن معه. لكني غير مخطئ بالتأكيد سيدي الحارس! (وبدأ يصرخ مجدَّدًا)

لقد رأيته بعيني، لقد كنت أنظر من العين السحرية لما يزيد على ثلاث ساعات...

صاح صوت رنَّان باستياء «جاسوس حقير لعين!».

- إذًا فليأت ثلاثتكم معي! (قرر الحارس)

ابتعدوا! ألا ترون أن السادة يريدون المرور! يا له من فضول أحمق! من فضلك أيها السيد الطويل!

في القسم اضطُروا إلى الانتظار خمس دقائق قبل أن يُستَدعَوا إلى غرفة المناوب، رجل طويل ذو وجه عريض لوَّحته الشمس. كانت بطاقة جْفَانْجِل على مكتبه.

كرَّر المدعِي اتهاماته.

اعترض أُوتُّو جْفَانْجِل؛ إنه فقط كان يزُور عَدِيلَه في شارع جولتس، لم يدخل أي بيت في شارع ماسين. كان يتحدَّث بلا أي انفعال، ذلك الحِرفيُّ القديم، الذي أثبت للشرطي المناوب أنه هادئ وطيب وتصرُّفه معاكس لذلك المدعِي الذي يصرخ ويبصق.

- أخبِرني.. (قال المناوب ببطء)

لماذا وقفت ثلاث ساعات وراء العين السحرية؟ لا يمكن أن تعرف أن أحدهم سيأتي حاملًا مثل تلك البطاقة، أليس كذلك؟

- أَخْ، عندنا تلك العاهرة في البناية يا سيدي المناوب، تتحرَّك دائمًا في سروال وتسمع الراديو طوال الليل؛ كنت أريد أن أراقبها وأرى أيَّ نوع من الغلمان تستقبل في شقتها. ثم جاء ذلك الرجل...

- لم أدخل البيت قط. (كرر جْفَانْجِل بعناد)

- لِمَ سيخطر ببال زوجي أن يفعل هذه الأشياء؟ هل تعتقد أني كنت سأسمح بهذا؟

(صاحت آنَّا)

- نحن متزوجان لأكثر من خمس وعشرين سنة، ولم يُتَّهم زوجي بأي شيء قطٌّ!

ألقى المناوب نظرة خاطفة على وجه الطائر المتيبِّس. من كل النواحي يمكن الوثوق به! جالت الفكرة برأسه سريعًا. لكن هل يكتب تلك البطاقات؟

توجَّه نحو المدعي:

- ما اسمك؟ مِيلِّيك؟ أنت تعمل لدى البريد، أليس كذلك؟

- سكرتير أول سيدي المناوب. هذا صحيح.

- وأنت فعلًا مِيلِّيك الذي يجلب لنا في المتوسط بلاغين في الأسبوع الواحد، أن الباعة يطفِّفون في الكيل، وأن السجاجيد تُنفَّض أيام الخميس، وأن أحدهم عقد صفقة أمام بابك، وهكذا وهكذا؟ هذا أنت، أليس كذلك؟

- الناس سيِّئون للغاية، سيدي المناوب! كل ما يفعلونه يغيظني! صدقني سيدي المناوب...

- واليوم كنت تراقب سيدة، تصفها بأنها عاهرة، والآن تبلغ عن هذا السيد...

أكد السكرتير الأول بالبريد أنه لا يفعل سوى واجبه. لقد رأى الرجل وهو يضع البطاقة، ولأنه حين ألقى نظرة على المكتوب فيها أدرك أن الأمر متعلِّق بالخيانة العظمى، جرى بسرعة وراء الرجل.

- أهكذا؟ لحظة إذًا...

قال المناوب، وجلس إلى مكتبه وتصنَّع أنه يقرأ البطاقة مرة أخرى، هي التي قد قرأها فعلًا ثلاث مرات. ظلَّ يفكِّر مليًا. كان مقتنعًا بأن جْفَانْجِل العجوز الحِرفيَّ قدَّمَ بياناته صحيحة، فيما مِيلِيك محبٌّ للمشكلات، ولم يثبت صحة أيِّ من بلاغاته قط، وكان يفضِّل لو أنه يصرف الثلاثة إلى بيوتهم.

لكن رغم كل شيء فلقد عُثِر على هذه البطاقة، هذا ما لا يمكن نكرانه، ثم إن هناك ذلك الأمر الصارم بتعقُّب أدنى الآثار. والمناوب لا يريد أن يدع فرصة للنبش. فهو لم يكن مَرضِيًّا عنه لدى الرؤساء الذين اتهموه بلين المشاعر، وبأنه متعاطف سِرًّا مع اليهود وأعداء المجتمع. عليه أن يتوخَّى الحذر. ثم.. في الأساس أيُّ سوء يمكن أن يصيب هذا الرجل وتلك المرأة إن سلمهم إلى الجيستابو؟ إن كانَا بريئَيْنِ فسيُطلق سراحهما في غضون بضع ساعات، والمدَّعِي الكاذب سينال عقابه بسبب الجهد الضائع الذي تسبَّب فيه.

كان يريد بالفعل الاتصال بالمفتش إشيرِش، ثم خطر شيء بباله. رنَّ الجرس وقال للعسكري الذي دخل:

- خذ الرجلين إلى الأمام وفتشهما جيِّدًا. واحرص على ألا تختلط متعلِّقاتهما. ثم أرسل إليَّ رجلًا إلى هنا يفتش المرأة!

لكن حتى هذه التفتيشات لم تسفر عن شيء؛ لم يعثروا على أي شيء يدين آل جْفَانْجِل. وفكرت آنَّا جْفَانْجِل بزفرة مرتاحة في البطاقة التي ألقتها في صندوق البريد. أما أُوتُّو جْفَانْجِل الذي لم يدْرِ بعد عن سرعة البديهة التي تصرَّفت بها زوجته ففكر «إن آنَّا لمجتهدة. أين يا ترى البطاقة؟ لقد ظللتُ واقفًا إلى جوارها!».

أيضًا أوراق جْفَانْجِل أَكَّدت كل بياناته.

وفي المقابل وُجِدَ في جيب مِيلِيك بلاغٌ جاهزٌ موجَّهٌ إلى القسم ضد سيدة تسمَّى تريسوف، قاطنة في شارع ماسن في الرقم 17، تترك كلبها طليقًا رغم القانون الذي يلزم بضرورة إمساك الكلب من الطوق. إذ إن الكلب قد نبح مرتين بالفعل في وجه السكرتير الأول بالبريد. إنه يخشى على سراويله، إذ لا يمكن تعويضها في ظل الحرب القائمة.

- همومك كبيرة يا رجل! (قال المناوب)

الآن في سنة الحرب الثالثة! أتظنُّ أننا ليس لدينا شغل آخر؟ لم لا تذهب إلى السيدة بنفسك وتطلبُ بأدب أن تمسك الكلب من الطوق؟

- شيء كهذا لا يمكن أن أفعله يا سيدي المناوب! أخاطب سيدة في الليل في الشارع؟ كلا! يمكن لها أن تبلغ عني بدعوى خدش الحياء!

- حسن، أيها الحارس، خذ الثلاثة إلى الأمام. أريد أن أجري اتصالًا هاتفيًا الآن.

- هل أنا أيضًا مقبوض عليّ؟ (صاح مِيلِيك السكرتير الأول بالبريد غاضبًا)

لقد قدمتُ لكم بلاغًا مهمًّا وأنتم تعتقلونني! سأبلغ عنكم!

- وهل ذكر أي إنسان كلمة عن الاعتقال؟ يا حارس خذ الثلاثة معك إلى الأمام!

- لَقد أفرغتم جيوبي مثلما تفعلون بالمجرمين!

صاح السكرتير الأول بالبريد مرة أخرى ثم أُغلق الباب وراءه.

تناول المناوب التليفون، طلب الرقم وعرَّف نفسه:

- أريد أن أتحدَّث إلى المفتش إشيرِش، بسبب قصة البطاقات.

- المفتش إشيرِش طُرد، فُصِلَ، فُقِد! (صاح صوت وقح في أذنه) المستشار الجنائي تْسُوتْ يعالج الآن هذه القضية!

- إذًا أعطني السيد المستشار الجنائي تْسُوتْ، لو أنه يمكن الوصول إليه اليوم في عصر يوم الأحد.

- إنه دائمًا موجود! سأعطيك المستشار الجنائي!

- هنا تْسُوتْ!

- هنا مناوب القسم كْرَاوْس، سيدي المستشار الجنائي، للتوِّ تسلَّمنا رجلًا قد يكون له علاقة بقضية البطاقات البريدية. هل أنت في الصورة؟

- أعلم بالفعل! قضية «شبح البحر». ماذا يعمل الرجل؟

- نجارًا، رئيس قسم في مصنع أثاث!

- إذًا لقد أمسكتم بالرجل الخطأ! الصحيح أنه يعمل في شركة التِّرام. أطلقوا سراح الرجل يا مناوب! انتهى!

وهكذا خرج آل جْفَانْجِل إلى الحرية مجدَّدًا، وهما نفسهما مذهولان، لأنهما توقَّعَا تحقيقًا أدق، وتفتيشًا لبيتهما.

39

السيد المستشار الجنائي تْشوت

كان المستشار الجنائي تْشُوتْ، ذو اللحية المدببة والبطن العالي، يبدو مثل شخصيَّة في حكايات إيرنست تيودور أماديوس هوفمان، مخلوق كأنَّه جُمِّع من ورق، وغبار الملفات والحبر وكثير من الفطنة، وكان في أوقات سابقة شخصًا مثيرًا للضحك بحقٍّ بين الاختصاصيين الجنائيين في برلين. إذ يذمُّ الأساليب المألوفة، وبالكاد يُجري أي تحقيق، فيما منظر أي قتيل يصيبه بالغثيان.

كان يفضِّل أن يعكف على ملفات الآخرين، يقارن، يبحث، يكتب مستخلصات مطولة، أما مهارته البارزة فتجلت في أنه يضع الجداول لكل شيء، جداول لا نهائية تحوي أصغر التفاصيل التي يستقي منها نتائجه الفطنة. ولأن المستشار الجنائي تْشُوتْ بطريقته تلك كان يعمل فقط معتمدًا على رأسه فلقد حقق نتائج مذهلة في قضايا بدت بلا أي أمل، ما جعلهم يوكلون إليه كل المسائل التي بلا رجاء؛ إن لم يستخرج تْشُوتْ منها شيئًا فلا أحد سيقدر.

لم يكن إذًا اقتراح المفتش إشيرِش بإيكال قضية «شبح البحر» إلى المستشار الجنائي تْشُوتْ خارجًا عن المألوف، لكن تحتَّم على إشيرِش أن يدع لرؤسائه أن يقولوا هم ذلك الاقتراح. فكونه قد أتى منه اعتُبر ببساطة وقاحة، بل فرارًا من وجه العدو، وهربًا من الجندية.

حبس المستشار الجنائي تْسُوتْ نفسه مع ملفات «شبح البحر»، ثم طلب الكلام مع قائد مجموعات العمل. وبدوره فالقائد توجه مباشرة إلى تْسُوتْ، متحمسًا أن يُغلق هذه القضية.

- الآن يا سيد ماذا وجدت في أوراق السيد شيرلوك هولمز الملعون؟ أنا مقتنع أنك أمسكت الرجل من قفاه. ذاك الحمار إشيرِش...

انطلقت معزوفة من الشتائم على إشيرِش الذي أفسد كل شيء. استمع إليها المستشار الجنائي تْسُوتْ بدون أن يطرف له جفن، ولا حتى أومأ أو هز رأسه معلنًا رأيه.

ولما انطفأت النار أخيرًا قال تْسُوتْ:

- سيدي قائد مجموعات العمل، لدينا الآن كاتب البطاقات هذا، رجل بسيط، تقريبًا غير متعلم، لم يكتب كثيرًا في حياته، ويصعب عليه أن يعبِّر عن نفسه كتابةً. لا بد أنه غلام، أو أرمل، يعيش بمفرده تمامًا في شقته وإلا كانت زوجته أو صاحبة داره قد أمسكت به خلال هذين العامين. وبما أنه لا معلومات متوفرة عن شخصه، فيما تردَّد الحديث كثيرًا عن هذه البطاقات في المنطقة شماليْ ميدان أليكسندر، فهذا يثبت أنْ لا أحد رآه وهو يكتب. لا بد أنه يعيش بمفرده تمامًا، وأنه رجل متقدم في السن، فبالنسبة إلى شاب لم يكن من الممكن أن يظلَّ يكتب طوال هذه المدة بدون أثر ملموس ولشرع في نشاط آخر. أيضًا هو لا يملك جهاز راديو...

- جميل، جميل، سيدي مستشار الجنايات!

(قاطعه قائد مجموعات العمل بْرَالْ بنفاد صبر)

لقد أخبرني ذلك الأحمق إشيرِش كل هذا بنفسٍ تلك الكلمات منذ مدة. ما أحتاج إليه هو تقييم جديد، نتائج تمكِنني من القبض على ذلك الفتى. أرى أن لديك جدولًا. ما خبره؟

- لديَّ جدول..

أجاب المستشار الجنائي، ولم يلاحَظ عليه كيف أن ما قاله بْرَالْ ساءه جدًّا عندما قال إن كل استنتاجات تْسُوتْ قدمها إشيرِش من قبل.

- لقد سجلتُ كل توقيتات العثور على البطاقات. المسألة تشمل حتى الآن 233 بطاقة وثمانية خطابات. عندما ندقِق في هذه التوقيتات سنصل إلى هذه النتيجة: بعد الثامنة مساء وقبل التاسعة صباحًا لم تُوضع أي بطاقة...

- لكن هذا أمر واضح وضوح المرق! (صاح القائد بنفاد صبر) لأن العمارات تكون مغلقة! لا أحتاج إلى أي جداول من أجل معرفة ذلك!

- لحظة من فضلك! (قال تْسُوتْ ونمَّ صوته الآن عن غضب كبير) لم أفرُغ بعد من استنتاجاتي. وبالمناسبة لا تُفتح العمارات صباحًا في التاسعة، بل في السابعة، وأحيانًا في السادسة. سأكمل: 80 في المائة من البطاقات بين التاسعة صباحًا والثانية عشرة ظهرًا. لم تُوضع بطاقة بين الثانية عشرة والثانية ظهرًا قطٍّ. ثم 20 في المائة بين الثانية والثامنة مساء. ومن هذا نستنتج أن كاتب البطاقات، الذي هو أيضًا موزعها بالتأكيد، يتناول طعام الغداء بانتظام بين الثانية عشرة والثانية ظهرًا، ويعمل ليلًا، أو على أي حال لا يعمل أبدًا في

الظهيرة، ونادرًا ما يعمل في العصر. لنأخذ موضع عثورٍ على البطاقة، لنقل في أليكس، أقرر أن البطاقة وُضعت في الساعة الحادية عشرة والربع، آخُذُ الآن المسافة التي يستطيع الرجل أن يقطعها في 45 دقيقة أي حتى الثانية عشرة، وأضع دائرة حول مكان العثور على البطاقة فسأصل دائمًا شمالًا إلى تلك البقعة الخالية من الأعلام. ينطبق هذا مع بعض الاستثناءات التي علينا أن نسمح بها، لأن ليس كل وقت عثور على بطاقة هو وقت وضعها. ومن هذا أستنتج أولًا: أن الرجل دقيق جدًّا في مواعيده. ثانيًا، لا يحب أن يستخدم وسائل المواصلات العامة. إنه يسكن في المثلث الذي يحده جرايفزفالدر، دانزيجر، وبرينسلاور، وبالتحديد في الطرف الشمالي لهذا المثلث ربما في شارع شودوفيشكي، يابْلونْسْكِي أو كريستبورجر.

- ممتاز جدًّا، سيد مستشار الجنايات! (قال رئيس مجموعات العمل محبَطًا)

بالمناسبة أتذكَّر أن إشيرِش ذكر هذه الشوارع. وكان رأيه أن حملات تفتيش منزلية لن تكون ذات جدوى. ما رأيك فيها؟

- لحظة من فضلك!

قال تْسُوتْ ورفع يده الصغيرة عن ملف الأوراق وبَدَا عليها أنها اصفرَّت منها. إذ شعر الآن بإساءة بالغة:

- أريد أن أعرض على سيادتكم نتائجي بدقة حتى تتمكَّن بنفسك من تقييم الإجراءات التي سوف أقترحها...

«يريد أن يؤمِّن نفسه ذلك الثعلب الماكر!» فكر بْرَالْ في نفسه.. «لا انتظِر، ليس لديَّ أي تأمينات وإن أردتُ أن أُرْكِبَكَ الزلاجات فسأفعل ذلك حقًّا!».

- فلنتابع النظر في هذا الجدول، سنجد أن كل البطاقات وُضعت في أيام عمل. ومن هنا علينا أن نستنتج أن الرجل لا يغادر شقته يوم الأحد، الأحد هو اليوم الذي يكتب فيه، وهذا يتأكد أيضًا من خلال حقيقة أن معظم البطاقات قد عُثِرَ عليها أيام الاثنين أو الثلاثاء. فالرجل في عجلة دائمة أن يُخرج هذه المادة الثقيلة من بيته.

رفع صاحب البطن العالي إصبعه:

- فقط البطاقات التسع التي عُثِرَ عليها جنوبي نولليندورف تشكِّل استثناء. لقد وُضِعَت كلها أيام الآحاد، تقريبًا كل ثلاثة أشهر واحدة، ودائمًا قبيل المغرب أو في المساء المبكر. ومن هنا نستنتج أن الكاتب لديه قريب، ربما أم مُسِنة، يزورها بدافع الواجب على فترات منتظمة.

توقف المستشار الجنائي تْسُوتْ لبرهة ونظر إلى قائد مجموعات العمل عبر نظارته ذات الإطار الذهبي كأنَّه ينتظر كلمة تقدير.

لكنه قال فقط:

- كل هذا جميل وجيد. بالتأكيد ينم عن ذكاء حاد. لكني لا أرى كيف سيحقِّق لنا ذلك أي تقدم.

- بعض التقدم بالتأكيد يا سيادة قائد جموعات العمل! (قال المستشار الجنائي معترضًا)

سأقوم بالطبع بإصدار الأوامر كي تُمَشَّط البيوت الواقعة في الشوارع المعنية في سرية وحذر لنعرف إن كان رجلٌ يقطن هناك تنطبق عليه استنتاجاتي.

- كم سيكون هذا رائعًا! (صاح قائد مجموعات العمل مرتاحًا) هل ثمة شيء آخر؟

- لديَّ الآنَ.. (قال المستشار الجنائي بانتصار صامت، وسحب بطاقة ثانية)

لقد جهَّزت جدولًا ثانيًا رسمت عليه دوائر محيطها كيلومتر، ولونت أماكن العثور على البطاقات بالأحمر. وفي هذا بقي ميدان نولليندورف والشقة المزمعة خارج التغطية. أرى أماكن العثور الأحد عشر هذه -فهي أحد عشر يا قائد مجموعات العمل- بشكل أدق لأكتشف الاكتشاف المفاجئ أنا كلها، وبلا استثناء، كلها تقع على أو بالقرب من محطات التِرام. انظر بنفسك يا سيدي قائد مجموعات العمل! هنا! وهناك! المحطة تقع هنا.. إلى اليمين قليلًا، خارج الدائرة لكنها لا تزال في محيطها. ومرة أخرى هنا.. في المنتصف...

نظر تْشوتْ تقريبًا بتوسل:

- لا يمكن أن يكون ذلك مصادفة! هذه المصادفات لا توجد في علم الجنايات! سيد قائد مجموعات العمل، لا بد أن للرجل صلة ما بالتِرام الكهربي. لا يمكن أن يكون الأمر على نحو آخر. يعمل في الليل، ومن آن إلى آخر في العصر. لكنه لن يرتدي الزي الرسمي، فهذا ما نعرفه من تقرير الشاهدتين اللتين رأتاه وهو

يضع البطاقات. سيد قائد مجموعات العمل أطلب الإذن في تعيين رجل ماهر على كل محطة من تلك المحطات. أتوقع أن نصل إلى نتيجة عبر هذا الفعل أكثر مما سنصل إليه عبر السؤال في البيوت. لكن حين ننفذ كلا الفعلين بدقة سنصل بالتأكيد إلى النجاح المنشود!

- أنت أيها الثعلب الماكر، أنت!

صاح قائد مجموعات العمل أيضًا مسرورًا وضرب المستشار الجنائي على كتفه لدرجة أن الرجل القصير ثنى ركبته.

- أنت أيها المجرم الحاذق! مسألة محطات التِرام هذه عظيمة. إشيرِش كان بقرة حلوبًا! كان عليه أن يصل إلى ذلك. بالطبع لك الإذن! لكن تصرَّف بسرعة، وبعد يومين أو ثلاثة أنْبِئني بأنك أمسكت بالرجل! أريد للحمار، إشيرِش، أن أضربه بنفسي في جَحفَلَتِه، يا له من بعير!

خرج قائد مجموعات العمل من الغرفة مستمتعًا وباسمًا. أما المستشار الجنائي تْسُوتْ، متروكًا وحده، فقد سعل وتنحنح، وجلس إلى جداوله على المكتب، ثم نظر بحدة عبر النظارة نحو الباب، وتنحنح مرة أخرى. كان يكره كل أولئك الفتية أصحاب الأصوات العالية والدماغ الفارغ، الذين لا يستطيعون سوى الصراخ. وذلك الذي خرج للتو من غرفته، كان يكرهه على وجه خاص، ذلك القرد الأحمق الذي قارنه بإشيرِش: «هذا ما قاله إشيرِش» ثم «هذا ما أعرفه سلفًا من إشيرِش»؛ البعير! والآن ضربه بمزاح على كتفه وكان المستشار الجنائي يكره كل لمسة لجسده. كلا، ذلك الفتى الذي

لا يقول سوى «لا بد من مرور بعض الوقت». إن هؤلاء السادة لم يكونوا مرتاحين في مناصبهم، ويحجبون ذلك بطريقة سيِّئة، فوراء الصراخ ثمة خوفهم من السقوط ذات يوم. وعلى الرغم من أنهم يبدون واثقين وحادين، إنهم من داخلهم يعلمون جيِّدًا، أنهم لا يعلمون شيئًا ولا يساوون فلسًا.

رجل بلا دماغ مثل هذا يضطر أن يخبره عن اكتشافه العظيم بخصوص محطات التِرام، رجل لا يمكن له أن يقدِّر الذكاء الحاد الذي يؤدي إلى مثل تلك الاكتشافات! كأن جواهرَ تلقى أمام الخنازير؛ القصة القديمة تعيد نفسها!

يعود المستشار الجنائي إلى ملفاته وجداوله وخططه. لديه رأس منظم جيِّدًا. يسحب جارورًا ولا يعرف ما يحوي، ولقد سحب الآن جارور محطات التِرام وشرع يفكِّر في الوظيفة التي يمكن أن يشغلها كاتب البطاقات. يتَّصل بإدارة المواصلات العامة، قسم شؤون العاملين ويطلب قائمة لا نهائية بكل أشكال الوظائف المتوفرة في الشركة العامة لمواصلات برلين. ومن آنٍ إلى آخر يدون الملاحظات.

والآن هو ممتلئ فقط بفكرة أن الفاعل له صلة بالتِّرام، وهو فخور جدًّا بهذا الاكتشاف، كان ليصيبه الإحباط بشكل غير عادي لو أنهم جلبوا له جْفَانْجِل بوصفه الفاعل، ذلك الحِرفيَّ في مصنع الأثاث. فهو لا يكترث للقبض على الفاعل، لكن كان سيؤلمه كثيرًا أن تكون نظريته الجميلة معيبة.

ولهذا فبعد أن مرَّ يومان أو ثلاثة على عملية تفتيش المنازل وكذلك محطات التِّرام وحينما أبلغه رئيس القسم بأنهم ربما قد قبضوا على الفاعل، لهذا سألهم عن وظيفته. سمع أنه نجارًا وبدت له القصة منتهية؛ لا بد أن يكون عاملًا في التِّرام!

أغلق الخط والقصة! أغلقها بالضبة والمفتاح لدرجة أنه لم يعلم حتى أن هذا القسم واقع في نولليندورف، وأن الوقت مغرب والمساء يزحف، وأنه قد عُثِرَ مرة أخرى على بطاقة جديدة في ميدان نولليندورف! حتى رقم القسم لم يلفت نظر المستشار الجنائي. هؤلاء الحمقى لا يفعلون شيئًا إلا الحماقات. انتهت القصة!

«سيخبرني رجالي غدًا -على الأكثر بعد غد- بالخبر اليقين. فما يفعله رجال الشرطة هو عين العبث، بالطبع فهم ليسوا خبراء في الجنايات!».

وهكذا خرج آل جْفَانْجِل إلى الحرية بعد أن قُبِض عليهم.

40

أُوتُّو جْفَانْجِل يفقد ثقته

عاد الزوجان جْفَانْجِل في مساء الأحد هذا إلى بيتهما بدون أن ينبسا بكلمة، وتناولا العشاء بدون أن ينبسا بكلمة. السيدة آنَّا التي بدت شجاعة وحاسمة حينما اقتضى الأمر، ذرفت في المطبخ بضع دمعات سرية لم تُرِد لأُوتُّو أن يعلم عنها شيئًا. والآن، بعد أن مر كل شيء، تملَّكها الذعر والخوف. كاد كل شيء ينهار، وكادت حياتهما معًا تنتهي. لو أن هذا المِيلِّيك لم يكن نَهَّازًا معروفًا، لو أنها لم تتخلص من البطاقة، لو أن المناوب في القسم كان آخَرَ؛ كان يبدو عليه أنه لا يطيق مثل أولئك المخبرين! أجل، لقد مر الأمر بسلام، لكن أبدًا أبدًا لا ينبغي لأُوتُّو أن يعرض نفسه لمثل هذا الخطر.

دخلَتْ إلى غرفة المعيشة، حيث يتحرَّك زوجها مرتبكًا ذهابًا وجيئة. لم يشعلا الضوء، لكنه رفع ستائر الإظلام. كان القمر منيرًا.

يتحرَّك أُوتُّو ذهابًا وجيئة ولا يزال صامتًا.

- أُوتُّو!

- نعم؟

يظل واقفًا لوهلة وينظر إلى زوجته التي جلست في ركن الأريكة، لا يكاد يراها في ضوء القمر الشاحب الضعيف الذي يتسرب إلى الغرفة.

- أُوتُّو، أظن أنه من الأفضل الآن أن نتوقف لبعض الوقت. ففي الوقت الراهن لن يحالفنا الحظ.

- لا يجوز يا آنَّا، لا يجوز. سيكون هذا لافتًا للنظر، عندما تتوقَّف البطاقات الجديدة فجأةً عن الظهور. الآن تحديدًا وبعد أن كادوا يمسكون بنا سيلفت الأمر النظر أكثر. فهم ليسوا أغبياء. سيتمكَّنون من العثور على الرابط بيننا وبين البطاقات التي فجأةً لم تعد تظهر. علينا أن نواصل العمل، شئنا أم أبينا.

ثم أضاف بحسم: وأنا أريد!

زفرت مُثقلةً. لم يكن لديها الشجاعة أن تؤيده بصوت عالٍ رغم أنها رأت أن الحق معه، لم يكن هذا طريقًا يمكن للإنسان التوقف عن السير فيه حتى لو أراد. لم يكن ثمة تراجع، ولا راحة. عليهم مواصلة المسيرة.

وبعد برهة من التفكير قالت:

- إذًا دعني من الآن فصاعدًا أوزع البطاقات يا أُوتُّو. فالحظ لم يعد يحالفك في هذا.

قال غاضبًا:

- لا أستطيع أن أتحكم في كون مدعيًا كهذا يراقب من العين السحرية لثلاث ساعات. لقد تفقدت كل ما حولي جيِّدًا، لقد كنت حذرًا!

- لم أقل يا أُوتُّو إنك لم تكن حذرًا. قلت إن الحظ لم يعد في صفك. هذا أمر لا ذنب لك فيه.

ومرة أخرى أدار الدفة:

- ماذا فعلت حقًّا بالبطاقة الثانية؟ خبأتها في جسدك؟

- ما كان هذا لينفع وحولي ناس. لا يا أُوتُّو، لقد دسستُها في صندوق البريد الكائن في ميدان نولليندورف مباشرة بمجرد أن ثارت الثائرة الأولى.

- صندوق بريد؟ جيِّد جدًّا. لقد حسمتِ الأمر يا آنَّا. في الأسابيع القادمة سَنَدُسُّ البطاقات في كل مكان نجد فيه صندوق بريد كي لا نلفت الأنظار. صناديق البريد ليست أبدًاا فكرة سيِّئة، كما أن البريد نفسه لن يكون به نازيون فقط، والمخاطرة أقل كذلك.

- من فضلك يا أُوتُّو، دعني أوزع البطاقات من الآن فصاعدًا. (رجته مرة أخرى)

- لا ينبغي أن تظنّي يا أماه أنكِ ارتكبت خطأ ستستطيعين تجنُّبه. إنها المصادفات التي كنت أخشاها دائمًا، ولا يمكن الاحتياط ضدها لأن الواحد لا يمكنه أن يتنبأ بها. ماذا كان يمكنني أن أفعل ضد جاسوس مرابط لثلاث ساعات وراء العين السحرية؟ وأنتِ يمكن أن تمرضي فجأةً، إن سقطتِ فستكسرين ساقًا، وفي لحظتها سيفتِّشون جيوبك فورًا ويجدون بطاقة كهذه! لا يا آنَّا، ليس ثمة حماية من المصادفات!

- سيجلب لي كثيرًا من الطمأنينة لو أنك تركت لي أمر التوزيع! (قالت مرة أخرى)

- لست أرفض يا آنَّا، أريد أن أعترف لك بالحقيقة، لقد صرت أشعر فجأةً بعدم الأمان. يبدو لي كما لو أنني أحدق دائمًا إلى

بقعة لا يجلس فيها العدو. كأن الأعداء كامنون في كل مكان حولي ولا أستطيع رؤيتهم.

- لقد صارت أعصابك مشدودة يا أُوتُّو. لن ترحل تلك المشاعر إلا عندما نتوقف بضعة أسابيع عما نفعل! لكن أنت مُحِقٌّ، لا ينبغي أن نتوقف. لكن من الآن فصاعدًا سأوزع أنا البطاقات.

- لن أقول لا. فلتفعلي ذلك! لست خائفًا لكن أنت محقة، أنا الآن مشدود الأعصاب. هذا تأثير المصادفة التي لم أحسب حسابها. لقد كنت أظن أنه يكفي أن ينجز الواحد أموره على خير ما يرام. لكن هذا لا يكفي، إذ ينبغي أيضًا أن يكون الحظ حليفنا يا آنًّا. ولقد حالفنا الحظ طويلًا، والآن يبدو أن الأمر سيختلف قليلًا...

- لكن هذه المرة أيضًا مرَّت بسلام.. (قالت مهدئة روعه) لم نُصَبْ بأذًى.

- لكن لديهم عنواننا، وفي أي وقت يمكنهم العودة إلينا! تلك القرابة اللعينة! لطالما قلت إنها لا تساوي.

- لا تكن ظالمًا الآن يا أُوتُّو. ما ذنب أُولْرِشْ في الأمر؟

- بالطبع لا ذنب له! من قال غير ذلك؟ لكن لو أنه لم يكن موجودًا لما ذهبنا إلى هناك. المسألة لا تساوي يا آنًّا أن نتعلَّق بالناس. فهذا يصعِّب كل شيء. والآن صرنا موضع اشتباه.

- لو أننا بالفعل في موضع اشتباه لما أطلقوا سراحنا يا أُوتُّو!

- الحِبر! (قال فجأةً وظل واقفًا في مكانه)

الحبر لا يزال عندنا في البيت! الحبر الذي كتبت به البطاقة، ونفس الحبر هنا في المحبرة!

جرى وأفرغ المحبرة في البالوعة وبعد ذلك ارتدى ملابسه.

- إلى أين يا أوتُّو؟

- لا بد من التخلُّص من الزجاجة، سنجلب غدًا نوعًا جديدًا. وفي هذه الأثناء أحرِقي الريشات، وكل البطاقات القديمة وكل أوراق الخطابات القديمة التي لا تزال عندنا. لا بد من إحراق كل شيء! لا ينبغي أن يتبقى أي شيء في البيت!

- لكن يا أُوتُّو نحن فعلًا لسنا موضع شك! وكل هذه الأمور لها وقتها!

- لا وقت لأي شيء! افعلي ما أقوله لك! تفقدي كل شيء وأحرِقي كل شيء!

ومضى.

وعندما عاد كان أكثر هدوءًا:

- لقد ألقيت الزجاجة الصغيرة في فِريدْرِيشسهاين. هل أحرقت كل شيء؟

- نعم!

- كل شيء حقًّا؟ تفقدتِ كل شيء وأحرقتِهِ؟

- ألم أُقِرَّ بذلك يا أُوتُّو!

- بالطبع، جيد يا آنَّا! لكن الغريب أن لديَّ إحساسًا أني لا أستطيع أن أرى العدو، ترى أين يقبع حقًّا. كأني قد نسيت شيئًا!

مسح جبهته بيده وتطلع إليها متفكِّرًا:

- هدِّئ من روعك يا أُوتُّو، بالتأكيد أنت لم تنسَ شيئًا. لم يعد شيء في هذه الشقة.

- هل ثمة حبر على أصابعي؟ تفهمين، لا ينبغي أن أحمل ولو بقعة حبر صغيرة، خصوصًا الآن بعد أن خلا البيت من كل الحبر.

تفقدا الأمر، وفعلًا وَجَدَا بقعة حبر على سبابته اليمنى. فحكَّتها على الفور بيدها.

- أترين؟ لقد أخبرتك أننا دائمًا نعثر على شيء! هكذا هم الأعداء الذين ليس في وسعي رؤيتهم. والآن لعله كان ذلك الحبر الذي لم أعره انتباهًا ولا يزال يعذبني!

- لكنك تخلصت منه يا أُوتُّو، لا أثر له الآن يجعلك تقلق هكذا!

- الحمد لله! افهَميني يا آنَّا، أنا لست خائفًا، لكني لا أريد أن يُكتشف أمرنا قبل الأوان. فأنا أريد أن أؤدي عملي لأطول وقت ممكن. ما دامت الأمور تسير، وبعدها أحب أن أشهد كيف سينهار كل شيء. أجل، ما زلت أريد أن أشهد كيف أننا أسهمنا في ذلك بقدر ضئيل!

وهذه المرة كانت آنَّا هي التي تقدم له المواساة:

- أجل، ستشهد ذلك، سيشهد كلانا ذلك. ما الذي حدث إذًا؟ بالتأكيد تعرَّضنا لخطر كبير، لكن.. أتقول إن الحظ السعيد انقلب علينا؟ بل لقد ظل الحظ وفيًّا لنا، وانقضى الخطر. وها نحن هنا.

- أجل، نحن هنا، أحرارٌ. ما زلنا أحرارًا. وإني لأرجو أن نظل كذلك طويلًا طويلًا.

41

بيزِيكه رفيق الحزب القديم

توجَّب على جاسوس المفتش الجنائي تْسُوتْ - وهو رجل عرف بلقب «كليبس» - التفتيش عن الرجل العجوز الذي يعيش بمفرده في شارع يابْلونْسْكِي، إذ إن الجيستابو مهتم للغاية بأمر العثور عليه. لذا حمل في جيبه قائمة بأسماء أعضاء الحزب الموثوق بولائهم القاطنين في كل مبنى، وفي الباحات الخلفية إن أمكن، وضمَّت هذه القائمة اسم بِيزْزِيكِه أيضًا.

وعلى الرغم من أن القبض على الرجل المطلوب موضع اهتمام في شارع برنس-آلبريشت، فإن ذلك بالنسبة إلى المفتش كليبس مجرد عمل روتيني. وبهيكله القصيرة، وأجره الزهيد، وسوء التغذية المتبدِّي على أرجله المعوجة، وبشرته المتقيِّحة، وأسنانه المنخورة، شابهت هيئة كليبس هيئة جرذ، وأنجز أعماله مثلِ جرذ ينبش في سلة قمامة. مستعدًّا دائمًا لالتقام فتات خبز، متسولًا شيئًا يشربه أو يدخنه، بصوته الهزيل الحاد الذي يُصدِر صفيرًا خافتًا عند التسوُّل، كأن هذا المنحوس يلفظ آخر أنفاسه.

عندما وصل إلى آل بِيزْزِيكِه فتح العجوز له الباب، بسحنته المهلهلة، وخصل شعره الأشيب المشعثة، ووجهه المنتفخ، وعينيه المحمرتين، يهتز جسده بالكامل ويتمايل كسفينة وسط عاصفة هوجاء.

- ماذا تريد؟
- أُجري تحريات بسيطة للحزب.

كان محظورًا على هذا الجاسوس أن يشير من قريب أو بعيد إلى الجيستابو في تحرياته، لذلك تحتَّم أن يبدو هذا العمل كأنَّه سؤال بسيط عن أعضاء الحزب. لكن، على الرغم من أن جملة «أُجري تحريات بسيطة للحزب» ليس فيها ما يضير، استقبلها بِيرْزِيكِه العجوز كمن يتلقَّى ضربة في بطنه. فتأوَّه واتكأ على حلق الباب، وفي دماغه الأبله، الملتف بغلالة من الضباب بتأثير الكحول مرَّت لحظة عاد فيها إلى وعيه، ومع الوعي عاد الخوف.

وبعدها استجمع قواه وقال: تفضَّل!

امتثل الجرذ صامتًا، وتفحَّص الرجل العجوز بنظرات حادة وسريعة لا تفلت شيئًا. بدت الأجواء مقفرة بداخل الغرفة، فالمقاعد مقلوبة رأسًا على عقب، وزجاجات الخمر ملقاة على الأرض، تاركة أثرًا نَتِنًا أمام فوهاتها، وعلى الأرض لحاف مُتغضِّن، ومفرش طاولة ممزق، وأسفل المرآة التي شكلَّت الشقوق على سطحها شبكة عنكبوت تكوَّمت شظايا زجاج مكسور بفعل ضربة، وستارة مرفوعة وأخرى ساقطة، فيما تناثرت أعقاب سجائر هنا، وأعقاب سيجار هناك، وعبوات تبغ سبق فضُّها.

ارتجفت أصابع الجرذ السارق كليبس. وَدَّ لو أنه خطف وحازَ شيئًا مما يراه، خمرًا أو تبغًا أو أعقاب السجائر، أو حتى ساعة الجيب المتدلية من سترة معلقة فوق كرسي. ولكنه الآن مجرد رسول

للجيستابو أو الحزب. لذا جلس مهذبًا على كرسي صغير، وصاح مبتهجًا:

- مرحى، يا لوفرة الشراب والدخان هنا! أنت متنعِّم هنا يا بِيرْزِيكِه!

رمقه العجوز بنظرة يثقلها الهم والكدر، ثم دفع ناحيته بزجاجة خمر نصف ممتلئة عبر الطاولة، تمكن كليبس من الإمساك بها قبل أن تسقط.

- اعثر لنفسك على شيء تدخنه! (غمغم بِيرْزِيكِه مُديرًا بصره في أنحاء الغرفة)

لا بد أنك ستجد ما يدخَّن مُلقًى هنا أو هناك.

ثم قال بلسانه الثقيل:

- لكن ليس لديَّ قداحة!

- لا تقلق يا بِيرْزِيكِه! (صفر كليبس مُهدِّئًا)

سأجد ما أحتاج إليه، لا بد أن في مطبخك موقدًا وولاعة.

تصرف كليبس كأنهما يعرف بعضهما بعضًا منذ زمن، كأنهما أصدقاء قدامى، وبكل تلقائية انسلَّ إلى المطبخ بأرجله الملتوية، وهناك بدت الحال أسوأ مما هي عليه في الغرفة، فالأواني مكسورة وقطع الأثاث مقلوبة، وفي قلب هذه الفوضى وجدَ فعلًا قداحة استخدمها ليشعل لنفسه سيجارة.

وعلى الفور دسَّ ثلاث لفافات تبغ سبق أن فضَّها. صحيح أن واحدة منها قد غُمرت في الخمر، لكن يمكنه تجفيفها. في طريق العودة نظر كليبس في الغرفتين الأُخريين فوجدهما لم تسلَمَا أيضًا

من الخراب التام. وكما خمن كليبس على الفور تيقَّن من أن العجوز يعيش بمفرده في الشقة. حكَّ الجاسوس يديه بعضهما في بعض، وافترَّ ثغره عن أسنان يميل لونها إلى الأصفر المسوَدِّ. سيتحصل على ما هو أكثر من بعض الخمر والسجائر.

كان بِيرْزِيكِه العجوز لا يزال جالسًا على نفس الكرسي أمام الطاولة، لكن كليبس اللئيم لاحظ أن العجوز لا بد أنه قد تحرَّك من مكانه، إذ أمامه الآن زجاجة خمر ممتلئة لم تكن موجودة من قبل.

إذًا فهناك مزيد منها في مكان ما، وهذا ما سينجلي لاحقًا!

استقر كليبس على كرسيِه مسببًا صريرًا خافتًا، نافثًا سحابة من دخان سيجارته تجاه وجه العجوز أمامه، مُرتشفًا من قنينة الخمر، سائلًا العجوز بعفوية:

- إيهٍ، ما الذي يحزن قلبك الآن بِيرْزِيكِه؟ هيا أيها الرفيق القديم، أفصِح عمَّا بداخلك، اغسل همك وإلا قُتِلْتَ!

ارتجَّ جسد العجوز من وقع الكلمات الأخيرة، ولم يتمكَّن من استيعاب السياق الذي ذُكرت فيه، فقط فهم الإشارة إلى القتل.

- لا لا! (تمتم مذعورًا)

إلَّا القتل، أي شيء ما عدا القتل، سيأتي بَالْدُوْر، وسيعيد كل شيء إلى نصابه!

في البداية لم يسأل الجرذ عمن عساه بَالْدُوْر يكون، ذلك الذي سيُصلح ما فسد! وقال له بحرص:

- بالطبع، إن تتمكَّن من إعادة الأمور إلى نصابها يا بِيرْزِيكِه!

ثم ألقى نظرة على وجه الآخر، الذي بدا له أنه يرمقه بنظرة عابسة تشيع منها الريبة.

- لكن حقًّا بمجرد أن يأتي بَالْدُوْر...

أضاف مطيِّبًا خاطره. غير أن العجوز ظل يحدِّق إليه صامتًا.

وفجأةً، في إحدى لحظات الاستفاقة التي تُداهم الثَّمالى بين الفينة والأخرى قال له بلسان غير مخمور:

- على أي حال. مَن أنت وما الذي تريده مني؟ إنني حتى لا أعرفك مطلقًا!

نظر الجرد محاذرًا إلى العجوز الذي ثاب إلى وعيه فجأةً، وعادة ما تستيقظ شهوة الشجار لدى المخمورين في تلك المرحلة، وكليبس لم يكن سوى قزم ضئيل (وجبان)، أما العجوز بِيرْزِيكِه، ورغم أنه في أسوأ حالاته، ظهرت عليه قوة مبعثُها أنه أهدى الزعيم رجلين شديدين من رجال الشرطة العسكرية، وتلميذًا في «النابولا».

قال كليبس ملطفًا:

- سبق أن أخبرتك يا سيد بِيرْزِيكِه. لكن ربما لم تستوعب تمامًا. أُدعَى كليبس، وأنا مكلف من الحزب بجمع بعض المعلومات...

ضرب بِيرْزِيكِه قبضته على الطاولة فارتجَّت حتى إن الزجاجتين تأرجحتا، إلا أن كليبس أمسكهما بسرعة. صاح بِيرْزِيكِه قائلًا:

- كيف تجرؤ أيها الكلب أن تدَّعي أن ثمة شيئًا لم أستوعبه؟ أتحسب نفسك أذكى مني أيها الحيوان العفن؟ أتقول في بيتي وعلى طاولتي إني لا أستوعب أيها الحيوان العفن؟! أيها الحقير!

- لا لا، لا يا سيد بِيرْزِيكِه! (صفر الجرذ مُهدِّئًا)

لم أقصد الأمر على ذلك النحو. هذا مجرد سوء فهم بسيط. كل السلام والصداقة. هدِّئ من روعك؛ نحن رفقاء حزب قدامى!

- أين بطاقتك؟ كيف تدخل بيتي ولا تبرز بطاقتك؟ أنت تعلم أن هذا محظور بأمر الحزب.

لم تُقلِق هذه النقطة كليبس، فالجيستابو تكفل بإصدار بطاقات هوية صالحة تمامًا، ومميزة ولا ثغرة فيها.

- ها هي ذي سيد بِيرْزِيكِه، تفحَّصها على مهلك، كل بياناتها صحيحة. ومن حقي أن أجمع المعلومات، وعليك أن تساعدني إن كان في مقدورك!

نظر العجوز إلى البطاقات التي مُدت إليه بعينين معكرتين، فيما حرص كليبس على أن تظل في يده لا يفلتها. غامت الكتابة أمام عينيه، فنقر بتثاقل عليها بإصبعه:

- أهذا أنت؟

- لكن يمكنك أن ترى ذلك بنفسك سيد بِيرْزِيكِه! الكُل مُجمع على أن الصورة تشبهني تمامًا!

وأضاف بتفاخر:

- إلا أنني في الواقع أبدو أصغر بعشر سنوات. لست متيقِّنا من ذلك ولست بمختال، فأنا لا أنظر أبدًا في المرآة!

- أبعِد تلك الأشياء! (زمجَر مالك الحانة السابق)

لا رغبة لديَّ في الاطلاع عليها الآن، فلتجلس لتشرب الخمر، ولتدخن، لكن اِبقَ هادئًا. عليَّ الآن أن أمعن التفكير.

امتثل الجرذ كليبس لما أُملي عليه، وبقي منتبهًا يراقب العجوز الذي بَدَا أنه سيغرق مجددًا في سُكره.

عَبَّ بيرْزِيكِه العجوز جرعة كبيرةً من زجاجته، إذ غادره الوضوح ثانية، فعاد بلا مقاومة إلى دوامة السُّكر، أما ما سمَّاه «إمعان التفكير» فلم يكن سوى نبش بلا طائل عن شيء سقط منه منذ زمن، يبحث فيه عن شيء طواه النسيان، بل إنه لم يكن يعرف حتى عم يبحث.

كان العجوز في حال يرثى لها، فأحد أبنائه وصل إلى هولندا، وبعده الآخر إلى بولندا، فيما بَالْدُوْر إلى «النابولا» وبهذا يكون الهدف الأول للوغد الطموح قد تحقَّق، فلقد قُبِل بين أوائل الأمة الألمانية بوصفه تلميذًا خاصًّا من تلامذة الزعيم. سيواصل التعلم، ويواصل تعلم السيطرة، لا على نفسه، بل على كل البشر الآخرين، الذين لم يبلغوا ما بلغه.

تُرك الوالد وحيدًا مع امرأته وابنته، لطالما أحب الشراب، لدرجة أنه كان أهم زبون في حانته الحقيرة. وبمجرد أن رحل أولاده، وخاصَّة مع غياب رقابة بَالْدُوْر عليه، شرع بيرْزِيكِه في الشرب وتمادى في سكره. في بداية الأمر شعرت المرأة بالاستياء، والضآلة، والذعر، وانتحبت في منزل ذلك الرجل، الذي لم تُعامَل فيه إلا أسوأ معاملة كأنها خادمة غير مأجورة، فانتابها الخوف عند التفكير في مصدر تلك الأموال التي يبذِرها الرجل على الخمر كثيرًا. وأضيفَ إلى ذلك خوفها من التهديدات وسوء معاملة السِكِير لها، ففرَّت خفية إلى أقربائها تاركة الأب لابنته.

أما الابنة، حادة الطباع، انضمت إلى «منظمة فتيات ألمانيا»، بل كانت واحدة من قياداتها، استنكفت أن تنظف قذارة العجوز وأن تسمح له أن يُسيء معاملتها. واستطاعت من خلال علاقاتها أن توفر لنفسها وظيفة مشرفة في معسكر تعذيب السيدات برافينزبروك، حيث كانت تفضِّل أن تجبر السيدات كبيرات السنِّ -اللاتي لم يسبق لهن في حياتهن القيام بأعمال شاقة- على إنجاز أعمال لا تطيقها أجسادهن تحت تهديد الكلاب المفترسة وفرقعة السياط.

وهكذا زاد انهيار الأب الذي تُرك وحيدًا. أبلغ عن مرضه في مكتبه، ولم يعد أحد يهتم بمأكله، وأصبح الكحول هو ما يقيم أَوَدَهُ. في الأيام الأولى تحصَّل على بعض الخبز من آن إلى آخر مقابل كوبوناته. إلا أنها سرعان ما ضاعت أو سرقت منه، وعلى هذه الحال لم يأكل بِيزْرِيكِه شيئًا منذ أيام.

لا يزال يذكر أنه كان مريضًا للغاية في الليلة الماضية. إلا أنه لا يتذكَّر ثورة غضبه التي حطم فيها الأطباق وقلب الخزائن والخوف الشديد الذي تملَّكه بعد أن صار يرى مطارِدين له في كل مكان. وقف آل جْفَانْجِل والقاضي العجوز فْرُومْ أمام بيته يطرقان الباب مرات ومرات، لكنه عزم على الاختباء من مطارديه وألا يفتح لهم. وأمام الباب وقف رسل الحزب راغبين في الاطلاع على حسابات خزينته التي نقص منها ثلاثة آلاف مارك (ومن الممكن أنها ستة آلاف، لكنه لم يعد قادرًا على تحديد المبلغ بدقة حتى في أكثر حالاته وعيًا واستفاقة).

قال المستشار العجوز ببرود

- فلنتركه يواصل العويل. لست مهتمًا.

وعلى خلاف عادة الوجه الصبوح الساخر بدا وجه العجوز في غاية البرود. ثم هبط على السلالم.

أما أُوتُّو جْفَانْجِل، بنفوره العميق من التورُّط في شيء، فقال:

- ما دخلنا في كل هذا؟ لن يعود علينا من هذا إلا المتاعب! أتسمعين يا آنّا، إنه مخمور! لاحقًا سيصحو من سكرته.

بَيْدَ أن بِيرْزِيكِه، الذي لم يدرك أيًّا من تلك الأحداث، لم يَصْحُ من سكرته في اليوم التالي. في الصباح ساءت حالته، وارتجفت أطرافه كلها بشدة لدرجة أنه لم يستطع وضع فتحة الزجاجة على فمه. ولكن كلما ارتشف المزيد قل ارتجافه وسكن الخوف الذي اعتراه. ورغم ذلك ظلَّ يعذبه شعور قاتم بأنه نسي شيئًا كان يتحتَّم أن يخطر بباله.

والآن يجلس الجرذ كليبس العجوز، صابرًا، ماكرًا، نهمًا. لم يكن الجرذ مستعجلًا بعدَ أن رأى فرصته وقرر أن يستغلها. ولم يستعجل الجرذ كليبس في كتابة تقرير إلى المفتش الجنائي السيد تْسُوتْ فبالإمكان دائمًا التحجج بأي شيء للتغطية على عدم إحراز أي تقدم. أما هذه الغنيمة فلا يمكن تفويتها.

وبالفعل لم يدع كليبس هذه الفرصة تفلت من يديه! إذ غرق العجوز بِيرْزِيكِه في سُكرِهِ أكثر فأكثر، وحتى مع ثرثرة لسانه الثقيل بكلام غير مفهوم أعطت كليبس الثرثرة أيضًا معلومات قيمة. وفي غضون ساعة عرف منه كل شيء، بداية من اختلاسات العجوز، ومكان زجاجات الخمر، وعدة التدخين. وصولًا إلى اكتشاف أن باقي الأموال في جيبه. وهكذا أصبح الجرذ الصديق المقرب

للعجوز، وحمله إلى فراشه، وحينما يصيح بِيرْزِيكِه، يُهرع كليبس إليه، ويعطيه ما يريد من خمر إلى أن يتوقَّف عن الصراخ. وفي أثناء ذلك سارع الجرذ بجمع كل ما رآه قيِّمًا في حقيبتين. وهكذا بدَّلَتْ بياضات السيدة رُوْزِنْتال المتوفاة، المصنوعةُ من البروكار الدمشقي مالِكَها لمرةٍ أخرى، ولمرة بطريقة غير شرعية.

وبعد ذلك همَّ كليبس بإعطاء العجوز شرابًا من جديد، ثم أخذ الحقيبتين في الحال وانسلَّ من الشقة.

وبمجرد أن فتح باب الممر ظهر أمامه شخص ضخم ذو عظام بارزة ووجه جَهْم وقال:

- ماذا تفعل هنا في شقة بِيرْزِيكِه؟ وما هذا الذي تجرُّه خلفك؟ أنت أتيت إلى هنا بدون حقائب! ها.. أستعترف أم تفضل الذهاب إلى الشرطة؟

- من فضلك اقترب.. (صفَّر الجرذ ذليلًا)

أنا صديق قديم للسيد بِيرْزِيكِه ورفيقه في الحزب، وهو سيؤكد لحضرتك ذلك، أنت مدير المنزل، أليس كذلك؟ إن صديقي بِيرْزِيكِه مريض للغاية...

42

بوزكهاوزن يضرب للمرة الثالثة

جلس الرجلان كلاهما في الغرفة الخاوية، والآن أخذ «مدير البيت» مكان الجرذ، فيما جلس كليبس على كرسي بِيرْزِيكِه. كلا، ليس في وسع بِيرْزِيكِه العجوز أن يدلي بأي معلومات. لكن الثقة التي تَحَرَّك بها كليبس في الشقة، والهدوء الذي تكلم به مع بِيرْزِيكِه، بل إنه قدَّم له شرابًا، كل ذلك جعل «مدير البيت» يتوخَّى الحذر.

والآن سحب كليبس مرة أخرى حقيبة الأوراق المتهالكة المصنوعة من الجلد الصناعي، التي كانت سوداء اللون في يوم من الأيام، لكنَّ حَافَتَهَا الآن تعطي انعكاسًا بلون الحديد الصدئ. قال:

- هل لي أن أعرض أوراقي على السيد مدير البيت؟ كل شيء قانوني، ولقد كُلِّفت من قِبَل الحزب أن...

بَيْدَ أن محدِّثَه رفض الأوراق، ورَفَضَ الخمر، ولم يأخذ إلا سيجارة واحدة. كلا، فهو الآن لا يشرب الخمر، فهو يتذكَّر بشكل واضح حين كان في الأعلى عند رُوْزِنْتال، كيف أفسد عليه إِيْنُوْ صفقة فاخرة بسبب الكونياك. لا ينبغي أن يتكرَّر معه ذلك. لأنه لا أحد غير بُوزْكهاوْزِن - الذي يجلس هناك بوصفه «مديرًا للبيت» - يفكِّر مليًّا كيف يمكن أن يسيطر على الشخص الجالس قبالته.

لقد تمكَّن فورًا من استنتاج سَريرَةِ هذا الأخ.. إن كان حقًّا قريبًا قديمًا لآل بِيزِيكِه أم لا. إن كان يجلس هنا بتكليف من الحزب. كله سواء؛ الرجل يريد أن يسرق! وما معه في الحقائب مجرد بضاعة مسروقة، وإلا ما ارتعب بهذه الطريقة لمجرد رؤية بُوزْكْهاوْزِن، وإلا لما تصرف كما الخائف الخدوم. فلا أحد ينتوي أن يفعل شيئًا قانونيًا يخشى إنسانًا آخر على ذلك النحو. هذا ما يعلمه بُوزْكْهاوْزِن من خبرته الخاصَّة.

- هل تودُّ كأسًا صغيرةً من الخمر يا سيدي مدير البناية؟

- كلا! (قالها بُوزْكْهاوْزِن وهو يكاد يصرخ)

التَزِم الصمتَ، عليَّ أن أفكر في أمر ما.

ارتجف الجرذ وسكت.

لقد أمضى بُوزْكْهاوْزِن عامًا سيِّئًا. لم يحصل على ألفي المارك التي أرسلتها السيدة هِنْبِرْلِه آنذاك. لقد أبلغته هيئة البريد -بعد أن تقدم بطلب أن ترسل إليه النقود إلى هنا- بأن الجيستابو صادر المال بوصفه مالًا مَصدرُه إحدى الجرائم، وطالبوه بالتواصل مع الجيستابو. كلا، لم يفعل بُوزْكْهاوْزِن ذلك، فلم يكن يريد أن يتعامل أبدًا مع إشيرِش الذي لا يلتزم كلمَتَهُ، كما أن إشيرِش لم يرسل ثانية في طلب بُوزْكْهاوْزِن.

لم يكن ذلك سوى فشل قَرَاح. لكن الأنكى هو أن كونو- ديتر لم يعد إلى البيت. في البداية فكر بُوزْكْهاوْزِن: «انتظِر! عندما تعود إلى المنزل!»؛ وتلذَّذَ بتصوُّر مشاهد التعذيب، وتخلَّص من أسئلة أُوتّي المذعورة -بعد تخلُّف ابنها الأثير- بعموميَّات جوفاء.

ولكن كلما مرَّ أسبوع وراء أسبوع أصبح الوضع بغير كونو-ديتر غير محتمل. تحوَّلت أُوْتّي إلى حَيَّة حقيقيَّة تنفُث سمومها وتُحيل حياته جحيمًا. لم يكن ليبالي لو أن الصبي أراد أن يظل بعيدًا إلى الأبد، بل اعتبر ذلك أفضل، فهذا يعني فَمًا أقل في الدار! لكن أُوْتّي تحوَّلت إلى مجنونة طوال الوقت بسبب غياب ابنها الأحَبِّ، وبدت كأنها لا تقدر أن تحيا يومًا آخر بدون كونو-ديتر، وهي التي كانت في السابق لا تكف عن كيل الضرب له والسخرية منه.

وأخيرًا طار عقلها تمامًا وتوجَّهت إلى الشرطة لتبلغ عن زوجها متهمة إياه بقتل ابنها. حين يتعلَّق الأمر ببشر من شاكلة بُورْكْهاوْزِن لا تبذل الشرطة مجهودًا كبيرًا، كانت سُمعته مُدَنَّسة بالفعل، وحوَّلوه فورًا إلى المحكمة الجنائية.

احتفظوا به هناك لأحد عشر أسبوعًا، كان عليه أن يلصق أكياسًا ويجدل حبالًا بدأب وإلا اقتطعوا من طعامه الذي لا يُشبعه على أي حال. أما أسوأ ما تعرَّض له فكانت الليالي التي يحدث فيها هجوم بالطيران. إذ ينتاب بُورْكْهاوْزِن ذعرٌ هائل من هجمات الطائرات. لقد رأى مرة سيدة في زقاق شونهاوزر، داهمتها قنبلة حارقة واخترقتها، وظلَّت عالقةً بها. أبدًا لن ينسى بُورْكْهاوْزِن في حياته هذا المنظر.. أبدًا.

لهذا إذًا يخشى الطائرات المقاتلة، وعندما يقترب أزيزُها ويتعبأ الهواء كله بضوضائها، وحين تتبعها الضربات الأولى يُضاء حائط زنزانته باللون الأحمر من شُعَل الحرائق البعيدة والقريبة. كلا، لا يُخرجون السجناء من زنازينهم، ولا يسمحون لهم بالاختباء في القبو

حيث سيمكنهم أن يشعروا بالأمان، أولئك الخنازير! في تلك الليالي يتحوَّل ذلك السجن الضخم في مُوَابيت إلى حالة هيستيرية، يتعلَّق المساجين بالنوافذ ويصرخون. آه كم صرخوا! وصرخ بُورْكْهاوْزِن معهم! بل عوى مثل حيوان، خبَّأ رأسه في وسادته، ثم جرى بهذا الرأس نحو باب الزنزانة وارتطم به، كل مرة يحني رأسه ليقرع باب الزنزانة بجمجمته، إلى أن يسقط أرضًا من أثر التخدير. هذه طريقته في النجاة من تلك الليالي!

بَيْدَ أنه حين عاد إلى بيته بعد الأحد عشر أسبوعًا لم يعد بالطبع في مزاج ودود. وبالطبع لم يجدوا أدنى دليل ضده، فلو فعلوا لكان ذلك مثارًا للضحك. لكنه كان في غِنًى عن تلك الأسابيع الأحد عشر، لو أن أُوْتّي لم تكن تلك العاهرة! ولقد صار يعاملها مثل العاهرة كذلك، تلك التي عاشت حياة ليست سيِّئة في شقته (التي تدفع هي إيجارها بانتظام)، فيما هو عليه أن يجدل الحبال ويكاد يفقد عقله من الذعر.

منذ تلك اللحظة انهمرت الضربات في شقة بُورْكْهاوْزِن. صار الرجل يضرب عند أقل خطأ، ولا يبالي بما يحمله في يده، بل يدسه في فمها، تلك الحثالة، الملعونة التي ألقت به في مهاوي التعاسة.

غير أن أُوْتّي أيضًا تأهَّبت للدفاع عن نفسها. لم تعد توفر له طعامًا، ولا مالًا، ولا تعطيه أبدًا ما يدخنه. تشرع في الصراخ تحت ضرباته بطريقة تُعجِّل بحضور سكان البناية، وكلهم يأخذون صفَّها ضد بُورْكْهاوْزِن رغم أنهم كلهم يعلمون جيِّدًا أنها ليست سوى عاهرة حقيرة. ثم ذات يوم عندما أخذ ينتف شعرها خصلة خصلة بيده

أقدمت على أحقر عمل ممكن: اختفت إلى الأبد من الشقة وتركته بمفرده مع أربعة الأفواه التي لم يكن يثق بأن أيًا منهم ابنه حقًا. اللعنة مرة أخرى لقد صار على بُورْكْهاوْزِن أن يعمل بجد، وإلا ماتوا جميعًا من الجوع، وصارت بَاوْلا -ذات الأعوام العشرة- هي التي تقوم على تدبير شؤون البيت.

سنة متواضعة، بل سنة لعينة هي! ويضاف إليها تلك الكراهية المستمرة لآل بِيرْزِيكِه التي تنخَرُ في عظامه، فهو لا يستطيع أن ينكِّل بهم ولا يُسمح له، وتلمَّظ من الغيظ والغيرة بمجرد أن انتشر في المنزل خبر أن بَالْدُوْر قد وقع عليه الاختيار كي يذهب إلى النابولا، المدرسة التأهيلية في النازية. لكن أخيرًا يلوح له خيط أمل دقيق، عندما يراقب عُكوف بِيرْزِيكِه الكبير على الخمر، ربما.. ربما فعلًا!

وها هو الآن يجلس في شقة بِيرْزِيكِه، وهناك على الطاولة الصغيرة أسفل الشباك يرى جهاز الراديو الذي سرقه بَالْدُوْر من العجوز رُوْزِنْتال. لقد اقترب بُورْكْهاوْزِن من الهدف، وصار الأمر يتعلَّق الآن بقدرته على تنفيذ ذلك المخطَّط بشكل لا يثير الشكوك.

التمعت عينا بُورْكْهاوْزِن، عندما فكر كيف يمكن لبَالْدُوْر أن يصيح عندما يجد بُورْكْهاوْزِن جالسًا هناك على الطاولة. ذلك الثعلب الماكر بَالْدُوْر، لكنه ليس ماكرًا بما يكفي بعد.

الصبر أفضل من المكر أحيانًا. وفجأةً خطر ببال بُورْكْهاوْزِن كيف تعامَلَ بَالْدُوْر معه هو وإِيْنُوْ كْلُوْجِه عندما اقتحموا شقة رُوْزِنْتال، رغم أن ذلك لم يكن اقتحامًا حقيقيًا، بل أشبه بتمثيلية؛

مطَّ بُوزْكهاوْزِن شفته السفلى نحو الأمام، وراقب الرجل الآخر الذي بدا قلِقًا متململًا في أثناء الصمت الطويل وقال:

- حسن، أرني ما تحمله في الحقائب!

- اسمعني.. (حاول الجرذ أن يقاوم)

أعتقد أنك تطلب الكثير. ما دام صديقي السيد بِيزْزِيكِه قد سمح لي، أظن هذا يتجاوز صلاحياتك كمدير للبيت...

- أَخْ! توقف عن الثرثرة! (قال بُوزْكهاوْزِن)

إما أن تُرِيني ما معك في الحقائب وإما أن نذهب معًا إلى الشرطة.

- لا أحتاج إلى ذلك! (صَرَّ الفأرُ مقرِّرًا)

لكني سأريك إياها عن طيب خاطر. فالشرطة لا تجلب إلا المتاعب، ونظرًا إلى أن زميلي في الحزب السيد بِيزْزِيكِه مريض، ربما يستغرق الأمر أسابيع قبل أن يؤكد صحة أقوالي.

- هيا هيا! افتح!

قال بُوزْكهاوْزِن فجأةً بوحشية وتناول فعلًا رشفة من الزجاجة.

نظر إليه الجرذ كليبس وفجأةً ارتسمت ابتسامة صفراء على وجه الجاسوس؛ «هيا! هيا! افتح!».. من هذه الصيحة كشف بُوزْكهاوْزِن عن طَمَعه، كشف أيضًا أنه ليس مدير البيت، وأنه حتى لو كان كذلك، فهو مدير بيت ينوي ألا يكون أمينًا.

- ها يا زميل؟ (قال الجرذ فجأةً في نبرة مغايرة تمامًا)

هل نقتسم الغنيمة النصف والنصف؟

أطاحت لكمةٌ به أرضًا، واحتياطًا كال له بُوزْكْهاوْزِن ضربتين إضافيتين، وضربة ثالثة برجل الكرسي. وهكذا سيظل غير قادر أن ينبس بأي كلمة طوال الساعة القادمة!

ثم بدأ بُوزْكْهاوْزِن في حزم أمتعته، وتقليب الأمتعة الأخرى. ولمرة أخرى تُبدِّل حقائب رُوْزِنْتال صاحبها. تحرَّكَ بُوزْكْهاوْزِن هذه المرة بسرعة وفي منتهى الهدوء. هذه المرة لا ينبغي أن يحول أحد بينه وبين النجاح. وإلا فهو لا يبالي إن أطاح بهم جميعًا وكشَّر عن أنيابه، فهو لن يسمح لأحد أن يبتزَّه.

مَرَّ ربع ساعة وبعدها وقع عراك قصير مع اثنين من رجال الشرطة حينما خرج بُوزْكْهاوْزِن من الشقة. بعض الدهس والشد والجذب، ثم بعدها صار بُوزْكْهاوْزِن مقيَّدًا ومقبوضًا عليه.

- هكذا! (قال مستشار محكمة الاستئناف المتقاعد فْرُومْ راضيًا)

وبهذا أعتقد أن وجودك في هذا المنزل قد انتهى إلى الأبد يا سيد بُوزْكْهاوْزِن. لن أنسى أن أسلِّم أطفالك إلى دار رعاية. لكن لعل ذلك لا يهمك بحال. هكذا يا سادة علينا أن ندخل إلى الشقة. وإني لأتمنى يا سيد بُوزْكْهاوْزِن ألا تكون قد ارتكبت جرمًا شنيعًا مع السيد القصير الذي سبقك في صعود السلم. ثم علينا كذلك أن نعثر على السيد بِيزْزِيكِه، سيدي الحارس، فلقد كان أمسِ يعاني نوبة هذيان ارتعاشي.

43

مشهد عارض

حياة مثالية في الريف

تعمل ساعية البريد السابقة إيفا كْلُوْجِه في زرع البطاطس، تمامًا مثلما حلمت ذات يوم. إنه صباح صيفي جميل، حارٌّ نوعًا على العمل، السماء لامعة الزُّرقة، والريح هنا، ساكنة في هذا الركن المحميّ من العالم على حافَةِ الغابة. وفي أثناء الحرث خلعت السيدة إيفا قطعَة ملابس بعد الأخرى؛ والآن هي لا ترتدي إلا كنزة وتنُّورة. ولقد تلوَّنت ساقاها القويتان العاريتان -كما وجهها- وذراعاها باللون البني الذهبي.

سقطت ضرباتها على نباتات الرُّغل، والفجلٍ، وغيرها من الحشائش البرية. تقدم عملها ببطء فالحقل مغطّى بالحشائش الضارة. وكثيرًا ما اصطدمت ضرباتها بحجر، فيُحدث ذلك رنة معدنية منغمة تحب سماعها. والآن وصلت السيدة إيفا إلى مأوى زهرٍ أحمرَ عند حافَةِ الغابة، هذه الوهدة رطبة، تشقى البطاطس لكنَّ هذاً الزَّهرَ الأحمرَ ينتصر. في الحقيقة أرادت أن تتناول الفطور الآن، فبحسب تقديرها للساعة وَفقًا لوضع الشمس قد حان موعده، لكنها فضَّلت أن تقضي على هذه الطفيليات الحمراء قبل أن تتوقَّف للراحة. تضرب بقوة وشفتاها مطبقتان. لقد تعلمت هنا في الريف أن تحتقر النباتات الطفيلية ولهذا تضربها بلا رحمة.

لكن حتى إن كان فم السيدة إيفا مطبقًا فإن عينيها تَرَيَان بوضوح وهدوء. لم تعد تحمل نظراتها تلك التعبيرات المهمومة دائمًا كما كانت حالها قبل عامين في برلين. لقد أصبحت أكثر هدوءًا، لقد تجاوزت. لقد جاءها الخبر بأن إيْنُوْ الضئيل مات، فقد كتبت لها السيدة جيشْ من برلين. وعلمت أنها فقدت ابنيها كليهما؛ لقد سقط مَاكْس في روسيا، وضاع منها كازْلْمان. لم تُتِمَّ عامها الخامس والأربعين بعد، ولا يزال أمامها عُمر تعيشه، لن تستسلم لليأس، إنها تعيش. ولا تريد أن تموت من الانتظار في السنوات المتبقية لها من العمر، بل تريد أن تحقِّق شيئًا.

أيضًا كان لديها ما تسعد به كل يوم: اللقاء كل مساء مع مساعد ناظر مدرسة القرية. المعلم «الحقيقي» شْفُوخْ، عضو ساخط من أعضاء الحزب، هارب قصير جبان أكد مئات المرات والدموع في عينيه كيف أنه نادم أنه ليس على الجبهة، لأنه -وَفقًا لتعليمات الزعيم- عسير على ذلك المتحمِّس القتال. لذا -بشكل مؤقت- أخذ المعلم شْفُوخْ يعمل صرافًا في الجيش. في كثير من الأحيان تسافر السيدة شْفُوخْ إلى زوجها بالدهن ولحم الخنزير، لكن الرجل عليه أن يحافظ على موقعه في الريف. المعلم «الحقيقي» شْفُوخْ استُدعِيَ إلى الجيش رغم كل الشهادات الطبية.

حدث ذلك تقريبًا قبل نصف عام. بدا الطريق إلى الجبهة صعبًا على ذلك الجندي المتحمِّس للقتال؛ ظلَّ المعلم شْفُوخْ يعمل مؤقتًا كاتبًا في مكتب الرواتب. كثيرًا ما سافرت السيدة شْفُوخْ إلى زوجها حاملة الشحم ولحم الخنزير المقدد، ووَفقًا لتعليمات الزعيم

فإن مثل تلك الإمدادات محظورة إلا على القوات الموجودة على الجبهة. لكن بالنسبة إلى رفقاء الحزب فإن مثل تلك الأوامر التي تحوي اللحم والدهن لا تسري عليهم، وبالطبع فإن زوجها لم يتناول بمفرده كل تلك الطيبات الدسمة. وهكذا نجحت في خطتها وأصبح زوجها العزيز عسكريًّا.

كل ذلك لا يهم السيدة إيفا كْلُوْجِه، فهي تعلم جيِّدًا الآن كيف تسير الأمور منذ أن انشقَّت عن الحزب. فبعدما استعادت سكينتها الداخلية اللازمة سافرت إلى برلين ووقفت أمام محكمة الحزب وهيئة البريد. لم تكن أيامًا لطيفة، صرخوا فيها، وهدَّدوها كما عُذِّبَت أيضًا مرة خلال اعتقالها الذي استمر خمسة أيام. كان دخولها معسكر التعذيب وشيكًا، لكنهم أخيرًا أطلقوا سراحها. الآن هي عدوة للدولة. ويومًا ما ستشهد ما كسبته من ذلك.

لقد حلَّت إيفا كْلُوْجِه وضعها المنزلي. اضطُرت إلى بيع كثير من الأشياء، لأنهم لم يسمحوا لها في القرية إلا بغرفة معيشة صغيرة، لكنها الآن تعيش بمفردها. هي أيضًا لم تعد تعمل فقط لصالح زوج أختها الذي فضَّل أن يكتفي بإعطائها اللقمة ولا يعطيها مالًا أبدًا، لقد تجاوزت أشياء كثيرة لدى الفلاحين. لم تنجز أعمال الحوش والحقل فحسب بل أثبتت جدارتها أيضًا كممرضة، وخَيَّاطة، وبستانية، وتمكنت من جز صوف الغنم. كانت ذات يدين ماهرتين. في الحقيقة لم تكن حالها أكثر سعادة وهي تتعلَّم شيئًا جديدًا، بل تبدو كأنها تتذكَّر مهارة نسيَتْها من طول المدة التي لم تستخدمها فيها، كأن أعمال الريف تجري في دمائها.

لكن هذه الحياة الصغيرة المسالمة تمامًا، التي اقتحمَتْها بكل عزم، لم ينتشر فيها الضياء والبهجة إلا من خلال المعلم المناوب كِينْشِيبَر. كان كِينْشِيبَر رجلًا طويلًا، ينحني إلى الأمام قليلًا في أثناء المشي، وفي نهاية الخمسينيات، بشَعر أبيض متطاير، ووجه شديد السُّمرة تبتسم فيه عينان زرقاوان صغيرتان. وكما يضمد كِينْشِيبَر جروح أطفال القرية الصغيرة بعينيه الباسمتين الزرقاوين ساحبًا إياهم من قيود التربية الصارمة التي توارثها الآباء عن الأجداد إلى ربوع إنسانيَّة أكثر رحابة، يمضي، مسلَّحًا بمقص تقليم الأشجار، عبر بساتين الفلاحين فيحرِّر أشجار الفاكهة البرية من الطحالب، والخشب الميت، يقتطع جروحها السرطانية، ثم يدهنها بالكاربولينيوم. هكذا أيضًا ضمَّد جروح إيفا، فأذاب مرارتها وجلب إليها السلام.

ليس لأنه تحدَّث عنها على وجه الخصوص، فكِينْشِيبَر لم يكن خطيبًا مفوَّهًا، لكنه حين حكى معها في المنحل عن حياة النحل التي شغفته، وعندما تمشَّى معها مساء عبر الحقول، وأراها كيف أن هذه الأراضي مهملة، وكيف أنه يمكن لإنتاجيَّتها أن ترتفع بمجهود قليل، حين ساعد كِينْشِيبَر بقرة في الولادة، أو أقام سورًا يكاد يتهاوى بدون أن يُسأَل، حين جلس على الأورجل وعزف عليه بكل رقة من أجلها ومن أجله فقط، عندما بدا كل شيء منظمًا ووادعًا لأنه مرَّ عليه بخطواته الحنونة- كل ذلك فعل فعله في مداواة نفس إيفا بتأثير أبلغ من أي كلمات مواسية. كانت الحياة آخذة في الانحدار في زمن يعجُّ بالكراهية والدموع والدماء، لكنها هنا وادعة، تتنفس السلام.

زوجة المعلم شْفُوخ التي كانت أكثر نازيةً من زوجها المتحمِّس للحرب كرهت بالطبع ذلك الكِينْشِيبَر وفعلت كل ما يخطر ببالها الكاره لتزعجه. كان لزامًا عليها أن تُؤْوي وتطعم نائب زوجها، لكنها لم تفعل ذلك إلا من خلال حسابات دقيقة لا تسمح لكِينْشِيبَر أبدًا بالحصول على فطوره قبل موعد المدرسة، ودائمًا تقدِّم له طعامًا محروقًا، ومُطلقًا لم تنظف غرفته.

لكنها كانت عزلاء تمامًا أمام راحة باله ومَرَحه. إذ مهما ثارت وعصفت وأرغت وأزبدت، ومهما تحدَّثت عنه بسوء ووَشَت به لمجلس المدرسة- لا يغير ذلك أسلوبه في الحديث معها، فيتحدَّث إليها كما يتحدَّث الواحد إلى طفل لم ينل قسطًا كافيًا من التربية لكنه سيتمكَّن وحده من رؤية عواقب أفعاله الوخيمة ذات يوم. وأخيرًا صار كِينْشِيبَر يتناول طعامه مع إيفا كْلُوْجِه، وانتقل إلى القرية، ولم يعد للسيدة شْفُوخ البدينة الغاضبة أي مجال لِشَنِّ حربها عليه إلا من بعيد.

لم تعرف السيدة إيفا كْلُوْجِه ولا المعلم كِينْشِيبِر متى تحدَّثا عن إمكانية زواجهما. بل ربما لم يتحدَّثا عن ذلك قط. كأن الأمر دُبِّر من تلقاء نفسه. هي أيضًا لم تكن متعجلة: «يومًا ما سيحدث ذلك فعلًا». رجل وامرأة متقدمان في السِّن، لا يريد أيٌّ منهما أن يمضي إجازاته وحيدًا. لا يريدان أطفالًا -لا أطفال ثانية أبدًا- هذا أمر يصيب السيدة إيفا بالرجفة. لكن رفقةً، مَحَبَّةً مُتَفهمةً، وقبل كل شيء ثقة. هي التي في زيجتها الأولى لم تكن تسمح لنفسها قط بالثقة، هي التي تحتَّم عليها دائمًا أن تقود- تريد الآن أن تقطع الدرب المتبقي من الحياة ممتلئة بالثقة. فعندما أعتمت الدنيا، وحينما كانت عاجزة تمامًا، أشرقت الشمس مرة أخرى من وراء السحاب.

ينتشر الفرندل* الأحمر على الأرض، بعد أن اقتُلع أولًا. بالتأكيد سينمو مجدَّدًا، فهذه حال الأعشاب الضارة التي يتعيَّن على المرء أن يقتلعها من الأرض الرخوة ويجمعها، كل جذر تحت الأرض ينبت منه أعشاب جديدة. لكن السيدة إيفا صارت تعرف الآن مكانه، ولن تنساه، ستظل تذهب إليه وتقتلعه إلى أن يختفي العشب الضار تمامًا.

في الحقيقة يمكنها الآن أن تفطر، لقد آنَ وقته، وهذا أيضًا ما تقوله معدتها. بَيْدَ أنها حين نظرت نحو الظل على حافَةِ الغابة الذي وضعت فيه خبزها وقهوتها، رأت أنها لن تفطر اليوم، وعلى معدتها أن تلزم الصمت. لأن أحدهم يتناول هذا الفطور، صبي ربما يكون في الرابعة عشرة، مُتَّسِخ وممزَّق الملابس بشكل لا يمكن تصوُّره، يلتهم خبزها كأنه يوشك على الموت جوعًا.

لقد كان هذا الصبي منشغلًا تمامًا بِسَدِّ رمقِهِ لدرجة أنه لم يشعر أن ضربات المنجل في الحقل توقفت. ولم يجفل إلا حين رأى السيدة واقفة أمامه مباشرة تنظر بعينيها الزرقاوين الكبيرتين إلى شعره الأشقر المتشابك. ورغم أنها عثرت عليه متلبِّسًا بالسرقة ولم يعد الهرب ممكنًا له، لا ينظر الصبي بخوف أو خِزي، بل إن نظرته أقرب إلى التحدِّي.

في الشهور الأخيرة تعودت القرية - وفيها السيدة كْلُوْجه- هؤلاء الأطفال، لقد تزايدت ضربات الطيران على برلين وحُثَّ الأهالي على إرسال أطفالهم إلى الريف. فصارت الضواحي مزدحمة بأطفال برلين. لكنْ للغرابة بعض الأطفال لم يتمكَّنوا من اعتياد حياة الريف

---

* الفرندل الأحمر نبات من الفصيلة الحنَّائية يكثر في المراعي. (المترجمة)

الهادئة. لديهم هنا هدوء وطعام أفضل ونوم الليل بلا إزعاج، لكنهم لم يتحملوا ذلك، لقد عادوا مرة أخرى إلى المدينة. وانطلقوا في الطرقات حفاةً، يتسولون بعض الطعام، لا مال معهم، مُهدَّدين من الصيادين، يبحثون كل يوم عن طريق العودة إلى المدينة المحترقة. وإن أُمْسِكَ بهم أُعِيدُوا إلى القرية فورًا، فينتظرون قليلًا إلى أن يشعروا ببعض الشبع ثم يهربون من جديد.

ذلك هناك ذو النظرة المتحدِّية الذي يأكل طعام السيدة إيفا.. من الواضح أنه ظلَّ مطوَّلًا على طريق. لا تذكر السيدة أنها رأت من يشبهه في القذارة من قبل. فشعره ممتلئ بأعواد القش، وأذناه مُعبَّأتان بطين يكفي لزراعة الجزر.

- ها. هل مذاقه طيب؟ (سألت السيدة كْلُوْجِه)

- بالطبع! (قال، وكانت هذه الكلمة كافية لِتَشِي بأصله البرليني. حدَّق إليها)

هل ستضربينني؟

- كلا، أكمل طعامك بهدوء. أستطيع أن أتحمَّل أحيانًا بدون إفطار، أما أنت فيبدو عليك الجوع.

- بالطبع! (اكتفى بتكرار هذه الكلمة فحسب. ثم سأل)

هل ستدعينني أمضي بعدها؟

- ربما. لكن ربما توافق أن أُحمِّمَك قبلها وأضبط لك ثيابك بعض الشيء. ربما وجدتُ لك أيضًا سروالا مُناسبًا لمقاسك.

- لستُ في حاجة إلى هذا! (قال رافضًا)

لن يسعني إلا أن أُضيِّعها. ألا تعتقدين أني ضيعت كل شيء على مدار العام الذي قضيته في الهرب؟ لا يقل عن خمسة عشر سروالا! وعشرة أحذية!

ثم رمقها بنظرة منتصِرة.

- ولم تحكي لي ذلك؟ (سألَتْهُ)

ألن يكون من الأفضل لك أن تأخذ السروال بدون أن تخبرني بأي شيء.

- لا أعلم! ربما لأنكِ لم تصرخي في وجهي لأني سرقت فطورك. أعتقد أن الصراخ حماقة.

- إذًا أنت على طريقٍ منذ سنة؟

- بالطبع هذا مبالغ فيه. لقد اختبأتُ في الشتاء لدى صاحب حانة في مكان قفر. أطعَمت الخنازير وغسلت الأكواب، عملتُ كل شيء. كان هذا وقتًا طيبًا للغاية. (قال متفكِّرًا)

كان فاسدًا، صاحب الحانة ذاك، سكران دائمًا، لكنه كان يتحدَّث إليَّ دائمًا كأني مثله، في نفس سِنِّه وهكذا. وهناك تعلَّمت الشرب والتدخين. هل تحبين أنت أيضًا الجعة؟

أجَّلت السيدة كْلُوْجِه تفنيد مسألة شرب الجعة بالنسبة إلى الغلمان في سن الرابعة عشرة إلى وقت لاحق.

- لكنك عُدت وهربت! أتريد أن تعود إلى برلين؟

- كلا؛ لن أعود إلى أهلي ثانية. إنهم عاديوُّن جدًّا بالنسبة إليَّ.

- لكنَّ والديك سيقلقان عليك؛ إنهما لا يعرفان مطلقًا أين أنت!

- هؤلاء يقلقون؟ بل هما سعيدًان بالتخلص مني!
- ما عمل أبيك؟
- ذاك؟ أَخْ! إنه بضعةٌ من كل شيء؛ يتنصَّت على الناس.. جاسوس.. يسرق أيضًا، أحيانًا حين يعثر على شيء يسرقه. لكنه أيضًا مغفل. ولا يفعل أبدًا أي شيء بشكل سليم.
- هكذا إذًا!

قالت السيدة كْلَوْجِه، وبعد هذه المكاشفات صار صوتها حادًّا نوعًا.

- وماذا تقول أمكَ عن ذلك؟
- أمي؟ ما عساها تقول؟ إنها ليست سوى عاهرة!

الآن تلقَّى صفعة على وجهه رغم وعدها له.

- ألا تخجل أبدًا من نفسك وأنت تتحدَّث عن أمك بتلك الطريقة؟ خسِئْتَ أيها اللص!

حك الولد وجنته بدون أن يحرك قسمة من وجهه.

- لقد أكلت. (قرَّر)

لا أريد المزيد من هذا.

- لا ينبغي أن تتحدَّث عن أمك بتلك الطريقة! أتفهم؟ (قالت غاضبة)
- ولم لا؟ (سأل وأمال ظهره إلى الوراء. أشرقت ملامحه بالشبع)

لم لا؟ هي فعلًا عاهرة. هي ذاتها تقول ذلك عن نفسها «لو أنني لم أذهب في مهمَّة لَمِتُّم جميعًا من الجوع!» هذا لأننا خمسة

إخوة. لكن لكل واحد أب مختلف. من المفترض أن أبي من النبلاء ويمتلك إقطاعية في بومرن. عليَّ أن أذهب للبحث عنه. لا بد أنه فاسد اسمه كونو-ديتر. لا يمكن لكثيرين أن يحملوا هذا الاسم الأحمق. عليَّ حقًّا أن أعثر عليه...

- كونو- ديتر؟ (سألت السيدة كْلُوْجِه)

هل أنت أيضًا اسمك كونو-ديتر؟

- الأفضل أن يُقال لي كونو، أما ديتر فيمكن لك أن تنسَيْه!

- كونو إذًا. أخبرني، ما القرية التي أُجْلِيتَ إليها؟ تلك التي سافرت إليها بالقطار.

- لم أُجْلَى! لقد فررت من أهلي التعساء!

كان يرقد الآن على جنبه مسندًا وجنته المتسخة إلى ساعده المتسخ كذلك. نظر إليها بخمول وتأهُّب تام لثرثرة صغيرة.

- إذًا دعيني أحكي لكِ، ذاك المدعو أبي سرق مني آنذاك، أي ما قبل عام، خمسين ماركًا، وضربني. فما كان مني إلا أن جلبتُ عددًا من أصدقائي، لا يعني هذا أنهم كانوا أصدقاء فعلًا، لكنهم كانوا أقوياء وهجموا كلهم عليه وضربوه. لكن ظلَّ الرجل سليمًا، فقط تعلم أن المسائل لا تسير دائمًا على هذا الشكل (الكبار يفترون على الصغار!). ثم سرقوا المال من جيبه. لا أعرف كم كان المبلغ. إذ لم أحصل إلا على عشرين عملة، ثم قالوا لي «اهرُب، فأمك ستذبحك أو ترسلك إلى دار الأيتام. اذهب إلى الفلاحين». وهذا ما فعلتُه. وها أنا ذا في الريف بين الفلاحين. وصرت أعيش حياة جميلة جدًّا منذ ذلك الحين، أستطيع أن أزعم ذلك!

سكت وحدَّق إليها مرة أخرى. نظرت إليه بهدوء. كانت تفكِّر في كازْلمان. فهذا -بعد سنوات ثلاثٍ- سيصير كازْلمان آخر، بلا حب، بلا إيمان، بلا طموح، ولا يفكِر إلا في نفسه.

سألت:

- وماذا تظنّ أنك ستكون حين تكبر يا كونو؟ هل تريد أن تلتحق لاحقًا بكتيبة العصف أم بالشرطة العسكرية؟

أجاب بصوت ممطوط:

- عند الإخوة؟ هراء! إنهم أسوأ من أبي! يصرخون طوال الوقت ويأمرون! كلا، شكرًا، هذه الفاكهة المطبوخة ليست لي!
- لكن ربما سيسعدك ذلك عندما يصبح في وسعك أنت أيضًا أن تأمر آخرين؟
- ولم كل هذا؟ كلا، هذا شيء ليس لي. أتعلمين؟ ما اسمك حقًّا؟
- إيفا. إيفا كْلُوْجِه.
- أتعلمين يا إيفا ما سيسعدني حقًّا؟ إنها السيارات. أريد أن أعرف كل شيء عن السيارات. كيف يعمل الموتور وكل شيء عن القيادة ودورة الاحتراق. كلا، ليس هذه، أعلم عنها بعض الشيء، لكن أريد أن أتعلَّم أكثر، فقط أعلم أني أغبَى من أن أتعلَّم. ففي صغري ضربوني كثيرًا على رأسي ومنذ ذلك الوقت صرت غبيًّا. أنا حتى لا أستطيع أن أكتب بشكل جيد!
- لكنك لا تبدو غبيًّا على الإطلاق! أنا واثقة بأنك ستتعلَّم الكتابة ولاحقًا كلَّ ما يخص المحركات.

- أتعلَّمُ؟ أذهب إلى المدرسة ثانية؟ لا أفكر في ذلك أبدًا. لقد كبرتُ أصلًا كثيرًا. لقد صار لي حبيبتان بالفعل.

ارتجفت لوهلة. ثم قالت بشجاعة:

- هل تعتقد أن المهندس أو الفني يفرُغ من التعلم أبدًا؟ عليهم أن يواصلوا التعلم، في الجامعات أو في الدورات المسائية.

- أعلم هذا! أعلم كل شيء فعلًا! فهذا مكتوب على أعمدة الإعلانات. دورات مسائية لفنيين كهربائيين! (وفجأةً بدأ يتحدَّث بلغة ألمانية سليمة)

أساسيات الكهرباء!

- ها أنت ذا! (صاحت السيدة إيفا)

وتظنُّ أنك كبير على شيء كهذا! ألا تريد أن تواصل تعليمك؟ هل تريد أن تقضي يومك في النوم؟ وتقضي الشتاء بطوله في غسل الأطباق وتقطيع الأخشاب؟ ستكون تلك حياة لطيفة لكنها لن تجلب لك أي متعة!

فتح عينيه ثانية وحدق إليها متفحصًا ومرتابًا.

- هل تريدين أن أعود إلى أهلي وأعود إلى المدرسة في برلين؟ أم سترسلينني إلى دار الأيتام؟

- لا شيء من هذا، أريدك أن تبقى عندي. ثم سأعلِّمك أنا بنفسي ومعي صديقي.

ظلَّ مرتابًا:

- وماذا ستجنين من وراء ذلك؟ سأكلفك كثيرًا من النفقات ما بين طعام وملابس وكتب المدرسة.. إلى آخره.

- لا أعلم إن كنتَ ستفهم ذلك يا كونو. لقد كان لي ذات يوم زوج وولدان، وفقدتهم. والآن أنا وحيدة تمامًا. ليس معي إلا ذلك الصديق!

- يمكنك أن تلدي طفلًا.

احمرَّت وجنتاها خجلًا. هي السيدة الراشدة، احمرَّت وجنتاها تحت نظرات الصبي ذي الأربعة عشر عامًا.

- كلا، لا أريد أن ألِدَ مزيدًا من الأطفال. (قالت ونظرت إليه بثبات)

لكن سيسعدني إن صار منك شيءٌ، مهندس سيارات، أو صانع طائرات. سيسعدني أن أقدم شيئًا لصبي مثلك.

- أتظنّين أني مجرد حمار حقير؟

- أنت تعلم يا كونو أنك على حالك الآن لست شيئًا ذا بال!

- الحقُّ معكِ. لا بد أن هذا صحيح.

- أَليسَ لك أيُّ رغبة في أن تصبح شيئًا آخر؟

- رغبة؟ بالتأكيد، لكن...

- لكن ماذا؟ ألا تريد أن تأتي معي؟

- أريد بالتأكيد، لكن...

- لكن ماذا؟

- أفكِر أنه سرعان ما ستريدين التخلص مني. وأنا لا أحب أن يتخلَّص مني أحد. أفضل دائمًا أن أرحل بنفسي.

- يمكنك أن ترحل في أي يوم تشاء. لن أمسكك.

- هل تعطينني كلمتكِ؟

- نعم أعطيك كلمتي. أعدك يا كونو أن تظلَّ عندي حرًّا.

- لكن عندما أكون عندك سيتعيَّن أن أكون مُسَجَّلًا، ومن هنا سيعلم أهلي الأشقياء مكاني ولن يتركوني عندك يومًا واحدًا.

- إن كان الوضع في بيتك كما صوَّرتَهُ فلن يجبرك أحد على العودة. ربما أحصل على حقوق التبنِّي وتصير ساعتها ابني أنا!

حدق كل منهما إلى الآخر لبعض الوقت. كانت ترى بريقًا بعيدًا يتراءَى لها من هاتين العينين الزرقاوين. لكنه قال بعد أن وضع رأسه على ذراعه وأغمض عينيه:

- كلا، هذا جميل. أريد الآن أن أنام قليلًا. عودي إلى البطاطس!

- لكن يا كونو! (صاحت)

عليك على الأقل أن تعطيني جوابًا عن سؤالي!

- عَلَيَّ؟ (سأل وهو يداعبه النعاس)

ليس على أي إنسان أي شيء!

نظرت إليه هنيهة بارتياب. ثم عادت إلى عملها مبتسمة.

كانت تحرث الأرض، لكنها الآن تفعل ذلك بلا أفكار. وأمسكت نفسها مرتين وقد قلبت البطاطس. «احذري يا إيفا!» قالت غاضبة لنفسها.

لكن الأفضل هو ألا تحاذر. لكنها كانت تفكر أنه ربما من الأفضل ألا يكون شيء بينها وبين ذلك الولد الضال. ما أكثر الحب والعمل الذي وضعته في كازْلمان، الذي كان طفلًا صالحًا. وما الذي صار من هذا الحب والجهد؟ وهي تريد أن تغيِّر تمامًا حياة غلام ذي أربع عشرة سنة يحتقر الحياة وكل البشر؟ ماذا توهَّمَتْ؟ علاوة على ذلك فإن كِينْشِيبَر لن يوافق على ذلك أبدًا.

نظرَتْ نحو النائم. لكن النائم لم يكن هناك، لم تبق سوى الأغراض في الظِلِّ على حافة الغابة.

«إذًا هذا أفضل!» فكَّرَتْ.. «لقد سلبني أي قدرة على اتخاذ القرار! هرب! هذا أفضل!».

وعادت تحرث بغيظ.

لكن بعد دقيقة أخرى وجدت كونو-ديتر عند الحافَةِ الأخرى من حقل البطاطس، كان يقتلع الأعشاب الضارة بمهارة ويرتِّبها في أكوام على حافَةِ الحقل. توجهت نحوه عابرة فوق أخاديد الحقل.

- نِلْتَ قسطًا كافيًا من النوم؟

- لم أستطع أن أنام. لقد تحدَّثتِ معي حتى أصبتُ بالدوار؛ عليَّ أن أفكر.

- فلتفعل ذلك يا رجل! لكن لا تظنَّ أن عليك أن تعمل لأجلي.

- لأجلكِ؟! (كان احتقار يُلغِم تلك الكلمة بقدر لا يمكن حتى التفكير فيه)

أنا أنتزع الأعشاب الضارة لأن هذا يساعدني على التفكير أفضل، ولأن ذلك يسعدني. بصدق! لأجلكِ؟! بسبب الخبزتين تقصدين؟

ومرةً أخرى عادت السيدة كْلُوْجِه إلى عملها مبتسمة؛ لقد كان يفعل ذلك لأجلها حتى لو أنه لا يريد الاعتراف بذلك. الآن هي لا تشكُّ مطلقًا أنه سيذهب معها في وقت الظهيرة، ولم يعد لكل الأصوات المحذِرة والمنذِرة التي تعالت في داخلها أهمية تُذكر.

أنهت عملها مبكرًا عن المعتاد. ذهبت إلى الفتى وقالت له:

- سأذهب الآن لاستراحة الظهيرة. إن كنت تريد يا كونو فلتأتِ معي.

انتزع بضعة أعشاب ضارة إضافية ثم نظر إلى بقعة الأرض التي نظّفها.

- لقد أنجزتُ عملًا جميلًا! (قال راضيًا)

بالطبع لم أنتزع سوى الأعشاب الضارة. أما الأعشاب الأصغر فستحتاج إلى مدة أطول في العمل وسأنجز المزيد.

- بالطبع. انتزِعْ فقط الأعشاب الضارة أما الصغيرة فسأتولى أنا أمرها.

نظر إليها من الجانب ولاحظت أن تلكما العينين الزرقاوين يمكن أن تنظُرا نظرات صبيانية.

- هل هذا تلميح؟ (سأل مستفسرًا)

- مثلما تريد؛ من الممكن ألا يكون!

- حسنًا!

توقفت في طريق العودة عند ماء يتدفَّق بسرعة.

- لا أريد أن أصطحبك إلى القرية وأنت على هذا المنظر يا كونو!

وفورًا ظهرت تجعيدة على جبينه وسأل بعجرفة:

- أتخجلين مني؟

- من ناحيتي يمكنك أن تأتي هكذا بالطبع. لكن إن كنتَ تريد أن تبقى مدة طويلة في القرية! إذ يمكنك أن تبقى هناك لخمسة أعوام وتكون مرتديًا ملابس مرتبة، ولن ينسى الفلاحون أبدًا المنظر الذي دخلت به عليهم. «مثل خنزير قذر» سيظلون يردِّدون ذلك لعشرة أعوام. «مثل المتشرد».

- لديكِ حق؛ الإخوة كذلك فعلًا. حسن، اذهبي وافعلي شيئًا! سأعمل على تنظيف نفسي هنا بعض الوقت.

- سأجلب لك صابونًا وفرشاة. (صاحت وهي تسرع نحو القرية)

وفي ساعة متأخرة من النهار، حين حلَّ المساء، كان ثلاثتهم يجلسون لتناول طعام العشاء: السيدة إيفا، كِينْشِيبَر ذو الشعر الأبيض، وكونو-ديتر الذي تغير لدرجة لا تكاد تعرفه. لاحقًا قالت السيدة إيفا:

- تنام اليوم على الأرضية القشِّ يا كونو. ومن الغد أحصل لك على الغرفة الصغيرة، عليهم فقط أن يُخلوها من الكراكيب. سأُثِّثها لك بشكل أنيق. عندي ما يكفي من الأثاث.

ظل كونو فقط ينظر إليها:

- هذا يعني أن عليَّ الآن أن أتبخر! وأن السادة يريدون الآن الاختلاء بعضهم ببعض. حسن! لكن لن أذهب للنوم الآن يا إيفا. أنا لست رضيعًا في شهره السابع؛ سأذهب إلى الخلاء.

- لكن لا تتأخر كثيرًا يا كونو! ولا تدخن على أرضية القش!

- أعلم بالطبع! أين أنا؟ حسن إذًا! «وقتًا سعيدًا يا شباب»، كان أبي يقولها وبعدها يصنع مع أمي طفلًا!

وذهب السيد كونو-ديتر.

ابتسمت السيدة إيفا كْلُوْجِه ببعض القلق.

- لا أعرف يا كِينْشِيبَر إن كنتُ مُحقَّة في جلب تلك الفاكهة إلى أسرتنا الصغيرة. إنه تَحَدٍّ كبير، هكذا هو!

ضحك كِينْشِيبَر:

- لكن إيفي.. لا بد أنك قد لاحظتِ بنفسكِ أن الفتى الآن مجرد مُدَّعٍ! إنه فقط يريد أن يظهر بمظهر الكبير بكل هذه البذاءة. ولأنه يلاحظ أنك متعاطفة.

- لست متعاطفة! (صاحت)

لكن حين يحكي لي فتًى في الرابعة عشرة أنه بالفعل كانت له حبيبتان...

- هكذا أنت بالفعل متعاطفة يا إيفي! وما معنى «حبيبتان» بالمناسبة، لأنهما بالتأكيد لم تَكُونَا له حقًّا، لكن في أسوأ الظروف.. غالبًا هما من حَصَلَتَا عليه! كل هذا هراء! أريد أن أوفِّر على أذنيكِ يا إيفي، لن أحكي عما يفعله أطفال هذه القرية

الرقيقة المتديّنة بعضهم مع بعض، فمقابل كل هؤلاء يكون كونو-ديتر طفلًا ذهبيًا!

- لكن الأطفال لا يتحدَّثون عن ذلك!

- لأن ضميرهم يؤنبهم. أما هو فليس لديه ضمير! لكنه يرى المسألة بشكل طبيعي لأنه لم يرها ولم يسمعها بأي طريقة أخرى. هذا كل ما في الأمر. ثمة بذرة طيبة في ذلك الفتى؛ وبعد ستة أشهر من الآن سيحمرُّ خجلًا عندما يتذكر ما كان يقول لك في الأيام الأولى. سيتخلّى عن ذلك كما سيتخلّى عن لكنته البِرلينيَّة. ألم تلاحظي أنه يستطيع أن يتحدَّث اللغة الألمانية الفصحى بطلاقة، لكنه فقط لا يريد!

- ضميري يؤنِّبني، خصوصًا بسببك، يا كِينْشِيبَر.

- لستِ في حاجة إلى ذلك يا إيفي؛ الفتى يسلِّيني، والأكيد هو شيء واحد.. رغم ما هو عليه فلن يكون واحدًا من فتيان هتلر أبدًا. ربما يكون غريب الأطوار، لكنه لن يكون أبدًا عضوًا في الحزب.

- ليستَجِب الله! لا أريد أكثر من ذلك مطلقًا.

كان يسيطر عليها شعور قاتم بأنها حين تنقذ كونو-ديتر فإنها بذلك قد تُكَفِّر بعض الشيء عن الأفعال المخزية التي اقترفها كارْلمان.

44

الإطاحة بالمستشار الجنائي تْسُوتْ

كان خبر توجيه خطاب من رئيس قسم الشرطة إلى السيد المستشار الجنائي تْسُوتْ الذي يعمل لدى جهاز أمن الدولة السري (الجيستابو) صحيحًا. بَيْدَ أن هذا لم يستَتبِع وصول هذا الخطاب مباشرة إلى المستشار الجنائي تْسُوتْ. إذ إن رئيسه -بْرَالْ، قائد مجموعات العمل في الشرطة العسكرية- حمله بين يديه وهو يدخل على المستشار الجنائي.

- ما هذه المسألة يا سيد مستشار الجنايات؟ (سأل بْرَالْ)

ثمة بطاقة من شبح البحر عليها ورقة مثبتة بالدباسة: «أُطلِقَ سراح المقبوض عليهم طبقًا للتعليمات الهاتفية للجيستابو، الصادرة عن المستشار الجنائي تْسُوتْ». ما حكاية هؤلاء المقبوض عليهم؟ ولِمَ لَمْ تعلمني بشيء من هذا؟

نظر المستشار نظرة مائلة عبر نظارته نحو رئيسه:

- أَخْ! أجل، الآن أتذكَّر. كان هذا أمس الأول أو ربما قبله بيوم. الآن عادت الذكرى ثانية بشكل دقيق؛ كان ذلك يوم الأحد. مساءً. بين السادسة والسابعة (أو بين الثامنة عشرة والتاسعة عشرة)، يا سيدي قائد مجموعات العمل.

وحدَّق إلى قائد مجموعات العمل فخورًا بذاكرته الممتازة.

- وما الذي حدث يوم الأحد بين الثامنة عشرة والتاسعة عشرة؟ ولِمَ ثمة مقبوض عليهم؟ ولم أُطلِقَ سراحهم؟ ولِمَ لَمْ تخبرني بشيء من ذلك؟ إنه أمر مَطَمْئِن يا تْسُوتْ أنك تتذكر لكني أريد أن أعرف.

هذه الـ«تْسُوتْ» التي قيلت من دون أي لقب. «تْسُوتْ» بدت كطلقة مدفع أولى.

- لكنها قصة لا صلة لها بالأمر!

(قال المستشار وأَتَى بحركات مهدِئة من يده المصفَرَّة من الملفات)

عبثٌ في ذلك القسم. أمسكوا هناك ببعض الناس على أنهم كاتبو البطاقات أو موزعوها، زوج وزوجة، بالطبع هراء محضٌ من شرطي الحراسة؛ زوج وزوجة فيما نحن بالفعل نعلم أنه يعيش بمفرده! ثم الآن يخطر ببالي شيء آخر، كان الرجل نجّارًا، ونحن نعلم أن الرجل له صلة بالتِرام!

- أتريد أن تقول يا سيد..

(أجاب قائد مجموعات العمل بصعوبة وهو يحاول أن يتمالك نفسه. هذه الـ«سيد» كانت الطلقة الثانية الأكثر حدَّة في تلك الحرب)

أتريد أن تقول إنك أمرت بصرف هؤلاء الناس، من دون أن تراهم من الأساس، ومن دون أن تستجوبهم! فقط لأنهما كانا اثنين بدلًا من واحد، وفقط لأن الرجل ادَّعى أنه نجار؟ يا سيد!

- سيدي قائد مجموعات العمل.. (أجاب المستشار الجنائي تْسُوتْ ونهض)

نحن -الجنائيين- نعمل وَفقًا لخطة محدَّدة ولا ننحرف عنها. أنا أبحث عن رجل وحيد يعيش بمفرده له صلة بالتِّرام، لا أبحث عن زوج يعمل نجارًا. ولن أتَّخذ خطوة تجاه ذاك الأخير.

- كأن النجار لا يمكن أن يعمل في شركة مواصلات برلين العامة! كأنْ يصلح عربات التِّرام على سبيل المثال! (صرخ بْرَالْ الآن)

يا لها من حماقة!

أراد تْسُوتْ أولًا أنِ يبدو مستاءً، غير أن الملحوظة السديدة التي قالها رئيسه جعلته يفكِّر.

- بصراحة.. (قال مبهوتًا)

لم أفكر في ذلك بصراحة! (تمالك نفسه)

لكني أبحث عن رجل يعيش بمفرده.. وهذا الرجل له زوجة!

- هل لديكَ فكرة كيف يمكن للنساء أن يَكُنَّ وحوشًا وضيعة؟!

زمجَرَ بْرَالْ، ولكنه كان يحضِر أمرًا:

- أتقول يا سيد مستشار الجنايات تْسُوتْ.. (الطلقة الثالثة الأكثر حِدَّة)

إنك أيضًا لم تفكِّر في أن هذه البطاقة وُضِعَت يوم أحد قبل الغروب بالقرب من ميدان نولليندورف التابع إلى القسم! هل أفلَتَ أيضًا هذا الوضع البسيط غير ذي الصلة من حاسَّتك الجنائية الرفيعة؟

هذه المرة كان المستشار الجنائي تْسُوتْ مهزوزًا بصدق، ارتعش ذقنه الحاد، فيما غشيت غلالة كالحجاب عينيه الدَّاكنتين الحادَّتين.

- تَراني في حَيرة عظيمة يا سيدي رئيس مجموعات العمل! أنا يائس لأنني لا أعلم حقًّا كيف يمكن أن يحدث ذلك لي؟ أَخْ! أجل، لقد ضللتُ طريقي. لطالما فكّرتُ فقط في محطات التِّرام الكهربي. كنت فخورًا بنفسي وبهذا الاكتشاف.. فخورًا بشكل زائد.

نظر قائد مجموعات العمل إلى ذلك الرجل القصير بعيون غاضبة وهو يعترف بذنوبه بمنتهى الصدق الذي لا يشوبه أيُّ تسوُّل.

- لقد كان ذلك خطأً مني.. (أضاف مستشار الجنايات بحماس)

- خطأً جسيمًا بالأساس تَلَقِّي تلك التحريات. أنا لا أصلح إلا للعمل الساكن على المكتب، لا التعقُّب. فالزميل إشيرِش ينفذ شيئًا مثل هذا أفضل مني بعشرة أضعاف. والآن أصابني سوء الطالع. (واصل اعترافه)

حظٌّ سيِّئ أن يُعتقَل أحد الرجال الذين أوكلت إليهم مهمة التحري في هذه البيوت، رجل يدعى كليبس، وكما أُبلِغتُ، فلقد تورط في سرقة. كما أنه أصيب إصابات بالغة. إنها قصة بالغة القبح. لن يغلق الرجل فمه في المحاكمة، سيقول إننا من أرسلناه...

أخذ قائد مجموعات العمل يرتعش من الغضب، لكن الجدية الحزينة التي كان يتحدَّث بها المستشار الجنائي تْسُوتْ وعدم قلقه على مصيره الشخصي أجبرته على أن يتمالك نفسه.

- وكيف ترى تكملة المسألة يا سيد؟ (سأل ببرود)

- أرجوك يا سيدي قائد مجموعات العمل.. (توسَّل تْسُوتْ بيدين مرفوعتين)

أرجوك أعفِني! أعفِني من هذه المهمة! فأنا غير مؤهل لها بأي حال من الأحوال! أخرِج المفتش إشيرِش من زنزانته، سيدير المسألة أفضل مني...

- أرجو.. (قال بْرَالْ ويبدا عليه أنه لم يسمع أي كلمة مما قيل)

أتمنى أن تكون قد دوَّنت عنوان المتهمَيْنِ على الأقل؟

- ليس معي! لقد تصرَّفت بخِفَّة أستحق أن أُعاقب عليها، لقد أغوتني فكرتي الأثيرة. لكن يمكنني أن أتصل بالقسم وسيعطونني العناوين، وسنرى...

- إذًا فلتتصل بهم!

كان الحوار قصيرًا للغاية. قال المستشار الجنائي لقائد مجموعات العمل:

- حتى هناك لم يدونوا العناوين. (وفي أثر حركة غاضبة من رئيسه)

أنا المَلُومُ! أنا المذنب كليةً! بعد المكالمة الهاتفية معي لا بد أنهم اعتبروا المسألة محسومة. أنا وحدي المذنب عن أنه لم تُدَوَّن حتى أي ملحوظة في الملف!

- وهكذا ليس لدينا الآن أي أثر نتعقبه؟

- لا أثر!

- وما رأيك في تصرُّفكَ؟

- أرجو يا سيدي أن تجلب المستشار إشيرِش من القبو وترسلني إلى مكانه!

حدَّق قائد مجموعات العمل بْرَالْ لهنيهة في وجه الرجل القصير بدون أن ينبس. ثم قال، مرتجفًا من الغضب:

- أتعلم أنني سأرسلك إلى معسكر التعذيب؟ أتجرؤ على أن تقدِّم لي هذا الاقتراح في وجهي، بدون أن ترتجف أو تنتحب من الذعر؟ لقد صَنَعْتَ مِمَّا صَنَعَ الشيوعيون الحُمر، والبلشفيون! إنهم يعترفون بذنبهم، لكن أنت تبدو فخورًا به!

- لستُ فخورا بذنبي. لكني مستعد لتحمل العواقب. وآمل أن أفعل ذلك بدون ارتجاف وانتحاب!

ابتسم قائد مجموعات العمل محقِّرًا من تلك الكلمات. لقد رأى الكرامة تُهدر أمام ضربات رجال الشرطة العسكرية عددًا لا نهائيًّا من المرات. لكنه رأى أيضًا تلك النظرة في عيون بعض المعذَّبين، النظرة التي رغم كل العذاب تحتفظ بتعالٍ باردٍ وساخرٍ. وتذكُّر تلك النظرة جعله -بدلًا من الصراخ والضرب- يقول:

- ابقَ في هذه الغرفة تحت أمري. عليَّ أولًا أن أرفع تقريرًا.

أمال المستشار الجنائي تْسُوتْ رأسه موافقةً فمضى قائد مجموعات العمل بْرَالْ.

45

المفتش إشيرِش حُرّ طليق من جديد

عاد المفتش إشيرِش مرة أخرى إلى الخدمة كمن بُعث من جديد بعد أن ظنُّوه مات في قبو الجيستابو. صحيح أنه عاد ببعض الضرر، وكسرة قلب، لكنه عاد. وها هو ذا يجلس إلى مكتبه فيما يُهرع زملاؤه إليه لتأكيد تعاطفهم معه، وإيمانهم الدائم به، وزعموا أنهم كانوا ليفعلوا أي شيء من أجله في نطاق سلطتهم.

«لكن أنت تعرف، حين تغضب القيادة العليا على أحدهم، لا يستطيع أمثالنا فعل أي شيء. ولن ينال أحدنا سوى لسع نيرانهم إن حاولنا. والآن، أنت تعرف كل شيء بنفسك، وتفهم كل شيء جيِّدًا يا إشيرِش».

يؤكد إشيرِش أنه يفهم كل شيء. سحب شفيته إلى ابتسامة تبدو تعيسة بعض الشيء، ربما لأن إشيرِش لم يتعلم بعد أن يبتسم وفمه خاوٍ من بضع أسنان.

فقط حديثان تَرَكَا لديه انطباعًا مؤثِّرًا عند عودته إلى الخدمة. أحدهما من المستشار الجنائي تْسُوتْ.

- الزميل إشيرِش.. لم أُرسَل إلى القبو بدلًا منك رغم أني أستحق ذلك أكثر منك بعشرة أضعاف. ليس فقط بسبب الخطأ الذي

اقترفتُه، لكن لأني تعاملتُ معك كخنزير. مُبَرِّري الوحيد هو أنني اعتقدت أنك أسأت العمل...

- لا تتحدَّث عن ذلك الآن.. (قال إشيرِش مبتسمًا ابتسامة خاوية من الأسنان)

في ما يخص حالة شبح البحر أرى الجميع قد أساء العمل إلى الآن. أنتَ، وأنا، كلنا جميعًا. إنه أمر غريب، ولقد صرتُ متشوِّقًا للتعرف إلى ذلك الرجل الذي جلب كثيرًا من التعاسة على رفقائه في الإنسانيَّة بسبب البطاقات. لا بد أنه طائر غريب...

نظر إلى المستشار الجنائي متفكِّرًا.

الذي بدوره ناوله بيده القصيرة المصفرَّة عددًا من الملفات.

- لا تفكِّر في شخصي بغضب بالغ، زميل إشيرِش. (قال بصوت خفيض)

وأمرٌ آخرُ، لقد وضعتُ نظرية جديدة، تفيد بأن الفاعل له صلة بالتِّرام. من فضلك لا تتجاهل وضع هذه النظرية نصب عينيك. سأكون سعيدًا للغاية لو أن هذه النقطة على الأقل ثبتَ أنها صحيحة! أرجو أن تفعل!

وبهذا انصرف المستشار الجنائي تْسُوتْ إلى غرفته القَصِيَّةِ الساكنة منشغلًا بنظرياته.

أما الحديث الثاني الجدير بالتذكر فقد كان بطبيعة الحال مع قائد مجموعات العمل بْرَالْ.

- إشيرِش! (قال بصوت عالٍ)

المفتش إشيرِش! ألا تشعر أنك بحال جيدة تمامًا؟

- جيد تمامًا!

أجاب المفتش. وقف وراء مكتبه، وبتلقائية تموضعت يداه اللتان تضغطان على الإبهامين إلى جوار سرواله مثلما تعلم في الزنزانة بالأسفل. ورغم مقاومته البالغة لذلك.. ظلَّ يرتجف. كانت عينه مسدَّدة بانتباه نحو رئيسه. فهو لم يكن يستشعر شيئًا نحو ذلك الرجل سوى الخوف، خوف يصعب إدراكه، أن هذا الرجل قد يزجُّ به في القبو ثانية في أي لحظة.

- ما دمت تشعر أنك جيد تمامًا يا إشيرِش.. (قال بْرَالْ وهو يدرك تمامًا وقع كلماته)

فهذا يعني أن بوسعك أن تعمل. أليس كذلك؟

- أستطيع أن أعمل يا سيدي قائد مجموعات العمل!

- ما دمت تستطيع أن تعمل، يا إشيرِش، فهذا يعني أنك قادر على الإمساك بشبح البحر! أَوَقادر على ذلك أنت؟

- قادر أنا على ذلك، سيدي قائد مجموعات العمل!

- في أسرع وقت ممكن، إشيرِش!

- في أسرع وقت ممكن، سيدي قائد مجموعات العمل!

- انظر يا إشيرِش..

(قال قائد مجموعات العمل بْرَالْ برحمة مستمتعًا بخوف مرؤوسه وخضوعه)

أرأيتَ الفائدة الكبيرة التي تأتي بها العطلة القصيرة في القبو! كم أحب رجالي! لا يعودون يشعرون أنهم متفوقون عليَّ، سيد إشيرِش؟

- بلى سيدي قائد مجموعات العمل، بالتأكيد. تحت أمرك سيدي قائد مجموعات العمل!

- لم تعد تظنُّ نفسك أذكى كلب في الجيستابو كله وأن كل الآخرين ليسوا إلا خراء كلاب؟ لم تعد تظنُّ ذلك يا إشيرِش؟

- أوامرك، أجل، سيدي قائد مجموعات العمل، لم أعد أظن ذلك.

- أَوَتَرى يا إشيرِش..

(واصل قائد مجموعات العمل كلامه معطيا إشيرِش الخائف ضربة قوية ممازحةً على أنفه)

بمجرد أن تشعر ثانية أنك ماكر أو تستعرض قدراتك، أو عندما تظنُّ أن قائد مجموعات العمل بْرَالْ هو مجرد حثالة، عليك أن تخبرني بذلك في الوقت المناسب. لأرسلك سريعًا - قبل أن يسوء الوضع- إلى رحلة علاجية قصيرة في القبو. تمام؟

حدق المفتش إشيرِش إلى رئيسه بجمود، كان يرتجف بشدة حتى إن الأعمى ليُدرك وجوده.

- والآن يا إشيرِش، ماذا سيحدث؟ ستخبرني في الوقت المناسب حين تشعر أنك عدت ماكرًا وقويًّا؟

- أوامرك يا سيدي قائد مجموعات العمل!

- أو عندما لا يتقدَّم العمل، من أجل أن أعطي سيقانك دفعة قوية؟

- أوامرك يا سيدي قائد مجموعات العمل!

- إذًا نحن متفقان يا إشيرِش!

وفجأةً مدَّ السيد المتعالي يده إلى الرجل الذي أُخضِعَ بما يكفي:

- يسعدني يا إشيرِش أن أراك في الخدمة ثانية. أتمنى أن نعمل معًا على نحو ممتاز. ماذا تريد أن تفعل أولًا؟

- سوف أسعى نحو وصف دقيق للأشخاص من موظفي قسم نوللييندورف. سوف يقعون في قبضتنا أخيرًا! الرجل، الذي كان يتنصَّت على المتَّهمَيْنِ اللذين أبلغ عنهما، لعله لا يزال يذكر الاسم. وسأواصل عمليات التفتيش التي بدأها الزميل تْسُوتْ.

- جميل، جميل. هذه بالتأكيد بداية. قدم لي تقريرًا يوميًا.

- أوامرك يا سيدي قائد مجموعات العمل!

أجل، كانت هذه هي المحادثة الثانية التي تركت أثرًا في نفس المفتش إشيرِش بعد عودته إلى الخدمة. لم يرَ أحد أثرًا لما عايَشَهُ خاصَّة بعد سدِّ الفجوة بين أسنانه. بل إن زملاءه وجدوا أنه أصبح أكثر لطفًا. وكان هذا بسبب فقدِهِ النبرة المتعالية الساخرة تمامًا. لم يعد يشعر أنه أكثر تفوقًا من أي أحد.

أجرى المفتش إشيرِش تحريات، استَجوب، صمَّم صورًا بناءً على أوصاف المشتبه فيهم، قرأ في الملفات، أجري اتصالات هاتفية، يعمل إشيرش مثلما عملٍ دائمًا. ورغم أنه لا يظهر عليه أي أثر، ورغم أنه أيضًا يأمل أن يتمكن ذات مرة من الحديث إلى رئيسه بدون أن يرتجف- فإن إشيرش يعلم أنه لن يعود ثانية أبدًا إشيرش القديم.. إنه مجرد آلة للعمل، وكل ما يفعله عمل روتيني. وعندما

اختفى شعوره بالتفوُّق اختفت سعادته بالعمل كذلك. كان الغرور هو السماد الذي يُنضِج ثماره.

لقد كان إشيرِش يشعر دائمًا بالثقة ويعتقد دائمًا أنْ لا شيء يمكن أن يصيبه، لقد افترض أنه رجل مختلف تمامًا عن الآخرين. وكان على إشيرِش أن يتخلَّى عن كل تلك المعتقدات الزائفة التي يخدع بها نفسه في اللحظة التي سدَّد فيها دُوبَاتْ رجل الشرطة العسكرية لكمة نحو فمه، فعلَّمه أن يخاف. إذ في غضون أيام قليلة تعلَّم إشيرِش أن يخاف خوفًا غائرًا لن ينساه طوال حياته. يعرف أنه قد يبدو على أي شكل يشاء، ويستطيع أن يصل إلى المستحيل، ويمكن أن يُبَجَّل ويُكرم، لكنه يعرف أنه لا شيء. لكمة يمكن أن تحوِّله إلى كائن منتحب، مرتجف، خائف لا يساوي شيئًا وليس أفضل من النشَّال الصغير الجبان عفِنِ الرائحة الذي شاركه زنزانته لأيام طويلة، وما تزال صلواته سريعة الإيقاع تتردَّد في أذن إشيرِش إلى اليوم. ليس أفضل كثيرًا. كلَّا، ليس أفضل على الإطلاق!

لكنَّ شيئًا لا يزال يجعل إشيرِش متماسكًا، إنه التفكير في شبح البحر. عليه أن يمسك بذاك الفتى، وبعد ذلك فليحدث له ما يحدث. عليه أن ينظر إلى ذلك الرجل في عينه، عليه أن يتحدَّث إليه، ذاك الذي أضحى سببًا في تعاسته. يريد أن يحكي له وجهًا لوجه، ذلك المتعصب، عن كمّ البؤس، والقلق والشقاء الذي جلبه على كثير من البشر. سيُبيدُه، ذلكَ العدو الكامن في الظلمة. ليته الآن في قبضته!

46

يوم الاثنين وعواقبه الوخيمة

بعد ثمانية أسابيع من عودة إشيرِش إلى الخدمة. في يوم الاثنين الذي كان وخيم العواقب على آل جْفَانْجِل، اليوم الذي صدر فيه الحكم على بُوزْكْهاوْزِن بالسجن سنتين، وعلى الجرذ كليبس بالسجن سنة، في يوم الاثنين ذاك، الذي عاد فيه بَالْدُوْر بِيرْزِيكِه إلى برلين بعد أن أنهى دراسته في مدرسة النابولا، وزَارَ والده في مصحة مدمني الكحوليات، وسقطت تْرُودِل هيرْجزِل على سلم محطة إيكنر وفقدت جنينها، في يوم الاثنين ذلك الممتلئ بالأحداث القَدَرِيَّة- استلقت آنَّا جْفَانْجِل في فراشها تعاني الزكام والحمى الفظيعة. جلس أُوتُّو جْفَانْجِل إلى جوارها، بعد أن خرج الطبيب. تجادلا في أمر البطاقات، أيخرج بها اليوم أم لا.

- أنتَ لن تذهب ثانية، لقد اتفقنا على ذلك يا أُوتُّو! ثم إن البطاقات يمكن أن تنتظر إلى الغد أو ما بعد الغد، ساعتها سأكون قد عدت للوقوف على قدمي!
- أريد أن أُخرِجَها من البيت يا آنَّا!
- إذًا فلأذهب أنا بها حالًا! (ونهضت آنَّا من فراشها)
- ستبقين راقدة! (وضغط عليها كي تستلقي على وساداتها)

لا تكوني حمقاء يا آنَّا. لقد وزعتُ مائة، بل مئتي بطاقة من قبل...

في تلك اللحظة رنَّ الجرس.

جَفَلَا مثل لِصَّينِ ضُبِطَا؛ دسَّ جْفَانْجِل بسرعة البطاقتين اللتين كانتا حتى تلك اللحظة ملقاتين على مفرش السرير.

- من يا ترى؟ (سألت آنَّا بخوف)

وهو أيضًا: في هذا الوقت؟ الحادية عشر صباحًا!

صاحت: ربما يكون قد وقع شيء لدى آل هِفْكِه.. أو عاد الطبيب ثانية!

ومرة أخرى رَنَّ الجرس.

- سأرى.. (غمغم)

- كلا! (رَجَتْهُ)

ابق جالسًا. لو كنا تحركنا بالبطاقات لكان دق علينا بلا جدوى.

- سأستطلع الأمر يا آنَّا!

- كلا، لا تفتح الباب يا أُوتُّو! أرجوك! حدسي يخبرني بأنك لو فتحت الباب لدخل الحظ السيِّئ إلى الدار!

- سأذهب بهدوء شديد ثم آتيك بالخبر اليقين.

وذهب.

ظلت راقدة بنفاد صبر بالغ. إنه أبدًا لا يلين، أبدًا لا يلبِّي لها أي رجاء! خطأً ما يفعل، فسُوء الطالع يترصد بالخارج، لكنه ما عاد يشعر

به. والآن هو حتى لا يفي بكلمته! سمعت أنه فتح الباب ويتكلم مع رجل، هذا الذي وعدها أن يستطلع الأمر ثم يعود ويخبرها.

- والآن ما الأمر؟ تكلَّم يا أُوتُّو! ألا ترى أني أذوي من نفاد الصبر؟! مَن هذا الرجل؟ لَم يخرج من الشقة بعد!

- ما من داعٍ للقلق يا آنَّا؛ مجرد رسول من المصنع، حِرفي وردية الصباح أُصيبَ وعليَّ أن أحل محله فورًا.

تستند إلى وساداتها بعد أن هدأت قليلًا:

- وهل ستذهب؟

- بالطبع!

- لكنك لم تتناول غداءك بعد!

- سأحضر شيئًا من المقصف!

- خذ معك خبزًا على الأقل!

- أجل أجل يا آنَّا، لا تقلقي من شيء. يسوؤني أن أتركك هنا راقدة هكذا وحدك كل هذا الوقت.

- كنتَ ستذهب في الواحدة على أي حال.

- سأقطع ورديتي بعد ذلك مباشرة.

- هل ينتظرك الرجل؟

- نعم، سأذهب معه على الفور.

- إذًا فلتعد بسرعة يا أُوتُّو. اركب التِّرام اليوم!

- بالطبع يا آنَّا. سلامتك!

وفي طريقه إلى الخارج صاحت آنًا: «آه. من فضلك يا أُوتُّو قبلني!».

عاد مدهوشًا بعض الشيء، متحيرًا بعض الشيء بسبب حاجتها إلى تلك الرقَّة غير المعتادة بالنسبة إليه. ضغط شفتيه على شفتيها، أمسكت رأسه بقوة وقبَّلته بحرارة.

- أنا حمقاء يا أُوتُّو.. (قالت)

ما زلت خائفة، ربما هذا من أثر الحمى. لكن اذهب الآن!

انفَصَلَا. لن يرى بعضهما بعضًا ثانية أبدًا كإنسانَيْنِ حُرَّيْنِ. لم يتذكَّر أيٌّ منهما البطاقات التي دسَّها في جيبه بسبب العَجَلة.

غير أن البطاقتين خطرتَا ببال الحِرفيِّ العجوز بمجرد جلوسه في التِّرام. دسَّ يده في جيبه فوجدهما! إنه غير راضٍ عن نفسه، كان ينبغي عليه أن يفكِر في ذلك. كان الأفضل أن يتركهما في المنزل، الأفضل أن ينزل من التِّرام الآن ليضعهما في أي عمارة. لكنه لا يجد حجة يسوقها إلى مرافقه. سيضطر إلى أخذهما إلى الورشة، وهو أمر لم يفعله قطُّ، وكان لا ينبغي أبدًا أن يفعله، لكن فات الأوان.

وقف في دورة المياه ممسكًا البطاقتين بيديه، أراد أن يمزقهما وأن يتخلَّص منهما مع مياه الطرد، غير أن نظرته وقعت على الكتابة التي بذل فيها جهده وأنفق فيها ساعات يومه، وبدا له ما كتب قويًّا ومؤثرًا. سيكون من المؤسف جدًّا إفناء سلاح مثل هذا. حرصه، بل «بخله القذر» يحُول دون ذلك، لكن أيضًا احترامه للعمل؛ كلُ ما أنجزه من عملٍ مقدسٌ. إنها لخطيئة إفناء عمل بدون الانتفاع به.

لكنه لا يستطيع كذلك ترك البطاقات في السترة التي يرتديها في الورشة. وهكذا وضعها في الحقيبة مع الخبز وبراد القهوة. يعلم أُوتُّو جْفَانْجِل جيِّدًا أن الخياطة مفكوكة في الحقيبة، وأنه كان عليه أن يذهب بها إلى السروجي منذ أسابيع، لكن أعباء العمل كثيرة وإصلاح الحقيبة سيستغرق أسبوعين على الأقل. وهي مدة لا يستطيع أُوتُّو جْفَانْجِل أن يستغني فيها عنها، خصوصًا أن شيئًا لم يسقط منها قطُّ وهو يستخدمها. وهكذا وضع البطاقات بلا مبالاة.

مضى ببطء عبر الورشة نحو دواليب تبديل الملابس، تلفَّت يمينًا ويسارًا. كلهم غرباء، بالكاد وجه مألوف يومئ إليه. ومرة واحدة سلم باليد، نظر إليه الناس بفضول، كثيرون يعرفونه: «إنه جْفَانْجِل العجوز، الطائر العجيب»، لكن عمال وِرديَّته لا يشتمونه أبدًا، لأنه عادل، لا بد من الاعتراف بذلك. أجل، ويا لهذا من محفِّز يستطيع أن يستخرج آخر نقطة عرق من رجاله. لكن لا، لا أحد من وِرديَّته يسبُّه. «كم يبدو ذلك عجيبًا، ربما مُفصَّلات في رأسه تجعله يومئ بطريقة عجيبة. سكوتْ، ها هو قادم، إنه لا يتحمل الهذي والثرثرة ولو على جثته، ويُنزِل بكل من يهذي بسخافات أشدَّ العقاب».

وَضَعَ أُوتُّو جْفَانْجِل حقيبته في الدولاب، والمفاتيح في جيبه. جيد، بعد 11 ساعة تخرج البطاقات من المصنع، وحتى لو أن ذلك سيكون في الليل فإنه ينتوي أن يتخلَّص منها لأنه لن يقدر أن يعيدها معه إلى المنزل، وإلَّا قامت آنَّا فقط من أجل أن تتخلص منها.

وبسبب الوردية الجديدة هذه لا يتمكَّن جْفَانْجِل من الاحتفاظ بموقع المراقب في منتصف الغرفة، اللعنة! عليه أن يتحرَّك من مجموعة إلى الأخرى، وهنا لا يعرفونه جميعهم بعدُ، لا يعرفون ما يعني تحديقُه أو صمته؛ بل إن بعضهم يمتلك من الوقاحة ما يجعله يريد أن يتحدَّث مع الحِرفيّ، يستغرق الأمر وقتًا معتبرًا إلى أن يعود العمل إلى إيقاعه المنتظم المعتاد، ويعودوا إلى سكونهم ويعرفوا جيِّدًا أن ليس مِن شيء إلا العمل.

أراد جْفَانْجِل أن يعود إلى موقعه المراقِب، فتأخرت خطوته. اتسعت نظرته، وسرت قشعريرة في ظهره. إذ رأى أمامه على الأرض المغطَّاة بنشارة الخشب إحدى البطاقتين.

ارتعشت أصابعه، أراد أن يرفع البطاقة في سِريَّة بسرعة وتَلفَّت فرأى أن البطاقة الثانية ملقاة أيضًا على مبعُدةِ خطوتين من الأولى. مستحيل أن يرفعهما بدون أن يراه أحد. إذ دائمًا ما تحدق نظرات واحد من العمال في الحِرفيّ الجديد، كما أن النساء لا يستطعن إلا التحديق إليه كأنها المرة الأولى التي يرون فيها رجلًا.

«أَخْ! سأرفعها ببساطة، سواء رأَوْا ذلك أم لا. ماذا يهمهم في ذلك؟! كلا، لا أستطيع أن أفعل ذلك، لا بد أن البطاقة هنا منذ ربع ساعة لأن أحدًا لم يرفعها.

لكن ربما رآها أحدهم بالفعل وأعاد إلقاءها حينما قرأ محتواها. ماذا لو رأوني أرفعها وأضعها في جيبي!».

«خطر! خطر!» يسمع جْفَانْجِل صوتًا يصرخ داخله. «خطر بالغ! دع البطاقة! تصرف كأنك لم ترها من قبل قطّ، دع أحدًا سواك يعثر عليها! عد إلى مكانك!».

لكن فجأةً حدث شيء غريب داخل أُوتُّو جْفَانْجِل. لقد ظلَّ يكتب البطاقات لمدة عامين، ويوزعها، لكنه قطُّ لم يَرَ تأثيرها. لم يعِشْ إلا في كهفه المظلم؛ ما مصير البطاقات؟ وما شكل الدوامة التي تخلقها؟ هذه أمور تخيلها مئات المرات لكنه لم يعايشها قطُّ.

«أريد أن أرى ذلك مرة، مرة واحدة! ماذا يمكن أن يحدث لي؟ أنا هنا واحد من ثمانين عاملًا، كلهم سيكونون موضع شك مثلي، بل أكثر، لأنهم يعرفونني بوصفي حمارَ عمل عجوزًا مبتعدًا عن كل المسائل السياسية. سوف أخاطر. أريد أن أشهد ذلك لمرة».

وقبل أن يمعن التفكير نادى أحدَ العمال:

- أنت هناك! ارفع هذا عن الأرض! لا بد أن هذه الأشياء سقطت من أحدهم. ما هذا؟ إلام تحدق؟

أخذ البطاقة من يد العامل ومثّل أنه يقرؤها. لكنه لا يقدر أن يقرأ الآن. حتى خَطُّه المكتوب بالأحرف الكبيرة لا يتمكَّنُ من قراءته. لا يستطيع أن يرفع عينه عن وجه العامل الذي يحدِّق إلى البطاقة. الرجل لا يواصل القراءة ويده ترتجف، وثمة خوف في عينيه.

يحدِّق إليه جْفَانْجِل. الخوف إذًا. لا شيء مثل الخوف. لم يُنْهِ الرجل حتى قراءة البطاقة، بل لم يكد يتجاوز السطر الأول وإذ بالخوف يتملَّكه.

لا بد أن أحدهم لاحظ ابتسامة جْفَانْجِل. رفع نظره وشاهد نصف الورشة يحدِّق إلى الرجلين الواقفين وقت العمل ليقرَآ بطاقات بريدية. أم تراهم يشعرون بالفعل أنَّ شيئًا مرعبًا قد وقع للتو؟

أخذ جْفَانْجِل البطاقة من يد الآخر.

عليه أن يواصل لعب هذه التمثيلية بمفرده الآن، فالرجل مهزوز للغاية لدرجة لا يصلح معها لأي شيء.

- مَن هنا ممثل جبهة العمل؟ ذلك الذي يرتدي سروال مانشيستر ويقف عند منشار كريل؟ جيد! اذهب إلى عملك، وإياك أن تردَّ عليَّ بسخافة وإلا وقع ما يسوؤك!

اسمع! (قال جْفَانْجِل للرجل الواقف على منشار كريل)*

تعال لحظة إلى الطرقة. أريد أن أعطيك شيئًا.

وعندما وقف الاثنان في الخارج:

- هاكَ هاتين البطاقتين! لقد التقَطَهما الرجل هناك، ولقد رأيتهما. أعتقد أن عليك أن تسلمهما إلى الإدارة. أليس كذلك؟

شرع الآخر يقرأ. هو أيضًا يكتفي ببضع جُمل.

- ما هذا؟ (سأل مرتعبًا)

هل كانت عندنا هنا في الورشة؟ يا إلهي! يمكن لهذا أن يكلفنا وظيفتنا ورقبتنا! قلتَ من الذي التقط هذه الأشياء؟ هل رأيت كيف التقطها؟

- أقول، لقد قلت له أن يلتقطها! ربما كنت أنا أول من يراها. ربما!

---

* منشار يستخدم في تقطيع الأخشاب الأسطوانية. (المترجمة)

- يا إلهي! ماذا عليَّ أن أفعل بتلك الأشياء؟ سوف أُلقي بها ببساطة في النفايات!

- عليك أن تسلِّمها إلى الإدارة، وإلا رَأَوْك مُذنبًا. فالرجل الذي وجدها لن يُبقي فمه مغلقًا. اجْرِ فورًا وسأقف بدلًا منكَ على الكريل.

ذهب الرجل متردِّدًا، ممسكًا بالبطاقات في يده كأنها تحرِق أصابعه.

عاد جْفَانْجِل إلى الورشة. لكنه لا يتمكَّن من الوقوف مباشرة إلى الكريل؛ لقد عم القلق كلَّ الورشة. ما زال لا يعرف أيُّ أحد أيَّ شيء محدد، لكن الذي حدث، كلهم يعرفونه. قربوا رؤوسهم بعضهم من بعض، تهامسوا، وهذه المرة لا تمنعهم عن ذلك نظرات رأس العصفور المحدقة ولا صمتُه كي يسود الهدوء. عليه أن يصرخ فيهم، وهو الأمر الذي لم يفعله منذ سنوات، ويهدِّدهم بالعقوبات، وهو يمثِّل دور الغاضب.

لكن حينما يسود الهدوء في إحدى زوايا الورشة، ترتفع الأصوات في زاوية أخرى، ثم يعود العمل إلى سيره بعض الشيء ثم يكتشف أن مَكِنَتَين بل ثلاثًا ليست مشغولة، وأن شريط الإنتاج عالق، بل أحدهم عنده من الوقاحة ما جعله يسأل:

- ماذا كنت تقرأ هنالك؟ هل كان ذلك حقًّا منشورًا ألقاه الإنجليز؟

- أنجِز عملك! (غمغم جْفَانْجِل وظلَّ يحث العمال على العمل في الورشة)

وجدهم يواصلون الثرثرة هناك. تجمعوا في مجموعات صغيرة، ثمة فوضى بشكل غير مسبوق. كان على جْفَانْجِل أن يتحرَّك هنا وهناك، وأن يسب، ويهدِّد، ويوبِّخ؛ ولقد تفصَّد العرق من جبينه.

وفي أثناء كل ذلك لا تزال الفكرة تعتمل داخله.. «إذًا هذا هو الأثر الأول، الخوف فقط. خوف كبير لدرجة أنهم لا يواصلون القراءة! لكن هذا لا يعبر عن شيء. فهم يشعرون هنا أنهم مراقبون. فبطاقاتي كان يَعثر عليها على الأرجح شخص بمفرده. ويمكن له أن يقرأها بهدوء، ويفكِر فيها، وبهذا يكون لها تأثير مختلف. لقد أقدمتُ على تجرِبة حمقاء. فلنَرَ عَمَّ تُسفِر. في الواقع إنه أمر جيد أنني كحِرفِيّ وجدت البطاقات وسلمتها، سيزيح ذلك عبئًا عن كاهلي. كلًّا، لَم أخاطر بشيء. وحتى لو أنهم أرسلوا حملةَ تفتيش إلى منزلي فلن يجدوا شيئًا. ستصاب آنًا بالذعر، لكن لا، قبل أن يبدؤوا حملتهم سأكون هناك وأحضِر آنًّا لها. الساعة الثانية ظهرًا ودقيقتان، لا بد أن تُبدَّل الورديَّة، والآن تأتي وِرديَّتي.

لكن لم تتبدل الوردية. لم يدق جرس في الورشة، وعمال جْفَانْجِل الأصليون لم يظهروا فيما تواصل المَكِنَات أزيزها. الآن سيضطرب الناس أكثر، فها هم أولاء صاروا يكوِّنون مجموعات أكثر وينظرون في الساعات.

كان على جْفَانْجِل أن يتخلَّى عن رغبته في السيطرة على ثرثرتهم، فهم أكثر من ثمانين رجلًا؛ لن يقدر على ذلك.

ثم فجأةً خرج رجل من أحد المكاتب، رجل أنيق يرتدي سروالا مكويًّا بعناية وشارة الحزب. وقف إلى جوار جْفَانْجِل وصاح:

- يا عمال الوردية! اسمعوا...

تحوَّلت كل الوجوه ناحيته، الفضوليون، والمترقِّبون، والعابسون، والرافضون واللا مكترثون.

- ستواصل الوردية العمل لأسباب خاصَّة. وسيُدفع أجر ساعات عمل إضافية.

توقف عن الكلام، فحدقوا إليه كلهم. هل هذا كل شيء؟ لأسباب خاصَّة! كانوا ينتظرون المزيد!

لكنه فقط صاح:

- على الوردية أن تواصل العمل!

ثم تحوَّل إلى جْفَانْجِل:

- عليكَ أن تحافظ على الهدوء المطلق والإنجاز! مَن الرجل الذي التقط البطاقات؟

- لقد رأيتها أولًا في ما أعتقد.

- أعلم بالفعل. إذًا ذاك الذي يقف هناك؟ جميل، هل تعرف اسمه؟

- لا؛ هذه ليستورديتي.

- أعلم بالفعل. أخبِر الوردية أن دخول المراحيض غير ممكن في الوقت الحالي، ويُحظر ترك غرفة العمل. وعند كل باب ثمة شرطة بالخارج!

أومَأ الرجل إلى جْفَانْجِل سريعًا ومضى.

ينتقل جْفَانْجِل من مكان عمل إلى مكان عمل آخر. لوهلة يراقب العمل، وفي لحظة أخرى يراقب أيادي العمال. ثم يقول: «مغادرة صالة العمل ودخول المراحيض ممنوع في الوقت الراهن. ثمة شرطة تقف على كل باب، بالخارج!».

وقبل أن يتمكَّنوا من طرح مزيد من الأسئلة، يكون قد اتَّجه نحو موضع العمل التالي مكرِّرًا رسالته.

كلا، ليس من الضروري الآن أن يمنع عنهم الثرثرة ويواصل دفعهم إلى العمل. فكلهم يعمل بصمت ومرارة. وكلهم يستشعر الخطر الذي يهدِّدهم جميعًا. لأنه لا أحد من هؤلاء الثمانين لم يفعل شيئًا -بطريقةٍ ما في وقتٍ ما- ضد الدولة الحالية ولو كان ذلك الشيء مجرد كلمة واحدة! كلهم مُهدَّد. وحياة كل فرد فيهم معرضة للخطر. الكل يستشعر الخوف.

وفي تلك الأثناء يصنعون التوابيت. ثم يكوِّمون التوابيت التي لن يُنقل بعضها فوق بعض في زاوية من زوايا الورشة. في البداية كان عددها قليلًا، لكن مع مرور الوقت ازداد عددها فَصَفُّوهَا بعضها فوق بعض، إلى أن قاربوا السقف، ثم بدؤُوا في صفٍّ جديد بجوار الأول. توابيت فوق توابيت، لكل فرد من أفراد الوردية، لكل فرد من أفراد الشعب الألماني. إنهم يصنعون التوابيت لأنفسهم، رغم أنهم لا يزالون على قيد الحياة!

وقف جْفَانْجِل بينهم. محرِّكًا رأسه إلى الوراء باستمرار. إنه يستشعر الخطر لكن ذلك يدفعه إلى الضحك. لن يمسكوا به أبدًا. لقد سمح لنفسه بمزحة، وأثار ثائرة الأجهزة كلها، لكنه ليس سوى

جْفَانْجِل العجوز البخيل. لن يشكوا فيه أبدًا. سيواصل الكفاح مرارًا وتكرارًا.

إلى أن فُتح الباب ثانية وعاد الرجل ذو السروال المكوي بعناية. يتبعه آخر، طويل مروِّع بلحية بلون الرمال يمسّدها برفق.

وفورًا توقف العمل في كل الأماكن.

وفيما صاح السيد ذو الوظيفة الإدارية: وردية! انتهى العمل!

وفيما هم يضعون أدوات العمل كمن حان خلاصُهُم وهم غير مصدِّقين..

وفيما يظهر في عيونهم التي انطفأت بريقُ ضوء من جديد..

فيما يحدث كل ذلك قال الرجل ذو اللحية الرملية: «الحِرفيُّ جْفَانْجِل، أعتقلك بتهمة الخيانة العظمى للبلاد. تفضل معي مِن دون جلبة!».

«آنًّا المسكينة!» فكَّر جْفَانْجِل ومضى بطيئًا برأس مرفوع يُبرز شكل الطائر متقدِّمًا المفتش إشيرِش خارج الورشة.

47

الاثنين، يوم المفتش إشيرِش

تصرَّف المفتش إشيرِش هذه المرة بسرعة وبلا أخطاء. بمجرد أن وصله الخبر عبر الهاتف، أن بطاقتين عُثر عليهما في ورشة بها ثمانون رجلًا في مصنع أثاث كْرَاوْزِه وشركاه، عَرَفَ على الفور أنها اللحظة التي طال انتظارها، لقد اقترف «شبح البحر» الخطأ الذي طالما انتظر أن يقترفه. والآن سيمسك به!

بعد ذلك بخمس دقائق طلب فرق عمل كافية لمحاصرة المصنع كله، وتوجه إليه راكبًا السيارة المرسيدس التي قادها بنفسه بْرَالْ قائد مجموعات العمل.

لكن فيما رأى بْرَالْ القبض فورًا على الثمانين رجلًا واستجوابهم كلًّا على حدة لمُدَدٍ طويلة إلى أن تظهر الحقيقة جليَّة، قال إشيرِش:

- أحتاج بسرعة إلى قائمة بأسماء كل العاملين في الورشة وعناوينهم. بأي سرعة يمكن أن أحصل عليها؟

- في خمس دقائق. ماذا سيحدث للناس؟ ستنتهي الوردية خلال خمس دقائق.

- قل للعاملين في الوردية إن عليهم مواصلة العمل. لا تعطهم أسبابًا. ستُوضع حراسة مشدَّدة على كل باب مُفْضٍ إلى الورشة.

لا أحد يغادر المكان. افعلوا ذلك بدون أن تلفتوا النظر، وعليكم تجنب أي تملق للناس!

وعندما عاد الموظف بالقائمة:

- لا بد أن كاتب البطاقة يقطن في شارع شودوفيكي أو يابْلونْسْكِي، أو كريستبورجر. من يقطن هناك من الثمانين؟

يتفحصون القائمة: لا أحد! لا أحد منهم على الإطلاق!

مرة أخرى بدا أن الحظ يريد أن ينقذ أُوتُّو جْفَانْجِل. فهو يعمل في وردية مختلفة، لم يكن اسمه على القائمة. مَطَّ المفتش إشيرِش شفته السفلى ثم سحبها ثانية وعضَّ بقوة مرتين أو ثلاثًا على شاربه الذي لا يزال يمسده. لقد كان واثقًا تمامًا برأيه والآن عاد خائبًا.

لكن عدا إساءة التعامل مع شاربه الحبيب لم يَدَعْ أي مظهر من مظاهر خيبة الأمل يبدو عليه، وإنما قال ببرود:

- سوف نتفحص الآن الظروف الشخصيَّة لكل واحد من العمال. مَنْ مِنَ الرجال يمكن أن يعطينا بيانات دقيقة؟ أنت رئيس شؤون العاملين؟ جميل، إذًا فلنبدأ، آبيكينج، هيرمان؛ ماذا تعرف عن ذلك الرجل؟

واستمر يفعل ذلك ببطء لا نهائي، وبعد ساعة وربع كانوا قد وصلوا فقط إلى الحرف الثامن في الأبجدية الألمانية.

كان قائد مجموعات العمل يشعل السجائر ثم يطفئها فورًا. ويبدأ في محادثات هامسة تتوقَّف بعد بضع جمل. ويدق بأصابعه مارشات على زجاج النافذة. ثم فجأةً شرع يقول بحدة:

- أجد كل ذلك ضربًا من الحماقة! سيكون من الأسهل أن...

لم يرفع المفتش إشيرِش بصره حتى. لقد غادره الخوف من رئيسه أخيرًا. عليه أن يعثر على الرجل، لكنه اعترف لنفسه أن إخفاقه بخصوص الشوارع المعنية ضايقه كثيرًا. ثم إن بْرَالْ نافد الصبر ولن ينطلي عليه استجواب العمال.

- تابع لو سمحت!

- كيمبفر، أويجين، إنه الحِرفيُّ رئيس القسم!

- ليس محلَّ شكٍ، أرجو المعذرة. ففي السابعة صباح اليوم جرحت يدَهُ في الفارة الآلية. وقد حل محله الحِرفيُّ جْفَانْجِل.

- إذًا نكمل؛ كرول، أُوتُّو...

- أرجو المعذرة مرة أخرى؛ بيانات الحِرفيِّ جْفَانْجِل ليست مدونة على القائمة التي مع المفتش.

- لا تظل تزعجني هكذا إلى الأبد! إلى متى سيتعيَّن علينا أن ننتظر هنا بعد؟ جْفَانْجِل، ذلك العجوز الأحمق لا يمكن أن يكون محل شك!

لكنَّ إشيرِش، حَدَسَ بريق أمل يتراءى، فسأل:

- أين يسكن ذلك الجْفَانْجِل؟

- علينا أن نبحث لأنه لا ينتمي إلى هذه الوردية.

- إذًا فلنبحث! بسرعة لو سمحت، ماذا؟ هل كان عليَّ أن أطلب القائمة كاملة!

- بالطبع سنبحث في ذلك. لكني أقول لك يا سيدي المفتش، بالنسبة إلى جْفَانْجِل فهو مجرد رجل عجوز بطيء، وهو يعمل في مصنعنا منذ سنوات بعيدة. ولقد عرفنا الرجل مرات ومرات.

غمز المفتش. كان يعلم كمَّ الأخطاء التي يقترفها الناس الذين يعتقدون أنهم يعرفون مرافقيهم من الناس.

- والآن؟ (سأل صبيّ المكتب الذي دخل لتوِّه متشوقًا)

- الآن! (قال الشاب بنبرة احتفالية)

الحِرفيُّ جْفَانْجِل يقطن في شارع يابْلونْسْكِي رقم...

قفز إشيرِش.

وبانفعال غير مألوف عنه صاح:

- إنه هو! لقد أمسكتُ بشبح البحر!

وهتف قائد مجموعات العمل بْرَالْ:

- أحضِروا لي ذاك الخنزير! ليس له إلا السلخ ثم السلخ ثم السلخ!

عمَّ الاضطراب في أرجاء المكان.

«جْفَانْجِل! من كان يمكن أن يفكِّر في ذلك! جْفَانْجِل؟ ذلك البخيل العجوز؟ مستحيل! لكنه أول من وجد البطاقات! يا له من مراوغ، ثم هو الذي وضعها بنفسه! لكن من يكون أحمق هكذا ليدبر لنفسه فخًا؟ جْفَانْجِل! يستحيل!».

وفوق كل شيء ارتفع صوت بْرَالْ الصارخ: أحضِروا لي ذاك الخنزير! اسلخوه، اسلخوه!

كان المفتش إشيرِش أول من عاد إلى هدوئه.

- كلمةً من فضلك سيدي قائد مجموعات العمل! من فضلك اسمح لي باقتراح، فلنفتِّش أولًا بيت هذا الجْفَانْجِل.

- لكن لِمَ هذه الأعباء يا إشيرِش؟ فبعد ذلك سيهرب منا ذلك الفتى!

- لن يخرج أحد من هذا المبنى! لكن حينما نجد شيئًا في شقته يدينه بشكل تام، ألن نَسُدَّ عليه سبيل الإنكار؟ سيوفر علينا ذلك كثيرًا من العمل! والآن هو التوقيت المناسب لذلك! فالرجل وأسرته لا يعرفون بعدُ أننا نضعهم موضع شك.

- من الأسهل سلخ سيقان الرجل عن عظامه إلى أن يعترف. لكن من ناحيتي، فلنقبض على السيدة أيضًا! لكني أقول لك يا إشيرِش، لو أن الرجل هنا اقترف أفعالًا خنزيرية، لو أنه حطَّم مَكِنَة أو شيئًا من هذا القبيل فسأرسلك لتركب الزلاجات مرة أخرى! أريد أن أرى الرجل مشنوقًا يترنح!

- سيحدث! سأظل أراقب هذا الجْفَانْجِل عبر الباب بلا انقطاع. العمل مستمر يا سادة إلى أن نعود، سنعود خلال ساعة بحسب ما أظن.

48

القبض على آنّا جْفَانجِل

بمجرد أن خرج أُوتُّو جْفَانْجِل انتابت آنَّا حالة من إمعان التفكير لدرجة أوصلتها إلى الدُّوار لكنها سرعان ما خرجت منها مفزوعة. تلمَّست غطاء السرير بحثًا عن البطاقتين، ولم تجدهما. أطالت التفكير لكنها لا تتذكَّر أن أُوتُّو أخذهما معه. كلا، على العكس، بهذا صارت تعرف تمامًا أن عليها أن توزعهما غدًا أو بعد الغد، بحسب الاتفاق بينهما.

لا بد إذًا أن البطاقتين في المنزل. بدأت في البحث عنهما بغض النظر عن شعورها بالتجمُّد أو الوهج جراء حرارتها المرتفعة. فتَّشَت الشقة، بحثت بين الملابس المغسولة وزحفت أسفل الفراش. كانت تعاني صعوبة في التنفُّس فجلست من حين إلى آخر على طرف السرير إذ لم تعد تقدر على المواصلة. سحبت الغطاء حولها وحدقت إلى ما أمامها. نسيت البطاقتين تمامًا. ثم فجأةً تملَّكها الرعب من جديد فنهضت وواصلت التفتيش.

هكذا مضت الساعات إلى أن دق الجرس. جَفَلَت.. «هل دق الجرس؟ من يمكن أن يدق؟ من يريد مني شيئًا؟».

سقطت في ارتجافات جديدة من أثر الحمَّى لتفزعها دقة الجرس الثانية. هذه المرة دق الجرس مطوَّلًا، وبإيقاع معدني يطلب الدخول.

telegram @yasmeenbook

والآن الدقُّ بقبضات اليد على الباب. سمعت صياحًا «افتحي الباب! افتحي الباب فورًا!».

ابتسمتْ آنّا جْفَانْجِل، ثم استمرَّت في الابتسام وهي تعود للرقاد في السرير مكدِّسة الأغطية حولها. فليدقُّوا وليصيحوا! إنها مريضة وليست مُلْزَمَةً فتحَ الباب. فليأتوا في وقت لاحق أو عندما يكون أُوتُّو موجودًا. لن تفتح الباب.

استمر دق الجرس، والصياح، وطرقُ الباب...

«هؤلاء القردة! كأني سأفتح الباب بعد كل ذلك! فليفعلوا ما يشاؤون!».

بسبب الحمى التي تعانيها الآن، لا تعود لها فكرة البطاقتين المفقودتين ولا حتى الخطر المحدق، الذي يتمثل في هذه المداهمة الشرطية. هي فقط سعيدة أنها مريضة وأنها لا تحتاج إلى فتح الباب بسبب ذلك.

لكنهم كسروا الباب، لم تكن السلسلة معلقة لأنها لم تخرج خلف أُوتُّو لتعلِّقها بعد أن ذهب. اليوم خاصةً، رغم أن السلسلة معلَّقة دائمًا. دخلوا إلى غرفة المعيشة. خمسة أو ستة رجال.

- هل أنت آنّا جْفَانْجِل؟ هل أنت زوجة الحِرفيّ أُوتُّو جْفَانْجِل؟

- نعم أيها السيد العزيز. زوجته منذ ثمانٍ وعشرين سنة.

- لماذا لم تفتحي الباب حين دققنا الجرس وطرقنا الباب؟

- لأني مريضة أيها السيد العزيز. عندي إنفلوانزا!

- لا تمثلي علينا! (صاح زِيٌّ أسود بدين)

لستِ إلا مدعية!

غمز المفتش إشيرِش لرئيسه مُهدِّئًا. كون هذه السيدة مريضة فهذا أمر يستطيع أن يراه أي طفل. وربما من الجيد أنها مريضة، فكثير من الناس يثرثرون من أثر الحمى. وفيما يبدأ رجاله في تفتيش الشقة يتَّجه المفتش مرة أخرى نحو المرأة. يأخذ يدها الساخنة ويقول بتعاطف:

- سيدة جْفَانْجِل، مع الأسف عليَّ أن أنقل إليكِ خبرًا سيِّئا...

توقَّف قليلًا.

- ماذا؟ (سألت السيدة لكنها لم تكن خائفة مطلقًا)

- اضطُررت إلى القبض على زوجك.

ابتسمت السيدة، آنَّا جْفَانْجِل تبتسم فحسب. وبابتسامة تهزُّ رأسها وتقول:

- أوه، أيها السيد العزيز، لا يمكنك أن تحكي لي عن شيء كهذا! لا أحد يقبض على أُوتُّو، إنه إنسان محترم. (مالت نحو المفتش وهمست)

تعرف، أيها السيد العزيز، ماذا أظن؟ أني فقط أحلم بكل هذا. فأنا محمومة. قال الطبيب، إنفلونزا، وفي الحمَّى يمكن للواحد أن يحلم بشيء كهذا. هذا كله حلم: أنت والأسود البدين، والسيد الواقف إلى جوار الكومود، الذي يعبث في ملابسي. كلَّا، أيها السيد العزيز، أنت لم تقبض على أُوتُّو، أنا فقط أحلم.

قال المفتش إشيرِش وهو يهمس:

- سيدة جْفَانْجِل، الآن احلمي بالبطاقات. أنت تعرفين بالطبع أمر البطاقات التي كتبها زوجك!

لكن لم تكن الحمَّى قد نالت من السيدة جْفَانْجِل لدرجة أنها لا تلاحظ كلمة «البطاقات»، وبالتالي جَفَلَت. ولوهلة بدت العين المسدَّدة نحو المفتش واضحة ومستيقظة تمامًا. لكنها بعدها قالت، وهي مبتسمة ثانية وتهز رأسها:

- أي بطاقات؟ لا أحد يكتب بطاقات! أنا التي أكتب في هذا البيت إن مَسَّتْ حاجة إلى الكتابة. لكننا لا نكتب منذ زمن طويل. منذ أن مات ابني، لم نعُد نكتب. هذا أمر تتخيَّله حضرتك لا أكثر، أيها السيد العزيز، أن زوجي أُوتُّو يكتب بطاقات!

رأى المفتش الرجفة والذعر. لكن الرجفة والذعر ليسا برهانًا. فقال:

- انظري، منذ مات ابنك، تكتبان البطاقات. أنتما الاثنان. ألا تذكرين البطاقة الأولى بعد؟

ثم كرر بنبرة احتفالية نوعا:

- «أماه! لقد قتل الزعيم ابني! سيقتل الزعيم أبناءك أنتِ أيضًا، لن يتوقَّف حتى لو جلب الحزن إلى كل بيت في العالم...».

أنصتت. ابتسمت. قالت:

- هذا الكلام كتبته أم! لم يكتبه أُوتُّو زوجي، أنت تتخيل ليس إلا!

- لقد كتب أُوتُّو هذا الكلام، وأنت أمليته عليه! اعترفي!

لكنها هزت رأسها:

- كلا، سيدي العزيز! لا أستطيع أن أملي شيئًا كهذا، فرأسي لا يصل إلى كلام مثل هذا...

نهض المفتش وخرج من غرفة النوم متوجِّها إلى غرفة المعيشة وبدأ في البحث مع رجاله عن أدوات الكتابة. وجد وعاءً صغيرًا للحبر ومسَّاكة الريشة وريشةً تفحَّصها بدقة، ووجد بطاقة. عاد بها إلى آنَّا.

كانت في تلك الأثناء قد استجوبها قائد مجموعات العمل بْرَالْ، بطريقته. بْرَالْ مقتنع أن كل ما تتصنَّعه من إنفلونزا وحمى مجرد تمثيلية من المرأة. لكن حتى لو أنها مريضة حقًّا لم يكن ذلك ليغير شيئًا من مناهجه في الاستجواب. أمسك آنَّا جْفَانْجِل من كتفيها، بطريقة أوجعتها فعلًا، ثم بدأ يعتصرها. ضرب رأسها في ظهر السرير الخشبي فيما يرفعه عشرين أو ثلاثين مرة ثم يضربها ثانية في الوسائد ويصرخ غاضبًا في وجهها:

- هل تريدين مواصلة الكذب أيتها الخنزيرة الشيوعية؟ لا.. يصح.. أن تكذبي! لا.. يصح.. أن تكذبي!

- لا! (تهمهم السيدة)

لا ينبغي أن تفعلَ ذلك!

- قولي إنك كتبت البطاقات! قولي.. هذا.. فورًا! وإلا.. سأضربكِ.. إلى أن أحطم أضلعك.. أنت.. أيتها الخنزيرة الحمراء!

ومع كل كلمة يصدِم رأسها في ظهر السرير.

نظر المفتش إشيرِش، ومعه أدوات الكتابة في يده، من الباب مبتسمًا. إنه إذًا استجواب ينفذه قائد مجموعات العمل! «لو أنه أطال ذلك لخمس دقائق لأصبحت السيدة لخمسة أيام غير صالحة للاستجواب. ولا أي طريقة تعذيب يمكن أن تعيد لها الوعي.

لكن لبعض الوقت لا يبدو ذلك سيِّئا للغاية. فكلما حصلت على بعض الخوف وعانت بعض الآلام، تعلقت بي أنا، الرجل المهذب!».

وحينما رأى قائد مجموعات العمل المفتش مقتربًا من الفراش، أوقف التعذيب قائلًا بنصف اعتذار ونصف اتهام:

- أنت رقيق للغاية مع مثل أولئك النسوة يا إشيرِش! على المرء اعتصارهن إلى أن يبُحْن بكل المكنون!

- بالتأكيد سيدي قائد مجموعات العمل، لكن هل يمكن أن أُرِيَ السيدة شيئًا أولًا؟

يتحول نحو المريضة، التي ترقد الآن منكمشة وبعينين مغمضتين:

- سيدة جْفَانْجِل، اسمعي!

بدا أنها لا تسمع؛ أمسك بها المفتش وأجلسها بحذر.

- هكذا (قال برقة

الآن افتحي عينيك!

فتحتهما. لقد كان إشيرِش محقًّا في حساباته؛ بعد النفض والتهديد بدا لها الصوت الودود مريحًا.

- لقد أخبرتِنِي توًّا أن أحدًا لم يكتب عندكم منذ أمد! والآن انظري إلى تلك الريشة. لقد استُخدمت في الكتابة من وقت قريب، ربما اليوم أو أمس، انظري، الحبر لا يزال عليها جديدًا! انظري.. أستطيع أن أقشره بظفري!

- لا أفهم شيئًا من ذلك! (قالت السيدة جْفَانْجِل رافضة)

ربما عليك أن تسأل زوجي عن ذلك، فهذا شيء لا أفهمه.

نظر المفتش إشيرِش إليها بانتباه.

- بل تفهمين جيِّدًا جدًّا يا سيدة جْفَانْجِل! (قال بنبرات أكثر حدة) فقط أنت لا تريدين أن تفهمي لأنك تعرفين أنك قد وشيت بنفسك للتوِّ!

- لا أحد يكتب عندنا. (تكرر السيدة جْفَانْجِل بعناد)

- وأنا لست في حاجة إلى استجواب زوجك. لأنه قد اعترف بكل شيء. لقد كتب البطاقات، وأنت من أمليته...

- حسن، فليكن! إن كان أُوتُّو قد اعترف بذلك. (قالت آنًّا جْفَانْجِل)

- سدِّد لكمة إلى فم تلك الحمارة الوقحة يا إشيرِش!

(صرخ قائد مجموعات العمل فجأةً في أثناء ذلك)

يا لها من وقحة، تريد تغفيلنا!

لكن المفتش لا يلكم الحمارة الوقحة بل يقول:

- لقد قبضنا على زوجك وبحوزته بطاقتان في جيبه. لن يتمكَّن من الإنكار!

وحينما سمعت السيدة جْفَانْجِل بأمر البطاقتين اللتين كانت تبحث عنهما في أثناء معاناتها لأثر الحمى انتابها الذعر مجدَّدًا. إذًا لقد أخذهما حقًّا، رغم أنهما اتَّفقا على أن تُوَزِّع هي البطاقتين غدًا أو بعد غد. لقد جانبكَ الصواب يا أُوتُّو.

«لا بد أن شيئًا حدث للبطاقتين» فكَّرت بجهد.. «لكن أُوتُّو لم يعترف بالتأكيد وإلا ما كانوا ليفتشوا هنا ويستجوبوني. وإنما كانوا...».

وبصوت عال تسأل:

- لماذا إذًا لا تأتون بأُوتُّو إلى هنا؟ لا أعرف أمر البطاقات. لِمَ يكتب بطاقات؟

ثم أسندت ظهرها ثانية، وأغلقت فمها وعينيها، ولم تنبس بكلمة أخرى.

نظر المفتش إشيرِش لوهلة محدقًا إلى المرأة. إنها منهكة للغاية، لقد رأى هذا. لا يمكنهم الاستفادة منها بشيء. التفت ونادى رجلين من رجاله وأمرهما:

- ضعا السيدة في السرير الآخر هنالك، ثم فَتِّشَا هذا السرير بدقة! بعد إذنك سيدي قائد مجموعات العمل!

أراد أن يخرج رئيسه من الغرفة، فهو لا يرغب في استجوابٍ على طريقة بْرَالْ. سيكون من المحتمل أن يحتاج إلى هذه السيدة في الأيام القادمة على نحو ضروري، لذا ينبغي أن تظل فيها بعض القوة وبعض الوعي. علاوة على ذلك فقد بدا أنها من تلك القلة من

البشر التي لا يجعلها التهديد البدني تجثو على قدميها. الضرب إذًا لن يفيد في استخراج معلومات منها.

لكن قائد مجموعات العمل لم يكن سعيدًا وهو يبتعد عن تلك المرأة. فلقد كان يريد أن يُعرّف تلك العاهرة الوقحة رأيه فيها. كان يريد أن يفرج عن غضبه كله من قصص شبح البحر فيها. لكن هذين الكلبين في الغرفة. ثم علاوة على ذلك، اليوم مساءً سيكون الوحش العجوز في الزنزانة بشارع برنس-آلبريشت، وسيتمكّن أن يصنع فيها ما يشاء.

- ستقبض على تلك الشمطاء يا إشيرِش أليس كذلك؟

سأل من غرفة المعيشة.

- بالتأكيد سأفعل ذلك.

أجاب المفتش ونظر شاردًا نحو رجاله، الذين كانوا يتفحّصون كل قطعة من الملابس بدقة تجعلهم يفتحونها ثم يضعونها، ويَخِزُون إسفنج الأريكة بإبر طويلة ويطرقون على الحوائط، ثم أكمل:

- أعملُ على أن آخذها في حالِ تسمح بالاستجواب، ففي هذه الحمى هي لا تستوعب إلا نصف الأشياء. عليها أن تفهم أولًا أن حياتها معرضة للخطر. بعدها ستشعر بالخوف...

- سأعلِّمها الخوف! (غمغم قائد مجموعات العمل)

- ليس بهذه الطريقة، على كل حال لا بد أن تشفى من الحمى أولًا!

(رجاه إشيرِش وقاطع نفسه)

ماذا عندنا هناك؟

انشغل أحد رجاله بالكتب القليلة الموضوعة على الرفِّ الصغير. هزَّ كتابًا فسقط منه شيء أبيض على الأرض.

كان المفتش أسرعهم، التقط قطعة الورق.

- بطاقة! (صاح)

بطاقة شرعوا في كتابتها ولم يتِمُّوها!

وقرأ: «القائد يأمر ونحن نتبع! بالطبع نحن نتبع، نحن مجرد قطيع من الأغنام يسوقهم القائد إلى أي مسلخ يشاء! لقد استغنينا عن التفكير...».

ترك البطاقة تهوي، وتلفَّت حوله، فيما الجميع يسدِّدون نظراتهم نحوه.

- معنا البرهان! (قال المفتش إشيرِش فخورًا)

لدينا الفاعل. لقد تم كل ذلك بشكل لا يمكن دحضُه، ليس اعترافًا استخلصناه عبر التعذيب، إنه دليل جنائي قاطع. لقد كان الأمر يستحق كل الانتظار الطويل!

تلفت حوله، كانت عيناه الشاحبتان تلتمعان الآن. كانت هذه ساعته، الساعة التي انتظرها طويلًا.. ولهنيهة أخذ يفكِّر في الطريق الطويل الذي قطعه إلى الآن. منذ البطاقةِ الأولى التي تناولها بلا مبالاة مبتسمًا.. إلى هذه التي في يده. فكَّر في طوفان البطاقات المتراكمة، والأعلام الحمراء الصغيرة الآخذة في التزايد، وكذلك فكَّر في إيْنُوْ كْلُوْجِه الضئيل.

مرة أخرى وقف في زنزانة قسم الشرطة إلى جواره، ومرة أخرى جلس معه على ضفة بحيرة شلاختينزيه والماء معتم. ثم انطلقت

رصاصة واعتقدَ أنه أصيب بالعمى لبقية عمره. كذلك رأى نفسه واثنان من رجال الشرطة العسكرية يجرانه على السلم نازفًا مضروبًا فيما نشَّال ضئيل يمسك بأقدامهم ويتوسل إليهم مناديًا العذراء مريم. وبشكل عابر تذكر أيضًا المستشار الجنائي تْسُوتْ.. المسكين، حتى نظريته الخاصَّة بشركة التِرام ثبت خطؤها.

كانت هذه ساعة الفخر للمفتش إشيرِش. لقد وجد أنه كان محقًّا في الصبر وتحمل الكثير، بسبب ذلك الذي سمَّاه شبح البحر في البداية مازحًا، لكنه تحوَّل مع الوقت إلى شبح حقيقي كاد يقلب سفينة حياته. لكنه الآن وقع في الأَسر، انتهت المطاردة وانتهت اللعبة.

رفع المفتش إشيرِش رأسه كأنَّه يستيقظ من النوم. قال آمرًا:

- عليكم نقل السيدة بعربة إسعاف ومعها حارسان. ستظلان تحت أمرها، لا استجواب، غير مسموح بالحديث معها على الإطلاق. تُحضرون لها طبيبًا فورًا. عليه أن يشفيها من الحمَّى في غضون أيام ثلاثة. أخبروه بذلك!

- تحت أمرك، سيدي المفتش!

- على الباقين أن يعيدوا تنظيم الشقة، بلا أي أثر للفوضى. في أي كتاب وجدتم البطاقة؟ الكتاب المصنوع على هيئة راديو؟ جميل! يا فْرِيدِه ضع البطاقة تمامًا في مكانها كما وجدتها. لا بد أن يكون كل شيء على ما يرام قبل ساعة. سأحضر ثانية إلى هنا مع الفاعل. لا أحد منكم يبقى هنا. لا حراسة، لا شيء مطلقًا! مفهوم؟

- أوامرك، سيدي المفتش!
- إذًا فلنذهب سيدي قائد مجموعات العمل؟
- ألا تريد أن تُرِيَ السيدة ابطاقة التي عثرتَ عليها يا إشيرِش؟
- ولِمَ؟ لن تمنحنا في هذه الحمَّى رد الفعل المنشود، والآن لا يعنيني سوى الرجل. فرِيدِه هل وجدت في أي مكان مفتاحًا للباب؟
- في حقيبة يد السيدة.
- أعطني إياه؛ شكرًا. إذًا لنذهب الآن، سيدي قائد مجموعات العمل!

في الأسفل، من النافذة، رأى المستشار المتقاعد فرُومْ القوات التي تذهب. حرَّك رأسه يمنة ويسرة. وبعد قليل رأى النقالة تحمل السيدة جْفَانْجِل إلى عربة إسعاف. لكن منظر مرافقيها وَشَى له بأنها لا تغادر إلى مستشفًى عاديّ.

- واحدًا بعد الآخر! (قال المستشار المتقاعد فرُومْ بصوت خفيض)

واحدًا وراء الآخر.. ويصبح المنزل فارغًا. آل رُوْزِنْتال، آل بِيرْزِيكِه، بُورْكْهاوْزِن، جْفَانْجِل؛ أكاد أسكن وحدي هنا. نصف الشعب يسجن نصفه الآخر، لا يمكن لهذا أن يستمر طويلًا. لكن على أيِّ حال سأبقى ساكنًا هنا، لن يسجنني أحد!

يبتسم ويومئ برأسه:

- كلما ازداد الوضع سوءًا كان أفضل، واقتربنا من النهاية!

49

الحوار مع أُوتُّو جْفَانْجِل

لم يكن سهلًا تمامًا على المفتش إشيرش أن يجعل قائد مجموعات العمل بْرَالْ يدعه بمفرده مع أُوتُّو جْفَانْجِل في الاستجواب الأول. لكن في النهاية نجح في ذلك.

وحينما صعد السلالم مع الحِرفيّ إلى شقته كان المساء قد خيَّمَ. كان ضوء السلالم مشتعلًا، وأشعلَ جْفَانْجِل النور لما دَخَلَا إلى الغرفة. توجَّه إلى غرفة النوم مغمغمًا:

- زوجتي مريضة.

- زوجتك ليست هنا.. (قال المفتش)

لقد نقلناها. اجلس إلى جواري هنا.

زوجتي حرارتها مرتفعة، مصابة بالإنفلونزا! (غمغم جْفَانْجِل)

بدا عليه التأثُّر البالغ بخبر غياب زوجته. لانَتْ ملامحه اللا مبالية التي حافظ عليها حتى تلك اللحظة.

- ثمة طبيب يراعي زوجتك.. (قال المفتش إشيرِش مُهدِّئًا)

أعتقد أننا سنتخلَّص من الحُمَّى في يومين أو ثلاثة. لقد أمرت بسيارة إسعاف لنقلها.

لأول مرة رأى جْفَانْجِل الرجل الجالس أمامه بدقة أعلى. ولمدة طويلة حدقت عينا الطائر إلى المفتش. ثم أومأ جْفَانْجِل:

- عربة إسعاف.. طبيب. هذا جيد، أشكرك. هذا تصرُّف سليم، أنت لست بالرجل السيِّئ.

استغل المفتش فرصته:

- نحن لسنا سَيِّئون إلى هذا الحدِّ يا سيد جْفَانْجِل، لسنا على النحو الذي عادة ما نُصَوَّرُ عليه. نحن نفعل كل ما في وسعنا من أجل تسهيل وضع المقبوض عليهم. نريد فقط أن نعرف إن كان ثمة تهمة ثابتة. هذا عملنا، مثلما أن عملك يتمثل في صنع التوابيت الخشبية...

- أجل! (قال جْفَانْجِل بصوت قاسٍ)

أجل، صانع توابيت ومُورِّد توابيت، هذا هو الوضع!

- تقصد.. (أجاب إشيرِش بنبرة تشوبها السخرية)

أنا أُوَرِّد محتوى التوابيت؟ أترى أن قضيتك سوداوية إلى هذا الحد؟

- ليس لديَّ قضية!

- أوه، بلى، قليلًا. انظر على سبيل المثال إلى هذه الريشة يا جْفَانْجِل. إنها ريشتُك. والحبر عليها لا يزال طازجًا. ماذا كتبتَ بهذه الريشة اليوم أو ربما أمسِ؟

- كان عليَّ أن أُوَقِّع شيئًا.

- وماذا كان عليك أن تُوقِّع يا سيد جْفَانْجِل؟

- كتبت شهادة طبية لزوجتي. فزوجتي مريضة بالإنفلونزا...

- وزوجتك قالت لي إنك لا تكتب أبدًا. وإن كل شيء يُكتَب عندكم هي من تكتبه. هذا ما قالته.

- هذا أيضًا صحيح جدًا. هي تكتب كل شيء. لكن بالأمس اضطُررت أنا إلى الكتابة لأنها كانت تعاني الحمى. وهي لا تعلم شيئًا عن ذلك.

- وانظر هنا يا سيد جْفَانْجِل.. (تابع المفتش)

كيف انثنت الريشة! إنها ريشة جديدة تمامًا، لكنها منثنية هكذا بسبب أن لك يَدًا ثقيلة جدًّا يا سيد جْفَانْجِل! (وضع البطاقتين اللتين عثر عليهما في الورشة على الطاولة)

البطاقة الأولى مكتوبةٌ بسلاسة تامَّة. لكن الثانية، انظر هنا.. وهنا.. وهناك حرف الباء كذلك- لقد انثنت الريشة. والآن ما قولك يا سيد جْفَانْجِل؟

- هذه هي البطاقات.. (قال جْفَانْجِل بلا مبالاة)

التي عثرتُ عليها على أرض الورشة. لقد قلتُ للرجل الذي يرتدي السترة الزرقاء أن يلتقطها. ففعل ذلك. ألقيت نظرة على البطاقات، ثم سلمتُها على الفور إلى رجل جبهة العمل. ومضى هو بها. وبعد ذلك لا أعلم شيئًا بتاتًا عنها.

قال جْفَانْجِل كل ذلك بنبرة متساوية بطيئة، ولسان ثقيل، مثل رجل عجوز محدود القدرات.

سأل المفتش:

- لكنك ترى يا سيد جْفَانْجِل أن هاتين البطاقتين كُتِبَتَا بريشة مشطورة؟

- لا أفهم شيئًا من ذلك. أنا لستُ معلم كتابة مثلما يقول الإنجيل.

ساد السكون لبرهة في الغرفة. نظر جْفَانْجِل أمامه نحو الطاولة بوجهٍ يكاد يخلو من أي تعبير.

حدق المفتش إلى الرجل. كان مقتنعًا تمام الاقتناع أن هذا الرجل ليس بطيئًا ثقيلًا مثلما يتصنَّع الآن، لكنه حادٌّ مثل وجهه، وسريع مثل نظراته. رأى المفتش أن واجبه الأول سيتمثَّل في تحرير تلك الحِدَّة من الرجل. كان يريد أن يتحاور مع كاتب البطاقات الحاذق، ليس مع هذا الحِرفيِّ العجوز الذي زاد العمل من حماقته.

وبعد برهة سأل إشيرِش: ما تلك الكتب على الرف؟

ببطء رفع جْفَانْجِل نظره، حدق لوهلة إلى الآخر ثم أدار رأسه إلى الوراء إلى أن أصبح رفُّ الكتب في مستوى نظره.

- ما هذه الكتب؟ إنه كتاب الأناشيد الخاص بزوجتي وإنجيلُها. والبقية كلها تقريبًا كتب ابني الذي سقط في المعركة. أنا لا أقرأ الكتب، ولا أقتنيها. فأنا لم أتمكن من القراءة بشكل جيد قطُّ.

- ناوِلني إذًا الكتاب الرابع من اليسار، يا سيد جْفَانْجِل، ذاك ذا التجليد الأحمر.

ببطء وحذر سحب جْفَانْجِل الكتاب من الصف وحمله بحذر مثل بيضة نيئة إلى الطاولة ووضعه أمام المفتش.

- «كتاب أُوتُّو رونجه في صنع الراديو» قرأ المفتش بصوت عالٍ على الغلاف. ها جْفَانْجِل، ألا يخطر ببالك شيء حين ترى هذا الكتاب؟

- إنه كتاب من تأليف أُوتُّو ابني الذي سقط في الحرب. (أجاب جْفَانْجِل ببطء)

كان يحب الراديو. وعُرِف بمهارته، وكل الورش تتنافست عليه، كان يعرف كل توصيلة وتعشيقة...

- وخلاف ذلك لا يخطر ببالك أي شيء يا سيد جْفَانْجِل، حينما ترى هذا الكتاب؟

- كلا! (هزَّ جْفَانْجِل رأسه نافيًا)

لا أعرف شيئًا. فأنا لا أقرأ مثل تلك الكتب.

- لكن ربما تضع فيها شيئًا! افتح الكتاب يا سيد جْفَانْجِل!

فتح الكتاب على الموضع الذي يحوي البطاقة. حدَّق جْفَانْجِل إلى الكلمات: «القائد يأمر ونحن نتبع...».

متى كَتَبَ ذلك؟ منذ زمن بعيد، بعيد للغاية. في البداية. لكن لم يُنْهِ كتابتها؟ ولِمَ وضع البطاقة هنا في كتاب أُوتُّو الصغير؟

وببطء لاحَتْ له ذكرى الزيارة الأولى لنسيبه أُولْرِشْ هِفْكه. آنذاك دَسَّ البطاقة بسرعة ثم واصل العمل على نحت رأس أُوتُّو الصغير. لقد أبعدها ونسيها، وآنًّا نسيتها كذلك!

إنها إذًا الخطر الذي كان يستشعر وجوده دائمًا! إنها العدو المترصِّد في الظلام الذي لم يتمكَّن من رؤيته قطُّ لكنه كان يحدس وجوده. إنها الخطأ الذي اقترفه، ولم يحسب حساب عاقبته.

«لقد أمسكوا بك!» سمع صوتًا داخله يقول.. «لقد راهنتَ برأسك، بذنب جَرَرْتَه على نفسك. والآن أسلمت نفسك إلى الهلاك..

وعلاوة على ذلك، هل اعترفت آنَّا بشيء؟ بالتأكيد أرَوها البطاقة. لكنها ستظل تنكر، فأنا أعرفها حق المعرفة، وهذا ما سأفعله كذلك. ثم إن آنَّا تعاني الحمى».

سأل المفتش:

- والآن يا جْفَانْجِل، لا تقول شيئًا؟ متى كتبت هذه البطاقة؟

- لا أعرف شيئًا عن البطاقة. لا أستطيع أن أكتب شيئًا كهذا، فأنا أغبى من ذلك!

- إذًا لم البطاقة في كتاب ابنك؟ من وضعها داخله؟

- وكيف لي أن أعرف ذلك؟ (أجاب جْفَانْجِل بخشونة)

ربما وضعتَ سيادتُك البطاقة بنفسك، أو أحد رجالك! لطالما سمعنا عن ذلك، أن الأدلة تُدَسُّ حين لا يوجد دليل!

- لقد عثرنا على البطاقة داخل هذا الكتاب في حضور عدة شهود. حتى زوجتك كانت حاضرة.

- حسنًا، وماذا قالت زوجتي؟

- بمجرد أن وجدنا البطاقة اعترفت فورًا أنك كاتبها وأنها هي التي أملتها عليك. انظر يا جْفَانْجِل، ولا تكن عنيدًا. اعترِف ببساطة. حينما تعترف الآن فأنت لا تخبرني بشيء لا أعرفه. أنت فقط تيسِّر وضعك ووضع زوجتك. حينما لا تعترف سيتعيَّن علينا أن نأخذك إلى الجيستابو، والقبو عندنا ليس جميلًا...

ويذكر القبو ارتجف صوت المفتش قليلًا، إذ هاج في داخله ذكرى ما اختَبَرَهُ فيه بنفسه.

لكنه تمالك نفسه وأكمل:

- لكن حينما تعترف، أستطيع أن أسلمك فورًا إلى قاضي التحقيقات. سيوصلك إلى مُوَابيت، ويعاملونك معاملة لائقة مثل سائر المساجين.

أصرَّ جْفَانْجِل على كذباته، وليَقُل المفتش ما يشاء. لقد ارتكب إشيرِش خطأً لاحظه جْفَانْجِل الحاذق فورًا. لقد كوَّن وجود جْفَانْجِل الثقيل وإخباريات رؤسائه انطباعًا لدى إشيرِش جعله لا يعده كاتب البطاقات. كان مجرد كاتب، لكن السيدة هي التي تُملِي...

لكن حينما كرر ذلك أثبت لجْفَانْجِل أن آنًّا لم تعترف بشيء. هذا شيء لفَّقه هذا المفتش.

واصل الإنكار.

وأخيرًا قاطع إشيرِش الاستجواب غير المجدي في الشقة وحمل جْفَانْجِل إلى شارع برنس-آلبريشت. كان يأمل الآن أنَّ تغيير البيئة المحيطة، ودخول رجال الشرطة العسكرية، وكل ذلك الجهاز المخيف، سوف يؤدي إلى زعزعة ذلك الرجل البسيط فيستسلم.

دَخَلَا حجرة المفتش، وساق إشيرِش جْفَانْجِل إلى خريطة برلين التي يضع عليها الأعلام الصغيرة الحمراء.

- انظر يا سيد جْفَانْجِل.. كل علم أحمر يعني بطاقة عثرنا عليها. العلم موجود بدقة في الموضع الذي عثرنا على البطاقة فيه. وحينما تنظر إلى هذه المواضع..

(ضرب بأطراف أصابعه)

فسترى هنا أعلامًا فوق أعلام، لكنك لن تجد هنا. هذا هو شارع يابْلونْسْكِي حيث تقطن. وهناك بالطبع لم تضع أي بطاقات، لأنك معروف في الشارع.

لكن إشيرِش رأى أن جْفَانْجِل لا يستمع إليه مطلقًا. تَوتُّرٌ غريب ومبهم اعترى الرجلَ بمجرد أن رأى خريطة المدينة. ارتجفت نظراته، وارتعشت يداه. وبما يشبه الخجل سأل:

- هذه كمية كبيرة من الأعلام، ترى كم عددها؟

- أستطيع أن أخبرك بدقة!

(أجاب المفتش الذي فهم الآن ما الذي يؤثِّر هكذا في الرجل)

إنها 267 علمًا، 259 بطاقة وثماني خطابات. كم كتبتَ يا جْفَانْجِل؟

سَكَتَ الرجل، لكن ذلك لم يعد صمت العناد، بل صَمْتَ الزلزلة.

- وفكِّر في أمر يا جْفَانْجِل.. (واصل المفتش مستغِلًّا الميزة التي اقتنصها تَوًّا)

كل هذه الخطابات والبطاقات سُلِّمَت إلينا طوعًا. نحن لم نجد أيًّا منها بأنفسنا. لقد جرى الناس إلينا بها كأنها نار تلسعهم. كانوا يريدون التخلُّص منها بأسرع ما يكون، بل معظمهم لم يقرأ حتى البطاقات...

لا يزال جْفَانْجِل صامتًا، لكن ملامح وجهه ترتعش. شيء ما يعتمل في نفسه بعنف. النظرة الثابتة الحادَّة ترتجف الآن، تَتِيهُ، تنخفض إلى الأرض ثم ترتفع ثانية نحو الأعلام كأنها مجذوبة إليها.

- وشيء إضافي يا جْفَانْجِل، هل فكرتَ قطُّ في كمّ الخوف والشقاء الذي جَرَرْته على الناس بهذه البطاقات؟ ناس هلكوا من الخوف، وآخرون اعتُقِلوا، كما أني أعلم الخبر اليقين عن واحد انتحر بسبب هذه البطاقات...

- لا! لا! (صرخ جْفَانْجِل)

لم أكن أريد ذلك مطلقًا! لم يخطر ببالي ذلك مطلقًا! أردت فقط أن تتحسَّن الأحوال، أن يعلم الناس الحقيقة، أن الحرب ستنتهي أسرع، وأن تتوقَّف جرائم القتل. هذا ما أردته! لكني لم أكن أريد أن أزرع الخوف والذعر، لم أكن أريد أن تكون الأمور أسوأ! المساكين! هل جعلتهم أسوأ حالًا؟! من ذلك الذي أقدم على الانتحار؟

- مجرد تافه لا نفع له، مدمن رهانات، لا يهم، لا تُحزن قلبك عليه!

- كل إنسان مهم. سيظل دمه في رقبتي.

- انظر يا سيد جْفَانْجِل.. (قال المفتش للرجل العابس الواقف إلى جواره)

ها قد اعترفتَ بجريمتك من دون حتى أن تلاحظ!

- جريمتي؟ لم أقترف أي جرم، على الأقل ليس الجرم الذي تفكر فيه. جريمتي هي أني اعتقدتُ أني أذكى وأمكر، وأني أستطيع أن أفعل ما أريد بمفردي رغم أني أعلم أن واحدًا بمفرده لا يساوي أي شيء. كلَّا، لم أقترف شيئًا أشعر تجاهه بالعار، لكن الطريقة التي نفذته بها كانت خاطئة. من أجل ذلك أستحق العقاب، ومن أجل ذلك أموت سعيدًا...

- لن يسوء الوضع هكذا مباشرة! (علّق المفتش مواسيًا)

لم يستمع جْفَانْجِل إليه. قال ناظرًا أمامه:

- لم أعوِّل قطُّ على البشر، وإلا لكُنتَ عَرَفْتَ.

سأل إشيرِش:

- أتعرف حقًّا يا جْفَانْجِل عدد الخطابات والبطاقات التي كتبتَها فعلًا؟

- 276 بطاقة، و9 خطابات.

- إذًا من كل ذلك.. لم تُسَلَّم 18 بطاقة!

- 18 بطاقة، هذا هو كل عملي خلال أكثر من عامين! هذا هو كل أملي. 18 بطاقة سأدفع فيها حياتي، لكنها أيضًا 18 بطاقة!

- لا تعتقد يا جْفَانْجِل أن البطاقات الثماني عشرة ستُتَداوَل. كلًّا، لقد عثر عليها أناس عندهم من القذارة ما يريدون إخفاءه ولا يقدرون على تسليمِ البطاقات. أيضًا تلك القطع الثماني عشرة ستظل بلا تأثير يذكر، نحن لم نسمع مطلقًا عن تأثير بطاقاتك على الجمهور.

- بمعنى أني لم أحقِق شيئًا؟

- لم تحقِق شيئًا، على الأقل لم تحقِق الأثر الذي كنت تريد! كن ممتنًّا لذلك يا جْفَانْجِل فهذا من شأنه أن يخفِّف عنك العقوبة! ربما تنجو بحكم يقضي بسجنك خمس عشرة أو عشرين سنة في السجن التأديبي!

ارتجف جْفَانْجِل: كلا! كلا!

- ماذا كنت تظنُّ يا جْفَانْجِل؟ أنت، عامل بسيط، أراد أن يكافح ضد الزعيم، الذي يقف وراءه الحزب، وجيشُ الدفاع، والشرطة العسكرية، وكتيبة العصف؟ ضد الزعيم الذي هزم نصف الكرة الأرضية وسيهزم آخر أعدائنا في غضون عام أو عامين؟ هذا مثير للضحك! كان عليك أن تعرف منذ البداية أن فشلك محتوم! فحالك حال بعوضة تريد أن تحارب فِيلًا. لا أفهم كيف تفعل ذلك وأنت رجل عاقل!

- كلا، أنت لن تفهم ذلك أبدًا، فالأمر سواءٌ إن كنت تحارب فردًا أو عشرة آلاف. عندما يلاحظ الواحد أن عليه أن يحارب، فسوف يحارب، سواء كان مع رفاق أم لا. كان عليَّ أن أحارب، وسأعيد الكَرَّةَ مرارًا. لكن بطريقة مختلفة كليًّا.

تلفَّت نحو المفتش بنظرته التي عادت إلى هدوئها:

- كما، لا شأن لزوجتي بهذه الأمور. عليكم أن تُخْلوا سبيلها!

- الآن تكذب يا جْفَانْجِل! لقد أملَتْ عليك زوجتك محتوى البطاقات يا جْفَانْجِل، لقد اعترفت بذلك بنفسها.

- الآن تكذب! هل أبدو لك مثل رجل يَدَعُ زوجته تملي شيئًا عليه؟ ربما ستقول أيضًا إنها فكرت في الأمر برمته. لكن هذا كله عملي وحدي. أنا الذي خطرت له الفكرة، وأنا الذي كتب البطاقات ووزعها، وأريد عقابي! لكن زوجتي لا!

- لكنها اعترفَتْ...

- لم تعترف بشيء! لا أريد أن أسمع تلك الكذبات ثانية! لا ينبغي أن تشوِّه صورة زوجتي أمامي!

لوهلة وقف الرجلان في مواجهة. الرجل ذو رأس الطائر الحاد والنظرة القاسية، والمفتش العابس الذي لا لون له، ذو الشارب رمليِّ اللون والعينين الزرقاوين.

ثم أخفض إشيرِش بصره وقال:

- سأنادي أحدهم، سنكتب محضَرًا صغيرًا. أرجو أن تتمسك بأقوالك؟

- سأتمسك بأقوالي.

- هل يتضح لك ما ينتظرك؟ إنها أقصى عقوبة تأديبية أو ربما الموت؟

- بكل تأكيد، أعلم ما فعلت. وأرجو أن تكون أنت أيضًا على علم بما تفعل أيها السيد المفتش؟

- وماذا أفعل إذًا؟

- تعمل لدى قاتل، وتقدم له على الدوام طرائد جديدة. ربما تفعل ذلك من أجل المال، ربما لستَ مؤمنًا بالرجل من الأساس. كلا. بالتأكيد لا تؤمن به. ولا تفعل ذلك إلا من أجل المال...

ومرة أخرى وقَفَا صامتين في مواجهة بعضهما بعضًا، ومرة أخرى أخفض المفتش بصره بعد هنيهة مغمورًا بالمشاعر.

- سأذهب إذًا! (قالها بنبرة تكاد تكون مضطربة)

وأُحضر كاتِبًا.

وذهب.

50

موت إشيرِش

ظل المفتش إشيرِش حتى منتصف الليل في غرفة مكتبه. ربَّع منكمشًا على نفسه، ورغم كل الكحول الذي تناوله لم يُجْدِهِ ذلك نفعًا في نسيان المشهد البشع الذي شارك فيه.

هذه المرة لم يقدم قائد مجموعات العمل بْرَالْ وسام الحرب لمفتشه الناجح المجتهد العزيز، لكنه دعاه إلى احتفالية صغيرة بالنَّصر. جلَسَا معًا وشرِبَا آرمانياك قويًّا في كؤوس ليست صغيرة، وتحدَّثا بتفاخر حول إمساكهما بشبح البحر، وتَلَا المفتش إشيرِش المحضر الذي يحوي اعتراف جْفَانْجِل...

«عملٌ جنائي مرهِق مخدوم بعناية يُلقَى أمام الخنازير!».

لكن بعد أن شربوا حتى سكروا تمامًا، سمحوا لأنفسهم بمزحة إضافية. دخلوا على جْفَانْجِل في زنزانته يحملون الزجاجات والكؤوس، وكان على المفتش أيضًا أن يصحبهم. كانوا يريدون أن يروا ذلك الطائر العجيب، ذلك الذي أحرق أعصابهم، الذي امتلك من الوقاحة ما يسمح له بمحاربة الزعيم!

وجدوا جْفَانْجِل أسفل غطائه على البُرش*، نائمًا بعمق. «وجهه غريب» فكَّر إشيرِش.. «لم يجعل النوم قسماته أقل توتُّرًا، هو دائمًا

* مضجع خشبي. (المترجمة)

منغلق وحذر في اليقظة وفي النوم». لكن رغم ذلك كان الرجل نائمًا بعمق.

وبالطبع لن يتركوه نائمًا. أيقظوه على ركلات، وأوقعوه من فوق البُرش. وقف أمام هؤلاء المرتدين بزات سوداء وفضية في قميص قصير للغاية لم يكن يواري سوأته كليَّةً، هيكل مضحك، بغضِّ النظر عن شكل الرأس!

ثم جاءتهم فكرة أن يُعَمِّدوا شبح البحر العجوز، فصبُّوا على رأسه زجاجة خمر. وألقى قائد مجموعات العمل بْرَالْ، الذي كان مخمورًا بشدة، خطبة عن شبح البحر هذا، عن هذا الخنزير الذي سيُذبح، وفي آخر الخطبة حطم زجاجة الخمر على رأس جْفَانْجِل.

كانت هذه إشارة للآخرين فشرعوا جميعًا في تحطيم كؤوسهم على رأس الرجل العجوز. سال على وجهه آرمانياك ودماء. وفيما يحدث كل هذا رأى إشيرِش جْفَانْجِل غير مكترث وكاد يشعر أنه يتحدَّث قائلًا:

- هذه هي القضية العادلة التي تقتُل من أجلها! هؤلاء هم رفاقك الجلادون! هذا أنتم. أنت تعرف جيِّدًا ماذا تفعل. فيما أنا سأموت لجريمة لم أرتكبها، وأنت ستعيش. ما أعدل قضيتك!

ثم اكتشفوا أن كأس إشيرِش ما تزال سليمة. فأمروه بأن يكسرها على رأس جْفَانْجِل. أجل لقد صاح فيه بْرَالْ مرتين بعنف - «أنت تعرف يا إشيرِش كيف يمكن لي أن أُرَكِّبَك الزلاجات عندما لا تمتثل؟» - وهكذا حطَّم إشيرِش الكأس على رأس جْفَانْجِل. اضطُر أن يضربه أربع مرات بيده المرتعشة قبل أن تتحطم الكأس، وطوال

الوقت شعر بنظرة جْفَانْجِل الساخرة الحادَّة على جسده، رغم أنه يختبر إذلاله صامتًا. هذا الهيكل المثير للضحك في القميص القصير الفاضح، كان أكثر قوة واحترامًا من كل معذبيه. ومع كل ضربة سدَّدها المفتش إشيرِش يائسًا وخائفًا، بدا له كأنَّه يضرب نفسه من الداخل، وأن فأسًا تُزعزِع جذوره لتنزعه عن شجرة الحياة.

وفجأةً انهار أُوتُّو جْفَانْجِل، وهكذا تركوه ملقًى على أرضية الزنزانة العارية، فاقدًا للوعي ونازفًا. وأمرُوا الحراس أن يتكفَّلوا بالخنزير، ثم صعدوا كي يواصلوا السُّكْر والاحتفال كأنهم حقَّقُوا بطولة ما.

والآن يجلس المفتش إشيرِش ثانية في غرفة مكتبه. وعلى الحائط أمامه لا تزال الخريطة معلَّقة بما تحويه من أعلام صغيرة حمراء. جسده منكمش تمامًا على نفسه، لكنه لا يزال يفكِّر بوضوح.

«لقد انتهت الخريطة. ومن الغد يمكن إزالتها. وبعد الغد سأعلِّق خريطة جديدة لأتعقَّب شبح بحر جديدًا. ثم واحدًا آخر. ثم واحدًا يليه. ما معنى كل ذلك؟ هل لأجل هذا أتيت إلى العالم؟ أعلم أن هذا ما ينبغي أن يكون، لكن حين يكون الوضع كذلك فإني لا أفهم شيئًا في هذا العالم، ثم لا يصبح لأي شيء معنى. ثم يكون كل شيء بلا قيمة، أي شيء أفعله...

"دمُه في رقبتي"! كيف قالها؟! وثأره مني! لا، دم إِيْنُوْ كْلُوْجِه في رقبتي أنا، ذلك الضعيف المسكين الذي ضحيتُ به كي أسلم ذلك الرجل لقطيع من السكارى. لن ينتحب مثله على رصيف القوارب، بل سيموت محترَمًا ورأسه مرفوع.

وأنا؟ ما موقفي؟ قضية جديدة، ثم عندما لا يحقِّق المجتهد إشيرِش النجاح الذي يتوقَّعه قائد مجموعات العمل بْرَالْ يرسلني مرة أخرى إلى القبو. وأخيرًا سيأتي اليوم الذي يرسلونني فيه إلى الأسفل بدون أن أُرفَعَ ثانية. هل أعيش من أجل انتظار ذلك؟ كلا، ذاك الجْفَانْجِل معه حق حين يدعو هتلر بالقاتل ويدعوني بمورِّد القاتل. لم أكترث قطُّ لمن يقود الدفَّة، ولِمَ تُشَنُّ هذه الحرب، ما دام في وسعي مواصلة عملي.. القبض على البشر.

لكن الأمر لم يعد سواءً عندي الآن. لقد سئمتُ كل ذلك، وأمست نفسي تتقزَّز منه. كيف وقف هنالك محدقًا إليَّ والدم والخمر يسيلان فوق وجهه! لكنه يحدِّق إليَّ! آه لو أن هذا ممكنٌ لضحيت بعشرة إيْنُوْ كْلُوْجِه من أجل أن أنقذ هذا الجْفَانْجِل، سأضحِّي بهذا المبنى بكامله لأطلق سراحه! لو أن هذا ممكن لرحلت عن هنا، وبدأت شيئًا مثل ما فعله أُوتُو جْفَانْجِل، ربما فكرت في شيء أكثر حنكة، لكنني أريد أن أحارب.

بَيْدَ أن هذا غير ممكن، فهم لن يدعوني، سيسمُّون تصرفًا كهذا فرارًا من المعركة. سيقبضون عليّ ويزجون بي مرة أخرى في القبو. وسيصرخ لحمي عندما أعذب، أجل، أنا جبان. أنا جبان مثل إيْنُوْ كْلُوْجِه، لست شجاعًا مثل أُوتُّو جْفَانْجِل. حينما يصرخ فيَّ قائد مجموعات العمل بْرَالْ، أرتجف، وأنفذ أوامره وأنا أرتجف. أحطم كأس الويسكي على رأس الرجل الوحيد المحترم، لكن كل ضربة هي حفنة تراب فوق قبرى».

نهض المفتش إشيرِش ببطء. وعلى وجهه ابتسامة عجز. ذهب نحو الحائط وأنصت. لقد تعدت الساعة الآن منتصف الليل وساد الهدوء أرجاء المبنى الكبير الكائن في شارع برنس-آلبريشت. لا شيء سوى صوت خطوات الحراس في الطرقة، ذهابًا وإيابًا.

«أنت أيضًا لا تعرف لِمَ تجري هنا وهناك» فكر إشيرِش.. «يومًا ما ستفهم أنك أفسدت حياتك».

أمسك بالخريطة، ونزعها عن الحائط. سقطت أعلام كثيرة، وَتَكَّت الدبابيس على الأرضية. مزق إشيرِش الخريطة وألقاها على الأرض.

«انتهى!» قال.. «انتهى! انتهت قضية شبح البحر!».

عاد ببطء إلى مكتبه وسحب درجًا من أدراجه وأومأ.

«ها أنا ذا أقف، ربما أكون الرجل الوحيد الذي استطاعت بطاقات أُوتُّو جْفَانْجِل أن تبدِّل قناعاته. لكني لن أجديك نفعًا يا أُوتُّو جْفَانْجِل، لن أستطيع أن أكمل ما بدأتَ. أنا أجبن من ذلك. أنا تابعك الوحيد يا أُوتُّو جْفَانْجِل!».

سحب المسدس سريعًا وأطلق الرصاص.

هذه المرة لم يرتجف.

الحارس الذي سارع بالدخول لم يجد سوى جثة تكاد تكون بلا رأس وراء المكتب.

صاح قائد مجموعات العمل بْرَالْ «فرار من المعركة! كل المدنيين خنازير! كل من لا يرتدون البزة العسكرية ينبغي الزجُّ

بهم في القبو، خلف الأسلاك الشائكة. لكن فلينتظروا، ذلك الذي سيتولّى مكان الخنزير إشيرِش، سأعتصره منذ البداية فلا تظل في رأسه فكرة واحدة سوى الخوف! لقد كنت دائمًا طيبًا، وكان هذا خطئي الفادح! أحضِروا إليّ ذلك الخنزير جْفَانْجِل! لا بد أن يرى الفوضى التي تسبَّب فيها هنا، فليأت لينظفها!».

وهكذا قضى الحِرفيُّ العجوز جْفَانْجِل وردية ليل ثقيلة بسبب الرجل الوحيد الذي غيَّر عقيدته تأثُّرًا به.

الجزء الرابع

النهاية

51

آنّا جِفَانجِل في الاستجواب

في اليوم الرابع عشر للاعتقال، في واحد من أوائل الاستجوابات التي خاضتها آنَّا جْفَانْجِل، بعد أن استردت عافيتها- زلَّ لسانها وأفادت بأن ابنها أُوتُّو كان في وقت ما خاطبًا فتاةً تُدعى تْرُودِل بَاوْمَان. لم تكن آنَّا قد أدركت آنذاك أن ذِكر أي اسم هو أمر بالغ الخطورة، وتلك الخطورة تقع على من ذُكر اسمه. لأنه تُفحَص دائرة المعارف والأصدقاء لكل معتَقَل بدقة بالغة، وكل أثر يُتَعَقَّبُ من أجل أن يُجفِّفَ الضررُ من منابعه.

كان المستجوِب، هو المفتش لَاوْبْ، الذي تَبِع إشيرِش في منصبه، رجل قصير مُدَملَكٌ، يحب أن يضرب بأصابعه بارزة العظام على وجوه من يستجوبهم، وفور أن سمع منها ذلك ذهب بدون أن يدوِّن ما قالته. كان قد سأل آنَّا مطوَّلًا عن أصدقاء ابنها ورئيسه في العمل، كما سأل عن أشياء لم يكن في وسعها أن تعرفها، لكن عليها أن تعرفها، سألها وسألها، وخلال ذلك كان يُسقط أصابعه على وجهها كما السوط.

كان المفتش لَاوْبْ أستاذًا متمكنًا في هذه الاستجوابات، يتحمَّلها لعشر ساعات متواصلة بلا راحة، ويتحتَّم على المستجوَب أيضًا أن يتحمَّل. كانت آنَّا تترنَّح من التعب فوق كرسيها، ومن

مرضها الذي بالكاد تعافت منه، ومن خوفها على مصير أُوتُّو، الذي لم تسمع عنه ثانية، وشعرت بالعار أن تُضرب مثل تلميذة غير منتبهة، كل ذلك أدى إلى تشتُّت ذهنها، فيشرع المفتش في ضربها مجدَّدًا.

تأوهت آنَّا جْفَانْجِل بصوت خفيض وغطَّت وجهها بيديها.

- أنزلي يديك! (صاح المفتش)

انظري إليَّ! هيا بسرعة!

نفَّذت، ونظرت إليه نظرة ملؤها الخوف. لكن ليس الخوف منه، بل من أن تضعُف.

- متى رأيتِ تلك المدعوة عروس ابنك للمرة الأخيرة؟

- منذ مدة طويلة جدًّا، لم أعد أعرف. منذ بدأنا في كتابة البطاقات. فوق العامين... أوه لا تضربني مجدَّدًا! تذكَّر أمك! بالتأكيد لا تريد لأمك أن تضرب!

صفعتان، بل ثلاث صفعات متتالية نزلت على وجهها.

- أمي ليست خنزيرة متهمة بالخيانة العظمى مثلك! وسأُريكِ كيف يمكنني أن أضرب! أين كانت تسكن تلك الفتاة؟

- لا أعلم! قال لي زوجي إنها تزوجت! وبالتأكيد هي غيَّرت مسكنها.

- إذًا زوجك رآها! متى كان ذلك؟

- لا أتذكر! كنا لا نزال نكتب البطاقات.

- وهل شاركَتْ معكم أم ماذا؟ هل كانت تساعدكم؟

- لا لا! (صاحت السيدة جْفَانْجِل؛ لقد ارتعبت حين استوعبت ما فعلَتْه)

زوجي.. (قالت بسرعة)

رأى تْرُودِل في الشارع. فحكت له أنها تزوَّجت ولم تعد تذهب إلى المصنع.

- حسنٌ. ثم ماذا؟ إلى أي مصنع كانت تذهب؟

ذكرت السيدة جْفَانْجِل عنوان مصنع الأزياء الموحَّدة.

- وماذا أيضًا؟

- هذا كل شيء. حقًّا هذا كل ما أعرفه. بالتأكيد سيدي المفتش!

- ألا ترين ذلك غريبًا نوعًا؟ أن عروس الابن لا تزور حماها ولا مرة واحدة بعد موت الابن؟

- لقد كان زوجي هكذا! لم نتبادل الزيارات قطُّ، ومنذ بدأنا نكتب البطاقات قاطع الجميع.

- ها أنت تكذبين ثانية! فأنتم لم تبدؤوا التَّزاوُر مع آل هِفْكِه إلا بعد أن بدأتم في كتابة البطاقات.

- أجل هذا صحيح! لقد نسيت هذا. لكن ذلك لم يعجب أُوتُّو. لم يسمح به إلا لأنه أخي. وكان دائمًا ما يلعن تلك القرابة! (نظرَتْ إلى المفتش بحزن. وقالت بخجل)

هل تسمح لي أن أطرح سؤالًا يا سيدي المفتش؟

غمغم المفتش لَاوْبْ: اسألي فمَنْ يسأل يَنَلْ إجابات.

- هل صحيح... (قاطعَتْ نفسها)

أعتقد أنني رأيت نسيبتي صباح الأمس بالأسفل في الطرقة.. هل صحيح أنكم ألقيتم القبض على آل هِفْكِه؟

- ها أنت تكذبين ثانية! (صفعة حادة. ثم صفعة أخرى)

السيدة هِفْكِه في مكان آخر تمامًا. لا يمكن أن تكوني قد رأيتها. لقد وشى لك أحدهم بذلك. مَن وشى لك بذلك؟

لكن السيدة جْفَانْجِل هزَّت رأسها:

- لا أحد فعل ذلك. لقد رأيت نسيبتي من بعيد. لم أكن متيقِّنة أنها هي. وها هم أولاء آل هِفْكِه معتقلون أيضًا رغم أنهم لم يفعلوا شيئًا ولا يعرفون أي شيء. يا لهم من مساكين!

- المساكين! (ردَّد المفتش لَاوْبْ ساخرًا)

لم أكن أعلم أي شيء عن أي شيء. هذا ما تقولونه جميعًا! لكنكم كلكم مجرمون! سأستأصل أمعاءكم من أجسادكم إلى أن تعترفوا بالحقيقة! من معكِ في الزنزانة؟

- لا أعرف اسم السيدة. أنا فقط أناديها بِيرْتَا.

- ومنذ متى موجودة معك هذه البِيرْتَا في الزنزانة؟

- منذ مساء أمس.

- إذًا فهي التي وشت لك بأمر آل هِفْكِه. فقط اعترفي بذلك يا سيدة جْفَانْجِل وإلا أحضرت بِيرْتَا إلى هنا وظللت أضربها إلى أن تعترف.

هزت السيدة جْفَانْجِل رأسها مجدَّدًا.

- سواء قلتُ الآن نعم أو لا يا سيدي المفتش.. (قالت السيدة جْفَانْجِل)

فستحضر بِيرْتَا إلى هنا وتضربها. ولا يمكنني القول إلا أنني رأيت السيدة هِفْكِه في الطرقة بالأسفل.

نظر المفتش في وجهها مبتسمًا مستهزئًا. وفجأةً صاح:

- أوساخ! كلكم أوساخ! ولن أرتاح قبل أن أجعلكم جميعًا ترقدون تحت الأرض مثل القمامة! يجب أن تُدفنوا جميعًا! كلكم! يا حرس أحضروا لي بِيرْتَا كوبكه إلى هنا!

أمضى ساعة في تخويف السيدتين وضربهما رغم أن السيدة بِيرْتَا كوبكه استسلمت فورًا قائلة إنها من أبلغت السيدة جْفَانْجِل عن السيدة هِفْكِه. فهي كانت -حتى تلك اللحظة- تشارك السيدة هِفْكِه زنزانتها. لكن المفتش لَاوْبْ لم يكتفِ بذلك. أراد أن يعرف كل كلمة بدقة، كل كلمة دارت بين السيدتين، وكل واحدة أفضت إلى الأخرى بمعاناتها مثلما تفعل النساء في العادة. لكنه كان يتشمَّم في كل شيء مؤامرة وخيانة عظمى ولم يتوقَّف عن الضرب والاستجواب. وأخيرًا جُرَّتْ كوبكه المنتحبة إلى القبو وبقيت آنًّا جْفَانْجِل بمفردها ضحيةً للمفتش لَاوْبْ. كانت منهكة لدرجة أنها صارت تسمع صوت المفتش كأنَّه قادم من مكان قصِيّ، وتلاشت صورته من ناظريها، ولم تعد الضربات تؤلمها.

- ما الذي حدث إذًا وجعل المدعوة عروس ابنكم لا تأتي لزيارتكم ثانية؟

- لم يحدث شيء. لم يكن زوجي يحب الزيارات.

- لكنك اعترفتِ أنه كان موافقًا على زيارة آل هِفْكِه!

- كان آل هِفْكِه استثناء لأن أُولْرِشْ أخي.

- ولِمَ لَمْ تأتِ تْرُودِل إلى منزلكم ثانية؟

- لأن زوجي لم يكن يريد ذلك.

- ومتى قال لها ذلك؟

- لا أعرف! سيدي المفتش، لا أقدر على المواصلة. دعني أرتاح لنصف ساعة. أو ربع ساعة!

- ليس قبل أن تقولي. متى منع الرجل الفتاة من دخول البيت؟

- عندما مات ابني.

- ها! وأين حدث ذلك؟

- عندنا في الشقة.

- وما السبب الذي قاله لتبرير ذلك؟

- أنه لا يريد هذه الصلة. سيدي المفتش، أنا فعلًا لا قدرة لديَّ. عشر دقائق فقط!

- حسن. بعد عشر دقائق نعطيك بعض الراحة. ما المبرر الذي ساقه زوجك كي لا تعود تْرُودِل إلى زيارتكم؟

- لأنه لم يكن يريد هذه الصلة. وكنا ننوي الشروع في كتابة البطاقات.

- يعني هذا أنه قال لها إن السبب في ذلك هو البطاقات؟

- كلا، لم يتحدَّث مع أي إنسان بهذا.

- ما السبب الذي قاله لها؟
- أنه لا يريد متابعة هذه الصلة. أوه يا سيدي المفتش!
- عندما تخبرينني بالسبب الحقيقي سأنهي استجواب اليوم فورًا!
- لكن هذا هو السبب الحقيقي!
- كلا، ليس هو! أرى بالفعل أنك تكذبين. إن لم تخبريني بالحقيقة سأظل أحقق معك عشر ساعات أخرى. ماذا قال إذًا؟ كرِّري عليَّ الكلمات التي قالها لتْرُودِل بَاوْمَان.
- لا أتذكرها. فقد كان غاضبًا للغاية.
- ولم كان غاضبًا للغاية؟
- لأني سمحت لتْرُودِل بَاوْمَان أن تنام إلى جواري.
- لكنه منعها عن ذلك بعدها، أم أنه طردها فورًا؟
- لا، تركها إلى الصباح.
- ثم في الصباح منعها؟
- نعم.
- ولم كان غاضبًا للغاية؟

لطمت السيدة آنا جْفَانْجِل نفسها.

- سأقول لك يا سيدي المفتش. فأنا لن ألحق الأذى بأحد جرَّاء ذلك. لقد كانت معي العجوز اليهودية رُوْزِنْتال مختبئة عندي ورأيتها لاحقًا تقفز من النافذة منتحرة. كان غاضبًا للغاية بسبب ذلك. ولهذا طرد تْرُودِل فورًا.
- ولم اختبأت رُوْزِنْتال عندكم؟

- لأنها كانت خائفة من البقاء وحدها في الشقة. كانت تسكن في الطابق الذي فوقنا. كانوا قد اعتقلوا زوجها. فخافت. سيدي المفتش، لقد وعدتني...

- حالًا. حالًا نفرغ. إذًا تْرُودِل بَاوْمَان كانت تعرف أنك خبأت يهودية؟

- لكن هذا لم يكن ممنوعًا.

- بالطبع كان ذلك ممنوعًا! الإنسان الآريُّ المحترم لا يخبئ خنزيرة يهودية، والفتاة المحترمة تذهب إلى الشرطة وتبلغ عن شيء كهذا. ماذا قالت تْرُودِل عن إخفائكم ليهودية في شقتكم؟

- سيدي المفتش. الآن لن أواصل الكلام. أنت تحوِّر كل كلمة أنطق بها. تْرُودِل لم تقترف ذنبًا، ولم تكن تعلم أي شيء!

- لكنها كانت تعلم أنَّ يهودية تبيت عندكم، كانت تعرف ذلك، أليس صحيحًا؟

- لم يكن هذا بالأمر السيِّئ!

- لنا رأي آخر في ذلك. في الغد سألقي القبض على تْرُودِل.

- أوه يا إلهي! ماذا فعلتُ ثانية! (انخرطت السيدة جْفَانْجِل في البكاء)

الآن حكمتُ على تْرُودِل بالتعاسة. سيدي المفتش، لا تمسَّ تْرُودِل، فهي الآن حُبلى!

- أَخْ! هذا ما تعرفينه الآن فجأةً مع أنك تدَّعين أنك لم تَرَيْ تْرُودِل منذ عامين! من أين تعرفين ذلك؟

- لكني أخبرتك بذلك فعلًا يا سيدي المفتش، قلت إن زوجي التقاها في الشارع.

- متى كان ذلك؟

- كان ذلك قبل بضعة أسابيع. سيدي المفتش لقد وعدتني بالحصول على راحة قصيرة. قصيرة من فضلك. فعلًا لم أعد أستطيع.

- لحظة أخرى أولًا! فسرعان ما نفرغ. من الذي بدأ الكلام؟ تْرُودِل أم زوجك؟ وأين اصطدما؟

- لم يصطدما.

- ألم يمنعها زوجك من زيارتكم في بيتكم؟

- لم تنزعج منه تْرُودِل لهذا السبب، فهي تعرف زوجي!

- إذًا أين التقيا؟

- أظن في شارع أليكساندر الصغير.

- وماذا كان يفعل زوجك في شارع أليكساندر الصغير؟ ألم تخبريني بأنه لا يذهب إلا إلى المصنع ومنه يعود؟

- هذا هو الوضع فعلًا.

- إذًا ماذا كان يفعل في شارع أليكساندر الصغير؟ ربما يضع بطاقة، أم ماذا يا سيدة جْفَانْجِل؟

- لا لا! (صاحت بذعر وشحب وجهها فجأةً)

- لقد كنت أنا من يوزع البطاقات دائمًا! أنا دائمًا وحدي، أما هو فَلم يوزع قَطُّ!

- ولم إذًا تحوَّل لونك فجأةً إلى الشحوب يا سيدة جْفَانْجِل؟
- لم يتحول لوني إلى الشحوب. بل تحول.. لأني في حال سيِّئة. قلت إنك تريد راحة يا سيدي المفتش!
- في الحال، بمجرد أن يتَّضح هذا الأمر. إذًا، زوجك وزَّع بطاقة وقابل تْرُودِل بَاوْمَان في أثناء ذلك؟ وماذا قالت هي عن البطاقات؟
- لكنها لم تكن تعلم شيئًا عن ذلك البتَّة!
- حينما التقى زوجك تْرُودِل، هل كانت البطاقة، في جيبه أم كان قد وزعها؟
- كان قد وزعها.
- أترين يا سيدة جْفَانْجِل، الآن نقترب من المسألة. الآن قولي لي فقط، ما قالته تْرُودِل بَاوْمَان عن البطاقة وسنُنهي اليوم.
- لكن لا يمكنها أن تقول شيئًا، لأنه كان قد وزع البطاقة قبل ذلك.
- فكري في هذا ثانية! فأنا أستطيع أن أرى أنك تكذبين. وإن ظَلَلت تردِّدين ذلك فستبقين جالسة هنا حتى صباح الغد. لماذا تعذبين نفسك بلا داعٍ؟ سأقول غدًا لتْرُودِل بَاوْمَان مباشرة إنها كانت تعلم بشأن البطاقات وهي ستعترف على الفور. لماذا إذًا تريدين أن تتسبَّبي في المتاعب يا سيدة جْفَانْجِل؟ ستكونين في غاية السعادة إن ظلت لديك قدرة للزحف حتى البُرش الخاص بك. إذًا ما الموقف يا سيدة جْفَانْجِل؟ ماذا قالت تْرُودِل بَاوْمَان عن البطاقات؟

- لا! لا! لا! (صرخت السيدة جْفَانْجِل وقفزت يائسة)

لن أقول كلمة أخرى! لن أشي بأحد! فلتقل ما تشاء، فلتضربني حتى الموت! لن أتحدَّث ثانية!

- عودي إلى مكانك في هدوء! (قال المفتش لَاوْبْ وسدد لليائسة عدة صفعات)

توقيت نهوضك، ومتى ينتهي الاستجواب أنا من يحدِّده. الآن نريد أن نُنهي الثرثرة حول المسألة المتعلِّقة بتْرُودِل بَاوْمَان. بعدما اعترفتِ لي توًّا أنها اقترفت الخيانة العظمى...

- لم أعترف بهذا! (صاحت المعذبة اليائسة)

- لقد قلت للتو إنك لا تريدين أن تشي بتْرُودِل! (قال المفتش بلا مبالاة)

والآن لن أدَعَكِ قبل أن تخبريني بما لا تريدين أن تشي به.

- أبدًا لن أقول، أبدًا!

- إذًا كما تريدين! أترين يا سيدة جْفَانْجِل.. أنت غبية! لا بد أن تقولي لنفسك إن كل ما أريد أن أعرفه سأعرفه في خمس دقائق غدًا من تْرُودِل بَاوْمَان بسهولة ويُسر. فسيدة حامل مثلها لن تتحمَّل استجوابًا كهذا. وحينما أعطيها بضع صفعات...

- لا ينبغي أن تضرب تْرُودِل! لا ينبغي أن تفعل ذلك! أوه يا إلهي الرحيم! ليتني لم أنطق باسمها قطٌّ!

- لكنك ذكرته! وستسهلين الأمر كثيرًا على تْرُودِل حينما تعترفين بكل شيء. والآن ما قولك يا سيدة جْفَانْجِل؟ ماذا قالت تْرُودِل عن البطاقات؟

ثم أضاف:

- أستطيع أن أعرف ذلك من تْرُودِل، لكن الآن أريدك أنت أن تخبريني. ولن أستسلم قبل أن تفعلي! عليك أن تعلمي أنك لست سوى قطعة من القذارة تجلس أمامي. ولتعلمي أن كل قراراتك بغلق فمك لا تساوي عندي إلا قمامة. ولتعلمي أنْ لا قيمة لك مطلقًا، لا أنت ولا كل كلامك عن الوفاء وعدم الوشاية. أنت لا شيء! والآن يا سيدة جْفَانْجِل، أراهن أنني خلال ساعة سأسمع من فمك عن علاقة تْرُودِل بالبطاقات. أتراهنين؟

- لا! لا! أبدًا!

لكن بالطبع سمع المفتش لَاوْبْ ما أراد، ولم يستغرق الأمر حتى الساعة.

52

آل هيزجزِل المكروبون

كان آل هيزجزِل يتنزَّهون لأول مرة بعد أن أجهضت تْرُودِل. ذَهَبَا إلى الشارع نحو جْرُونْهَايدِه ثم انعَطَفَا يسارًا في فرانكنفيج وتنزَّها على شاطئ بحيرة فلاكينزيه باتجاه هاويس فولترشلويزه.

سَارَا بتؤدة. ومن آن إلى آخر يلقي كارْلْ نظرة سريعة على تْرُودِل، التي كانت تسير إلى جواره منكسة رأسها.

- جميلة هي الغابة! (قال)

- أجل، إنها جميلة. (أجابت)

وبعد قليل صاح: انظرى البجعات على البحيرة!

- أجل. بجعات... (ثم لم تضف شيئًا)

- تْرُودِل.. (قال مهمومًا)

لم لا تتحدَّثين؟ لِمَ لَمْ يعد شيء يسعدك؟

- أفكر دائمًا في ابني المَيْت. (همست)

- أوه تْرُودِل، سيكون لنا كثير من الأبناء!

هزت رأسها: لن يصبح لي طفل ثانية أبدًا.

سألها مذعورًا: هل أخبرك الطبيب بهذا؟

- لا. ليس الطبيب. أشعر بذلك

- لا. لا ينبغي أن تفكري هكذا يا تْرُودِل. نحن ما نزال شبابًا، وسيكون لنا أطفال كثر.

ومرة أخرى هزت رأسها:

- أفكر أحيانًا، أن هذا كان عقابي.

- عقاب! علامَ يا تْرُودِل؟ ما الذي اقترفناه كي نُعاقب بهذا؟ لا، كانت مصادفة، مجرد مصادفة عمياء حقيرة!

- لم تكن مصادفة، كان عقابًا. (قالت بعناد)

لا ينبغي أن يكون لنا طفل. أفكر دائمًا في ما كان كلاوس أن يصبح عندما يكبر. شبيبة هتلر أم كتيبة العصف، أم الشرطة العسكرية...

- لكن، تْرُودِل! (صاح، مشدوهًا من الأفكار السوداء التي تُعذِّب نفسها بها)

لو أن كلاوس قُدِّرَ له أن يكبر، سيكون كل شأن هتلر قد انقضى. فهو لن يستمر طويلًا. ثقي بذلك!

- أجل. وماذا فعلنا كي يصبح المستقبل أفضل؟ لا شيء بتاتًا! بل أسوأ من لا شيء؛ لقد تخلَّينا عن القضية. أجدني أفكر كثيرًا الآن في جْرِيجُولَايْت وزُوْيِجْلِينْج... لهذا نحن معاقبان...

- أَخْ! ذلك الجْرِيجُولَايْت البائس! (قال غاضبًا)

لا يزال غضبه يتسعَّر على جْرِيجُولَايْت لأنه لم يحضُر لأخذ حقيبته بعد.

واضطُر هيرْجزِل أن يجدِّد بطاقة التسليم عدة مرات.

- أعتقد.. (قال)

أن جْرِيجُولَايْت قد اعتُقل من مدة. وإلا كنَّا سمعنا منه خبرًا.

- لو كان اعتُقل.. (قالت بتصميم)

فنحن نتحمل ذنبه؛ لقد تخلينا عنه.

- تْرُودِل! (صاح)

أنا أمنعكِ من مجرد التفكير في هذا الهراء! نحن لا نملك قدرات هؤلاء المتآمرين. ولقد كان قرارنا الوحيد الصائب هو أن نتوقف عن الانتماء إليهم.

- أجل.. (قالت بمرارة)

لكننا لدينا قدرات الجبناء والمتخاذلين! كنت تقول إن كلاوس ما كان ليُضطَرَّ أن ينتمي إلى شبيبة هتلر. لكن لو أنه غير مضطر، لو كان سيحب أبويه ويحترمهما، ماذا فعلنا له؟ ماذا قدمنا من أجل مستقبل أفضل؟ لا شيء!

- لا يمكن للجميع أن يلعبوا دور المتآمرين يا تْرُودِل!

- لا. لكن كان يمكن أن نتصرَّف بشكل مختلف. إن كان رجلٌ مُسِنٌّ مثل حماي السابق، أُوتُّو جْفَانْجِل... (ثم توقفت عن الكلام)

- والآن ما خبر أُوتُّو جْفَانْجِل؟ ماذا تعرفين عنه؟

- كلا، الأفضل ألَّا أخبرك بشيء على الإطلاق. كما أني وعدته. لكن إن كان حتى عجوز مثل أُوتُّو جْفَانْجِل يعمل ضد هذه الدولة، فإنني أشعر بالخزي لأن أيادينا مكتوفة!

- لكن ماذا يمكننا أن نفعل يا تْرُودِل؟ لا شيء! فكِّري في كل السلطة التي يمتلكها هتلر، وكلانا مجرد هباء منثور! لا شيء بوسعنا على الإطلاق!

- لو أن الجميع يفكِّرون مثلك، سيبقى هتلر في السلطة إلى الأبد. لا بد لأحدهم أن يبدأ الكفاح ضده.

- لكن ماذا يمكننا أن نفعل؟

- ماذا؟ كل شيء! يمكننا أن نكتب نداءات ونعلِّقها على الأشجار! أنت تعمل في مصنع للكيماويات وتدخل في كل غرفة بوصفك كهربائيًا. لا تحتاج إلا أن تُدير حنفية في اتجاه معاكس، أو أن تفُكَّ ترسًا قليلًا في مَكِنَة وبعدها سيخرب عمل عدة أيام. عندما تصنع شيئًا مثل هذا، وربما مئات الحالات الأخرى، سيرى هتلر أن أدوات حربه ناقصة.

- أجل، ويلقون القبض عليَّ في المرة التالية ويقتادونني مباشرة إلى المشنقة!

- هذا هو بالضبط ما أقوله دائمًا.. نحن جبناء. نفكِّر فقط في الضرر الذي سيقع علينا، ولا يعنينا ما سيحدث للآخرين. انظر يا كارْلِي، لقد سُرِّحت من جيش الدفاع. لكنك لو كنت لا تزال في الجندية، لتعرضت حياتك للخطر يوميًا، ولكنت وجدت ذلك طبيعيًا.

- ولعلي كنت حصلتُ على وظيفة مريحة عند أولئك البروسيين!

- وكنت ستسمح لآخرين بأن يموتوا لأجلك! كل شيء كما أقوله بالضبط. نحن جبناء، ولا نصلح لشيء!

- ذلك الدرج اللعين! (انفجر)

لو أنك لم تتعرَّضي للإجهاض لكنا واصلنا الحياة في سعادة!

- لا، لن تكون سعادة، لا سعادة حقيقيَّة يا كارْلِي! فقد ضعتُ بعد كلاوس، ومن حينها أفكر في مصير الصبي. ما كنت لأتحمَّل أن يمدَّ ذراعه اليمنى هاتفًا بحياة هتلر، ولم أكن أحب أن أراه في قميص بني. لو أننا احتفلنا مرة أخرى بنصر ما، لشهد كيف أن أبويه يعلقان راية الصليب المعقوف، ولعرف أننا كاذبان. الآن، على الأقل نحن لن نتعرض لذلك. ما كان ينبغي أن نحصل على كلاوس يا كارْلِي!

مضت وهلة من الصمت المعتم إلى جوارهما. كانا في طريق العودة إلى البيت، لكنهما لم يشاهدا بحيرة ولا غابة.

وفي النهاية سأل:

- هل أنت جادَّة حقًّا؟ هل يتعيَّن علينا فعلًا بدء كفاح؟ أيتعيَّن عليَّ أن أُحْدِثَ شيئًا في المصنع؟

- بالتأكيد. علينا أن نفعل شيئًا يا كارْلِي حتى لا نشعر بالخزي.

فكَّرَ لبعض الوقت ثم قال:

- لا أتمالك نفسي يا تْرُودِل عندما أتخيَّل كيف يمكن أن أتسلل وأخرب المَكِنَات، هذا أمر لا يليق بي.

- إذًا فكِّر في ما يناسبك! بالتأكيد سيخطر شيء ببالك. ليس من الضروري أن تعرفه الآن.

- وهل فكرتِ في ما ستفعلين أنت؟

- نعم. أعرف يهودية مختبئة. كان لا بد أن تنتقل. لكنها مختبئة عند أشخاص وتخشى الوشاية كلَّ يوم. سَأُؤْوِيْهَا عندنا.

- كلا! كلا، لا تفعلي هذا يا تْرُودِل! الناس تتعقَّب أخبارنا كما تعرفين، وشيء كهذا سيفتضح على الفور. ثم فكري في بطاقات التموين! فهي بالتأكيد لا تملك واحدة! ونحن لن نتمكن من إطعام إنسان إضافي من بطاقاتنا!

- حقًّا لا نستطيع؟ حقًّا لا نستطيع أن نجوع قليلًا كي ننقذ حياة إنسان من الموت؟ أَخْ كارْلِي! إن كان الوضع كذلك فيا لسهولة الوضع على هتلر! نحن إذًا لسنا سوى أوساخ وما يحدث لنا هو العدل بعينه!

- لكنها ستُشَاهَد في شقتنا الصغيرة! فالشقة أصغر من أن تسمح باختباء أي أحد. كلا، لن أسمح بذلك!

- لا أعتقد يا كارْلِي أن من حقك أن تسمح لي بشيء. فهي شقتي مثلما هي شقتك.

ثم دَخَلَا في نقاش حاد حول ذلك. لقد كان الخلاف الأول الحقيقي في زواجهما. قالت إنها ستُحضر السيدة حينما يكون هو في العمل، أما هو فأعلن أنه سيطردها على الفور.

- إذًا فلتطردني أنا أيضًا معها!

وَصَلَا إلى هذا الحد. كان كلاهما غاضبًا، ومتوتِّرا وحانقًا. ولم يَدَعَا المسألة تمر، لم يعد ثمَّة حلٌّ وسط. أَرَادَا فعل أي شيء ضد هتلر وضد الحرب. مبدئيًا أراد هو أيضًا أن يفعل شيئًا لكن بدون أن يجازف أدنى مجازفة، ورأى أمر اليهودية ببساطة محض جنون.

مَضَيَا صامتَيْنِ عبر شوارع إريكنر متوجِّهين إلى بيتهما. كان الصمت كثيفًا لدرجة صَعُبَ عليهما أن يقطعاه. لم يعلِّق أحدهما ذراعه في الآخر وسَارَا متجاورين بدون لمس. وعندما احتكت أيديهما بالمصادفة، سحب كل منهما يده بسرعة، وتضاعفت المسافة بينهما.

لم يلاحِظَا أنَّ سيارة كبيرة مغلقة تقف أمام بابهما. صعدَا الدرج ولم يلاحِظَا أنَّ عيونًا كانت تتطلَّع إليهما بفضول أو بخوف من وراء كل باب. فتح كارْلْ هيرْجزِل باب الشقة وسمح لتْرُودِل أن تدخل قبله. حتى في الردهة لم يلاحِظَا أيَّ شيء. فقط عندما وَجَدَا الرجل القصير جالسًا في غرفة المعيشة مرتديًا الجاكت الأخضر انتفضَا.

- من هناك؟ (قال هيرْجزِل ممتعضًا)

ماذا تفعل هنا في شقتي؟

- المفتش الجنائي لَاوْبْ من المخابرات، برلين.

قدم الرجل نفسه. كان يعتمر قبَّعة الصياد التي تحوي الريشة رغم جلوسه في غرفة المعيشة.

- السيد هيرْجزِل، أليس كذلك؟ السيدة جِيرْتُرُود هيرْجزِل، لقبك بالميلاد «بَاوْمَان»، واسمكِ تْرُودِل؟ جميل! أريدُ أن أتحدَّث قليلًا مع زوجتك يا سيد هيرْجزِل. ربما تنتظرنا قليلًا في المطبخ؟

نظر كل منهما إلى الآخر وقد اعتراهما الشحوب من الذعر. ثم ابتسمت تْرُودِل فجأةً.

- حسن إلى اللقاء يا كارْلِي! (قالت له وعانقته)

إلى لقاء طيب! كم كنا حمقى ونحن نتشاجر! تأتي الأمور دائمًا مغايرة للمتوقع!

تنحنح المفتش معلنًا نفسه. لكنهما تبادَلَا القبلات، وذهب هيرْجزِل.

- لقد ودَّعتِ زوجك للتوِّ يا سيدة هيرْجزِل؟

- لقد تصالحتُ معه، كنا قد تشاجرنا.

- ولم تشاجرتما؟

- بسبب زيارة إحدى عماتي؛ كان ضد هذه الزيارة وكنت أرحب بها.

- ومنظري جعلكِ تتنازلين؟ غريب، إذ لا يبدو ضميركِ نظيفًا هكذا! لحظةً من فضلكَ! ابقَ هنا!

سمعَتْهُ يتحدَّث في المطبخ مع كارْلِي، ربما سيعطي كارْلِي سببًا مختلفًا للشجار، لقد سار هذا الأمر خاطئًا منذ اللحظة الأولى. ولقد فكَّرتْ توًّا في جْفَانْجِل. لكنَّ جْفَانْجِل لا يبدو من عينة الناس التي تشي بغيرها.

عادَ المفتش. قال.. يَحُكُّ يديه من الرضا:

- أوضح زوجك أنكما تشاجرتما بخصوص تبنِّي طفل. هذه هي الكذبة الأولى التي أمسكتُها عليكِ. لا تخافي، فلنصف ساعة سيتوالى كثير من كذباتك، وسوف أمسكها كلها عليك! هل تعرضتِ للإجهاض؟

- نعم.

- هل ساعدتِ في ذلك أم ماذا؟ كي لا يحصل القائد على مزيد من الجنود للحرب أم ماذا؟

- الآن أنت الذي يكذب! لو أنني أردت شيئًا كهذا ما كنت لأنتظر حتى الشهر الخامس!

دخل رجل وفي يده ورقة.

- سيدي المفتش، كان السيد هيزْجزِل يريد أن يحرقها الآن في المطبخ.

- ما هذا؟ إيصال إيداع؟ سيدة هيزْجزِل ما هذه الحقيبة التي أودعها زوجك في محطة أليكساندربلاتس؟

- حقيبة؟ لا فكرة لديَّ، لم يخبرني زوجي عنها أي كلمة!

- اِجلِب الهيزْجزِل إلى هنا! وليذهب رجلٌ فورًا إلى أليكساندربلاتس ليجلب الحقيبة!

رجل ثالث أحضرَ كارْلْ هيزْجزِل إلى الغرفة. امتلأت الشقة عن آخرها برجال الشرطة. لقد اقتِيدُوا عميانًا إلى الفخ.

- ما هذه الحقيبة يا سيد هيزْجزِل، تلك التي أودعتها في محطة أليكساندربلاتس؟

- لا أعلم ما فيها. هي لأحد معارفي. قال إن فيها غسيله وملابسه.

- احتمال كبير! ولهذا أردتَ أن تحرق الإيصال عندما لاحظت أن الشرطة في الشقة!

تردَّد هيزْجزِل، ثم قال بعد نظرة خاطفة على زوجته:

- لقد فعلت هذا لأني لا أثق بهذا الرجل تمامًا. فلربما الحقيبة تحوي شيئًا آخر. فالحقيبة ثقيلة جدًّا.

- وماذا في رأيك قد يكون في الحقيبة؟

- ربما منشورات. لقد بذلتُ جهدًا كبيرًا كي لا أفكر في ذلك.

- ومَن هذا المَعْرِفَةُ العجيبُ الذي لم يضع حقيبته بنفسه؟ هل يا ترى اسمه كارْلْ هيرْجزِل؟

- كلا، اسمه شْمِيتْ، هَايْنْرِيش شْمِيتْ.

- ومن أين تعرف ذلك المدعوَ هَايْنْرِيش شْمِيتْ؟

- أعرفه منذ زمن طويل، منذ عشر سنوات على الأقل.

- ومن أين جاءتكَ فكرة أن الحقيبة قد تحوي منشورات؟ ما عَمَلُ ذلك الـ«إيمِيلْ شُولْتْس»؟

- هَايْنْرِيش شْمِيتْ. كان من الاشتراكيين الديموقراطيين، أو الشيوعيين. ولهذا خطرت في بالي فكرة أنها ربما تكون منشورات.

- أين ولِدتَ حقًّا يا سيد هيرْجزِل؟

- أنا؟ هنا في برلين. في برلين - مُوَابيت.

- ومتى؟

- في العاشر من أبريل 1920.

- حسنٌ، والسيد هَايْنْرِيش شْمِيتْ تقول إنك تعرفه منذ عشر سنوات وتعرف توجُّهه السياسي! هذا يعني أنك كنت في الحادية عشرة من العمر يا سيد هيرْجزِل! لا تظنَّ أني أحمق لدرجة تقبُّل هذا

الهراء، لأن هذا يجعلني غير مرتاح، وعندما أصبح غير مرتاحٍ ستتألم فورًا!

- لم أكذب! كل ما قلته حقيقي.

- الاسم هَايْنْرِيش شْمِيتْ: الكذبة الأولى! محتوى الحقيبة لم تره قطٌّ: الكذبة الثانية! سبب إيداع الحقيبة: الكذبة الثالثة! لا، عزيزي السيد هيرْجزِل، كل جملة قلتَهَا كذب!

- كلا، كل ما قلتُه حقيقي. السيد هَايْنْرِيش شْمِيتْ كان يريد السفر إلى كونيجزبيرج، ولأن الحقيبة كانت ثقيلة عليه، ولم يكن في حاجة إليها في رحلته، رجاني أن أسلمها في المحطة. هذه هي كل الحكاية!

- وهل الأمر يستحق أن يسافر إلى إيركنر ليجلب منك الإيصال فيما يستطيع هو أن يحمله في جيبه؟ احتمال كبير! (أكمَلَ باستهزاء) قصتك كلها تبدو مرجحة يا سيد هيرْجزِل! لا، نريد أن نضع هذه المسألة جانبًا. إذ يبدو أننا سنتحدَّث عنها كثيرًا، أظن أنك ستكون لطيفًا وتصحبني إلى الجيستابو. أمَّا في ما يخصُّ زوجتك...

- زوجتي لا تعلم شيئًا عن حكاية الحقيبة بتاتًا!

- هي تقول ذلك أيضًا. لكن ما تعلمه وما لا تعلمه هذه مسائل سأعرفها كلَّها. لكن -بما أنكما يا عصفوران مجتمعان- هل يعرف بعضكما بعضًا منذ عملكما في مصنع الملابس الرسميَّة؟

- نعم. (قَالَا)

- كيف كانت الحال هناك، وماذا اقترفتما؟

- كنت عاملَ كهرباء.

- كنت أخيط الملابس الحربية.

- جميل جدًّا، جيد جدًّا، أنتما تنتميان إلى الناس المجتهدين. لكن ماذا كنتما تفعلان حينما لم تكونا تقُصَّان قماشًا أو تسحبانِ خيطًا يا عصفورَيَّ الجميلينِ؟ هل كوَّنتُما -على سبيل المثال- خلية شيوعية جميلة، كلاكما، وشخصٌ اسمه يَنِشْ، المشهور بزُوْيِجْلِينْج، وجْرِيجُولَايْت؟

نَظَرَا إليه وقد اعتلى وجهيهِما علامات الشحوب. كيف عرف الرجل ذلك؟ تبادلا نظرة عجز.

- أجل أجل! (ضحك لَاوْبْ ساخرًا)

تبدوان مرتبكين، صح؟ لقد كنتما تحت الملاحظة، أنتم الأربعة، ولولا أنكما لم تنفصِلا بسرعة لكنت قد تعرفت عليكما في توقيت أبكر. كما أنكَ لا تزال تحت الملاحظة في مصنعكَ هنا يا سيد هيرْجزِل!

كانا في غاية التشوُّش لدرجة منعتهما من الاعتراض على الرجل. حدَّق إليهما ممعنًا التفكير، وفجأةً خطرت ببال المفتش فكرة:

- لمن الحقيبة يا سيد هيرْجزِل؟ (سأل)

جْرِيجُولَايْت أم زُوْيِجْلِينْج؟

- لا.. أَخْ! لا فرق، ما دُمتَ تعرف كل هذا، حسن، إنها لجْرِيجُولَايْت هو الذي ورطني فيها. كان ينوي استعادتها بعد أسبوع، لكن مر وقت طويل على ذلك...

- مَلِصَ ذلك الجْرِيجُولَايْت! والآن سأمسك به. بالطبع إن كان لا يزال على قيد الحياة!

- سيدي المفتش، أريد أن أثبت أنني وزوجتي.. منذُ خرجنا من الخلية لم نشترك في أي عمل سياسي. أجل لقد كنَّا نحن السبب في انهيار الخلية قبل أن يُعْمَلَ أيٍّ شيء. فلقد لاحظنا أننا لا نصلح لشيء كهذا.

- أجل لقد لاحظت نفس الملاحظة! أنا أيضًا! (تهكَّم المفتش) لكن كارْلْ هيرْجزِل واصل غير منزعج:

- منذ ذلك الحين لم نعد نفكِر إلَّا في عملنا، ولم نقترف أي شيء ضد الدولة.

- فقط ما يخص الحقيبة. لا تنسَ مسألة الحقيبة يا هيرْجزِل! إيداع منشورات شيوعية، هذه خيانة عظمى، ستكلفك رأسك الصغير يا عزيزي! سيدة هيرْجزِل! سيدة هيرْجزِل! ما الذي يوترك هكذا؟ فَابْيَان، أَبعِد الشابة عن زوجها، لكن بمنتهى الرقة، فَابْيَان.. بحقِّ الله! فَابْيَان.. لا توجع قلبها الصغير! فقد عانت الإجهاض، تلك الحلوة الصغيرة، لا تريد أن تجلب للقائد مزيدًا من الجنود!

- تْرُودِل! (توسل هيرْجزِل)

لا تصغي إلى ما يقول. ليس بالضرورة أن تحوي الحقيبة منشورات، هذا ما كنت أفكر فيه أحيانًا. ربما تحوي فعلًا ملابس، ليس من الضروري أن يكون جْرِيجُولَايْت قد كذب عليَّ!

- عندكَ حق أيها الشاب. (أثنى المفتش لَاوْبْ)

أعطِ الشابة بعض الشجاعة! هل فرغنا يا قلبي الصغير؟ هل يمكن أن نواصل الدردشة؟ والآن نريد أن ننتقل من موضوع الخيانة العظمى التي اقترفها كارْلْ هيرْجزِل إلى الخيانة العظمى التي اقترفَتْها تْرُودِل هيرْجزِل.

- زوجتي لم تكن تعلم أي شيء عن هذه الأمور! زوجتي لم تفعل أي شيء مطلقًا ضد القانون!

- لا، لا فأنتما نازيّان مثاليان! (وفجأةً اعترى المفتش لَاوْبْ الغضب)

أتعلمان ما أنتما؟ أنتما خنزيران شيوعيّان جبانان! جُرذان تعيثان في الظلام! لكني سأسلط عليكما الأضواء، سأعلقكما على المشانق! سأراكما تتأرجحان على المشنقة! أنتَ وحقيبتك الملأى بالأكاذيب! وأنتِ بجنينك المجهض! لقد قفزتِ من فوق تلك الطاولة إلى أن دَقَقْتِ عنقه! أليس هذا ما حدث؟ أليس هذا ما حدث؟ قولي «بلى»!

أمسك تْرُودِل وهزَّها وهي تكاد تفقد وعيها.

- دع زوجتي في حالها! لا يجب أن تمس زوجتي!

أمسكَ هيرْجزِل بالمفتش. فعاجَلَتْهُ ضربة من قبضة فَابْيَان. بعدها بثلاث دقائق جلس موثق اليدين، يراقبه فَابْيَان، في المطبخ، ويعرف -وفي صدره يعتمل قنوطٌ وحشيٌّ- أنَّ تْرُودِل رهن يد الجلاد بدون أي عون منه.

واصل لَاوْبْ تعذيب تْرُودِل بكلامه. هي التي -بسبب خوفها على كارْلِي زوجها- كادت تصير مخبولة، عليها الآن أن تدلي بإفادتها

بشأن آل جْفَانْجِل. لم يصدِّق أنها قابلته بالمصادفة، فلقد كانت دائمًا على علاقة بآل جْفَانْجِل، قطيع شيوعي متآمر وجبان، وزوجها كازْلِي كان على علم بذلك أيضًا!

- كم من البطاقات إذًا وضعتم؟ ماذا كتبتم عليها؟ وماذا قال زوجك عن هذا؟

وهكذا واصل تعذيبها، ساعة بعد ساعة، فيما هيزْجزِل يجلس يائسًا في المطبخ، وفي قلبه يستعر الجحيم.

وأخيرًا حضرت السيارة، والحقيبة، وحان وقت فتح الحقيبة.

- افتح لي هذا الشيء يا فَابْيَان!

وكان كارْل هيزْجزِل قد أعيد إلى الغرفة تحت المراقبة. وعبر الغرفة ورغم المسافة بينهما نظر كِلَا الهيزْجزِل بعضهما إلى بعض يائسَيْنِ.

- ثقيلة جدًّا على الغسيل والملابس! مكتبة ياسمين

قال المفتش متهكمًا فيما يمسك فَابْيَان خطافًا ويعبث بقفلها.

- والآن سيتاح لنا أن نطَّلِعَ على السَّلَطَة! سيكون الوضع -كما أخشى- محرجًا لكليكما، أم ماذا يا هيزْجزِل؟

- زوجتي لا علم لها مطلقًا بهذه الحقيبة يا سيدي المفتش! (أكَّد هيزْجزِل مرة أخرى)

- أجل، وأنت لم تكن تعلم أن زوجتك توزع البطاقات التي يكتبها آل جْفَانْجِل بكل ما تحوي من خيانة عظمى في مناوِر العمارات! كل واحد منكما خائن! لكن عليَّ أن أقول إنها زيجة مباركة!

- كلا! (صاح هيزْجزِل)

كلا! أنت لم تفعلي ذلك يا ترُودِل! قولي إنك لم تفعلي ذلك يا ترُودِل!

- لكنها اعترفت بفعلتها!

- مرة واحدة فقط يا كازِلي، وكانت محض مصادفة...

- أمنع أن يدور أي حديث بينكما! لو نطقتَ بكلمة أخرى سأعيدك إلى المطبخ ثانية يا هيزْجزِل! ها، هل فتح ذلك الشيء؟ وماذا لدينا فيه؟

وقف مع فَابْيَان أمام الحقيبة بحيث لا يرى آل هيزْجزِل محتويات الحقيبة. وتهامس كلا الموظفين الجنائيين. ثم حمل فَابْيَان الحِمل الثقيل تحت الضوء. مَكِنَة صغيرة، صواميل لامعة، ريش، سواد يومض...

- مَكِنَة طباعة! (قال المفتش لَاوْبْ)

مَكِنَة طباعة جميلة؛ لطباعة منشورات شيوعية تحريضية. هذا ينهي قضيتكما يا هيزْجزِل. لليوم وإلى الأبد!

- لم أكن أعلم ما في الحقيبة.

اعترض كارْلْ هيزْجزِل، لكنه كان مذعورًا لدرجة أن صوته خرج ضعيفًا.

- كأنَّ كلَّ هذا يشكِّل فارقًا! لقد كان واجبًا عليكَ أن تبلغ عن جْرِيجُولَايْت وتسلِّم الحقيبة! سننهي الأمر الآن هنا يا فَابْيَان. أغلق الحقيبة ثانية. لقد عرفتُ ما يكفي، بل أكثر مما يكفي. كذلك السيدة قيدوها.

- كن بخير يا كارْلِي! (صاحت تْرُودِل هيرْجزِل بصوت قوي)

الوداع يا حبيبي. لقد جعلتني سعيدة جدًّا...

- أَخْرِس فم السيدة! (صاح المفتش)

ما هذا يا هيرْجزِل؟

تملَّصَ كارْلْ هيرْجزِل من حارسه حين رأى على الناحية الأخرى من الحجرة قبضة خشنة تغلق فم تْرُودِل. ورغم أنه كان موثق اليدين نجح أن يُوقع معذِّب تْرُودِل على الأرض. وانقلب كلاهما على الأرضية.

غمز المفتش بعينه لفَابْيَان. فوقف أمام المتشاجر، انتظر، ثم ضرب كارْلْ هيرْجزِل ثلاثَ.. بل أربع مرات على رأسه.

صاح هيرْجزِل من الألم، وارتعشت مفاصله، ثم رقد ساكنًا عند قدمي تْرُودِل. كانت تنظر إليه بلا حراك، وكان فمها ينزف دمًا.

وطوال الرحلة الطويلة إلى المدينة ظلت تأمَلُ أن يفتح عينيه مرة أخرى، لكن بلا جدوى، كانت تريد أن تنظر إليه في عينيه مرة أخرى. لكن لا، لم يحدث شيء من هذا.

لم يفعلا شيئًا على الإطلاق. ورغم ذلك ضَاعَا.

53

حِفلُ أُوتُو جفَانجِل الأثقَل وطأة

طوال التسعة عشر يومًا التي اضطُر أُوتُّو جْفَانْجِل إلى قضائها في قبو الجيستابو قبل أن يُسلَّم إلى قاضي التحقيقات في محكمة الشعب، لم تكن استجوابات المفتش لَاوْبْ أصعب ما يتعيَّن تحمله، رغم أن هذا الرجل كان يستخدم قوته التي لا يستهان بها كي يكسر مقاومة جْفَانْجِل كما قال. وكان هذا لا يعني أكثر من أنه يستخدم كل قوته المنكرَة ليجعل سجينه لا يفعل شيئًا سوى الصراخ، أن يصير خائفًا بلا قيمة.

لم يكن قلقه المتزايد على زوجته آنَّا ما يفتِّت أعصاب أُوتُّو جْفَانْجِل، فهو لم يكن يراها ولم يسمع أيَّ خبر عنها بشكل مباشر. لكن بمجرد أن لفظ المفتش لَاوْبْ اسم تْرُودِل بَاوْمَان -كلا، تْرُودِل هيرْجزِل- عرف أن زوجته استسلمت للإرهاب، وخُدِعَت، وأن الاسم انسَلَّ منها، رغم أنها لم يكن ينبغي أن تنطق به قطُّ.

ولاحقًا، عندما ظهر بشكل أوضح أن تْرُودِل بَاوْمَان وزوجها قد اعتُقِلا، وقيل إنهم سُحبوا إلى تلك الدوامة، ظل يتعذب بالتفكير في زوجته ساعات طويلة. لقد كان فخره دائمًا في هذه الحياة، أن يكون إنسانًا يعيش لنفسه فقط، لا يحتاج إلى الآخرين، وألا يكون ثقيلًا عليهم، والآن بسبب ديونه -لأنه كان يشعر بالمسؤولية الكاملة عن آنَّا- جرَّ اثنين من الشباب إلى هذه المسألة.

لكن ثِقلَ التفكير لم يستمر طويلًا وحل محلَّه الحزن والقلق على شريكة حياته. وكان يضغط على أظفاره في الصحن، يغمض عينيه ويستجمع كل قوته، ثم يفكِر في آنًا، يحاول أن يتخيل حالها في زنزانتها، وكان يرسل إليها تيارات من القوة، لكي يعطيها الشجاعة، كي لا تنسى كرامتها، ولا تُذِلَّ نفسها أمام هذا التعس الذي لم تبقَ داخله أي ذرة إنسانيَّة.

لقد كان تحمُّل القلق على آنًا صعبًا، لكنه لم يكن أصعب شيء.

كما لم يكن أصعب شيء هو المداهمات اليومية لزنزانته من رجال الشرطة العسكرية السكارى وقُوَّادهم الذين يطلقون اللجام لغضبهم وتعذيبهم على ذلك الأعزل. إذ تقريبًا يوميًّا يدفعون الباب ويقتحمون الزنزانة بعد أن يحولهم الكحول إلى حالتهم البريَّة، لا يتملكهم إلا التعطُّش إلى رؤية الدماء، وتعذيب إنسان، ومراقبته وهو يذوي، وأن يبنوا قوتهم على ضعف لحم إنسان آخر. كان هذا أيضًا صعبًا احتماله، لكنه لم يكن أصعب شيء.

الأصعب تمثَّل في أنه لم يكن بمفرده في الزنزانة، بل معه مرافق، رجل من المفترض أنه شريك في المعاناة، والمفترض أنه مدان مثله، بَيْدَ أنه كان إنسانًا يقشعر منه بدن جْفَانْجِل. إذ هو أقرب إلى حيوان مُقْذِع بلا قلب، جبان، يرتجف، خشن، إنسان لم يكن جْفَانْجِل قادرًا على النظر إليه بدون أن يستشعر تقزُّزًا عميقًا تجاهه، وكان رغم ذلك مضطرًّا أن يحسن معاملته لأن الرجل كان أقوى كثيرًا من الحِرفيِّ العجوز.

كارْلْ تْسِمْكِه، يسمِّيه الحراس كارْلْشن أي كارْلْ الصغير، تقريبًا رجل في الثلاثين، ذو بنية ضخمة كأنه هرقل، ورأس مستدير كأنه كلب بولينبايسر*، يحوي عينين صغيرتين للغاية، وله ذراعان طويلتان يغطيهما شعر كثيف، وجبينه المنخفض المُحدَودِب تغطِّيه مسحة من شَعر كالزغب، وتنتشر عليه ثنيات طولية كالخصلات الجعدة. كان قليلًا ما يتحدَّث، والقليل الذي يقوله كان فقط جَأرًا بالشكوى والقتل. وعرف جْفَانْجِل لاحقًا -من كلام الحراس- أن كارْلْشن تْسِمْكِه كان في السابق عضوًا بارزًا في الشرطة العسكرية، ذا مهمة استثنائية (جلَّاد اغتال من الناس عددًا غير معروف) بمخالبه المشعَّرة تلك، ولا كارْلْشن نفسه يعرف عددهم.

لكن حتى بالنسبة إلى قاتل محترف في هذه الأجواء التي يزدهر فيها القتل، لم يكن ثمة من يكفي قتلهم. وهكذا كان يتوجَّه -في الأوقات التي لا يتلقَّى فيها من رؤسائه تعليمات بالقتل- إلى القتل أيضًا، وكان لا يتورعٍ أن يأخذ من ضحاياه نقودًا وأشياء ثمينة، رغم أن السرقة لم تكن قطُّ السبب في جرائمه، لكن شهوة القتل فقط. وأخيرًا قُبض عليه لأنه لم يعد يكتفي بقتل اليهود وأعداء الشعب وأشباههم من الطرائد، لكنه اتجه أيضًا إلى الآريِّين الذين لا تشوبهم شائبة، ومنهم حتى عضوٌ في الحزب، ولهذا أُوْدع السجن، ولم يكن واضحًا مصيره.

* من فصيلة البولدوج. (المترجمة)

كارْلْ تْسِمْكِه الذي أرسل كثيرين إلى الموت بدون أن تضطرب ضربات قلبه، كان خائفًا على حياته الغالية، وفي رأسه الذي لم يكن يحوي أي أفكار، مثل طفل في الخامسة، لكنه يحوي كثيرًا من الشر، تراءت له فكرة أنه يمكن أن ينقذ نفسه من عواقب أفعاله إن مثَّل دور المجنون. فرسم لنفسه دور الكلب، أو لعل الفكرة وضعت في رأسه بواسطة أحد رفاقه، وعلى الأرجح أن هذا ما حدث فعلًا، وأنه ينفذ هذا الدور جيِّدًا.

فهو غالبًا يركض على قوائمه الأربعة عاريًا تمامًا في الزنزانة، وينبح مثل الكلب، ويأكل من طبقه مثل الكلب، وكثيرًا ما يعض جْفَانْجِل في ساقيه. أو يسأل الحِرفيُّ العجوز أن يلقي إليه بفرشاة لساعات طويلة، يمسكها كارْلْشن، ثم يكون على جْفَانْجِل أن يربت عليه ويمتدحه. أو أن يكون عليه أن يمسك بسراويل كارْلْشن ويؤرجحها مثل حبل القفز، ليقفز عليها كارْلْشن لساعات طويلة بلا انقطاع.

ولو أن الحِرفيَّ لم يَبْدُ عليه الحماس الكافي، لهاجَمَهُ «الكلب»، وطرحه أرضًا، وأمسك رقبته كما يمسك الكلب بأسنانه، ومطلقًا لم يكن واثقًا بأن اللعبة لن تنقلب إلى الجد. كان الحراس يتمتعون بحماقات كارْلْشن متعة كبيرة. وكثيرًا ما كانوا يقفون على باب الزنزانة يحمِّسون الكلب، فيزيدون من حدَّته، ويضطر جْفَانْجِل أن يقبل كل ما يُفعل به. أما حين يقتحمون الزنزانة في غضبهم المخمور من أجل أن ينفِّسوا عنه في وجه المسجونين، كانوا يطرحون كارْلْشن أرضًا، وكان يمد ذراعيه على الأرض ويتوسل إليهم أن ينتزعوا أحشاءه من بدنه.

حكم على جْفانْجِل أن يقضي أوقاته مع هذا الرجل، يعيشان معًا يومًا بعد يوم، ساعة في أثر ساعة، ودقيقة بدقيقة، وصار مستحيلًا أن يحصل على ربع ساعة فقط مع نفسه. حتى في الليل، حينما ينشد النوم المُعَزِّي، لم يكن في مأمن من مُعذِّبه. فجأةً يجده متربعًا على فراشه، واضعًا مخالبه على صدر جْفَانْجِل طالبًا ماء أو مكانًا في فراشه. فيتحتم عليه أن ينكمش جانبًا، يهز نفسه من تقزُّزه من ذلك الجسد الذي لم يُغسل قط، وكان مشعرًا مثل جسد حيوان، لكنه لا يملك أي شيء من نقاء الحيوانات وبراءتها. وبعدها ينبح كارْلْشن ثم يبدأ في لعق وجه أُوتُّو جْفَانْجِل، يبدأ بالوجه ثم يكمل لعق سائر بدنه.

نعم، كان صعبًا احتمالُ ذلك، وكثيرًا ما سأل أُوتُّو جْفَانْجِل، لِمَ يتحمل كل ذلك والنهاية مؤكدة، النهاية القريبة. لكنَّ مقاومةً داخله تمنعه أن يطفئ نفسه بنفسه، وأن يترك آنًّا، التي لم يعد يراها. كانت مقاومةٌ داخله تمنعه أن يسهل الأمر عليهم، وأن يستبق حكم المحكمة. سيحرمونه حق الحياة، سيسلبوه إياها، بحبل أو مقصلة، سِيَّان. لا ينبغي أن يفكِّروا أنه شعر بالذنب. كلا، لن يوفر عليهم شيء، ولهذا فلن يوفر شيئًا على كارْلْشن تْسِمْكِه.

لقد كان الأمر غريبًا؛ كلما تقدمت الأيام التسعة عشر، بدا الكلب أكثر خضوعًا، لم يعد يعضه، ولا يطرحه أرضًا، ولا يتنازع معه. ولما أعطاه مرة زملاءه من الشرطة العسكرية طعامًا أفضل، تقاسمه معه، وكثيرًا ما وضع رأسه المدور في حجر الرجل العجوز، وتأوَّه بصوت خفيض، فيما تتخلل أصابع أُوتُّو جْفَانْجِل شعره.

وصار الحِرفيُّ يسأل نفسه كثيرًا، إن كان هذا الحيوان لم يُصَبْ بالجنون فعلًا من طول ادعائه الجنون. لكن إن كان هذا حقيقيًا، فالمجنون هم زملاؤه «الأحرار» في طرقات القبو. ورغم أن هذا لا يغير شيئًا، فهم صاروا جميعًا مع زعيمهم المجنون، وقائدهم هيملر المبتسم دائمًا ببلاهة، جنسًا تنبغي إزالته عن وجه البسيطة، كي يتمكّن العقلاء من العيش.

وعندما أُعلن أن أُوتُّو جْفَانْجِل سينتقل أصبح كارْلْشن في غاية التعاسة. عَوَى وأجهش، وألقم جْفَانْجِل خبزه كله، وعندما اضطر جْفَانْجِل أن يخرج إلى الطرقة بذراعين مرفوعتين ويضغط وجهه على الحائط، انسلَّ الرجل العاري على قوائمه الأربعة من الزنزانة وجلس إلى جواره وعوى بصوت خفيض كله أنين. وكان لهذا أثر طيب، لدرجة أن حتى رجال الشرطة العسكرية الخشنين لم يعودوا يتعاملون مع جْفَانْجِل بفظاظة مثل تعاملهم مع سائر السجناء الذين تعيَّن نقلهم. فرجل اكتسب خضوع كلب مثل هذا، ذلك الرجل صاحب وجه الطائر البارد العابس كان يترك انطباعًا حتى على هؤلاء الجلادين.

وحين قيل «أفسِح مكانا!» وعندما اقتيد الكلب كارْلْشن إلى زنزانته مرة أخرى، لم يكن وجه جْفَانْجِل باردًا وعابسًا، بل استشعر في قلبه بعض الثقل، مثل الندم. فالرجل الذي في حياته كلها لم يتعلَّق قلبه إلا بإنسان واحد هو زوجته، لم يسعد بتوديع القاتل الذي سفك دماء كثيرين، ذلك البهيمة في إهَابٍ بشري، خارج حياته.

54

آنّا خفانجِل وترُودِل هيزجزِل

ربما ليس إلا من قبيل الإهمال أنْ حصلت آنّا جْفَانْجِل على ترُودِل هيزْجزِل شريكةً لها في الزنزانة بعد وفاة بِيرْتَا. ربما السبب أنهما لم تكونَا مُهِمَّتَيْنِ من الأساس عند المفتش لَاوْبْ. كان من الممكن أن يعتصر الواحدُ منهما ما يريد معرفته، وما علِمَتَاه من زوجيهما، ثم صارَتَا مقضيًّا عليهما. المجرمون الحقيقيون كانوا دائمًا الرجال، أما النساء فلسن سوى تابعات لهم، وهو أمر لم يمنع أن يُشنَقنَ مع أزواجهن.

أجل لقد ماتت بِيرْتَا، تلك البِيرْتَا التي -بكل بساطة- وَشَتْ لآنّا بأمر خطيبة ابنها وجعلت بذلك المفتش لَاوْبْ ينهال على رأسها. أُطفِئَت مثلما يُطفأ النور. كانت بين ذراعي آنّا جْفَانْجِل، وهي تضعف وتذوي تدريجيًا، وبصوت يزداد خفوتًا توسَّلَت إلى شريكتها في الزنزانة كي لا تنادي أحدًا. بِيرْتَا، مثلما سيظل اسمها، وبغض النظر عن الجريمة التي اقترفتها، سكنت فجأةً.

مرة واحدة فقط تحشرج حلقها، وجاهدت من أجل بعض الهواء، ثم سال تيار من الدم، نزيفُ دمٍ على دم، ثم انحلَّت الذراعان المتشبِّثتان بآنّا.

هٰا هي ذي راقدة، شاحبة للغاية وساكنة للغاية. وسألت آنَّا الممتلئةُ غمًّا إن كانت تتحمَّل جزءًا من الذنب عن هذه النهاية. ليتها لم تذكر خطيبة ابنها للمفتش! ثم فكرت في تْرُودِل بَاوْمَان، تْرُودِل هيرْجزِل، وبدأت ترتجف؛ لقد وشت بها فعلًا! بالتأكيد بالتأكيد، أي أسف يكفي! كيف كان لها أن تدرك أن ينجم كل هذا الشقاء من مجرد ذكر اسم فتاة كانت عروس أُوتُّو الصغير؟! لكن المسألة تطورت لخطواتٍ أبعد، وأخيرًا صارت الوشاية واضحة، وتسبَّبت في إتعاس إنسان تعلَّق قلبها به، بل ربما لا يكون إنسانًا واحدًا فقط.

عندما تفكِّر آنَّا جْفَانْجِل في ذلك، أن عليها أن تنظر في عين تْرُودِل وعليها أن تعيد الكلمات التي وشت بها.. كانت ترتجف. لكنها عندما تفكِّر في زوجها، تشعر بالقنوط. ثم تقتنع أن هذا الرجل العادل ذا الضمير اليقظ لن يسامحها أبدًا على هذه الوشاية، وأنها قبل نهايتها الوشيكة ستفقد رفيقها الوحيد في الحياة.

«كيف كنتُ ضعيفة إلى هذا الحد؟!» اتَّهمت آنَّا نفسها، وعندما استُدعِيَتْ إلى استجواب مع المفتش لَاوْبْ، لم تطلب ألا تعذَّب، وإنما طلبت أن تمنح القوة رغم كل التعذيب كي لا تُفصح بما يمكن أن يدين الآخرين. وتلك السيدة القصيرة الهشة أصرَّت على تحمُّل نصيبها من الحمل، بل أكثر من نصيبها، فهي وحدها -عدا حالة أو اثنتين- قد وزعت البطاقات، وهي وحدها التي فكرت في مضمونها وأملَتْه على زوجها. هي وحدها كانت مخترعة تلك البطاقات لأن ابنها سقط في المعركة، استحوذت عليها تلك الفكرة.

لاحظ المفتش لَاوْبْ بالطبع أن أقوالها مكذوبة، وأن هذه السيدة ليست قادرة على الإتيان بالأفعال التي تدَّعي أنها اقترفتها؛ المفتش لَاوْبْ يمكن له أن يصرخ، يهدِّد، يعذب كيفما شاء؛ هي لن توقع على أي محضر آخر، ولم تسحب أيًّا من أقوالها، وهو عندما يثبت لها عشر مرات أنها ليست صحيحة.. لقد فعل لَاوْبْ ما يمكنه وصار عاجزًا. وعندما تعود آنًّا مرة أخرى من استجواب مثل ذلك إلى القبو فإنها كانت تستشعر بعض الانعتاق كأنها كَفَّرَتْ عن جزء من الذنب، وكأن أُوتُّو يمكن أن يَرضَى عنها قليلًا.

ثم صارت الفكرة أقوى داخلها لدرجة ظنت معها أنها يمكن أن تنقذ حياة أُوتُّو حين تتحمَّل هي كل الذنب.

وحسب عادات سجن الجيستابو، لم يكن مِن عجلة لانتشال بيرْتَا الميتة من زنزانة آنَّا. يمكن أن يكون ذلك من قبيل الاستهتار، أو مِن قبيل التعذيب المقصود. في كل الأحوال بقيت الميتة لليوم الثالث في الزنزانة التي تفوح منها رائحة مُقْبِضة مُسْكِرة، إلى أن فُتح الباب وأُدخلت فيه تلك التي ما إن التقت عيناها بعينَيْ آنَّا حتى أصيبت بذعر كبير.

خطت تْرُودِل هيرْجزِل خطوة إلى الزنزانة. كانت عيناها تريان بالكاد، ومتعبة حدَّ الإنهاك، والخوف على كارْلِي الذي لم يستيقظ وانفصلت عنه بخشونة، فأصابها بشيء من الخبال. ندت عنها صرخة ذعر خافتة بمجرد أن شمت رائحة التحلُّل المقبضة في الزنزانة، وحينما رأت الميتة التي ترقد على البُرش الخشبي بجسدها المتضخم تعلوه البقع.

تأوهت:

- لم أعد أستطيع! (وآنا جْفَانْجِل أنقذت ضحيةَ وشايَتِها قبل أن تسقط منهارة)

- تْرُودِل! (همست في أذن التي تكاد تفقد وعيها)

تْرُودِل، هل يمكنكِ أن تسامحيني؟ لقد ذكرتُ اسمك لأنك كنتِ عروس أُوتُّو الصغير. ثم اعتصر مني كل شيء بالتعذيب. لم أعد أنا نفسي أفهم. تْرُودِل، لا تنظري إليَّ هكذا، أرجوكِ! تْرُودِل، ألست في انتظار طفل؟ هل دَمَّرْتُ هذا أيضًا؟

وفيما السيدة آنَّا جْفَانْجِل تتحدَّث بهذه الطريقة، انسلَّتْ تْرُودِل هيرْجزِل من بين ذراعيها وعادت إلى مدخل الزنزانة. إنها تستند الآن إلى الباب الفولاذي وتنظر بوجه شاحب نحو السيدة المسنَّة التي تحدق إليها عبر المسافة الفاصلة بينهما.

- أنتِ يا أماه؟ (سألت)

أنتِ من فعلت ذلك؟ (وبانفعال مفاجئ)

آه! الأمر لا يتعلق بي أنا! لكنهم حطَّموا كارْلِي، ولم أعد أعرف إن كان سيستعيد وعيه. ربما يكون قد مات بالفعل!

وانهمرت الدموع من عينيها حين صاحت:

- ولا أستطيع الذهاب إليه! لا أعرف وربما سأظل قابعة هنا أيامًا وراء أيام ولن أسمع عنه شيئًا. لعله مات وتحلَّل، لكنه لا يزال يعيش في داخلي. ولن أحصل على طفل منه. كيف أصبحتُ مسكينة هكذا فجأةً! قبل عدة أسابيع قبل أن ألتقي أبي كنت أمتلكُ كل أسباب السعادة، وكنت أيضًا سعيدة! والآن لم يعد لديَّ شيء. أي شيء! آه يا أماه...

ثم أكملت فجأةً:

- لكن الإجهاض لم يحدث بسببكِ يا أمي. لقد وقع ذلك قبل أن تحدث الأمور الأخرى.

وفجأةً سارعت تْرُودِل هيرْجزِل مترنِّحةً عبر الزنزانة ودسَّت رأسها على صدر آنَّا واشتكت:

- آه يا أماه، كم صرت تعيسة! فقط أخبريني أن كارْلِي سينجو بحياته!

قبَّلتها آنَّا جْفَانْجِل، وهمست:

- سيعيش يا تْرُودِل، وأنت أيضًا ستعيشين! فأنتما لم تقترِفَا أي خطأ!

ظلَّتَا متعانقتين لبعض الوقت وبقيتا ساكنتين. هدأت كل واحدة في محبة الأخرى، وتحرك بعض الأمل من جديد.

ثم هزَّت تْرُودِل رأسها وقالت:

- كلا، حتى نحن لن نخرج من هذا سالِمتَين. لقد اكتشفوا كثيرًا. ما تقولينه صحيح، أننا لم نقترف أي خطأ. لكن كارْلِي احتفظ بحقيبة لِآخَرَ من دون أن يعرف ما فيها، وأنا وضعت بطاقة لأبي. إنهم يقولون إن ذلك يمثل خيانة عظمى ستكلفنا رأسنا.

- بالتأكيد قالها ذلك اللَاوْب، ذلك الإنسان المريع!

- لا أعرف ما اسمه، لكن الأمر لديَّ سواء. فكلهم على نفس الشاكلة! كذلك الموجودون هنا في السجل، كلهم على نفس الشاكلة. لكن لعل هذا أمر جيد أنها كثيرة، القُبُوع سنوات وسنوات في السجن.

- سُلطة هؤلاء لن تستمر سنوات وسنوات يا تْرُودِل!

- من يدري؟ وكل ما اقترفوه في حق اليهود وحق الشعوب الأخرى مرَّ بدون عقوبة! أتعتقدين حقًا أن الله موجود يا أماه؟

- نعم يا تْرُودِل، هذا ما أعتقده. لم يُرِدْ أُوتُّو قطُّ أن يسمح بذلك، لكن ظلَّ هذا سري الوحيد الذي أخفيه عنه: أنا ما زلت أصدق بوجود الله.

- لم أصدق بوجوده حقًا في أي وقت. لكن سيكون من الجميل لو أنه موجود، لأني ساعتها سأعرف أني وكازِلِي سنكون معًا حتى بعد الموت!

- هذا ما سيحدث يا تْرُودِل. انظري، حتى أُوتُّو لا يؤمن بالله. يقول إنه يعرف.. حين تنتهي هذه الحياة سينتهي كل شيء. لكني أعرف أننا سنكون معًا بعد موتنا، دائمًا وإلى الأبد. هذا ما أعلمه يا تْرُودِل!

نظرت تْرُودِل نحو الحشية التي يرقد عليها البدن الهامد.

- لا يبدو مظهرها طبيعيًّا، تلك السيدة الراقدة هناك! أشعر بالخوف كلما نظرت إليها، ببقع الموت التي تغطيها، وذلك التورم! لا أريد أن أرقد هناك يا أماه!

- إنها ترقد على هذه الحال منذ ثلاثة أيام يا تْرُودِل. لم يبعدوها بعد. لقد كانت جميلة للغاية حين ماتت، مطمئنة وسعيدة. لكن الروح خرجت منها الآن، ولهذا فهي ترقد مثل قطعة من اللحم الفاسد.

- عليهم أن يبعدوها! لا أستطيع أن أنظر إليها! ولا أريد أن أواصل تنفس هذا العطن!

وقبل أن تتمكّن آنًّا جْفَانْجِل من أن تُعيقَها، سارعت تْرُودِل نحو الباب. وبيديها قرعت الفولاذ وصرخت «افتحوا! افتحوا فورًا! هل تسمعوني!».

كان هذا ممنوعًا، كل ضوضاء كانت محظورة، في الواقع بل كل حديث كان محظورًا.

سارعت آنًّا جْفَانْجِل نحو تْرُودِل، وأمسكت يديها بإحكام، سحبتها من عند الباب ثم همست بخوف:

- من غير المسموح أن تفعلي ذلك يا تْرُودِل! هذا ممنوع! سيأتون ويضربونك!

وبعد فوات الأوان، تصدع القفل، واقتحم رجل ضخم من رجال الشرطة العسكرية رافعًا هراوة مطاطية.

- لماذا تصرخن أيتها العاهرات؟ (صاح)

أليس عليكن الخضوع للأوامر يا بنات الليل؟

نظرت إليه السيدتان من زاويتهما بخوف كبير.

لم يتوجَّه نحوهما ليضربهما. أنزل ذراعه بالمقرعة وغمغم:

- هذا مكان تفوح منه رائحة عفن كأنَّه قبو مليء بالجثث! منذ متى وهذه راقدة على تلك الحال؟

كان صبيًا يجري في عروقه عنفوان الشباب لكن وجهه تحول إلى صفرة الشحوب.

- هذا هو يومها الثالث. (قالت آنّا)

آه، ليتك تكون طيبًا وتأمر بإخراجها من الزنزانة! فنحن لم نعد قادرتين على التنفس هنا!

غمغم رجل الشرطة العسكرية بشيء وخرج من الزنزانة. لكنه لم يوصد الباب ثانية، تركه مواربًا.

وبهدوء تسلَّلت كلتاهما نحو الباب، وفتحتاه قليلًا، وتنفستا عبر فرجته بعض هواء الطرقة المختلِط بروائح المطهرات والمراحيض. كأنهما تشتَمَّان إكسير الحياة، ثم عادتا إلى مكانهما مرة أخرى، لأن رجل الشرطة العسكرية ظهر مجدَّدًا في الطرقة.

- إذًا! (قال ومعه ورقة صغيرة في يده)

لننجز بسرعة! أنت يا كبيرة أمسكيها من ساقيها، وأنت يا شابة أمسكي رأسها. تحركا، ستستطيعان حمل ذاك الهيكل أليس كذلك؟!

كانت نبرته، رغم الخشونة، تشي بنيَّة طيبة، بل إنه حتى ساعدهما في الحمل.

صعدوا طرقة طويلة ثم أُغلق باب فولاذي مسيَّج، أعطى مرافقهما حارسًا ورقة في يده، والآن عليهم أن ينزلوا كثيرًا من الدرجات الحجرية. زادت الرطوبة وقَتِمَ ضوء المصابيح الكهربية.

- هناك! (قال رجل الشرطة العسكرية وفتح بابًا)

هذا قبو الجثث. ضعاها هنا على الحشية. لكن اخلعا عنها ثيابها. فالثياب نادرة وسنحتاج إليها!

ضحك، لكن بدت ضحكته مفتعلة.

ندت عن السيدتان صرخة ذعر. لأن في هذا القبو الحقيقي للجثث ثمة رجال ونساء، جميعهم عرايا مثلما أتوا إلى هذه الدنيا. راقدين بأوجه محطمة، بكدمات دموية، بأطراف ملتوية، تعلوهم قشرة من الدماء والأوساخ. لم يبذل أحد جهدًا كي يغلق عيونهم، كانوا يَحْدِقون موتًا، وبعضهم بدا عليه أنه يطرف بخبث، كأن الفضول يعتريهم، كأنهم سعداء بالزيادة التي ستضاف إليهم هناك.

وفيما آنًا وتْرُودِل تجاهدان بيديهما المرتجفتين من أجل تجريد بِيرْتَا من ملابسها بأسرع ما يمكن، لم تتمكنا من التوقف عن إلقاء النظر من آن إلى آخر على تلك الجثث، على المرأة التي تدلى ثديها ولن يرضع الحياة إلى الأبد، أو الرجل الذي بالتأكيد كان يتمنَّى أن ينهي حياته المليئة بالعمل بهدوء في سريره، أو تلك الفتاة ذات الشفاه المبيضة، التي أرادت أن تعطي الحب وتستقبله، أو الصبي ذي الأنف المدهوس والجسد المستوي المبيض مثل العاج.

كان السكون يخيِّم على تلك الغرفة، وبهدوء كبير خشخشت الثياب تحت يدَيْ السيدتين، ثياب بِيرْتَا الميتة. ثم أَزَّتْ ذبابة، ثم عاد كل شيء إلى السكون.

راقب رجل الشرطة العسكرية السيدتين وهما تنجزان العمل واضعًا يديه في جيوبه. تثاءب، أشعل لنفسه سيجارة وقال: «أجل أجل، هكذا هي الحياة!» ثم عاد كل شيء إلى السكون.

ثم، بعدما جمعت آنًا جْفَانْجِل الملابس على هيئة صرَّة قال:

- فلنذهب إذًا!

لكن تْرُودِل هيرْجزِل وضعت يدها على كُمِّه الأسود وتوسَّلت:

- أوه، أرجوك أرجوك! اسمح لي أن أرى ربما يكون زوجي راقدًا بين هؤلاء في الأسفل...

نظر إليها برهة. وفجأةً قال: يا فتاة! يا فتاة! ماذا تفعلين هنا؟

حرك الرأس يمينًا ويسارًا.

- عندي أخت في قريتي، لا بد أنك في نفس سِنِّها.. (ونظر إليها مرة أخرى)

حسنًا فلتنظري. لكن بسرعة!

ذهبت بهدوء بين الأموات. نظرت إلى كل تلك الوجوه التي انطفأت منها الحياة. بعضها كان مشوَّهًا من الجروح بشكل يُصعِّب التعرف عليه، لكن لون الشعر، وأحيانًا الجسد كان يخبرها بأنه ليس كارْلْ هيرْجزِل.

عادت في منتهى الشحوب.

- كلا، إنه ليس هنا. ليس بعد.

تجنب الحارس النظر إليها.

- فلنذهب إذًا! (قال وتركها تمضي أمامه)

لكن طوال اليوم الذي كان يحرس فيه الممر أمام الزنزانة كان يفتح الباب من آن إلى آخر كي يُدخل إليهما هواء أفضل. جلب إليهما أيضًا ملاءات نظيفة لسرير المتوفاة. ولقد مثَّل ذلك -في هذه الجحيم القاسية- نوعًا من الرحمة الكبرى.

في ذلك اليوم لم يحقِّق المفتش لَاوْبْ نجاحًا يذكر في استجواب السيدتين. واسَتْ إحداهما الأخرى، وتبادلتا شعور الشفقة، حتى مع رجل الشرطة العسكرية. وهكذا قويت عزيمتهما.

لكن مرَّت أيام أخرى كثيرة، ولم يعد رجل الشرطة العسكرية ذلك يخدم في الطرقة التي تقع فيها زنزانتهما. ربما تم سُرِّح لأنه غير ملائم، لأنه كان لا يزال إنسانًا ولا يصلح للخدمة هنا.

55

بَالْدُوْر بِيرْزِيكِه في زيارة

أَتَمَّ بَالْدُوْر بِيرْزِيكِه، التلميذ النجيب للنابولا، الطائر الناجح من عائلة بِيرْزِيكِه- أعماله في برلين. يمكنه الآن أن يعود ويدرِّب نفسه ليكون سيد العالم. لقد أعاد أمه من الركن الذي اختبأت فيه لدى أقاربها وأمرها بحزم ألا تغادر الشقة ثانية وإلا فكلٌّ ضرر يمكن أن يقع لها، وأيضًا زار أخته مرة في معسكر تعذيب رافينزبروك.

لم يبخل عليها بالتقدير إزاء تعذيبها للنساء المُسِنَّات، وفي المساء اجتمع الأخ والأخت رفقة عدد آخر من الحراس في رافينزبروك وبعض الأصدقاء من فورستينبيرج، واحتفلوا مثل فرقة صغيرة حقيقيَّة تحتفي بنشوة في دائرة حميمية بكثير من الكحول، والسجائر و«الحب»...

لكن المشكلات الحقيقيَّة لبَالْدُوْر بِيرْزِيكِه لم تكن إنجاز الأمور العملية الجادَّة. فالأب، بِيرْزِيكِه الكبير، اقترف بعض الحماقات في أثناء سُكره، فنقص بعض المال من الخزينة لدرجة حتَّمت أن يقف أمام المحكمة في الحزب. غير أن بَالْدُوْر استخدم كل علاقاته، وحصل على شهادات طبية، تصور الأب على أنه عجوز خرِف، توسَّل وهدَّد، بدا عنيفًا كما بدا ذليلًا، ثم أيضًا استغل سرقة النقود مرة أخرى أيما استغلال. وأخيرًا تمكن الابن الأوفى لهذه العائلة من

تحرير كبيرها الفاسد بلا أدنى عاقبة. ولم يضطر حتى إلى إخراج أو بيع أي شيء من الشقة للوفاء بالمبلغ الناقص، بل كتب الرقم ضِمن السرقة. لكن ليس العجوز بِيرْزِيكِه هو الذي سرقه، «أوه، كلا، كلا! وإنما بُورْكْهاوْزِن ورفاقه»، وهكذا بقي شرف عائلة بِيرْزِيكِه مصُونًا.

وفيما آل هيرْجزِل يتهدَّدُهم الضرب والموت على جريمة لم يقترفوها، يُسامَح بِيرْزِيكِه عضو الحزب على جريمة اقترفها.

وهكذا أنجز بَالْدُوْر بِيرْزِيكِه كل تلك المسائل على خير ما يرام مثلما هو متوقع منه. كان يمكنه التوجُّه إلى مدرسته لكنه أراد أولًا أن يفي بمهمة تخصُّ الشرف إذ شعر بوجوب زيارة أبيه في مصحة مدمني الكحول. كما أنه أراد أن يمنع تكرار مثل تلك الحوادث وأن يؤمِّن بقاء أمه في الشقة.

ولأنه بَالْدُوْر بِيرْزِيكِه، فلقد حصل فورًا على إذْنٍ بالزيارة، بل سُمح له بالحديث مع والده على انفراد، بدون رقابة الأطباء وطاقم التمريض.

وجد بَالْدُوْر أن العجوز قد تدهورت حاله بشكل كبير، وانكمش مثل لعبة من المطاط يمكن للواحد أن يشكّها بمسمار.

لقد انقضت الأيام السعيدة لصاحب الحانة المتهالك ولم يبق منه إلا شبح، لكنه شبح لا يخلو من شبق. فلقد طلب الأبُ إلى ابنه شيئًا يدخنه، وبعد أن رفض الابن عدة مرات «لم تستحق هذا أيها المجرم العجوز»، أهداه سيجارة. وعندما توسَّل العجوز بِيرْزِيكِه أن يُهَرِّب الابن إلى أبيه زجاجة خمر ولو مرة، لم يتمالك بَالْدُوْر نفسه

من الضحك، وضرب الأب على ركبته التي صارت عجفاء مرتعشة وقال:

- تيقَّن من شيء يا أبتِ، لن تحصل في حياتك ثانية أبدًا على خمر لتسكر، فلقد تسبَّبْتَ لي في حماقات كثيرة جراء ذلك!

وفيما يحدِّق الأب غاضبًا أخبره الابن - ناسبًا الفضل إلى نفسه- بكل الجهود التي بذلها من أجل إبطال مفعول هذه الحماقات.

لم يكن بِيرْزِيكه العجوز قَطُّ دبلوماسيًّا في حياته، وظلَّ يقول رأيه بلا التواء ولم يفكِّر قطُّ في شعور الآخرين.

ولهذا يقول الآن:

- أنت دائمًا متفاخر مغرور يا بَالْدُوْر! لقد عرفتُ دائمًا أنني لن يحصل لي شيء بسبب الحزب وكنتَ صبي هتلر لمدة خمس عشرة سنة! كلا، إن كان الأمر كلَّفك بذل جهد فإن الذنب في ذلك يعود فقط لحماقتك. لو كنتُ مكانك لحللتُ كل المسائل بجملتين فقط بمجرد أن أخرج!

كم أحمقٌ ذلك الأب! لو أنه نافق ابنه بعض الشيء، لو أنه شكره ومدحه لَوَضَعَ بَالْدُوْر بِيرْزِيكِه في موضع الرحيم. لكنه الآن يشعر بجرح غائر في كبريائه. ويقول بإيجاز:

- أجل يا أبتِ بمجرد أن تخرج! لكنك لن تخرج أبدًا من بين فكي الأسد، لن تخرج حيًّا أبدًا!

اعترى الأب بسبب تلك الكلمات غير الرحيمة ذعرٌ كبيرٌ لدرجة أن بدنه كله ارتجف. لكنه تمالك نفسه مجدَّدًا وقال:

- لِنَرَ من يمكن له أن يحتفظ بي هنا! فأنا ما زلت إنسانًا حُرًّا، ولقد قال لي كبير الأطباء مارتينز بنفسه، إنني إن واصلتُ التعافي هنا لستة أسابيع فسيُسمح لي بالخروج لأنني سأكون قد شفيت.

- لن تشفى أبدًا يا أبتِ! (قال بَالْدُوْر متهكمًا)

ستبدأ مجدَّدًا في السُّكر. لقد عايشتُ هذا بما يكفي. وسأخبر كبير الأطباء عن هذا لاحقًا وسأسعى للحجر عليك!

- لن يفعل هذا! فالدكتور مارتينز يحبني كثيرًا، وقال إنه لا أحد مثلي يعرف نكاتًا بذيئة جميلة! ولن يفعل ذلك بي. وعلاوة على ذلك فإنه وعدني أن يخلي سبيلي في غضون ستة أسابيع!

- لكن عندما أحكي له أنك للتوِّ كنت تريد أن تقنعني أن أهرِّب إليك زجاجةً سيغير رأيه بشأن تعافيك!

- لن تفعل ذلك يا بَالْدُوْر! أنت ابني وأنا أبوك...

- وماذا بعد؟ كان ينبغي أن أكون ابنًا لأحدهم، ومما رأيتُ فأنا لم أحصل إلَّا على أب من أسوأ الآباء!

نظر إلى أبيه مستهينًا. ثم أكمل:

- كلا كلا، يا أبت، أتعهد لك بذلك، فقط عليك أن تعتاد الفكرة: أنت ستبقى هنا. فأنت في كل الأحوال تظلُّ تلوم العالم بالخارج!

تملَّك اليأس من العجوز. قال:

- لن تسمح أمك بذلك أبدًا، لن تسمح أبدًا بأمر الحجر وبأن أظلَّ هنا إلى الأبد!

- كلا، لن يدومَ الأبدُ وقتًا طويلًا بالنظر إلى الحال التي أنت عليها الآن!

ضحك بَالْدُوْر ووضع ساقًا فوق الأخرى في سروال حسن الكي. نظر إلى حذائه ذي الرقبة العالية الذي لمَّعته أمه:

- كما أن أمي خائفة منك، بل إنها ترفض حتى أن تزورك. فكِّر في هذا.. هل تظنُّ أن أمي قد نسيت كيف كنت تمسك بها من تلابيبها وتحاول خنقها؟ هذا أمر لن تنساه أمي أبدًا!

- إذًا سأكتب للزعيم! (صاح بِيرْزِيكِه العجوز منفعلًا) فالزعيم لن يترك محاربًا عجوزًا في ورطة!

- وما نَفعُك أنت للزعيم؟ فهو بذاته لن يحفل بقذاراتك ولن ينظر في سرقتك! ثم إنك بيديك المرتجفتين لن تتمكَّن من الكتابة ثانية، ثم إن الذين هنا لن يسمحوا بخروج خطاب منك، سأعمل على هذا! إنه إهدار للورق!

- بَالْدُوْر، كن رحيمًا بي! لقد كنتَ ذات يوم صبيًّا صغيرًا! ولطالما صحبتك في نزهات يوم الأحد. أتذكر المرة التي كنا فيها في كروتسبيرج وسال الماء جميلًا باللونين الوردي والأزرق؟ لطالما ابتعتُ لك النقانق والحلوى، ثم عندما اقترفتَ تلك المسألة مع الولد وأنت في الحادية عشرة سَوَّيتُها بحيث لا تُطرد من المدرسة وتُحبس في «الأحداث»! ماذا ظنك بما كان مصيرك من دون أبيك الأحمق يا بَالْدُوْر؟ والآن تتركني بين المطرقة والسندان؟!

استمع بَالْدُوْر إلى هذه المشاعر المتدفقة بدون أن يطرف له جفن. ثم قال:

- والآن ستلجأ إلى الضغط عليَّ يا أبي مناورًا بمشاعرك الجياشة؟ يا له من اجتهاد منك! المسألة فقط أن شيئًا كهذا لا تأثير له عليَّ البتة، لا بد أنك تعرف هذا، أنا لا أعير المشاعر أي وزن! المشاعر.. قطعة لحم خنزير حقيقيَّة أفضل عندي من كل المشاعر! لكني لا أريد أن أكون بهذا السوء، سأهديك سيجارة؛ أمسك!

لكن العجوز كان في غاية الانفعال فلم يمسك بها. سقطت السيجارة على الأرض بدون اكتراث، ما أشعل غضب بَالْدُوْر من جديد.

- بَالْدُوْر! (توسَّل العجوز مجدَّدًا)

أنت لا تعلم كُنْهَ هذه الدار! إنهم يتركوننا هنا نتضوَّر جوعًا، والممرضون يضربوننا دائمًا. لقد صارت يداي مرتعشتين ولم يعد بوسعي الدفاع عن نفسي، ثم إنهم يسرقون طعامي القليل...

وفيما العجوز يواصل توسُّلاته كان بَالْدُوْر قد جهز نفسه للرحيل، لكنَّ أباه تعلَّق به، وتشبَّث بقوة وواصل الكلام بإيقاع يتسارع:

- وتقع أحداث مرعبة كثيرة. أحيانًا يعطي كبير الممرضين أحد المرضى حقنة تحوي سائلًا أخضر لأن صوته عالٍ، لا أعرف ما اسم ذلك الشيء. لكنه يسبب الإسهال للناس، يظلون هكذا إلى أن تخرج الروح من الجسد، وفجأةً لا يعودون هنا. يموتون كالفئران يا بَالْدُوْر، لن تريد أن يموت أبوك هكذا، أن تخرج روحه من جسده بهذه الطريقة، أبوك أنت! بَالْدُوْر، كن ولدًا طيبًا، ساعدني! أخرجني من هنا، أنا خائف للغاية!

لكن بَالْدُوْر بِيرْزِيكِه كان قد استمع بما يكفي إلى هذه الثرثرة، وحرَّرَ نفسه من بِيرْزِيكِه العجوز بعنف، وضغطه في كرسي قائلًا:

- حسنٌ، الوداع يا أبتاه! سأخبر أمي أنك أرسلت إليها التحية. وتذكَّر أن سيجارة ما تزال موجودة على الطاولة هناك. خسارة أن تضيعها!

وبهذا غادر ذلك الابن الحقيقي لأبيه.

لكن بَالْدُوْر لم يغادر بعدُ مصحة مدمني الشراب، وإنما مرَّ على كبير الأطباء السيد الدكتور مارتينز. وكان من حسن طالعه أنه كان موجودًا ليتمكَّن من التحدث إليه. حَيًّا زائره بأدب ولوهلة ظلَّ كل منهما يحدِّق إلى الآخر متفحِّصًا.

ثم قال كبير الأطباء:

- كما أرى أنت تلميذ في النابولا يا سيد بِيرْزِيكِه، أم هل أنا مخطئ؟

- كلا يا سيدي كبير الأطباء، أنا بالفعل في النابولا. (أجاب بَالْدُوْر بفخر)

- أجل، اليوم يحدث كل شيء من أجل مصلحة الشباب. (أومأ الطبيب برأسه)

وددتُ لو أنني حصلت على دعم كهذا في شبابي. أنت أيضًا لم تُستَدْعَ للخدمة العسكرية يا سيد بِيرْزِيكِه؟

- غالبًا سأُعفَى من الجيش التقليدي. (قال بَالْدُوْر بِيرْزِيكِه بإهمال واحتقار)

غالبًا سأحصل على إدارة نطاق ريفي كبير، أوكرانيا أو القرم. بضع عشرات من الكيلومترات.

- أفهم. (أومأ الطبيب)

- هل أنت عضو في الحزب أيها السيد الدكتور مارتينز؟

- مع الأسف لا. لأعترفْ بالحقيقة، لقد اقترف واحد من أجدادي إحدى الحماقات، اقترف الخطأ المعروف في النسب، لعلك تعرفه؟ (ثم أكمل بسرعة)

لكن المسألة سُوِّيَتْ ونُظِّمَت. وتدخل رؤسائي لصالحي، وأنا أُعتبر آرِيًّا نقيَّ العِرق. أريد أن أقول «أنا آريٌّ. وآمل أن يسمح لي في القريب العاجل بارتداء الصليب المعقوف».

جلس بَالْدُوْر بظهر مستقيم. شاعرا أنه -بنقاء عِرقه الآري- في منزلة أعلى كثيرًا من محدِّثه الذي اضطر إلى استخدام طرائق خلفية.

- أردتُ أن أتحدَّث معك بخصوص والدي. (قال بنبرة تشبه نبرة رئيس لمرؤوسه)

- أوه، الأمور تسير مع أبيك بشكل سلس للغاية يا سيد بِيرْزِيكِه! أظن أننا في ستة أو ثمانية أسابيع سنتمكن من إخراجه من هنا بوصفه متشافيًا...

- أبي غير قابل للشفاء! (قاطعه بَالْدُوْر بِيرْزِيكِه بحدة)

لقد كان أبي يشرب منذ ما تَعِي ذاكرتي. وعندما تخرجه من هنا صباحًا بوصفه متعافيًا، فسيعود إليك قبل المساء مخمورًا. نحن نعرف هذا التعافي. أمي وإخوتي يرجون أن يقضي أبي باقي أيامه هنا. وأنا أيضًا أضم صوتي إلى صوت أمنيتهم تلك يا كبير الأطباء!

- بالتأكيد، بالتأكيد! (سارع الطبيب بطمأنته) سأتحدَّث عن ذلك مع البروفيسور...

- ليس لهذا أي ضرورة. فما نتفق عليه هنا نهائي. أما لو أراد أبي أن يعود إلينا في البيت، فلا بد من تدبير أمر وصول شخص آخر إلى هنا في نفس اليوم، وأعني رجلًا مخمورًا كلية! هذا ما سيبدو عليه تعافيكم الكامل يا كبير الأطباء، وسأعمل على أن يلحق بكم عواقب وخيمة جراء هذا!

حدق الاثنان بعضهما إلى بعض عبر زجاج النظارات. لكن مع الأسف كان كبير الأطباء جبانًا؛ أخفض نظره ثم قال:

- بالتأكيد فإن خطر الانتكاس كبير لدى مرضى اضطرابات النوم، أو مدمني الكحول. وإن كان السيد الوالد كما قلتَ لي توًّا عكف على الشرب طوال الوقت...

- لقد شرب حانة عن آخرها. وشرب كل قرش كسبته أمي. وسيشرب كل قرش يكسبه أي واحد منا نحن أبناءه الأربعة، لو أننا سمحنا له بذلك. لذا سيظل أبي هنا!

- سيظل أبوك هنا. إلى أن يجد جديد. إن أردتم لاحقًا، بعد الحرب مثلًا، لو أنكم في زيارة ما تكوَّن لديكم انطباع أن أباك تحسَّن بشكل جوهري...

ومرة أخرى قاطع بَالْدُوْر بِيرْزِيكِه الطبيب:

- لن يستقبل أبي زيارات أخرى، لا مني ولا من إخوتي، ولا من أمي. نحن نعلم أنه مُعتَنًى به هنا. وهو ما يكفينا.

حدج بَالْدُوْر الطبيب بنظرات مخترِقة وثبت نظراته. وفيما كان طوال الوقت يتحدَّث بنبرا ت مرتفعة آمِرة، أكمل الآن بصوت خفيض:

- لقد حكى لي أبي عن حُقَنٍ معينة خضراء، يا كبير الأطباء...

جفل الطبيب قليلًا.

- مجرد وسيلة للتأديب. نستخدمها مع المرضى المستجدين الشباب. سِنٌّ والدك وحدها تمنع...

قوطِعَ مرة أخرى:

- لقد حصل أبي بالفعل على واحدة من تلك الحقن...

صاح الطبيب:

- لا يمكن! أرجو المعذرة يا سيد بِيرْزِيكِه، لا بد أن خطأ ما قد وقع!

قال بَالْدُوْر بحسم:

- لقد أخبرني أبي عن تلك الحقنة. وحكى لي أنها أفادته كثيرًا. لم لا يواصل العلاج بها يا كبير الأطباء؟

كان الطبيب في غاية الارتباك:

- لكن يا سيد بِيرْزِيكِه! إنها مجرد إجراء تأديبي! والمريض ينهار بعدها لساعات، وربما لأيام!

- حسن، وماذا بعد ذلك؟ دعه يصاب بالإسهال! ربما يكون هذا سببًا في تسليته! لقد أكد لي أن الحقنة الخضراء أفادته كثيرًا.

وأنه يتوق إلى الحصول على الحقنة التالية. لِمَ تمنع عنه المادة إن كانت تجعله يشعر بالتحسن؟

- لا، لا! (أجاب الطبيب متعجلًا. ثم أضاف ممتلئًا بالخزي)

ثمة سوء تفاهم! لم أسمع قطُّ أن أحد المرضى حصل على حقنة بـ...

- سيدي كبير الأطباء، من يفهم المريض أكثر من ابنه؟ ثم إني أَحَبُّ أبناء أبي إليه، عليك أن تعرف هذا. سأكون ممتنًّا لك كثيرًا لو أنك أمرت الممرض، أو أيًّا من كان المسؤول عن ذلك، الآن في التوِ في أثناء حضوري بأن يُعاجَلَ أبي بالحقنة التالية. سأتمكن من العودة إلى البيت وقد صرتُ أكثر اطمئنانًا بأني حقَّقت للعجوز واحدة من أمنياته!

نظر الطبيب إلى وجه مُحَدِّثه وقد ابيضَّ من الشحوب.

غمغم:

- هل تعني هذا حقًّا؟ الآن وفورًا؟

- هل يمكن يا كبير الأطباء أن يكون شكٌّ في رأيي؟ أرى أنك أقل حسمًا من أن تكون في منصب قيادي. لقد كنتَ مصيبًا إذ قلت سابقًا إن التحاقك بالنابولا سيكون مفيدًا لأنه كان سيطوِّر من مهاراتك القيادية! (ثم أضاف غاضبًا)

ربما أخطاءٌ تربوية أخرى تلت الخطأ في سلسلة عائلتك...

وبعد صمت طال قليلًا قال الطبيب بصوت خفيض:

- سأذهب الآن لأُعدَّ حقنة لأبيك...

- لكن، أرجوك أيها السيد الدكتور مارتينز، لم لا تدع كبير الممرضين يفعل ذلك؟ هذا يبدو أنه أحد واجباته؟

جلس الطبيب وهو يعاني صراعًا مع نفسه. وعادت الغرفة إلى السكون من جديد.

ثم نهض ببطء:

- إذًا سأعطي الأمر لكبير الممرضين...

- يسعدني أن أرافقك. فأنا مهتمٌّ جدًّا بعملك. أنت تفهم، استبعاد غير مستحقي الحياة، عمليات التعقيم وهكذا أمور...

وقف بَالْدُوْر بِيرْزِيكِه إلى جوار الطبيب وهو يعطي تعليماته لكبير الممرضين بإعطاء المريض بِيرْزِيكِه الحقنة التي تحوي مكوناتها كذا وكذا...

- تقصد حقنة مسهلة يا عزيزي!)قال بَالْدُوْر بحماسة وتهذيب(

كم تعطون إذًا في العموم؟ هكذا؟ لن يضيركم أن تزيدوا الجرعة قليلًا، أليس كذلك؟ تعال، لديَّ هنا بعض السجائر. ممم خذ العلبة كلها أفضل يا كبير الممرضين!

قدم كبير الممرضين الشكر إليه ومضى حاملًا الحقنة ذات السائل الأخضر.

- لديك كلب حقيقي في منصب كبير الممرضين! أجزم أنه حين يضرب تتحطم الأشياء وتتناثر. عضلاته، العضلات نصف الحياة يا سيد دكتور مارتينز! حسن، إذًا، شكري الجزيل يا كبير الأطباء! أتمنى أن يُعالَج بنجاح. إذًا هايْلْ هتلر!

- هايْلْ هتلر، يا سيد بِيرْزِيكِه!

غاص كبير الأطباء الدكتور مارتينز في كرسيه في غرفة مكتبه، شعر بكل مفصل فيه يرتجف وبأن العرق البارد يغطي جبينه. لكنه لا يزال لا يجد راحة. نهض ثانية وتوجَّه نحو دولاب الأدوية. وببطء سحب لنفسه حقنة، لكنها لا تحوي سائلًا أخضر، رغم أنه كان يشعر بأمس الحاجة للتغوط على العالم كله وعلى حياته بالخصوص. غير أن الدكتور مارتينز كان يفضِّل المورفين.

عاد إلى مقعده مادًّا أطرافه براحة في انتظار أن يأتي المخدر بمفعوله.

«يا لي من جبان!» فكَّر.. «جبان لدرجة تثير التقزُّز! ذلك الوقح التعس، ربما يتمثل كل أثر له فقط في لسانه الطويل. ولقد زحفت قبالته. لم أكن مضطرًّا إلى ذلك.

لكنها دائمًا تلك الجَدَّة الملعونة، وأنني لا أستطيع أن أغلق فمي! ومع هذا فلقد كانت شخصيَّة آسرة ولقد كنت أحبها».

تاه في أفكاره، ورأى السيدة العجوز مرة أخرى أمامه بوجهها النبيل. كان بيتها يتضوع دائمًا بالشذى الذي يفوح من أوراق الورد المجففة وبسكويت الآنسون. وكم كانت يدها ناعمة، يد طفل طالته الشيخوخة!

ولأجل خاطرها أذللت نفسي أمام ذلك الحقير! «أعتقد أيها السيد بِيرْزِيكِه أنه من الأفضل ألَّا أنضم إلى الحزب. أعتقد أن الأوان قد فات على أمر كهذا. لقد طالت المسألة كثيرًا معكم». طَرَفَ وتمطَّى! وتنفس بارتياح. لقد عاد إليه الشعور الطيب.

«سأتفقَّد بِيزِبكِه بعد قليل. في كل الأحوال لن يحصل على حقنة أخرى. وأتمنى أن ينجو. لاحقًا سأتفقده، لكني أريد أولًا أن أستمتع بالأثر الطيب للمخدر. لكن لاحقًا.. بشرفي!».

56

زميل أُوتُّو جْفَانْجِل الجديد

حينما اقتيد أُوتُّو جْفَانْجِل بواسطة أحد الحراس إلى زنزانة جديدة في سجن التحقيقات نهض رجل طويل من أمام الطاولة التي كان جالسًا إليها يقرأ، ووقف أسفل نافذة الزنزانة بالطريقة التي تنص عليها التعليمات واضعًا يديه على خياطة السروال. لكن الطريقة التي نفذ بها ذلك وَشَتْ بأنه لا يرى لذلك أيَّ ضرورة.

غمز الحارس فورًا وقال:

- حسنًا يا دكتور. ها قد حصلت على مرافق جديد!

- جميل!

قال الرجل الذي بدا له أُوتُّو جْفَانْجِل ببدلته الدَّاكنة، وقميصه الرياضي والبابيون أقرب إلى «سيد» من كونه زميل زنزانة.

- جميل! اسمي رَايْشهَارْت. موسيقيٌّ. متَّهم بأنشطة شيوعية. وأنتَ؟

شعر جْفَانْجِل بيد باردة ثابتة في يده.

- جْفَانْجِل.. (قال بعد تردد)

أنا نجار. يزعمون أني اقترفت خيانة عظمى.

- أَخْ أنت!

صاح الدكتور رَايْشهَارْت الموسيقي، تجاه الحارس الذي بإزاء إغلاق الباب:

- من اليوم حصتان ثانية، أليس كذلك؟

- حسنًا، يا سيد دكتور! (قال الحارس)

أعرف هذا من تلقاء نفسي!

وانغلق الباب. حدج كل منهما الآخر بنظرات متفحصة. كان جْفَانْجِل مرتابًا حَدَّ الحنين إلى الكلب كارْلْشن في قبو الجيستابو. والآن عليه أن يعيش مع هذا السيد الأنيق، مع دكتور حقيقي، لم يكن الأمر مريحًا بالنسبة إليه.

ضحك «السيد» بعينيه ثم قال:

- تصرَّف كما لو كنت بمفردك إن كنت تفضِّل ذلك، لن أزعجك. أنا أقرأ كثيرًا، وألعب الشطرنج مع نفسي. أمارس الرياضة لإبقاء جسدي في حالة جيدة، أحيانًا أغني لنفسي، لكن بصوت منخفض جدًّا، فهو أمر ممنوع بالطبع. هل سيزعجك ذلك؟

- كلا، ذلك لن يزعجني. (أجاب جْفَانْجِل. ثم أكمل تقريبًا ضد إرادته)

أنا قادم من قبو الجيستابو وعشت محبوسًا هناك مع مجنون عارٍ طوال الوقت ويتصرَّف مثل الكلب. مثل تلك الأنشطة الخفيفة لن تزعجني.

- جيد! (قال الدكتور رَايْشهَارْت)

كان من الأفضل لو أن الموسيقا يمكن أن تسعدك قليلًا، إنه الفن الوحيد الذي يمكن أن يحقِّق بعض التناغم داخل هذه الأسوار.

- لا أفهم فيها شيئًا! (أجاب أُوتُّو جْفَانْجِل ممتعضًا. وأضاف) هل هذا مبنى راقٍ بشكل فادح عن ذاك الذي كنتُ فيه أم ماذا؟

جلس السيد في مكانه مرة أخرى وأخذ كتابه في يده. ثم أجاب بودٍّ:

- كنتُ بالأسفل أيضًا لبعض الوقت حيثُ كنتَ. أجل هنا الوضع أفضل بعض الشيء. على الأقل لا نُضرَب. معظم الحراس بُكمٌ، وليسوا خشنين كلية. لكن السجن يظل هو السجن، أكيد تعلم هذا. بعض الأشياء تخفِّف. يُسمح لي على سبيل المثال أن أقرأ وأن أدخن، يأتي لي طعامي الخاص، وملابسي الخاصَّة، وملاءات للسرير. لكن أنا حالة خاصَّة، وحتى الحبس المخفَّف يظل حبسًا. على الواحد فقط أن يتجاوز شعوره بوجود القضبان.

- وهل تجاوزتَ؟

- ربما. في أغلب الأحوال. ليس دائمًا، بالقطع ليس دائمًا. عندما مثلًا أتذكر عائلتي لا أتجاوز.

- ليس لي إلا زوجة. هل بالسجن هنا أيضًا جانب للنساء؟

- نعم، ثمة سجن للنساء، لكننا لا نَرَاهُنَّ مطلقًا.

- بالتأكيد. (قال أُوتُّو جْفَانْجِل وأطلق زفرة ثقيلة) لقد حبسوا زوجتي أيضًا. أرجو أن يكونوا جلبوها اليوم هي كذلك إلى هنا؛ إنها أضعف من أن تحتمل الأحوال في القبو.

- فلنأمل أن تكون هي أيضًا هنا. (قال الرجل بودٍّ)

سنعرف ذلك من القس؛ ربما يأتي اليوم بعد الظهر. بالمناسبة من حقِّكَ أن تطلب محاميًا، الآن؛ ما دمت جئتَ إلى هنا.

أومأ لجْفَانْجِل بودٍّ وأضاف:

- خلال ساعة سيكون موعد الغداء. (ثم وضع نظارته وشرع في القراءة)

ظلَّ جْفَانْجِل ينظر إليه لبعض الوقت، لكن الرجل لم يرغب في مواصلة الحديث، بل أخذ يقرأ فعلًا.

«غريبة طِباع هؤلاء الناس الراقين!» فكَّرَ.. «لديَّ جملة من الأسئلة أريد طرحها، لكن حتى لو أنه لا يريد فلا بأس في ذلك، لا أريد أن أكون كلبه الذي لا يدعه في هدوء». وبدأ ممتعضًا قليلًا يرتب فراشه.

كانت الزنزانة منيرة وفي غاية النظافة، لم تكن أيضًا صغيرة الحجم، إذ يمكن للواحد أن يخطو ثلاث خطوات ونصفًا ويعود ثلاث خطوات ونصفًا. والنافذة نصف مفتوحة ما جعل هواء الغرفة متجدِّدًا.

والرائحة لطيفة هنا، وكما تمكَّن جْفَانْجِل من المعرفة لاحقًا أتت تلك الرائحة الجيدة من الصابون ومن غسيل السيد رَايْشهَارْت. وبعد الجو الخانق العطن الذي عاناه جْفَانْجِل في قبو الجيستابو شعر بأنه نقل إلى مكان مضيء ومَرِح.

وبعد أن رتَّب فراشه جلس عليه ناظرًا إلى زميله في الزنزانة. كان الرجل يقرأ، يقلب الصفحة وراء الصفحة في إيقاع سريع نسبيًّا. جْفَانْجِل الذي لا يتذكَّر أنه قرأ كتابًا منذ أن ترك المدرسة.. فكر متعجِّبًا «ماذا يقرأ؟ أليس لديه ما يفكِّر فيه في هذا المكان؟ لا أستطيع أن أجلس هكذا بهدوء لأقرأ! فأنا أفكِّر في آنًا على الدوام، وكيف تتحمَّل كل ذلك، وكيف تواصلُ، وإن كنت سأتمكن من التحمُّل! يقول إن بوسعي أن أطلب محاميًا، لكن المحامي سيكلفني مبلغًا كبيرًا من المال، وفيم سينفعني إن كان قد حُكِم عليَّ بالإعدام فعلًا؟ فلقد اعترفت بكل شيء. هذا الرجل الراقي؛ كل شيء مختلف عنده، لقد رأيت كل ذلك على الفور بمجرد دخولي إلى هنا، حتى إن الحارس كان يخاطبه مستخدمًا لقب «السيد» و»الدكتور». بالتأكيد ليست لديه أمور مقلقة تلتهم أعصابه، فهو يقرأ بهدوء. يقرأ طوال الوقت...».

قطع الدكتور رَايْشهَارْت قراءته الصباحية مرتين. في المرة الأولى قال بدون أن يرفع رأسه:

- السجائر والكبريت موجودة في الدولاب الصغير. إن كنت تحب التدخين.

لكن عندما أجاب جْفَانْجِل: أنا لا أدخن! فأنا أستحرِم صرف نقودي في السجائر!

عاد إلى القراءة ثانية.

في المرة الثانية صَعِدَ جْفَانْجِل على الكرسي الخشبي وبذل مجهودًا كي يلقي نظرة على الحوش الذي أتت منه ضوضاء أقدام كثيرة.

- الأفضل ألا تفعل ذلك الآن يا سيد جْفَانْجِل! (قال الدكتور رَايْشهَارْت)

إنها الساعة الحُرة الآن. وبعض الموظفين يلاحظ النوافذ بدقَّة ومن يطلُّ منها. وفي التوِّ يطير إلى الزنزانة المظلمة الخالية من الماء والخبز. في المساء يمكن لك أن تنظر كيفما شِئتَ.

ثم جاء الغداء. جْفَانْجِل الذي اعتاد الوجبة المطهية بلا عناية في قبو الجيستابو نظر بدهشة إذ ثمة صحنان كبيران من الشُّربة، وصحنان من اللحم والبطاطس والفاصوليا الخضراء. لكن بدهشة أكبر نظر كيف أن رفيقه في الزنزانة فتح صنبور الماء قليلًا في الحوض وغسل يديه بعناية ثم جففهما. ملأ الدكتور رَايْشهَارْت الحوض بماء جديد وقال بأدب جمّ:

- من فضلك يا سيد جْفَانْجِل!

وغسل جْفَانْجِل يديه طائعًا رغم أنه لم يلمس شيئًا متسخًا.

جلسا في صمت يتناولان الطعام، الذي كان جيِّدًا جدًّا على عكس ما اعتاد جْفَانْجِل.

استغرق الأمر ثلاثة أيام إلى أن أدرك الحِرفيُّ أن هذا الطعام ليس الوجبة المعتادة التي تُقدَّم في محكمة الشعب للمحتجَزين قيد التحقيق، لكنه الطعام المخصوص الذي يقدَّم للدكتور رَايْشهَارْت الذي سُمِحَ لرفيقه في الزنزانة أن يشاركه فيه. مثلما أنه كان مستعدًّا

أن يجعل جْفَانْجِل يشاركه الدخان، والصابون، وكتبه، وما كان عليه سوى أن يريد ذلك.

ثم استغرق الأمر عدة أيام أطول إلى أن تجاوز جْفَانْجِل ارتيابه في الدكتور رَايْشهَارْت من المعاملة الودودة التي يلقاه بها. «فالذي يتمتع بكل تلك التسهيلات لا بد أنه جاسوس لمحكمة الشعب»؛ هذه الفكرة استقرت في ذهن جْفَانْجِل.. «ومن يُقدِم تلك الصنائع لا بد أنه يريد شيئًا من الآخَر. احترِسْ يا جْفَانْجِل!».

لكن ما عساه الرجل يريد من جْفَانْجِل؟ ففي قضية جْفَانْجِل كل شيء واضح، حتى أمام قاضي التحقيقات في محكمة الشعب كان يكرر أقواله بيقظة وبدون كلمات كثيرة، الأقوال التي سبق أن أدلى بها أمام المفتشَيْنِ إشيرِش ولَاوْبْ. لقد حكى كل شيء كما وقع حقًّا، ولما كانت الملفات لم تُرفع بعدُ للنيابة ولم يُحدَّد موعد للمحاكمة فإن السبب في ذلك أنَّ آنَّا مُصرَّة بعناد على أنها هي التي نفذت كل شيء وأن الزوج كان مجرد أداة في يدها. لكن كل هذا لا يعطي سببًا كي يحصل على سجائر فاخرة وأكل طيب ومشبِع. القضية واضحة ولا شيء لديه يمكن التجسُّس عليه.

تجاوز جْفَانْجِل ارتيابه في زميل زنزانته الراقي الأنيق في تلك الليلة التي اعترف فيها رَايْشهَارْت بأنه أيضًا لديه خوف فظيع من الموت سواء كان ذلك بمقصلة أو حبل شنق، وأن التفكير في ذلك يشغله لساعات طويلة. واعترف الدكتور رَايْشهَارْت الآن أيضًا بأنه يقلب صفحات كتابه بطريقة آلية فحسب؛ لم يكن يرى الطباعة أمام عينيه وإنما حوش السجن الأسمنتي الرمادي، مشنقة بالحبل المتدلي

الذي يتأرجح في الريح، يُحوِّل رجلًا قويًّا سليم البنية في غضون ثلاث أو خمس دقائق إلى جثة هالكة تثير التقزُّز.

لكن الأكثر قتامة من هذه النهاية، التي تُقرِّبُ الدكتور رَايْشهَارْت -وَفْقَ زعمه- يومًا بعد يوم من نهايته- هو تفكيره في أسرته. عرف جْفَانْجِل أن رَايْشهَارْت لديه ثلاثة أبناء من زوجته، ولدان وفتاة، أكبرهم في الحادية عشرة، والأصغر بالكاد أتمَّ الرابعة. ورَايْشهَارْت يعتريه خوف، خوف قاتم مذعور، أن مضطهديه لن يكتفوا بقتله، بل سيواصلون انتقامهم من زوجته البريئة وأبنائه، وسيزجون بهم إلى معسكر تعذيب حيث سيموتون بالتدريج.

وبالنظر إلى تلك الهموم أزيح ارتياب جْفَانْجِل، بل بَدَا لنفسه -بالمقارنة مع ذلك الرجل- أفضل حظًّا. لم يكن عليه أن يقلق إلَّا بشأن آنَّا، حتى لو أتت أقوالها مجنونة وحمقاء، فلم يكن يرى خلالها إلَّا أن آنَّا استعادت شجاعتها وبأسها. سيتعيَّن عليهما أن يموتا ذات يوم، لكن الموت يهون أمره لأنه مشترك، ولأنهما لا يخلفان وراءهما أحدًا على هذه الأرض يحملان هَمَّهُ في ساعة الموت. العذاب الذي يكابده الدكتور رَايْشهَارْت على زوجته وأبنائه الثلاثة كان بالمقارنة به كثيرًا. وسيصحبه إلى آخر لحظة من حياته، لقد فهم الحِرفيُّ العجوز هذا الأمر تمامًا.

لكن ما الذي اقترفه السيد رَايْشهَارْت بحيث يجعل موته أمرًا محتومًا، هذا ما لم يعرفه جْفَانْجِل قطُّ. فلقد بَدَا له أن شريكه في الزنزانة لم يكن ناشطًا فعالًا ضد ديكتاتورية هتلر، لم يتآمر ولم يعلق الملصقات، ولم يحضِر هجمات، غير أنه عاش بالطريقة التي تمليها

عليه قناعاته. سحب نفسه من كل المغريات النازية، ولم يسهم قَطُّ بالكلمة أو الفعل أو المال في أيٍّ من تجمعاتهم، وغالبًا ما استمع إلى صوته الداخلي الذي تعالى منذرًا إياه. وقال بوضوح كيف أن هذا طريق غير سليم ذاك الذي يُدفع الشعب الألماني دفعًا إلى السير فيه تحت هذه القيادة، باختصار، لقد عبَّر عن كل ما لم يملك جْفَانْجِل كتمانه، وَوَضَعَهُ في جمل قصيرة على البطاقات، وأدلى به ببساطة إلى كل مَن صادفه في الداخل والخارج. لأنه -حتى في السنوات الأولى في الحرب- كان الدكتور رَايْشهَارْت يقدم حفلاته في الخارج.

ولقد استغرق الأمر وقتًا طويلًا إلى أن تمكَّن النجار جْفَانْجِل من رسم صورة واضحة نوعًا عن عملِ رَايْشهَارْت فيٍ العالم خارج الحدود. غير أن هذه الصورة لم تتضح قطُّ، ولم يتمكَّن مطلقًا من اعتبار نشاط رَايْشهَارْت ذلك نوعًا من العمل في أعماق نفسه.

حينما سمع لأول مرة أن رَايْشهَارْت موسيقيٌّ فكَّر في الموسيقيين الذين كان يراهم في المقاهي يعزفون بمصاحبة الرقص، وكان ينظر مشفقًا ومحتقِرًا إلى هذا العمل الذي يؤديه رجل صحيح البدن. تمامًا مثلما اعتبر القراءة شيئًا زائدًا على الحاجة، لا يفعله إلا الناس المرفهون الذين لا يمارسون عملًا معقولًا.

وكان على رَايْشهَارْت أن يوضح للرجل العجوز، باستفاضة، ومن آن إلى آخر، ما الأوركيسترا وما معنى المايسترو. وكان جْفَانْجِل لا يَمَلُّ سماع ذلك.

- ثم تقف أمام الناس وبيدك عصًا صغيرة ولا تعزف بنفسك حتى؟

- نعم يسير الأمر تقريبًا على ذلك النحو.

- ولهذا السبب فحسب؟ أن تشير بمتى يبدأ عازف في العزف وبأي درجة صوت.. لهذا فحسب تكسب كل هذا المال؟

- نعم.

السيد الدكتور رَايْشهَارْت يخشى أنه بالفعل لهذا السبب فحسب يجني كل تلك الأموال.

- لكن أنت تستطيع أن تصنع موسيقا بنفسك، على الكمان أو على البيانو؟

- نعم، أستطيع هذا. لكني لا أفعل ذلك، على الأقل لم أفعل ذلك قطُّ أمام الجمهور. انظر يا سيد جْفَانْجِل، المسألة تشبه الأمر عندك؛ أنت أيضًا تستطيع أن تدق وتنشر وتثبت المسامير. لكنك لم تفعل ذلك، قمت فقط على ملاحظة الآخرين.

- أجل، كي يتمكَّنوا من الإنجاز أكثر. هل تمكن رجالك إذًا من خلال وقفتك أمامهم من العزف أكثر وأسرع؟

- كلا، بصراحة لم يفعلوا ذلك.

صمت.

ثم قال جْفَانْجِل فجأةً:

- ثم مجرد موسيقا... أترى؟ نحن في أوقات عملنا الجيدة كنا ننتج ليس فقط توابيت، لكن قطع أثاث، دواليب ومكتبات وطاولات، وهكذا نكون قد صنعنا شيئًا يمكن أن يطَّلع الناس عليه! أفضل أعمال في النجارة مجدولة ومصقولة، ويمكن أن

تعيش مئة سنة. لكن موسيقا فحسب؟! وعندما تتوقَّفون، لا يبقى شيء من عملكم.

- بلى، يا جْفَانْجِل، السعادة في الناس التي تسمع الموسيقا الجيدة.. تبقى.

لم يتوصَّلا في هذه النقطة إلى تفاهم كامل، وبقي احتقارٌ خفيف في نفس جْفَانْجِل تجاه عمل المايسترو رَايْشهَارْت. لكنه رأى أن الآخر كان رجلًا، رجلًا نزيهًا حقيقيًا، عاش حياته رغم كل التهديدات والتخويفات بدون أن يضلَّ، وبقي دائمًا ودودًا، ومستعدًّا لمدِّ يد العون. وبدهشة فهم أُوتُّو جْفَانْجِل أن الأفعال اللطيفة التي يقدمها إليه رَايْشهَارْت لا تنصَبُّ عليه هو بذاته، وإنه كان سيقدمها لأي شريك له في الزنزانة، حتى «الكلب» على سبيل المثال. فلبعض الأيام جاءهم لص صغير، مخلوق فاسد كذاب، وكان هذا الشخص يستغل لطف الدكتور متهكمًا، ودخن كل سجائره، وبدَّل صابونه، وسرق الخبز، وكان جْفَانْجِل يفضِّل لو أن ذلك المخلوق يتعذب، وكم ودَّ الحِرفيُّ القديم لو أنه يؤدب ذلك الشقي. لكن الدكتور لم يسمح بذلك، بل أخذه تحت حمايته، رغم أن ذلك اللص طالما سخر من طيبة الدكتور باعتبارها ضعفًا.

وعندما أُخِذَ ذلك المخلوق من غرفتهم أخيرًا، اتَّضح أنه كان في حالة غضب غير مفهومة فمزق الصورة الأخيرة التي يملكها الدكتور رَايْشهَارْت لزوجته وأبنائه، جلس الدكتور حزينًا أمام تلك الصورة الممزقة، التي كان يصعب إعادة تركيبها مرة أخرى وحينما قال جْفَانْجِل غاضبًا:

- أتعلم أيها السيد الدكتور، أعتقد أحيانًا أنك ضعيف في الحقيقة! لو أنك سمحت لي أن أوقف هذا الشقي عند حدِّه لما كان لشيء كهذا أن يقع قطُّ!

عندها أجاب المايسترو بابتسامة حزينة:

- هل تريد أن نكون مثلهم يا جْفَانْجِل؟ إنهم يعتقدون أنهم بوسعهم أن يجعلونا نؤمن بما يؤمنون به حين يكيلون لنا الضرب! لكننا لا نؤمن بسيادة العنف. نحن نؤمن بالخير، والحب، والعدل.

- الخير والحب لقرد شرير مثل هذا؟!

- أتعرف كيف أصبح شريرًا هكذا؟ أتعرف أنه الآن يدافع عن نفسه ضد الخير والحب لأنه يخشاهما، لأنه لو لم يبق سيِّئًا فلن يعرف كيف يواصل الحياة؟ لو أن الصبي بقي معنا لأربعة أسابيع لشعرت بنفسك بأثر التغيير.

- على الإنسان أن يكون أيضًا قادرًا على القسوة أيها الدكتور!

- كلا، ليس على الإنسان ذلك. جملة كتلك تعطي تبريرًا لكل فعل يخلو من المحبة يا جْفَانْجِل!

مُحبَطًا حرَّك جْفَانْجِل رأسه الحاد الذي يشبه الطائر يمينًا ويسارًا، لكنه لم يواصل الاعتراض.

57

الحياة في الزنزانة

تَعَوَّدَ بعضُهما بعضًا، وأصبحا صديقين، بالحد الذي يمكن لإنسان قاس وجاف مثل أُوتُّو جْفَانْجِل أن يصادق إنسانًا منفتحًا خيِّرًا. لقد أصبح يومهما -عن طريق رَايْشهَارْت- مقسَّمًا إلى مواعيد ثابتة، يستيقظ الدكتور مبكرًا جدًّا، يغسل بدنه كله بالماء البارد، يمارس التمارين الرياضية لمدة نصف ساعة ثم ينظف الزنزانة بنفسه. لاحقًا بعد الإفطار يقرأ رَايْشهَارْت لمدة ساعتين، ثم يظل يتحرَّك ذهابًا وإيابًا في الزنزانة لمدة ساعة، ولا ينسى أبدًا أن يخلع نعليه في أثناء ذلك، حتى لا يزيد من توتر جيرانه بالزنزانة من مشيه.

في أثناء تلك النزهة الصباحية التي تستغرق من العاشرة إلى الحادية عشرة كان الدكتور رَايْشهَارْت يغني لنفسه. في أغلب الأحيان كان يدندن بصوت منخفض، لأن وجود كل هؤلاء الرقباء كان يصيبه بالارتياب، ولقد تعود جْفَانْجِل أن ينصت إلى تلك الدندنة. ورغم أنه لم يكن يقدِّر الموسيقا.. لاحظ أن تلك الدندنة تؤثر فيه. أحيانًا كانت تجعله شجاعًا وقويًّا بما يكفي كي يتقبل ضربات القدر، وبعدها يقول رَايْشهَارْت راضيًا: «بيتهوفن». وأحيانًا كانت تجعله بطريقة غير مفهومة خفيفًا وسعيدًا بطريقة لم يستشعرها في حياته من قبل قطّ، ثم يقول رَايْشهَارْت: «موتسارت» وكان جْفَانْجِل ينسى

همومه. ومرة أخرى تخرج نغمات قاتمة وثقيلة من فم الدكتور فيشعر جْفَانْجِل بألم في صدره، ويعود صبيًا يجلس مع أمه في الكنيسة؛ حياته كلها لا تزال أمامه، وكان ذلك مهيبًا. لكن رَايْشهَارْت يقول: «يوهان سيباستيان باخ».

أجل، جْفَانْجِل الذي لا يزال لا يقدِّر الموسيقا، لم يتمكَّن من الإفلات من تأثيرها، رغم بدائية الدندنة والغناء الذي ينطلق من فم الدكتور.

واعتاد أن يجلس على كرسيِّه يستمع إليه وهو يمشي هنا وهناك، غالبًا بعينين مغمضتين، لأن قدميه قد حفظتا طريق الزنزانة الضيق القصير.

ينظر جْفَانْجِل إلى الرجل في وجهه، ذلك الرجل الراقي الذي لم يكن ليقدر على مبادلته أي كلمة خارج أسوار السجن، وأحيانًا يعتريه شك، إن كان عاش حياته بالطريقة الصحيحة، منفصلًا عن الآخرين، حياة فرض على نفسه فيها العزلة.

كان الدكتور رَايْشهَارْت يقول أحيانًا أيضًا:

- نحن لا نعيش لأنفسنا، بل للآخرين. فما نصنعه من أنفسنا لا نصنعه من أجلنا بل من أجل الآخرين.

أجل، لا شك؛ بعد الخمسين بكثير، وبالتأكيد مقتربًا من الموت، تبدَّلتْ حال جْفَانْجِل. لم يفضِّل رؤية ذلك، وكان يدافع عن نفسه ضده، ورغم ذلك لاحظ التغيُّر يقوَى لدرجة أنه تغيَّر، ليس فقط عبر الموسيقا، ولكن عبر نموذج الرجل الذي يدندن. هو الذي طالما حرَّمه على زوجته -أي فتح فمها- واعتبر السكون حوله هو

الغاية التي يطمح إليها، ضبط نفسه وهو يطمح إلى أن يُنهي الدكتور رَايْشهَارْت قراءته فيضع كتابه جانبه ويتحدَّث إليه بكلمة.

وأحيانًا يحدث فعلًا ما يتمنَّاه.

فجأةً يرفع الدكتور نظره عن القراءة ويسأل مبتسمًا:

- ما الأمر يا جْفَانْجِل؟

- لا شيء، سيدي الدكتور.

- ليس عليك أن تطيل الجلوس والتفكير. ألا تريد أن تجرب القراءة؟

- كلا، لقد تأخر الوقت بالنسبة إليَّ على ذلك.

- ربما الحق معك. ماذا كنتَ تفعل إذًا بعد عملك؟ لا يمكن لرجل مثلك أن يجلس في بيته بلا عمل بعد أن يُنهي عمله في الورشة!

- كنت أكتب البطاقات.

- وقبلها، قبل اندلاع الحرب؟

كان على جْفَانْجِل أن يفكِّر مليًّا في ما كان يفعل سابقًا:

- أجل، في السابق كنت أحب ممارسة النحت.

فيقول الدكتور متفكِّرًا:

- لكنهم بصراحة لن يسمحوا لنا بذلك؛ السكِّين. لن يسمح لنا الجلاد أن نستخدم أدواته يا جْفَانْجِل!»

فيقول جْفَانْجِل متردِّدًا:

- ما هذا يا دكتور؟ أنت دائمًا ما تلعب الشطرنج وحدك مع نفسك! ألا يمكن أن تلعب ذلك مع أحد آخر؟

- بلى. يمكن لهذه اللعبة أن يلعبها اثنان. هل ترغب في التعلُّم؟

- أعتقد أني أغبى من أن أتعلمها.

- هراء! فلنجرب في الحال.

وأغلق الدكتور رَايْشهَارْت كتابه.

وهكذا تعلم جْفَانْجِل أن يلعب الشطرنج. بل إنه فوجئ بنفسه يتعلمها بسرعة وبدون صعوبة. وتعلم مرة أخرى أن واحدًا من معتقداته أسفر عن خطئه التام. لقد وجد الأمر سخيفًا وطفوليًا حين كان يرى في المقهى رجلين يحركان قطع الخشب فيما بينهما. وكان يقول إنهما يقتلان الوقت، وإن هذا نشاط للأطفال.

الآن تعلَّم أن تحريك قطع الخشب تلك يمنح شيئًا مثل السعادة، ووضوحًا في الرأس، السعادة الحقيقيَّة العميقة جراء حركة جميلة، اكتشاف أن المسألة ليست مكسبًا وخسارة، لكنها السعادة التي تنبع من قطعة خسرها بلعبة حلوة أكبر من سعادته باللعبة التي يكسبها بسبب خطأ الدكتور.

وحينما يشرع رَايْشهَارْت في القراءة، يجلس جْفَانْجِل قبالته باسطًا رقعة الشطرنج وعليها القطع البيضاء والسوداء، وإلى جواره كتيب التعليمات، ويبدأ في التدرب على الافتتاحيات والنهايات. ولاحقًا صار يقلد حركات أساتذة اللعبة، إذ إن رأسه اليقظ كان بوسعه حفظ عشرين أو ثلاثين نقلة، وبسرعة أتي اليوم الذي صار هو فيه اللاعب المتصدِّر.

- «كِش مات» أيها السيد الدكتور!

- ها قد هزمتني ثانية يا جْفَانْجِل! (قال الدكتور وأحنى مَلِكَهُ تحية لغريمه)

لديك موهبة لاعب جيد جدًّا.

- الآن أيها السيد الدكتور.. أفكر أحيانًا.. لِمَ لديَّ تلك الموهبة التي لم أدْرِ بوجودها سابقًا! فقط منذ أن عرفتك، فقط منذ أن أتيتُ لأموت في هذا الصندوق الأسمنتي، أعرف كم فاتني من الحياة!

- هذا أمر يتعرَّض له الجميع. كل مَن عليه الموت، وقبلَهم كلٌّ من عليه أن يموت قبل موعده مثلنا، سيندم على كل لحظة فوَّتَها من حياته.

- لكن الأمر مختلف لديَّ، أيها الدكتور. لقد فكرت دائمًا أنه يكفي أن أؤدي عملي بإتقان وألا أتكاسل. والآن أعرف أنه كان بوسعي أن أفعل أشياءَ أخرى كثيرة؛ ألعب الشطرنج، أكون لطيفًا مع الناس، أسمع الموسيقا، أرتاد المسرح. وحقًّا يا دكتور لو أن لي أن أتمنى شيئًا قبل موتي لتمنيت أن أراك تحمل عصاك الصغيرة في حفل للموسيقا السيمفوني كما تسميها. لديَّ فضول أن أرى كيف يبدو هذا، وكيف يمكن له أن يؤثر في وجداني.

- لا أحد يستطيع أن يعيش في كل الاتجاهات يا جْفَانْجِل. الحياة غنية للغاية؛ ستشعر بالانشطار. لقد أديتَ عملك وشعرت دائمًا أنك رجل كامل. حينما كنتَ بالخارج، لم يكن شيء ينقصك يا جْفَانْجِل. ثم إنك كنت تكتب بطاقاتك...

- لكنها لم تُجْدِ نفعًا يا دكتور! لقد ظننت أني سأموت كمدًا عندما أثبت لي المفتش إشيرِش أنه مِن الـ285 بطاقة التي كتبتها 267 وقعت في يده! فقط 18 بطاقة لم تُضبط، وحتى تلك الـ18 لم تُجْدِ نقيرًا!

- من يدري! على الأقل قاومتَ الشر. لم تنضم إلى معسكر الأشرار. أنت وأنا وكثيرون غيرنا في هذا المبنى، وكثيرون، كثيرون في مبان أخرى حصينة وعشرات الآلاف في معسكرات التعذيب.. كلهم ما زالوا يقاومون، اليوم وغدًا...

- أجل، ثم يسلبوننا الحياة! وماذا نفعتنا إذًا المقاومة؟

- لنا.. الكثير، لأننا سنتمكن من الشعور بأننا أناسٌ محترمون حتى النهاية. والأكثر للشعب الذي سيُنقَذُ من أجل العدل مثلما هو مذكور في الإنجيل. أترى يا سيد جْفَانْجِل.. كان الوضع سيكون أفضل مئة مرة لو أن لدينا رجلًا يقول لنا «عليكم التصرُّف على النحو ذاك وذاك، خطتنا هي هذه وتلك». ولكن لو أنَّ رجلًا كهذا في ألمانيا لما وقع ما حدث في 1933. وعليه فكل واحد منا يتصرَّف بمفرده، وأُسِرَ كل واحد بمفرده، وكل واحد سيموت بمفرده ولنفسه. ومع هذا فلسنا وحدنا يا جْفَانْجِل، لهذا لا نموت هباء. لا شيء يحدث هباء في هذا العالم، ولأننا ضد العنف الخشن ونحارب من أجل الحق، في النهاية سنكون نحن المنتصرين.

- وفيم سينفعنا هذا ونحن تحت الثرى، في قبورنا؟

- لكن يا جْفَانْجِل! أتُفضِّل أن تعيش من أجل قضية غير عادلة أكثر من أن تموت من أجل قضية عادلة؟ لا خيار، لا لك ولا لي. لأننا جُبِلنا على ذلك، وعلينا أن نسلك هذا الطريق.

طال الصمت بينهما.

ثم شرع جْفَانْجِل ثانية يقول:

- لعبة الشطرنج تلك...

- أجل يا جْفَانْجِل، ما بها؟

- أفكر أحيانًا أني أُسِيءُ التعامل معها؛ أفكِّر فيها ساعات طوال وأنا لدي زوجة...

- أنت تفكر في زوجتك بما يكفي. لا بد أن تبقى قويًّا وشجاعًا؛ كل ما يبقيك قويًّا وشجاعًا جيد، وكل ما يجعلك ضعيفًا ويائسًا مثل التذمُّر هو أمر سيِّئ. ما يجدي زوجتك هذا التذمر؟ لكن سينفعها أن يخبرها القس لُورِينْتس أنك عدت قويًّا متمتعًا برباطة الجأش.

- لكنه -منذ صار لها تلك الرفيقة في الزنزانة- لا يستطيع أن يتحدَّث معها بصراحة. فالقس يعتبر السيدة أيضًا جاسوسة.

- سيتمكَّن القس من إفهام زوجتك أنك بخير وأنك تشعر بالقوة. ويكفي لأجل ذلك إيماءة بالرأس أو نظرة. القس لُورِينْتس سيعرف كيف يتصرَّف.

- أريد أن أعطيه خطابًا يوصله إلى آنَّا. (قال جْفَانْجِل متفكِّرًا)

- الأفضل ألَّا تفعل ذلك. لن يرفض، لكنك ستعرض حياته للخطر. فأنت تعرف أنه دائمًا محلٌّ للشك. وسيكون سيِّئًا أن

يُوْدَعَ صديقنا الطيب في واحدة من تلك الزنازين. إنه بالفعل يخاطر بحياته كل يوم.

- إذًا لن أكتب خطابًا. (قال أُوتُّو جْفَانْجِل)

وبالفعل لم يكتب، رغم أن القس جلب إليه خبرًا سيِّئا في اليوم التالي، خبرًا في غاية السوء، خصوصًا بالنسبة إلى آنَّا جْفَانْجِل. ورجا الحِرفيُّ القسَّ أن يحجب هذا الخبر السيِّئ عن آنَّا.

- ليس الآن أيها السيد القس!

ووعده القس بذلك:

- كلا، ليس بعد؛ ستخبرني عندما يأتي الأوان يا سيد جْفَانْجِل.

58

القسُّ الصالح

القس فْرِيدْرِيش لُورِينْتس الذي يؤدي خدمته في السجن بلا كلل، كان رجلًا في أزهى سِنِي عمره، يقارب الأربعين، طويل للغاية، محيط الصدر ضيق، يسعل باستمرار، علامة أكيدة على إصابته المزمنة بالسلِّ، وأنه أهمل المرض لأن عمله لم يترك له أي وقت يراعي فيه علاج جسده. وجهُهُ شاحب وعيناه تحيطُهما هالات سوداء خلف زجاج النظارة، أنفه النحيل ذو العظم البارز كان يحوي بعض الشعيرات، لكن منطقة الفم كانت حليقة دومًا، الشفاه دقيقة شاحبة، والفم كبير والذِّقْنُ قويٌّ مستدير.

هذا هو الرجل الذي ينتظره مئات السجناء كل يوم، الصديق الوحيد الذي يعرفونه في هذا المبنى، وما يزال يحتفظ بجسرٍ إلى العالم الخارجي، وهو الذي يُوْدِعونه همومَهم وشقاءَهم، ويساعد بالقدر الذي تسمح به طاقته. على أي حال فهو يفعل أكثر كثيرًا مما هو مسموح له. وبلا كلل يمضي من زنزانة إلى أخرى، لا يتوانى أبدًا بسبب معاناة الآخرين، متجاهلًا دائمًا معاناته الخاصَّة، لا يخشى أي شيء يخصُّ سلامه الشخصي. راعٍ حقيقي للأرواح، لا يَسأل مطلقًا عن مذهب أو دين طالبِ المعونة، ويصلي معه إن سأله ذلك، بخلاف ذلك يبقى دائمًا أخًا للجميع في الإنسانيَّة.

يقف القس فْرِيدْرِيش لُورِينْتس أمام منصة مدير السجن، تتفصَّد حبات العرق من جبينه، على وجنتيه بقعتان حمراوان، لكنه قال بهدوء تام:

- هذه هي الحالة السابعة التي توفيت بسبب الإهمال خلال الأسبوعين الأخيرين.

- مكتوب على شهادة الوفاة «التهاب رئوي»!

اعترض المدير، لكنه لا يرفع عينيه عن أوراقه التي يكتب فيها.

- لا يؤدي الطبيب واجبه!

قال القس بعناد وطَرَقَ برقَّة على المكتب، كأنَّه يطلب إذن المدير.

- يؤسفني أن أُضطرَّ إلى القول إن الطبيب يشرب كثيرًا. ويهمل مرضاه.

- أوه.. الطبيب على ما يرام!

أجاب المدير متعجِّلًا وواصل الكتابة. ولم يعط القس فرصةً:

- أتمنى أن تكون أنت أيضًا على ما يرام أيها القس. ما الأخبار، هل نجحتَ في دسِّ رسالة سرية للرقم 397، أم كيف سار الأمر؟

وأخيرًا الآن التقت نظراتهما، المدير صاحب الوجه المتورِّد مع وجه رجل الدين المملوء بالامتعاض، المشتعل بفعل الحُمَّى.

- إنها حالة الموت السابعة في غضون أسبوعين! (قال القس لُورِينْتس بعزم)

السجن في حاجة إلى طبيب جديد.

- لقد طرحت عليك سؤالًا أيها القس. هلّا أجبتني من فضلك؟

- نعم، لقد أعطيت الرقم 397 خطابًا، لكن بدون مال. كان خطابًا من زوجته تخبره فيه أن ابنه الثالث لم يسقط في الحرب بل في الأسر. لقد فقد ابنين بالفعل، وكان يعتقد أن الثالث أيضًا تُوُفِّي.

- دائمًا ما تجد سببًا لتخطِّي قواعد السجن أيها القس. لكني لن أظل أراقب تلك اللعبة طويلًا.

- أرجو إعفاء الطبيب. (كرَّر القس وطرق مرة أخرى بهدوء على المكتب)

- أَخْ! ماذا؟! (صاح المدير ذو الوجه المتورد فجأةً)

لا تثقل عليَّ بثرثرتك الغبية! الطبيب جيد، وسيبقى! وأنت، اعمل على أن تحافظ على قواعد السجن، وإلا أصابك أذًى!

- أي أذًى يمكن أن يصيبني؟ أستطيع أن أموت وسأموت. في القريب العاجل. أرجو مرة أخرى أن تعفي الطبيب.

- أنت مجنون أيها القس!

- أفترضُ أن دُوَارك هو الذي أصابك ببعض الجنون.

- لولا أنك مجرد سلحفاة غير مؤذية.. مجرد مجنون.. لعُلِّقتَ على المشنقة منذ زمن. لكني أشعر بالعطف تجاهك.

- الأفضل أن توجِّه عطفك نحو مسجونيك! (أجاب القس ببرود) وأن تحرص على وجود طبيب يشعر بالمسؤولية.

- الأفضل أن تغلق الباب من الخارج أيها القس.

- هل تعدني أن تجلب طبيبًا آخر؟

- كلا، كلا بحق السماء، لا! فلتذهب إلى الجحيم!

الآن تملَّك الغضبُ المدير، وقفز من مكانه خلف المكتب واقترب خطوتين من القس:

- هل علي أن أطردك مستخدمًا العنف، أتريد ذلك؟

- لن يكون لذلك أثر طيب على المسجونين في غرفة الكتابة. فذلك سيهزٌّ المظهر الذي ما تزال تتمتَّع به سلطة الدولة. لكن على أي حال، كما تشاء أيها السيد المدير!

- مجنون!

قال المدير، لكنه انتبه لملاحظة القس، ما جعله يعود ليجلس على كرسيه:

- اذهب الآن؛ لديَّ عمل أنجزه.

- العمل الأكثر إلحاحًا هو طلب طبيب جديد.

- هل تعتقد أن إصرارك هذا سيوصلك إلى شيء؟ العكس تمامًا هو الصحيح! سيبقى الطبيب!

- أتذكُرُ.. يومًا ما كنتَ أنت نفسك غير راض عن هذا الطبيب؟ كان الوقت ليلًا وعاصفًا. وطلبتَ أطباء آخرين، وأجريت اتصالات هاتفية لم تصل. كان ابنك ذو الأعوام الستة يعاني التهابًا في الأذن الوسطى، ويتقلب من الألم، وحياته معرضة للخطر. أحضرت طبيب السجن بناء على رجائك. كان مخمورًا. وأدى منظر الطفل المعرض للموت إلى فقدانه البقية الباقية من عقله، وأشار إلى يده المرتعشة التي جعلت أي تدخل جراحي مستحيلًا وانفجر بالدموع!

- الشقي السكِّير! (غمغم المدير الذي خيَّم على وجهه فجأةً هدوء قاتم)

- لقد أُنقِذ ابنك بيرتهولد في ذلك الحين بواسطة طبيب آخر. لكن ما حدث مرة يمكن أن يتكرَّر ثانية. أنت تتباهى بأنك لست مسيحيًّا أيها السيد المدير، ورغم ذلك أقول لك: لا يقبل الله الاستهزاء بصنيعه.

قال مدير السجن بدون أن يرفع بصره:

- فلتذهب الآن أيها القس.

- والطبيب؟

- سأرى ما يمكن عمله.

- أشكرك، سيدي المدير. كثيرون سيشكرونك.

دخل رجل الدين إلى السجن مرتديًا حلته السوداء المتهالكة، ذات المرفقين الرماديين، يرتديها على سرواله الأسود الحائل، مُنتعِلًا حذاءه المحشو ذا الكعب السميك والرباط الأسود المفكوك، وبدا مظهره مضحكًا. بعض الحراس يحيِّيه، والبعض الآخر يتجنَّبه بمجرد أن يقترب، ويسخرون منه ما إن يمر من جوارهم. لكن كل المساجين الذين يشتغلون في الطرقات ينظرون إليه نظرات تفيض امتنانًا، لأنهم ليس مسموحًا لهم أن يُحَيُّوه.

مر رجل الدين عبر عديد من الأبواب والدرجات الفولاذية، مستندًا إلى درابزين فولاذي. سمع بكاءً من إحدى الزنازين، وقف لوهلة، هز رأسه ثم واصل سيره متعجلًا. مر عبر طرقة فولاذية تفضي

إلى القبو، إلى يمينه ويساره أبواب مفتوحة للزنازين المظلمة، وزنازين العقاب، وأمامه اشتعل ضوء في غرفة. ظلَّ القس واقفًا ينظر إلى داخلها.

في الغرفة القبيحة القذرة جلس رجل إلى طاولة، محدقًا، بعينين مرتابتين، في سبعة رجال عرايا، واقفين أمامه تحت رقابة الحراس، يرتجفون من شدة البرد.

- هَهْ، يا حُلوُوْن! (غمغم الرجل)

ما الذي يجعلكم ترتجفون هكذا؟ أتشعرون قليلًا بالبرد؟ هذا ليس بردًا، ستعرفون البرد الحقيقي حينما تنزلون إلى القبو وتجلسون بين الحديد والأسمنت، لا تطعمون إلا الخبز والماء...

توقف عن الكلام إذ رأى شبحًا مراقبًا عند الباب.

- كبيرَ الحراس! (صاح متذمرًا)

أبعد الناس! كلهم صحيحو البنية وجاهزون للاعتقال. هاكَ الورقة!

وضع اسمه أسفل القائمة وناولها للموظف.

مر المساجين من جوار القس، ليس مِن دون أن يلقوا عليه نظرات تتوسَّل تعاطفه، ولا يزال يطل منها بصيص أمل.

انتظر القس إلى أن اختفى آخِرُهم، وبعدها دخل بكامل جسده إلى الغرفة وقال بصوت منخفض:

- إذًا 352 مات أيضًا. لقد كنت رجوتُك...

- وماذا يمكنني أن أفعل أيها القس؟ لقد جلست بنفسي اليوم ساعتين إلى جوار الرجل، ووضعت له كمادات.

- لا بد أني كنت نائمًا. إذ كنت أظن حتى الآن أنني سهرت طوال الليل إلى جوار 352. ولم تتحسن حال رئته، أيها الطبيب، 357 عانى التهابًا رئويًّا. أما هيرْجزِل المُتوفَّى في 352 فقد عانى كسرًا في الجمجمة!

- عليك إذًا أن تعمل هنا طبيبًا بدلًا مني! (قال الرجل المنتفخ متهكمًا)

وأقوم أنا على تهدئة الأرواح.

- أخشى فقط أنك ستكون راعيًا للأرواح أسوأ من كونك طبيبًا.

ضحك الطبيب:

- أحبك أيها القس اللطيف حين تصير وقحًا. ألا تريدني أن أفحص رئتك؟

قال القس غير مُبالٍ:

- كلا، لا أريد. نريد أن نترك هذه المهمة لطبيب آخر.

- لكن بدون فحص أستطيع أن أخبرك أنك لن تستمر لأكثر من ثلاثة أشهر!

(قال الطبيب بلؤم)

أعرفُ أنك تبصق دمًا منذ شهر مايو؛ لن يستغرق الأمر طويلًا إلى أن يحدث النزيف الأول.

ربما صار القس أكثر شحوبًا بعد تلك المصارحة الخبيثة، لكن صوته لم يرتعش وهو يقول:

- وكم من الوقت سيتبقى لأولئك الذين أمرتَ بنقلهم إلى المعتقل المظلم أيها السيد المستشار الطبي؟

- هؤلاء صحيحو البنية وقادرون على تحمُّل المعتقل المظلم، وَفقًا للفحص الطبي.

- من الواضح أنهم لم يُفحصوا من الأساس.

- هل تريد أن تفتِّش على مَهمَّاتي الوظيفية؟ أحذرك! فأنا أعرف عنك أكثر مما تظنُّ!

- ومع نزيفي الأول ستصبح معلوماتك بلا جدوى! وبالمناسبة لقد حدث بالفعل...

- ماذا؟ ما الذي حدث بالفعل؟

- نزيفي الأول، قبل ثلاثة أو أربعة أيام.

نهض الطبيب متثاقلًا:

- إذًا تعال معي أيها القس، سأفحصك في غرفتي بالأعلى. وسأحرص على أن تأخذ إجازة فورًا. سنكتب طلبًا يسمح لك بالذهاب إلى سويسرا، وإلى أن يُوافَقَ عليه سأرسلك إلى تورينجن.

وقف القس -وقد حاول نصفُ المخمور أن يمسك بذراعه- بلا حراك:

- وماذا سيحدث في تلك الأثناء للرجال المحبوسين في المعتقل المظلم؟ اثنان منهم على الأقل لن يتحملا بالتأكيد، البلل والبرودة والجوع، وسيفضي ذلك إلى أضرار مزمنة للسبعة جميعهم.

أجاب الطبيب:

- سيُعدَم ستون شخصًا في هذا المبنى. أُقدِّر أن خمسة وثلاثين في المائة من الباقين سيُحكم عليهم بالحبس. ماذا يعنيك في كل ذلك إن كنتَ ستموت عاجلًا أو آجلًا في غضون ثلاثة أشهر؟

- ما دمتَ تفكر بهذه الطريقة، فليس لك الحق أن تسمِّي نفسك طبيبًا. تَنَحَّ عن وظيفتك!

- الطبيب الذي سيأتي من بعدي لن يكون مختلفًا. لم التغيير إذًا؟

ضحك المستشار الطبي.

- تعال أيها القس، دعني أفحصك. أنت تعلم بالفعل أني أضعف تجاهك رغم أنك دائمًا ما تقف ضدي وتتحدَّث عني بسوء. يا لك من دون كيشوت غرير!

- أجل لقد كنت أتحدَّث ضدك وطالبت المدير بإعفائك من مهمتك وحصلت على ثلاثة أرباع موافقة.

بدأ الطبيب في الضحك. وربَّت على كتف القس صائحًا:

- يا له من عمل مغرور أيها القس اللطيف! عليَّ أن أكون ممتنًّا لك. لأنني حين أُعفَى سَأُرَقَّى بالتأكيد لأصبح كبير أطباء. ولن أكون في حاجة إلى فعل أي شيء مطلقًا. امتناني العميق أيها القس اللطيف!

- فلتُظهر هذا الامتنان من خلال جلبك لِكْرَاوْز والصغير فِينْتْ من المعتقل المظلم. فهُما لن يخرجا منه حَيَّيْنِ. لقد كانت حصيلة وَفَيَاتِ الأسبوعين الأخيرين أيضًا سبع حالات وفاة بسبب إهمالك.

- يا لك من مخاتِل! لكني لا أستطيع الآن أن أرفض لك طلبًا. سأُخرج الاثنين مساء اليوم. لكن الآن فورًا -بعد أن وضعتُ توقيعي على القائمة- فلن يكون ذلك في صالحي، ألا ترى ذلك أيها القس؟

59

تْرُودِل هيزْجِزِل، المولودة تاوْمَان

انفصلَتْ آنَّا جْفَانْجِل عن تْرُودِل هيزْجزِل بعد النقل إلى سجن التحقيقات. وصَعُب على تْرُودِل أن تُحرَمَ من «الأم». إذ كانت قد نسيت تمامًا أن آنَّا هي سبب اعتقالها، كلا، لم تنسَ ذلك، لكنها غفرت وسامحت. بل الأكثر أنها أدركت أنه ليس ثمة ما يقتضي المسامحة. ففي هذه التحقيقات لم يكن الواحد متيقِّنا تمامًا من أي شيء، لأن المفتشين السيِّئين يستطيعون دائمًا لَيَّ أيِّ ذِكر عارض غيرِ مُؤذٍ وتحويله إلى شَرَكٍ يسقط فيه الإنسان بلا أمل في الخلاص.

والآن صارت تْرُودِل بلا أُم، لم يعد لها أحد يمكن أن تتحدَّث معه. أما السعادة التي امتلكتها ذات يوم، وقَلَقُها على كارْلِي الذي يملؤها ذعرًا، فلم تجد من تحدِّثه عنهما. وتحتَّم عليها أن تلتزم الصمت. زميلتها الجديدة في الزنزانة كانت سيدة متقدمة في السنِّ وشقراء، ولقد كَرِهَت كلٌّ منهما الأخرى من النظرة الأولى، وكثيرًا ما كانت تلك السيدة تتهامس مع الحارسات والمراقبات. وحين يجيء القس إلى الزنزانة، لا تدعُ أي كلمة تفوتُها.

وعن طريق القس عرفت تْرُودِل شيئًا عن زوجها كارْلِي. أما السيدة هينْزِلْ، رفيقتها في الزنزانة، فكانت في الأمام عند الإدارة في ذلك الوقت، بالتأكيد من أجل أن تشِيَ بشخص من خلال ثرثراتها.

حكى القس لتْرُودِل أن زوجها معها في نفس السجن، غير أنه راقد بسبب المرض، وغائب عن الوعي في معظم الأحيان، لكنه رغم ذلك يبعث إليها بالتحية.

ومنذ ذلك الحين تعيش تْرُودِل على أمل أن يزورها القس. وحين تكون هينْزِلْ معها فدائمًا ما كانت ترهقه بالسؤال عن أي أخبار. وعادة ما كانا يجلسان أسفل النافذة وقد قرَّبَا كرسيَّيْهما، ثم يقرأ القس عليها فصلًا من العهد الجديد، فيما تقف هينْزِلْ لدى الحائط المقابل، مسدِّدةً بصرها نحو الاثنين.

بالنسبة إلى تْرُودِل كان الإنجيل شيئًا جديدًا. فهي قد تخرَّجت في مدارس هتلر بلا دِين، وقطُّ لم تستشعر أي حاجة إلى الدين. لم يكن الربُّ يشكِّل لديها أيَّ معنًى، كان مجرد كلمة في نداءات مثل «آه، يا إلهي الرحيم!»، وكان يمكن للواحد أن يقول «أَخْ أيتها السماء!» بدلًا منها.. ولا يشكل ذلك أي فرق.

والآن، وقد عرفت عن حياة المسيح من إنجيل مَتَّى، قالت للقس إنها لا تستطيع أن تتخيَّل أنه ابن الرب. لكن القس لُورِينْتس ابتسم برقة قائلًا إن هذا لا يضير شيئًا. وإن عليها فقط أن تنتبه كيف عاش السيد المسيح على هذه الأرض، وكيف أحب الناس، حتى أعداءه. أما «المعجزة» فلتتلقَّاها كما تشاء، مثل الحكايات الخرافية الجميلة، لكن عليها أن تعلم، أن الطريقة التي عاش بها إنسان على هذه الأرض -لدرجة أن أثره المضيء بقي حتى بعد انقضاء ألفي عام تقريبًا- لهي الدليل الخالد على أن الحب أقوى كثيرًا من الكراهية.

تْرُودِل هيرْجزِل، التي كانت تكره بقوة كما تحب بقوة، وشعرت عند تلقِّي ذلك المبدأ بكراهية من أعماق قلبها تجاه السيدة هينْزِلْ الواقفة على بعد 3 أمتار منها، إذ إنها -تْرُودِل هيرْجزِل- قد تمرَّدت في البداية على تلك التعاليم، وبدا لها أن ذلك لِيْنٌ زائد على الحد- لم يكن يسوع المسيح هو من يجعل قلبها أكثر استقبالًا، بل كان القس فْرِيدْرِيش لُورِينْتس. فهي حينما تراقب ذلك الرجل، الذي لم يكن بوسع أحد ألا يلاحظ مرضه، وحينما لاحظت أنه يشاركها معاناتها كأنها معاناته الخاصَّة، وأنه لا يفكِّر أبدًا في نفسه، حينما أدركت شجاعته عندما دسَّ ورقة في يدها في أثناء القراءة تحمل خبرًا عن كارْلِي، وعندما سمعته يتحدَّث جيِّدًا عن هينْزِلْ الواشية مثلما يتحدَّث عنها، رغم أنه يعلم تمامًا، أنها في كل دقيقة قادرة على الوشاية به، وتسليمه إلى حبل المشنقة- كانت تستشعر شيئًا يشبه السعادة، والسلام العميق، الذي يصدر عن ذلك الرجل الذي لا يكره ولا يريد سوى تقديم المحبة، حتى لأسوأ البشر.

هذا الشعور الجديد لم يجعل تْرُودِل هيرْجزِل تتعامل بلطف أكبر مع هينْزِلْ، لكنها صارت لا تبالي بها، ولم تعد الكراهية تهمها.

كان يمكن لها في بعض الأحيان أن تقف أمام هينْزِلْ عبر جَوْلِها في الزنزانة وتسألها: «لم تفعلين ذلك حقًّا؟ لم تَشِينَ بكل الناس؟ هل تأملين في تخفيف العقوبة؟».

لم تكن هينْزِلْ تشيح نظرتها الصفراء الشريرة حينما تطرح عليها تْرُودِل سؤالًا كهذا. إما تمتنع عن الإجابة وإما تقول: «أتعتقدين أني لم أَرَ كيف تضغطين نهديك على ذراع القس؟ يا للحقارة أن تشتهي

إغواء رجل شبه ميت! لكن انتظري سوف أضبطكما مرة أخرى! سوف أضبطكما!».

وظل الأمر الذي ستضبط فيه هينْزِلْ القسَّ مع تْرُودِل هيزْجزِل غير واضح. كانت تْرُودِل تتعامل مع تلك الإهانات بضحكة قصيرة ساخرة، وتواصل تجوالها اللا نهائي في الزنزانة، لا يشغلها إلا التفكير في كارْلِي. لم يكن من الممكن إنكار أن أخباره تسوء، مهما حرص القس على صياغتها بحذر وَتَوَقٍّ. وحينما يقال ألا جديد لأن حالته مستقرة فهذا يعني أن كارْلِي لم يرسل إليها تحية، ما يعني أنه فقد الوعي. لأن القس لم يكن يكذب، هذا ما عرفته تْرُودِل كذلك، فهو لن يخبرها عن تحية لم يطلب أحدٌ نقلها. وكان يحتقر أي مواساة رخيصة يمكن أن ينكشف كذبها يومًا ما.

لكن أيضًا من خلال التحريات وقاضي التحقيقات عرفت تْرُودِل أن وضع زوجها صعب. إذ لم يُشَرْ إليه في أي أقوال جديدة، وهي التي صار عليها أن تدلي بأقوالها في كل شيء، وهي لم تكن بالفعل تعلم شيئًا عن حقيبة جْرِيجُولَايْت التي زجت بكليهما في الشقاء. ورغم أن أساليب قاضي التحقيقات لم تكن بتلك القسوة الوضيعة والوحشية مثل وسائل المفتش لَاوْبْ لكنه تميز بنفس إصراره. كانت تْرُودِل تعود إلى زنزانتها من تلك الجلسات منهكة تمامًا، وخائرة القوى ويائسة.

أَخْ كارْلِي! كارْلِي! لو أنها تراه لمرة أخيرة، تجلس في حجره، تمسك يده، بسكون تام، بدون أن تنبس بأي كلمة!

كان وقتٌ ظنَّت فيه أنها لا تحبه، وأن ليس في وسعها أن تحبه. أما الآن فيبدو أنها غارقة فيه، وأنه الهواء الذي تتنفسه، كان هو. الخبز الذي تطعمه، الغطاء الذي يدفئها. كان قريبًا جدًّا، بضع طرقات، بضعة سلالم، باب. لكن ليس في العالم كله من بقي في قلبه ذرة من رحمة فيسمح لها أن تذهب إليه! حتى ذلك القس المريض بالسُّلِّ!

فكلهم قلقون على حياتهم الثمينة، لكنهم لن يخاطروا بشيء جدِّي لمساعدة حالة ميؤوس منها. وفجأةً وَرَدَ على خاطرها ذكرى قبو الجثث في سجن الجيستابو. ورجل الشرطة العسكرية الطويل الذي أشعل سيجارة لنفسه وقال لها «يا فتاة! يا فتاة!»، وبحثُها بين الجثث بعد أن خلعت هي وآنّا الملابس عن بِيرْتَا المتوفاة. وبدا لها أن تلك اللحظة كانت ساعة رحيمة لطيفة حين سمح لها أن تبحث عن كارْلِي. والآن؟ القلب الخافق وحيد، حبيسٌ ما بين الحديد والحجر!

أغلق الباب ببطء شديد وبصوت أكثر انخفاضًا من إغلاق الحارسات، بل لقد سمعت طَرْقًا على الباب؛ إنه القس.

- هل يمكنني الدخول؟ (سأل)

- تفضل. تعال من فضلك أيها القس! (تصيح تْرُودِل هيرْجزِل باكية)

فيما تغمغم السيدة هينزيل بنظرة تملؤها الكراهية: وماذا يريد هذا ثانية؟

وفجأةً تسند تْرُودِل رأسها إلى صدر رجل الدين الضيق متسارع الأنفاس، وتسيل دموعها، تدفن رأسها في صدره وتتضرع: «أيها

القس، أنا خائفة جدًّا! لا بد أن تساعدني! لا بد أن أرى كازْلِي، مرة واحدة فقط! أشعر أنها ستكون المرة الأخيرة...».

والصوت الحاد من السيدة هينزيل:

- سأبلغ عن هذا! سأبلغ عن هذا فورًا!

فيما القس يمسح على رأس تْرُودِل مواسيًا ويقول:

- أجل يا صغيرتي، عليك أن تريه، لمرة أخيرة!

هزَّهَا نشيج قوي، وقد علِمَتْ أن كازْلِي مات، وأنها لم تكن تبحث عنه عبثًا في قبو الجثث، وأن ذلك كان مجرد تهيئة ونذير.

ثم صاحت:

- لقد مات! لقد مات أيها القس!

أما هو فأجابها مُقدِّمًا التعزية الوحيدة في استطاعته، قائلًا:

- صغيرتي، لم يعد يعاني. أنتِ أصعب حالًا!

سمعته. أرادت أن تفكر في ذلك، وتحسن فهمه، لكن الدنيا أظلمت في عينيها. انطفأ الضوء ومال رأسها.

- أمسكيها معي يا سيدة هينْزِلْ! (توسل القس)

أنا أضعف من أن أحملها!

ثم ساد الظلام بالخارج كذلك. ليل وظلام.

استيقظت تْرُودِل، أرملة هيرْجزل، وعرفت أنها ليست في زنزانتها، وعرفت ثانيةً أن كازْلِي مات. رأته راقدًا مرة أخرى على حشيته الرقيقة، بوجهه الصغير المنكمش، وهي تفكر في وجه الطفل الذي ولدته، ويختلط الوجهان بعضهما ببعض، وهي تعلم، أنها فقدت كل

شيء لها في هذا العالم، الطفل والزوج، وأنها لن تحب ثانية أبدًا، ولن تلد أطفالًا أبدًا، وكل هذا لأنها وضعت بطاقة لأجل رجل عجوز على إفريز نافذة. وأن هذا حطم حياتها كلها وحياة كازْلِي، وأنه لن يكون لها أبدًا لا شمس ولا سعادة ولا صيف ولا أزهار.

«أزهار على قبري، أزهار على قبرك...».

ومع الألم الهائل الذي ينتشر داخلها، وينشر داخلها برودة مثل الجليد، أغمضت عينيها مرة أخرى وأرادت العودة إلى الظلام والنسيان. لكن الليل في الخارج ظلَّ هناك، ولم يتسلَّل إليها، ثم فجأةً سرت داخلها حرارة؛ قفزت من السرير صارخة، تريد الخروج، والركض، والفرار من ذلك الألم القبيح، لكنَّ يدًا أمسكتها...

طلع النهار، ومرة أخرى كان القس هو الذي إلى جوارها وأمسك بها. أجل إنها زنزانة غريبة، إنها زنزانة كازْلِي، لكنهم نقلوه، والرجل الذي رقد هنا في الزنزانة مع كازْلِي، نقل أيضًا.

- إلى أين نقل؟ (سألت بأنفاس مقطوعة كأنها ركضت طريقًا طويلًا)

- سأتلو صلواتي فوق قبره.

- وفيم تساعده صلواتك الآن؟ لو أنك صليت من أجل حياته حينما كان لا يزال في الوقت متسع!

- لقد وصل إلى السلام يا صغيرة!

- أريد أن أمشي من هنا! (قالت ترُودِل محمومة)

أرجوكَ، دعني أعود إلى زنزانتي أيها القس! معي هناك صورة له، أريد أن أراها. الآن فورًا. كان شكله مختلفًا.

وفيما هي تتحدَّث على ذلك النحو، كانت تعرف تمامًا أنها تكذب على القس الطيب وأنها تريد خداعه. لأنها لا تملك أي صورة لكازْلِي ولا تريد مطلقًا أن تعود إلى الزنزانة التي فيها السيدة هينزيل.

وبشكل عابر قال صوت في رأسها: «لقد جننتُ، لكن عليَّ الآن أن أتصرَّف جيِّدًا كي لا يلاحظ؛ فلأُخْفِ جنوني لخمس دقائق!».

أسندها القس من ذراعها وأخرجها من الزنزانة عبر كثير من الطرقات والسلالم عائدًا بها إلى سجن النساء، وهي تسمع من كل زنزانة صوت أنفاس نوم عميق، ومن أخرى أصوات خطوات لا تهدأ، ومن ثالثة بكاءً تعسًا، بَيْدَ أنه ليس مَن هو أتعس منها.

لكن القسَّ فتح بابًا وأغلقه وراءها، لم تأخذ ذراعه ثانية، ومضى كلاهما صامتًا عبر الممر المظلم الذي يحوي زنازين الحبس الانفرادي -تلك التي لم ينفذ الطبيب المخمور وعده بإخراج الرجلين منها- أما الآن فيصعدان سلالم كثيرة إلى سجن النساء حتى المحطة (V)، التي وُضعت فيها تْرُودِل.

قابلتهما هناك في الممر الأعلى إحدى الحارسات وقالت:

- الآن ليلًا في الحادية عشرة وأربعين دقيقة تعيد هيرْجزِل أيها القس؟ أين كنت بها كل ذلك الوقت؟

- لقد ظلت ساعات طويلة فاقدة للوعي. لقد مات زوجها كما تعرفين.

- هكذا! وأنت قدَّمتَ مواساتك للشابة أيها القس؟ جميل جدًّا. لقد حكت لي السيدة هينزيل أنها دائمًا ما تتعلَّق برقبتك بكل وقاحة. لا بد أن هذه المواساة الليلية جميلة جدًّا! سأسجل ذلك في دفتر الحراسة!

ولكن قبل أن يتفوَّه القس بأي كلمة دفاع ضد تلك الاتهامات، رأى كلاهما السيدة تْرُودِل، أرملة هيزْجزِل، قد تسلقت القضبان الحديدية للممرِّ. ظلَّت واقفة لبرهة هناك، تمسك بالدرابزين معطية إياهم ظهرها.

فصاحا: «توقفي! كلا! كلا أرجوكِ!».

ثم حاوَلَا الاقتراب منها مادَّيْنِ أيديهما محاولين الإمساك بها.

لكنها مثل سبَّاحة ماهرة تريد أن تقفز برأسها، قفزت تْرُودِل هيزْجزِل إلى الأعماق. سمِعَا صوت رفرفة، واندفاع، ثم ارتطام.

وبعدها ساد سكون المَوَات، فيما الوجوه الشاحبة انحنت لتنظر عبر الدرابزين بدون أن ترى.

ثم خَطَوَا خطوة نحو السلالم.

وفي نفس اللحظة اندلعتِ الجحيم.

كأنَّه كان من الممكن للمحبوسين في زنازينهم خلف الأبواب الحديدية أن يروا المشهد كاملًا. ربما بدأ الأمر بصرخة هيستيرية، لكنه انتقل من زنزانة إلى أخرى، ومن محطة إلى أخرى، ومن جناح إلى جناح سائرًا نحو النهاية.

وفيما هو لا يزال يركض تحوَّلت الصرخة إلى عويل، وعواء، وجعجعة، وشجار، وزمجرة.

«أنتم قتلة! لقد قتلتموها! ستقتلوننا جميعًا أيها الجلادون!».

وكان ثمة مَن تعلقوا بالنوافذ وظلوا يصرخون في اتجاه الأحواش، ما أدى إلى استيقاظ الرجال من نومهم فزعين، فانضمُّوا إلى الصراخ والعويل والدقِ والصفق والاشتعال والشخير، واليأس.

جأر الجميع بالشكوى، ألف، ألفان، ثلاثة آلاف صوت، حتى الحيوانات جأرت بالشكوى وتعالى الصياح من ألف، ألفين، ثلاثة آلاف خطم.

ودُقَّ جرس الإنذار. ودقت قبضات الأيدي على الأبواب الفولاذية، وقذفت الكراسي الخشبية عليها. سقطت الأسرَّة الحديدية محدثة رنينًا، ثم رفعت لتقذف ثانية، وسُمع صوت تحطم صحون الطعام على الأرضية، واصطكت أغطية البالوعات، المبنى بكامله، ذلك السجن الضخم انتشرت فيه رائحة مئات المراحيض.

وحضرت قوات الشرطة الاحتياطية حاملة هراوات مطاطية.

وفُتحت أبواب الزنازين؛ اصطكاك وخشخشة!

فرقع صوت الهراوات المطاطية على الرؤوس وتعالى صوت صراخ الغاضبين، مختلطًا بِدَبْدَبةِ الأرجل المصطرِعة والصراخ العالي الذي يشبه خوار الحيوانات، مع تهليلات المهرجين والحمقى وصفيرهم المدوِّي...

واصطفق ماء ألقي بوجه المراقبين الذين اقتحموا المكان.

وفي غرفة الجثث رقد كارْلِي هيرْجزِل ساكنًا تمامًا بوجهه المسالم الطفولي الصغير.

لقد مثَّل كل ذلك سيمفونية وحشية، مرعبة وقاتمة، عُزفَت على شرف تْرُودِل، أرملة هيرْجزِل، المولودة بَاوْمَان.

لكنها كانت راقدة في الأسفل، نصفها على القرميد، ونصفها الآخر على الأسمنت القذر لـ«المحطة السفلى i».

رقدت هناك بمنتهى السكون، يدها الصغيرة الخشنة التي لا تزال تحمل صفات الصبايا مفتوحة قليلًا، وشفتاها ملونتان بالدم، وعيناها تنظران بلا هدف نحو وجهة مجهولة.

لكن بدا أن أذنيها تسمعان ضوضاء الجحيم التي ترتفع مثل موجة عاتية ثم تنخفض. كان جبينها متغضنًا كأنها تتأمل متعجِّبة إن كان هذا هو السلام الذي وعدها به القس الصالح لُورِينْتس.

وفي أعقاب حادث الانتحار هذا أُوقِفَ القس فْرِيدْرِيش لُورِينْتس من وظيفته، لا الطبيب السكير. واتُّخِذ إجراء ضد رجل الدين. لأن هذه جريمة وتسهيل جريمة، حين يُسمح لسجين أن يتَّخذ قرار إنهاء حياته بنفسه.. فهذا حق مكفول فقط للدولة وخُدَّامها.

عندما يجرح موظف جنائي رجلًا بمسدسه لدرجة أن يصبح مريضًا حد الموت، وعندما يترك الطبيبُ السكيرُ الجريحَ يموت، فكل هذا لا شية فيه. لكن عندما لا يوقف رجل الدين عملية انتحار سجين محظور عليه أن يمتلك إرادة حرة، لأنه يتحتَّم أن يتخلَّى عنها تمامًا، فبهذا يكون القس قد اقترف جرمًا وعليه أن يكفر عنه.

ومع الأسف حَرَم القسُّ لُورِينْتس جلاديه من رؤيته وهو يدفع ثمن جريمته -تمامًا كما فعلت تلك الفتاة هيرْجزِل- عن طريق أنه نزف حتى الموت، وتحديدًا في اللحظة التي كان سيُعتقل فيها. إذ تنامت الشكوك أيضًا حول إقامته علاقات لا أخلاقية مع رعاياه. بَيْدَ أنه تمتع بالسلام، تمامًا كما قال، ورُحِم من عذاباتٍ جمة.

لكن حدث أن السيدة آنَّا جْفَانْجِل لم تعرف خبر موت تِرْودِل وكارْلْ هيرْجزِل حتى حان موعد المحاكمة الرئيسية، لأن من جاء بعد «الراعي الصالح» كان خائفًا جدًّا، أو لا يريد أن يلعب دور المرسال ما بين المساجين. واقتصر عمله بحزم على تقديم الرعاية الدينية حيث يُطلَب إليه ذلك.

telegram @
yasmeenbook

60

المحاكمة الرئيسية: لقاء

حتى مع أكثر الأنظمة دقَّةً يمكن أن تقع بعض الأخطاء. فحوش محكمة الشعب في برلين هو حوش محكمة لا يمتُّ بصلة إلى الشعب، ولا يسمح بدخوله ولا حتى لِمُشاهِدٍ أبكم، إذ إن معظمَ الجلسات سريٌّ. وهكذا كان النظام، فقبل أن يدخل المدَّعَى عليه إلى قاعة المحكمة كان عمليًا وبالفعل محكومًا عليه، ولم يظهر ما يدل على أنه قد يعايش تجرِبة جيدة في تلك القاعة.

في ذلك الصباح كانت مسألة صغيرة مُجَدْوَلَة: قضية ضد أُوتُّو وآنَّا جْفَانْجِل بسبب الخيانة العظمى للدولة. أما القاعة فبالكاد امتلأ ربع سعتها، برجال يرتدون الزي الرسمي للحزب، وبعض رجال القانون الذين أرادوا حضور تلك المحاكمة لأسباب غير معلومة، وبالأساس طلبة القانون الذين أرادوا تعلُّم كيف تمحو العدالة أناسًا عن وجه البسيطة، تمثلت كل جريمتهم في أنهم أحبوا بلادهم أكثر مما أحبها القضاة الذين يحاكمونهم. كل هؤلاء الناس حصلوا على بطاقات دخول بفضل «علاقاتهم». وظلَّ من غير المعلوم، كيف تمكن الرجل القصير ذو اللحية المدببة البيضاء والعينين اللتين يحيط بهما تجاعيد ذكية، كيف تمكن المستشار المتقاعد بمحكمة الاستئناف فْرُومْ، من الحصول على بطاقته. لكنه على أي حال جلس على نحو

لا يلفت الانتباه بين الحاضرين، مبتعدًا عنهم قليلًا، مُخفضًا وجهه، وكثيرًا ما يُلمّع نظارته ذات الإطار الذهبي.

أدخل أحد رجال الشرطة أُوتُّو جْفَانْجِل إلى قاعة المحكمة في تمام الساعة العاشرة إلا خمس دقائق. ألبسوه الثياب التي كان يرتديها وقت القبض عليه في المصنع، ملابس عادية نظيفة لكن شديدة التجعد لدرجة أظهرت الثنايا التي حال فيها لونها الأزرق على خلفية من الأزرق الأصلي الدَّاكن. تنقلت نظراته الحادة اللا مكترثة من المنصة التي لا تزال فارغة إلى الحاضرين، والتمعت لثوانٍ حين رأت المستشار فْرُومْ. ثم جلس جْفَانْجِل على كرسي المتهم.

وبعد الساعة العاشرة بقليل دخلت المتهمة الثانية آنَّا جْفَانْجِل، وقد أمسك بها شرطي آخر، ثم الآن وقع الخطأ التالي: بمجرد أن رأت آنَّا جْفَانْجِل زوجها، توجهت نحوه بدون تردُّد وبدون أن تحسب حساب الناس في القاعة وجلست إلى جواره.

همس أُوتُّو جْفَانْجِل خلف اليد المرفوعة: «لا تتحدَّثي! ليس الآن!».

لكن التماع عينيه قال لها كم هو سعيد بهذا اللقاء.

ما كان بالطبع ليحدث قطُّ ومطلقًا -وَفقًا لتعليمات هذا المبنى- أن يُسمح لمتَّهَمَيْنِ -كان الحرص على عزلهما بعضهما عن بعض في الشهور السابقة عظيمًا- أن يتركا لمدة ربع ساعة قبل بدء المحاكمة فيتكلمان بمنتهى الأريحية. بَيْدَ أن الذي حدث هو أن كِلا الشرطيين المصاحبين لهما كان في يومه الأول بالخدمة، فنسيا التعليمات، أو لم يُوْلِيَا هذا الإجراء أهمية كبرى، أو لعله قد بدا لهما أن هذين

الشخصين المرتديين ملابس وضيعة غيرُ مهمَّيْنِ على الإطلاق، بالقدر الذي لم يجعلهما يوليان تحرُّك السيدة آنَّا من مكان جلوسها أهمية تذكر، ولم يكترثا لوجود المتهمين لمدة ربع ساعة متجاورين. بل الأنكى أنهما بدَءَا حديثًا مثيرًا حول مَهمَّات المهنة، وعن منعهما من أجر إضافي مقابل وردية الليل، والخصم المرتفع من أجرهما لصالح الضرائب.

أيضًا في الحضور -خلا المستشار القضائي فْرُومْ- لم يلاحظ أحد هذا الخطأ. فكلهم كانوا مهملين، ومتكاسلين، ولم ير أحد في ذلك ما يضير الرايخ الثالث ويصب في صالح اثنين من المتهمين بالخيانة العظمى. إنها مجرد محاكمة لاثنين فقط من الطبقة العاملة وليس من المنتظر أن تُحدِث تأثيرًا كبيرًا. فهنا اعتاد الناس محاكماتِ وحوشٍ، مدرج في أوراقها ثلاثون أو أربعون متهمًا، عادة لا يعرف بعضهم بعضًا، لكنهم يُفاجَؤُون في أثناء سير المحاكمة أنهم جميعًا متآمرون معًا، ولهذا يُحاكَمون معًا.

وهكذا تمكن جْفَانْجِل -بعد مضي عدة ثوان من التجوال ببصره- أن يقول:

- أنا سعيد يا آنَّا. هل أنتِ بخير؟
- نعم يا أُوتُّو، لقد صرتُ الآن بخير ثانية.
- لن يتركونا نجلس متجاورين مطولًا. لكن فلنبتهج بهذه اللحظات. أَوَاضح لكِ ما نحن مقبلون عليه؟

بصوت منخفض جدًّا:

- نعم يا أُوتُّو.

- نعم، حكم الإعدام لكلينا يا آنَّا. لا مفر.
- لكن، أُوتُّو...
- كلا يا آنَّا، بدون «لكن». أعلم أنك حاولت أن تنسبي كل الذنب إلى نفسك...
- لن يقسوا في حكمهم على سيدة، وربما تنجو أنت بحياتك.
- كلا، لا. أنت غير قادرة على الكذب الجيد. فقط سوف تطيلين أمد المحاكمة. دعينا نقول الحقيقة لِنُنهِ الأمر بسرعة.
- لكن يا أُوتُّو...
- كلا يا آنَّا. لا «لكن» الآن. فكري في الأمر. دعينا لا نكذب. سنقول الحقيقة كاملة...
- لكن يا أُوتُّو...
- آنَّا، أرجوكِ!
- أُوتُّو، أريد حقًّا أن أنقذك. أريد أن أعرف أنك على قيد الحياة!
- آنَّا، أرجوكِ!
- أُوتُّو، لا تصعِّب الأمر عليَّ!
- هل سيُكذِّب بعضنا بعضًا أمام هؤلاء؟ نتشاجر؟ نقدم لهم عرضًا مسرحيًّا؟ الحقيقة الكاملة يا آنَّا!

كانت تصارع نفسها. ثم استسلمت مثلما تستسلم أمامه دائمًا.

- حسن يا أُوتُّو، أعدكَ بذلك.
- شكرًا يا آنَّا. أشكرك شكرًا جزيلًا.

صمتًا. وأخفضا رأسيهما. شعر كل منهما بالخجل من إظهار تأثره.

صار صوت الشرطي خلفهما مسموعًا: «وبعدها قال الملازم، الملازم، قال، لا يجب أن تفعلوا ذلك بي، أيها الملازم، قال...».

أعطى أُوتُّو جْفَانْجِل نفسَهُ دفعة. تعين عليه أن يقدم على ذلك الأمر. سيكون الأمر أكثر سوءًا لو أنها عرَفَتْ في أثناء المحاكمة. والعواقب لا يمكن التنبؤ بها.

- آنًا.. (قال هامسًا)

أنتِ قوية وشجاعة أليس كذلك؟

- نعم يا أُوتُّو؛ أصبحت كذلك منذُ جلست إلى جوارك. هل هناك ما يسوء؟

- نعم يا آنًا. وقع أمر سيِّئ...

- ماذا حدث يا أُوتُّو؟ أخبرني! إن كنتَ أنت تخشى أن تخبرني يصيبني أنا أيضًا الخوف.

- آنًا، أنت لم تسمعي شيئًا عن جِيرْتُرُود؟

- أيَّ جِيرْتُرُود؟

- أقصد تْرُودِل!

- تْرُودِل! ما لها؟ كلا، منذ أن كانت معي في سجن التحقيقات لم أسمع شيئًا عنها. لقد افتقدتها كثيرًا. كانت طيبة للغاية معي. وسامحتني أني وشيت باسمها.

- أنتِ لم تشي بها، أنت لم تشي بتْرُودِل! كنت أظن ذلك في البداية لكني فهمت الأمر بعد ذلك.
- أجل، هي أيضًا فهمت الموضوع. كنت مشوشة بعد التحقيق الأول مع لَاوْبْ المريع لدرجة أني لم أعد أعرف ما أقول، لكنها تفهمت. وسامحتني.
- يا إلهي يا آنًا! كوني شجاعة وقوية! لقد ماتت تْرُودِل.
- آه! (تنهَّدت آنًا ووضعت يدها على قلبها)

وأضاف بسرعة كي ينجز كل شيء مرة واحدة: «وزوجها أيضًا مات!».

ولمدة طويلة لم تحر جوابًا. جلست واضعة يديها أمام وجهها، لكن أُوتُّو شعر أنها لم تبكِ، وأنها مثل المخدرة من أثر الخبر المريع. وتلقائيًا تحدث بالكلمات التي قالها القس لُورِينْتس وهو ينقل إليه الخبر:

- لقد ماتا. إنهما ينعمان بالسلام. ورُحِمَا من عذابات جمَّة.
- أجل! (قالت آنًا)

نعم. لقد كانت تخشى كثيرًا على زوجها كارْلِي عندما لم يأتِ عنه أي خبر. لكنها الآن تنعم بالسلام.

صمتت طويلًا وجْفَانْجِل لم يضغط عليها مع أنه لاحظ من ضوضاء القاعة أن هيئة المحكمة سرعان ما ستدخل.

وبصوت خفيض سألَتْ آنًا:

- هل شُنِقَ الاثنان؟

- كلا؛ لقد مات من آثار ضربة نالته في أثناء الاعتقال.

- وتْرُودِل؟

- لقد أنهت حياتها بنفسها.. (قال أُوتُّو جْفَانْجِل بسرعة)

لقد قفزت من الدور الخامس. وماتت على الفور كما قال القس لُورِينْتس. لم تُعانِ.

- لقد حدث ذلك ليلًا.. (تذكَّرت آنَّا جْفَانْجِل فجأةً)

حينما شرع السجن كله في الصراخ! الآن أعرف يا أُوتُّو، كم كان هذا مريعًا!

ثم غطت وجهها.

- أجل، كان ذلك مريعًا (كرر جْفَانْجِل)

حتى عندنا كان مريعًا.

وبعد وهلة رفعت رأسها ثانية وثبَّتت نظرها على أُوتُّو. كانت شفتاها لا تزالان ترتعشان، لكنها قالت:

- هذا أفضل. كانت الحال ستكون مريعة لو أنهما يجلسان إلى جوارنا هنا. أما الآن فهما ينعمان بالسلام.

وبصوت خفيض تمامًا:

- أُوتُّو، أُوتُّو. يمكن أن نفعل نفس الشيء!

ثبَّت نظره عليها وهي رأت في عينيه القاسيتين الحادتين ضوءًا لم تَرَهُ من قبل مطلقًا، ضوء ساخر كما لو أن كل شيء ليس إلا لعبة، ما تقوله الآن، وما سيأتي، والنهاية التي لا يمكن تجنُّبُها. كما لو أن كل ذلك لا يساوي أن يُحمل على محمل الجد.

ثم هز رأسه ببطء:

- كلا يا آنَّا، لن نفعل ذلك. لن نسرق حياتينا كأننا مجرمان متلبسان بالتهمة. ولن نوفر عليهم النطق بالحكم. ليس نحن! (ثم بنبرة مختلفة تمامًا)

لقد فات أوان كل ذلك. ألن يُشَدَّ وثاقك؟

- بلى.. لكن عندما أدخلني الشرطي ووصلنا إلى الباب فكَّ عني السلسة.

- أترين؟! ستخفق المحاولة.

كَتَمَ عنها أنه مقيد بالسلاسل منذ نُقِلَ من سجن التحقيقات، أصفاد في اليدين وسلسلة وأصفاد في القدمين، وقضيب حديدي. ومثل آنَّا نزع عنه الشرطي كل تلك المجوهرات أمام الباب.

- لا ينبغي أن نخدع الدولة ونقدِم لها عددًا أقل من الضحايا الذين ينتظرهم السلخ.

- حسن إذًا.. (قالت)

لكن هل تعتقد يا أُوتُّو أننا سنُشنق معًا؟

- لا أعرف..

قال متحاشيًا. لم يكن يريد أن يكذب عليها رغم أنه يعرف أن كل واحد منهما سيتحتم عليه أن يموت وحده.

- لكن هل سيعدموننا في نفس الساعة؟

- بالتأكيد يا آنَّا، بالتأكيد سيفعلون ذلك!

لكنه لم يكن متيقِنا تمامًا. فواصَلَ:

- لكن لا تفكري في ذلك الآن. فكري فقط أن علينا الآن أن نبقى أقوياء. وعندما يعلنون إدانتنا ستسير الأمور بسرعة كبيرة. عندما لا نسوق مبررات ولا نكذب ربما نحصل على الحكم في غضون نصف ساعة.

- أجل نريد أن نفعل ذلك. لكن يا أُوتُّو عندما تسير الأمور بتلك السرعة الكبيرة، سيُفصَل بيننا ثانية أيضًا بسرعة كبيرة. وربما لن يرى بعضنا بعضًا ثانية.

- بالتأكيد سيرى بعضنا بعضًا ثانية -قبل أن يحدث- يا آنًّا. قيل لي ذلك. سيكون لنا فرصة للوداع. بالتأكيد يا آنًّا!

- إذًا كل شيء على ما يرام. يا أُوتُّو، إذًا سيكون لديَّ شيء مبهج أتطلع إليه في كل ساعة. والآن نحن جالسّان معًا.

جلسا متجاورين لمدة دقيقة أخرى ثم اكتُشِفَ الخطأ وأُبعِدَ كل منهما عن الآخر. كان عليهما أن يديرا رأسيهما كي يتمكّنا من رؤية بعضهما بعضًا. وحمدًا لله أن محامي السيدة جْفَانْجِل هو من اكتشف الخطأ، وهو رجل ودود متقدم في السن وميسور الحال، عينته المحكمة كمحام إلزامي لأن جْفَانْجِل أصرَّ على عدم إنفاق المال على أمر غير مُجْدٍ مثل أتعاب المحاماة.

ولأن المحامي هو من اكتشف الخطأ، سارت الأمور من دون كثيرِ صراخ. وكان لكلا الشرطيين كل سبب يدفعهما إلى إغلاق أفواههما، وهكذا لم يَدْرِ فَايْسْلِر، رئيس محكمَة الشعب، بالأمر المحظور الذي وقع هنا. وإلا لربما استغرقت المحاكمة وقتًا أطول بكثير.

61

المحاكمة الرئيسية ورئيسها فَايْسلِر

تمتَّع فَايْسْلِر رئيس محكمة الشعب، أعلى قاضٍ في الأراضي الألمانية في ذلك الوقت، بمظهر الرجل المثقف، أو «الرجل الراقي» وَفْقَ مصطلح الحِرفيِّ أُوتُّو جْفَانْجِل. إذ هو من النوع الذي تظهر عليه آثار النعمة. كما أن القلنسوة أضفت على رأسه وقارًا، على خلاف عديد من الآخرين الذين لم تُضْفِ على رؤوسهم شيئًا وبدَتْ مثبتة عليها سُدًى. كانت عيناه ذكيتين لكن باردتان، وجبينه مرتفع جميل، لكنَّ فمه وضيع، هذا الفمَ ذا الشفتين القاسيتين اللتين تحبَّان الملذات، ووَشَتَا بشهوانيته، وبأنه لا يسعى في الدنيا إلا وراء اللذة، بل دائمًا ما يجعل الآخرين يدفعون ثمنها.

له يدان بأصابع طويلة ذات عقد. تلك الأصابع كانت أيضًا وضيعة، أصابع مثل مخالب العقبان؛ عندما يطرح مثلًا سؤالًا جارحًا تَحْدَوْدِبُ كأنَّها تنبش لحم الضحية. طريقته في الكلام وضيعة؛ هذا الرجل لا يتحدَّث أبدًا بهدوء وموضوعية، بل ينقض على ضحيته مهاجِمًا، مقرِّعًا إياها بالسباب، سالخًا إياها بالسخرية القاطعة. إنسان وضيع وسيِّئ.

ومنذُ وُجِّهَ الاتهام إلى أُوتُّو جْفَانْجِل تحدَّث عدة مرات مع صديقه الدكتور رَايْشهَارْت عن هذه المحاكمة الرئيسية. كذلك كان رأي

الدكتور رَايْشهَارْت الذكي - وبما أن النهاية لن تتغيَّر- فالأفضل أن يعترف جْفَانْجِل منذ البداية، وألا يخفي شيئًا، ولا يكذب أبدًا. وهذا سيسحب الريح من أشرعة هؤلاء الناس، ولن يتمكّنوا من تعذيبه بالكلام لمدة طويلة. وبهذا ستكون المحاكمة قصيرة، وسيُستَغْنَى عن الاستماع إلى الشهود.

وبهذا لم يكن أكثر من مجرد مشهد قصير مؤثر، عندما أجاب كلا المتهمين عن سؤال الرئيس إن كانا يعتبران أنفسهما مذنبَيْنِ في ما هو منسوب إليهما فأجابا بـ«نعم» قصيرة وموجزة. لأنه بهذه الـ«نَعَمْ» كَتَبَا على أنفسهما - بأنفسهما - حكم الإعدام وجَعَلَا أي محاكمة لا داعيَ لها.

جفل لوهلة حتى رئيس المحكمة فَايْسْلِر بعد أن سحقه ذلك الاعتراف الذي من النادر أن يسمعه.

أخذ يفكِّر قليلًا، أراد أن يحصل على محاكمة لائقة. أن يرى هذين العاملين متمرغين في الوحل، أن يراهما يتقلبان على سَفُودِ أسئلته الحادة. هذه الـ«نَعَمْ» عن سؤال «مذنب؟» كشفت عن كبرياء. نظر الرئيس فَايْسْلِر إلى الوجوه الحاضرة بالقاعة فوجد بعضها مشدوهًا وبعضها متأمِّلًا، وأراد أن يسلبَ المتَّهمَيْنِ هذه الكبرياء. وليخرجَا من هذه المحاكمة من دون كبرياءَ أو كرامةٍ.

سأل فَايْسْلِر:

- هل الأمر واضح بالنسبة إليكما أن هذه الـ«نعم» هي حكمٌ عليكما بالإعدام، وأنكما بأنفسكما قد قطعتما ما بينكما وبين الناس المحترمين، وأنكما مجرمين وضيعين مستحقين للموت وسنعلقكما في المشنقة؟ هل هذا واضح لكما؟ أجيبا بنعم أو لا!

قال جْفَانْجِل ببطء:

- أنا مذنب، لقد اقترفت ما هو مكتوب في الادعاء.

انقض عليه الرئيس:

- عليك أن تجيب بنعم أو لا! أنت مجرد خائن وضيع أم أنك لست كذلك؟ نعم أو لا!

حدج جْفَانْجِل الرجل الراقي بنظرة حادة. ثم قال:

- نعم!

- خسئت يا شيطان! (صرخ الرئيس وبصق)

خسئت يا شيطان! وتُسمِّي نفسك ألمانيًّا!

نظر إلى جْفَانْجِل باحتقار بالغ ثم حوَّل نظرته إلى آنا جْفَانْجِل:

- وأنتِ، أنت السيدة هناك. هل أنت كذلك حقيرة مثل زوجك؟ هل أنت أيضًا خائنة للشعب؟ أتخجلين أنت أيضًا من رؤية ابنك شهيدًا في ميدان الشرف؟ نعم أم لا؟

نهض المحامي القلق بسرعة وقال:

- أرجو يا سيادة الرئيس أن تلاحظ بعد إذنك أن موكلتي...

قاطعه الرئيس مرة أخرى:

- سوف أعاقبك يا سيادة المحامي! سأعاقبك فورًا إن أخذت الكلمة من دون أن يُطلَب ذلك! اجلس!

تحول الرئيس مرة أخرى إلى آنًا جْفَانْجِل:

- والآن، كيف الأمر معكِ؟ هل تُبقين على الرمق الأخير من الاحترام في صدرك أم أنك تريدين أن تكوني مثل زوجك الذي

نعرف عنه بالفعل أنه خائن وضيع للشعب الألماني؟ هل أنت خائنة لشعبك في ساعته الحالكة؟ هل لديك الشجاعة أن تُلحقي العار باسم ابنك؟ نعم أم لا؟

نظرت آنَّا جْفَانْجِل بخوف تجاه زوجها.

- عليك أن تنظري نحوي! وليس تجاه ذلك الخائن! نعم أم لا؟

بوضوح خافت قالت:

- نعم!

- عليكِ أن ترفعي صوتك! نريد للجميع أن يسمع أن أمًّا ألمانية لا تشعر بالعار أن تُلحق العار بميتة ابنها الشريفة، ابنها الذي مات بطلًا، الآن تغطيه بالعار!

- نعم! (قالت آنا جْفَانْجِل بصوت مرتفع)

- غير معقول! (صاح فَايْسْلِر)

لقد عايشتُ هنا كثيرًا من الأمور المحزنة القاتمة، لكن عارًا مثل هذا لم يمر عليَّ من قبل قط! لا يكفي أن تُعلَّقي من المشنقة، وحوش مثلكما تخلو من كل إنسانيَّة ينبغي تقطيع كل أطرافها!

كان يتحدَّث للمستمعين بأكثر ما يتحدَّث إلى آل جْفَانْجِل، وسلب النيابةَ حقَّها في الادعاء. ثم بدا أنه يتفكَّر (فهو لا يزال يريد المحاكمة):

- لكن واجبي الصعب كقاضٍ أعلى يمنعني أن أكتفي باعترافكم بالجرم. رغم أن هذا يصعب عليَّ، ورغم أنه لا داعي إلى ذلك، لكن واجبي يحتم أن أدقق إن كانت أي فرصة لتخفيف الحكم.

وهكذا بدأ، ثم استغرق الأمر سبع ساعات. أجل، أخطأ الدكتور الذكي رَايْشهَارْت في زنزانته كما أخطأ جْفَانْجِل. لم يحسبا قط حساب أن القاضي الأعلى للشعب الألماني سيسوق المحاكمة نحو ذلك المنحدر العميق المليء بالكراهية والخِسَّة. بدا الأمر كأن آل جْفَانْجِل قد وجَّهَا إهانة شخصيَّة لرئيس المحكمة فَايْسْلِر، كأنَّه جُرح في شرفه جرحًا لا يطيب وصار لزامًا عليه أن يجرح غريمه حتى الموت. أو أن جْفَانْجِل أغوى ابنة الرئيس مثلًا، إلى هذه الدرجة تصرَّف كأنها مسألة شخصيَّة، بعيدًا بُعد المشرقين عن أي موضوعية.

أجل، لقد أخطأ كلا الرجلين، فهذا الرايخ* الثالث دائمًا ما يجهز مفاجآت جديدة لمحتقريه، مفاجآت خسيسة بأحطّ ما تكون الخِسة.

- الشهود -زملاءك المحترمين في العمل- قالوا إنك كنت بخيلًا قذرًا. كم كنت تكسب في الأسبوع؟ (سأل الرئيس بهذه الطريقة)

- في الوقت الأخير كنت أجلب أربعين ماركًا إلى المنزل. (أجاب جْفَانْجِل)

- إذًا أربعون ماركًا، ومنها اقتطاعات ضريبة الدخل، ومعونة الشتاء، والتأمين الطبي، وجبهة العمل. كل ذلك محسوب؟

- نعم، كل ذلك مقتطع.

- يبدو لي ذلك أجرًا جيِّدًا بالنسبة إلى اثنين مسنَّيْنِ، أليس كذلك؟

- كنا ندبر حالنا.

* ألمانيا في حقبة النَّازية. (المترجمة)

- كلا، لم تكونا تدبران! أنت تكذب مرة أخرى! بل أنت كنت تدخره بانتظام! صحيح أم لا؟

- صحيح. في الأغلب كنا ندخر منه.

- كم كنت تدخر إذًا كل أسبوع، في المتوسط؟

- لا أستطيع أن أقول ذلك على وجه الدقة؛ الأمر يختلف من أسبوع إلى آخر.

تحمَّس الرئيس:

- في المتوسط قلتُ! في المتوسط! ألا تفهم ما معنى في المتوسط؟ وتسمي نفسك حِرفيًّا؟ هل تستطيع حتى أن تحسب حسبة؟ يا للعظمة!

لكن بدا أن الرئيس فَايْشلِر لم يجد الأمر عظيمًا البتة، بل كان يحدج المتهم بنظرات استياء.

- أنا فوق الخمسين. لقد اشتغلت خمسة وعشرين عامًا. كانت السنوات متفاوتة. وكنت عاطلًا لبعض الوقت، أو وقت مرض الولد. لا أستطيع أن أخبرك بالمتوسط.

- إذًا؟ لا تستطيع؟ سأخبرك لم لا تستطيع أن تخبرنا! لأنك لا تريد! لقد كان ذلك بُخلك القذر الذي تحدث عنه زملاؤك المحترمون. أنت تخشى أن نعرف كم المبلغ الذي اكتنزته! والآن، هل تستطيع أن تخبرنا به؟ أم أن هذا أيضًا أمر لا تستطيع أن تقوله؟

كان جْفَانْجِل يصارع مع نفسه. لقد وجد رئيس المحكمة فعلًا نقطة ضعف لديه. فالمبلغ الذي وفره لا تعرفه حتى آنًا. لكن جْفَانْجِل أعطى نفسه دفعة.

لقد ألقى بكثير وراء ظهره في الأسابيع الأخيرة، فَلِمَ لا يُلقي بهذا الأمر أيضًا؟ فليتحرر من آخِر ما يربطه بحياته القديمة فقال:

- 4763 ماركًا!

- أجل! (كرر الرئيس ورجع بظهره إلى مسند كرسيه العالي)

- 4763 ماركًا و67 بفينيجًا.. (قرأ الرقم منٍ الملفات)

- ولم تخجل مطلقًا أن تحارب الدولة التي مكّنتك من هذا الكسب الوفير؟ أنت تحارب المجتمع الذي رعاك على هذا النحو؟

تصاعد الموقف.

- أنت لا تعرف معنى الامتنان. ولا تعرف معنى الشرف. أنت لست إلا خرقة من العار! لا بد من التخلص منك!

وأغلقت المخالب، ثم انفتحت، ثم أغلقت ثانية كأنها تسلخ رِمَّةً.

- وفرتُ تقريبًا نصف المبلغ قبل وصولكم إلى السلطة. (قال جْفَانْجِل)

ضحك أحد الجالسين في مكان الجمهور. لكنه كتم ضحكه على الفور مذعورًا بمجرد أن حدجه الرئيس بنظرة لائمة غاضبة؛ سعل بارتباك.

- أرجو التزام الهدوء! الهدوء التام! وأنت أيها المتهم، حين ترد بوقاحة سأعاقبك. لا تظنّ أنك مُعفًى من أي عقوبة أخرى. وإلا يمكنني أن أجعلك تعاني!

نظر إلى جْفَانْجِل نظرات مقتحمة:

- والآن أخبرني أيها المتهم، لماذا كنت تدخر؟

- من أجل سن الشيخوخة.

- أَخْ! كلا، من أجل سنوات الشيخوخة؟ كم يبدو هذا مؤثرًا! لكنه كذبٌ جديد. على الأقل منذ بدأتَ تكتب البطاقات، كنت تعرف أنك لن تعيش كي تتقدم في العمر! لقد اعترفت هنا بنفسك أن عواقب الجريمة كانت دائمًا واضحة بالنسبة إليك. لكن رغم ذلك واصلت ادخار المال في دفتر التوفير. من أجل ماذا إذًا؟

- لقد حسبت دائمًا حساب نجاتي من الموضوع.

- ماذا يعني هذا؟ نجاتك؟ أن يطلق سراحك؟

- كلا، لم أعتقد قطُّ أمرًا كهذا. كنت أظن أنه لن يُمسَكَ بي.

- أترى! لقد أخطأتَ قليلًا في التفكير! لكني أيضًا لا أصدق أنك فكرت هكذا. فأنت لست أحمقَ إلى هذا الحد الذي تُظهر به نفسك. لا يمكن أن تكون قد فكرت أنه سيمكنك مواصلة جريمتك سنوات مستمرة بدون عائق.

- لم أتوقع سنوات وسنوات.

- ماذا تقصد؟

- لم أعتقد أن الأمر سيستمر طويلًا، رايخ الألف عام!

قال جْفَانْجِل مظهرًا رأس الطائر الحاد للرئيس.

وانتفض المحامي مذعورًا.

ومرة أخرى ضحك أحد السامعين وسُمعت هنالك أصوات تذمُّر مهدِّد.

- يا لك من خنزير! (صاح أحدهم)

أمسك شرطي الحماية الواقف وراء جْفَانْجِل بقلنسوته بيد، وبالأخرى مسَّ مسدسه في جيبه.

قفز المدعي وطوَّح ورقة.

نظرت السيدة جْفَانْجِل إلى زوجها مبتسمة وأومأت بحماسة.

أمسكها شرطي الحماية من كتفها وضغط عليها بطريقة مؤلمة.

تحملت الضغط ولم تصرخ.

حدق أحد الجلوس إلى جْفَانْجِل فاغرًا فاه.

قفز الرئيس:

- أنت يا مجرم! أنت يا أحمق! تجرؤ على قول ذلك...

(وقطع كلامه حريصًا على وقاره)

عليكم نقل المدعى عليه. أيها الحراس أخرجوا هذا الشخص من هنا! ستقرر المحكمة حكمًا ملائمًا.

استؤنفت المحاكمة مرة أخرى بعد ربع ساعة.

لوحظ أن المتهم لا يتمكّن الآن من السير بشكل جيد. وبشكل عام فكر الناس «لا بد أنهم عرّفوه مكانته بشكل جيد». حتى آنّا فكرت في هذا مذعورة.

أعلن الرئيس فَايْسْلِر:

- سيتلقى أُوتُو جْفَانْجِل حبسًا انفراديًا لمدة أربعة أسابيع لا يحصل فيها إلا على الخبز والماء وتُخلع ملابسه كاملة كل ثلاثة أيام. علاوة على ذلك...

(أضاف الرئيس فَايْشْلِر موضحًا)

خُلعَت حمالات السروال من المتهم كما أُخبِرنا في المداولة، إذ هناك اشتباه في محاولة انتحار.

- كنتُ فقط أريد أن أقضي حاجتي.

- أغلق فمك أيها المتهم! ثمة اشتباه في انتحار. وعلى المتهم أن يصرِّف أمره من الآن فصاعدًا بدون حمالات السروال. لقد كتب على نفسه ذلك.

وفي منطقة الجماهير بدأ الضحك مجدَّدًا، لكن الآن ألقى الرئيس نظرة رضًا هناك، إذ كان سعيدًا بنفسه وبالنكتة التي ألقاها. وقف المتهم هناك متشنجًا بعض الشيء، وكان عليه أن يمسك بالسروال الذي ينزلق.

ابتسم الرئيس طوال الوقت: «سنواصل المحاكمة».

62

المحاكمة الرئيسية: المدعي العام بِنشَر

يمكن أن يُشبَّه رئيس محكمة الشعب فَايْسْلِر -في عينِ مراقبٍ غير منحاز- بكلب صيد شرير من فصيلة «الدَّمُوم»، أما الادعاء فَيُشَبَّه بكلبِ نبَّاح من فصيلة البِنشَر، يحرص على عض الساقط من كلب الصيد في أقدامه. فيما يمسك أخوه الأكبر الطريدة من عنقها. حاول الادِّعاء عدة مرات في أثناء المحاكمة أن يوجِّه نباحه إلى آل جْفَانْجِل، لكن دائمًا ما كان صوت نباح كلب الصيد أعلى منه. ماذا ظل كي ينبح عليه؟ فالرئيس -من الدقيقة الأولى- يؤدي مَهمَّات الادعاء، ومن الدقيقة الأولى خالف فَايْسْلِر الواجب الأساسي لأي قاضٍ يريد أن يصل إلى الحقيقة. لقد كان منحازًا بقوة.

لكن بعد استراحة الغداء التي تناول فيها الرئيس وجبة غنية بدون بطاقة، تحوي أيضًا نبيذًا وخمرًا، أصاب فَايْسْلِر بعض التعب. لم كل هذا المجهود؟ الاثنان في عداد الأموات. ثم الدور الآن على المرأة، تلك العاملة البسيطة. كان الرئيس قليل الاكتراث للنسوة من موقعه كرئيس قضاة. فكل النسوة عنده حمقاوات ولا يصلحن إلا لأمر وحيد. وعدا ذلك فكلهن يأتمرن بأمر أزواجهن.

لكل ذلك فلقد تحمَّل فَايْسْلِر بسعة صدر أن يتصدر المشهد ذلك الكلب البنشر الذي أخذ يرفع عقيرته بالنباح، وتراجع في كرسي

القضاء بعينين نصف مغمضتين، مسندًا رأسه، معطيًا الانطباع بأنه ينصت بانتباه، لكنه في الحقيقة كان مستسلمًا تمامًا لجهازه الهضمي.

- أيتها المتهمة، لقد كنتِ متقدمة في السن نوعًا حينما ارتبطت بزوجك الحالي؟

- كنت في الثلاثين.

- وقبل ذلك؟

- لا أفهم.

- لا تمثلي البراءة، أريد أن أعرف نوعية العلاقات التي كنت تقيمينها مع الرجال قبل زواجك. هيا، هل سننتظر الإجابة طويلًا؟

احمرَّت وجنتا آنَّا جْفَانْجِل بسبب وضاعة السؤال ثم شحبت. نظرت مُتوَسِلةً المساعدة نحو المحامي الذي قفز قائلًا:

- أرجو سحب السؤال باعتباره لا يمت إلى المسألة بِصِلَة!

فقال الادعاء:

- سؤالي في صلب المسألة. فلقد تنامى الشك هنا في أن الزوجة كانت فقط تُجاري زوجها. وسأثبت أنها أخلاقيًّا سيدة منحطَّة غاية الانحطاط، تنتمي إلى الغوغاء، وأنها قادرة على اقتراف كل أشكال الجرائم.

أوضح الرئيس متململًا:

- السؤال يمت إلى الموضوع ولقد سمحت به.

بدأ البِنْشَر ينبح مجددًا:

- إذًا كم عدد الرجال الذين رافقتِهم قبل زواجك؟

توجهت كل العيون نحو آنَّا جْفَانْجِل. بعض المستمعين بدؤوا في لعق شفاههم، وأحدهم صار يتنهد بترقُّب.

نظر جْفَانْجِل نحو آنَّا والقلق يعتريه، فهو يعرف كيف أنها حساسة جدًّا في تلك النقطة. لكن آنَّا جْفَانْجِل حسمت أمرها. مثلما ودَّع زوجها أُوتُّو كل همومه بخصوص الادخار، كانت هي الآن أيضًا مستعدة ألا تشعر بالخزي أمام كل هؤلاء الرجال الوقحين.

سأل الادعاء:

- إذًا كم عدد الرجال الذين رافقتهم قبل زواجك؟

وأجابت آنَّا جْفَانْجِل: 87.

صفَّر أحدهم من مكان المستمعين.

استيقظ الرئيس من نعاسه ونظر مهتمًّا إلى السيدة البسيطة ذات الجسد المدملك، والوجنتين الحمراوين والنهدين العامرين.

التمعت عينا جْفَانْجِل، ثم أخفض جفنيه عليهما ثانية.

لم ينظر إلى أحد.

لكن الادعاء تلعثم وارتبك تمامًا:

- رافقتِ 87؟ لماذا تحديدًا 87؟

- لا أعرف! (قالت آنا جْفَانْجِل من دون أن تهتز)

لم يكونوا أكثر من ذلك.

- هكذا! (قال الادعاء ساخطًا)

هكذا!

لقد سخط لأنه حوَّل المدعى عليها فجأةً إلى شخصيَّة مثيرة، وهو الأمر الذي لم يكن ينتويه مطلقًا. فهو أيضًا مقتنع تمام الاقتناع، مثله مثل معظم الحاضرين، أنها تكذب، أنهما ربما كانا مجرد عاشقين أو ثلاثة، بل على الأغلب لم يكن ثمة واحد حتى. ويمكن معاقبتها بتهمة إهانة المحكمة. لكن كيف يمكن إثبات نيتها تلك؟

وأخيرًا حسم أمره. قال مهمومًا:

- أنا مقتنع تمامًا أنك تبالغين بشدة أيتها المدعى عليها. فسيدة كان لها 87 عاشقًا لن تتمكَّن من تذكر الرقم. ستجيب «كثيرون». لكن إجابتك تشي بانحطاطك. أنت تتباهين بوقاحتك! أنت فخورة بأنك كنت عاهرة. ومِن تلك العاهرة خرج الشيء المتوقع من كل العاهرات، داعرة حتى مع ابنها.

الآن عضها بالفعل ذلك الكلب.

- كلا! (صرخت آنا جْفَانْجِل ورفعت يديها مُتوَسِلةً)

لا تقل ذلك من فضلك! لم أفعل أي شيء من ذلك مطلقًا!

- لم تفعلي ذلك؟ (نبح الكلب)

وماذا تريدين تسمية أنك سمحت لعروس ابنك بالمبيت عندكم عدة مرات في نفس المكان الذي يبيت فيه ابنك؟ أم أين كانت تبيت تلك التْرُودِل؟ أنت تعلمين أنها ماتت، تعرفين هذا صح؟ وإلا لكانت تلك الداعرة، مساعدة زوجك، تلك المجرمة أيضًا هنا على دكة الاتهام!

لكن ذِكرَ تْرُودِل بث شجاعة جديدة في نفس السيدة جْفَانْجِل. فلم تتوجه بالقول إلى ممثل الادعاء بل إلى قاعة المحكمة:

- أجل. الحمد لله أن تْرُودِل ماتت حتى لا تشهد هذا العار الأخير...

- سيطري على نفسك لو سمحت! أحذركِ أيتها المدعى عليها!

- لقد كانت فتاة طيبة ومحترمة...

- وأجهضَتْ جنينها في شهره الخامس لأنها لا تريد أن تهب للعالم مزيدًا من الجنود!

- لم تجهض الجنين، لقد أتعسها فقده!

- لقد اعترفت بنفسها!

- لا أصدق ذلك.

صرخ المدعي:

- لا يهمنا ما تصدِّقين وما لا تصدِّقين! لكني أنصحك بشدة أن تغيري نبرتك أيتها المتهمة، وإلا ستنالين أمرًا مزعجًا للغاية! أقوال آل هيرْجزِل دوَّنها المفتش لَاوْبْ. والمفتش الجنائي لا يكذب!

حدج الكلبُ الصالة كلها بنظرات مهدِّدة.

- والآن أسألكِ مرة أخرى، أيتها المدعى عليها أن تخبريني، هل أقام ابنك علاقة حميمية مع تلك الفتاة أم لا؟

- الأم لن تفتِّش في أمر كهذا. لست متلصصة.

- لكنَّ واجبك يحتم عليك الرقابة! فحينما تسمحين لابنك بلقاء غير أخلاقي وفي شقتك، فإنك تثبتين على نفسك تهمة الدعارة، وهذه عقابها معروف وَفقًا للقانون.

- لا أعلم شيئًا عن ذلك. لكني أعرف أنها الحرب وأن ابني معرض أن يموت. وفي دوائرنا يسير الأمر هكذا. عندما يُخطب اثنان، أو يصيران في عداد المخطوبين، وعلاوة عليه ثمة حرب، لا ندقق النظر.

- ها، الآن تعترفين أيتها المدعى عليها! كنت تعلمين بأمر العلاقة غير المشروعة وسمحت بها! وتسمين ذلك «لا أدقق النظر»! لكن قانون العقوبات يسمي ذلك «دعارة»، والأم التي تتسامح في شيء كهذا هي مرذولة يكلِّلها العار والشَّنَار!

- الأمر هكذا إذًا؟ حسن أريد أن أعرف...

قالت آنّا جْفَانْجِل من دون خوف وبصوت ثابت:

- إذًا أريد أن أعرف ماذا يطلق قانون العقوبات على رابطة «احضنِّي - يا بوبي»؟

ساد ضحك عارم...

- وماذا تصنع كتيبة العصف بفتياتها...

انقطع الضحك.

- والشرطة العسكرية.. يحكون أن الشرطة العسكرية تسلب شرف الفتيات اليهوديات ثم ترسلهن إلى الموت...

خيَّم لوهلة صمت الموات.

لكن بعدها اندلع الهرج. صرخوا. بعض المستمعين تسلق فوق الحواجز وأراد أن يقتحم نحو المدعى عليها.

وثب أُوتُّو جْفَانْجِل، مستعدًّا أن يعاجل زوجته بالمساعدة.

لكن أعاقه شرطي الحماية وحمالات السروال التي سُحِبَتْ.

وقف الرئيس وطلب بقوة الهدوء لكن بلا جدوى.

تحدث كل الجالسين بصوتٍ عال.

نبح المدعي بِنشَر ونبح ولم يفهم أحد أي كلمة...

وأخيرًا جُرَّت آنًا جْفَانْجِل خارج القاعة، فهدأت الضوضاء، وانسحبت هيئة المحكمة للمداولة. ثم عادت بعد خمس دقائق:

«لقد استبعدت المدعى عليها آنًا جْفَانْجِل من الاشتراك في المحاكمة ضدها. وستبقى من الآن فصاعدًا موثقة في حبس انفرادي حتى إشعار آخر. الماء والخبز فقط كل يومين».

واستمرت المحاكمة.

63

المحاكمة الرئيسية، الشاهد أُولرِشْ هِفكِه

الشاهد أُولْرِشْ هِفْكِه، ذلك العامل في الجودة، والأخ الأحدب لآنّا جْفَانْجِل، عاش شهورًا صعبة. لقد اعتقله المفتش المجتهد لَاوْبْ هو وزوجته بعد القبض على آل جْفَانْجِل، بدون أي تهمة واضحة، لأنه قريب من أقارب آل جْفَانْجِل فقط.

ومنذ ذلك الحين عاش أُولْرِشْ هِفْكِه في خوف. هذا الرجل اللطيف، ذو العقل الرقيق البسيط الذي كان يتجنَّب أي شجار من أي نوع، قبض عليه السادي لَاوْبْ، وعذبه، وصرخ فيه، وضربه. تركوه يجوع، وأذلوه، وباختصار مارسوا عليه كل فنونهم الشيطانية.

وبسبب ذلك صار عقل الأحدب مشوشًا تمامًا، كان فقط يسمع بذعر ما يريد منه معذبوه أن يقول، ثم - بلا وعي- يدلي بالاعترافات الثقيلة التي يريدونه أن يقولها، والتي يثبت له على الفور تناقضها.

ومن جديد عُرِّض للتعذيب الجسدي، على أمل أن يستخرجوا منه جريمة مجهولة جديدة. لأن المفتش لَاوْبْ كان يعمل وفق مبدأ ذلك العصر «كل إنسان يكتم أمرًا؛ على المرء أن يبحث بما يكفي كي يجده».

أراد لَاوْبْ -ولم يرد- أن يصدق أنه وقع على ألماني ليس عضوًا في الحزب، ويسمع قناة أجنبية، ولم يمارس الدعاية الانهزامية، ولم يغش قط في ما يخص تعليمات توزيع المواد التموينية. قال لَاوْبْ ذلك مباشرة في رأس هِفْكِه أنه كان يخبئ البطاقات لصهره في ميدان نولليندورف.

اعترف هِفْكِه، وبعد ثلاثة أيام استطاع لَاوْبْ أن يبرهن له أنه هو، أُولْرِشْ هِفْكِه، لا يمكن أن يكون قد خبأ البطاقات.

المفتش لَاوْبْ يتَّهم هِفْكِه الآن بخيانة الصنعة وإفشاء أسرار مصنع البصريات الذي يعمل فيه. اعترف هِفْكِه بذلك، وبعد أسبوع من التحريات المجهدة تمكن لَاوْبْ من إثبات أنه لا أسرار يمكن أن تُفشى في ذلك المصنع. لا أحد يعرف هناك لأي سلاح تُنتَج الأجزاء المنفصلة التي يصنعونها.

كل اعتراف مزيف كان على هِفْكِه أن يدفع ثمنه غاليًا، لكن هذا كان يجعله أكثر ذعرًا لا أكثر ذكاء. كان يعترف بشكل أعمى، فقط من أجل أن يحصل على راحة، لكي يهرب من استجواب آخر، وكان يوقّع على كل محضر. لقد وقع على حكم الإعدام الخاص به. لم يكن إلا مجرد كائن هلامي، كومة من المخاوف، تبدأ في الارتعاش بمجرد النطق بالكلمة الأولى.

وكان المفتش لَاوْبْ يملك من الوقاحة ما يجعله يجرُّ ذلك الرجل التعس إلى سجن التحقيقات مع آل جْفَانْجِل، رغم أنه لم يُثبِت أيُّ محضر من المحاضر اشتراك هِفْكِه في «الجريمة». لكن احتياطيًّا كان يريد لقاضي التحقيق أن يرى إن كان بوسعه أن يعتصر منه شيئًا

يثقل ضميره. استعمل أُولْرِشْ هِفْكِه الإمكانيات المختلفة في سجن التحقيقات لشنق نفسه.

لكنهم وجدوه في اللحظة الأخيرة، فقطعوا الحبل وأعادوه ثانية إلى الحياة التي صارت بالنسبة إليه غير محتملة على الإطلاق.

ومن الساعة الأولى صار على الأحدب أن يعيش تحت شروط معيشية أثقل وطأة: في زنزانته كان لا بد للنور أن يظل مشتعلًا طوال الليل، حارس خاص لا بد أن يراقبه عبر فتحة الباب كل بضعة دقائق، يداه محكمتا الوثاق، وكان يساق بشكل شبه يومي إلى استجواب. وقتها لا يجد قاضي التحقيق أي شيء ثقيل ضد هِفْكِه، فلقد كان مقتنعًا أن الأحدب أخفى جريمة وإلا فلم يقدم على الانتحار؟ لا بريء يفعل ذلك! وطريقة هِفْكِه الحمقاء في أن يوافق على كل اتهام أدت بقاضي التحقيق أن يطيل أمد الاستجوابات والتحريات لأطول فترة ممكنة، وأسفرت في النهاية عن أن هِفْكِه لم يقترف شيئًا.

وهكذا وصل الأمر إلى أن أُولْرِشْ هِفْكِه أطلق سراحه من سجن التحقيقات قبل أسبوع واحد فقط من المحاكمة الرئيسية. عاد إلى زوجته الطويلة العابسة المتعبة التي أُفرِج عنها منذ مدة. واستقبلته صامتة. كان هِفْكِه من التشوش بالقدر الذي لم يسمح له بالعودة إلى عمله. وصار يركع لساعات في زاوية إحدى الحجرات، شاديًا بترانيمَ كنسيةٍ بصوت عذب خفيض. بالكاد يتكلم، وفي الليل يبكي. ولأنهما قد ادخرا بعض المال، لم تسعَ الزوجة أو تحفز زوجها للذهاب إلى العمل.

تلقَّى أُولْرِشْ هِفْكِه بعد ثلاثة أيام من إطلاق سراحه دعوة للمثول أمام المحاكمة الرئيسية بوصفه شاهدًا. لكن رأسه الضعيف لم يعد قادرًا على فهم أنه مجرد شاهد. وكان اضطرابه يتصاعد من ساعة إلى أخرى. صار بالكاد يأكل وازدادت ساعات غنائه. وانطلق داخله الخوف من التعذيب الذي نجا منه، وعذبه الخوف بلا نهاية.

وفي ليلة المحاكمة الرئيسية شنق نفسه للمرة الثانية، وفي هذه المرة أنقذت حياته زوجته السمراء. وبمجرد أن استعاد قدرته على التنفس بدأت تعذبه بلا هوادة. قَرَّعته على الطريقة التي يعيش بها. وفي اليوم التالي أخذته بقوة من ذراعه وسلمته إلى حاجب المحكمة أمام باب غرفة الشهود قائلة: «لقد جنَّ! عليك أن تحترس جيِّدًا!».

ولأن غرفة الشهود كانت ممتلئة حين نطقت هذه الكلمات - كان بها زملاء جْفَانْجِل في العمل، وإدارة المصنع، وسيدتان، وسكرتير البريد الذين رأوه وهو يضع البطاقات- ولأنه كان عددٌ معتبرٌ من الشهود حاضرًا، حين نطقت آنًّا هِفْكِه بهذه الكلمات، لهذا لم يكن فقط الحاجب هو من يراقبه وإنما كل الشهود تحمَّسوا لمراقبة ذلك الرجل الصغير. بل حاول بعضهم أن يمرِّر وقت الانتظار الطويل عبر مشاكسة ذلك الأحدب، غير أن ذلك لم يسفر عن شيء؛ لقد كان الخوف يتلبسه تمامًا ويطل من عينيه. وكان الناس أكثر لطفًا من أن يزيدوا من معاناته.

ورغم الخوف فلقد نجا الأحدب من استجواب الرئيس فَايْسْلِر، فقط لأنه كان يتحدَّث ببطء ويرتجف بقوة فأصاب القاضي الأعلى بالملل وأحجم عن استجواب ذلك الأرنب المذعور أطول من ذلك.

ثم دفع الأحدب نفسه إلى الجلوس بين باقي الشهود آملًا أن كل شيء يخصُّه قد سُوِّيَ.

لكنه اضطُرَّ أن يشهد الطريقة التي يستجوب بها ممثل الادعاء - ذلك الكلب من فصيلة بنشر- أخته، وكيف يعذبها. سمع الأسئلة الوقحة التي طُرحت على آنّا. اعترض قلبه وأراد أن يتقدَّم وأراد أن يشهد بأنها دائمًا ما عاشت حياة محترمة. لكن خوفه أجبره مرة أخرى على الخضوع والزحف والجبن.

وهكذا ما بين خوفه وجبنه وتقلبات الشجاعة ما عاد يتابع سير المحاكمة وهو مسيطَر على حواسه إلى أن حانت اللحظة التي سبَّت فيها آنّا رابطة فتيات ألمانيا، وكتيبة العصف، والشرطة العسكرية. شهد الهرج الذي تلا ذلك، بل شارك بنفسه في بعضه بما يليق بشكله المضحك القصير، فتسلق المقعد الخشبي لكي يرى بشكل أفضل. ورأى كيف أن شرطيين جَرَّا آنّا إلى خارج القاعة.

كان ما يزال واقفًا على المقعد الخشبي حينما بدأ الرئيس أخيرًا يحصل على هدوء في القاعة. نسيه مجاوروه وكانوا يدسون رؤوسهم معًا.

ساعتها وقع نظر المدعي بِنشَر على أُولْرِشْ هِفْكِه، وتأمل مدهوشًا ذلك الرجل البائس وصاح:

- ها! أنت هناك! ألست أنت أخ المتهمة! ما اسمكَ؟

- هِفْكِه، أُولْرِشْ هفْكِه. (قال المعاون)

- انظر يا أُولْرِشْ هِفْكِه، لقد كانت هذه أختك! أطالبك أن تخبرنا عن حياة آنّا جْفَانْجِل السابقة! ماذا تعرف عن الحياة الأولى لآنّا جْفَانْجِل؟

وفتح أُولْرِش هِفْكِه فمه كي يتحدَّث، كان لا يزال واقفًا على المقعد الخشبي، ونظراته ولأول مرة لا يطل منها الخزي. فتح فمه ثم بصوت جميل غنى:

«وداعًا أهديك أيها العالم الخبيث المزيف!

فأهدافك خاطئة وشريرة، وليست تعجبني

أما السماء ففيها سكني، وإليها طموحي وسعيي

وهنالك سيجازي الرب أوفى الجزاء، كلَّ مَن أحسن خدمته هنا!».

أصاب الذهول الجميع لدرجة أنهم تركوه يغني، بل إن بعضهم استقبل هذا الترنيم الرقيق استقبالًا طيبًا، وكانوا يهزون رؤوسهم يمينًا وشِمالًا على وقع اللحن. أحد الجالسين فتح فمه عن آخره. والطلاب أحكموا قبضتهم وهم يمسكون بالحواجز، وكانت ملامح وجوههم مشدودة. أما المحامي القَلِق فأخفض رأسه متأملًا. سدَّد أُوتُّو جْفَانْجِل وجهه الحاد نحو صهره وشعر أن قلبه البارد يخفق لأول مرة من أجل ذلك الفتى البسيط. ترى ماذا سيفعلون به؟

«اغفر لروحي برحمتك واشملها تحت جناح عفوك،

طهِّرها من كل سوء ببهاء جمالك.

ها هو ذا قد أتى، ووصل إلى قصر سمائك

ذاك الذي سيخلد في النعيم، غافيًا في حجرك».

وفيما هو يغني المقطع الثاني عادت الضوضاء تسود القاعة. همس الرئيس، وأرسل الادعاء ورقة صغيرة إلى الشرطي المسؤول عن الحراسة.

لكن الأحدب الصغير لم يلاحظ أيًا من ذلك. كانت عيناه مسددتين إلى سقف القاعة. ثم صاح عاليًا بصوت مُنْتَشٍ مأخوذ: «أنا قادم!».

رفع ذراعيه، وقفز بقدميه من فوق المقعد الخشبي، أراد أن يطير...

ثم سقط عاجزًا بين الشهود الجالسين أمامه، وهم بدورهم وثبوا مذعورين إلى الجانب، فما كان إلا أن تقلب ما بين المقاعد الخشبية.

- أخرجوا الرجل! (صاح الرئيس بنبرة آمرة في الصالة التي عاد إليها الهرج والمرج)

- لا بد من إخضاعه للفحص الطبي!

وأُخرِج أُولْرِشْ هِفْكِه من الصالة.

- كما ترون.. عائلة من المجرمين والمجانين! (قرر الرئيس)

والآن لا بد من القصاص.

وألقى نظرة مهدِّدة نحو جْفَانْجِل، الذي يمسك سرواله بيديه، ولا يزال ينظر نحو الباب الذي اختفى عبره صهره القصير.

وللصدق فلقد تولوا أمر التخلص من الأحدب الصغير أُولْرِشْ هِفْكِه حفاظًا على النقاء العِرقي. إذ هو من الناحية الجسدية والعقلية لم يعد مستحقًا للحياة. فبعد مدة قصيرة قضاها في مصحة تَوَلَّت حقنةٌ أمر ترحيله من هذا العالم.

64

المحاكمة الرئيسية: المحامون

محامي آنَّا جْفَانْجِل الرجل القلق، المتقدم في السنِ نوعًا، ذو الشعر الرمادي، الذي كان يحب أن يعبث في أنفه حين يشرد فكره، ويشبه مظهره اليهود (لكن لم يثبت عليه ذلك لأن كل أوراقه أفادت بأنه «آريٌّ نقي»)، ذلك الرجل الذي صار بحكم منصبه العون القانوني للسيدة، نهض كي يلقي مرافعته.

أسهب في ذكر كم أنه نادم على اضطراره أن يتحدَّث في غياب موكلته. بالتأكيد هجومها على المؤسسات الراسخة للحزب مثل كتيبة العصف، والشرطة العسكرية يعد أمرًا شائنًا...

قاطعه الادعاء: بل جرم!

أجل، بطبيعة الحال أكد قول المدعي العام، وأن ذلك الهجوم إجرامي لأقصى حد. لكن رغم ذلك يمكن أن يُرى -من خلال حالة أخي موكلته- أنه بالكاد يمكن تحميلها مسؤولية أفعالها. فحالة أُولْرِشْ هِفْكِه التي ستظل حاضرة في ذهن هيئة المحكمة الموقرة أثبتت أن الهوس الديني يجري في دماء آل هِفْكِه. وهو يفترض حتى بدون انتظار الحكم الطبي أن المرض هو الشيزوفرينيا، فهي مرض وراثي...

وهنا قاطع الادعاء المحامي رمادي الشعر للمرة الثانية، مطالبًا هيئة المحكمة بأن تذكِّر المحامي بأن يتكلم في صلب الموضوع.

ذكَّر الرئيس فَايْسْلِر المحامي بأن يتكلم في صلب الموضوع.

واعترض المحامي قائلًا إنه بالفعل يتكلم في صلب المسألة.

- كلا، إنه لا يتحدَّث في المسألة. فالقضية هنا قضية خيانة عظمى للدولة، وليست شيزوفرينيا وجنونًا.

ومجدَّدًا اعترض المحامي، بأنه إن كان الادعاء محقًّا في إثبات الانحطاط الأخلاقي لموكلته، فإنه من حق الدفاع أن يتحدَّث عن الشيزوفرينيا. ويطالب برفع الجلسة.

انسحبت هيئة المحكمة لتداول طلب الدفاع. ثم أعلن الرئيس فَايْسْلِر:

- لا في التحقيقات الأولية ولا في محاكمة اليوم ظهرت أي علامة قد تدل على الاضطراب العقلي للسيدة آنَّا جْفَانْجِل. ولا يمكن القياس على حالة أخيها أُولْرِشْ هِفْكِه، مع عدم وجود توصية طبية تخص الشاهد هِفْكِه. ومن المرجح للغاية أن ثمة محفز قوي لأُولْرِشْ هِفْكِه وأنه ما كان يريد إلا أن يقدم يد العون لأخته. ويتعيَّن حثُّ الدفاع على جمع الحقائق في إطار الخيانة العظمى للدولة التي ظهرت في محاكمة اليوم.

حدج الادعاء المحامي القلِق بنظرة منتصرة وبادله المحامي بنظرة مُغتمَّة.

- بما أن هيئة المحكمة قد منعتني.. (شرع محامي آنَّا جْفَانْجِل يقول مجدَّدًا)

من الدخول في التفاصيل المتعلِّقة بالحالة العقلية لموكلتي، فسأقفز على كل النقاط التي تحاول أن تُحَجِّم من مسؤوليتها: لقد سبَّت زوجها بعد وفاة ابنهما، وتصرفاتها الغريبة التي تشي باضطراب عقلها...

نبح الكلب:

- أسجل اعتراضي الصارخ على الطريقة التي يناور بها المحامي مَنْعَ المحكمة. إنه يقفز فوق النقاط وبالتالي يؤكدها ويبرزها. أطلب انسحاب المحكمة للمداولة!

ومرة أخرى انسحبت هيئة المحكمة، ومع عودتها مرة أخرى أعلن الرئيس فَايْسْلِر بمرارة واستياء أن المحامي -بسبب تجاوز قرار المحكمة- محكوم عليه بدفع 500 مارك عقوبة. وفي حالة تكرار الخطأ ستُسحب الكلمة منه.

انصاع المحامي رمادي الشعر. بدا عليه الهم كأنه تطارده فكرة كيف سيدبر تلك الماركات الخمسمائة. وبدأ كلامه للمرة الثالثة. حاول جاهدًا أن يصوِّر شباب آنَّا جْفَانْجِل، سنوات عملها خادمةً، ثم زواجها برجلٍ بارد، حياتها امرأةً:

- فقط العمل، الهَمُّ، التخلِّي، الخضوع لرجل قاس. وهذا الرجل يبدأ فجأةً في كتابة بطاقة ذات محتوًى يشي بالخيانة العظمى. ولقد بَدَا واضحًا من المحاكمة أن الرجل هو صاحب الفكرة،

وليس الزوجة. وكل الادعاءات بعكس ذلك التي أدلت بها موكلتي في التحقيقات كان دافعها التضحية بنفسها من أجله...

يرفع المحامي صوته:

- ماذا يمكن للزوجة آنَّا جْفَانْجِل أن تفعل لتوقف إرادة الخيانة لدى زوجها؟ ماذا كان بوسعها أن تفعل؟ وراءها حياة كلها خدمة، لم تتعلم فيها سوى السمع والطاعة، لم تقاوم قَطٌّ. كانت صنيعة زوجها، وخاضعة له...

جلس الادعاء مطرقًا سمعه.

- هيئَةَ المحكمة الموقرة! الجريمة، كلا؛ المساعدةُ على الجريمة، بواسطة سيدة مثل تلك لا يمكن أن تقيَّم كاملةً. ومثلما لا نستطيع أن نعاقب كلبًا اصطاد -بناء على أمر سيده- أرنبًا من حقل غريب، لا نستطيع أن نحمِّل هذه السيدة مسؤولية المساعدة على الجريمة. أيضًا -ولهذا السبب- فهي تقع تحت حماية الفقرة 51، المادة 2...

عاد الادِّعاء إلى المقاطعة. ونبح موضِّحًا أن المحامي قد تخطَّى مرة أخرى مَنْعَ هيئة المحكمة.

اعترض المحامي.

قرأ الادعاءُ من ورقة:

- وَفقًا لما دوَّنه كاتب الاختزال، قال المحامي الآتي: «أيضًا -ولهذا السبب- فهي تقع تحت حماية الفقرة 51، مادة 2». الكلمات «أيضًا.. ولهذا السبب» تشير بوضوح تام إلى ما زعمه

المحامي سابقًا عن الخلل العقلي لآل هِفْكِه. وأطالب بانسحاب الهيئة للمداولة!

سأل الرئيس فَايْسْلِر المحامي إلام يشير بـ«أيضًا لهذا السبب».

أوضح المحامي أنه يقصد الأسباب التي سيذكرها لاحقًا في مسار الدفاع.

صرخ الادعاء بألَّا أحدَ يشير في كلمته إلى شيء لم يُذكر بعد. فالإشارة لا تصحُّ إلا إلى معلوم، ولا تصح أبدًا إلى مجهول. وكلمات السيد المحامي لا تمثِّل إلا حجةً خائبةً.

اعترض المحامي على الاتهام باللجوء إلى حجة خائبة. «كما باستطاعة المرء أن يشير في كلمته إلى أمر سيذكره لاحقًا، هذه وسيلة معروفة من وسائل البلاغة، لخلق التشويق إلى ما هو آت. وعلى سبيل المثال فإن ماركوس توليوس سيسيرو في مرافعته الثالثة الشهيرة...».

نَسُوا آنَّا جْفَانْجِل؛ وأُوتُّو جْفَانْجِل ظلَّ ينظر من رجل إلى آخر فاغرًا فاه.

حَمِيَ وَطِيسُ الجدل. وهطلت الاستشهادات باللاتينية واليونانية القديمة.

وأخيرًا انسحبت هيئة المحكمة لمرة أخرى، وأعلن الرئيس فَايْسْلِر بعد عودته ما فاجأ الجميع -لأن معظم الحضور نسوا المحاكمة بسبب السجال بين هؤلاء المثقفين- بأنه قد سُحِبَت الكلمة من المحامي بسبب تجاوزه لأمر المحكمة للمرة الثانية. وكُلِّفَ القاضي المساعد لُودِيكِه الحاضر بالمصادفة بمهمة الدفاع الرسمي عن آنَّا جْفَانْجِل.

غادر المحامي رمادي الشعر قاعة المحكمة بعد أن انحنى، وبدا عليه الغمُّ أكثر من أي وقت مضى.

أما المساعد لُودِيكه «الحاضر مصادفةً» فقد نهض وتكلم. لم يكن لديه ما يكفي من الخبرة، كما أنه لم ينصت جيِّدًا، وكان خائفًا من الهيئة القضائية، علاوة على ذلك فهو الآن واقع في الحب بقوة ولا يستطيع أن يفكِّر بعقلانية. تحدث لثلاث دقائق وطالب بتخفيف الحكم (في حال أن الهيئة العليا للمحكمة ليس لديها اعتراض على ذلك، أما لو ثمة اعتراض ففي تلك الحالة إنه يرجو أن يُعتَبَر طلبه كأن لم يكن)، ثم جلس ثانية، مُحمَرَّ الوجه بادِيَ الارتباك.

أُعطيت الكلمة لمحامي أُوتُّو جْفَانْجِل. نهض، أشقر للغاية وظاهر الكبرياء. وفي أثناء المحاكمة وحتى الآن لم يتدخل ولو مرة ولم يدوِّن أي ملحوظة، وظلت الطاولة التي أمامه فارغة. وفي أثناء ساعات المحاكمة الطويلة لم ينشغل إلا بِحَكِّ أظفاره الوردية المُعتَنَى بها وتأمُّلِها بدقة.

لكن الآن يتكلم. كانت عباءة المحاماة نصف مفتوحة، وإحدى يديه في جيب سرواله، والأخرى تأتي ببعض الحركات. هذا المحامي لا يطيق موكله؛ رآه مثيرًا للامتعاض، محدود القدرات، وقبيحًا على نحو لا يمكن وصفه بل ومقززًا. ومع الأسف فقد فعل جْفَانْجِل كل شيء يؤكد نفور المحامي منه، إذ إنه -رغم نصح الدكتور رَايْشهَارْت له بالعكس- ظلَّ جْفَانْجِل يرفض إعطاءه أي معلومات بدعوى أنه ليس في حاجة إلى محامٍ.

الآن تحدَّث المحامي الدكتور شْتَارِكْ، وكانت طريقته الأنفية البطيئة في الحديث تتعارض بقوة مع الكلمات القاسية التي يستعملها.

قال:

- نادرًا ما رأينا نحن المجتمعين في هذه الصالة في هذه الساعة عَرضًا لصورة للوضاعة الإنسانيَّة المرذولة في دَرَكَاتها السفلى مثلما عُرض أمامنا هنا اليوم. خيانة عظمى، خيانة للدولة، دعارة، قوادة، إجهاض، بخل. هل بقيَ جرمٌ بشري لم يقترفه موكلي ولم يشترك فيه؟ هيئةَ المحكمة العليا، سادتي، ترون أنني غير قادر على الدفاع عن جريمة مثل هذه. وفي هذه الحالة أخلع عباءة الدفاع -أنا نفسي، المحامي- وعليَّ أن أكون الادعاء وأرفع صوتي مطالبًا بتطبيق العدالة بأقصى درجات الحزم. ولا يمكنني سوى تكرار القول الشهير بعد تعديل طفيف «فلتأخذ العدالة مجراها حتى لو أن العالم سينتهي!» فهذا المجرم لا يستحق أي تخفيف عنه، ولا يستحق حتى أن يُدعى إنسانًا!

وبذلك انحنى المحامي تاركًا المفاجأة تصدم الجميع وجلس ثانية باسطًا سرواله بحرص فوق ركبتيه. ثم ألقى نظرة متفحِّصة على أظفاره وبدأ يحكُّ بعضها في بعض برقَّة.

وبعد تردُّد قصير سأل الرئيسُ المتهمَ إن كان يريد أن يقول شيئًا آخر يصب في مصلحته. لكن عليه أن يعبر عن نفسه بإيجاز.

قال أُوتُّو جْفَانْجِل وهو يمسك سرواله:

- ليس عندي ما يمكن قوله ليصب في صالحي، غير أني أريد أن أقدم شكري الجزيل لمحاميَّ على مرافعته. فأخيرًا فهمت معنى «محام ذو لسانين»!

جلس جْفَانْجِل تاركًا للآخرين اضطرابهم العاصف.

قطع المحامي تلميع أظفاره، ونهض، ثم أعلن بإهمال أنه يتنازل عن تقديم بلاغ ضد موكله الذي أثبت مجدَّدًا أنه مجرم غير قابل للإصلاح.

كانت هذه هي اللحظة التي ضحك فيها جْفَانْجِل لأول مرة منذ اعتقاله، كلا، بل منذ عقود بعيدة للغاية، ضحك جذِلًا غير مهموم بشيء. إذ اجتاحته فجأةً كوميديا الموقف الذي يريد أن يلصق به تهمة الإجرام.

حدج الرئيسُ المتهمَ بنظرة حادة بسبب حبوره غير اللائق، وفكر في اتخاذ إجراءات صارمة ضد جْفَانْجِل، لكن بعد ذلك خطر له أنه بالفعل قد اتَّخذ ضده كل العقوبات الممكنة، ولم يتبقَّ سوى استبعاده من قاعة المحكمة، فعاد وفكر أن النطق بالحكم لن يؤتي نفس التأثير في غياب المتهمَيْنِ كليهما.

وهكذا قرَّر أن يتغافل.

وانسحبت هيئة المحكمة كي تتشاور في الحكم.

استراحة طويلة.

وخرج معظم الناس لتدخين سيجارة، مثلما يحدث في المسرح.

65

المحاكمة الرئيسية: الحكم

وَفقًا للتعليمات تحتم على الشُّرطيين اللذين يحرسان أُوتُو جْفَانْجِل نقلُه -للانتظار في أثناء استراحة المحكمة- إلى زنزانة صغيرة معدَّة لمثل تلك الاستراحات. ولأن القاعة تقريبًا قد خلت بالكامل، ونَقْلُ المسجون بسرواله الذي ينزلق طول الوقت عبر الممرات الضيقة الطويلة والسلالم العديدة بدا أمرًا مجهدًا، فَظَنَّا أنهما يمكن أن يَغُضَّا الطرف عن تلك التعليمات وبقِيَا على مسافة من جْفَانْجِل يتبادلان الثرثرة.

أسند الحِرفيُّ العجوز رأسه إلى يديه ونعس قليلًا. فالمحاكمة التي استغرقت سبع ساعات ولم يسمح لنفسه فيها بالشرود ولو للحظة واحدة أنهكته. مرت الصور أمام عينيه كالخيال: يد رئيس المحكمة فَايْسْلِر التي تشبه المخلب الذي ينفتح وينغلق، محامي آنَّا بإصبعه في منخره، الأحدب القصير هِفْكِه الذي أراد أن يتعلم الطيران، آنَّا التي قالت بوجنتين محمرَّتين «87»، والتمعت عيناها مُظهرةً تفوقها على الجميع على نحوٍ لم يعرفها عليه من قبل، وغيرها صور أخرى كثيرة.

ضغط رأسه أكثر على يديه، كان متعبًا للغاية، عليه أن ينام، ولو لخمس دقائق فقط...

وهكذا وضع ذراعًا على الطاولة وأسند رأسه. تنفس بارتياح. فقط خمس دقائق من النوم العميق، ولينْسَ توتره لوقت وجيز.

لكنه نهض فزعًا ثانية؛ شيء في هذه القاعة يدمِّر هدوءه المنشود. جال بعينين مفتوحتين عن آخرهما، ووقع بصره على المستشار المتقاعد فْرُومْ، الذي كان واقفًا عند قضبان منطقة الجمهور وبَدَا عليه أنه يعطيه إشارات. كان جْفَانْجِل قد رأى الرجل العجوز من قبل، فهو قد أَوْلَى انتباهه لكل شاردة وواردة، لكنه بين كل انطباعات ذلك اليوم لم يلاحظ كثيرًا جاره السابق في شارع يابْلونْسْكِي.

الآن وقف المستشار عند الحاجز وأشار إليه.

ألقى جْفَانْجِل نظرة على الشرطيين. كانا واقفين على مبعدة ثلاث خطوات منه. لا أحد منهما ينظر نحوه إذ كانا منهمكين في حوار صاخب. سمع جْفَانْجِل الكلمات: «وهكذا أمسكت الأَخَ من عنقه...».

نهض الحِرفيُّ ممسكًا سرواله بكلتا يديه وسار خطوة خطوة نحو المستشار.

كان واقفًا عند الحاجز مخفضًا بصره كأنَّه لا يريد أن يرى السجين المقترب. ثم صار جْفَانْجِل على مبعدة خطوات منه فاستدار المستشار في عجالة، ومضى عبر صفوف الكراسي متجهًا نحو باب الخروج، واضعًا عبوة صغيرة بيضاء في حجم بكرة خيط فوق السور الحاجز.

مشى جْفَانْجِل الخطوات الأخيرة، وأمسك العبوة ثم أخفى اللفافة في بطن يده ثم في جيب سرواله. كان ملمسها صلبًا. استدار ورأى

أن حارسيه لم يلحظا غيابه بعد. ثم اصطَك بابٌ في مكان الجمهور، وخرج المستشار.

بدأ جْفَانْجِل مشوار العودة إلى مكانه. كان منفعلًا نوعًا، وقلبه يخفق، وقد بدا له - من غير المعقول- أن هذه المغامرة ستنتهي على خير. ترى ما الذي ظهر للمستشار مُهِمًّا لدرجة أن يدسه ويغامر به إلى هذا الحد؟

كان جْفَانْجِل على مبعدة خطوات من مكانه حين رآه أحد الحارسيْن فجأةً. ارتجف مرتعبًا ملقيًا نظرات مرتبكة على مقعد جْفَانْجِل الخالي كأنما يريد أن يقنع نفسه أن المتهم لا يجلس فيه وصرخ في ذعره: ماذا تفعل هناك؟

كذلك ارتبك الحارس الآخر وحدق إلى جْفَانْجِل. وفي ارتباكهما الأوليِّ وقف كلاهما ثابتًا ولم يفكِّرا مطلقًا أن يعيدا السجين إلى مكانه.

- أريد أن أقضي حاجتي يا سيادة الحارس!

لكن فيما الشرطي الذي هدأ سريعًا يغمغم قائلًا:

- لا يحق لك أن تذهب وحدك! عليك أن تطلب الإذن!

فيما الشرطي يتحدَّث هكذا، فكَّر جْفَانْجِل فجأةً أنه لا يريد شيئًا سوى آنًا. إن كانوا سيعلنون الحكم بهدوء بدون كلا المتهميْن فإن ذلك سيسلبهم كثيرًا من السعادة. هو، جْفَانْجِل، لم يكن يشعر بالفضول تجاه ذلك لأنه كان يعرفه بالفعل. علاوة على ذلك، كان يطمح إلى معرفة الشيء المهم الذي دسَّه له المستشار.

وصل الشرطيان عند جْفَانْجِل وأمسكاه من ذراعيه اللتين ما تزالان تمسكان بالسروال.

نظر جْفَانْجِل إليهما ببرود وقال:

- فليتعفَّنْ هتلر!

- ماذا؟ (كانا مذهولين لدرجة أنهما لم يصدِّقا ما سمعا بآذانهما)

قال جْفَانْجِل بسرعة كبيرة وبصوت عالٍ:

- فليتعفن هتلر! ليتعفن جوريج! جُوبِلْز، أنتَ يا مؤخرة الحمار، فلتتعفن! وليتعفن شترايشر!

الضربة التي تلقاها على ذقنه منعته مواصلة «الذِّكر» على تلك السِّبحة. وجرَّ الشرطيان جْفَانْجِل الذي فقد الوعي إلى خارج الصالة.

وهكذا اضطر الرئيس فَايْسْلِر إلى إعلان الحكم بدون وجود كلا المتهمين. ولم ينظر إلى إهانة المحامي بعين الاعتبار. وكان جْفَانْجِل على حق؛ كان إعلان الحكم بدون النظر إلى وجهي المتهميْنِ لا يحقِّق سعادة لرئيس المحكمة، ولا بأي درجة. إذ كان قد فكَّر في صياغات بليغة تمتلئ سبابًا.

وفيما فَايْسْلِر لا يزال يتكلم، فتح جْفَانْجِل عينيه في زنزانة الانتظار. كان ذقنه يؤلمه، ورأسه كله يؤلمه، وبذل مجهودًا كبيرًا كي يتذكَّر ما حدث. مسَّتْ يديه بحذر موضع جيبه؛ «الحمد لله، العبوة لا تزال موجودة».

استمع إلى وقع خطوة الحارس في الطرقة، ثم الضوضاء، وبعدها سمع صوتًا هادئًا قادمًا من ناحية الباب؛ لقد سُحِبَ الغطاء عن العين

السحرية. أغلق جْفَانْجِل عينيه وظلَّ راقدًا كأنَّه ما يزال فاقدًا للوعي. وبعد مدة بدت لا نهائية عاد الصوت مرة أخرى أمام الباب ثم أخيرًا خطوات الحارس من جديد...

أُغلقت العين السحرية مرة أخرى، ولذا بالتأكيد لن يطل منها الحارس في الدقيقتين أو الثلاث القادمة.

بحث جْفَانْجِل سريعًا في جيبه وأخرج اللفافة. فكَّ الخيط المربوط حولها، وبسط الورقة الصغيرة المبرومة حول زجاجة صغيرة ثم قرأ الخط المطبوع على الآلة الكاتبة: «حمض البروسيك، يقتل بلا ألم في غضون ثوانٍ. يخبَّأ في الفم. سيُعتَنَى أيضًا بالسيدة. أعدِمِ الورقة!».

ابتسم جْفَانْجِل. الرجل العجوز الطيب! الرجل الجميل العجوز! مضغ الورقة الصغيرة إلى أن ابتلَّتْ تمامًا ثم ابتلعها.

تأمَّل (الأمبول) بفضول، ونظر في السائل الشفَّاف مثل الماء. «موت سريع بلا ألم» قال لنفسه.. «آه، لو أنكم تعلمون! وسيُعتَنَى أيضًا بآنَّا! لقد فكر في كل شيء، الرجل الطيب العجوز!».

وضع الزجاجة الصغيرة في فمه. جرَّب. وجد أنه من الأفضل أن يخفيها ما بين اللثة وعظام الوجنة، مثل قلم، وهي طريقة يستعملها كثير من العمال في ورشة النجارة. مَسَّ وجنته. كلا، ليس ثمة تقوُّس. حين يشعرون بشيء وقبل أن يأخذوا منه هذا (الأمبول) سيكون قد قضمه وطحنه في فمه.

ومرة أخرى ابتسم جْفَانْجِل: الآن أصبح حُرًّا حقًّا. الآن لن يستطيعوا ممارسة أيِّ عنف ضده!

66

مبنى المحكومين بالإعدام

يُؤوي مبنى المحكوم عليهم بالإعدام في بلوتسينزيه الآن أُوتُّو جْفَانْجِل. والزنزانة الانفرادية في هذا المبنى هي الآن بيته الأخير على هذه الأرض.

أجل، هو الآن يرقد في زنزانة انفرادية، فالمحكوم عليهم بالإعدام لا يُسمح بمرافقين معهم. لا دكتور رَايْشهَارْت، ولا حتى كلب. فالمحكوم عليهم بالإعدام لا رفيق لهم سوى الموت، هذا بحسب القانون.

إنه مبنًى كامل، يعيشون فيه، عشرات، ربما مئات، في زنازين متجاورة. ودائمًا ما يُسمع وقع خطوات الحارس في الممر. دائمًا يسمع صوت الخشخشة، وطوال الليل تنبح الكلاب في الأحواش.

لكن الأشباح هامدة في الزنازين. يسود الهدوء، ولا يسمع أي صوت. إنهم هادئون جدًّا أولئك المرشحون للموت!

حضروا من جميع أنحاء أوروبا، رجال، شبان، صبية، ألمان، فرنسيون، هولنديون، بلجيكيون، نرويجيون، أناس طيبون، ضعفاء، أشرار، كل الأمزجة من المتفائلين إلى السوداويين. لكن الفروق تختفي في هذا المبنى، كلهم صاروا هادئين، مجرد أشباح لذواتهم. بالكاد يسمع جْفَانْجِل مساءً صوت بكاء، بل سكون وسكون ثم سكون...

دائمًا ما أحَب السكون. في تلك الشهور الأخيرة تعين عليه أن يعيش حياة تناقض تمامًا مزاجه؛ لم يختلِ بنفسه مطلقًا، وكثيرًا ما أجبر على الكلام، هو، الذي طالما كره الكلام. والآن عادت الأمور إلى مجاريها مرة أخرى، وعاد لمرة أخيرة إلى طريقته في العيش، في سكون، وأناة. لقد كان الدكتور رَايْشهَارْت طيبًا، وعلمه كثيرًا، لكن الآن، والموت يقترب، فالأفضل أن يعيش بدون الدكتور رَايْشهَارْت.

لقد تعلم منه أن يؤسس لنفسه حياة منتظمة هنا في الزنزانة. كل شيء بميقات، الاغتسال الجيد جدًّا، بعض التمارين الحرة التي اقتبسها من شريكه في الزنزانة، نزهة كل ساعة في الصباح والمساء، والتنظيف الدقيق للزنزانة، الطعام، النوم. كتبٌ هنا أيضًا متاحة للقراءة، كل أسبوع يجلبون له ستة كتب، لكنه لم يتغيَّر في هذا الشأن، ولم ينظر فيها. لا يريد أن يبدأ في القراءة في أيامه الأخيرة.

لكنْ ثمة شيء آخر اكتسبه من الدكتور رَايْشهَارْت. فهو يدندن في أثناء جولاته. يتذكَّر أغاني الأطفال القديمة والأغاني الشعبية من أيام المدرسة. ثمة أغانٍ تظهر له من أيام الصِبا الأول. يستدعي بيتُ الشعر بيتًا آخر على وزنه، يا له من رأسٍ ذاك الذي يحمل ولا يزال يتذكَّر كل ذلك رغم مرور ما يزيد على أربعين سنة! ثم القصائد: خاتم بوليقراط، الضمان، المرح، بريق الرب الجميل، وملك العفاريت*. لكن أغنية الجرس لا يستطيع استعادتها كاملة. ربما لم يتعلم كل الأبيات من الأساس، لا يتذكَّر هذا الآن.

* القصائد المذكورة كلها قصائد شهيرة لفريدريش شيلر، عدا الأخيرة فهي من تأليف يوهان فولفجانج فون جوته. (المترجمة)

حياة هادئة، لكن المحتوى الأساسي لليوم تمثَّل في العمل. أجل، هنا عليه أن يعمل، أن يُنَقِّي كمية محددة من البازلاء، يُنَقِّيها من الدود، ويستبعد المكسورة ونصف المفتوحة، وبيض الحشائش الضارة والحصى الأسود أو الرمادي. يعملُ بهذا بسعادة، وأصابعه تُنقِّي بهمة ساعة تلو الأخرى.

من الجيد أنه حصل على هذا العمل، فهو يشبعه. لأن الأوقات الطيبة التي كان يشارك فيها الدكتور رَايْشهَارْت طعامه الطيب قد ولَّت الآن وإلى الأبد. إنهم يقدمون له في الزنزانة، طعامًا سيِّئ الطهو، وخبزًا مبتلًّا دبقًا، مع خليط من البطاطس، يصعب على معدته أن تهضمه.

لكن هنا تساعد البازلاء. لا يستطيع أن يأخذ منها كثيرًا، لأن الكمية التي يحصل عليها تُوزَنُ، لكنه يأخذ ما يشبعه. ينقع هذه البازلاء في الماء حتى تلين، وعندما تنتفش يضيفها إلى حسائه كي تسخن قليلًا ثم يمضغها. وبهذا يُحسن طعامه الذي تنطبق عليه مقولة «أقل مما يكفي كي يظل على قيد الحياة، وأكثر مما ينبغي كي يموت».

يخمن بالتقريب أن الحراس الذين يراقبون عمله، يعلمون ما يفعل.. أنه يسرق البازلاء، لكنهم لا يقولون شيئًا. وهم لا يقولون شيئًا ليس لأنهم يريدون وقاية المحكوم عليه بالإعدام، بل لأنهم لا يكترثون، فهم قد أصبحوا بُكْمًا في هذا المبنى الذي يعايشون فيه كثيرًا من الشقاء في كل الأيام.

لا يتكلمون، حتى لا يتكلم الآخر. لا يريدون سماع شكاوى، فهم لا يستطيعون تغيير شيء، أو تحسين وضع، فكل شيء هنا له مساره العنيد. إنهم مجرد تروس في آلة، تروس من الحديد أو الفولاذ. حينما يلين الحديد لا بد من تبديله، وهم لا يريدون الاستبدال بهم، بل أن يبقوا تروسًا.

ولهذا لا يقدمون مواساة أيضًا، لا يريدون، فهم كما هم.. لا مكترثون، باردون، خاوون من أي تعاطف.

في البداية حينما جاء أُوتُّو جْفَانْجِل بناءً على أوامر الاعتقال الانفرادي التي أصدرها الرئيس فَايْسْلِر، اعتقدَ أن الأمر سيستمر يومًا أو اثنين، وظن أنهم متعطشون إلى تنفيذ حكم الإعدام فيه، كان هذا سيكون أفضل بالنسبة إليه.

لكنه علم بالتدريج أن تنفيذ حكم الإعدام قد يستغرق أسابيع وأسابيع، بل شهورًا، وربما سنة في بعض الأحيان. ثمة أناس ينتظرون منذ عام تنفيذ حكم الإعدام، إنهم يرقدون كل مساء للنوم، ولا يعلمون إن كان الجلادون سيأتون إليهم في الليل ويوقظونهم على تنفيذ الحكم. كل ليلة، كل ساعة، كل قضمة، في أثناء تنقية البازلاء، في ركن الحمام، يمكن دائمًا للباب أن يفتح، أن تشير يد، وأن يقول صوت: «تعال! لقد حان الوقت!».

يا لها من قسوة لا يمكن تصوُّرها! خوف الموت المُمتد عبر أيام، وأسابيع، وشهور، وإنها ليست مجرد رسميات قانونية، حتى اِلتماسات العفو التي لا بد من انتظار البت فيها، هي التي تؤدي إلى تلك الإطالة. يقول البعض إن الجلاد منشغل أكثر من اللازم،

ولم يعد في مقدوره أن ينجز أكثر. لكن الجلاد لا يعمل إلا في أيام الاثنين والثلاثاء، ولا يعمل في باقي الأيام. وهذا في كل ألمانيا، إذ في كل مكان إعدامات، بل إن الجلاد يعمل حتى خارج الحدود. لكن كيف يحدث أن يُعدَم أحدهم قبل سبعة أشهر مِن إعدام زميله الذي حُكم عليه في نفس اليوم؟! إنها القسوة ثانية، السادية، ليس في المبنى ضرب خشن، أو تعذيب جسدي، فهنا يتسلَّل السم إلى الزنازين بدون أن يلاحظه أحد، إنهم لا يريدون إعفاء الأرواح هنا من الخوف ولو للحظة.

كل اثنين وكل ثلاثاء يسود الاضطراب في المبنى، وفي الليل تتقلب الأشباح وتتعلَّق بالأبواب، ترتجف المفاصل، يتنصَّتون إلى وقع الأقدام في الممرات، لا تزال خطوات الحراس تُسمع في الممر في الثانية صباحًا. لكن سريعًا.. ربما اليوم. ويرجون، ويصلون: «ثلاثة أيام فقط، فقط هذه الأيام الأربعة إلى موعد الإعدام القادم، سأستسلم، لكن ليس اليوم!»، ويرجون ويصلون ويتوسلون.

تدق الساعة الرابعة. خطوات، خشخشة مفاتيح، غمغمة. تقترب الخطوات. يبدأ القلب في الخفقان، ويتفصَّد العرق من كل البدن. فجأةً صَلْصَلَ مفتاح في قفل. «سكينة، اهدأ، إنها الزنزانة المجاورة هي التي تُفتَح، كلا، بل الزنزانة التي بعدها». تسمع صيحة تقول «لا! لا! النجدة!»، لكن سرعان ما تُخنق! خطوات أقدام. «سكون. خطوة الحارس المنتظمة. سكون. انتظار. انتظار مفعم بالخوف. لا أتحمَّل كل هذا!».

وبعد مدة لا تنتهي، بعد هاوية كلها خوف، بعد انتظار لا يمكن تحمله وكان لا بد من تحمُّله، تقترب غمغمةٌ من جديد، وضوضاء الأقدام كثيرة، وخشخشة المفاتيح...

تقترب، أقرب، فأقرب. «يا إلهي! ليس اليوم بعدُ، ثلاثة أيام أخرى! عودة إلى الوراء! المفتاح في القفل. عندي؟ أوه، إنه عندي! كلا، إنها زنزانة الجار، تمتم ببضع كلمات، إنهم إذًا يأخذون الجار».

لقد أخذوه، تبتعد الخطوات...

تحطَّم الوقت ببطء، يتفتَّت الوقت القليل إلى وَحدات عديدة لا نهائية. انتظار. لا شيء عدا الانتظار. وخطوة الحارس في الممر. يا إلهي، اليوم يأخذون ببساطة زنزانة تلو زنزانة، والدور سيأتي عليك. سيأتي الدور عليك! في غضون ثلاث ساعات تتحوَّل إلى جثة، سيكون هذا الجسد قد مات، هاتان الساقان اللتان مما تزالان تحملانك، هاتان اليدان اللتان عملتا وربَّتا وغازلتا وأثِمَتا، لن توجد إلا كقطعة فاسدة من اللحم! ليس هذا معقولًا، ورغم ذلك إنه صحيح!

انتظار.. انتظار.. انتظار! وفجأةً يرى المنتظر أن الفجر يشرق عبر نافذته، ويسمع جرسًا يرن للاستيقاظ. لقد أتى اليوم، يوم عمل جديد. وأُعفي مرة أخرى من الموت. لا يزال أمامه ثلاثة أيام، أربعة أيام. لقد ابتسم له الحظ. يتنفَّس أسهل، يستطيع الآن أن يتنفس أسهل، ربما سيعفون عنه تمامًا. ربما يقع نصر كبير فيصاحبه عفو عام. أو ربما يخفَّف الحكم فيبقى في السجن طوال حياته!

ساعة من التنفس السهل!

«ها هو ذا الخوف يبدأ مجدَّدًا وينشر السِّلم في تلك الأيام الثلاثة أو الأربعة؛ لقد فرغوا هذه المرة من الزنزانة المقابلة، ما يعني أنهم سيبدؤون بي يوم الاثنين. أوه، ماذا عساي أفعل؟ لا أستطيع...».

ودائمًا من جديد، دائمًا من جديد، مرتين في الأسبوع، كل يوم في الأسبوع، كل لحظة خوف!

وشهرًا وراء شهر.. خوف من الموت!

أحيانًا يسأل أُوتُّو جْفَانْجِل نفسه من أين يعرف كل ذلك. فهو أبدًا لا يتحدَّث مع أي أحد، وفعلًا لا أحد يتحدَّث معه. بضع كلمات عجفاء من الحارس: «تعال! استيقظ! اعمل أسرع!» ربما أحيانًا في أثناء تناول الطعام كلمات رسمتها الشفاه ولم ينطقها اللسان: «اليوم سبعة إعدامات»، كان هذا كل شيء.

لكن حواسَّه صارت حادَّة أكثر من أي وقت مضى. وكانت تشِي له بما لا يستطيع أن يراه. كانت أذناه تسمعان أقلَّ جلبة في الممر، الأحاديث المبتسرة لتناوُب الوردية، لعنة، صرخة... كل شيء كان مكشوفًا له، ولم يبقَ أي شيء محتجب. ثم في الليل، في الليالي الطويلة التي تستمر لثلاث عشرة ساعة وَفقًا لتعليمات السجن، لكنها لم تكن لياليَ قطُّ، لأن الضوء في زنزانته يجب أن يظلَّ مشتعلًا، كان يخاطر أحيانًا؛ يتسلق إلى النافذة، ويتنصَّت، متعلِّقا بالشِّيش في الليل. كان يعرف أن الحراس في الحوش وكلابَهم التي تنبح باستمرار صدرت لهم الأوامر، بأن يطلقوا النار على أي وجه يرونه في النافذة، وليس من مُستبعدًا أن تتجه طلقة صوبه، لكنه كان يغامر رغم ذلك.

كان يقف على كرسيِّه مستشعرًا هواء الليل النقي -هذا الهواء وحده كان جزاءً طيبًا عن أي مخاطرة- ثم يستمع إلى الهمس من نافذة إلى أخرى، في البداية كلمات لا معنى لها: «لقد فعلها الصبي ثانية!» أو «السيدة في 347 وقفت اليوم بأكمله في الأسفل»... لكن مع الوقت استطاع أن يضع معنًى لكل سطر. ومع الوقت عرف أن الرجل في الزنزانة المجاورة له متهم بالتجسُّس، وأنهم يزعمون أنه باع نفسه للأعداء، وأنه حاول قتل نفسه مرتين بالفعل. وفي الزنزانة التي وراءه جلس عامل أفسد المحرِّكات في مصنع للكهرباء، وأن الحارس برينشيكِه يُهرِّب أوراقًا وبقايا أقلام وخطابات من المبنى، حينما يُرشَى بكثير من المال، أو الأفضل بكثير من المواد التموينية.. و.. و.. أخبار وأخبار. حتى بيتُ الموتِ يتكلم، يتنفَّس، يعيش، حتى في بيت الموت لا تنطفئ حاجة البشر إلى تبادل الأخبار.

لكن حتى لو أن أُوتُّو جْفَانْجِل غامر بحياته في بعض الأحيان كي يسمع، وحواسه لا تتعب أبدًا أن تلحظ أبسط التغييرات، فإن جْفَانْجِل لم يكن ينتمي إلى الآخرين تمامًا. أحيانًا كانوا يخمنون أنه واقف عند النافذة الليلية، يهمس أحدهم: «وما أخبارك يا أُوتُّو؟ هل ردُّوا على التماس العفو؟» (كانوا يعرفون كل شيء عنه). لكنه قطُّ لم يجب بكلمة، لم يعترف بأنه يتنصَّت. لم يكن ينتمي إليهم، حتى لو أنهم جميعًا محكوم عليهم بنفس الحكم، ظل هو رجلًا مختلفًا تمامًا.

وكونه كذلك لم يكن بسبب انعزاله كما في السابق، ولا بسبب حاجته الماسة إلى الهدوء، التي فصلته عن الآخرين حتى الآن، ولم يأت ذلك من امتعاضه من الحديث الذي جعل لسانه في السابق

ساكتًا. وإنما السبب هو الأسطوانة الزجاجية الصغيرة التي أعطاه إياها المستشار المتقاعد فْرُومْ.

هذه الأنبوبة الصغيرة التي تحوي المحلول الشفاف حرَّرتْهُ. أما الآخرون -إخوانه في الشقاء- فكان لزامًا عليهم قطع طريق المعاناة حتى آخره. كان لديه الخيار. يستطيع أن يموت في أي لحظة، فقط إن أراد. كان حُرًّا. كان في بيت الموتى، وراء القضبان والأسوار، مكبَّلًا بالسلاسل -أوتُّو جْفَانْجِل الحِرفيُّ النجارُ سابقًا، الحِرفيُّ سابقًا، الزوجُ سابقًا، الأبُ سابقًا، الناشطُ سابقًا- كان حرًّا. لقد كان حرًّا كما لم يشعر بحريته من قبل. هو، مالك تلك الأنبوبة الزجاجية الصغيرة، لم يكن يخشى الموت. كان الموت رفيقه في كل ساعة، كان صديقه. هو، أوتُّو جْفَانْجِل، لم يكن في حاجة إلى الاستيقاظ مبكرًا أيام الاثنين والثلاثاء وأن يظل يتنصَّت لدى الباب خائفًا. لم يكن ينتمي إليهم. ليس تمامًا. لم يكن عليه أن يتعذَّب، لأنه كان يمتلك نهاية كل العذابات.

كانت حياة طيبة تلك التي يحياها. أحبها. لم يكن حتى متيقِّنا إن كان أبدًا سيستخدم تلك الأنبوبة الزجاجية.

ربما كان من الأفضل أن ينتظر حتى اللحظة الأخيرة؟ ربما يُسمح له برؤية آنًا لمرة أخيرة؟ أليس من الأفضل ألا يعفِي أولئك من الشعور بالعار؟

عليهم أن يعدموه، هذا أفضل، هذا أفضل جدًّا! كان يريد أن يعرف كيف يسير الأمر؛ كان يخطر بباله أن من واجبه أن يعرف كيف ينفذون ذلك. يظن أن الحبل سيلتف حول رقبته، أو أن رأسه

سيميل أسفل المقصلة، عليه أن يعرف كل شيء. ثم هو يمكنه في اللحظة الأخيرة أن يدبر لهم مقلبًا.

ومع تيقنه ألا شيء آخر يمكن أن يحدث له، وأنه هنا، ربما للمرة الأولى في حياته يستطيع أن يكون هو نفسه، بلا أي مواربة، وجد الراحة في هذا اليقينِ، والسعادة، والسلام. جسده الذي يسير نحو الشيخوخة لم يشعر قطُّ بالصحة كما يشعر بها في هذه الأسابيع. عينه القاسية كعين طائر لم تبدُ ودودة كما هي الآن في زنزانة الموت. وروحه لم تعرف التحليق كما عرفته هنا.

كم هي طيبة هذه الحياة!

يرجو أن تكون حال آنًا طيبة كذلك. لكن المستشار السابق فْرُومْ كان رجلًا ملتزمًا كلِمَتَهُ. كذلك آنًّا ستنجو من كل هذا الاضطهاد، وستكون حرة هي أيضًا، سجينة.. لكن حرة.

67

اِلتماسات العفو

يرقد أُوتُّو جْفَانْجِل منذ عدة أيام في الظلام، وَفقًا لقرار محكمة الشعب. كان يرتجف بشدة في القفص الصغير المصنوع من القضبان الحديدية ويشبه قفص القرود في حديقة الحيوانات، ثم فُتح الباب، واشتعل النور، ووجد محاميه الدكتور شْتَارِكْ واقفًا في فتحة الباب محدقًا إليه.

وقف جْفَانْجِل ببطء وبادله النظرات.

وهناك وقف السيد ذو الهندام المكوي وتقدم تجاهه، بأظفار يده الوردية، وطريقته المتعالية اللا مكترثة في الكلام. ربما كي يرى المجرم وهو يتعذب.

ولكن في ذلك الوقت كانت الأنبوبة في فم جْفَانْجِل، ذلك الطِّلَسْمُ الذي سمح له بتحمُّل البرودة والجوع، ولهذا فلقد تمكن بهدوء، بل بحبور فائق، أن يشيح بنظره بعيدًا عن نظرات «السيد الراقي»، رغم تهالكه، وارتجافه من الصقيع، ومعدته التي تحترق جوعًا.

- والآن؟ (سأله جْفَانْجِل أخيرًا)

- أحضر لك الحكم. (قال المحامي وسحب ورقة من جيبه)

لكن جْفَانْجِل لم يقبل.

- لست مهتمًّا! (قال)

أعلم أنه حكم بالإعدام. هل زوجتي كذلك؟

- حتى زوجتك. ولا استئناف على الحكم.

- جيد. (أجاب)

- لكن يمكنكَ أن تتقدم بالتماس عفو.

- إلى الزعيم؟

- نعم، إلى الزعيم.

- لا، شكرًا.

- تريد إذًا أن تموت؟

ابتسم جْفَانْجِل.

- ألستَ خائفًا؟

ابتسم جْفَانْجِل.

نظر المحامي لأول مرة بِظِلِّ مِنَ اهتمامٍ نحو وجه موكِّله وقال:

- سأرفع التماسًا باسمك.

- بعدما طالبت بالحكم عليَّ!

- هذا أمر معتاد مع كل حكم بالإعدام؛ يُقدَّم التماس بالعفو. هذا ضِمن واجباتي.

- ضمن واجباتك؟ أتفَهَّم. مثل دفاعك. الآن، أفترضُ أن التماسَ العفو الذي سترفعه لن يكون له أثر. الأفضل ألا تفعل.

- سأرفعه على الرغم من ذلك، حتى لو ضد رغبتك.

- لن أستطيع أن أمنعك.

جلس جْفَانْجِل ثانية على الحَشِيَّة. انتظر أن يتوقَّف الآخر عن هذا الحديث الأحمق، ويذهب.

لكن المحامي لم يذهب، بل سأل بعد صمت طويل:

- لم فعلتها حقًّا؟

- ماذا فعلتُ؟ (سأل جْفَانْجِل لا مباليًا بدون أن ينظر نحو المهندَم)

- كتبتَ البطاقات. لم تُجْدِ نفعًا وها أنت تدفع حياتك ثمنًا لها!

- لأني إنسان أحمق. لأنه لا فكرة أفضل خطرت ببالي. لأني حسبت أن لذلك حسابَ تأثيرٍ آخر!

- ألا تندم على ذلك؟ ألا يؤسفك أن تفقد حياتك بسبب تلك الحماقة؟

أصابت المحامي الكبير الفخور نظرةٌ حادةٌ، نظرة الطائر القاسي.

- على الأقل بقيت نزيهًا.. (قال)

لم أشارِكْم.

نظر المحامي مطولًا نحو الجالس هناك. ثم قال:

- أعتقد الآن، أن زميلي الذي دافع عن زوجتك كان محِقًّا: كلاكما مجنون.

- أتُسَمِّهِ جنونًا، حين تدفع كل ثمن كي تبقى نزيهًا؟

- كان يمكن أن تظَلّا كذلك أيضًا بدون كتابة البطاقات.

- ذلك يسمى «موافقة صامتة». ماذا دفعتَ من أجل أن تظلّ رجلًا راقيًا يرتدي سروالا مكويًّا له أظفار مطلية ومرافعات مكذوبة؟ ماذا دفعت لتنال ذلك؟

سكت المحامي.

- هاك الجواب... (قال جْفَانْجِل)

وستظل تدفع أكثر باستمرار، وربما يأتي يومٌ تُضطر أن تدفع رأسك، مثلي تمامًا، لكنهم سيتركونك بسبب عدم نزاهتك!

ما زال المحامي صامتًا.

نهض جْفَانْجِل.

- أترى.. (ضحك)

أنت تعلم جيِّدًا أن مَن وراء القضبان رجل محترم وأنك أنت السبب في أن المجرم الحقيقي ما يزال حرًّا، فيما المحترم يُحكم عليه بالإعدام. أنت لست محاميًا، لم أُسَمِّكَ ذا اللسانين بدون مبرر. وبعد ذلك تريد أن ترفع التماسًا بالعفو باسمي؟! أَخْ! اخرج من هنا!

- ورغم ذلك سأتقدم بطلب عفو باسمك. (قال المحامي)

لم يجب جْفَانْجِل.

- إذًا إلى اللقاء! (قال المحامي)

- لن يحدث. إلا لو أنك حضرت إعدامي. عموما أدعوك إلى ذلك بكل ود!

ذهب المحامي.

كان صلبًا، قاسيًا، سيِّئًا. لكن لا يزال لديه من الفهم ما يجعله يعترف لنفسه بأن الآخر هو الرجل الأفضل.

أُرسِل طلب العفو. كان المبرر لالتماس عفو الزعيم هو الجنون. لكن المحامي كان يعلم جيِّدًا، أن موكله ليس كذلك.

حتى لآنَّا جْفَانْجِل رُفِعَ التماس عفو بشكل مباشر إلى الزعيم. لكن هذا الالتماس لم يخرج من مدينة برلين، بل من قرية صغيرة على الحدود وعليه توقيع «آل هِفْكِه».

لقد تلقَّى والدا آنَّا جْفَانْجِل خطابًا من زوجة ابنهم أُولْرِشْ. لم يكن الخطاب يحوي إلا أخبارًا سيِّئة. مكتوبة بلا مواربة في جمل قصيرة وجيزة قاسية. الابن أُولْرِشْ جُنَّ وموجود في مصحة في فيتيناَو، أُوتُّو وآنَّا جْفَانْجِل السبب في ذلك. لكن حكم عليهما بالإعدام لأنهما اقترفا الخيانة العظمى ضد الزعيم والبلاد. هؤلاء هم أولادكم! عار عليكم يا آل هِفْكِه!

وبدون كلمة، وبدون أن يجرؤوا على النظر بعضهما إلى بعض، جلس العجوزان في حجرتهما الصغيرة الفقيرة، يضعان الخطاب بينهما كأنه رسالة من النبي أيوب، وَظَلَّا لا يجرؤان على النظر فيه.

لقد حرصا على قضاء يومهما بهدوء، كفلاحين بسيطين يعملان على أرض مُلَّاكها قساة. وعاشَا حياتهما على الكفاف؛ كثير من العمل وقليل من المرح. كانت سعادتهما هي الأطفال. فالأطفال صاروا أناسًا محترمين، وحققوا أكثر مما حققه والداهم، ولم يكن عليهم أن يضيقوا على أنفسهم، أُولْرِشْ عاملٌ أولُ في مصنع للبصريات، وآنَّا زوجة حِرفيٍّ نجار. كانا بالكاد يكتبان، ولا يخرجان

إلى الناس، ولا ينزعجان من ذلك مطلقًا، فلقد كانت تلك حال كل الطيور التي تغادر أعشاشها، ما دام الأبناء بخير.

ثم تأتي هذه الضربة. هذه الضربة غير الرحيمة!

بعد وقت مدَّ الفلاح المسنُّ يده الخشنة التي أنهكها العمل من فوق الطاولة قائلًا:

- يا أمُّ!

وفجأةً انهمرت الدموع من عيْنَيْ العجوز:

- آخْ يا أبُ! ابنتنا آنّا! ابننا أُولْرِشْ! يقولون إنهما خانا قائدنا! لا أصدق ذلك، أبدًا، مطلقًا!

مرت ثلاثة أيام وهما مرتبكان فلم يتمكّنا من اتخاذ أي قرار. ولم يثِقَا بالخروج خارج المنزل والنظر إلى أحد في عينه، من رهبة أن يكون العار قد عُرف فعلًا.

ثم في اليوم الرابع رَجَوَا إحدى الجارات أن تراعي ماشيتهما، وسافرا إلى مدينة برلين. كيف ساقا عربة الخيل رغم الريح التي تضربها؟ وفق العادة الريفية، الرجل في الأمام، والمرأة بعده بخطوة، كانا يشبهان طفلين ضَلَّا طريقهما في العالم الواسع الذي صار كل شيء فيه يحمل تهديدًا: عاصفة رياح، غصن جاف ساقط، سيارة مسرعة، كلمة قاسية. كانا تمامًا بلا أي حماية.

بعد يومين عَادَا بنفس العربة، عَادَا أصغر، أكثر خضوعًا، وأكثر اغتمامًا.

لم يصلا إلى شيءٍ في برلين. لقد انهالت عليهما زوجة الابن بالتقريع. لم يتمكّنا من رؤية ابنهما أُولْرِشْ لأنه لم يكن «وقتٌ للزيارة»، أما بالنسبة إلى آنَّا وزوجها فلم يستطع أحد أن يخبرهما في أي سجن يقبعان. لم يجِدا أبناءهما. والزعيم الذي انتظرا منه العون والعزاء، ووجَدَا ديوانه فعلًا، ذلك القائد لم يكن في برلين. كان في المبنى الرئيس للعمليات، مشغولًا بقتل الأبناء، لم يكن لديه وقت لمساعدة الآباء، الذين على وشك فقد أبنائهم. عليهما فقط أن يقدِّما التماسًا حسب ما قيل لهما.

لم يجرؤا على الثقة بأي أحد. خشِيَا العارَ. إذ إن ابنتهما خانت القائد. لن يعود بوسعهما مواصلة العيش هنا إن عُرِف ذلك. وكان عليهما أن يواصِلا الاستمرار في الحياة كي يكون في مقدورهما أن ينقذا آنَّا. كلا، لن يسعهما طلب عون أي أحد على كتابة التماس العفو، لا المدرس، ولا العمدة، ولا حتى القس.

وبتعب وبعد مناقشات لساعات وتفكير وكتابة بيدين مرتعشتين تمكّنا من كتابة الالتماس. كَتَبَا مسوّدة، ثم أعاداها، ثم كَتَبَا لمرة ثالثة. بدأت بالآتي:

«قائدي المعظم الذي أحبه بكل جوارحي!

أنا أم يائسة ترجوك وهي راكعة على ركبتيها أن تنقذ حياة ابنتها. لقد أخطأت في حقك خطأً بالغًا، لكنك أعظم وأكبر وستسمح لرحمتك أن تطغى على الموقف. وستغفر لها...».

هتلر، الذي تحوَّل إلى إله، سيد العالمين، قادر على كل شيء، واسع الرحمة، والمغفرة! اثنان من العجائز - فيما في الخارج تدور

رَحَى الحرب ويموت الملايين- لا يزالان يؤمنان به، حتى وهو يسلم ابنتهما إلى الجلاد.. لا شكٍّ يخالج قلبيهما، فالأرجح أن الابنة هي السيِّئة وليس الرب القائد.

لم يجرؤا على إرسال الخطاب من القرية، سارَا معًا حتى دائرة المدينة وسلَّماه إلى البريد هناك. أما العنوان المكتوب عليه فكان «يصل إلى عناية قائدنا الذي نحبه فوق كل الناس...».

ثم عادا إلى غرفتهما وانتظرا من ربهما الرحمة.

سيكون رحيمًا!

قَبِلَ البريد الالتماس المكذوب من المحامي مثلما قبله من العجوزين العاجزين، لكنه لا يوصله إلى القائد. فالقائد لا يريد رؤية هذه الالتماسات، إنها لا تهمُّه. إنه مهتم بالحرب والدمار والقتل وليس منع القتل. تَرِدُ الالتماسات على ديوان القائد، وتحصل على رقم، وتسجَّل، وتُختَم بختم، وتُحال إلى وزير العدل في حكومة الرايخ. ولا تُعاد إلى هنا إلا لو كان المحكوم عليه عضوًا بالحزب، وهو أمر غير واضح من الالتماس.

إنها الرحمة المشطورة: رحمة تخصُّ رفاق الحزب، وأُخرى للشعب.

وفي وزارة العدل تُدَوَّن الالتماسات مرة أخرى وتُرَقَّم وتُختَم؛ وتعاد إلى إدارة السجن لإبداء الرأي.

تمرِّر مصلحة البريد الالتماسات للمرة الثالثة، ولمرة ثالثة تحصل على أرقام، وتُدوَّن في سجل. يدُ كاتبٍ تسجِّل على التماس آنًا،

والتماس أُوتُّو جْفَانْجِل «اتُّخذ الإجراء وفق القواعد المتبعة. لا مبرر لقبول التماس العفو. يعاد إلى وزارة العدل».

ومرة أخرى عفو مشطور: عفو اتُّخذ عكس القواعد، وآخرُ يتبعها. لا يعطيان سببًا للعفو. لكن لذلك الذي سار عن طريق الجواسيس، والخيانة، وإساءة المعاملة لرفاقه في المعاناة.. هذا ربما قد يجد العفو.

في وزارة العدل يتسلَّمون الدخول الثاني للالتماسات، يطبعون ختم «مرفوض»، وآنسة سعيدة تنقر على الآلة الكاتبة من الصباح إلى المساء: رُفِض التماس العفو الخاص بك... رُفِضَ التماسُ... رُفِضَ التماسُ... طوال اليوم، طوال الأيام.

وذات يوم قال أحد الموظفين لأُوتُّو جْفَانْجِل:

- رُفِضَ التماس العفو الخاص بك.

جْفَانْجِل الذي لم يتقدَّم بالتماس لا ينبس بكلمة واحدة، فهذا أمر لا يستحق عناء الكلام.

لكن البريد يحمل الخبر إلى العجوزين في بيتهما وتنتشر الإشاعة في القرية.. «لقد وصل إلى آل هِفْكِه خطاب من وزارة العدل».

وحتى عندما يلزم العجوزان الصمت، بإصرار، وخوف، ويرتجفان من الصمت، فإن للعمدة طرق لمعرفة الحقيقة. وهكذا سرعان ما أضيف العار فوق حزن العجوزين...

إنها الطرق التي يسلكها العفو!

68

قرار آنّا جْفَانْجِل الأصعب

كان الوضع أصعب على آنَّا جْفَانْجِل من زوجها؛ كانت امرأة.. تتوق إلى الحديث، والتعاطف، وبعض الحنان. والآن صارت وحدها دائمًا، من الصباح إلى المساء، مع حَلِّ وضَمِّ الحبال التي تتراصُّ في زنزانتها كالزكائب. ورغم ندرة الكلمات والأفعال التي كانت تتبادلها مع زوجها، بدا هذا القليل لها الآن مثل الفردوس، بل مجرد وجود أُوتُّو الصامت كان بركة.

وكثيرًا ما بكت.

لقد نال الحبس الانفرادي القاسي من طاقتها المتبقية، طاقتها التي كانت قد انقدحت شعلتها مرة أخرى بعد رؤية أُوتُّو من جديد في أثناء المحاكمة الرئيسية لدرجة أعادت إليها شعورها بالقوة والشجاعة. كان عليها أن تجوع كثيرًا وتشعر بالصقيع، وها هي ذي تعود إلى ذلك في زنزانتها الكالحة. إنها لا تستطيع أن تفعل مثل زوجها وتحسِّن طعامها بإضافة البازلاء النيئة، ولم تتعلم مثله أن تقسم يومها بشكل ذي معنى وإيقاع متبدل يضفي بعضًا من المرح (بعد العمل ساعة من النزهة أو الفرح بجسد تمتع بالاستحمام).

تعلمتْ آنَّا جْفَانْجِل أن تستمع ليلًا من نافذة الزنزانة. لكنها لم تكن تقف أحيانًا، بل كل ليلة. وكانت تهمس. كانت تتحدَّث في

النافذة، كانت تحكي قصته، وكانت تسأل دائمًا عن أُوتُّو، «أُوتُّو جْفَانْجِل... يا إلهي! ألا يعرفه هنا أي أحدٍ حقًّا، أين أُوتُّو؟ وكيف حاله؟ أُوتُّو جْفَانْجِل، أجل، إنه حِرفيٌّ مُسِنٌّ، لكنه يتمتع ببعض الصحة، شكله كذا وكذا، في الثالثة والخمسين.. لا بد أن أحدًا يعرفه!».

لم تلاحظ -أو لعلها لم تكن تريد أن تلاحظ- أنها كانت تثقل على الآخرين بأسئلتها التي لا تنتهي، وحكيها الذي لا يتوارى. هنا كان لكلٍ همُّهُ الخاص.

«فلتصمتي، يا أنت، يا رقم 76، لقد سمعنا مرارًا كل ما تحكين من هراء!»، أو مثلًا «أَخْ! لقد عادت ثانية، تلك التي تثرثر عن أُوتُّو، ولا شيء إلا أُوتُّو، أليس هناك إلا أُوتُّو؟». أو يقولون بمنتهى الحدة «إن لم تغلقي فمك فسنغلقه لكِ! ثمة آخرون ينتظرون دورهم!».

وبهذا تزحف آنَّا جْفَانْجِل في الليل تحت غطائها، ولا تنام إلا في موعد متأخر، فلا تبدو بحال طيبة في الصباح التالي. تؤنِّبها الحارسة وتهدِّدها بإبقائها في الزنزانة. تبدأ العمل متأخرة جدًّا. ويتحتم عليها أن تسرع في إنجازه، غير أن كل هِمَّتها لم تُجدِها نفعًا، لأنها تعتقد أنها سمعت ضوضاء في الطرقة، فتُنصت من وراء الباب. نصف أو ساعة كاملة، السيدة التي كانت ذات يوم امرأة هادئة، ودودةً، حنونة كأمّ، غَيَّرَها الحبس الانفرادي إلى تلك التي يغضب عليها الجميع. حتّى الحارسات كُنَّ يبذلن جهدًا معها، عندما تبدأ معهن الشجار، مدعية أنهن يعطِينها أقل الطعام وأسوأه. وذات مرة غضبت جدًّا في أثناء مشادة كلامية لدرجة أنها بدأت تصرخ، هكذا بلا معنى فقط تصرخ.

ثم تتوقَّف مرتعبة من نفسها. كانت تفكر في الطريق الذي سارت فيه إلى أن دخلت زنزانة الموت الكابيةَ تلك. وكانت تفكر في بيتها في شارع يابْلونْسْكِي الذي لن تراه ثانية أبدًا، تذكرت الابن أُوتُّو، كيف كبر، ثرثراته الطفولية، همومه الدراسية الأولى، اليد الصغيرة التي كانت تمسك بوجهها برقة، أخ! تلك اليد الطفلة التي تشكلت في جسدها، من دمها ولحمها، لقد عادت منذ مدة إلى الأرض، وتلاشت إلى الأبد. فكَّرت في الليالي التي رقدت فيها تْرُودِل إلى جوارها في السرير، حيث كانت تقضي الساعات تثرثر مع صاحبة ذلك الجسد المزدهر، عن الأب الصارم، الذي كان ينام بعيدًا، وعن أُوتُّو، وعن توقعاتهم للمستقبل. لكن حتى تْرُودِل تلاشت.

ثم فكرت في العمل المشترك مع أُوتُّو، كفاحهما، الذي قاداه في سكون طوال عامين. عادت إليها ذكرى أيام الأحد عندما كانا يجلسان معًا إلى الطاولة في الغرفة، هي في ركن الأريكة، تحشو الجوارب، وهو في كرسيه، أمامه أدوات الكتابة، يصوغان معًا الجُمل، يحلمان معًا بالنجاح الكبير. تلاشت، فقدت، كل شيء فُقِد، كل شيء انتهى! بمفردها في الزنزانة، ليس أمامها إلا الموت الوشيك المؤكد، لا كلمة عن أُوتُّو، وربما لن ترى وجهه ثانية أبدًا. تموت، وحدها في القبر.

تسير ساعات طويلة في الزنزانة، تروح و تجيء، لا تتحمَّل ذلك. نسيت عملها، الحبال لا تزال على حالها معقدة ومتشابكة على الأرض، تدفعها بقدمها إلى الأمام، بنفاد صبر، وعندما تفتح الحارسة الزنزانة في المساء، لا تجد العمل قد تمَّ. ثمة كلمات صعبة، لكنها

لا تسمع شيئًا، فليفعلوا بها ما يشاؤون، فليعجِّلوا بشنقها؛ سيكون ذلك أفضل!

- انتبِهن لما أقول! (قالت الحارسة لزميلاتها)

ستبدأ قريبًا في الهذيان، جهِّزن قميص المجانين. وراقِبنَها في الزنزانة، إنها قادرة على التجوال في عز النهار، وفي أي لحظة يمكن لها أن تنسلَّ وحينها سيكون الصراخ من نصيبنا!

لكن المراقِبة لم تكن محقة؛ آنًّا لا تفكر أن تنسَلَّ. فالذي يبقيها على قيد الحياة، الذي يجعل هذا البقاء الوضيع لا يزال يستحق.. هو تفكيرها في أُوتُّو. إنها لا تستطيع أن تمضي من هنا، عليها أن تنتظر، ربما وصلها خبر منه، وربما سُمح لها أن تراه مرة أخيرة قبل أن تموت.

وبالفعل ذات يوم من تلك الأيام العكرة بَدَا أن الحظ يبتسم لها. فتحت حارسة باب الزنزانة فجأةً:

- تعالَي يا جْفَانْجِل! ثمة زيارة!

«زيارة؟ مَن عساه يزورني هنا؟ لم يعد لي من يمكن أن يزورني هنا. لا بد أنه أُوتُّو! لا بد أنه أُوتُّو! كنت أشعر بهذا، إنه أُوتُّو!».

ألقت نظرة على الحارسة، وأرادت أن تطرح عليها سؤالًا عن الزائر، لكنها الحارسة التي تتشاجر معها دائمًا؛ لن تستطيع أن تسألها. تبعتها وجسدها يرتجف بكامله، لا ترى شيئًا ولا تعرف شيئًا عن الوجهة التي يتوجَّهون إليها، لا تتذكر أنها عمَّا قريب تموت. لا تعرف إلا أنها ذاهبة إلى أُوتُّو، الإنسان الوحيد في العالم كله...

تُسلِّم الحارسة السجينة رقم 76 إلى كبير الحراس، وتُقتَادُ إلى غرفة، مقسمة بقضبان إلى جزأين، على الجانب الآخر من القضبان رجلٌ.

وكل السعادة سقطت عن آنَّا جْفَانْجِل بمجرد أن رأت ذلك الرجل؛ لم يكن أُوتُّو، إنه فقط المستشار العجوز فْرُومْ. ها هو ذلك الرجل القصير ينظر إليها بعينيه الزرقاوين المحاطتين بالتجاعيد ويقول:

- أردت أن أطمئن عليك يا سيدة جْفَانْجِل.

كان الحارس واقفًا عند القضبان يراقب الاثنين. ثم تنحَّى متململًا نحو الشباك.

- بسرعة! (همس المستشار ومرَّر إليها شيئًا عبر القضبان)

أمسكت به غريزيًّا.

- أَخْفِيه! (همَسَ)

فأخفت اللفافة البيضاء.

تُفكِّر أنه ربما خِطاب من أُوتُّو فيخفق قلبها بقوة. ها قد تجاوزت الإحباط.

استدار الموظف ثانية ونظر من جوار الشباك نحوهما.

أخيرًا وجدت آنَّا بضع كلمات. حيَّت المستشار لكنها لم تشكره، طرحت السؤال الوحيد الذي لا يزال يهمها في هذا العالم:

- هل رأيت أُوتُّو يا سيادة المستشار؟

هز السيد المسِنُّ رأسه الذكي يمينًا ويسارًا.

- ليس في الآونة الأخيرة.. (يجيب)

لكني سمعت من أصدقاء أنه بخير، بل على خير ما يرام. إنه متماسك بشكل رائع.

يفكِّر ثم يضيف بعد تردُّد:

- أعتقد أن عليَّ أن أوصل تحيتهُ إليكِ.

- شكرًا! (هَمَسَتْ)

شكرًا جزيلًا!

اعترتها مشاعر مختلفة بسبب كلماته. لو أنه لم يَرَهُ فلا يمكن أن يحمل خطابًا منه. لكن لا، إنه يتحدَّث عن أصدقاء، ربما وصله الخطاب عبر هؤلاء الأصدقاء؟ وكلماته «إنه متماسك بشكل رائع» تعطيها سعادة وفخرًا. ثم تلك التحية منه، تحية ما بين الزنازين الفولاذية والحجرية، كأنها الربيع بين الأسوار! يا لها من حياة بهيجة! حياة بهيجة بهيجة!

- لكنك لا تبدِين بخير يا سيدة جْفَانْجِل! (قال المستشار العجوز)

- أجل؟ (سألت مدهوشة قليلًا، وشاردة بعض الشيء)

لكنني بخير. على خير ما يرام. أخبر أُوتُّو بذلك. من فضلك أخبره بذلك! لا تنسَ أن تبلغه مني السلام. ستراه، أليس كذلك؟

- أعتقد أني سأراه.

أجاب بعد تردد؛ كم هو دقيق ذلك السيد القصير المهندم. هو حريص ألا ينطق بأي شيء غير حقيقي أمام تلك التي قريبًا ما تموت. إنها لا تعلم، أيّ حيل استخدمها ولا أي مؤامرات دبَّرها كي يحصل

على إذن بالزيارة! لقد اضطر أن يُفعِّل كل علاقاته! بالنسبة إلى العالم فإن آنًا جْفَانْجِل في عداد الأموات؛ هل يمكن زيارة الموتى؟

لكنه لا يجرؤ على إخبارها بأنه لن يرى أُوتُّو جْفَانْجِل في هذه الحياة ثانية، وأنه لم يسمع عنه شيئًا وأنه كان يكذب للتوِّ بخصوص تحيَّته لها، فقط من أجل أن يمدَّ تلك السيدة المتهالكة تمامًا ببعض الشجاعة. ربما يضطر الإنسان إلى الكذب على المُحتَضَرين.

- أوه! (تقول فجأةً وبمنتهى الحيوية، و-انظر- وجنتاها المتهدلتان الشاحبتان تتوردان)

أَخبِر أُوتُّو عندما تراه أني أفكر فيه كل ساعة، وأني أعرف أني سأراه قبل أن أموت...

ينظر الحارس مرتبكًا نحو السيدة المسنَّة التي تتحدَّث هنا مثل فتاة واقعة في الحب. «ربما القشُّ القديم يشتعلُ أكثر!» يفكِّر، ثم يعود ثانية إلى النافذة.

لم تلحظ شيئًا من ذلك، وأكملت محمومة:

- وأخبِر أُوتُّو أن زنزانتي جميلة، وأنها لي وحدي، وأني بخير. أفكر فيه دائمًا، وهذا ما يجعلني سعيدة. أعلم أن لا شيء سيفرق بيننا، لا الأسوار، ولا القضبان. أنا معه كل ساعة في النهار والليل. أخبره بذلك!

إنها تكذب، يا لها كيف تكذب من أجل أن تبعث لأُوتُّو أخبارًا طيبة!

تريد أن تهب له سكينةً، السكينة التي لم تنعم بها في أي لحظة، منذ أن أُحضرت إلى هذا المبنى.

يسترق المستشار النظر نحو الحارس الذي يحدِّق خارج النافذة، ثم يهمس:

- لا تضيِّعي ما أعطيتك إياه! (لأن السيدة جْفَانْجِل تبدو كأنها نسيت العالم كله)

- لن أضيع شيئًا، أيها السيد المستشار.. (وفجأةً بصوت خفيض) ما هذا؟

فقال بصوت أكثر خفوتًا:

- سُم. زوجك أيضًا معه منه.

أومأت.

استدار الموظف الواقف عند النافذة. قال محذِّرًا:

- لا بد هنا من الحديث بصوت مرتفع، وإلا انتهت الزيارة في التو، بالمناسبة..

(نظر في ساعته)

سينتهي وقت الزيارة على أي حال بعد دقيقة.

- أجل.. (قالت بتفكُّر)

أجل.. (وفجأةً عرفت كيف تصوغ الكلام؛ سألَتْ)

وهل تعتقد أن أُوتُّو سيسافر في القريب العاجل.. قبل رحلته الكبرى؟ هل تعتقد ذلك؟

وجهُها الآن يعبِّر عن قلق مؤلم، لدرجة أنه حتى الموظف الصامت يلمحه ويدرك أن الموضوع له صلة بأشياء أخرى غير تلك التي يدور الحديث حولها. ولوهلة يفكِّر في التدخُّل، لكنه يرى تلك المرأة المسنة، ثم ذلك الرجل بلحيته المدببة البيضاء، الذي هو -وَفقًا لبطاقة الزيارة- مستشار قضائي، فيقرر الموظف أن ينظر ثانية من النافذة.

- حسن، من الصعب الإجابة عن ذلك.. (يجيب المستشار بحذر)

فالسفر الآن أيضًا صعب.. (ثم بسرعة هامسًا)

انتظري حتى اللحظة الأخيرة تمامًا، ربما ترينه قبلها. حسنًا؟

تومئ، ثم تومئ مجدَّدًا.

- حسنًا! (تجيب بصوت مرتفع)

هذا هو أفضل شيء على الإطلاق.

وبعدها يقف كلاهما صامتًا أمام الآخر. فجأةً يشعران أن ليس لديهما ما يقولانه. انتهى.. انقضى.

- حسنٌ، أعتقد أن عليّ أن أذهب. (قال المستشار العجوز)

- حسنٌ.. (همسَتْ)

أظن أن الوقت قد حان.

وفجأةً استدار الحارس، والساعة في يده، مطالبًا كليهما بإنهاء اللقاء، فاجتاحت السيدة جْفَانْجِل مشاعر جياشة. ضغطت جسدها على القضبان وهمست ورأسها على القضبان:

- أرجوك، أرجوك! ربما أنت الرجل الأخير المحترم الذي سأراه في هذا العالم. أرجوك يا سيدي المستشار، أعطني قبلة! سأغلق عيني وسأتخيل أنك أُوتُّو..

«يا للجنون!» يفكِّر الحارس.. «ستُشنق ولا تزال مجنونة بالرجل! تلك الشمطاء!».

غير أن المستشار يقول بصوت هادئ ودود:

- لا تخافي يا صغيرتي، لا تخافي...

ثم تمسُّ شفتاه العجوزتان الدقيقتان فمها الجاف المتشقق.

- لا تخافي يا صغيرتي. معك كل أسباب السلام.

- أعرف.. (تهمس)

أشكرك، سيدي المستشار.

ثم عادت ثانية إلى زنزانتها، والحبال لا تزال على الأرض، تروح وتجيء، وتركل بقدميها نافدة الصبر، مثل حالها في أسوأ أيامها. لقد قرأت الورقة الصغيرة وفهمت فحواها. تعلم الآن أنها وأُوتُّو يمتلكان سلاحًا، وأنهما يستطيعان في أي لحظة أن يودِّعا هذه الحياة المؤلمة عندما لا يتحملان المزيد. هي ليست في حاجة إلى أن تزيد من عذابها، تستطيع الآن في هذه اللحظة، وهي لا تزال سعيدة بالزيارة، أن تصنع النهاية.

تَجُول، وتتحدَّث إلى نفسها، تضحك، وتبكي.

على الباب يتنصَّتون. يقولون «ستبدأ الآن في التخريف. هل نحضر قميص المجانين؟».

لكن السيدة في الداخل لا تلاحظ شيئًا من ذلك. إنها تخوض أصعب حروبها. ترى المستشار العجوز فُرُومْ أمامها ثانية، لقد كان وجهه جادًّا وهو يقول إن بوسعها الانتظار حتى آخر دقيقة ممكنة، فلربما أُتيح لها رؤية زوجها ثانية.

ولقد وافقَتْ على كلامه. بالطبع هذا هو الصواب، عليها أن تنتظر، أن تمارس الصبر، ربما يستغرق الأمر شهورًا. لكن لو أنها فقط مجرد أسابيع! من الصعب الانتظار منذ الآن، فهي تعرف نفسها، سيعود إليها اليأس، وستبكي طويلًا، وستسقط عن حافة الجنون، فالجميع قاس عليها، لا تسمع أبدًا كلمة طيبة، ولا ترى أي ابتسامة. سيكون من الصعب احتمال الوقت. عليها فقط أن تلعب قليلًا. بلسانها وبأسنانها، ليس من الضروري أن تحمِل المسألة على مَحمَل الجد، عليها أن تجرب قليلًا، وسرعان ما تتم المسألة. لقد سَهِلَ الأمر عليها.. سَهِلَ جدًّا!

هذه هي المسألة. في أي ساعة ستضعف وتفعلها! وفي اللحظة التي تكون قد فعلتها فيها، في تلك اللحظة الصغيرة ما بين الفعل والموت ستندم كما لم تندم في حياتها قط؛ ستكون سلبت نفسها احتمالية أن تراه ثانية لأنها كانت جبانة وضعيفة. وسيحملون إليه خبر موتها، وسيعلم أنها تركته، وأنها خانته، وأنها كانت جبانة. وسيحتقرها، هو، الوحيد في العالم الذي يعنيها احترامه لها.

كلا، عليها أن تدمر تلك الأنبوبة اللعينة فورًا. فغدًا صباحًا يمكن أن يكون الوقت قد فات، فمَن يدري في أي حالة مزاجية ستسيقظ في الغد؟

لكن في طريقها نحو الدلو توقفت...

وعادت ثانية إلى تجوالها. فجأةً تذكرت أنها ستموت.. وتذكرت كيف ستموت. لقد سمعت ذلك في سجنها عبر حوارات النافذة. إنها لن تموت معلقة على مشنقة تنتظرها، وإنما المقصلة. لقد كانوا سعداء وهم يصوِّرون لها كيف سَتُوثَقُ إلى طاولة وهي مستلقية على بطنها تحدق إلى سلة ممتلئة حتى منتصفها بالنشارة، وفي ثوان يسقط رأسها في تلك السلة. سيُعَرَّى قفاها، ومن خلال هذا القفا ستستشعر برودة المقصلة، حتى قبل أن تهبط فوقها، ثم سيتعالى صوت الصرير لدرجة أنه يفجر أذنيها مثل نفخة في الصور للقيامة، وسيتحول جسدها إلى جثة ترتجف وتنزف شُرُطًا كثيفة من الدم من الرقبة فيما الرأس في السلة ربما يُراقب الدماء التي تتفجر وربما لا يزال يشعر ويعاني.

هكذا حكَوْا لها عن المسألة، وبهذه الطريقة تخيلتها مئات المرات، بل حلمت بها في بعض الأحيان، ويمكن لقضمة صغيرة على الأنبوبة الزجاجية أن تخلِّصها من كل هذا الرعب!

وهل تريد أن تُلقي بهذا الخلاص؟ إنه يمنحها الخيار ما بين موت سهل وموت صعب، هل عليها أن تختار الموت الصعب لمجرد أنها خائفة أن تضعف فتموت قبل أُوتُّو؟ تهز رأسها، كلا، لن تضعف. تستطيع ذلك، ستنتظر حتى اللحظة الأخيرة. فهي تريد أن ترى أُوتُّو مرة أخرى.

لقد تحملت الخوف الذي طالما اعتراها حين كان أُوتُّو يوزع البطاقات، وتحملت الذعر من الاعتقال، وتحملت التعذيب على

يد المفتش لَاوْبْ، وموت تْرُودِل. ستتمكَّن بالتأكيد من الانتظار، بضعة أسابيع، بضعة أشهر! لقد تحمَّلَت كل شيء! هذا أيضًا ستتمكَّن من تحمله! بالطبع عليها أن تحتفظ بالسم حتى اللحظة الأخيرة.

تجول ذهابًا وجيئة، ذهابًا وجيئة.

لكن القرار الذي توصلت إليه توًّا لا يريحها.

فالشك يبدأ من جديد، ومن جديد تتصارع معه، ومن جديد تقرر أن تتخلص من السم الآن فورًا، ومرة أخرى لا تفعل ذلك.

مرَّ المساء وخيَّم الليل. أخذت الحارسات العمل الذي لم يُنجز من الزنزانة. وقيل لها إنه بسبب تكاسلها فلقد حُرمت من (المرتبة) لمدة أسبوع، وإنها لمدة أسبوع لن يُقدَّم إليها سوى الماء والخبز. لكنها بالكاد سمعت. ماذا يعنيها في ما يقال؟

حساء العشاء لا يزال على الطاولة لم يُمَسّ، وهي لا تزال تروح وتجيء، منهكة، غير قادرة على التفكير الواضح، سقطت فريسة للشك.. «هل عليَّ أن... أم لا؟».

الآن يلعب لسانها حول الأنبوبة الزجاجية في فمها بدون أن تدرك تمامًا، وبدون أن تريد تمامًا، وبحذر شديد تقضم الأسنان بلطف...

وبسرعة تخرج الزجاج من تجويف الفم. إنها تجول وتجرِّب، لم تعد تعرف ما تفعل، وفي الخارج قميص المجانين جاهز من أجلها.

وفجأةً، وفي عز الليل، تكتشف أنها راقدة على فراشها الخشبي، على الألواح الناشفة، مغطاة بالغطاء الرقيق. ترتجف من البرد في

جسدها كله. هل نامت؟ هل الأنبوبة لا تزال موجودة؟ هل ابتعلت شيئًا؟ إنها ليست في فمها!

يعتريها ذعر كبير، تنهض، وتبتسم. ها هي ذي.. إنها في يدها. لقد كانت تمسكها في راحتها في أثناء النوم. تبتسم، لقد أُنقِذَتْ لمرة أخرى. ليس عليها أن تموت الميتة الأخرى المرعبة.

وفيما هي جالسة هناك ترتجف، تفكر أنه سيكون عليها كل يوم خوض هذا الصراع المريع ما بين الإرادة والضعف، الجبن والشجاعة. وكيف أن نتيجة هذا الصراع غير مضمونة...

وما بين الشك واليأس تسمع صوتًا رقيقًا طيبًا: «لا تخافي يا صغيرة، فقط لا تخافي».

وفجأةً عرفت آنًا جْفَانْجِل: الآن سأقرر! الآن صارت لي قوة!

تنسلُّ نحو الباب، وتتنصَّت على الممر. تقترب خطوات الحارسة. تقف عند الحائط المقابل، ثم تبدأ حين تلاحظ أنها تُراقَب عبر العين السحرية، في التجوال ذهابًا وجيئة. «لا تخافي يا صغيرة...».

وبعد أن شعرت تمامًا بالطمأنينة بأن الحارسة قد مضت، تسلقت صاعدة النافذة. سأل صوت: «هل هذا أنتِ يا 76؟ هل أتتك زيارة اليوم؟».

لا تجيب. لن تجيب ثانية أبدًا. بيَدٍ أمسكت شيش النافذة، فيما أصابع الأخرى خارجًا تمسك بالأنبوبة وتضغطها على الجدار الحجري، شعرت أن رقبة الزجاجة انكسرت. تركت السم يسقط في عمق الحوش.

وعندما عادت ثانية إلى الزنزانة، تشمَّمت على أصابعها رائحة لوزٍ مرّ قوية. غسلت يديها، ورقدت على السرير. إنها منهكة، شعرت أنها تخلَّصت من خطر محدق. نعست سريعًا. ونامت بعمق وبدون أحلام. واستيقظت منتعشة.

منذ تلك الليلة لم تعطهم 76 أي سبب يعاقبونها عليه. كانت هادئة، مرحة، دؤوبة، وودودة. بالكاد صارت تفكر في ميتتها الصعبة، لم تكن تفكر إلا في أن تظل مصدر فخر لأُوتُّو. وأحيانًا في الساعات القاتمة كانت تسمع صوت المستشار فْرُومْ مجدَّدًا.. «لا تخافي يا صغيرة، فقط لا تخافي».

وهي لم تعد كذلك.. ليس ثانية.

لقد اجتازت الأمر.

69

حان الوقت يا جْفَانْجِل

كان الوقت لا يزال ليلًا حين فتح أحد الحراس باب زنزانة أُوتُّو جْفَانْجِل.

استيقظ جْفَانْجِل من نومه العميق، نظر بطرف عينه نحو الهيكل الأسود الكبير الذي دلف إلى زنزانته توًّا. في اللحظة التالية استفاق تمامًا، وخفق قلبه بضربات أسرع من المعتاد، إذ فهم معنى هذا الهيكل الكبير الواقف هنالك صامتًا.

- هل حان الوقت أيها القس؟ (سأل وهو يتناول ملابسه)
- حان الوقت يا جْفَانْجِل.. (أجاب رجل الدين. وسأله أتشعر أنك مستعد؟
- أنا جاهز في أي لحظة. (أجاب جْفَانْجِل، ولمس لسانُه الأنبوب في فمه)

وبدأ في ارتداء ملابسه. كل حركاته أتت هادئة، من دون عجلة.

ولوهلة دقق كل منهما في ملامح الآخر. لا يزال القس شابًّا ذا عظم خشن، ووجه بسيط يكاد يكون ساذجًا.

«لا يعتريه شيء» يقرر جْفَانْجِل.. «لا مثيل للقس الطيب».

أما القس فرأى أمامه رجلًا طويلًا مرهَقًا. وجهه حاد ذو ملامح تشبه رأس الطائر. لا تعجبه نظرة العينين الدَّاكنتين المستديرتينَ الغريبتين. كذلك لا يعجبه فمه الدقيق الخالي من الدماء ذو الشفتين الضامرتين. لكن رجل الدين حثَّ نفسه وقال بأكثر طريقة ودودة ممكنة:

- أتمنى أن تكون قد وجدت سلامك مع هذا العالم يا جْفَانْجِل؟
- هل وجد هذا العالم سلامًا، أيها القس؟ (رد جْفَانْجِل بسؤال)
- مع الأسف ليس بعد، جْفَانْجِل، مع الأسف ليس بعد.

أجاب رجل الدين وحاول وجهه أن يعبر عن غمٍّ لا يستشعره. لكنه تجاوز هذه النقطة وواصل السؤال:

- لكنك وصلت إلى السلام مع الرب الصالح يا جْفَانْجِل؟
- لا أُوْمِنُ بوجود الرب. (أجاب جْفَانْجِل بإيجاز)
- كيف؟

بدا القس مشدوهًا من هذا التصريح الجريء.

- والآن.. لو أنك تؤمن بوجود إله خاص، لعلك مؤمن بوحدة الوجود، أليس كذلك؟
- ماذا يعني ذلك؟
- الآن.. هذا واضح.. (حاول القس توضيح مسألة ليست واضحة تمامًا بالنسبة إليه)

روح العالم، أتفهم؟ كل شيء هو الرب. أتفهم؟ روحك، روحك الخالدة ستعود إلى روح العالم الكبرى، يا جْفَانْجِل!

- كل شيء هو الرب؟

سأل جْفَانْجِل. فرغ الآن من ارتداء ملابسه ووقف أمام البُرش:

- هل هتلر أيضًا هو الرب؟ والقتل في الخارج هو الرب؟ وأنت الرب؟ وأنا الرب؟

- لقد فهمتني خطأ، ربما تعمدتَ أن تفهمني خطأ! (أجاب رجل الدين مستثارًا)

لكني لست هنا يا جْفَانْجِل كي أناقشك في المسائل الدينية. لقد جئت كي أهيِّئَك للموت. سيتحتم أن تموت يا جْفَانْجِل في غضون ساعات قليلة. هل أنت مستعد؟

وبدلًا من الجواب سأل جْفَانْجِل:

- هل عرفتَ القس لُورِينْتس في سجن التحقيقات في مبنى محكمة الشعب؟

خرج القس مرة أخرى عن شعوره، أجاب مغضبًا:

- كلا، لكني سمعت عنه. يمكنني أن أقول، إن الرب قد استدعاه في الوقت المناسب. لقد ألحق العار بطبقتنا.

نظر جْفَانْجِل إلى رجل الدين مستغربًا. قال:

- لقد كان رجلًا صالحًا. سيتذكَّره كثير من المساجين مستشعرين عميق الامتنان.

- أجل! (صاح القس بدون مواراة لغضبه)

لأنه كان يستسلم لرغباتهم! لقد كان رجلًا شديد الضعف يا جْفَانْجِل. على رجل الرب أن يكون محاربًا في أزمنة الحرب هذه، وليس ساعيًا ضعيفًا للمصالحات!

ثم امتلك زمام نفسه ثانية. نظر متعجلًا إلى الساعة ثم قال:

- لا يزال أمامي ثماني دقائق من أجلك يا جْفَانْجِل. ولا يزال أمامي بضعة من مرافقيك في هذا الشقاء سيصاحبونك اليوم في نفس الطريق، أريد أن أقدم لكم تعازي الرُّوحية. نريد أن نصلي...

أخرج رجل الدين، ذلك الفلاح ذو العظام الخشنة الضخمة، منديلًا أبيض من جيبه وفتحه بحرص.

سأل جْفَانْجِل:

- هل تقدم تعزياتك أيضًا للسيدات اللائي سيُعدَمن؟

كانت سخريته متخفية لدرجة أن القس لم يلاحظها. بسط المنديل الأبيض بلون الثلج على أرض الزنزانة وأجاب في أثناء ذلك لا مكترثًا:

- لا إعدامات للنساء اليوم.

- ربما تذكر.. (سأل جْفَانْجِل بعناد)

إن كنت في الآونة الأخيرة قد دخلت على سيدة تدعى آنًّا جْفَانْجِل؟

- السيدة آنًّا جْفَانْجِل؟ هذه زوجتك؟ كلا، بالتأكيد لا. كنت لأتذكر. فأنا لدي ذاكرة قوية بشكل استثنائي حيال الأسماء.

- لي رجاء، أيها القس...

- قل يا جْفَانْجِل! أنت تعلم أن وقتي ضيق!

- أرجوك، بالنسبة إلى زوجتي، حين يحين وقتها، لا تبلغها أني قد أُعدمت قبلها. أخبرها مِن فضلك أني أموت في نفس الساعة معها.

- لكن هذه كذبة يا جْفَانْجِل، وأنا بوصفي خادم الرب لا يمكنني أن أخالف الوصية الثامنة.

- يعني أنت لا تكذب أبدًا يا سيادة القس؟ لم تكذب في حياتك قط؟

- أرجو.. (قال القس مرتبكًا من النظرة المحدقة الساخرة التي حدجه بها جْفَانْجِل)

أرجو أنني دائمًا وأبدًا قد تصرفت وفق قوتي الضعيفة متمسكًا بوصايا الرب.

- ووصايا الرب تطلب إليك أن تحرم زوجتي من التعزية التي ستنالها إن علمَتْ أنني أموت معها في نفس الساعة؟

- لا ينبغي أن أشهد زورًا، يا جْفَانْجِل!

- خسارة، خسارة! أنت حقًّا لست القس الطيب.

- كيف؟ (صاح رجل الدين، مرتبكًا، ومهدِّدًا)

- كان القس لُورِينْتس يُدعى في السجن «القس الطيب». (أوضح جْفَانْجِل)

- لا لا.. (صاح القس غاضبًا)

لا أتطلع إلى تسميات شرفية منكم! سأسميها «تسميات غير شرفية»!

ثم تمالك نفسه. وبحركة سريعة سقط على ركبته تمامًا على المنديل الأبيض. وأشار إلى موضع على أرضية الزنزانة الدَّاكنة إلى جواره (إذ إن المنديل الأبيض يكفيه هو وحده):

- اركع يا جْفَانْجِل، نريد أن نصلي!

- أمام مَن عليّ أن أركع؟ (سأل جْفَانْجِل ببرود)

إلى من أصلي؟

telegram @
yasmeenbook

- أوه! (ندت عن القس صيحة غضب)

لا تبدأ هذا ثانية! لقد أضعت كثيرًا من الوقت معك فعلًا.

نظر وهو راكع إلى الرجل ذي الوجه الجامد الشرير. وغمغم:

- ورغم ذلك سأؤدي واجبي. سأصلي من أجلك!

أخفض رأسه وضم يديه وأغمض عينيه. ثم ألقى رأسه إلى الأمام، وفتح عينيه عن آخرهما وصرخ فجأةً وبصوت عال لدرجة أن جْفَانْجِل ارتجف من الذعر: «أوه، أنت يا سيدي وإلهي! القادر على كل شيء، العالِم بكل شيء، أرحم الراحمين، أعدل العادلين، القاضي بين الخير والشر! مذنب راقد هنا في التراب، أرجوك، فلتنظر عيناك إليه برحمة، ذلك الإنسان الذي اقترف كثيرًا من الخطايا، ارحم جسده وروحه، وبدل كل خطاياه مغفرة...».

صاح القس الراكع بصوت أعلى: «وليكن موت حبيبك يسوع المسيح تكفيرًا عن ذنبه في هذه الفعلة التي اقترفها! فهو قد عُمِّدَ

بنفس الاسم، وغسل بنفس الدم، وتطهر. أنقذه من عذاب الجسد وألمه! قصِّر آلامه، وأعد إليه نقاء الضمير! وامنحه عودة كريمة إلى الحياة الأبدية!».

أخفض رجل الدين صوته إلى ما يشبه الهمس السري: «أرسل ملائكتك المقدسين إلى هنا كي يصحبوه إلى اللقاء بمختارك يسوع المسيح، إلَهَنا».

ثم صاح القس ثانية بصوت عال: «آمين! آمين! آمين!».

نهض، وطوى المنديل الأبيض بعناية وسأل جْفَانْجِل بدون أن ينظر إليه:

- من العبث أن أسألك إن كنت مستعدًّا لتناول العشاء المقدس!

- من العبث تمامًا يا سيادة القس.

مد القس يده مترددًا نحو جْفَانْجِل.

هز جْفَانْجِل رأسه واحتفظ بيديه وراء ظهره.

- هذا أيضًا بلا جدوى أيها القس! (قال)

ذهب القس إلى الباب بدون أن ينظر إليه. التفت حوله، وألقى نظره سريعة على جْفَانْجِل ثم قال:

- فلتأخذ هذه المقولة حتى مرقدك الأخير: بولس الرسول الإصحاح 1، آية 21: «لأن لي الحياة هي المسيح والموت هو ربح».

اصطفق الباب، وكان قد مضى.

تنفس جْفَانْجِل الصُّعَداء.

70

الطريق الأخير

بمجرد أن مضى رجل الدين دخل الزنزانة رجل قصير في بدلة بلون رمادي ناصع. ألقى نظرة متعجلة، حادة، متفحِّصة، ذكية على جْفَانْجِل. وبعدها اقترب منه وقال:

- أنا الدكتور براندِت، طبيب السجن.

وفي أثناء ذلك صافح يد جْفَانْجِل وهزَّها واحتفظ بها في يده وهو يقول:

- أتسمح لي بجس نبضك؟

- بالطبع! (قال جْفَانْجِل)

عدَّ الطبيب ببطء. ثم ترك يد جْفَانْجِل وقال بطريقة عارضة:

- جيد جدًّا. ممتاز. رجلٌ بحق!

ألقى نظرة سريعة على الباب، الذي ظلَّ نصف مفتوح وسأل هامسًا:

- هل أستطيع أن أقدم إليك شيئًا؟ شيئًا مخدِّرًا؟

حرك جْفَانْجِل رأسه بالنفي:

- شكرًا جزيلًا أيها الطبيب. سأتمكن من تحمل المسألة هكذا.

كان لسانه يمس الأنبوبة. فكَّر إن كان يكلف الطبيب بتوصيل رسالة إلى آنّا. لكن لا، فهذا القس سيحكي لها كل شيء.

- أتحتاج إلى شيء آخر؟

سأل الطبيب هامسًا. واستشعر باهتزاز جْفَانْجِل على الفور.

- ربما تكتبُ رسالة؟

- ليس معي هنا أدوات كتابة؛ أَخْ لا! سأستغني عن ذلك. أشكرك على أي حال يا دكتور، إنسان مرة أخرى! الحمد لله أن ليس كل الناس هنا سيِّئون.

أومَأ الطبيب مغتمًّا. وصافح جْفَانْجِل مرة أخرى ثم قال في عجالة:

- أستطيع فقط أن أقول لك «فلتبقَ شجاعًا كما أنت!».

وغادر الزنزانة بسرعة.

دخل حارس، متبوعًا بسجين يحمل وعاءً وصحنًا. في الوعاء قهوة ساخنة يتصاعد منها البخار، وفي الصحن شرائح خبز مدهونة بالزبد. وإلى جوارها سيجارتان، وعودا ثقاب ومشط كبريت.

- حسنٌ.. (قال الحارس)

أترى نحن لا نتكاسل. وكل ذلك من دون بطاقات تموين!

ضحك، وشارك المساعدُ في الضحك كما يقتضي واجبُه. كان من الملاحظ أن تلك «المزحة» كثيرًا ما تُطلق.

وفي لمحة مفاجئة من الغضب قال جْفَانْجِل:

- أخرِجوا هذه الأشياء مرة أخرى! لست في حاجة إلى عشائكم الأخير!

- لا أحب أن يكرر عليَّ أحدهم هذا الكلام! (قال الحارس)

كما أن القهوة هي مجرد قرف، والزبدة ما هي إلا مسلِيٌّ صناعي!

ومرة أخرى صار جْفَانْجِل وحده. رتَّبَ فراشه، سحب الملاءات ووضعها إلى جوار الباب، ورفع الهيكل إلى الحائط. ثم بدأ يغتسل.

كان لا يزال يفعل ذلك في الوقت الذي دخل عليه رجل يتبعه صبيَّان.

- وَفِّر عليك الغُسْل يا رجل! (قال الرجل مجلجلًا)

نحن الآن سنحلق لك ونصففك مقدِّمين خدمة من الدرجة الأولى! هيا! يا فتيان، أسرعا قليلًا، نحن متأخرون. (ومعتذرًا لجْفَانْجِل قال)

لقد عطَّلَنَا الرجلُ الذي سبقك كثيرًا. بعضهم لا يريد أن يتعقَّل ولا يريدون أن يفهموا أني لا أستطيع تغيير أي شيء. فأنا جلاد برلين!

مدَّ يده.

- الآن سترى أني لن أتلكأ ولن أُعذِّب. إن لم تصعِّب الأمر عليَّ، فلن أُصعبه عليك. وأقول دائمًا لصبياني، «يا فتية لو أن أحدهم لم يتصرَّف بعقل وظل يلقي بنفسه هنا وهناك صارخًا، فلتتصرَّفوا أيضًا بلا عقل. أمسكوه من أي مكان يمكنكم أن تمسكوه منه

حتى لو كنتم ستخرجون أحشاءه»! لكن مع العُقلاء مثلك نتعامل دائمًا برقَّة ورُقيّ!

وفيما هو يثرثر كانت مَكِنَة حلاقة تجول هنا وهناك في رأس جْفَانْجِل، وأسقطت شعر رأسه كله على أرضية الزنزانة. أما مساعد الجلاد فحضَّر صابونا و رغوة وحلق ذقن جْفَانْجِل.

- هكذا! (قال القاضي راضيًا)

سبع دقائق! لقد عوَّضْنا الوقت الضائع. بضعة عقلاء مثل هذا ونعود إلى مواعيدنا الدقيقة مثل مواعيد القطار. (وراجِيًا جْفَانْجِل)

كُنْ لطيفًا واكنس أشياءك بنفسك. لستَ مضطرا إلى هذا.. أتَفَهَّم، لكن وقتنا ضيق. المدير والمدعي سيحضران في أي لحظة. لا تُلْقِ الشعر في المرحاض، سألقي لك هنا جريدة؛ لفَّ الشَّعر فيها وضعه إلى جوار الباب. إنها خدمة صغيرة جانبية، أتفهم؟

- ماذا ستفعل إذًا بشعري؟ (سأل جْفَانْجِل بفضول)

- سأبيعه إلى صانع باروكات. ثمة حاجة مستمرة إلى الباروكات. ليس فقط من أجل الممثلين، لكنها أيضًا تُستخدم كما تعلم.. حسنٌ، إذًا أشكرك جزيلًا. هايْلْ هتلر!

مضى هؤلاء أيضًا، صبية مرحون، يمكن القول عنهم. يفهمون عملهم، لا يمكن لأحد أن يذبح خنازير براحة مثل تلك. لكن جْفَانْجِل قرر أن هؤلاء الصبية الخشنين الذين بلا قلبٍ أفضلُ من القس. بل إنه مدَّ يده مصافحًا الجلاد بدون تردد.

حقق جْفَانْجِل الآن أمنيات الجلاد في ما يخص نظافة الزنزانة. وساعتها فتح الباب ثانية. دخل رجل بدينٌ مصحوبًا ببضعة رجال يرتدون الزي العسكري. الرجل البدين له شارب أحمر ووجه سمين شاحب. إنه مدير السجن -كما اتَّضح على الفور- وأحد معارف جْفَانْجِل القدامى (المُدَّعي في المحاكمة الرئيسية)، ذلك الذي كان ينبح مثل كلب من فصيلة البِنْشَر.

أمسك رجلان من المرتدين الزي العسكري بجْفَانْجِل ووضعاه بخشونة على جدار الزنزانة حيث أجبراه على اتخاذ وضعية الوقوف. ثم وقَفَا إلى جواره.

- أوتُّو جْفَانْجِل. (صاح أحدهما)

- إذًا.. (نبح الكلب)

- أتذكَّر هذا الوجه! (قال لمدير السجن) لقد حكمتُ عليه بنفسي بالإعدام! (قال فخورًا) إنه صبي وقح تمامًا. كان يظن أنه ينال مني ومن المحكمة بوقاحته. لكننا نلنا منكَ يا فتى! (نبح في وجه جْفَانْجِل) أليس كذلك؟ لقد نلنا منك! كيف حالك الآن؟ لستَ وقحًا تمامًا أم ماذا؟

لكَزَ واحد من الرجال الواقفين إلى جواره جْفَانْجِل في جنبه:

- أَجِب! (همس آمرًا)

- هيَّا العقوني كلكم! (قال جْفَانْجِل متململًا)

- كيف؟ ماذا؟

تراقَصَ المدعي متوتِّرا من ساق إلى أخرى:

- أيها المدير، أطالب بـ...

- ماذا؟! (قال المدير)

اترك الناس سعداء! أنت ترى أنه رجل هادئ تمامًا! أليس صحيحًا؟ ألستَ كذلك؟

- بلى بالطبع! (أجاب جْفَانْجِل)

عليه أن يتركني راضيًا. فأنا بالفعل أتركه في هدوء.

- أنا أعترض! أنا أطالب... (صاح الكلب)

- ماذا إذًا؟ (قال المدير)

ماذا يمكن أن تطالب به الآن؟ ماذا يمكننا أن نفعل أكثر من أن نعدم الرجل؟ وهذا ما يعرفه هو جيِّدًا. إذًا هيًّا، فلتقرأ عليه الحكم!

وأخيرًا هدأ الكلب البِنْشَر، وفتح ملفًّا وبدأ في القراءة. كان يقرأ في عجالة وبطريقة غير واضحة، قافزًا على جمل، مرتبكًا، ثم أغلق فجأةً وقال:

- أنت تعلم أصلًا القرار!

لم يردَّ جْفَانْجِل.

- سُقِ الرجلَّ إلى الأسفل!

قال المدير ذو الشارب الأحمر، فأمسك كلا الحارسين بجْفَانْجِل من ذراعيه.

حرَّرَ نفسه.

فأمسكاه بقوة أكبر.

- دَعَا الرجل يمشي وحده! (أمرهم المدير)

لن يسبب لنا متاعب.

خرجوا إلى الممر. وقف هناك عدد من الناس يرتدون البدلات العسكرية، وآخرون في الزي المدني. وفجأةً تكون طابور، كان أُوتُّو جْفَانْجِل في مركزه. مشى الحراس في المقدمة، وبعدهم القس، الذي كان يرتدي عباءة بياقةٍ بيضاء، وكان يدعو بكلمات غير مفهومة. وراءه مشى جْفَانْجِل، ومعه سرب من المشرفين، لكن الطبيب القصير الذي يرتدي بدلة باهية اللون حافظ على السير الحثيث إلى جواره. خلفهما سار المدير والمدعي العام ومشى وراءهم مدنيُّون وعسكريون، حمل بعض المدنيين آلات تصوير.

وهكذا تحرك هذا القطار عبر الممر، الذي كان سيِّئ الإضاءة، فوق الدرجات الحديدية، الزلقة المغطاة بمشمع الأرضيات، عبر مبنى الموتى، وكلما مر على مكان بَدَا أنَّ تنهيدًا يتصاعد من الزنازين، وتأوُّهًا مكتومًا من أعماق الصدر. وفجأةً صاح صوت عال للغاية من إحدى الزنازين: «كن بخير يا رفيق!».

وبآليَّةٍ تمامًا أجاب جْفَانْجِل بصوت عال: «كن بخير يا رفيق!». وبعد لحظة خطر بباله كيف أنها كلمات متناقضة ولا تصلح أن تقال لميت.

والآن فتح باب، فخرجوا إلى الحوش فيما لا يزال الليل سادرًا خلف الأسوار. تلفَّت جْفَانْجِل بسرعة يمينًا ويسارًا، لم يفلت شيء من انتباهه. نظر إلى نوافذ الزنازين ورأى الوجوه المستديرة الشاحبة، الرفاق، الذين للتوِّ حكموا عليه بالإعدام لا يزالون على قيد الحياة. كلب من فصيلة شيفر كان يسير في مقابل الطابور وهو ينبح نباحًا

عاليًا، لكن أحد الحراس استدعاه بصفارة فتراجع مزمجرًا. طَقْطقَ الحصى أسفل الأقدام الكثيرة، بَدَا، كأن عليه أن يكون أصفر اللون في ضوء النهار، أما الآن في ضوء اللمبات الكهربية فلهُ لون أبيض يميل إلى الرمادي. وفوق السور ظهر ظلٌّ هيكل شجرة فقدت أوراقها. كان الهواء باردًا، رطبًا مشبَّعًا بذرات الصقيع. فكر جْفَانْجِل: «لن أتجمد من البرد خلال ربع ساعة. مهزلة!».

بحث لسانه عن الأنبوبة الزجاجية. لكن لا يزال الوقت مبكرًا...

تعجَّب من الوضوح الذي يرى به كل شيء ويسمع كل شيء، كل ما يدور حوله، حتى أدق التفاصيل، لدرجة أن كل شيء بدا له غير حقيقي. لقد حُكي له عن ذلك ذات مرة. كان راقدًا في زنزانته ويحلم. نعم من المستحيل تمامًا أنه هنا تغير جسمانيًا، وكلهم جميعًا، الذين دخلوا معه، بوجوههم اللا مكترثة، أو الجامدة، أو الطامعة، أو الحزينة، كانوا جميعًا جسمانيًا لا شيء. كان الحصى مثل حصى الأحلام، ووقع الأقدام، طقطقة الحجارة الصغيرة أسفل كعوب الأحذية الثقيلة.. كانت ضوضاء أحلام.

دخلوا عبر باب إلى غرفة مضاءة بقوة لدرجة أن جْفَانْجِل لم يَرَ شيئًا في البداية. ودفع به مرافقوه فجأةً إلى الأمام عند رجل الدين الراكع.

جاء الجلاد بصبيانه نحوه. مد له يده.

- حسنًا لا تؤاخذني! (قال)

- أجل، لكن علام؟ (أجاب جْفَانْجِل وسحب يده بآليَّة)

فيما الجلاد يخلع عن جْفَانْجِل جاكته ويقص ياقة قميصه. نظر جْفَانْجِل خلفه إلى مرافقيه. رأى في الضوء الباهر مجرد تاج من الوجوه البيضاء، التي تنظر كلها نحوه.

«لقد حلمتُ بهذا» فكَّر، وبدأ قلبه يخفق بقوة.

ومن مكان المشاهدين انسلَّ هيكل واقترب فتعرَّف جْفَانْجِل على الطبيب المتعاون في بدلته ذات اللون الرمادي الناصع.

- والآن؟ (سأل الطبيب مع ابتسامة منطفئة)

كيف حالنا؟

- هادئ دائمًا! (قال جْفَانْجِل، فيما تُكَبَّل يداه وراء ظهره)

يبدو أن ضربات قلبي تتسارع في هذه اللحظة، لكني أفترض أن هذا سيتوقَّف خلال الدقائق الخمس القادمة.

وابتسمَ.

- انتظِر، سأعطيك شيئًا! (قال الطبيب ووضع يده في جيبه)

- لا تتعِب نفسك أيها الدكتور... (أجاب جْفَانْجِل)

أنا معي ما يلزمني.

ولوهلة أظهر الأمبول ما بين اللسان والشفاه الرفيعة.

- حسن إذًا! (قال الطبيب وبدا عليه الارتباك)

أداروا جْفَانْجِل. الآن رأى أمامه الطاولة الطويلة مغطاة بطبقة ملساء، سوداء اللون، كأنها قماش من الشمع.

رأى سيورًا وأبازيم لكن قبل كل ذلك رأى المقصلة، السكين العريضة. بدت له معلقةً عاليًا جدًّا فوق الطاولة، عالية لدرجة

مخيفة. كانت تلتمع باللونين الفضي الرمادي، وبدت كأنها تنظر نحوه بخبث.

تنهَّد جْفَانْجِل خفيفًا.

وفجأةً وقف المدير إلى جواره وقال بضع كلمات للجلاد. نظر جْفَانْجِل لا مكترثًا نحو السكين. لم يكن يسمع إلا بنصف أذن:

«أسلِّم إليك -بوصفك جلاد برلين- هذا الأُوتُّو جْفَانْجِل، مَن عليك بواسطة المقصلة أن تنقله من الحياة إلى الموت، مثلما تقرَّرَ عبر الحكم الساري لمحكمة الشعب...».

جلجل الصوت عاليًا بشكل لا يُحتمل. وكان الضوء باهرًا للغاية...

«الآنَ» فكَّر جْفَانْجِل.. «الآن...».

لكنه لم يفعلها. فضولٌ معذِّب مريع يدغدغه...

«لأنتظر عدة دقائق أخرى» فكَّر.. «لا بد أن أعرف الوضع على هذه الطاولة...».

- هيا الآن أيها الفتى العجوز! (ذَكَّرَه الجلاد)

إياك أن تفتعل القصص. في دقيقتين ستكون قد تجاوزت كل شيء. بالمناسبة، هل تذكَّرت أمر الشعر؟

- وضعته إلى جوار الباب. (أجاب جْفَانْجِل)

وبعد لحظة استلقى جْفَانْجِل على الطاولة، شعر بهم يوثقون أقدامه. ومكواة فولاذية وُضعت على ظهره وضغطته إلى الطاولة...

فاحت رائحة الجير، والنشارة الرطبة، ومواد التعقيم... لكن قبل كل شيء انتشرت رائحة مُسكِرة منفرة مثل.. مثل ماذا...

«دماء..» فكَّر جْفَانْجِل.. «ثمة رائحة دم...».

سمع كيف همس الجلاد بصوت خافت «الآن!».

لكن مهما كان الصوت خافتًا فلا أحد يمكن أن يهمس لدرجة لا يسمعها جْفَانْجِل، ولقد سمع «الآنَ» هذه!

وسمع أيضًا صوت صرير...

«الآن!» فكَّر في نفسه وأرادت أسنانه أن تعض على الأنبوبة الأسطوانية...

لكنه شعر بالغثيان، وامتلأ فمه بالقيء فأسقط الأمبول معه...

«يا إلهي!» فكَّر.. «لقد انتظرتُ أكثر مما ينبغي...».

ارتفع صوت الصرير وتحول إلى أزيز، والأزيز إلى صرخة رنانة، وصلت إلى النجوم، وصلت إلى عرش الرب...

ثم طرقعت المقصلة عبر عظام الرقبة.

وسقط رأس جْفَانْجِل في السلة.

ولوهلة رقدَ ساكنًا تمامًا، كأن هذا الجسد الذي فقد رأسه أصيب بالذهول من الحيلة التي تعرض لها. ثم تحرك الجسد وأخذ يتماوج بين الأحزمة والوِثاق، ألقى الفِتية المساعدون أنفسهم عليه وحاولوا توقيفه بضغطه إلى الأسفل.

انتفخت الأوردة في يدي الميت وظلت تنتفخ إلى أن انهارت.

ثم سُمع صوت الدم، الدم النازف المنهمر.

وبعد ثلاث دقائق من سقوط المقصلة أعلن الطبيب الشاحب بصوت مرتجف موت المحكوم عليه بالإعدام.

ثم أزاحوا الجثة.

لم يعد أُوتُّو جْفَانْجِل بعدَ الآن.

71

وداع آنَّا جفَانْجِل

توالت الشهور، وتبدلت فصول السنة، ولا تزال السيدة آنَّا جْفَانْجِل تجلس في زنزانتها تنتظر رؤية أُوتُّو جْفَانْجِل.

أحيانًا تقول المشرفة التي أصبحت آنَّا الآن سجينتها المفضلة:

- أعتقد يا سيدة جْفَانْجِل، أنهم نَسُوك تمامًا!

- أجل. (تجيب السجينة 76 بودٍّ)

يبدو هذا. أنا وزوجي. ما أخبار أُوتُّو؟

- بخير! (تجيب المشرفة في عجالة)

- يبعث إليك بالتحية.

لقد اتفقوا جميعًا على ألَّا يخبروا السيدة الطيبة الدؤوبة بموت زوجها. ويوصلون لها السلام دائمًا.

كانت السماء رحيمة هذه المرة بالسيدة آنَّا، فلا شيء دمَّر لها إيمانها بحياة أُوتُّو جْفَانْجِل، لا ثرثرة زائدة، أو قس يشعر بالواجب.

تجلس تقريبًا اليوم بكامله إلى مَكِنَة الغزل اليدوية وتحيك الجوارب، جوارب للجنود بالخارج، تحيك كل يوم، وكل مساء.

وأحيانًا تغني بصوت خافت في أثناء ذلك.

كانت مقتنعة تمامًا أنها وأُوتُّو لن يرى بعضهما بعضًا فحسب، لا، بل بأنها سيعيشان طويلًا معًا. إما أنهما نُسِيَا فعلًا، و إما أنهما نالا العفو سرًّا. لا يمكن أن يطول الوقت قبل أن يكونا حُرَّيْنِ.

فعلى الرغم من قلة ما يتحدَّث عنه المشرفات، لاحظت آنَّا جْفَانْجِل أن الوضع سيئ في الخارج وأن أخبار الحرب تسوء من أسبوع إلى آخر. كانت تلاحظ ذلك على الطعام الذي تسوء حاله، وعلى نقص خامات العمل، والجزء المكسور من مَكِنَة الغزل، وقطع الغيار التي يستغرق استبدالها أسابيع، كانت تعرف أن كل شيء يصبح نادرًا. لكن حينما يسوء الوضع في الحرب فهذا خبر جيد لوضع آل جْفَانْجِل. إذ سرعان ما يتحرران.

وهكذا تجلس تغزل الجوارب، تغزل أحلامها، وآمالها التي لن تتحقَّق أبدًا، آمالها التي لم تمتلكها من قبل. تتخيل أُوتُّو مختلفًا تمامًا، غير الذي عاشت حياتها إلى جواره، مرحًا، سعيدًا، رقيقًا. لقد صارت تقريبًا فتاة صغيرة لا تزال الحياة تعدها بالربيع. ألا تحلم أحيانًا بأن يكون لها مزيد من الأطفال؟ أَخْ! أطفال...

منذ أن دمَّرت آنَّا جْفَانْجِل سيانيد البوتاسيوم، منذ أن قررت بعد صراع عصيب أن تتحمَّل إلى أن ترى أُوتُّو ثانية وليحدث لها ما يحدث، منذ تلك اللحظة صارت حرَّة وصغيرة ومرحة. لقد تجاوزت ذاتها.

والآن هي حرَّة. بلا رعب وحرَّة.

حتى في الليالي الصعبة التي نكبت بها برلين بسبب الحرب ظلت كذلك؛ عندما تعوي السارينات، وتخترق أسراب الطائرات المدينة وتسقط القنابل، وتنفجر الألغام وتشتعل ألسنة اللهب في كل مكان.

حتى في تلك الليالي تبقى السجينات في زنازينهن. لا يجرؤ أحد على سوقهنَّ إلى المخابئ خوفًا من التمرد، فيُتركن يصرخن في زنازينهن، وينتحبن ويرجين، ويتوسلن، ويجن جنونهن من الخوف، لكن تظل الممرات خاوية، لا حراس واقفون، ولا يد رحيمة تفتح أبواب الزنزانة لأن الحراس قابعون في المخابئ.

تبقى آنَّا جْفَانْجِل بلا خوف. تظلُّ مَكِنَتُها الصغيرة تتكتك وتدقُّ، تصفُّ الغُرزة فوق الغرزة. إذ تستغل هذه الساعات -التي لا يمكنها فيها النوم- في الغزل. وفي أثناء الغزل تحلم. تحلم برؤية أُوتُّو من جديد وفي حلم كهذا فلينفجر اللغم مدمِّرًا الآذان، ويُحِلْ هذا الجزء من السجن إلى رماد وحطام.

لم يعد للسيدة آنَّا جْفَانْجِل وقت كي تستيقظ من حلمها بلقاء أُوتُّو. فقد صارت بالفعل عنده. على كل حال لقد صارت في المكان الذي صار إليه. أيًا ما كان ذلك المكان.

72

الفتى

لكننا لا نريد أن نختم هذا الكتاب بالموت، لأنه منذور للحياة، للحياة التي دائمًا ما تنتصر على العار، والدموع، والشقاء، والموت.

بداية صيف عام 1946. فتى، بل رجل صغير، أتى إلى حوش مستعمرة على الحدود.

تلتقيه سيدة مسنة.

- يا كونو.. (تسأله)

ما الخبر اليوم؟

- سأذهب إلى المدينة.. (يجيب الشاب)

عليّ أن أجلب الدرَّاس* الجديد.

- حسنٌ. سأكتب لك ما يمكن أن تحضره لي، إن تمكنتَ من ذلك!

- إن وجدته متوفِّرًا سأحضره يا أماه.. (يصيح ضاحكًا)

تعلمين هذا!

---

* آلة زراعية. (المترجمة)

ينظر بعضهما إلى بعض ضاحكين. ثم تذهب إلى بيتها الصغير، حيث زوجها، المعلم العجوز، الذي تقاعد من مدة، ولا يزال يعلِّم أطفاله، مثل معلم في ريعان الشباب.

يجرُّ الفتى الحصان تُوني -فَخْرَهُم الكبيرَ- من السقيفة.

وبعد نصف ساعة يكون كونو-ديتر بُورْكْهاوْزِن على الطريق إلى المدينة. لكنَّ اسمه لم يعد بُورْكْهاوْزِن، رسميًّا ووَفقًا لكل الأوراق تبنَّاه الزوجان كِينْشِيبَر لمَّا تبيَّن أنَّ لا كارْلْ ولا مَاكْس كْلُوْجِه سيرجعان من الحرب. كما حُذِفَ ديتر من الاسم: «كونو كِينْشِيبَر» وقعُهَا ممتاز وكافية تمامًا.

يصفِر كونو فرحًا فيما يسير توني بني اللون متمهلًا على الطريق بين الحقول متمتعًا بالشمس.

هل عليه أن يسمح لنفسه ببعض الوقت؟ ففي الظهيرة يعودان دائمًا.

ينظر كونو إلى الحقول يمينًا ويسارًا، متفحِّصًا، يقيِّمها كمتخصص ويقيِّم مستوى البذور. لقد تعلم كثيرًا هنا في الريف، ونسي -ولله الحمد- كثيرًا أيضًا.

الحوش الخلفي مع السيدة أُوتّي؟ كلا، لا يفكِّر في هذا ثانية أبدًا، ولا يفكِّر في كونو-ديتر اللص ذي الأعوام الثلاثة عشر، كلا، كل ذلك لم يعد له وجود. لكن حتى الأحلام بالعربات تلاشت، وبشكل مؤقت اكتفى الفتى بقيادة الجرار الزراعي وقت الحرث رغم حداثة سنه.

أجل لقد ترتب الأمر بشكل جميل. الأب، الأم، وهو. لم يعودوا مرتبطين بالأقارب، إذ حصلوا في العام الماضي على أرض تخصُّهم، وأصبحوا مستقلين، وعندهم تُوني، وبقرة، وخنزير، وخروفان، وسبع دجاجات. يستطيع كونو الجز والحرث، وتعلم من أبيه البَذْر ومن أمه قطع الحشائش الضارة. تعطيه الحياة أسباب السعادة، سيقود أرضهم إلى الازدهار، هذا ما ينويه.

يصفِر.

على جانب الطريق يقف هيكلٌ بائس طويل، ببدلة مقطعة، ووجه شارد. ليس واحدًا من اللاجئين البائسين، إنه ضائع، متشرد، حقير. ينعق بصوت مخمور:

- ها، أنت يا فتى، خذني معك إلى المدينة!

جفل كونو كِينْشِيبَر بمجرد أن سمع ذلك الصوت. وإذ به يريد أن يعدو بتُوني الذي يسير على مهل، لكن فات أوان ذلك. وهكذا يقول برأس منكّس:

- اِجلس.. كلا، ليس هنا إلى جواري، اِجلس في الخلف!

- لِمَ ليس إلى جوارك؟ (نعق الرجل متحديا)

لستُ لائقًا بالنسبة إليكَ؟

- رأس خروف! (صاح كونو بخشونة اكتسبها)

لأنك سترتاح أكثر إن جلست في الخلف على القش!

استسلم الرجل متذمِرًا، وزحف إلى خلفية العربة، وبدأ تُوني من تلقاء نفسه في تسريع إيقاع سيره.

تجاوز كونو ذعره الأوليّ الذي اعتراه حين رأى أباه، كلا، إنه فقط بُورْكْهاوْزِن من الشارع، كان عليه أن يحمله معه، هو بالأخص! لكن ربما لم تكن هذه مصادفة على الإطلاق، ربما كان بُورْكْهاوْزِن يتجسَّس عليه، ويعرف تمامًا من الذي يقود العربة.

يختلس كونو النظر إلى الرجل الذي تمدَّد فعلًا فوق القش ويقول الآن- كأنَّه شعر بنظرة الفتى:

- هل يمكنك أن تخبرني أين يسكن هنا فتى من برلين في سن السادسة عشرة تقريبًا؟ المفترض أنه يسكن هنا في الجوار...
- هنا في الجوار ثمة كُثُر من برلين! (أجاب كونو)
- لقد لاحظتُ ذلك! لكن الصبي الذي أعنيه، هو حالة خاصَّة؛ لم يكن ضِمن من أجْلَوْهُم وقتذاك في أثناء الحرب، لقد هرب من أبويه! هل سمعت عن فتى كهذا؟
- كلا. (كذب كونو. وبعد فترة صمت سأل)

ألا تعرف ما اسم الفتى؟
- اسمه بُورْكْهاوْزِن...
- ليس ثمة بُورْكْهاوْزِن في هذه الناحية، أعرف هذا جيِّدًا.
- هذا غريب!

قال الرجل، ومثَّل أن عليه أن يكتم الضحك، ثم يَلكُم الفتى بين كتفيه بقوة:

- كنت لأقسم أن بُورْكْهاوْزِن يجلس هنا في العربة!
- أنت مخطئ!

أجاب كونو، والآن، وبما أن الأمر مؤكَّد، خفق قلبه بهدوء وبرودة:

- أنا أدعى كِينْشِيبَر، كونو كِينْشِيبَر...

- حقًّا؟ هكذا! (مثَّل الرجل الدهشة)

الذي أبحث عنه اسمه أيضًا كونو، كونو ـ ديتر...

- اسمي كونو كِينْشِيبَر فقط! (قال الفتى)

ثم إن كنت أعرف أن بُورْكْهاوْزِن يجلس في عربتي، لأخذتُ السوط وعذبت الرجل إلى أن يسقط منها!

- كلا، أيعقل؟! هل ثمة شيء كهذا؟ (تعجب المتشرد)

فتًى يضرب أباه ليُسقطه من العربة؟

- ليتني أُسقط بُورْكْهاوْزِن تعذيبًا! (أكمل كونو كِينْشِيبَر بلا رحمة)

وإلا لحملته إلى الشرطة بمجرد أن أصل إلى المدينة وأبلغتهم أن «احترسوا؛ في هذه الناحية رجل لا يعرف شيئًا سوى الكسل، والسرقة وإلحاق الضرر بالآخرين، إنه مجرم تبحثون عنه!».

- لن تفعل ذلك يا كونو ـ ديتر! (صاح بُورْكْهاوْزِن وقد اعتراه الذعر فعلًا هذه المرة)

لن تضع السكين على رقبتي! بعد أن خرجتُ أخيرًا من السجن وتحسنت أحوالي، حقًّا؟ لقد حصلت على شهادة من القس بأنني قد تحسنت فعلًا، ولا أقترف شيئًا ممنوعًا، أقسم لك، لكني فكرت، أنه ما دمتَ تعيش حياة طيبة، ربما تسمح لأبيك أن يرتاح قليلًا في كنفك! فحالي سيئة يا كونو ـ ديتر، صدري مثقل وينبغي أن أرتاح قليلًا...

- راحتك القليلة، أعرفها! (صاح الفتى ساخطًا)

أعرف أنني لو سمحت لك أن ترتاح يومًا عندنا، فلن نقدر على إخراجك بعده، وأنا سأعيش في قلق وتعاسة ومؤامرات. كلا. ترجَّل الآن عن عربتي، وإلا أدرت فيك سوطي حقًّا!

أوقف الفتى العربة وقفز منها. الآن وقف ممسكًا بالسوط في قبضة يده، مستعدًّا لكل شيء من أجل أن يدافع عن السلام الذي وجده في بيته الجديد.

لكن غراب البَينِ بُورْكهاوْزِن نعق متشكيًا:

- لن تفعل ذلك! لن تضرب أباك!
- أنت لست أبي على الإطلاق! لطالما قلتَ لي ذلك في السابق!
- كانت مزحة، كونو-دينر، أتفهم؟ مجرد مزحة!
- ليس لي أب! (صرخ الفتى، مسعورًا من الغضب)

عندي أم، وسأبدأ حياتي من جديد. وحين يأتي أناس من حياتي السابقة ويقولون كذا وكذا، فسأضربهم وأظل أضربهم إلى أن يدعوني وشأني! لن أدعك تفسد حياتي!

وقف مهدِّدًا رافعًا السوط لدرجة أن العجوز خاف فعلًا.

زحف من العربة ووقف في الشارع جبانًا، وعلامات الخوف بادية على وجهه.

وجبانًا هدَّدَ:

- سألحق بك أضرارا كثيرة...
- هذا ما كنت أنتظره! (صاح كونو كِينْشِيبَر)

مكتبة ياسمين

telegram @yasmeenbook

بعد التسوُّل يأتي التهديد، تلك حالك دائمًا! لكني أقول لك، بل أقسم لك، من هنا سأذهب فورًا إلى الشرطة وأحرِّر بلاغًا بأنك هدَّدتني بإضرام النار في منزلنا...

- لم أقل هذا قطُّ يا كونو-ديتر!

- لكنك فكَّرت فيه، لقد رأيت ذلك في عينيك! هذا هو طريقك! ولاحِظ أنه خلال ساعة سيكون رجال الشرطة وراءك! فلتهرب بسرعة إذًا!

ظلَّ كونو كِينْشِيبَر واقفًا في الشارع لمدة طويلة إلى أن اختفى الهيكل بين حقول الذرة. ثم ربَّت على رقبة تُوني قائلًا:

- ماذا يا تُوني؟ هل ندع واحدًا مثل هذا يفسد علينا حياتنا؟ لقد بدأنا من جديد. منذ اللحظة التي غمستني فيها أمي في الماء وأزالت بيديها كل القذارة عن جسدي، أقسمت لنفسي: من الآن فصاعدًا سأظل نظيفًا! وسأبرُّ بهذا القسم!

في الأيام التالية تعجَّبت الأم كِينْشِيبَرفي بعض الأحيان أن الفتى ليس في الحوش. وأنه صار أول من يذهب لبدء العمل في الحقل، والآن لا يريد أن يصحب البقرة إلى المرعى. لكنها لم تقل شيئًا، والفتى لم يقل شيئًا، وعندما مرَّت الأيام واستوى الصيف على عُروشِه وبدأ حصاد الشيلم* خرج الفتى بمنجله...

لأن ما يزرعه الإنسان يحصده، والفتى قد زرع بذورًا طيبة.

---

* نبات يتبع جنس الشيلم من الفصيلة القبئية. تستخدم حبوبه لإنتاج الطحين (خبز الشيلم) وبعض أنواع المشروبات الكحولية (بيرة الشيلم، وويسكي الشيلم وفودكا الشيلم) بالإضافة إلى استخدامه علفًا للحيوانات. (المترجمة)

المحتويات

عن هذا الكتاب 5

تصدير 9

الجزء الأول: آل جْفَانْجِل 11

نبأ سيِّئ يصل في البريد 13

الكلام الذي يحمله بَالْدُور بِيزْزِيكِه في جعبته 24

رجل يُدعى بُورْكْهاوْزِن 30

تْرُودِل بَاوْمَان تُفشي سرًّا 46

عودة إِيْنُوْ كْلُوْجِه 55

أُوتُّو جْفَانْجِل يتخلى عن منصبه 76

اقتحامُ لَيلِيٍّ 90

مفاجآت صغيرة 102

حديثٌ ليليٌّ في شقة آل جْفَانْجِل 114

ما حدث صباح الأربعاء 119

ما زلنا يوم الأربعاء 139

إِيْنُوْ وإيمِيلْ بعدَ الصدمة 147

رقصة النَّصر في حانة الإيليزيوم 157

السبت: اضطراب لدى آل جْفَانْجِل 171

إِيْنُوْ كْلُوْجِه يعمل مجدَّدًا 181

نهاية السيدة رُوْزِنْتال 189

كتابة البطاقة الأولى 218

لقد وضعت البطاقة الأولى 236

الجزء الثاني: الجيستابو 245
طريق البطاقات 247
بعد ذلك بستة أشهر: آل جْفَانْجِل 267
بعد مرور ستة أشهر 276
بعد ذلك بستة أشهر: إيْنُوْ كْلُوْجِه 287
التحقيق 311
المفتش إشيرِش 331
قرار السيدة هِيْتِه 350
الخوف والرهبة 363
إيمِيلْ بُورْكْهاوْزِن يصير نافعًا 383
ابتزاز طفيف 401
طرد إيْنُوْ 415
إيمِيلْ بُورْكْهاوْزِن وابنه 424
زيارة إلى السيدة آنَّا شُونْلايْن 439
إشيرِش وكْلُوْجِه يذهبان للنزهة 453

الجزء الثالث: تنقلب اللُّعبة على آل جْفَانْجِل 473
تْرُودِل هيرْجزِل 475
كارْلْ هيرْجزِل وجْرِيجُولَايْت 483
الإنذار الأول 492
سقوط المفتش إشيرِش 504
الإنذار الثاني 518
الإنذار الثالث 525
السيد المستشار الجنائي تْسُوتْ 536

أُوتُّو جْفَانْجِل يفقد ثقته 545
بِيرْزِيكِه رفيق الحزب القديم 551
بُورْكْهاوْزِن يُضرَب للمرة الثالثة 561
مشهد عارض 568
الإطاحة بالمستشار الجنائي تْسُوتْ 587
المفتش إشيرِش حُرٌّ طليقٌ من جديد 593
يوم الاثنين وعواقبه الوخيمة 599
الاثنين، يوم المفتش إشيرِش 612
القبض على آنَّا جْفَانْجِل 617
الحوار مع أُوتُّو جْفَانْجِل 629
موت إشيرِش 641

الجزء الرابع: النهاية 647
آنَّا جْفَانْجِل في الاستجواب 649
آل هيرْجزِل المكروبون 661
حِمْلُ أُوتُّو جْفَانْجِل الأثقلُ وطأةً 678
آنَّا جْفَانْجِل وتْرُودِل هيرْجزِل 684
بَالْدُوْر بِيرْزِيكِه في زيارة 695
زميل أُوتُّو جْفَانْجِل الجديد 709
الحياة في الزنزانة 721
القسُّ الصالح 729
تْرُودِل هيرْجزِل، المولودة بَاوْمَان 739
المحاكمة الرئيسية: لقاء 751
المحاكمة الرئيسية ورئيسها فَايْسْلِر 760

المحاكمة الرئيسية: المدعي العام بِنشَر 770
المحاكمة الرئيسية: الشاهد أُولرِشْ هِفْكِه 777
المحاكمة الرئيسية: المحامون 784
المحاكمة الرئيسية: الحُكم 792
مبنى المحكومين بالإعدام 797
إِلتماسات العفو 807
قرار آنَّا جْفَانْجِل الأصعب 816
حان الوقت يا جْفَانْجِل 831
الطريق الأخير 838
وداع آنَّا جْفَانْجِل 850
الفتى 853

وحيدًا يموت الإنسان

«واحـدة مـن أعظـم الروايـات التـي كُتِبَـت عـن الحـرب العالميـة الثانيـة. اختبر فالادا جحيم النازيـة بنفسـه، لذلك كل كلمـة صادقة تمامًا. رواية لا تُفوّت».

آلان فورست

«وصفهـا "بريمـو ليفـي" بأنهـا: أعظـم كتـاب كُتـب عـن المقـاومة الألمانيـة ضد النازيـين. الحقيقـة، هـذا وصـف متواضـع. إنهـا رواية قوية، وكثيفة، تمسّك وكأنها مشحونة بالكهرباء».

مينيا بوليس ستار تريبيون

«تحمـل وحيدًا يمـوت الإنسـان ذات التوتر الـذي نقابلـه في روايات جـون لـو كاريـه، وتقـدم صـورة مؤلمـة ومرعبـة عـن الشـكوك التي خيّمت على الحياة اليومية في ألمانيا خلال الحرب".

نيويوركر

«واحـدة مـن أكـثر الأعـمال الأدبيـة أصالـة عـن الحيـاة خـلال كابوس النازية الطويل».

نيويورك أوبزرفر

«إن صـدور هـذه الروايـة لهـو حـدث أدبي بـارز، يقـدم رؤى ثاقبـة لرجـل مضطـرب في زمـن مضطـرب، بتفاصيـل وفهـم يفـوق مـا قدمـه معظـم مؤرخـي تلـك الحقبـة. وكأنـك برفقـة روح حكيمـة، جـادة، تمسـك بذراعـك وتهمـس في أذنـك: هكـذا كانـت الأمـور. هذا ما حدث».

نيويورك تايمز بوك ريفيو

telegram @yasmeenbook

9 781998 800315

مكتبة ياسمين

منشورات حياة